موسوعة

تاريخ أوروبا العام

بيار غريمال
جاك بيار ميوت
مارسيل باكو
رنيه رانال



1 أوروبا

من العصور القديمة وحتى بداية القرن الرابع عشر

منشورات عويدات . بيروت . باريس



أوروبا

1

من العصور القديمة
وحتى بداية القرن الرابع عشر



موسوعة

تاريخ أوروبا العام

إشراف : جورج ليفه وورولان موسنييه

أوروبا

من العصور القديمة وحتى بداية القرن الرابع عشر

1

تأليف

بيار غريمال من جامعة باريس الرابعة ـ عضو في أكاديمية التسجيلات والفنون الجميلة

جاك بيار مِيّوت مدير قسم ما قبل التاريخ في فرانش ـ كونتيّه (البيزانسون)

مارسيل پاكو من جامعة ليون الثانية

رنيه راينال من جامعة لويس ـ باستور ـ ستراسبورغ

تعريب

أنطوان إ. الهاشم



عويدات للنشر والطباعة

ناشرون بامتياز منذ 1957

بيروت ـ لبنان ـ ص.ب. 628 ـ تلفاكس 305961 1 00961 ـ تلفون 616033 3 00961

E-mail: editionoueidat@hotmail.com - Website: www.editionsoueidat.com

ISBN 978-9953-28-1667

رقم التسجيل في الترقيم العالمي ISBN 978-9953-28

الطبعة 2012

الفكرة العامة للكتاب

لقد نهضنا بكتابة هذا التاريخ العام لأوروبا ، بدءًا بعصور ما قبل التاريخ حتى أيامنا هذه، هادفين بذلك إلى الإسهام في تحقيق الوحدة الأوروبية ؛ إذ إن للمؤرخين دوراً يقومون به في هذا البناء ، دوراً خفيّاً متواضعاً ولكنه ضروري . إن التاريخ لا يقبع في غياهب الماضي وليس هو تحفة أثرية يبحث عنها تجار العاديات . إنه يأخذ أصوله ومنطلقاته من الإنسان يتعقّبه في مصائره حتى يصل معه إلى الحاضر الذي يشارك في تفسيره ويجهد لاستخلاص رؤى مستقبلية . ليس « التخلي عن الماضي » سوى وهم من الأوهام الرومنسية ، أو خرافة كبيرة . إن أناساً يدّعون أنهم لا يعرفون إلا الحاضر ولا يعلمون إلا للمستقبل، فبئس ما يفعلون لهذا وذاك . فإذا أردنا تناسي الماضي أو حذفه أو شطبه فإنه يستمر في أعماق كلٍّ منا وفي تصرفاته التي تصدر عنه ، وينبعث في المؤسسات التي تنشأ عن هذه التصرفات . إن الرغبة في تناسي الماضي هي أفضل وسيلة لإحيائه على أسوأ ما يكون . إن الحاضر مثقل بالماضي الذي يجب علينا أن نعيَه وعياً تاماً لتفادي العقبات التي تعترضنا ولاستخدام العناصر الملائمة التي يقدِّمها لبناء المستقبل .

إن هدف المؤلفين هو التوجه إلى كل الأوروبيين وكل أصحاب النوايا الطيبة ، والرغبة في إعطاء تصويب واضح وحيّ للنتائج التي توصل إليها المؤرخون وتسجيل ذلك في كتاب . كما أن غايتهم البحث ، في كل عصر من عصور التاريخ ، عما تعنيه أوروبا للمعاصرين وما كانت عليه ، ويقومون ، انطلاقاً من هنا ، بعمل استكشافي وعلمي متخذين موقفاً من تلك المسائل المتناقضة ، مغامرين ، غير مترددين في المجالات البكر . ومحاولين ، أخيراً ، إبراز الإرث المتواتر الذي تكونت منه أوروبا خلال العصور ، ما اندثر منه وما لا يزال قائماً وما من شأنه أن

يسمح ، بلا شك ، بتكوين نظرة شاملة عن أوروبا المستقبل ، متجاوزين بذلك مهمة التعليم والعلم للدخول في بناء أوروبا ، مثيرين الروح الأوروبية ، عارضين لظروفها الموحدة ولخصائصها .

وقد استدعى هذا الهدف تصميماً تاريخياً منطلقاً منذ فجر التاريخ متتبعاً سير الأزمنة بحثاً عن أوروبا . إن مفهوم أوروبا يعني أنه وجدت حضارة تستحق أن تدعى حضارة أوروبية تمثلت حضارات عديدة عملت على إعطاء خصائصها وعلاماتها الفارقة وطابعها المميز لأعظم حضارة أوروبية .

تشتمل كل حضارة على نظام من القيم أي ما يعتبره صانعو تلك الحضارة حقاً وجمالاً وخيراً . وبالتالي ما يرغبون فيه وما يتمنونه . تُسْتَشف هذه القيم من تصرفات الناس ومن طرق تعبيرهم ؛ وهي تكشف ، إلى حد كبير ، عن مواقفهم وأدوارهم مدى الحياة . وتنطوي كل حضارة ، من ناحية أخرى ، على نظام من البنى تتلاءم كثيراً أم قليلاً مع نظام القيم . نقول قليلاً أم كثيراً لأن تحقيق كل نظام من أنظمة القيم يصطدم ، من جهة، بمقاومة الأشياء ، ومن جهة أخرى ، بالقيم المعاكسة داخل الحضارة المعنية .

وقد حاولنا توجيه تاريخ أوروبا هذا في اتجاهات ثلاثة : القيمة المعطاة للعنصر الانساني ، القيمة المعطاة للزمن ثم القيمة المعطاة للصفة الكلية .

فيما يخص العنصر الانساني لقد بحثنا في القيمة الخاصة بالفرد وبمبادرته وبحرية العمل وبحسّه النقدي وبمسؤوليته الشخصية . فالفرد هو كائن اجتماعي يشارك في حياة الجماعة ، وقد بحثنا في القيمة الممنوحة لهذه الجماعة ولدور الفرد فيها : فصائل ، رتب ، طوائف أو طبقات ، هيئات أو مجامع ، جمعيات ونقابات ، تجمعات مناطقية ، كالقرى والمدن والإقطاعات والأقاليم والدول ، تبعاً لنماذجها المختلفة وبناها المتنوعة ؛ ثم الوضع القانوني والوضع الفعلي للفرد في هذه البنى الجماعية داخل المجتمع ، ومفاهيم الوظيفة الاجتماعية والخدمة العامة والتراتبية والنفوذ والقدرة والتمثيل ؛ وكذلك تحديد القانون والحق والعدالة ودورها في تكوين الضمير الأوروبي .

وقد أدت القيمة الممنوحة للزمن إلى طرح مسائل إيقاع الوجود والتقويم وقيمة

الساعة وفترات الجهد والتكفير والمتعة . وأوصلت هذه الاعتبارات إلى مفهوم الوجود وقدر الانسان ، إلى قيمة نشاطه ودوامه ، إلى أهمية فاعليته وإلى موقفه من الحياة والولادة والزواج والموت . هل هناك وقت خاص بكل من الراهب والموظف والفلاح والتاجر والحرفي والمقاتل ورجل الفكر والمدني والعامل ورب العمل وبالعاطل عن العمل ؟ ما هو الدور الذي يلعبه الزمن في حياة القانون وفي مفاهيم العرف وإكتساب الحق بفعل مرور الزمن أو إسقاط هذا الحق ؟ أي علاقة لمفهوم الزمن بمفهوم الشجاعة والصدفة ؟ بمفهوم الخلود ؟

أما فيما يخص معنى الصفة الكلية ، فلقد عملنا على تحديد المسافة والمساحة وتحليلهما ، وكذلك عنصر الأرض في المؤسسات الجماعية المجتمعية ؛ من ذلك على سبيل المثال : الإقطاعة والدولة والدائرة الإدارية ، ثم عناصر الانتاج وتيارات المقايضة من تحركات المادة إلى تحركات الانسان ، إلى كل أشكال الاتصال والكتب والصيغ والأقوال والأفكار ومفاهيم الحرب والسلم : وجهدنا ، ضمن هذا المنظور ، في تحليل حلم الامبراطورية ، والمفهوم المتناقض للدول السيدة ومفهوم المسيحية ومفهوم الغرب والدعوة إلى رسالة تبشيرية وإلى نشر ثقافة فكرية وأخلاقية ، والقانون عبر لعبة الحدود . وكذلك سعينا إلى تحليل الإتجاه نحو العقلانية باستخلاص المبادىء العامة والمناهج التجريبية للأعمال المؤسسة على تعميم الخبرات المعيوشة في كل المجالات ، من دينية وفلسفية وسياسية وقضائية وأدبية وفنية وعلمية . وكذلك معنى التوازن والميل إلى التجربة والمغامرة والفضولية والنزوع إلى ما هو مجلوب والاقتناع والرغبة في لعب دور قيادي كسائر الشعوب والتركيز على الفكرة الأوروبية والممتلكات الاستعمارية والعالمية . وقد يكون لكل ذلك صلة بالكوني والشمولي واللامتناهي .

وقد استعان مديرا المشروع بأحد عشر مؤرخاً لتنفيذ هذا المخطط ولقد استوعب المسهمون هذا المخطط ووافقوا عليه . ولكن المديرَين تركا لهم كامل الحرية مفضلين خطر التناقض على كبت الشخصية وخنقها . وفي الواقع أن التأريخ الحالي لكل مرحلة زمنية لا يسمح بإعطاء جواب على كل المسائل المطروحة . ثم إن كلا من المتعاونين كان تَبَعاً لمفاهيمه الشخصية يرى ويصمم طريقة تحقيق هذا المخطط وكان يعيشه . ومن قناعات المديرْين أن من واجبهما احترام هاتين الحركتين

والدفق الحيوية . فقد أبديا الآراء واقترحا تعديلات ملاحق لكنهما في النهاية اقتنعا بالتفسيرات التي أعطاها كل مؤلف للمرحلة التاريخية التي يعالجها . وربما كان هذا الإحترام الطبيعي لحرية كل فرد في تحقيق مهمة عامة ، ارتضاها بملء حريته ، هو أحد مظاهر الروح الأوروبية .

يقسم هذا العمل إلى ثلاثة مجلدات . يعالج الأول أوروبا ما قبل التاريخ حتى بداية القرن الرابع عشر ، أسندت كتابته إلى الجغرافي رنيه راينال الاستاذ في جامعة لويس پاستور ، من ستراسبورغ ، وإلى المؤرخ المتخصص بفترة ما قبل التاريخ ج. پ مِيلوت ،مديرقسم التاريخ القديم في فرانش كونتيه ، في بيزنسون ، وإلى خبير الآثار پيار غريمال ، استاذ اللغة اللاتينية والأدب اللاتيني في جامعة باريس ـ السوربون (باريس 4) وإلى مؤرخ القرون الوسطى مارسيل پاكو الاستاذ في جامعة ليون 2 .

ويؤرخ المجلد الثاني لأوروبا منذ القرن الرابع عشر حتى نهاية القرن الثامن عشر. وحرر القرنين الأخيرين من العصر الوسيط المؤرخان القروسطيان فرنسيس راپ الأستاذ في جامعة ستراسبورغ 2 وفيليپ كونتامين الأستاذ في جامعة باريس العاشرة (نانتير) . والقرون الثلاثة من العصر الحديث بالنسبة إلى المؤرخين الفرنسيين (بداية التاريخ الحديث بالنسبة للمؤرخين الانكلوساكسونيين) التي قطعت عند منتصف القرن السابع عشر ، صنفها ، على التوالي ، المؤرخون المتأخرون: جان بيرونجيه، الأستاذ في جامعة رين، وإيف دوران، الأستاذ في جامعة نانت ومدير أكاديمية روان .

أما المجلد الثالث فيتحدث عن أوروبا منذ بداية الثورة الفرنسية حتى أيامنا . وقد اضطلع بهذا العمل ثلاثة مؤرخين : رولان ماركس الأستاذ في جامعة ستراسبورغ الثانية ، للفترة الواقعة بين 1789 و 1848 ، وريمون پْوادِڤان الأستاذ في جامعة ميتز ، كتب مرحلة 1848 ـ 1914 ؛ وفرنسوا ج. درايفوس ، الأستاذ في جامعة ستراسبورغ الثالثة ومدير مؤسسة الدروس السياسية في ستراسبورغ أرّخ للفترة الواقعة بين 1868 وأيامنا هذه .

وتقاسم مديرا المشروع كتابة الخلاصة ، وقد عرض العميد جورج ليڤيه

المؤسسات الحالية لأوروبا وحاول الأستاذ رولان موسْنْييه أن يستخلص الثوابت والتطلعات الأوروبية .

جورج ليڤيه

عميد شرف لكلية الآداب
والعلوم الإنسانية في ستراسبورغ
وأستاذ التاريخ الحديث في جامعة
ستراسبورغ الثانية

رولان مُوسْنْيِيه

عضو في المؤسسة
أستاذ شرف للتاريخ الحديث في
جامعة باريس ـ السوربون (باريس
الرابعة). ورئيس شرف للجنة
الفرنسية للعلوم التاريخية



مدخل
دور الجغرافيا في أقدار أوروبا

طالما أثار المؤرخون وكتّاب القصص ، في بعض المناسبات ، الإنتباه إلى فرادة الموقع الجغرافي لأوروبا ؛ إنها شبه جزيرة صغيرة تذيِّل الكتلة الآسيوية من الجهة الغربية . ولم تفتْهم الإشارة إلى أن حدودها الساحلية المتعرجة وفَّرت نفوذاً بحرياً مختلف الأهمية . وعلاوة على ذلك ، فإن تنوع مناطق التضاريس ربما ساهم ، أقله إلى حد ما ، في فصل مصائر الشعوب بعضها عن البعض الآخر . لكن الزمن لا يستسلم للحتميات المبسطة . فكل علم من العلوم الإنسانية يسلط أضواءه عند محاولة فك رموز الأحداث المتشابكة في لحظة من اللحظات لتؤدي إلى موقف معيّن . وتتدخل الجغرافيا هنا في مكانها الشرعي ، لا أكثر . والحال أن المناهج الحالية لتحليل الحيز المكاني تسمح لنا أن نستوعب ، بدقة أكثر من أي يوم مضى ، أي نوع من الظروف الإنسانية التي أعدتها الطبيعة ، اعترضت الإنسان في أجزاء مختلفة حتى هذا القسم البارز من القارة الأوروبية ، وأي هامش للعمل ترك ، في هذا الإطار البدائي ، للمشاريع ، جماعية كانت أو من وحي أفراد ، معدّة بوعي وتصميم أو وليدة الصدفة ، تلك المشاريع التي عملت على إنماء الكيانات الإقليمية المنظمة .

لن يجد القارىء ، في هذا المدخل ، عرضاً ملخصاً ، بل منهجاً لجميع جوانب جغرافية أوروبا . وقد بدا لنا من المفيد أن نوضح كيف تحددت على مر التاريخ ، الطرق الأساسية لاستيطان مكان ما . وإن إشارة مسبقة إلى بعض المعطيات الرئيسية تبدو ضرورية .



الفصل الاول

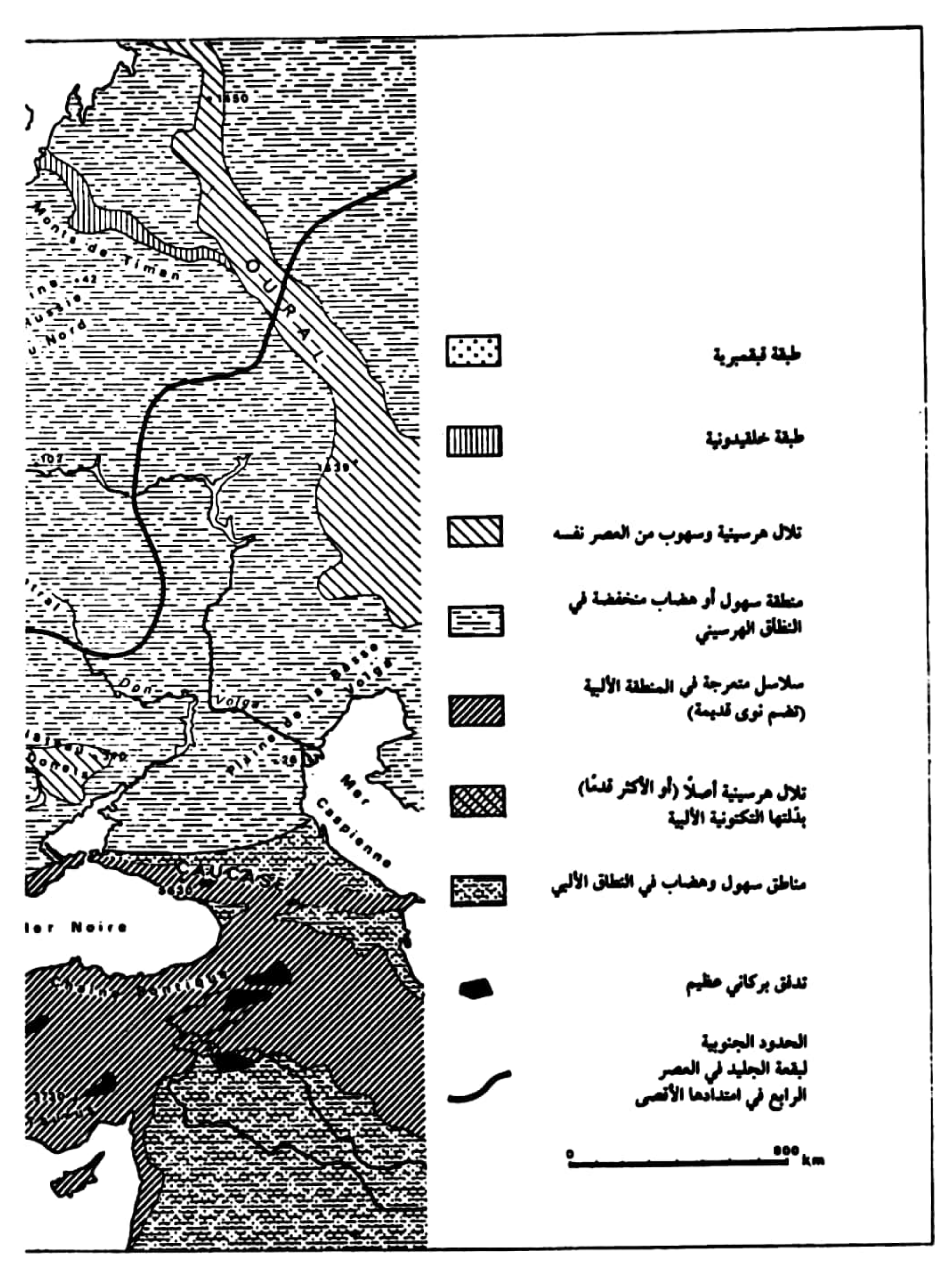
مميزات الإطار الجغرافي العام وعوائقه

التقطيع البنيوي

إن ثلثي مساحة أوروپا ، ابتداء من الشواطىء الشمالية للقارة ، هما عبارة عن أراض نشأت بفضل تاريخ جيولوجي طويل : إنها أوروپا « الطبقات الأساس والكتل[1] » التي يجب أن نقابلها بأوروپا الحديثة ، أي أوروپا « التعرجات والمنخفضات » التي تلتصق بتلك من الجهة الجنوبية . إن خطا متعرِّجاً يفصل هذين النوعين الأساسيين من التكوين : يمر هذا الخط جنوبي الأكيتان الفرنسي ، بجوار خط العرض 44° ويصل إلى خط العرض 50° في منطقة كراكوڤيا في پولونيا ليعود فينحدر نحو الجنوب في أوكرانيا ومولداڤيا (الخريطة ش. 1) .

أوروپا الكتل والطبقات الأساس

من شواطىء الأطلسي في اسكتلدنا وسكنديناڤيا ، ومن شواطىء بحر بارِنتْسْ (Barents) والبحر الأبيض في الأراضي السوڤييتية (سابقاً) إلى أطراف جبال الألپ والكرپات جمعت أوروپا أجزاءً من القارة برزت في العصور القديمة واكتسبت طبقاتها من الصلابة ما يكفي لتفادي الإلتواءات الطريّة المتوسطة المدى . غير أن المجموعة التي سبق تحديدها لم تبقَ على حالة واحدة من الثبات على أثر تكوّن السهوب في نهاية العصر الجيولوجي الأول (الپاليوزويك) ، أو في أوائل العصر الثاني (الميزوزويك) : في حين أن بعض القطاعات التي تأثرت ، إلى درجة معتدلة ، بحركة انخساف ، كانت مسرحاً لعملية ترسبية منشؤها البحر واليابسة . فيما تعرضت قطاعات أخرى حتى في النصف الثاني من العصر الثالث إلى حوادث محطِّمة كانت تفصل القطاعات المرتفعة عن المنخفضات الغائرة مشكِّلة بذلك



شكل 1 ـ الخطوط الكبرى للبنية الأوروبية

الخطوط الكبرى للبنية الأوروبية



وحدات من التضاريس المتنافرة المختلفة الإتساع . وهكذا تتجسَّد استجابات طبقة أساسية لتموجات اصطدام مخففة ناشئة عن مناطق لا تزال بنية القشرة فيها ناشطة .

في الواقع ، إن تفاعل مناطق مختلفة من أوروبا الطبقات الأساسية قد تكيفت جزئياً بفعل قدم المادة الصخرية الطافية على السطح . وهكذا تميَّزت منطقة قديمة نسبياً ـ متأثرة بمراحل الطفو والتشقق (ما قبل القمبرية) والكاليدونية ـ عن منطقة نشأت عن التحركات الهرسينية . فالأولى التي ميزتها مراحل تاريخ جيولوجي طويل ومعقد قبل منتصف العصر الجيولوجي الأول ، تنكشف ، في شمالي أوروبا وشمالها الغربي عن تضاريس رتيبة هي عبارة عن هضاب واسعة أو أنجاد من الحجارة البدائية حيث يطغى مظهر الحجارة البركانية ذات الأشكال المختلفة . وعلى الأطراف الغربية لهذه المنطقة الآنفة الذكر. تشرف المنبسطات المرتفعة في اسكتلندا و سكندينافيا بأشكالها الثقيلة مباشرة على قيعان الأطلسي .

إن المنطقة الهرسينية التي يبلغ عرضها آلاف الكيلومترات من شمالي أوروبا الغربية إلى جنوبها تتجزأ تبعاً للقطاعات في هذا الجانب أو ذاك من خط العرض 50° ؛ وهي تمتد على مساحات شاسعة نحو روسيا . ويختلف هذا المدى البنيوي خاصة عن السابق بالأهمية النسبية التي تتخذها صخوره الترسبية المحافظة على شكلها أو القليلة التبدل أثناء بروزها ، وهي في غالبيتها صوانية . وبعد أن أصيبت السلاسل من الطبقات المتراكمة المقابلة في نهاية العصر الأول بتغضنات حادة مُجَعَّدة إلى جانبها الطبقات المنضُدَّة لبعض المناطق ، تفتتت فيما بعد وعلى مراحل مختلفة بفعل الأحداث التي حددت ارتفاع القطعات الضيقة أغلب الأحيان (كالفوج والغابة السوداء وجبال بوهيميا) وانخساف المنخفضات (حوضا باريس ولندن) والممرات (الحفرة الرينانية وليمانيا) . هذه التعقيدات المتأخرة رافقتها ظواهر بركانية في العصر الجيولوجي الرابع : فكانت تضاريسها المصطنعة المهدمة إلى حد ما تنتشر منتصبة كالحرس على أطراف مناطق الألب في أوفرنيا (السُّوديْتْ) . وينتج عن كل ذلك ، في أوروبا الغربية والوسطى ، فسيفساء من البقع المتقطعة المتباينة استخدمت إطاراً لأنواع من الحياة ولنماذج من التنظيم الاقتصادي يكمل بعضها بعضاً ، وعلى العكس من ذلك فإن المنطقة الهرسينية إلى الشرق من ليزاغورا التي كانت معتدلة التجاعيد منذ تكوينها والتي تبعثرت فيما بعد ،

تتراءى كامتداد لانهائي رتيب من الهضاب والسهول باستثناء بعض التضاريس المحلية الطفيفة كهضبة دونيتس (Donets) وخاصة الأورال . وإذ يرتفع هذا الأخير ، ببعض الوضوح ، فوق منبسطات شاسعة يعتبر ، بطريقة كيفية ، الحدود الطبيعية لأوروبا .

وقد استنتجنا، خلال دراستنا ، أنه في أوروبا الكتل والطبقات الأساسية ، وخاصة في المنطقة الهرسينية ، حدد التطور الجيولوجي ، بشكل حاسم ، ولكن بطرق مختلفة ، مجموعة غربية تمتد حتى نهر الفِيْسْتُوْل ، يقابلها مجموعة شرقية تمتد امتداداً فسيحاً باتجاه الأورال .

أوروبا التعرّجات والأغوار الترسّبية أو منطقة الألب

ويظل الجزء الجنوبي من القارة الأوروبية متأثراً ، على خلاف المناطق المذكورة آنفاً ، بتقلبات تكوينية وتكتونية عامة ظلّت تحدث محلياً على مدى العصور الجيولوجية الحديثة ، منذ بداية العصر الجيولوجي الثالث إلى الآن . فمن الحفر العملاقة الكثيرة حيث تجمعت طبقات كثيفة ضخمة من الرسوبيات الطرية ، أكثرها صلصال طبقي ، برزت ، منذ بداية العصر الثالث ، سلاسل جبلية مكونة من تجمعات جيولوجية ، ليست فقط متجعّدة ، ولكنها منصبّة ومدفوعة نحو القسم الأمامي من البلاد . غير أن التضاريس التي نشأت ، حتى أكثرها بروزاً ، كتضاريس جبال الألب الوسطى أو جبال الكربات الرومانية ، تشكل مجموعات ضيقة نسبياً . إنها تطوق أو تضم منخفضات صمدت ولم تنخسف (كالمنخفضات الهامدة) وهي تبدو داخل الإطار الأوروبي كوحدات بدائية عظيمة مسطحة : إنها أحواض تنفتح على الخارج عن ثغور مختلفة (السهل الهنغاري أو بنّونيا ـ Pannonie ـ وترنسلفانيا وسهل البو) ، وممرات تتعاقب فيها القطاعات الفسيحة والمضائق (الأخدود الروداني) . ولا تشكل منطقة الألب ، نتيجة لهذه المفاصل ، أي عوائق يصعب اجتيازها أثناء التنقل داخل القارة .

ويستحسن أن نستثني من ذلك شبه الجزيرة الإيبيرية ، حيث الأغوار الرسوبية تنسل إلى داخل بنية الهضبة (هضبة ميزيتا Mesetta) ويعطي هذا الواقع صورة عن

الغرب المغربي . وهكذا ، فباستثناء جبال البيرينيه الداخلية والغربية وسلسلة جبال بَيْتِكْ (جنوبي إسبانيا) ، فإن سلاسل هذه المنطقة تقابل تعرجات أعماق نشأت بفضل بروز أساس صلب إلى حد ما ، أما فيما تبقّى من أوروبا فتقسم منطقة الألب الأساسية إلى قسم غربي (الألب والأپنين Apennin) وإلى قسم شرقي هو الكرپات البلقانية . ويتحدد طابع القسم الأول ليس فقط بالطغيان الواضح في كل مكان ، للطبقات الرسوبية المتعرجةِ والزاحلة ، بالرغم من تداخل موضعي لبعض أجزاء الهضبة (الجبل الأبيض) ، ولكن أيضاً بسبب استمرار ارتفاع بعض القطاعات في مقدّمة البلاد ، الأمر الذي يتجه نحو تجزئة المنخفضات الهامدة مثل سهل الپو الغربي أو حوض الرون الأوسط . تلك هي الجبال الفتية الحقيقية لأوروپا : وقد تعرضت في أجزاء عديدة إلى نشاط زلزالي بارز ، ويزداد الإضطراب على طول الأپنين باتجاه وسط البحر المتوسط ، كما تشير إلى ذلك الظواهر البركانية السابقة لتاريخ روما في منطقة لاتيوم ، والتي لا تزال ناشطة في كومپانيا وصقلية .

وتعرض النطاق الكرپاتي البلقاني إلى مراحل تطور جيولوجي أقدم وأكثر تعقيداً ، وقد لعبت تغضنات الكتل الرسوبية البلاستيكية في ذلك ، دورها . ولكن هذا حدث قبل منتصف العصر الجيولوجي الثالث . وأعقب تكوُّن الجبال تحرك القطعات التي قسمت السلاسل الأساسية إلى أجزاء مرتفعة ـ محاطة بالفروض ـ وإلى منخفضات غائرة . وينتج عن ذلك تجزئة تبلغ ، هنا وهناك ، حدّ التفتت إلى خلايا ضيقة : سهول صغيرة محاطة بجبال وعرة أو تضاريس ، كأنها مقطعة بالمِجْوَب بين ممرات عميقة . إن تطوُّراً بنيويّاً كهذا بلغ ذروته الظاهرة في اليونان القارية . ولكن هذا التفتت يمتد إلى قطاع بحر إيجه حيث تبرز قمم التلال وحدها على شكل جزر . حتى السهول الفسيحة ، في منطقة الكرپات مثل حوض پنونيا وما يتصل به من الحوض الترنسلڤاني ، تزدحم بالتضاريس الداخلية والمعقدة والثورات البركانية في العصرين الثالث والرابع (ماتْرَا وجبال أپوسَني Apuseny) .

ومن الملاحظ أن للتلال التي تحيط بحوض پنونيا من الغرب ومن الجنوب الغربي (ألپ ستيريا وكارنثيا وجبال سلوڤينيا والبوسنيا) تبرز خطوط تكوينية انتقالية بين المجال الألبي ـ المتوسط الغربي ومثيله الشرقي .

التوغل المتفاوت للنفوذ البحري

وما يميز أوروبا القائمة على الطرف الغربي لقارة عظيمة ، عن قسم كبير من هذه القارة ، هو أنها تبترد بكتل الهواء التي تهب عليها من المحيط الأطلسي ، لأن الدورة الجوية على المرتفعات المتوسطة تخضع لحركة من الغرب إلى الشرق . وتفقد هذه الكتل الهوائية تدريجاً خزاناتها من الرطوبة أثناء عبورها فوق الأرض في حين أنه في غربي كندا والولايات المتحدة يحدث الانتقال إلى الجفاف فجأة بسبب الحواجز الجبلية القائمة بين المحيط الهادىء والسهول الداخلية للقارة الأميركية الشمالية . وليس من حاجز ضخم من هذا النوع هنا حيث مناطق سهلية فسيحة تفتح أوروبا على واجهة الأطلسي ؛ وفضلاً عن ذلك يتغلغل المناخ البحري نحو الداخل بفضل ممر البلطيق وخاصة الحوض الرحيب للأبيض المتوسط .

المدى الجغرافي لتأثير الأطلسي

إن قسماً عظيماً من مساحة أوروبا يفيد من الظروف الجوية والمناخية التقليدية المدعوة « بالاوقيانية » . ويترجم هذا الواقع بعدد من الأيام الدافئة تتكرر عدة مرات في شتاء واحد ، وبكميات غزيرة من الهواطل (حيث يسجل على الأقل 700 ملم سنوياً) وعلى الأخص في الجبال . وليس في هذه الظروف من ضواغط جوية فصلية ، فلا تعرف الأقطار الأوروبية تحت تأثير الأطلسي ، أي فترات منتظمة من الجفاف ومن موجات الصقيع إلا في حالات استثنائية . وكنتيجة لذلك تمارس الأعمال الزراعية ، على الأقل في الأماكن المنخفضة ، طيلة أيام السنة ، وهذا ما أدّى إلى استيطان الأرض الخصبة منذ بدايات التاريخ .

غير أنه يجب التمييز بين المناطق التي تتأثر مباشرة بالأطلسي وتلك التي لا تعرف إلّا مناخا أوقيانياً منخفضاً . فوضع القسم الأول من هذه المناطق ينطبق ، مع كثير من الفوارق الطفيفة ، على هدب يبلغ 500 كلم تقريباً ، حيث السهول الفسيحة تنفتح برحابة على الواجهة البحرية ، منها : البلاد المنخفضة وشمالي غربي ألمانيا وغربي الحوضين الباريسي والأكيتاني . ولكنها ليست سوى شريط ساحلي ضيق تبرز فيه تضاريس عظيمة فوق مستوى البحر ، كالشاطىء الغربي لسكندينافيا وشمالي غربي شبه الجزيرة الإيبيرية . وتكون الحرارة على امتداد هذه

الأقطار المذكورة معتدلة باستمرار : قد يمر الشتاء عادة دون جليد ، وخاصة على طول الشواطىء . وحتى على بعض المسافة من هذه الشواطىء نحو الداخل ، لا يحدث الجليد إلا بشكل عارض إذ يضر بالتربة إلى حد خطير . وكما في أي مكان آخر فإن عدد الساعات المشمسة ، على مدار السنة ، لا يستهان به ، حتى إن بعض النباتات المتوسطية أو شبه الاستوائية تصعد نحو الجنوب ، ضمن بُؤَر صغيرة ، كشجرة البلّوط التي نجدها في بريتانيا . غير أن هذه القطاعات التي تستحم بالمناخ الأوقياني مباشرة ، تطغى فيها المراعي والأراضي البائرة على الأرض المشجرة بسبب تواتر الرياح وعنفها . وهذه الميزة تَسِم بشكل متتابع تقريباً الإمتداد الساحلي من كُورْنُوَايْ البريتانية إلى غاليسيا الإسبانية .

إن المناخ الأوقياني المنخفض يؤثر على شرقي فرنسا وألمانيا الوسطى ومرتفعات بوهيميا وهضاب الألب وعلى القسم الأكبر من سهل البو ، حيث تكثر أمطار الصيف بالنسبة إلى مجموع الهواطل السنوية ؛ ولا يكون الشتاء جافاً إذ ينعم كما في سائر المناطق الغربية بمرور الكتل الهوائية المتناوبة التي تهب من جهة الأطلسي . غير أن مناخاً هادئاً غير عاصف يسيطر خاصة في كانون الثاني/ يناير أو شباط/ فبراير بشكل دائم ودون انقطاع لعدة أيام . إن تناوب هذه الأوضاع المختلفة توفر للجبال نِسَباً كبيرة من الهواطل طيلة أيام السنة : 3000 ملم في الشَّارْتْرُوزْ الكبرى وأقل من ذلك بقليل في هضاب بافيير والنمسا . وبالمقابل تبدو أحواض أوروبا الوسطى ومنخفضاتها في أماكن متفرقة كفسحات تستطيع الأشجار الخاصة بالأقاليم الجنوبية والقادرة على الصمود ، أن تتكيَّف مع محيط غريب أصلاً بالنسبة إليها . وهكذا فإن الكرمة في الغور الريناني تصل إلى حدود فرنكفورت . ففي هذه المنخفضات المميزة من عدة جوانب ، قضى استصلاح الأراضي المبكر ـ منذ العصر النيوليتي ـ على الغابات الكثيفة ، أو على الأقل خفف الكثير من وجودها ؛ بينما على المرتفعات المجاورة لا يزال الكثير من المنحدرات يبدو مكسواً بالغابات ذات الأنواع المختلطة من الأشجار تغلب عليها الفصيلة الصنوبرية .

المنطقة الأوروبية ذات المناخ القاري

يمكن أن نعتبر الخط الذي تكون الحرارة فيه (2° −) بمقياس سيلسيوس كحد تقريبي يفصل المنطقة القارية الحقيقية في أوروبا . يمر هذا الخط بمحاذاة الطرف الغربي للهضبة السكنديناڤية فجال (Fjall) ليعزلها كما يعزل السويد الوسطى

والجنوبية عن منطقة الخلجان النروجية فجورد (Fjords) ومنطقة مضائق البلطيق . ويتابع امتداده باتجاه الجنوب ماراً بالڤيستول الأسفل والأودِرْ الأوسط وموراڤيا وأعالي پودابست وجنوبي ترنسلڤانيا والمجرى الأسفل للدانوب في ڤالاشيا . ومن الواضح أن البلطيق وهو بحر داخلي قليل العمق وقليل الملوحة لا يُوصل إطلاقاً أثناء الشتاء ، التأثيرات الأوقيانية عبر القارة ، في حين أنه يلعب دوراً ما في إيصال تقلبات الصيف ، والأمر نفسه يحدث للأطراف الشمالية للبحر الأسود (ومن ضمنها شمالي الكريمه) المعرَّض ، إلى حد كبير ، للكتل الهوائية الباردة الآتية من روسيا . فكل المناطق الواقعة إلى الشرق وإلى الشمال الشرقي من الخط المذكور تعرف ، مع بعض الاستثناءات القليلة ، نموذجاً واحداً من فصول الشتاء يتميز بالفترات الطويلة من الإستقرار المناخي سببه وجود منطقة من الضغط الجوي العالي تحول دون هبوب الأعاصير . وهكذا يتسنى للشمس الباهتة ، بسبب طبقات الضباب ، ان تنير ولا تدفىء السهول الفسيحة المغطاة بطبقة من الثلج المتجمد ، فيبقى الجليد داخل التربة بشكل دائم . وتبقى الأنهار متجمدة لأسابيع عدة ، بل لعدة أشهر . ولكن الربيع والصيف هما فصلان رطبان ، يكون الأول عادة قصيراً جدّاً ويتميز بذوبان الجليد من التربة وكثرة المستنقعات الموحلة وتقصُّف الجليد في مجاري المياه . ويعد ذلك بقليل وبفضل الارتفاع السريع في درجات الحرارة تصبح التربة ، التي فقدت ماءها وجفت ، قادرة على امتصاص الأمطار المتتالية التي تسببها تقلبات الطقس ؛ والواقع أن تجمعات المياه التي تستفيد منها المزروعات خلال عدة أسابيع ، تبقى زهيدة في كل مكان ، ويعمل التبخر الكثيف على تجفيفها شيئاً فشيئا ، وهو يزداد كثافة كلما تقدمنا نحو الجنوب ، وتزداد درجات الحرارة المتوسطة في تموز/ يوليو بطريقة منتظمة كلما ابتعدنا عن خط الاستواء إبتداءً من البلطيق (19° مئوية في برلين) حتى الحوض الپنُوني (بين الألپ والكرپات) ، (22° في پودابست) أو حتى في شمالي روسيا (19° في موسكو) وإلى شواطىء البحر الأسود (22,4° في أوديسا) .

وهكذا ، فإن الصلة الموجودة بين الهواطل وفصل الصيف تعطي فكرة عن توزيع المناطق المحرَّجة من الشمال بإتجاه الجنوب ، لأنه خلال الأسابيع القليلة الملائمة لنمو للأشجار تسيطر ضواغط مختلفة على هذه المناطق تبعاً لبعدها عن خط الإستواء وقربها منه . إن انخفاض درجات الحرارة وقصر فصل الصيف هما العاملان

اللذان يحددان المناطق كلما اقتربت من القطب الشمالي . ويبرز باتجاه الجنوب عامل الجفاف الذي يلاحظ في حوض پنونيا وفي أوكرانيا بشكل أوضح وڤالاشيا أو في المجرى الأسفل للڤولغا . وتفسيراً لهذه الظروف المتباينة تبرز مجموعة من النماذج النباتية الضخمة : سهل التوندرا المعروف بمستنقعاته ونباتاته ، والتايغا المشهور بأشجاره الصنوبرية وغاباته الظليلة التي تتخللها فسحات جرداء على أطرافه الشمالية ، ثم تأتي السهوب .

المناطق ذات المناخ المتوسطي

يتميز المناخ المتوسطي ، حيث يسيطر ، بصفاء الجو وتألقه، ويلاحظ ذلك حتى في الطقس المعتكر . ولكن الظاهرة الكبرى تنشأ بحدوث فصل جاف يدوم ، صيفاً ، عدة أسابيع فيمتص قسماً من مخزون المياه السطحية . ويعرف بواسطة دلائل وضعها علماء المناخ الهدف منها أن تحدد بدقة درجات الجفاف المؤقت والفوارق بينها من منطقة إلى أخرى . وعلى أي حال ، فإن عدد الأيام الماطرة في السنة قليل ، فهي لا تتعدى المئة يوم ، ولكن هذا لا ينفي مطلقاً هطول كميات كبيرة من المطر تنهمر على شكل دفعات قوية . ونتيجة لانتظام هطول الأمطار وآعتدال درجات الحرارة ، على الأقل من الأماكن المنخفضة ، يظل العشب مخضوضراً ويغطي الأرض حتى في الشتاء ، وهذا أحد مصادر الفتنة التي تعتري القادم من الشمال . غير أن لفحات البرد القارس التي تهب لفترات غير منتظمة ، لا توفر هذه المناطق عندما تضربها كتل هوائية آتية من الشمال بإستثناء بعض أطراف المناطق المعزولة كالشواطىء ، حيث يستطيع الإنسان أن يتنزه بلباس الربيع في نِيْس وكانْ في حين أن الثلج يكلل بالبياض المرتفعات التي تحجب الأفق .

إن حدود الأقليم الذي يسيطر عليه المناخ المتوسطي ليست واضحة من الجهة الشمالية . ويمكن ، من أجل هذه الغاية ، آستخدام معطيات مقياس الجفاف الذي يأخذ بعين الإعتبار الأشهر الموصوفة بالجفاف ، ومتوسط عدد أيام الصحو في هذه الأشهر . إن عتبة القيمة التي يتجاوزها القادم من المنطقة المعتدلة الرطبة (الأوقيانية أو القارية) ليدخل ضمن المناخ المتوسطي تقف عند حدود العدد 40 في وادي الرون ابتداء من أورانج بالنسبة إلى فرنسا مثلاً . وإن دليل مقياس الجفاف هو 7 في بالَنْسيا و 13 في مونتليمارْ و 44 في أڤينيونْ و 58 في مرسيليا و 66 في پرپينيان

(نابولي 75 وأثينا 132)[1] . إن ظهور البلوط الأخضر قبل الزيتون هو الذي يميز الحد الفاصل . والواقع أنه في أكثر من منطقة من المناطق الواقعة على الأطراف الشمالية للمتوسط يرتسم الخط الحقيقي الفاصل للمناخ البيولوجي على المنحدر الجنوبي لكتلة جبلية . ولكن بالرغم من بروز ظروف محلية تعكر المناخ ، فإنه يوجد منطقة إنتقالية « مادون متوسطية » تمتد بتقطع وعدم أنتظامٍ من الرون الأوسط إلى ڤالاشيا مروراً بلومبارديا وفريول (Frioul) وجنوبي حوض پنونيا على حدود هنغاريا ويوغوسلاڤيا حيث تبرز أوجه التقارب مع المناخ المتوسـطي في ميل طفيف نحـو الجفاف الصيفي الذي يتميز ، تبعا للسنين ، بجفاف الجو في كل الأحوال ، ويتميز أيضاً بدفقات قوية من المطر تنهمر فيما بين الفصلين . إن أفضل ما يعرف بالمنطقة المتوسطية الحقيقية ، التي تنقصها الأنواع الطبيعية الخاصة بها دون سواهـا ، هو وجود الزراعات الموسمية والأشجار المثمرة والبقول والأزهار .

ثلاثة نماذج من البيئات الأقليمية تتقاسم المنطقة المتوسطية الخاصة بأوروپا . تأتي أولاً فئة الأصقاع المتاخمـة للطرف الجنوبي في الـوسط الغربي للحـوض ؛ وبسبب موقعها من خط الإستواء فإنها تنعم بشتاء لطيف مع متوسط لدرجات الحرارة يبلغ °10 درجـات مئويـة في شهـر كـانـون الثـاني / ينـايـر ، وذلـك في الأمـاكن المنخفضة ، غير أن الجفاف الصيفي يمتد على مدى أربعة أشهر أو خمسة : تلك هي المميزات المشتركة للمناطق التالية : الهضاب والسهول في جنوبي البرتغال ، الأندلس وجنوبي شرقي إسبانيا ، پُوْيْ وسواحل كالأبْرِيـا وصقلية . ويقـابل هـذه الأسرة الجغرافية ما يسمى بالمجموعة المتوسطية الشمالية الغربية التي تشمل قشتالة وأراغون وكاتالونيا وكل الجنوب الفرنسي كمنطقة اللانغدوك وپـروڤانس ، والقسم الأكبر من شبه الجزيرة الإيطالية حتى مستوى كومپانيا وشواطىء دالماسيا . فالأمطار المتساقطة في كل هذه المنـاطق ـ بصرف النـظر عن الحالات الخـاصة المتعلقـة بالتضاريس ـ تعتبر أغزر ممـا يتساقط في منـاطق الفئة السـابقة ، وأكثـر ما يكـون انهمارها في أواسط الفصول . إن لفحات من البرد تقطع بعنف شتاءً مخادعاً في

(1) يحدد الجفاف تبعاً لهذه المعادلة: $p \leq 2e$.

تمثل p كمية المطر المنهمر في شهر ما ، وe تمثل درجة الحرارة المتوسطة خلال الشهر نفسه مقاسة بالدرجات المئوية . (المترجم) .

اعتداله ، هذا إذا اكتفينا بالمعدلات الوسطية . هذا الهبوط في درجات الحرارة ينسجم مع حالات الطقس الذي يصحب رياح الشمال الباردة والعنيفة والمتقطعة مثل البورا[1] (Bora) والميسترال[2] والترامونتان[3] (Tramontane) .

والنوع الثالث من البيئة المناخية الحيوية المتوسطية في أوروبا هو المناطق الشرقية للحوض التي تضم في مجموعة واحدة الجبال والمنخفضات الداخلية في منطقة دالماسيا باستثناء الساحل واليونان القارية وشبه الجزيرة . ولا حاجة هنا لذكر أي استثناء أساسي من الشمال إلى الجنوب . فكل هذه البلدان ، بالرغم من كونها متوسطية ، تخضع للسيطرة القوية للامتداد القاري الأورو ـ آسيوي الذي تلتحم به ، على مسافة طويلة ، عند حدودها الشمالية . وهكذا فإن المعدلات الوسطية للحرارة هي نفسها في كانون الثاني/ يناير ، أي 5° درجات مئوية ـ شمالي البيلوبونيز والسواحل الإسبانية (بالنسيا) التي تقع على مسافة واحدة من خط الإستواء . زد على ذلك أن الأمطار التي تتساقط أثناء الصيف ، مصحوبة أحياناً بالعواصف ، يمكنها أن تلعب دوراً لابأس به ، ولكن هذه الأقطار المنفصلة بعضها عن بعض بشكل حاد بواسطة التضاريس تبلغ فيها التناقضات التي أوجدها التباين القائم بين مواقعها المعرضة للرياح وارتفاعها عن سطح البحر ، حدَّها الأعلى ؛ فبينما نرى ، مثلاً ، منحدراً مكسواً بالغابات الكثيفة الغضة وحوضاً مخضوضراً بالمروج ، نرى إلى جانبه منحدراً أجرد تنتشر عليه بعض الأدغال الهزيلة الأشجار وحقول الزيتون التي يقتضي الإحتفاظ بها بين الحصى جهداً جاهداً .

آثار الصقيع المتبقية
من العصر الجيولوجي الرابع

تتدخل المناخات التي حدَّدناها في تكييف التضاريس وتحديد كثافة النباتات منذ عدة آلاف من السنين على الأكثر ، في حين أن البرد هاجم أوروبا على دفعات متعددة على مدى العصر الجيولوجي الرابع . وكان يدوم كل مرة عشرات الألوف من

---

(1) ريح شمالية شرقية عنيفة تهب في الشتاء على شمالي الأدرياتيكي .
(2) ريح تهب من الشمال والشمال الشرقي على وادي الرون والمتوسط .
(3) ريح شمالية تهب على المتوسط (م) .

السنين . إن انخفاض درجات الحرارة شمل ، وعلى درجات متفاوتة ، الكرة الأرضية بكاملها ، فنتج عن ذلك تكوُّن مساحات شاسعة من الجليد امتدت إلى ما وراء المناطق القريبة من القطبين وانطلاقاً من الجبال الشامخة . وليس هنا مكان البحث عن الأسباب المتناقضة لهذه التغيرات المناخية ، ولكن من الضروري أن نلم بأنماطها ونحدد أهم نتائجها فيما يخص تعيين الإطار الطبيعي لأكبر أقسام أوروبا وطريقة تكوّنه .

الأزمات الجليدية

إن ما تركته المناخات الباردة للعصر الجيولوجي الرابع من آثار هي نماذج خاصة من التضاريس وتجمعات رسوبية يمكن معرفتها وتحديد زمانها بشكل تقريبي ، وأخيراً بقايا أزهار وحيوانات . ومنذ الدور الڤيلا فرنكي[1] ، أي منذ أكثر من مليون سنة ظهرت الأزمات المناخية . ثم إن امتداد هيمنة القطب الشمالي باتجاه المنطقة المعتدلة حالياً بلغ ذروته أثناء مرحلتي جليد قديمتين تعرفان باسم إِلْسْتِرْ[2] (Elster) وسال[2] (Saal) . وهكذا زحف الجليد المتمركز في سكنديناڤيا وشمالي روسيا ، وعلى دفعات متعددة ، عبر السهول المحيطة بالبلطيق ، باتجاه البلاد المنخفضة وأطراف جبال الكربات ؛ في حين أن الجليد المتراكم على جبال الألب ينحدر باتجاه لْيُونْ حتى منطقة الدُومْبْ وبا ـ دوفينيه (Bas- Dauphiné) . ويغمر مساحات شاسعة نحو الشرق حتى السهول الرسوبية في باڤيير وأعالي النمسا . وبالمقابل فإن الموجة الجليدية الأخيرة المسماة الموجة الڤيستولية[3] في أوروبا الشمالية ، والموجة الوورميَّة[4] في منطقة الألب بقيت متأخرة عن سابقاتها. في الواقع ، إن الفرق ، بالنسبة إلى النتائج على المستوى الأوروبي بشكل عام ، ظل زهيداً ، إذا اعتبرنا كتل الجليد ، التي وصلت ، أثناء هذه الأزمة ، إلى خط برلين ـ ڤرصوفيا ، العُمْر المتجدِّد لجبال الألب . فهذه الجلّادات العملاقة التي استقرت في

---

(1) مرحلة من العصر الجيولوجي الرابع تنسب إلى المدينة الإيطالية ڤيلا فرانكا ، وتتميز بظهور الأفيال وانقراض الماستودون . (م)

(2) اسم نهرين في ألمانيا . (م)

(3) نسبة إلى نهر ڤيستول (Vistule) في پولونيا.

(4) نسبة إلى نهر Wurm في ألمانيا ـ المترجم .

تلك الأماكن غيّرت، إلى الأبد، ملامح سطح القارة الأوروبية.

ومن البديهي القول إنه ، في إطار مرحلة الجليد الڤيستولية ـ الوورمية الأقرب إلينا ، يمكننا بشكل أفضل إعادة تشكيل الظواهر التي تعرضت لها القارة الأوروبية بفضل الأبحاث المتضافرة التي قام بها علماء شكل الأرض وعلماء اللقاح الموجود في التربة ومؤرخو ما قبل التاريخ وعلماء الرسوبيات . إن أزمة الصقيع التي نحن بصددها شملت المرحلة الواقعة ما بين 75000 (تقريباً) و 10000 عام قبل أيامنا هذه ، وإذ أعقبت هذه الأزمة فترة ما بين جليدين أي ما يقابل مناخاً شبيهاً بمناخ العصر الحاضر ، لقد تميزت هي نفسها بتقلبات متعددة لم يعرف بعضها إلا محلياً ، بينما للتقلبات الأخرى قيمة عامة بالنسبة إلى أوروبا . وإن القسم الأول من المرحلة الوورمية تخللته سلسلة من فترات الدفء قصيرة ، دعيت باسماء : أمِرْسْفُورْتْ (Amersfoort) وبْرُورُوبْ (Brorup) وأُدِّيرَادْ (Odderade) في أوروبا الشمالية الغربية ، ودعيت ستيلفريد أ . (Stillfrièd A) في النمسا وما جاورها . ثم تسيطر موجة من الصقيع عظيمة هذه المرة وتشغل الحقبة الواقعة ما بين 50000 ـ و 35000 ـ . ويصحب هذه الحقبة ترسبات من ركام الحصى ناتجة عن تشقق الصخور وتفتتها بفعل الجليد وطبقات من الغرين الكلسي حملها الهواء إلى أطراف الكتل الجليدية . وتخلل هذه الموجة العظيمة أيضاً فترات معتدلة الحرارة قصيرة جداً ، في حين أن أدوات من العصر الحجري تبرز في جميع التشكيلات السطحية دون استثناء . وبعد فترة معتدلة هامة تخللت مرحلتين جليديتين في حدود سنة 30000 ـ يعود جليد وورم الحديث (أو الأعلى) ، يرفده تجلد بطيء دعي تارْدِيْغْلاَسْيَارْ (Tardyglaciaire) (أو عصر درياس = Dryas) ، ليستمرّ، تتخلله بعض الإنقطاعات ، إلى الحدود التاريخية الحاسمة أي سنة 10000 ـ . وانطلاقاً من هذا التاريخ بدأ يتحدد تراجع الجليد . كل هذه السلسلة الجديدة من الظواهر المناخية تتوافق مع بقايا العصر الأُورِينْيَاسِيْ أو عصر الحجر المشطوب . وتبعاً للمناطق المعنية فإن خبراء العصر الجيولوجي الرابع تقصوا فيها ، إما اتجاهاً ضعيفاً نحو تناقص الجليد أخذ يزداد بروزاً شيئاً فشيئاً ، وإما ، على نقيض ذلك ، ذروة من التجلد المتأخر قبل ذوبان الجليد .

الوقائع المرتبطة بامتداد الجليد وانحساره

حيثما استقرت أنهر الجليد غيَّرت معالم الطبيعة : إما بسحج الصخور التي تغطيها وإما بتجميع الردم والأنقاض . وكثيراً ما يلاحظ تسنن المدرجات المحفورة في أعالي الجبال ومناظر أعماق الوديان المتقطعة بسبب التفاوت في تأكل النتوءات الصلبة والوهاد العميقة الغور . ففي هذه الوهاد التي تشكل ، في أماكن مختلفة ، سهولاً خليجية تتخلل الجبال ، وجدت بعض الجماعات إطاراً طبيعياً ملائماً لتنظيم حياتها الإجتماعية والإقتصادية والسياسية . فالأَنْدُوْرَا وَوَادِيْ آران (Val d'Aran) في البيرينيه والكريزون في الألب هي بعض من عشرات الأمثلة . ومقابل ذلك ، لقد تركت بقع "الجليد المحلية ، وعلى الأخص المجالد القارية الشمالية ، على طبقات الأساس وعلى الكتل (Blocs) التي احتفظت بأجزاء من سهوب قديمة ، تركت بصماتها بكشط حاد لمخلفات العصر الجيولوجي الثالث . وبتأثير ذلك أزيلت أنواع جيدة من التربة ، ولا تزال السطوح القليلة التموج ، التي أحدثها الجليد ، تحتوي غالباً على أراضي قاحلة ما عدا الأماكن التي تشكلت فيها طبقة غرينية صلصالية تغطي الطبقة الأساس (مثل جنوبي السويد) .

ولكن الأمكنة الأكثر تنوعاً تقع في المناطق التي كانت مسرحاً دائماً لتمدد الخط الجليدي وانحساره ، وخاصة في الثلث الأخير من المرحلة الفيستولية ـ الوورمية . وتتكون في هذه الحال أكداس متداخلة من بقايا تراكمات الأنهر الجليدية المؤلفة من الحصى والرمل والصلصال تحيط بقيعان البحيرات والمستنقعات ، وهي ناتجة عن اختلال المجاري المائية التي تعرضت للجليد ، كما هي الحال في التلال المكسوة بغابات الأشجار الصمغية والسندر ، وكذلك بحيرات پوميرانيا ومازوريا (في پولونيا) ، على الحدود الجنوبية للمَجْلَدة القديمة البلطيقية السكندناڤية ، أو كذلك الأراضي الباردة في الدوفينيه السفلى والهضاب الألپية في سويسرا وباڤيرا والنمسا العليا .

فالبصمات التي تركها تواتر مراحل الجليد على شواطىء أوروپا ليست أقل وضوحاً ولكنها أكثر تعقيداً . إن ألسنة عظيمة متدفقة من المجلدة القطبية انحدرت من أطراف الهضبة السكندناڤية الوعرة نحو بحر النروج والأطلسي حافرة ، استناداً إلى التركيب الجيولوجي ، وهاداً محلية أصبحت أودية غائرة بين الجبال تحولت إلى

خلجان عميقة عندما غمرتها مياه البحر (وهذا ما يعرف بالتجاوز الفلَنْدري) . فهذه الظاهرة الأخيرة (أي ارتفاع مستوى سطح البحر بفعل ذوبان الجليد) ليست إلا نتيجة لذوبان كتل ضخمة من الجليد كانت متكدسة على القارات أثناء الدور الوُوْرمِيْ البارد : إن تمدداً بحرياً كهذا بين أراضٍ مرتفعة قليلة الخصب هو الذي حدد أقدار الشعب النروجي . أما في القطاعات المسطحة نسبياً فقد رسم التجاوز الفلَنْدري الحدود الحالية للشاطىء المختلف التعاريج على صخور رسوبية بتأثير أعماق المجلدة القارية الشمالية . وهكذا تكوَّن الاتساع المميز لبعض مصبات الأنهر مثل الوِيْزِرْ والإِلْبْ والأوْدَرَا . وهكذا تشكلت الأجوان الضحلة الفسيحة على الشاطىء البلطيقي في ألمانيا . فهذه المواقع توفر ملاجىء وأعماقاً مائية متفاوتة القيم ولكنها إجمالاً مفيدة . إن المخلفات المتنوعة للأزمة الجليدية على الشواطىء المذكورة أعلاه أو على الأقل على قسم كبير منها هي وراء الخط الذي تنعم به المدن الألمانية التجارية . وأخيراً فإن تكوين الممرات المائية التي تؤلف مداخل بحر البلطيك وشكلها منشأهما تأثيرات فترات الجليد والمد البحري الذي سببه ذوبان الجليد . فمن المناسب ، من أجل تكوين فكرة عن هذه الأحداث ، أن نضيف إلى عوامل الخط الساحلي النتيجة المعاكسة بالنسبة للتجاوز الفلندري - وإن ناشئا عنها - ألا وهي ارتفاع مجموع الكتلة القارية عندما نفضت عنها ثقل الجليد .

حتى شواطىء المناطق التي لم يغمرها الجليد في العصر الجيولوجي الرابع قد تلقت ، بطريقة غير مباشرة ، وخلال تطورها ، نتائج المد الجليدي وانحساره . وهذا ما حدث للأودية التي حفرتها الأنهار إلى ما دون المستوى المنخفض للبحر ، وذلك في ذروة المرحلة الجليدية ، ثم غمرها بالتالي التجاوز الفلندري . وهذه الأودية هي التي تحكمت بالمفاصل الحالية لبعض الشواطىء مثل المجاري المائية المغمورة بمياه البحر في غاليسيا وبريتانيا أو كورنواي ، وقد حُفرت في الهضاب القديمة . أما بالنسبة إلى پا - دي - كاليه ، فإنه مضيق ناشىء عن غمر وادي الرين - التايمز الأحفوري الذي كان يتغذى بالمياه الذائبة على أطراف المجلدة القارية في شمالي أوروبا ، التي كانت تتجه ، عندما بلغ الصقيع ذورته ، نحو شاطىء الأطلسي الذي تراجع إلى طرف المسطح القاري الحالي . وأخيراً فإن التجاوز الفلندري غمر أيضاً نهراً كان يجري من البوسفور باتجاه البحر الأبيض المتوسط مكوناً بذلك المضيق الذي يصل المتوسط بالبحر الأسود .

الفصل الثاني

نماذج من المساحات الإقليمية المميَّزة

إن أي منطقة من المناطق الواسعة التي تتقاسم سطح الكرة الأرضية تتكون من مساحات طبيعية حَدَّدت بشكل أو بآخر مصائر المجتمعات البشرية . وتنحصر غايتنا هنا بلفت الانتباه إلى بعض حالات ذات مغزى خاص لتطور المناطق الأساسية في أوروبا ، والتدقيق ، بهذا الخصوص ، بأقدار البيئة الجغرافية الخاضعة للمصادفات التاريخية .

مساحات اقليمية
اعدتها البيئة الجغرافية

يمكننا أن نستنتج ، بصرف النظر عن الحتمية الذي عفَّى عليها الزمن ، أن نماذج أو تراكيب مختلفة من البيئات الإجتماعية قد وفرت للإنسان طاقة من الأقدار لم يفته استغلالها ولكن بطرق متباينة ومتنوعة تبعاً للجماعات العرقية أو الاجتماعية المعنية .

الجبال المعاقل

تستعمل المراجع العلمية والمؤلفات الأدبية جميعها عبارة « الجبال المعاقل » . ولكننا نفضل عليها كلمة « معاقل » . وهي عبارة عن هضاب عالية استعملتها بعض العرقيات كنقطة ارتكاز للإقامة واستمرار العيش خلال المراحل التاريخية الحرجة . غير أن هذه البيئة ذاتها لم تكن قط كافية وحدها لتوفير مجال حيوي بحيث إنه يجب البحث عن متمم لها باستخدام السفوح المجاورة أو المنحدرات والسطوح المتآكلة .

بالإمكان رسم النموذج النظري لهذا النوع من الفسحة الجغرافية . تنتمي هذه

المرتفعات الجبلية إلى ما يسمى « القطعات المنفصلة » أو (Bloc) [1] ، تلك التي تنشأ عن ارتفاع حاد وحديث لقسم من سهب قديم ، ويمكن الوصول إليها عبر وديان عميقة وضيِّقة. ولكن هذه الجبال الوعرة ، إلا في بعض الممرات الإلزامية ، توفر للمرزارعين جلولاً مدرَّجة ؛ هناك ، استحدثت ، منذ عهد قديم ، واستغلت فرجات من المنحدرات الوعرة المكسوة بـالغابـات . إن مجموعـة هذه البيئـات الطبيعيـة النموذجية من فئة الجبال ـ المعاقل هي الهضـاب الأكثر مـلاءمة للحيـاة الراعـوية بالدرجة الأولى لأنها تكون عادة مرتفعة إلى حد توفـر معه للمستـوطنين سُلَّماً من المداخيل المتنوعة بفضل علوها من ناحية ، وخاصة المروج التي يرتادها الرعاة عند مداخل الغابات ـ ومن ناحية أخـرى بسبب قربهـا من السفوح المعشـوشبة القليلة الأشجار الشبيهة بالسهوب ؛ فهذا الجزء من البيئة لا يصلح للإستيطان البشري إلا لفترات متباعدة ومتقطعة ، لأنه لا يشكل ميداناً للمنافسة والمزاحمة مع مجموعات أخرى . إلا أن بعض القطاعات الزراعيـة الأخرى الغنيـة عند سفـح الجبل كـان يحتلها ، عنوة ، جماعات غريبة سياسياً وآقتصادياً وهي أكثر تنظيماً .

تمثل جبال الكرپات الشرقية الرومانيـة النموذج الأكمـل للجبال المعـاقل ، وخاصة هضاب الألبْ في ترنسلڤانيا التي تشرف شمالاً على الحوض الأعلى لنهر أوْلْتْ (Olt) ـ منطقة سيبيو ـ وجنوباً على السفح الڤالاشي . يشكل رعي المواشي منـذ أقدم العصـور وسيلة من وسائـل العيش ، إذ يتردد الـرعاة والقـطعان ، تبعـاً للفصول ، بين مراعي الكلأ الواقعة على علو 1600 م فما فوق والمناطق المنحدرة على أطراف الجبال . فهي من جهة ڤالاشيا مساحـات شاسعـة قَدَّدتهـا ، طولاً ، الأودية المتصلة بالدانوب قرب أبواب الحديد (أو مضائق دْجِرْدَابْ) . ويلاحظ على طريق هذه التنقلات محطات عند أكواخ بنيت على مسطحات في المنحدرات وفي القرى المنتشرة فوق منطقة التلال الواقعة عند سفوح الجبال ، هنا أسهمت الحياة القروية مع زراعة الحبوب ورعي المواشي بتوفير مختلف المداخيل . إن مجموعة جغرافية كهذه كوَّنت فيما مضى معقلاً لشعب داسيا (منطقة رومانيـة) وكانت في القرون الوسطى محمية للأمة الرومانية . وعلى المنحدر الترنسـلڤاني قطَّع التكوين الجغرافي السفح محدثاً سلسلة من الأحواض الغائرة مليئة بالغرين الخصب . إن

---

(1) أي جزء من القشرة الأرضية يرتفع عما جاوره وهو محاط بالشقوق . (م)

السهول الصغيرة التي تشكل ممرًا محصوراً بين جبال الكرپات وهضاب ترنسلڤانيا استقبلت الجاليات المجرية والألمانية (ساكْسُونيُو ترنسلڤانيا) الذين سهَّل حكام ڤيينا وبوداپست إقامتهم . وهكذا تشكل هذا المدى غير المتناسق حول معاقل روماني الكرپات : فإن امتداده نحو السفح من الجهة الشرقية بارز أكثر من أي جهة أخرى بفعل الظروف التاريخية .

وهناك أنواع من البيئات أقل اكتمالاً من البيئة الكرپاتية ، توجد في الأراضي البلقانية ذات المناخ المتوسطي . ومن دُورْمِيتُور إلى رُودُوپ ، ومن جبال ألبانيا والبِنْدْ إلى الپيلوپونيز مجموعة من الكتل الجبلية تنتصب برؤوسها الدقيقة وتعلو أكثر من 2000 م ولا مكان فيها للمراعي ، بل تحل محل الغابات منحدرات جرداء مليئة بالحصى . ولكن وعورة مسالكها الظاهرة للعيان في كل الاتجاهات ضمنت الحياة لجماعات بشرية مهددة باستمرار وتعيش في ظروف من القلق والتخلف تتطلب الكثير لتفاديها .

ومن الأمثلة الأخرى البارزة على المساحات الإقليمية المكونة حول الجبال المعاقل ، مساحة موجودة في مركَّب الجبال والهضاب في ميزِتًا الإيبيرية القديمة ، فابتداءً من الأودية العميقة التي تغمرها مياه البحر وتتخلل المرتفعات التي تحيط بخليج غاسكونيا حتى السواحل الإسبانية على المتوسط ، يمتد حاجز جبلي ذو فرعين : جبال كانتا بريك ـ الپيرينيه من جهة والجبال الإيبرية من جهة أخرى . وكما هي الحال في الكرپات الرومانية فهذه التضاريس الشامخة صانت حياة خلايا بشرية ، هي أحفاد العالم الروماني ، من خطر موجات متتالية أتت غازية تحمل معها تقاليد وبنى مختلفة كما حدث أثناء غزوات المغاربة . فلا غرابة في أن الإمارات المسيحية الأولى التي تنظمت بهدف المقاومة ثم الإحتلال اتخذت منطلقاً لها المنطقة التي تصل بين فرعي المعقل الطبيعي حيث تنبع الجداول التي تصب في أعالي نهري دورو والإيبْرْ : مثل القطعات الضخمة في ديموندا والثنايا المتشققة في نافار التي تعترضها أحواض معرضة للشمس كحوض پامپلونا ، وأخيراً الجبال الوسطى لبلاد الباسك المخضوضرة المكسوة بالغابات والتي تخددها الأودية العميقة . كل هذه الحواجز الجبلية لم تلعب دور إطار لخلايا اجتماعية سياسية مستقرة قابلة للحياة شكلت نواة لوحدة قومية إلا لأنها محاطة بسهول فسيحة صالحة

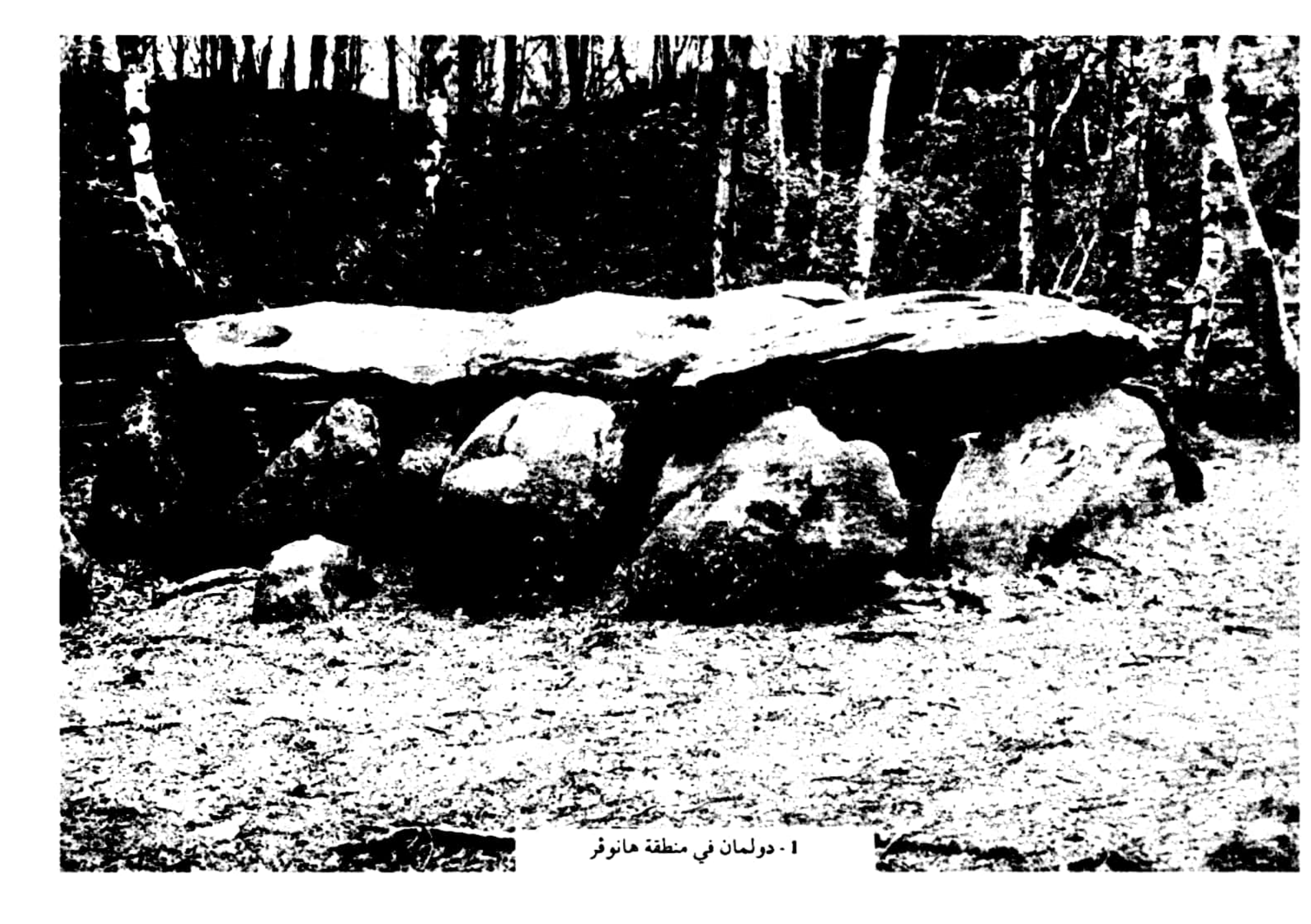
للزراعة تحميها شبكة من المدن المحصنة . هنا ، تتكوّن ميزة طبيعية خاصة بشبه الجزيرة الإيبيرية بالنسبة إلى ما تبقى من أوروبا الغربية .

وكما ذكر أعلاه ، إن أجزاء من سهول قديمة على قاعدة هرسينية (من العصر الجيولوجي الأول) لا تزال ماثلة على شكل مصاطب أفقية على علو متوسط بين التضاريس المتفرعة عن نتوءات جبال البيرينيه والألب . وهكذا فإن هذه الجبال تحد مجموعات من السهول الزراعية التي جعلها جفافها المعتدل صالحة لزراعة الحبوب ولتربية الأغنام . إن إطاراً جغرافياً كهذا ، يتمتع بخصائص متوسطة بين السهول الفسيحة المفتوحة في شمالي غربي أوروبا والرقاع السهلية في البلقان ، كان يستجيب لمتطلبات العصر الوسيط وحاجاته .

المتاءمات الجاذبة
بين الجبال المفتوحة والسفوح

تكثر في أوروبا الوسطى الأمثلة على تجمعات إقليمية تضم جبلاً وسطياً إلى أسفل البلاد المحيطة به بفضل ثغرات طبيعية تؤمن التواصل الأساسي بين قطاعين معينين ، إنه هنا ممر منخفض تكتوني (أي تكوّن بفضل تحركات القشرة الأرضية) (« مثل غولْدِيْنْ آوْ ») على الوجه الجنوبي لسلسلة جبال الْهَارْزْ ومنخفض إيغر - إلب (Eger- Elbe) على طول سلسلة جبال أَرْزْ جِبِيْرْجْ في بوهيميا . حيث يوجد منحدر يقطعه الكثير من الأودية المتوازية (هضبة الساكس الشرقية) ، وفي مكان آخر مجرى نهر صالح للملاحة يحيط بالمنطقة الجبلية (نهر الفيستول في جبال البِسْكِيْدْ البولونية) . يمكن أن نضع في الفئة ذاتها مساحات إقليمية تميزها فوارق بارزة ، كبعض قطاعات منطقة الألب التي تحوي نتوءات وامتدادات فسيحة لأودية كانت فيما مضى مغمورة بالجليد . الأمر الذي يوفر اتصالاً سريعاً بين السهل وقلب الجبل .

وإن أفضل مثال لنماذج المساحات المُتَوْأَمة والجاذبة هو على الشاطىء الشمالي لهضبة بوهيميا في ألمانيا . فمن سهول الساكس السفلى وتُورَانْج ولوزاس ترتفع التضاريس شيئاً فشيئاً على سطح هضبة هرسينية قديمة عادت فارتفعت من جديد بطريقة غير متناسقة مع منحدر من جهة بوهيميا ، ثم خُدِّدت بشبكة من الأودية التي ترفد الإِلْبْ والأُوْدِرْ ، وإن المجاري العليا لأنهر أُونْسْتروتْ وسَالْ والإِلْبْ في



1 - دولمان في منطقة هانوفر



2 - حصان أحمر، أراخص، وعول، أبقار في وسط رسم كبير داخل بناء مستدير في لاسكو. هذه التصاوير توجد على جدار مقبب حيث يظهر الحصان في أعلى الصورة

منطقة دْرِسْدْ التي تكيفها ، بطريقة مباشرة ، خطوط الضعف في البنية الجغرافية ، تؤلف كغيرها منافذ سهلة العبور بآتجاه أعالي البلاد ، والجبال المنخفضة الباردة والرطبة ، هنا في هذه الأعالي ، وبقاء غطاء عام تقريباً من الغابات التي كانت ، فيما مضى ، ملكاً للنبلاء والإكليروس ؛ كل ذلك أقنع المواطنين بتعاطي نوع من الحياة الزراعية الراعوية كمصدر أساسي لمعيشتهم . وعلى آمتداد الأودية وجوانبها تبرز عروق معدنية سمحت منذ عهد بعيد باستخراج النحاس والفضة والرصاص والحديد أيضاً ؛ وكذلك لا تخلو المنطقة من مناجم الفحم الحجري ، ولكن لا مجال للمقابلة بينها وبين المناجم الضخمة في أوروبا . ولقد تعلم الجبليون الساكسونيون ، بفضل تقليد يتحسن باستمرار ، أن يعوّضوا النقص الزراعي معتمدين على شدة بأسهم في العمل ومهارتهم في إنتاج أدوات العمل من كل الأنواع ، وقد كانت المنافذ مؤمنة بنسبة انتشار المدن في القسم الأمامي من البلاد الذي تهيمن عليه مدن دْرِسْدْ وَالْهالْ وخاصة لاَيْبْزِيْغْ . وكانت هذه الأخيرة تفيد إلى أقصى حد من موقع الساكس على إحدى طرق النقل المتجهة من الشمال إلى الجنوب عبر أوروبا . فلقد استمرت حتى النهاية ، وبفضل المعارض الشهيرة ، الرعاية التي منحها إياها الامبراطور مكسيميليان . زد على ذلك أن بلاطات أميرية مختلفة أخذت تشجع ابتداءً من عصر نابليون ، إنتاج السلع الباذخة المترفة مكملة بذلك ومنوعة تأثير نشاطات بورجوازية المدن . وما عدا ذلك ، فإن الطبقتين الإجتماعيتين الممتازتين قد تقاسمتا الهيمنة العقارية على الأرياف في السفوح التي اكتسبت خصبها من طبقة الغرين المتبقية من مرحلة الجليد الأخيرة من العصر الجيولوجي الرابع على أطراف المجلدة القارية الكبرى . وأخيراً وبواسطة سلسلة من التدابير الإقتصادية المتوالية ، عجّل الخصب الزراعي (من حبوب وشمندر) ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، بتركيز الصناعات المعدنية في المنطقة وتحديثها باستخدام المنشآت الميكانيكية ، بدءاً بالآلات الزراعية ثم بالمحركات من كل نوع . ولقد شملت هذه السلاسل من الانتاج مجال الكيمياء بفضل استثمار ملح المناجم واللِّيْنْيتْ (خشب متفحم) من باطن السهل الساكسوني . وقد أدّت هذه الطفرة الاقتصادية ، استناداً إلى ظاهرة تقليدية من تراكم النشاطات المتطورة ، إلى إنشاء مؤسسات تنظيمية وإلى أبحاث علمية أو تقنية متسمة بشهرة عالمية . إن هذه المعطيات المذكورة أعلاه والمرتبط بعضها ببعض شكلت المستند التاريخي للشهرة الساكسونية ؛ وقد استطاع

الناس استغلالها بطريقة متجددة متكيفين مع العصر والظروف . إن هذا المدى الإقليمي المحصور بين الهال ـ لايبزيغ من جهة ومرتفعات ثُورَانْجِرْ وَالْدْ وأَرْزْ جِبِيْرْجْ من ناحية أخرى ، يشكل اليوم ، إحدى القواعد الأساسية للازدهار الإقتصادي في الجمهورية الألمانية الديموقراطية .

وبالإمكان اللجوء إلى تحليل مماثل فيما يخص ساكس السفلى في ألمانيا الإتحادية أو سيليزيا العليا وغاليسيا البولونيتين . غير أن هذا التجمع الإقليمي الأخير قد عانى الكثير من الصعوبات الناشئة عن تقسيم الأراضي الذي كان ، على فترات كثيرة ، موضوع أخذ ورد . وإن ضمُّها الحالي ، في وحدة متكاملة إجتماعية ، إقتصادية ، لم يمحُ نهائياً آثار الماضي المتشعبة . إنطلاقاً من تنسيق المعطيات الطبيعية ، كما جرى بالنسبة إلى ساكس ، فإن تنظيم هذا المدى الجغرافي يظل غير مكتمل وإن استيطان الأرض هو محلياً أقل كثافة .

إن العلاقات الوثيقة المتنامية على مر التاريخ ، بين أودية الألب الوسطى وأطرافها من سهول بيامونت ولومبارديا ، خلقت تنظيماً لمجمَّع إقليمي ليس ببعيد الشبه عن المجمَّعات السابقة . لكن القسم الغالب من التشكيلات الرسوبية الحديثة نسبياً في تكوين الألب قد حدد بالضرورة مراكز المناجم الأكثر غنى إما على أطراف الطبقة الأساس أو وسطها القائم ضمن هذا الصرح الجبلي ، وإما في مناطق التحولات على مقربة من مركز الثورات البركانية . وهذا ما يفسر المساوىء الأساسية لجبال الألب الوسطى بالنسبة إلى الكتل الشرقية في النمسا (ستيريا ، كارنثيا) التي تحقق هذه الشروط بشكل أفضل . وعلاوة على ذلك فإن سهل البو ، عند طرفه المجاور لجبال الألب ، لا تغل أرضه ما تغله أراضي سهل بيامونت الهرسيني : فهذه التربة الغرينية الخشنة ، التي تنتشر هنا على أشكال مخروطية ومنحدرات ، ليس لها في حد ذاتها سوى قيمة زراعية هزيلة لو لم يُتَوصل إلى إغنائها إلى أقصى حد ، إضافة إلى فوائد حرارة الصيف القاسية ، باستخدام منهجي للمياه التي يوفرها تفجر طبقات المياه على مسافة قريبة عند سفح الجبل . إن هذه النتائج المعتدلة إلى حد ما رفع من قيمتها موقع هذه المقاطعات الواقعة عند السفوح الجنوبية للألب على الخط التجاري الذي ظل ناشطاً على مر العصور ؛ إنها في الواقع منطقة مرور حتمي بين أوروبا الشمالية والشمالية الغربية ومنطقة البحر الأبيض المتوسط . وقد اضطر الناس

أن يألفوا هذه الحواجز التي تنصبها أمامهم وعورة جبال الألپ. فباستثناء ممر برينر (Brenner) الواقع على مسافة نائية باتجاه الشرق بالنسبة إلى السهول اللومباردية ـ البيامونتية المرتفعة ، تقع المضائق الرئيسية في ذلك الجزء من السلسلة الذي يزيد ارتفاعه عن ألفي متر ، تماماً كما في البيرينيه . ولكن هذه العقبات لم تثبط همم المسافرين المدفوعين بعامل الكسب ، لقد كانت متناغمة مع نقل السلع المرتفعة الثمن الخفيفة الوزن (كالأقمشة الصوفية والحريرية والأفاويه الموسمية) . وهكذا كانت تتدفق عبر العصور موجات المسافرين والبضائع مستخدمين الخيول والبغال سائرين على الطرقات المرسومة على امتداد الأودية الألپية . لأن طرق المركبات الحقيقية لم تعرف إلا في أيام نابوليون ، وقد شُقت استجابة لدواع سياسية في ظل الهيمنة الفرنسية ، بانتظار أن تحل الهيمنة النمساوية محل الفرنسية في النصف الأول من القرن التاسع عشر . أما أنفاق سكك الحديد فجاءت متأخرة عن ذلك وقد تلتها طرق السيارات .

ولا عجب ، في مثل هذه الظروف ، أن تكون البنى التحتية لطرق المواصلات ، قديمها وحديثها ، قد أثرت في إزدهار خط مثلث من المدن ذات الماضي الغني : الأولى عند محطات التبديل تبعاً لنظام النقل القديم وهي : أُوسْطْ ولوغانو وترانت وبولزانو أو بُوزِنْ ، والثانية تسير بمحاذاة السهل عبر مدن : إِيْفْرِيْه وڤارِيْزْ وكومو وبرغام وبريشيا ؛ والأخيرة تمر بمنابع المياه الرئيسية عند طرق السهل العالي والمنخفض من تورِيْنْ إلى مونزا عبر نوڤارا . فهذه الأوضاع أغنت أجيالاً من التجار والحرفيين الذين كانوا نواة لبورجوازية مدنية ثرية مارست هيمنتها العقارية على زراعة سهل الپو مدخلين إلى المنطقة نماذج من تأجير الأراضي ، تعسفية إلى حد ما مسجلين بذلك سبقاً على أوروبا الإقطاعية في القرن 13 . إن ازدهار القرنين التاسع عشر والعشرين هو نتيجة تنسيق المعطيات الطبيعية والأحداث التاريخية المتراكمة . وتقضي العادة المتبعة أن نشير إلى الدور المثالي الذي لعبه سهل بْيَامُونْتْ إبان تحقيق الوحدة الإيطالية بفضل السبق الذي أحرزه في مجالات مختلفة . وكيف لا نشير ، بهذا الخصوص إلى غاليسيا التي لقّبها الكثير من المؤرخين « بالبيامونت البولوني » ؟ . إن هذه المنطقة تنتمي ، واقعياً ، كما ذكر أعلاه ، إلى نموذج قريب من تنظيم المساحات ، جامعة الجبل إلى أطرافه . وثمة ميزات أخرى ، تضاف ،

مع عوامل كثيرة إلى موقعه ، أهلته إلى أن يلعب دوراً رائداً في العقـود السابقـة للإنبعاث القومي .

مساحات اقليمية
تعزى إلى إبداعية الإنسان

عرفت بعض المناطق الأوروبية ، على مر التاريخ ، وثبات من التطور خلّاقة على صعيد استغلال الغابات ، وهي مسؤولة عن الاستيطان الكثيف للأرض ، وذلك تبَعاً للعوامل التي تبدو ظاهرياً غير خاضعة لمعطيات البيئة الطبيعية ، وقد لا توفر البيئة الطبيعية هذه سوى إطار عديم الصلاحية . وربما كان إطاراً سلبيـاً رافضاً . حدث كل ذلك كما لو أن تنظيم هذه المساحات الإقليمية من هذا النوع يتوافق أساساً مع سلسلة من المواقف الإنسانية البحتة . لعبت البيئة الجغرافية البدائية دوراً يكشف تحليله الكامل عن وقائع مخادعة ومواربة ولكنها غنية بالتنوعات المحلية .

المساحات الساحلية الطاردة

أفادت السواحل الأوروبية ، في قطاعات عديدة ، من طرق استغلال مبتكرة ومتنوعة ، بالرغم من بعض المظاهر غير المشجعة للبيئة المحلية ، منها : إما قساوة المناخ وإما الصعوبات الناشئة عن تضاريس الأرض ، وإمّا قلة خصب التربة أو شح المياه . وقد تجتمع كل هذه العوامـل أحيانـاً كثيرة . فيـلاحظ في هذه الحـالات المختلفة تركيز نشاط فائق وكثافة سكانية منتشرة على آمتداد شريط ضيق من الأرض مديرة ظهرها إلى داخل البلاد .

والمثل على ذلك مناطق سواحل البلطيق الموجودة بكاملها ضمن المنطقة التي انحسر عنها الجليد في العصر الجيـولوجي الـرابع وضمن نـطاق الحدود الـدائمة للمجلدة القارية : لقد ورثت عن ذلك مزيجاً من التلال والهضاب الرملية المغسـولة المجـاورة لمنخفضات رمليـة أو غـارقـة تحت طبقـات من الميـاه الآسنـة . ومن المستحسن أن نضيف إلى هذا المشهد المنفّر مساوىء منـاخ قاري عـدَّلته بعض التأثيرات البحرية ، عند ارتفاع عالٍ نسبياً : وتتمثل هذه التأثيرات بالضباب الشتائي الدائم والمتجمِّد وبصيف نَضِر لقلة تعرضه لنور الشمس ودائم الرطوبة . فعلى مدى قرون طويلة من الزمن كانت هذه الأراضي مناطق هامشية وأملاكاً خاصة تحتكرها الطبقة النبيلة الحاكمة أو جماعة الإكليروس . وقد كانت قليلة الإنتاج لاستغـلالها

بالطرق القديمة حتى إن تجارة العنبر القديمة لم تفلح في انتشال هذه السواحل من عزلتها ومن فقرها بالمقابلة مع السهول الشاسعة في أوروبا الوسطى . إلا أن هذا قد تغير كلياً عندما تحول البلطيق إلى محور تجاري في المرتبة الأولى من الأهمية بفضل دينامية الحلف التجاري بين التجار والمدن المعروف باسم « الهانس » (La Hanse) . إن ظهور طرق بحرية جديدة ، في الواقع ، تصل أوروبا بشمالي شرقي الأطلسي والبحار المتاخمة ، لم ينشّط فقط نمو المدن المرفئية وقوى بعض فئات الأشراف ، ولكنه ، إضافة إلى ذلك ، أعطى حجماً جديداً للعلاقات بين الشمال والجنوب ، بين البلطيق والمتوسط ، عبر ممرات في الجبال الهرسينية وعبر سهول النمسا وهنغاريا الغربية والمضائق الألپية والديناربة . وقد تركزت ، والحالة هذه ، على شواطىء البلطيق ، نقاط ثابتة أفادت من نشاطات متعددة .

غير أن مفارقات كبيرة ظهرت تعكس درجات التفاوت في النمو بين تنظيم الحياة الإقليمية لمختلف القطاعات الساحلية وداخل البلاد مباشرة . ولنكتفِ بمثل واحد عن مناطق في المانيا الشرقية وپولونيا واقعة على سواحل البلطيق . فيلتقي في مكلمبورغ وفي پوميرانيا الغربية ، من جهة ، شاطىء غني بالفجوات والملاجىء بفضل شكل شريطه الساحلي وجزره (رُوغِنْز) وبوجود مصب عريض ؛ ومن جهة أخرى بفضل تجاور سهول رملية ، على أرض القارة مقسمة بصفائح صلصالية من مخلفات ركام أنهر الجليد . إن آزدحام النشاطات المرفئية يصحبه ، هنا ، تركيز قوي على داخل البلاد الزراعي . وعلى عكس ذلك فإنه في پوميرانيا الشرقية ترتفع قبالة البحر ، من ستتين (Stettin) إلى غْدَانْسْكْ ، تلال عالية من ركام الأنهر الجليدية مؤلفة من الرمال والحصى ، بحيث إن أنهاراً صغيرة فقط تنحدر نحو شاطىء قليل الحماية ذي شكل منتظم حيث تتناثر بعض أماكن الصيد المتواضعة . لقد استطاع هذا القطاع ، بسبب عزلته الدائمة ، ورغم الإحتلال الألماني الطويل الأمد ، أن يحتفظ بلغته الپولونية . ويجب الذهاب إلى مصب الڤيستول من أجل إيجاد مجتمع محلي جديد ذي ظروف ملائمة ، استغلت منذ وقت مبكر .

وإن شاطىء پولونيا يشكل ، هو الآخر ، مِثالاً معبراً ، فكثيرون من الغرباء لا يتذكرون مَن ذلك سوى النجاح السياحي المتجسد منذ عقدين من السنين ، في مجموعة من الفنادق والحمامات في كوستا پراڤا حيث فقدت مرافىء الصيد فرادة

منظرها . ولكن الحقيقة الأساسية تختلف طبيعتها عن ذلك ، فمنذ منتصف العصر الوسيط عرفت هذه الواجهة البحرية آزدهاراً عظيماً يعود إلى روح المغامرة التي تتجلى عند شعبها التاجر الذي اختلط بجماعات أتت قديماً من الشرق الأوسط ، منها عناصر يهودية، خاصة في برشلونة . والرساميل التي تجمعت نتيجة التجارة البحرية استثمرت أول ما آستثمرت في صناعات النسيج ثم في إنتاج السلع الإستهلاكية على آختلاف أنواعها منذ السنوات الأولى من القرن العشرين .

ومن البديهي أن تكون كاتالونيا في ذروة آزدهارها الاقتصادي على أثر الحرب العالمية الثانية . وهكذا فإن صفاً من المصانع يمتد على مسافة ثلاثين كيلو متراً في خط لا ينقطع شمالي برشلونة . وقد تسربت هذه الإنطلاقة للإستثمار الصناعي إلى المدن التي تمخر الجبل وراء قاعدة كاتالونيا . وآنطلاقاً من وسط جغرافي شديد التنوع ، من شواطىء البلطيق ، يفتقر إلى الكثير من المميزات لأسباب خاصة منها (ضيق سِيفه البحري وصعوبة الإتصالات) ، تبدأ منطقة بحرية آرتبط نموها في الأساس بنشاطات طاردة بالنسبة إلى القارة .

المساحات الطريّة (البلاستيكية)

ثمة وحدات جغرافية تبدو ، للوهلة الأولى ، كنموذج للمساحات المنظمة ناتجة عن مشاريع متتالية لأجيال ومجموعات إنسانية وذلك في مناطق تعرضت لتشابك في الظروف الطبيعية النافعة والضارة دون إفراط أو تحديد بديهي . فهذه الوحدات الجغرافية هي عبارة عن سهول فسيحة . غير أن مجموعتينْ من النماذج الإقليمية تشيران إلى فوارق تكاد لا تظهر في البيئة البدائية يمكن أن تتأثر بالأحداث التاريخية محدثة ردات فعل مبدعةٍ تطورات متباينة .

تقابل عادة أقدار الحوض الباريسي بأقدار الحوض الأكيتاني . فكل شيء قد قيل على تسلسل العوامل الناتجة عن الحدث التاريخي الذي تمثل ببدء ملكية آل كَاپيْتْ الذين لم تعتمد سلطتهم ، في المرحلة الأولى إلا على تمركزهم الإقطاعي في إيْلْ ـ دي ـ فْرَانْسْ . ففي حين كانت المساحة المملوكة تتسع تدريجاً على الصعيد السياسي نحو الرين وجبال الألب والپيرينيه ، كانت النواة الأساسية وضواحيها تمتد نحو السين الأسفل ونحو الشمال مستغلة الفوائد الجوهرية لتضامن الوسائل المتعددة . أمّا الحوض الأكيتاني الذي تعرض في هذه الظروف لمساويء

وضع شاذ أنتهى إلى أن يكون نموذجاً فريداً لمنطقة جغرافية قليلة الإمكانيات مختلفة . ولكن ، في الحقيقة ، يميل ميزان المعطيات الطبيعية ، إلى حد ما ، لغير صالحه، إذا نظرنا إلى البقعة المكونة من نماذج التربة الخفيفة والمتأثرة بالتآكل ، وإلى بصمات مناخ قاس محلياً ووجود نهر قلما يصلح للملاحة . وفي التحليل الأخير فإن عزلة المنطقة عن المحاور الإقتصادية الكبرى التي ظهرت في العصر الحديث هي التي ضخمت أثر الضغوط الطبيعية المختلفة ، في حين أن المستقبل السياسي للسهول الواقعة إلى شمالي اللوار كان ، على عكس ذلك ، يعطي تقويماً أمثل لإمكانياتها الملائمة أصلاً .

إن دور الإنسان وتأثير البنى الجماعية الإنسانية ، تبدو كذلك أكثر وضوحاً إذا قابلنا بين تنظيم الحيز المكاني في براندبورغ من جهة وفي پوسنانيا وپولونيا الوسطى من جهة أخرى . ونلاحظ في الحالتين ظروفاً قلما تلائم في البداية كثافة النشاطات المبدعة للتطور ؛ فيما يخص سهولاً ذات مناخ كئيب ممل ، تملأها أكوام من الركام الناشىء عن الجليد المختلف الأنواع الذي يعود تاريخه إمَّا إلى المرحلة الجليدية ما قبل الأخيرة [أي مرحلة وارذه (Warthe)] وإما إلى الإنطلاقة الأخيرة الكبرى للمجلدة الڤيستولية . إن ممرات أُوْرْشْتْرُومْتَولِرْ (Urstromtüler) (اوبرادولين) الرحبة التي تمثل الخط الأكثر تماسكاً وتتابعاً والأكثر احتواءً على التضاريس البارزة على المستوى الإقليمي ، تكثر فيها المنخفضات التوربية الرطبة . إن براندبورغ المأهولة الصناعية الغنية التجهيز ربما كانت منذ البداية أقل حظاً لأنها متأثرة بطريقة غير مباشرة بالتشكيلات السطحية الأكثر عداءً : أي الركام الجليدي المكوَّن من الحصى والرمال والمتداخل مع تجمعات مكشوفة من المياه ، وعلى العكس من ذلك فإن التراكمات الأفضل تمهيداً والقديمة نسبياً من مرحلة وَارْذه في پوسنانيا وپولونيا الوسطى ، تمتد على مسافات شاسعة ، وهي تحتوي على كميات أوفر من الغرين الخصب . في الواقع إن بيئة براندبورغ المنفرِّة لعبت دوراً محرِّضاً لمصلحة التمدد خارج الحدود السياسية الأساسية ولكنها معتمدة في ذلك على تنظيم تقني وعقلاني للمساحة بقدر الإمكان ، تحت إشراف سلطة إستبدادية وجريئة . وبموازاة ذلك فإن البنى الإقطاعية والفوضوية في پولونيا ساهمت عبر العصور في منع استغلال منطقة قسمت أراضيها بين عدد قليل من أصحاب الأملاك القانعين بمصائرهم على الأقل ، على مستوى النزوة الشخصية .

الفصل الثالث

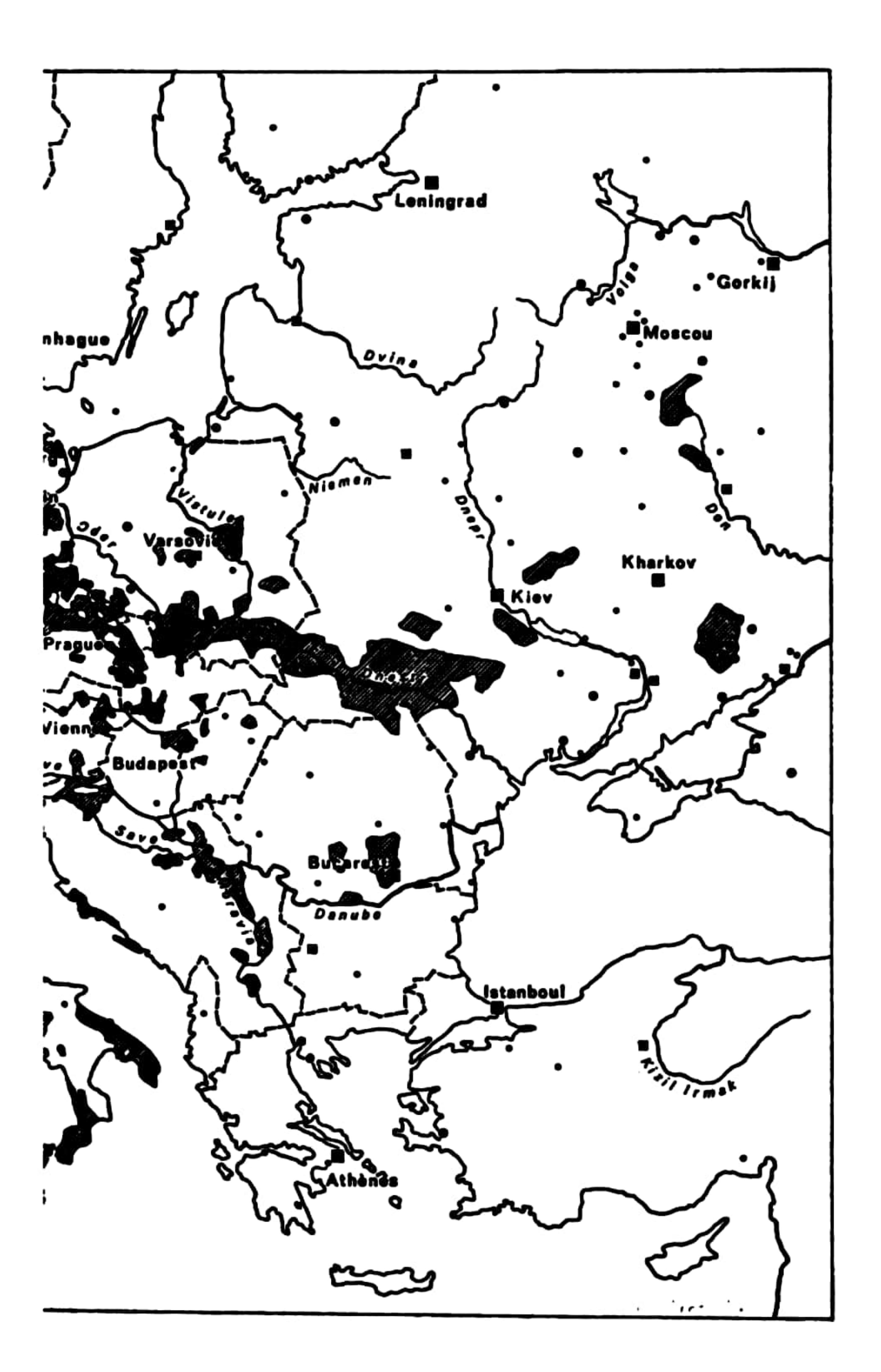
محاور الإستيطان الكثيف للمساحات ومراكز العواصم

إن خريطة لكثافة الاستيطان توضح وجود تلك المحاور عبر أوروبا ، (خريطة رقم 2) وإن دراسة مراكزه وظروف نموه تحمل في طياتها مادة تأمل غنية .

المحاور الكبرى

الممر ما دون الهرسيني الشمالي

يمكن أن نطلق هذا الإسم على شريط من الأرض يتميز بكثافات إستيطان إستثنائية ؛ ويمتد ، تقريباً دون إنقطاع ، من بلاد الغال إلى أوكرانيا . إن موقع هذا الممر المحيط بالجبال الهرسينية ، تارة على الطبقة الأساسية نفسها ، وطوراً على السلاسل الرسوبية التي تغطيها ، يضعه مباشرة شمالي خط العرض 50 في أوروپا الغربية والوسطى ، في حين أنه فيما وراء غاليسيا ينحرف نحو الجنوب . أما في بريطانيا العظمى فينطلق القطاع الأول من هذه المنطقة المسطحة من العتبة القائمة بين بلاد الغال وسلسلة پنين (Pennine) حتى التايمز الأسفل مروراً بسهول تخترقها الأودية بشكل غير رتيب من شِيْشَايَرْ إلى ميدلاندز ووسط الحوض اللندني ، وتشغل الطبقة الرسوبية العليا من السهل الهرسيني هناك حيّزا فسيحاً مع أراضٍ متنوعة الخصائص والأعمار تتراوح بين العصر الجيولوجي الأول حتى الطور الجوراسي . وإذا انتقلنا قليلاً نحو الشرق على أرض القارة ، نجد المنطقة الرينانية السفلى في البلاد المنخفضة وشمالي بلجيكا ورينانيا ـ وستڤاليا ؛ إنها عبارة عن سهل غريني تكوّن في خليج منخفض بالنسبة إلى هضاب الأردين وإيْفِلْ ووِسْتِروَالْدْ ـ سُوَيِرْلانْدْ ، التي تحيط به في شكل نصف دائري . ووراء منخفض لجهة الشمال يتميز برأس حاد يتسع في ساكس ولوزاس بفضل منبسط من السهول والهضاب ضمن زاوية تشكلها



Leningrad
Gorkij
Volga
Moscou
Dvina
Niemen
Vistule
Oder
Dnepr
Don
Kharkov
Kiev
Prague
Budapest
Save
Danube
Istanboul
Kizil Irmak
Athènes

Glasgow
Birmingham
Londres
Paris
Seine
Meuse
Loire
Saône
Rhône
Garonne
Turin
Douro
Ebre
Madrid
Lisbonne
Tage
Barcelone
Guadalquivir

0 500 كلم

عدد السكان بالكلم²

	0 – 100
	100 – 200
	plus de 200

المدن الكبرى

•	100 000 – 250 000 hab.	▪	500 000 – 1 000 000
●	250 000 – 500 000	■	plus de 1 000 000

شكل 2 - مظاهر الكثافة السكانية في أوروبا

ثُورانْجِرْ والْدْ وأرزجبيرج : هنا فوق الهضبة تتوالى الطبقات الرسوبية الپرمية[1] والترياسية[2] ، بشكل بارز ، من الصلصال الملحي إلى الصلصال الرملي إلى الكلس - ويوجد إلى شرقي ذلك سفوح جبال السوديت الپولونية ثم هضبة غاليسيا مادون الكرپاتية ، وهنا وهناك تبرز جبال هرسينية متباعدة (ليزاغورا وسانت - كروا) من تحت غطاء رسوبي متشابه التضاريس . ويستمر هذا الترتيب بشكله الأساسي وبأجزائه التركيبية المتنوعة ، بين طبقة أساس وغطاء حتى أوكرانيا لتصبح كبيرة المقاييس ، وقلما يتميز بعضها عن البعض الآخر ، حتى إن السهل القديم لا يتأثر بها إلا قليلاً .

ومن أجل تكوين فكرة عن الكثافة السكانية ، يجب ، بلا شك ، أن نأخذ بعين الإعتبار ثروات باطن الأرض الثمينة حيثما وجدت ، وهي محلياً ذات أهمية قصوى ، على الأقل ، في بعض المراحل من تاريخ الإقتصاديات : مثل مناجم الفحم الحجري في الجبال الهرسينية ، ومناجم معدنية متنوعة ، سواء في شكل عروق بين صخور الطبقة الأساس ، أو جيوب متداخلة في طبقات القشرة الخارجية . فبالإضافة إلى الفحم وقع الخيار على الحديد والملح في استغلال الثروات الطبيعية . غير أنه قبل التطور الصناعي في القرنين الأخيرين شكل الممر بكامله موطناً مناسباً ، أوّلاً بسبب سهولة الوصول إليه بالنسبة إلى الجبال الوعرة وإلى المستنقعات والغابات العظيمة في السهل الألماني الپولوني . إن المسافة بين هذه الأقطار والخط الأساسي لحدود النهر الجليدي الڤيستولي كانت كافية لتراكمات الطمي الصخري (وليس الرملي) الرافدة ابتداءً من الهارْزْ والتي تتسع أكثر باتجاه الغرب . وكان ذلك مدعاة لاستصلاح الأرض وآستيطانها منذ فجر التاريخ . من هنا كانت المقاومة الفعالة لتثبيت الأملاك الزراعية القروسطية الشاسعة التي تحولت إلى بلدان تسكنها بكثافة جماعات ريفية : لقد تسببت الحرف اليدوية والصناعة والتجمع السكاني بإضافة موجات جديدة من المهاجرين الجدد إلى الأرومة الريفية القديمة .

وعلى امتداد الممر ما قبل الهرسيني الذي يتميز تميُّزا واضحاً بالاستيطان

---

(1) Permien (نسبة إلى مدينة پيرْمْ الروسية) وهي المرحلة الأخيرة من العصر الجيولوجي الأول وتمتد من سنة 280 - إلى 225 - مليون سنة .

(2) Trias : المرحلة الأولى من العصر الجيولوجي الثاني من 225 - إلى 190 - مليون سنة (المترجم) .

الكثيف في منبسطاته ، تظهر نماذج مهمة تعود إلى الخصوصية النسبية للظروف الطبيعية في كل قطاع بمفرده ، وإلى الفوارق العظيمة في التطور الإجتماعي التاريخي . إن حالة سفوح ساكس ولوزاس وغاليسيا ذكرت آنفاً ، بمناسبة تحليل نوع من المساحة يجمع بين جبل غني بالمعادن وسهل خصب . ونضيف إلى ذلك أن طفرة سكن المدن الناتجة عن التجمع البشري ونشاط بعض الطبقات المحظوظة في المجالات التجارية والزراعية أفادت ، ليس فقط العواصم الحقيقية على صعيد أوروبا الوسطى ، مثل لايبزيغ ، أو العواصم الإقليمية مثل دْرِيْدْ وكراكوفيا ، وإنما إيضاً سديما من المدن المتواضعة مثل إرْفورْتْ وِيْنا وَايْمارْ .

أما بالنسبة إلى السهول البريطانية التي تنفتح على وادي التايمز ، عند طرف ممر شيشاير في مِيدْلاَنْدْ ، فإن علاقاتها مع الجبل مختلفة جداً . وفي وقت مبكر أقفرت جبال بلاد الغال وقسم من سلسلة پَنين من سكانها بسبب الطبيعة القاسية والمناخ البارد والرطب معاً . في حين أن ثروات باطن الأرض فيها مضافة إلى مواد مختلفة مستوردة عملت على تحسين وضع المناطق المنخفضة المجاورة بسبب الرساميل التي كانت تجلبها التجارة من الخارج . إضافة إلى ذلك ، فإن الريف ، حتى في وسط السهل ، كانت تختلف جودة تربته من مكان إلى آخر . وذلك ناشىء عن بعدهِ عن تجمعات الطمي الرملي المتكون أثناء المرحلة الجليدية الأخيرة ، ويجب أن نتعرف ، في مختلف ملامح الوسط الطبيعي المذكور ، إلى مساوىء الوضع الأوقياني المتفاقم بحلول البرد . على أي حال فإن هذه السهول التي وقعت في حوزة طبقة من كبار الملاكين استثمرت أكثر من سواها في زراعة العلَف التي لا تحتاج إلى الكثير من اليد العاملة . وكنتيجة لذلك امتدت القطاعات المأهولة إلى مدن قريبة من مساحات فارغة . غير أن الأزمة الاقتصادية التي عرفتها ثلاثينات هذا القرن ثم الحاجة إلى إعادة التعمير التي تلت الحرب العالمية الثانية دفعت المسؤولين البريطانيين تدريجاً إلى التخطيط للعودة إلى الوضع السابق : إحلال جزئي للمشتقات البترولية محل الفحم ، إيجاد صناعة عالية التقنية وإعادة تعديل جزئي لشروط السكن وإطلاق النشاطات عن طريق تنمية المدن الجديدة والمدن الآخذة بالتوسع .

إن أرياف أوكرانيا الغربية والوسطى التي تنعم بخصب طبيعي ، اذ وهبها تطور

التربة ما بعد الجليدية تراباً أسود مع طمي رملي ، عرفت منذ وقت طويل كثافة سكانية قروية ؛ بينما القطاعات التي تطفو فيها الطبقة الأساس القبقمبرية والهرسينية انتظرت القرن 19 لكي يتوفر لها تحسين بفضل استخدام الثروة الفحمية (دَونِتْزْ) والحديدية (كْرِيفُوْيْ رُوغْ وكِرْنْش) ، دون إغفال العناصر المعدنية الأخرى . ويجب أن نتذكر أنه ، بالرغم من إعادة التوازن بين المناطق ، هذا التوازن الذي أثارته المخططات المتلاحقة ، فإن أوكرانيا كانت ولا تزال تقدم في بداية السبعينات نسبة 30٪ من إنتاج الفحم في الإتحاد السوفييتي (السابق) بكامله ، و 49٪ من الحديد المصبوب . و 42٪ من الفولاذ و 47٪ من المعدات المعدنية ، والكلخوزات المعدَّة للزراعات المتعددة (حبوب ، شمندر ، ثمار ، علف) تفيد في هذه المناطق عن طريق الإرث التاريخي ، من يد عاملة وفيرة بالنسبة إلى مساحتها ؛ غير أن حركة نزوح ، تنظمها السلطات ، تميل إلى توجيه الفائض من السكان ، إما نحو المراكز الزراعية في مناطق جديدة (آسيا الوسطى) وإما نحو اتحادات صناعية متطورة على الحدود الشمالية للمنطقة السابقة للعصر الهرسيني (كْيِيْفْ ، كاركوف وتوابعهما) . ومقابل ذلك فإن أوكرانيا البولونية ـ سابقاً ـ في منطقة لْوُو (Lwow) عانت بعض التأخر في مسيرة التصنيع والإعمار .

أما بالنسبة إلى قطاع الممر السابق للعصر الهرسيني الذي يخترق رينانيا وستفاليا وبندوكس ، فإنه يلتقي المحور الكبير الآخر للتجمع السكاني في أوروبا أي المحور الذي ينطلق من منافذ الراين إلى المتوسط الأوسط . ولا غرابة في أن بُؤَر الكثافات الاستثنائية هنا تمتد إلى أقصى حد : لقد أصبح ملتقى الطرقات هذا مركز الثقل الإقتصادي للسوق المشتركة .

محور الرين المتوسط

يمتد محور الراين المتوسط بمخطط عام طبيعي في سلسلة من الممرات تفتح معابر من شمالي أوروبا إلى جنوبيها عاملة على تسهيل الاتصالات بين مجالين بحريين متباينين ومتكاملين ضمن مصائر القارة . يتمتع القسم الشمالي على الأخص بوجود نهر صالح لسير المراكب الثقيلة الحمولة دون الإضطرار إلى انشاءات خاصة . وتزداد الظروف تعقيداً باتجاه الجنوب بسبب ضخامة حجم الجبال في الحيِّز الألبي ، من البدائل الكثيرة الممكنة في تركيز محور الراين ـ المتوسط ، البديل الذي يخترق

التجمعات البشرية الأكثر كثافة ويجمع ممر السهول والتلال من سويسرا الشمالية الغربية إلى خليج جنوى عبر الألب عند مجمع جبال سان غوتار وعبر القسم الغربي لسهل البو ، ووراء ذلك يمتد شريط أرضي كثيف السكان على محاذاة الطرف الشرقي لجبال الأپنين باتجاه الجنوب . لا شك في أن طرق استيطان الأرض تختلف نتيجة للمعطيات الطبيعية الإقليمية والآثار التي تركها تطور تاريخي خاص بكل من هذه القطاعات الأساسية للمحور الأوروبي الكبير المتجه من الشمال إلى الجنوب .

تنفصل منطقة رينانيا السفلى عن كل هذه المجموعة بسبب اتساع نشاطاتها الفريدة المتنوعة ، وهذا ما يعبر عنه معدل استيطان للأرض (من ناس ومؤسسات) يُعَد من بين أعلى المعدلات على سطح الأرض . وتتألف المنطقة التي نتحدث عنها من واجهة بحرية تشرف على طرق النقل التي تسلكها ناقلات العالم بأسره ، وتلتحم بالقارة عند المنطقة السابقة للعصر الهرسيني المذكورة أعلاه ، ويتوافق أول هذه العناصر المكونة مع القطاعات الساحلية للمصبات الموحَّدة المجرى أو التي تشكل دلتا لأنهر الراين والموز والإسْكُو في البلاد المنخفضة والفلاندر البلجيكية . فهذه البلاد المنبسطة تنعم ، بالإضافة إلى الأقطاب الاقتصادية التي تأتي في الأهمية الأولى على المستوى العالمي مثل روتردام وتلك التي تدنو منها مثل أنْڤِرْز وأمستردام ، بشبكة مدن واسعة الإنتشار كلية الوجود ، لكنها لم تستوعب الحياة الريفية بل لا يزال يلزمها الكثير لذلك . لقد بلغت الزراعة في هذه البلاد أعلى مستوى من التقنية . وإن الكثافة السكانية التي تتراوح هنا ما بين 500 و 1000 نسمة في الكيلومتر المربع ، تعبر تمام التعبير عن الاستثمار العقلاني للثروات المحلية المفضلة وعن روح المبادرة لدى الناس الذين أحسنوا الإنتفاع من انفتاح منطقتهم على المحاور الكبرى للتجارة العالمية ، مكيفين نشاطاتهم ، على مرور الزمن ، مع تقلبات الظروف والأحوال .

إن العنصر الثاني المكوِّن للمنطقة الرينانية السفلى يتمثل بالقطاعات الصناعية ما قبل الهرسينية والهرسينية لرينانيا ـ وستفاليا في ألمانيا أو منطقة الرُّوْهْـر بالمعنى الأدق للكلمة ، لقد قدم باطن الأرض منذ البداية مواد معدنية أولية كالحديد وعلى الأخص الفحم ، حوِّلت واستخدمت محلياً لتصنيع مواد حديدية ومعدنية مختلفة تباع في الأسواق التجارية المحلية والعالمية عن طريق الراين بنوع خاص ، ويقصد

التنظيم الفعّال لكل أنواع البنى التحتية وكثافات اتحادات الشركات على الطريقة الأميركية . تفوق الخصائص المختلفة للمنطقة المستوى الأوروبي العادي ، وأولاها الكثافة السكانية التي تتجاوز 1000 نسمة في الكلم^2 .

من هنا فإن الممر العملاق عبر جبال الصفيح الرينانية هو الذي يعبر النهر صعوداً وقطاع الراين الأوسط من مايانْسْ إلى بَالْ . هذا الشريط السهلي المحصور بين الجبال على أثر تبدلات لطبيعة الأرض منذ العصر الجيولوجي الثالث ينعم بمناخ وقائي ومجموعة أثرية صالحة للزراعة ، في حين أن مناوبة زراعة الحبوب والعلف تعم الأقسام السفلى ، وتتعرّش الكرمة في أعالي السفوح وعلى منحدرات الجبال المجاورة ، وعلى الأخص في الألزاس والپلاتِيْنِيْتْ . انتشرت ظاهرة آزدحام المدن شيئاً فشيئاً آنطلاقاً من المناطق الواقعة على مفارق الطرق حول فرانكفورت ـ مَايانْسْ ومانهايم ـ لُودْ وِينْغْشَافِنْ وكَارْلْسْرُوهِ وستراسبورغ وبال ـ مولهاوس . غير أن تجمعات ملتقى مين وملتقى نيكَر سجلت ، على صعيد التنمية سبقاً مدهشاً على المناطق المدنية الأخرى في الراين الأوسط وخاصة بالنسبة لكارلسرويه (Karlsruhé) وستراسبورغ اللتين أعاقهما لمدة طويلة موقعهما على حدود معرضة للأخطار ومحمية عسكرياً . فمنذ نهاية الحرب العالمية الثانية أقيمت مؤسسات ومنشآت من كل نوع في أرياف الألزاس وبسرعة أكبر في ولاية باد . ولكن ممراً ثانياً برز إلى جانب ممر الراين شرقي الغابة السوداء على امتداد المنخفض المواجه للشمس ، يصل بين الغابة وبين الجورا السوابية . وقد أدى ازدهار شتوتغارت إلى هجرة جماعية للنشاطات الصناعية المنتشرة على صف من الدساكر بين قاعدة ورتمبرغ وبحيرة كونستانس . ورسخت بالْ ، مدينة النبلاء القديمة ، أقدامها أخيراً في عالم التجارة مستخدمة رساميل جعلت صناعاتها الكيميائية خاصة تعوِّم أسواق الضواحي القائمة على الأرض الفرنسية (سان لويس وهونينغ) والألمانية (لوراك) .

ويمتد محور الراين ، المتوسط ، فيما وراء قطاع بال ، عبر منطقة التلال السويسرية حيث يلتقي ممر أسفل الألب الذي سيأتي الحديث عنه . وهكذا فإن موقع ملتقى الطرق هو الذي يجعل لهذه البقعة من الأرض السويسرية تلك الكثافة السكانية في استيطان الأرض واستثمارها . وبعد حل مسألة الإستمرارية التي فرضتها جبال الألب ، ليس فيما يخص قضية الإتصالات ، ولكن كيفية تنظيم المساحة ،

فإن التجمعات البشرية الكثيفة تعود إلى الظهور ابتداءً من سفح سلسلة لومبارديا (راجع نماذج المساحات المميزة المذكورة أعلاه) وتتنامى في وسط السهل بفضل تجمع نشاط الخدمات والإنتاج الذي يتركز حول ميلانو . وتتمدد هذه الشبكة المدينية والصناعية حتى سلسلة جبال الألپ الليغورية التي تكاد تلتحم بمنطقة المرفأ في جنوى . غير أنه يوجد بين بال والمتوسط محور يختزن طاقة النمو والتطور ويفيد من ممر طبيعي حر ، أي ذاك الذي يخترق بورغونيا وأخدود السون ـ الرون . ولكن تأهيل النهر ، الذي بوشر العمل به في منتصف القرن العشرين ليصبح صالحاً للملاحة ، لم ينتهِ العمل منه بعد ، والاتصال بين السون والراين يتم بواسطة قناة قديمة خربة وغير صالحة للملاحة الحديثة . وقد بدأت المنشآت الصناعية تتركز عند مصب الرون ، وأصبح هذا القطاع من وادي ڤيلْفرانْش ـ سور ـ سون حتى جنوبي ڤيينا سوقاً من المصانع ، وإن محوراً آخر موازياً لمحور الراين ـ المتوسط في قسمه الجنوبي ، يمر في الأراضي الفرنسية لا يزال يشكل جزءاً من الخطط المستقبلية .

لا يسعنا التغاضي عن مركز لشريط من الأرض تتصل كثافته السكانية الهائلة بالكثافات السكانية لمحور الراين ـ المتوسط في لومبارديا . ويبدو أن هذا الشريط يمتد على طول الأپنين الشرقي مروراً برومانيا والمارش حتى پُوْيْ ؛ ففي كل بقعة تقريباً على امتداد الشاطىء الأدرياتيكي يلاحَظ حوالي 200 نسمة في الكلم^2 . ولكن شروط استيطان الأرض هنا هي ، في الواقع ، ذات طبيعة مختلفة . إن لتجمُّع الناس ، خاصة في البيئة الريفية ، علاقة ما مع أنظمة الزراعة المكثفة التي تستخدم ، على أكمل وجه ، كميات المياه الإضافية للري من أجل إنتاج سلع عالية المردودية ـ من البقول والفاكهة ـ إلى جانب الحبوب والعلف . ولكن البنى الإجتماعية ، التي تهيمن عليها غالبية من المالكين الكبار ، تحول دون بحبوحة مستغلِّي الأراضي . وليست المدن ، بشكل عام ، سوى قرى خدمات متضخمة ، باستثناء البعض منها ، هي أساساً مرافىء مثل باري وأنكوم أو مدن إدارية مثل فوغجيا (Foggia) ، اكتسبت دوراً صناعياً لوجود يد عاملة وفيرة غير متطلبة كثيراً ، وإن الضغط الديموغرافي الطبيعي هو الذي يتحكم بعدد السكان أو ، بالواقع ، بالكثافة السكانية الفصلية في هذه السفوح . نحن هنا أمام مستنبت بشري ينطلق منه طلاب العمل يقدمون خدماتهم في مختلف قطاعات النشاط ، إمَّا في إيطاليا وإما في

بلدان أوروبية مختلفة وخاصة على امتداد محور الراين ـ المتوسط من سويسرا إلى بحر الشمال .

محاور مخططة وغير مكتملة

في أوروبا منظومات جغرافية لقطاعات حبتها الطبيعة ، بكثير من الظروف المشتركة ، أراضي زراعية خصبة ، وسهولة مواصلات وخزينا من الطاقة الناشطة ، غير أن التجمعات البشرية والنشاطات لا تتجسد فيها إلا بشكل متقطع ، وهي ما يسمى بالمحاور غير المكتملة ولكنها موجودة بخطوطها الأولية .

ممر سفح الألپ
من بحيرة ليمان إلى ڤيينا

إن منطقة التلال الرملية السويسرية المخددة بأودية قليلة العمق تكونت في موجات الجليد في العصر الجيولوجي الرابع ، وهي تشكل بين جنيف وشواطىء بحيرة كونستاس منطقة حبتها الطبيعية ميزة فريدة ، يبلغ عرضها حوالي الخمسين كلم بين الجورا وهضبات جبال الألپ وتمتد وسط شريط في أسفل البلاد على موازاة الطول ، هو عبارة عن ممر طبيعي للإنتقال من الحدود الفرنسية إلى ڤُورَارْلْبِـرْغْ (Vorarlberg) (ولاية نمساوية) والهضبة الباڤارية حيث الكثافة السكانية تتجاوز بطريقة متواصلة 200 نسمة لتبلغ 400 نسمة في الكلم^2 في بعض الأمكنة . فعلى جانبي هذا الأخدود الكثيف الاستيطان ، قطاعات ريفية في أغلبيتها ، تستوعب تجمعات سكانية تتجاوز متوسط أرياف أوروپا الغربية . ولكن عند بلوغ السفح الباڤاري أو ممر سفح الألب في النمسا اللذين هما امتداد باتجاه الشرق لهذه المنطقة الطبيعية نفسها ، تتبدى وقائع تنظيم هذه المساحة على كثير من التباين ، فالقطاعات التي تستوعب كثافة سكانية تتجاوز 200 نسمة في الكلم^2 لا تشكل خطاً متصلاً بل سلسلة من التجمعات المنفصلة بعضها عن بعض بمسافات متفاوتة الطول وإن كانت منتظمة في محور طبيعي يشمل لاندسبورغ ـ أوغسبورغ وميونيخ ومحيطها وروزنهايم وسالزبورغ وضاحيتها والخلايا الصناعة من ڤُوكْلاَبْرُوكْ إلى لينز ، والجزائر القليلة السكان حول أَمْشْتَـاتِنْ (Amstetten). ومِلْكْ وسانْكْتْ ـ بُـوْلْتِنْ وكْـرِيْمْس ووادي الدانوب بين تُولْنْ (Tulln) وڤيينا ، ويتخلل هذه التجمعات مساحات قليلة السكان لا تزال تحافظ على طابعها الريفي .

يفسر التجمع البشري في التلال السويسرية بنسق من المعطيات المميزة شبيهة بمعطيات الأجزاء الأكثر خصباً في المحور الريناني . هنا يتموضع القسم الأعظم من المنتجات الغذائية للإتحاد الكونفدرالي : إن عدداً من الإستثمارات الزراعية نجح ببلوغ معدّلات إنتاجية كافية لاستغلال كل التقنيات الحديثة . من الضروري أن نرى هنا نتيجة إعادة بناء تحققت تلقائياً وتدريجاً وليس إلزامياً ، بمقدار ما انجذبت عناصر عديدة نشيطة من السكان إلى وظائف من القطاعين الثاني والثالث ، وإذ استجاب هذان القطاعان للشروط الجيدة للبيئة الطبيعية ، وأكثر من ذلك ، لتوفر الرساميل الاستثنائية ، قدّما أجوراً مرتفعة منذ الربع الأول من القرن العشرين ، ولكن تشجيع الإقتصاد الإقليمي نفسه أتاح لاستثمارات زراعية ، ظلت متواضعة ، أن تكتسب ، بنشاطاتها العائلية المختلطة، الوسائل لتحقيق استثمارات ضرورية من أجل الوصول إلى إنتاج تنافسي .

ويمكن التحدُث ، عن السفح الباڤاري كما عن سهول النمسا وتلالها ، بخصوص تطور في الإتجاه نفسه ، ولكن يزداد نقصه وتقهقره وضوحاً كلما توجهنا نحو الشرق ، ويجب الأخذ بعين الاعتبار الفوارق الإقليمية للتركيب الطبيعي والمساحات المأهولة من جهة ، ومن جهة أخرى العراقيل التي تضعها بوجه الإقتصاد ، طبيعة الأرض وتشريع الدول في نهاية القرن التاسع عشر وفي النصف الأول من القرن العشرين . تمتد المنطقة الباڤارية الواقعة عند سفح الألب ، بعد تواري إقليم الجورا ، على أكثر من 100 كلم نحو الشمال وتتحول إلى مسطح سفحي مغطىً بطبقة من الجص ، باستثناء البطاح الرسوبية المتحدرة من جبال الألب . ويفهم من ذلك أن القطاعات الجاذبة تجمعت حول بعض المحاور مثل وادي الدانوب من أولْمْ إلى راتسبون أو أيضاً ، الطريق التقليدية من ورتمبورغ وتلتقي عند نقط عديدة طريق البحر المتوسط القديمة باتجاه أوروبا الوسطى. فعلى هذه المنطقة الخلفية حَدّد مدخل مدينة ميونيخ ، العاصمة الإقليمية على المستوى الأوروبي ، استيطاناً أكثر كثافة من المسطح الباڤاري المجاور ؛ وذلك عائد إلى كثرة الوظائف وحاصل العائدات التي تهم ، بالإضافة إلى الضواحي ، قسماً من الأرياف بحد ذاتها .

وإن القسم الضيق من ممر سفح الألب ، في النمسا الذي يحده شمالاً كتلة

جبال بوهيميا ، يكوّن إطاراً طبيعياً يشبه إلى حد ما التلال السويسرية . ولكنما أعاق تطوره ، لمدة طويلة ، كونه جزءاً من إمبراطورية فسيحة يغلب عليها طابع المناطق الريفية المتخلفة إقتصادياً بحيث إن الرساميل المعدة للمنشآت الصناعية وظفت في بعض المناطق التي تجمع سهولة المواصلات إلى خصوبة الأرض إلى وجود مناجم معدنية كبيرة ؛ تلك كانت حالة الحدود الشمالية لهضبة بوهيميا وللممر المورافي ـ السيلازي ولأخدود مُورْزْ ـ مور في جبال الألب في ستيريا . كانت المنطقة النمساوية الواقعة عند السفح ، لا تزال تشتمل ، فيما بين الحربين العالميتين ، على أرياف مؤهلة زراعياً ولكن لم تكن تعطى قيمتها الحقيقية ، وإن الاحتلال الهتلري هو الذي أسس منشآت صناعة الحديد في لينز ، وكان يجب بالتالي ، انتظار المساعدة الأميركية في نهاية الأربعينات ثم تدفق الرساميل الواردة من الجمهورية الاتحادية الألمانية ثم الإمكانيات الجديدة للاستثمار القومي انطلاقاً من منتصف الخمسينات لكي تنشأ كل أنواع الصناعات المنتجة للسلع الاستهلاكية في النمسا العليا وفي ضواحي ڤيينا ، ولكي ينطلق تجديد بنية الحياة الريفية . ولكن هذا التطور الذي كان يميل إلى اللحاق بالنموذج السويسري لم يعوض بعد تقصيره عن هذا النموذج المذكور .

محور سيليزيا ـ الأدرياتيك

إنْ منظومة من المناطق الهشة القشرة ، متجهة شمالاً بشرق فجنوباً يغرب إلى شمال ـ شمال ـ غربي؛ فجنوب ـ جنوب ـ غربي ، كونت عبر المجال الهرسيني وعبر جبال الألپ لجهة الجنوب ممراً متقطعاً غير متساوي الإتساع يشكل طريق عبور بين السهل الألماني ـ البولوني والأدرياتيكي . إن مدخله الشمالي يقع في منطقة مناجم الفحم في سيليزيا المقسمة بين پولونيا وتشيكوسلوڤاكيا : وإن الطبقات المستثمرة من بقايا العصر الفحمي بقيت على صورة جزء مشقق منخسف من الأرض بمحاذاة كتلة جبال السوديت القديمة ، بينما الثنايا الكرپاتية شكلت إلى الجانب الآخر من الممر سلسلة جبال البِسْكِيْد . وإلى الجهة الجنوبية من ذلك تكونت تلال موراڤيا من الترسبات التي تملأ الحفرة التكتونية التي ازداد اتساعها إلى حد ما في العصر الجيولوجي الثالث بين مرتفعات هضبة بوهيميا والكرپات السلوڤاكية . وعلى امتداد هذا المنخفض الكثير الوديان المتجه نحو الجنوب استمر الإنخساف خلال العصر

الجيولوجي الرابع ، الأمر الذي يفسر الرتابة النسبية للسهول الرسوبية الواقعة في حوض النمسا ، وبالإضافة إلى الثروات المعدنية المبعثرة هنا وهناك على امتداد هذا المحور ، منحت الطبيعة الإنسان منذ استيطانه هناك مساحات شاسعة من الفرجات الصالحة للزراعة والخصبة بفضل طبقات الغرين التي تعلوها .

وابتداء من الطرف الجنوبي لحوض ڤيينا وفيما وراء سِيْمِيْرِنْغْ الألبي (980 م) يتقلص المحور المفتوح ، باتجاه الأدرياتيك ، إلى أخدود ضيق في وادي مُوْرْزْ ووادي مُوْرْ حيث تمتد سلسلة من الحفر التكتونية مكونة من اللِّيْنِيْتْ في العصر الجيولوجي الثالث بينما يكثر في الجبل المجاور ركاز الحديد العالي النسبة ، يجب اجتياز زَنَقة جديدة تدعى نُيومَارْكْتْ (Neumarkt) (ارتفاعها 880 م) للوصول إلى حوض كارنثيا الفسيح ، وهو خليج سهلي في وسط جبال الألب الشرقية ومدخل إلى فريول (Frioul) (منطقة تاريخية في إيطاليا) . ولكن إلى الجنوب من ڤيينا منطقة أخرى لتجمع النشاطات البشرية تتجاوز أخدود ستيريا : إنها سفح يمتد بين بُورْغِنلاَنْدْ (Burgenland) وغْرَازْ هو عبارة عن عدة أودية غنية بالثروات المعدنية والإستثمارات الحرجية تنتهي عند أراضٍ معرضة لأشعة الشمس وصالحة لزراعة عالية المردود .

ويستنتج أن ممر سيليزيا ـ الأدرياتيك هذا يشكل مثيلاً شرقياً لمحور رينانيا . ولكن كثافة الاستيطان لا تشبه إطلاقاً ما يتميز به هذا المحور الأخير . توجد البقاع الكثيفة السكان المنفصلة بعضها عن بعض في عدد من القطاعات المتميزة بوفرة المنشآت الصناعة ، وهي : هضبة سيليزيا ، شمالي موراڤيا ، أواسط حوض ڤيينا ، ملتقى بْرُوْكْ ـ لُوبِنْ في ستيريا ، محيط غْرَازْ وضواحي كْلاَغِنْفُورْتْ (Klagenfurt) وڤيلاكْ . وتبدو فيما بين المحورين مناطق يغلب عليها الطابع الريفي ، حيث تكثر القرى المكتظة بالسكان وتبلغ الكثافة السكانية أو تتجاوز عادة 100 نسمة في الكلم[2] . فلا شك في أن الإطار الطبيعي يفرض تلقائياً بعض الانقطاعات الناشئة عن تفاوت في اتساع المساحات السهلية المتميزة بالخصب وعن وجود مناجم معدنية . ولكن يجب أن نأخذ بعين الإعتبار موقع محور سيليزيا ـ الأدرياتيك على حدود قطاعات ضخمة من الأملاك الإقطاعية الزراعية التي ميّزت ، خلال قرون وحتى المرحلة القريبة من زماننا ، الوسط الشرقي لأوروپا مع شرقيها . لقد حافظت هذه

البنى على حالات من التخلف الريفي ، في حين أن الرساميل الجاهزة في الملكية المزدوجة القديمة كان يفضل توظيفها سواء في مناجم الفحم في مورافيا ومناجم الحديد في ستيريا (مع مقايضة المواد الأولية بين هاتين المنطقتين) أو في حوض ڤيينا . وبعد الحرب العاليمة الثانية فقط وبفضل تأسيس بنى تحتية للطاقة الحديثة وبفضل الرساميل الجاهزة المحررة بطرق مختلفة ، تبعاً للمناطق ، عند ذلك بدأت هذه الفجوات ، بين القطاعات الناشطة منذ القدم ، تشهد تأسيس أعمال من القطاع الثاني (وإنتاج سلع استهلاكية من كل الأنواع) والقطاع الثالث . إن شكل الطبيعة والجداول الديموغرافية المتتالية (على سبيل المثال 1961 ، 1971 بالنسبة إلى النمسا) توضح هذه التغييرات الضخمة . ولكن التطور الذي لم يصمم إلا حديثاً ، يظل عملياً غير مكتمل بسبب العراقيل المفروضة على انتقال البضائع والمسافرين بين قطاعات الممر ، هذه العراقيل التي فرضها الإقتصاد الاشتراكي والتأميم من جهة ومناطق الاقتصاد الحر من جهة أخرى . وتبدو القطاعات المتاخمة لتشيكوسلوڤاكيا في النمسا السفلى والمتاخمة لهنغاريا في بورغنلاند ، تبدو في هذه الظروف كمناطق هجرة ريفية لمصلحة المناطق الأكثر ازدهاراً في الممر ، بين ڤيينا وستيريا الوسطى ، على سبيل المثال .

تصميم لنموذج العواصم الأوروبية

تبرز المدن الأوروبية الكبرى في وسط هذه السُدُم من المدن التي تشكلها ، في أماكن عدة ، المحاور المزدهرة المذكورة أعلاه . أما البعض الآخر ، عكس ذلك ، فيقع متناثراً بعيداً عن العمود الفقري للإقتصاد ، وفي أماكن حيث الحياة الريفية لا تزال تلعب دوراً هاماً ، كما يمكن أن نلاحظ ذلك في الجناح الجنوبي - الغربي للقارة (منها قسم كبير في فرنسا) كما في شرقي محور سيليزيا - الأدرياتيك . إن العواصم أو المدن الرئيسية التي هي مدينة بتفوقها ، ليس فقط للإنتاج الذي تحققه ، بل خاصة لطاقة الدفع وللخدمات الرفيعة المستوى التي تقدمها . إن هذه المدن يمكن أن تُقسم إلى عدة فئات تبعاً لطرق نموها المرتبطة بالظروف الجغرافية الأساسية التي انعكست عليها إيجاباً أو سلباً وذلك ، رهناً بالتطورات التاريخية ، الاقتصادية أو السياسية ـ لمختلف أقسام القارة الأوروبية .

العواصم السياسية على المستوى القومي

إن لأكثر الدول الأوروبية عواصم تجاوز عدد سكانها عتبة المليون نسمة بالرغم من صغر مساحتها ، مثل پراغ وڤرصوڤيا وبوخارست وكذلك مدريد وروما . لهذه المدن ، عامة ، موقع وسطي ، سواء بالنسبة إلى مجمل البلاد أو بالنسبة إلى الإقليم الذي يشكل النواة التاريخية الأساسية . وقد أسهم في تأسيسها جملة أحداث قديمة تشابكت نتائجها أو إرادة أميرية حديثة نسبياً مثل مدريد وبوخارست . وعلى أي حال فإن الموقع الجغرافي الملائم هو الذي حدد دور القيادة على المستوى الوطني . وإن أعمال الدولة بلغت في أيامنا هذه حدًّا من الإتساع والتشابك والحضور الكلي . أثّر ، ليس فقط ، على التجمعات البشرية ولكن أيضاً على مراكز النشاط الإنتاجي وطبيعته . وروما ومدريد المدينتان اللتان كانتا حتى الأمس القريب لا ضواحي لهما ، وكان يحيط بهما فسحات حرّة خاوية ، نشأت فيها ، بعد الحرب العالمية الثانية ، صناعات تنتج سلعاً إستهلاكية وأدوات ذات تقنية عالية . وأفاد هذا التمدد ، التلقائي إلى حد كبير ، من المساعدات الدولية . ويجدر بنا أن نحلل تحليلاً خاصاً وضع روما الأكثر تعقيداً من وضع مدريد ، بحيث يضاف إلى ذلك البعد الدولي لكونها عاصمة الدين المسيحي والثقافة الكلاسيكية . أما في بوداپست فالدولة المخططة هي التي دعمت بمنهجية النمو الصناعي للتجمعات البشرية ، عكس أكثر البلدان الإشتراكية في القسم الشرقي من أوروپا حيث جرى الحد من إنطلاقة العواصم الوطنية مثل پراغ وبوخارست حفاظاً على توازن المناطق .

العواصم الإقتصادية على المستوى الأوروبي

المقصود بذلك تلك المدن التي تتعدى وظائفها الإنتاجية حدود الوطن لتشع على قسم كبير من أوروپا ، حتى إلى أبعد من ذلك ، وبطريقة أكثر دلالة ، فإنها توجد إما على أحد المحاور المكتظة بالسكان وإما في المراكز القريبة منها وترتبط بها خطوط مواصلات سهلة . وتشكل هامبورغ ، بهذا الخصوص وبين الهيئات المرفئية ، المثل الأنجح ، أما حالة لندن الأكثر تعقيداً فسنأتي على ذكرها في النهاية .. وعند طرفي هذه المنظومة السابقة للمرحلة الهرسينية ، تقوم برمنغهام وكاركوف التي يتعدى عدد سكانها المليون نسمة بكثير ، فوق مجموعة مكتظة من

المدن الأقل أهمية . إن حجم برمنغهام ، في الحقيقة ، يتناسب مع علاقاتها التجارية على المستوى العالمي بكامله ، منذ أكثر من قرنين من الزمن ، وفي كاركوف تفوق الوظائف الإنتاجية إلى حدٍّ ما الوظائف التنظيمية والإتصالات ، بمعنى أن قسماً من وظائف الإتصالات تحوَّل إلى مصلحة كييف وموسكو : ويبقى أن هذه العاصمة الاقتصادية في حوضي دنيبر ودُونِتْس تشع بعض نشاطاتها على سائر أقطار الإتحاد السوفييتي (السابق)، وقد أفادت المنطقة المدينية في ميلانـو، بملايينها الثلاثة والواقعة على محور الراين ـ المتوسط ، ليس فقط من موقعها الجغرافي الممتاز ، منذ فجر التاريخ ، على ملتقى الطرق المنحدرة من جبال الألب الوسطى ، ولكن أيضاً من التجمع الاستثنائي لوسائلها على مستوى بلد كبير ، بعد إنجاز الوحدة الإيطالية ، وإذ اصبحت مدينة ميلانو أحد أكبر المراكز التجارية في أوروبا معتمدة على كتلة إنتاجية من جميع الأصناف ، فإنها تشكل موقعاً إيطاليًّا لرصد التيارات التجارية العالمية ، وأخيراً فإن أجزاء أخرى من محاور تجمع النشاطات في أوروبا تؤلف ، ليس مدينة مهيمنة بالنسبة إلى محيطها الإقليمي ولكن ، مجموعات من المدن المتكاملة مثل مجموعة روتردام ـ لاهاي ـ امستردام ـ أوتراخت . أو مجموعة الرُّوهْرْ أو المثلث السكسوني : الهال ـ لايبزيغ ـ دْرِيْسْدْ .

مدن عملاقة من المستوى العالمي

بلغت بعض المدن الأوروبية من التجمع البشري والنشاط مستوى عالياً جداً وضعها في مصاف المدن المهيمنة على نطاق الكرة الأرضية . ويبدو واضحاً أن هذه المدن هي نتاج التاريخ بمقدار ما هي عواصم دول عظمى . إن باريس وموسكو ، اللتين يتسع مداهما العمراني المتصل لحوالي 8 ملايين نسمة ، لا تدينان كثيراً بامتدادهما لقيمتهما الإقتصادية ولكن للوقائع المتراكمة عبر الأجيال على صعيد المركزية السياسية والإقتصادية التي تستجيب لصيغ تختلف من حالة إلى أخرى . تتمثل في باريس دولة اكتسبت سياستها وعلاقاتها الاقتصادية إشعاعاً عالمياً استطاعت المحافظة عليه رغم التبدلات العميقة المعاصرة . وإن عدم تكيُّف بعض الأوساط الإقليمية وخاصة في الغرب والجنوب الغربي من فرنسا مع نماذج النمو في العصر الحاضر ، يعتبر إرثاً من الماضي يسهم في تكثيف وسائل الإنتاج حول العاصمة . وبالنسبة إلى موسكو فإن نموَّها كان مشروطاً بطاقةٍ ترتكز على أراض شاسعة ذات

ثروات تزداد قيمتها باطِّراد. وتبلغ لندن مع ضواحيها اليوم مستوى متفوِّقاً من الكثافة السكانية أي 17 مليوناً نسمة ، ويتم هنا مزيج فريد من المعطيات الملائمة : دور سياسي من الدرجة الأولى تمارسه الدولة والأمة في العالم ، مركّب متوازن من الأوساط الجغرافية في حوض التايمز ، موقع مرفئي قرب مضيق يواجه تقريباً نهاية المحور الريناني على أحد البحور الأكثر ارتياداً في العالم .

مدينتان كانتا فيما مضى على مستوى عالمي نكبهما التاريخ ، هما : برلين التي كانت تعادل باريس بالنسبة إلى عدد سكانها قبل الحرب العالمية الأولى ، تقهقرت بشكل محسوس بسبب الأحداث التي صحبت وضعها السياسي ـ المؤقت بشكل مستمر[1] ـ وخاصة نتيجة تقسيمها بين عالمين متواجهين . أما ڤيينا ، المدينة المدهشة ـ وخاصة في مجالي الفنون والثقافة ـ فهي تمتاز بموقعها وسط أوروبا وعند ملتقى الأمم ، على امتداد محور سيليزيا ـ الأدرياتيك ، حيث يحتك الشرق بالغرب في العناصر المكونة لهذا الإطار الطبيعي كما في الأحداث التاريخية المتتالية . ولكن الظروف الحالية تقيم الكثير من العوائق بالرغم من الموقف الحيادي للنمسا . ويتوجب ، كذلك ، على هذه المدينة الدانوبية العظيمة أن تجاهد للتمسك بكل أنواع النشاطات التي تسمح لها بالاحتفاظ بهذا المليون ونصف المليون من السكان ، إنها لا تزال تتشبث بهذه الطاقة التي تجعل منها عاصمة على المستوى العالمي ويُؤمل أن يحقق المستقبل هذا المطمح .

---

(1) وقد انتهى هذا المؤقت بسقوط جدار برلين (م) .

الكتاب الأول

أوروبا ما قبل التاريخ

الفصل الاول

الأوروبيون الأوائل والمراحل الجليدية في العصر الجيولوجي الرابع

لم تكن أوروبا ما قبل التاريخ وفجر التاريخ أي ما يقرب من مليون سنة قبل التاريخ الميلادي تشكل منطقة سكن بدائي . لقد جاءت الهجرات البشرية من أفريقيا الشمالية خاصة ومن الشرق الأوسط ومن منطقة أوروبا الآسيوية مستخدمة الظروف الطبيعية المحلية خير استخدام ومستقلة طرق الإتصال العريضة التي تخترق مجمل القارة .

اوروبا الصيادين

منطقة ملحقة بأفريقيا

قد يكون الإنسان الأفريقي (أو شبه الإنسان Australopithèque) انتقل من أفريقيا إلى أوروبا . ولكن بقايا الحجارة المنحوتة في شيلهاك ومراكز أثرية أخرى من اللوار الأعلى لا تزال تعتبر شواهد غير أكيدة . وربما حمل الإنسان الأول من عصر البليستوسين الأوسط ، من المغرب ، أدواته الظرانية الحادة ؛ فهذه الأدوات العالمية الانتشار التي استخدمت كما استخدمت الشظايا ذات التقنية المتقنة خلال العصور المعروفة بالأبيفيلي (Abevillien) والكلاكتوني (Clactonien) والأشولي (Acheuléen) والتاياسي (Tayacien) . وتكثر المواقع الأثرية في أوروبا وتتشابه أماكن السكن على مصاطب السوم والتايمز والمغاور في فرنسا الجنوبية بمعطياتها .

الإنسان الموستيري[1]

بظهور الإنسان النياندرتالي شغلت الحضارة الموستيرية المنطقة الأوروبية المحررة من الثلج من إنكلترا إلى سيبيريا مع منشآت ثابتة في أفريقيا الشمالية

---

(1) نسبة إلى مركز أثري في دوردونيا (فرنسا) .

والشرق الأوسط . لقد تنوعت العدة قليلاً ولكن أدوات الصيد ظلت كما هي . وظهرت بعض المستجدات الحضارية : أكواخ مغطاة بجلود حيوانات في مولدوفا في الإتحاد السوفييتي (السابق) ، ومراسم الدفن كما في شابيل - أو - سان في كوريـز وَكيك - كوبا في الكريمه .

حضارة الرِّنّة وفنها

قبل 35000 سنة من العصر المسيحي بسط الإنسان العاقل (Homo sapiens) نفوذه على أوروبا بكاملها وأكثر من تنقلاته وهجراته في اتجاهات مختلفة ، بالغاً بريطانيا العظمى التي كانت ما تزال متصلة بالقارة .

وبالرغم من البرد القارس في هذه النهاية الطويلة للمرحلة الجليدية الوورمية (Wurmien) التي قلما تخللتها فترات من الاستقرار المناخي ، كان الصيادون المتخصصون بصيد الماموت ووحيد القرن والحصان والرِّنّة يمتلكون أدوات حجرية متنوعة وأكثر تكثُّفا ، حيث الشفار والرؤوس الحادة والمناقِش للحفر لعبت دوراً هاماً أكمله استخدام أدوات من عظام مثل الخطاف ، هذا عدا الأقواس والنبال .

إن تنقل الشعوب جعل من الصعب إيجاد تحديد دقيق للفئات (Groupes) الثقافية : قد تكون الأسرة الأورينياسية وجدت في وقت واحد مع الأسرة الغرافيتية ما بين 30000 و 18000 في أوروبا الوسطى والشرقية كما في أوروبا الغربية . فالخصائص المحلية متعددة ، استمرت في الشرق الخصائص الغرافيتية مدة طويلة ، ولكنها تحددت في فرنسا ما بين 18000 و 15000 المرحلة السولوترية (Solutréen) الوسطى الطويلة الأمد ذات البدايات غير الدقيقة والمتميزة بتطوير ملحوظ لصناعة الحجر . وتعرض المجدليون[1] الذين تعاطوا صيد الرِّنّة إلى تقلبات في الطقس كانت تسبب ارتفاعاً عابراً في درجات الحرارة ، وبالتالي تغييراً في نوع النباتات ، واستوطنوا ، بانتقالهم من الجنوب إلى الشمال ، سهول ألمانيا الشمالية والدانمارك والسويد الجنوبية . وتسجل نهاية عصر الحجر القديم تقدما حضارياً مدهشاً وخاصة في وسائل السكن وظهور أكواخ مستطيلة كما يلاحظ في كوستيانكي

---

(1) سكان العصر المجدلي (Magdalien) : نسبة إلى عصور ما قبل التاريخ المحدد بآثار كهوف مادلين (دوردونيا - فرنسا) (م) .

(الاتحاد السوفييتي السابق)، وهي مؤلفة من أقسام عديدة، شكلها دائري غالباً؛ وكان الناس يغطون أكواخهم كلياً أو جزئيا بالتراب آتقاء للبرد. وتكاثرت في العصر المجدلي الأكواخ الخفيفة الشبيهة بأكواخ الهنود الحمر. وتشير دلائل من هذا النوع إلى أن السكان قد أتموا تنظيمهم الإجتماعي. وحلّت الحياة العشائرية محل الزُّمَر الرُّحل لتكون أكثر اكتمالاً وبنية اجتماعية متينة تؤدي إلى تطور في أيديولوجية الفن الحجري المنقول، بالإضافة إلى كهوف لاسكو وألتامير، وإلى الإهتمام بالزينة ومراسم الدَّفن أو الطقوس السحرية (عبادة الجماجم، الحجر المزخرف)، تلك هي المظاهر الأكثر بروزاً.

نهاية الجليد والصيادون الجامعون

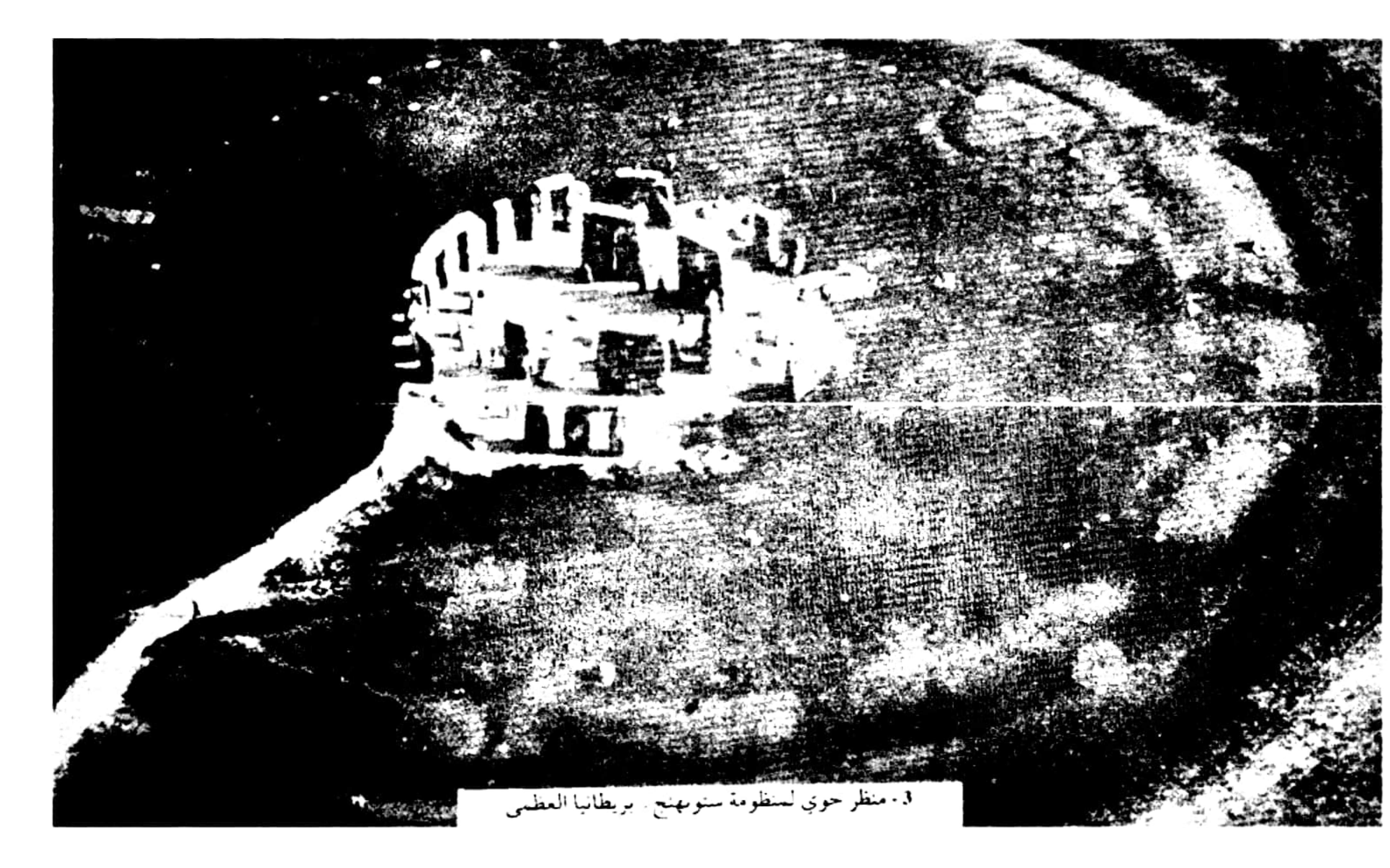
إن العودة إلى الظروف المناخية الحالية، أو ما يشبهها جعلت الإنسان يعتاد المحيط الجديد ويكيف معه نوع حياته. إن فيضان المحيطات أدى، في أوروبا، إلى عزل الجزر البريطانية وتكوّن بحر البلطيق. وكان الحدث البارز هو استيطان المناطق الشمالية من إنكلترا إلى بلاد البلطيق مع الإقامة على السواحل والقطاعات المستنقعية. ويتراءى التمدد السكاني على امتداد شواطىء سكنديناڤيا باتجاه فِنْمارْكْ (منطقة في النروج) والبحر الأبيض من جهة وباتجاه اسكتلندا وإيرلندا من جهة ثانية. وكان الناس يحصلون على بعض مواردهم من صيد الأيّل واليحمور والخنزير البري. وكان الكلب، المدجَّن حديثاً انطلاقاً من الذئب، يسهم مع القوس والنشاب في الحصول على الصيد الوفير. ومن أجل الحصول على غنائم إضافية كانت الجماعات البشرية تمارس صيد السمك وتعمد إلى جمع الثمار البرِّية والرخويات. وتشهد التلال الضخمة على شواطىء الدانمارك على هذا النشاط المعروف جداً لدى جماعة إرْتِبُولْ. وكانت شعوب أخرى شمالية (المَغْلَمُوسْ) تقطع الأشجار وتشتغل الخشب بواسطة آلات ضخمة من الظرّان كالفؤوس والمقاطع والمقاشر. وكانت شعوب تـارْدِنْـوَازِيِّـة (Tardenoisiens)[1] وسوفيتيرية (Sauveterriens)[2] في أوروبا الغربية والوسطى تبني أكواخها على الرمال وتستعمل

---

(1) نسبة إلى «Tardenois» منطقة إلى شرقي الحوض الباريسي (م).

(2) نسبة إلى «Sauveterre» وهي منطقة كلسية في الهضاب الوسطى (فرنسا) بين لوت وتارن. (م)

أدوات صغيرة الحجم ذات أشكال هندسية . وفي الشتاء كان النـاس يلجأون إلى الكهوف ولكنهم في الصيف كانوا يبنون الأكواخ من أغصان الأشجـار على شكل بيضوي أو على مثال حدوة الفرَس ويستعملون أحياناً صفائح خشبية .



3 - منظر جوي لمنظومة ستونهنج - بريطانيا العظمى



4 - قوالب حجرية من عصر البرونز . متحف كوبنهاغن

الفصل الثاني

أوروبا الزراعات الأولى

إن تغييرات هامة ، من النوع الإقتصادي قبل أي شيء ، أثرت في أوروبا الآسيوية وفي أفريقيا منذ 7500 ق.م . يتوافق العصر الأنيوليتي (عصر الحجر المصقول) مع الانتشار المتزايد للزراعة وتربية الماشية . لقد توقف الإنسان عن استثمار الثروات الطبيعية بطريقة بدائية دون أن يعيد إنتاجها وقد بدأ يحولها إلى إحتياطي لوقت الحاجة .

إبتكارات الشرق الأدنى

من المؤكد أن تدجين الخروف والماعز ثم الخنزير والثور إضافة إلى محاولة زراعة الشعير البري والقمح القاسي قد عم المنطقة الواقعة بين البحر المتوسط وبحر قزوين من جهة والبحر الأسود والخليج الفارسي من جهة أخرى . وقد بلغت بعض الأماكن مثل زاوي شامي شانيدار وجرمو في العراق وأريحا في الأردن وبعض مستوطنات الأناضول هذه المرحلة من التطور حوالي 7000 ق.م . ولكن دون أن تتعرف إلى صناعة الخزف . وقد عرفت المرحلة النيوليتية السابقة لاكتشاف السيراميك في أوروبا في أرجيسا ـ ماغولا من أعمال تساليا (اليونان) .

استعمار مناطق الدانوب

إن أقدم الحضارات النيوليتية في الشرق الأوسط بلغت المناطق المجاورة لأوروبا الشرقية حيث صادفت إظروفاً طبيعية مماثلة وسهلت هكذا تبني تقنيات جديدة . ويصل أول تيار حضاري إلى تساليا (شمالي اليونان) حيث ظهرت حضارة الخزف المزخرف على شكل آنية عليها تصاوير نافرة محفورة بواسطة صدفة الكَرْدْيُومْ أو بالمِنْقَش . وعرفت حضارة السِّسْكْلو بيوتاً صغيرة مربعة بنيت جدرانها من الآجر والصلصال . وقد بلغت الطلائع النيوليتية ، بعد ذلك ، يوغسلافيا ومالطا وإيطاليا

الجنوبية وفرنسا الجنوبية وأسبانيا الشرقية . وقد أسهمت شبه الجزيرة البلقانية في هذا النشاط مع جماعات سْتَارْسِيڤُو (يوغوسلاڤيا) وكوروس (هنغاريا) . وعرفت هذه المجموعة المنتشرة التي استقرت بين تيسا (Tisza) والدانوب حوالى 500 ق.م ، بتشييد القرى والأكواخ المبنية بالأجر النيّ وتخطيْط الأزقة التي تقسم القرية إلى تجمعات . وإن مراحل الهدم وإعادة البناء المتتالية تحدد شكل الكوخ الذي هو عبارة عن تل صناعي صغير ، ويصادف في مواد هذه المساكن تماثيل صغيرة مصنوعة من السيراميك أو العظام وهي على شكل نساء ، ويمكن إرجاعها إلى عبادة الخصوبة . وبعد ذلك أي حوالي 4000 ق.م استوطنت جماعات أخرى ، ذات تقاليد تشبه الجاليات النيوليتية الأولى ، المناطق نفسها : عُرِفت بحضارات الڤينشا (يوغوسلاڤيا) والبويان (مولداڤيا ـ ڤالاشيا) . ووصلت هذه الجماعات الزراعية ببطء إلى الشمال الشرقي ، إلى الأراضي الغنية في أوكرانيا الجنوبية .

عمليات استصلاح الأراضي

إن دخول أوروبا في العصر النيوليتي يتوقف إلى حد كبير على الظروف البيئوية ، وكان المزارعون الأوائل المجهزون بأدوات بدائية والمستلمون للممارسات الإعتباطية يستخدمون على أفضل وجه عادة البيئة الطبيعية . وهذه هي حال سكان الدانوب حَمَلة الآنية المزينة بشرائط محفورة (سيراميك مخطط) الذين انطلقوا من الدانوب والأنهر التي تصب في البلطيق وصولاً إلى ألمانيا الوسطى ووادي الراين والبلاد المنخفضة وشمالي فرنسا . ولكن القرويين البدائيين كانوا إذا صادفوا في البلقان أو هنغاريا مناطق حرجية متنوعة أو مراعي سهوبية يأخذون بعين الإعتبار غابات البلوط المختلطة النابتة على تربة غرينية ويفضلونها لخفتها وخصبها ، فكانوا يعالجون الغابات بتقنية الحريق (وتقضي هذه التقنية بإحراق شجر الغابات لزرع الحبوب أو الخضار مكانها) لإخصاب التربة بالرماد . وهكذا أخذت المساحات العارية تكثر شيئاً فشيئاً في الغابات . ولكن الخصوبة كانت تتناقص بسبب النقص في الأسمدة وبالرغم من رَوث المواشي التي كانت ترعى في الأراضي البائرة . ويصبح عند ذاك نزوح القرية ضرورياً فيعود الشجر النابت حديثاً فيغطي القطاعات المهجورة قبل أن يتعرض إلى عملية إحراق جديدة . إن قرى كالتي نراها في بيلاني (بوهيميا) تكشف عن عشرة أدوار استيطان على مدى ستمئة أو تسعمئة عام .

القــرى

إن التجمعات السكانية في الدانوب ، المؤلفة كل منها من حوالي ثلاثين مسكناً وموجهة غالباً باتجاه هبوب الرياح المهيمنة على المنطقة ، هذه التجمعات هي ذات تماثل ملحوظ ، ويحيط بالقرية سور يحول دون تبعثر القطيع . وإن الآثار الباقية من الحفريات (مثل مغارز الأعمدة وحُفَر الأساسات) تسمح بإعادة بناء الهيكل العام للأكواخ . يبنى الكوخ على أرض مستطيلة أو على شكل شبه منحرف ، يتراوح طوله بين 10 و30 م بعرض 5 م تقريباً . ولكن مقاييسها كانت تصغر مع الزمن . كانت أوتاد تسند رافدة السقف المؤلف من منحنين . وكانت أعمدة الجدران الجانبية غير المتناسقة البعد يثبَّت بعضها إلى بعض بواسطة صفائح خشبية متعارضة مطلية بالصلصال ؛ كان يستخرج التراب الضروري لهذه العملية من حفر تُحدث على أطراف القرية تردم فيما بعد بنفايات المنازل .

وكانت البيوت الكبيرة تقسم بالحواجز إلى ثلاثة أقسام أو أكثر ، ولكن وظيفة كل قسم من هذه الأقسام ليست واضحة . وتسكن في هذا البناء أسرة كبيرة (أو عشيرة) مؤلفة من أكثر من عشرين شخصاً مع تخصيص دور لكل من هذه الأقسام : قاعة عمومية ، إسطبل ، مخزن أو أهراء . وإن وجود أكواخ أكثر تلاصقاً في المرحلة الدانوبية الأخيرة يوحي بتبدل في البنى الاجتماعية .

تقنيات ومقايضات

تستخدم الأدوات الأكثر طرافة المصنوعة من الحجر المصقول في عمل الحقول ومعالجة الخشب ، فؤوس صغيرة منحنية الرؤوس كانت تستخدم كمجرفة . وفؤوس ضخمة مثقوبة تستعمل كأدوات نجارة . يتحتم على القرية أن تعيش في حالة من الإكتفاء الذاتي شبه التام ، ولكن دون أن يعني ذلك عدم وجود علاقات مع الجماعات المجاورة وبعض المقايضات المتنوعة تتم من وقت إلى آخر ، كاستيراد أصداف البحر المتوسط إلى أوروبا الوسطى والغربية . فحضارات الحجر الموشح والدانوبي التي نشأت في نهاية الألف الخامس تطورت ببطء في أواسط القرن الرابع . وفريق رُوسِنْ (Rössen) الحضاري الذي دام حتى بداية الألف الثالث هو أحد مظاهرها . لقد انتشر في وادي الراين والبلاد المنخفضة وفرنسا الشمالية

والشرقية وقد تميز بمواعين طريفة من الخزف (السيراميك) مزينة بخطوط منقطة وتستعمل في وجوه كثيرة .

البحر المتوسط وأوروبا الغربية

سيشهد الألف الثالث هذا النموذج من الإنتاج الزراعي يمد سلطانه ويرسخه في القارة الأوروبية . وكان البحر المتوسط الغربي المفتوح على التأثيرات القادمة من الحوض الشرقي يستخدم كمحطة تبديل . وصل أوائل المهاجرين إلى إيطاليا الجنوبية وصقلية وجزر ليباري خلال القرن الخامس حاملين معهم حضارة ماتيرا ـ كابري (Matera-[1]Capri)[2] التي استمرت حتى الألف الثالث ، إنه من هذا القطاع ، وربما من الأدرياتيك أيضا ، انطلق حمَلة الأواني المربعة الأعناق باتجاه ليغوريا ولومبارديا وبْيامُونْتْ .

إن إقفار الصحراء الأفريقية أدى إلى نزوح السكان إلى المغرب ، وعبر جبل طارق ، باتجاه إسبانيا (حضارة ألماريا) أو باتجاه البرتغال ثم نحو الشمال إلى كاتالونيًا .

احتلال الداخل

كان لنفوذ التيارات المنطلقة من البحر المتوسط تأثير فعَّال على منطقتي اللانْغدُوكْ وبروڤانس ، منطلق حضارة فريق شاسِّي (Chassey) (فرنسا) التي بلغت أواسط فرنسا ووادي الرون وبورغونيا والجورا . واستمر المزارعون ، الذين كانوا لا يزالوْن يعتمدون في قسم كبير من موارد عيشهم على الصيد ، باستخدام الكهوف ، ولكنهم كانوا يبنون أيضاً ، تبعاً للظروف ، قرى في الأرياف المكشوفة وأكواخاً محصنة على المرتفعات وخاصة على الصخور المسننة . وازدهرت حضارة الكُوْرتايُوْدْ (Cortaillod) الزراعية في سويسرا الغربية والوسطى منذ 3200 ق.م . يميز هذه الحضارة مساكن طريفة : محطات ساحلية مبنية على ضفاف البحيرات السويسرية . وثمة تفسير قديم ، هو نتيجة طبيعية لبعض الحفريات المتواضعة ، يعتبر أن الأكواخ بنيت على مصطبة تحملها الأوتاد فوق سطح الماء ؛ إنها عبارة عن

(1) جزيرة صغيرة في البحر التيراني (م) .

(2) مدينة في إيطاليا الجنوبية (م) .

بيوت حقيرة بنيت على أرض رطبة ، والأوتاد المغروزة حتى مستويات أرضية صلبة تستخدم لتثبيت البناء الذي يفصله عن الأرض فراغ صحي .

إن مشكلة العزل تلعب هنا دوراً خطيراً كما يشهد على ذلك التلبيس بالقشور أو أرض الكوخ المفروشة بالجذوع والصلصال ، وكان شريط من الأرض الجرداء يفصل البحيرة عن الغابات وتشتمل على حقول بدائية . إنه بالنتيجة وسط مثالي يسمح بدمج النشاطات الزراعية والرعوية والحرجية بتوابعها المفيدة كقنص الطيور وصيد الأسماك . وعُرِفت كذلك المساكن الساحلية على شواطىء بعض بحيرات جبال الألب في إيطاليا كبحيرة ڤاريز (حضارة لاغوزا = Lagozza) .

الجزر والشواطىء

في تلك الحقبة وانطلاقاً من الأرض الفرنسية يبدأ دخول جنوبي إنكلترا وشمال شرقيِّها في العصر النيوليتي (الحجر المنحوت) . إن حضارة وِيْنْدْمِلْ هِلْ (Wind-mill Hill) الحضارية مشهورة بالأسوار المستديرة المبنية على المرتفعات وتضم عدة مرتفعات من الأرض وحفراً دائرية متداخلة تبقى الغاية منها غامضة ؛ والمدافن المبنية تحت تلال من التراب تتضمن غرفاً خشبية ، ويتجاوز طول هذه المدافن أحيانا 100 م . وهذي ميزة أخرى للعصر النيوليتي الإنكليزي .

تقنية بناء الأكواخ

إن وجود أدوات ضخمة وعُدَّة من الظرَّان من شفار ومناقر وفؤوس ومجارف في انكلترا وبلجيكا والنصف الشمالي لفرنسا يطرح مسائل عدة ربما كانت تلك الأدوات موروثة عن جماعات عصر الحجر الأوسط (الميزوليتي) المحلية . ومُعدَّة لقطع الأشجار ومعالجتها . وستزدهر في الألف الثالث صناعة أكثر طرافة وابتكاراً هي صناعة استخراج الظران وذلك في القطاعات الطباشيرية في إنكلترا وبلجيكا والحوض الپاريسي . وهكذا سيتطور للمرة الأولى نشاط متخصص بنقل مادة أولية والمقايضة بها ، وهذه المادة هي حجر الظرَّان .

الحجارة العملاقة (Les Mégalithes)

وسينتشر في أوساط هذه الجماعات النيوليتية في حدود الألف الثالث قبل الميلاد عادة مراسم الدفن الجماعي في مدافن ضخمة ، كما تكشف ذلك تحقيقات

ودراسات حديثة بواسطة الكربون 14 المشع . وتتأكد هذه الظاهرة بشكل خاص في أوروبا الغربية حيث يوجد المدفن المقبب مع رواق مصنوع من البلاط الصغير ، والمدفن والرواق كلاهما مغمور بتلة من الحجارة ، والدولمن (Dolmen)[1] بسيط أو على شكل رواق . الممر مكشوف والناووس محفور في الصخر . ويشاهد ذلك في صقلية وسردينية ومالطا خاصة . يعزو البعض هذه الطقوس إلى ديانة شائعة ، لا تزال معتقداتها غامضة ، انتشرت في مناطق البحر الأبيض المتوسط الغربية وعلى شواطىء الأطلسي واستمرت إلى الألف الثاني . إن خريطة موجزة لانتشار هذه الأبنية العملاقة (المغليتية) تعطي فكرة عن وجودها الكثيف في جنوبي إسبانيا والبرتغال وشواطىء غاليسيا وبيسكاي (Biscaye) والباسك وجبال البيرينيه وفرنسا الجنوبية والوسطى والغربية وعلى الشواطىء الغربية لإنكلترا واسكتلندا وإيرلندا وألمانيا الشمالية والدانمارك والسويد الجنوبية .

إن الأسباب العميقة لانتشار هذا التقليد المدفني الفضولي لا تزال حتى الآن مجهولة ؛ أهو الفتح أم الهجرات أم انتشار هادىء ناتج عن الإتصالات التجارية عن طريق الأطلسي خاصة أو الترويج لدين جديد . إن فكرة استعمال المدافن الجماعية منشأها جزر بحر إيجه ومنه اقتبسها العالم الأطلسي . وربما كان لهذه الديانة المغليتية الأبنية والهياكل والمنهير البريتانيةُ أو صفوف الحجارة كما هي الحال في الكرناك (قرية فرنسية) ودوائر الحجارة المرتفعة . وهناك التصاوير الغامضة أو الرمزية كالنتوءات المنحنية أو الفؤوس وصور النساء مع حلاهن (تماثيل - منهير) اكتشفت على أبنية شهيرة كما في جزيرة غاڤريني (أو جزيرة العنزة) في بريتانيا ونيو غرَانْجْ في إيرلندا .

المناطق المتخلفة

وبقيت منطقة في أوروبا أمينة على التقاليد الميزوليتية : هي شواطىء البلطيق . فبعد الألف الثالث بقليل ، انتشر نموذج الإنتاج النيوليتي بين الجماعات المتأثرة، ربما، بجيرانها في وادي الدانوب . وكان ذلك بداية حضارة الأقداح القمعية الشكل . ونتج هذا الاستعمار في وقت واحد عن تحسن الظروف المناخية

---

(1) نصب من حجر كبير مسطح موضوع فوق عدد من الحجارة المنصوبة (م) .

والإنجازات التقنية التي حوّلت الأرض الصلصالية ـ الرملية صالحة للزراعة . وبعض الجماعات البشرية المعزولة لم يتسنَّ لها أبداً بلوغ المرحلة النيوليتية بل ظلت تعيش منعزلة في قطاع الغابات بين البلطيق والبحر الأبيض والأورال ولكنها كانت على اتصال مع الشعوب الأكثر تطوُّراً في الدانمارك والجزيرة البريطانية وحتى في شرقي إسبانيا (العصر النيوليتي الثاني) .



الفصل الثالث

أوروبا وعِدانة البرونز والحديد

ظهور النحاس

بلغ الإقتصاد النيوليتي حوالي سنة 2500 ق.م ذروة نموه في أوروبا ؛ فإلى زراعة القمح والشعير أضيفت زراعة الخضار والعدس والحمص والفاصوليا واستثمار التفاح، ولا يفوتنا ذكر استخدام القطن. كانت المجتمعات في الشرق القديم قد عرفت تطوراً اجتماعياً اقتصادياً على نطاق واسع . ففي هذا القطاع العريض سمحت الزراعة ، التي كانت تنتج فائضاً غذائياً ، بتعهد نماذج اجتماعية جديدة اتجهت نحو الحِرَف والتجارة حتى البحث عن المعادن . لا غرابة في أن النحاس استخدم في الأناضول خلال الألف السابع وأن تقنيات الصهر والسكب تأكدت في هذه المنطقة عينها في الألف الرابع . إن عملية البحث عن مناجم النحاس النادر نسبياً استتبعت عمليات تنقيب وتسفير وتجارة . ويتحول الحدّاد والمعدّن إلى اختصاصيّيْن لا يعملان في إطار العشيرة والقرية وينتقلان تبعاً للحاجات ويكتسبان، وليس فقط، نوعاً من الاستقلالية ، بل يعملان كداعيتين لأفكار جديدة؛ وسار اختصاصيون آخرون في هذا الاتجاه كالنجار والخزّاف . ووصلت اكتشافات مختلفة آتية من آسيا الصغرى والهند فعملت على تكييف المجتمع الأوروبي النيوليتي ، مثل كَدْنِ الثور والحصان والحمير ، وظهور العجلة والمحراث ؛ واستنبِط المركب الشراعي حوالي 3000 ق.م ، وانتشر بعد ذلك بقليل دولاب الخزّاف . وهناك ظاهرة أخرى في بلاد ما بين النهرين هي ظاهرة تنظيم المدن ونشوء نماذج اجتماعية متنوعة مع ترسيخ سلطة قوية . فيتحول القائد البربري إلى ملك والكهنة إلى إداريين .

وبمسيرة قريبة من مسيرة التحول إلى العصر النيوليتي ، وصلت المستنبطات التقنية والزراعية إلى أوروبا وتعدّلت ، إلى حد ما ، بناها الإقتصادية والإجتماعية ،

فحدث عن ذلك تطور غير متكافىء في المناطق والشعوب التي أظهرت رغبة ما في التكيُّف . فالنحاس مثلاً يصل في تواريخ مختلفة جداً إلى فئات بشرية في أوروبا الوسطى والغربية . وكان استخدام المعدن الجديد رهناً بمشيئة الظروف . وظـل لـلأدوات الحجرية دور بـارز خـلال عصـر النحـاس ؛ ولكن على خـلاف مـا حـدث في العصر النيوليتي ، فإن نمو الحركة التجارية المرتبطة بانتاج لا يمت بصلة إلى أدوات الترف سهَّل وسرَّع التطور الحاصل في الشرق منذ زمن بعيد .

طريق البحر المتوسط

استعارت عمليات انتشار النحاس الدروب التي سار عليها الرعاة والمزارعون الأوائل . إن الطريق البحرية عبر بحر إيجه ، انطلاقاً من مدينة طروادة باتجاه جزيرة كريت وأرخبيل السيكلاد والپيلوپونيز مع محطة في قبرص الغنية بالمناجم المعدنية ، حدَّدت ولادة مصانع التعدين في جزيرتي لسبوس ولمنوس حوالي 2700 . وينشأ في كريت فن تنظيم مدني على غرار ما حدث في الشرق الأوسط . فهذه الطريق البحرية تبلغ غربي المتوسط عبر محطات مناسبة مثـل مالـطة والباليـار وصقلية وسـردينية وكورسيكا . ففي مالطا وسردينية يبني النـاس قبوراً جمـاعية تثيـر الفضول . إنهـا نواويس حقيقية محفورة في الصخر ، ذات غرف متعددة وتصميم معقد كما في هَالْ سَلْفِيَاْنِيْ ، ففي كل مكان في هذه الجزر ـ المحطات تكثر التماثيل البشريـة ذات المعنى الديني والأدوات المعدنية النادرة كما في حضارات ريبولي ورِينَالْدُونه في إيطاليا الجنوبية والوسطى .

وفي شبه الجزيرة الإيبيرية يحدد العثور على العروق النحاسية في سيِرَّا مورينا ولادة تجارة التصدير لهذا المعدن باتجاه بحر إيجه . قد تكونُ جاليات قادمـة من الحوض الشرقي للبحر المتوسط هي التي أنشأت في هذه الأقطار وكالات تجارية سهلت نشوء الحرفية المحلية ! صنعت هذه الشعوب عدَّة من نحاس جيد الصنع : فؤوس مسطحة ، خناجر ، طبور ، رؤوس حراب ، مخـارز . وبنت كذلك مدناً صغيرة محصنة ، على الطريقة الإيجية ، محاطة بسور من الحجر الصلد مع قلاع نصف دائرية كما في لُوسْ ميلارِسْ (إسبانيا) وفِيلاَنوڤادِيْ سَانْ پِدْرو (البرتغال) . طريقة الدفن الجماعي هي الطريقة المعهودة ؛ ولكن لتصميم المدافن ، المغليتية في الغالب ، نماذج مختلفة ، أغربها يتألف من قبة من حجر أمامها مـدخل على

شكل رواق. قام المعدِّنون الإيباريون بهجرات جماعية باتجاه اللانغدوك الغنية بالعروق المعدنية الصغيرة

طريق الدانوب

وكانت طريق أخرى لإدخال النحاس إلى أوروبا معروفة مند العصر النيوليتي ، إنها طريق الدانوب ؛ فوجود المناجم في سلوفاكيا وترنسلفانيا سهَّل صناعة التعدين المحلية ـ ولكن جماعات زراعية كثيرة كانت لا تزال موجودة وظلت أمينة للإقتصاد النيوليتي ، وكان وجود الأدوات النحاسية على درجات متفاوتة من الكثرة . ويتلو صناعة الحلى البدائية صناعات أدوات مبتكرة ، كالفؤوس ـ المطارق ، البليطة المعقوفة المقطع والمجهزة بعروة للهراوة .

وبالرغم من التفتت الظاهر في المساحات الحضارية ، لقد عرف منها عدة مجموعات كبيرة ؛ منها فريق بُونَانْجْ هُومْ (سلافيا) مع جميع خصائصه المحلية جنوبي يوغوسلافيا وغربي بلغاريا وجنوبي رومانيا ، وفريق غومَلْنِيْتا (Gumelnita) المتصل بالأول من الناحية الشرقية ، والخزف المزيَّن بالرسوم الذي وجدت آثاره في حضارة ديميني في اليونان ، هو أيضاً مادة مميَّزة في فريق تْرِيْبُولْجْ/كوكوتْني (Tripolje Cucuteni) في الترنسلفانيا والدنيبر . وتستخدم المجموعات الزراعية ثروات الغابات والسهول مندمجة ، ولكنها تتعاطى ، منذ وقت مبكر ، صناعة النحاس تحت تأثير التقاليد المشرقية . وتشغل القرى مرتفعات تحميها حفرة أو اثنتان وحواجز ترابية ؛ وتشكل الأكواخ ، التي يتراوح عددها ما بين 30 و 50 كوخاً في كل قرية ، تشكل صفوفاً متوازية أو أحياناً دائرة تحيط بساحة مركزية . وهناك نماذج مصغرة من صلصال تشير إلى وجهة المنازل . وفصائل متعددة عرفت في الدانوب موجودة هنا تعطي فكرة عن حضور العشيرة .

والمجموعة الأخرى من حضارات عصر النحاس في أوروبا الوسطى تحتوي على سلسلة من الكيانات المحلية استقرت في أرض هنغاريا وتشيكوسلوفاكيا والنمسا السفلى وبولونيا الجنوبية . إن وجود عروق غنية بالنحاس تبرز ، في هذه المجتمعات ، تطور حِرَفية مختلفة الأهمية مندمجة بالزراعة التي بدأت باستخدام المحراث ، وتربية المواشي تحظى كذلك بأهمية قصوى . هذا الموقف الإقتصادي يميِّز خير تمييز فرقاء لَنْجِيَلْ (Lengyel) وتيساپولغار (Tiszapolgar) وبَادِنْ .

وإلى الغرب من ذلك يدخل النحاس ببطء في حياة القبائل النيوليتية . وفي أوروبا الوسطى لا يمكننا أن نميِّز مجموعات كبيرة ولكن وحدات حضارية صغيرة متأثرة بجيرانها الشرقيين والغربيين في آن معاً مثل فرقاء آيكبوهْل(Aichbühl) اوڤوسْدُوْلْ . وفي نهاية الألف الثالث يبدأ استخدامُ طريق بْرِينرْ (Brenner) باتجاه إيطاليا الشمالية حيث موطن حضارة ريميدلّو (Remedello) .

نحو الغرب

ففي أوروبا الغربية وبالرغم من بقاء بعض الآثار من الفريق الشّاسّي نشأت مجموعات كبيرة حوالي منتصف الألف الثاني ، منها مجموعة ميكلسبيرغ (Michelsberg) التي تمركزت حول الراين ومجموعة السين ـ واز ـ مارن في الحوض الباريسي التي مارست بعض النفوذ حتى سويسرا الغربية (حضارة هُورْغِنْ) ووستفاليا وهِسْ . وبنى فريق السين ـ واز ـ مارن قبوراً مِغَليتية على هيئة ممر مسقوف مع باب مجهز بثقب وكهوف مدفنية إصطناعية حفرت في الصخر الطبشوري .

مرحلة الهجرات

إن سلسلة من الأحداث تشهد على تنقلات الشعوب ، وخضت بعض الغزوات الحربية الشرق الأوسط ومصر والعالم الإيجي في حدود سنة 2000 ق.م . وانتهت بعض الإجتياحات بتهديم المملكة الأكادية ومدن طروادة وتيرِنْتْ ولِيْرْنْ . نسبت هذه الغارات غالباً إلى شعوب تتكلم لغات قريبة من اللغات الهندو- أوروبية . وينتمي إلى هذه السلالة الحثيون المشهورون في التاريخ . وبالنسبة إلى علماء اللغة فإن أرضاً شاسعة تمتد على محيط البحر الأسود حتى سفوح القوقاز والأورال ، تؤوي فئات بشرية تتضمن لغاتها كلمات مشتركة أكثرها يتعلق بأسماء الحيوان والنبات . هذه الشعوب عرفت أيضاً تنظيماً إجتماعياً مؤلفاً من طبقات (محاربين ، رجالاً أحراراً) وملكاً منتخباً . وعند علماء الآثار أدلة مادية تحمل على إعتبار جوار البحر الأسود نقطة انطلاق للشعوب الهندو- أوروبية - وفي ما وراء بلاد القوقاز في منطقة بحيرة وَانْ كما في وادي كُوبَانْ في القوقاز أيضاً استثمرت جماعات مناجم غنية بالنحاس وصنعت أسلحة متميزة كالرماح والخناجر والفؤوس القتالية . ودفنت موتاها في قبور جماعية هي عبارة عن أكواخ مبنية بالجذوع تعلوها تلال ترابية (كورغَانْ) .

وتلاحظ هذه الطقوس نفسها ، ولكن مع بعض التعديلات الطفيفة ، في أوروبا الدانوب والبلطيق . وكثيراً ما يكون في المدافن جثة المحارب مع فأس بجنية أنيقة أو مع إناء خزفي بكتابات مطبوعة بواسطة قطعة حبل . ولهذا يستعمل علماء الآثار تعابير حضارة الفأس الحربية أو حضارة الخزف المزنّر . لقد حدثت في الواقع حركات هجرة إلى أصقاع بعيدة حوالي السنة 2000 ق.م ، وفي إتجاهات مختلفة إنطلاقاً من السهوب الآسيوية لأسباب مختلفة وغير مفهومة : قد تكون ضغوطاً ديموغرافية أو البحث عن مراع أو بسبب تبدلات مناخية . إن وصف هذه الغزوات بالعنف والمفاجأة ليس أكيداً وعمليات الإستيعاب هي دائماً ممكنة . كانت هذه الشعوب تمارس تربية المواشي في شكل حياة ترحلية ربّما . على أي حال فإن قياسات منازل الأموات التي كانت تقليداً لمنازل الأحياء (5× 5 م) كانت على طرفي نقيض مع أكواخ الدانوب . هذه الأكواخ المؤلفة من غرفة واحدة كانت تناسب عائلة صغيرة . وكانت المدافن تخص الأرستقراطية المحاربة . وبلغت تيارات الهجرة الأساسية روسيا الوسطى (حضارة فاتيا نوفو) وأوكرانيا والبلقان ووادي الدانوب وبولونيا وساكس وتورانج وشواطىء البلطيق حتى الدانمارك وأخيراً الراين والبلاد المنخفضة .

وكذلك ظهرت حركات هجرة معاصرة تقريباً لتلك ومن النوع نفسه ، ألا وهي هجرة الشعوب أصحاب الأواني الجرَسية الشكل . إن العدة التي تميز هذه الشعوب هي عبارة عن إناء طريف الشكل وجد في المقابر وله شكل الجرس ، وقد يكون استعمل لسكب البيرة أو الحليب . وكان كثير الاستعمال من قبل هؤلاء المزارعين ومربي الثيران والخراف والخنازير والذين كانوا يبنون الحظائر الخفيفة (كْرَالْ) ورأى فيهم المنظرون منقبين عن مناجم النحاس وتجاراً متنقلين . وأثناء تنقلاتهم كانوا يسهمون كثيراً بنشر صناعة المعادن في أوروبا الغربية ؛ لقد انطلقوا من ضواحي إشبيلية وجنوبي البرتغال وبلغوا بالطرق البحرية شواطىء الأطلسي وبريطانيا العظمى والبلاد المنخفضة . وعن طريق كاتالونيا وصلوا إلى اللانغدوك وأودية الرون والراين في حدود السنة 2000 ق.م ، حتى إلى تشيكوسلوفاكيا . فالتقوا في هذه المناطق حملة السيراميك المزنر والفؤوس الحربية . وهنا قد حدثت عملية دمج وعودة ، في حدود سنة 1800 ، بطرق شبيهة بطرق الذهاب باتجاه جنوبي فرنسا وإسبانيا الوسطى وإيطاليا الشمالية وسردينية وصقلية .

انتشار البرونز

ساعد البرونز ، المعدن الذي يتميز بصلابة تفوق صلابة النحاس والمقتبس عن حضارات الشرق الأوسط ، في صناعة أدوات أكثر صلابة . زد على ذلك أن مستنبطات تقنية واكتشافات متعددة أدّت إلى تطور مستمر للحِرَف .

إن البرشمة المستخدمة في مقابض السلاح والتطور في تثبيت مقابض الفؤوس وكثرة الحلى المعدنية واستعمال السيوف والسكاكين هي غيض من فيض هذه الأمثلة . وقد ظلت الزراعة وتربية المواشي النشاط الأساسي ولكن استخدام المحراث سهّل أعمال الحقول وقلل من الدور الإقتصادي للمرأة . غير أنه في نطاق النباتات المزروعة حدثت مستجدات لا بأس بها . إن الشيء الجوهري بالنسبة إلى مجتمعات عصر البرونز هو التنقيب عن المناجم (نحاس ، قصدير ، ذهب) وتصديرها على شكل سبائك غالباً جداً ، وأحيانا على صورة منتجات جاهزة . وقد اكتسب مالكو المناجم المعدنية وحرّاس الطرقات والمعابر اعتباراً خاصاً ، ونتيجة لهذه العوامل التي أدّت إلى زيادة مستمرة في القوى المنتجة حصلت تبدلات في المجتمع بل حتى ممارسات جديدة . ودون أن تقطع أوروبا علاقاتها بآسيا وأفريقيا عملت على إبراز نفسها . وإن صورة عامة عن عصر البرونز تعطي إنطباعاً عن بعض التفتت ، ولكن قد نشأت مجموعات كبيرة تمثل بعض الشعوب التاريخية مثل الجرمانيين والسلتيين والسلافيين . ومن الصعب أن نرسم في إطار صارم مخططات تاريخية تقليدية .

حضارات التعدين المزدهرة

تتخذ حضارة أونَتِيْسَا (Unetice) مركزاً لها في بوهيميا ولكنها تغطي منطقة شاسعة في ألمانيا الجنوبية وبولونيا . إنها تتمتع بخصائص مميزة تبعاً لكل قطاع وهي تشكل ، ولا شك ، أحد مراكز الإنطلاق لصناعة المعادن في أوروبا التي استقبلت منذ سنة 1600 حدادين متجولين قادمين من الأناضول أو إيجه مؤهلين لاستخدام الثروات المعدنية المحلية . تحاط منطقة أونتيسا من الجنوب بمجموعة أخرى أثرية معروفة بنماذج من الدبابيس ذات الشكل الطريف والمقطوعة من صفائح البرونز وعقود ذات أطراف مُثنّاة . فهذا الكيان يشمل عدة وحدات من الخصائص المميزة : وحدة كِيسَابُوسْتَاغْ (هنغاريا ويوغوسلافيا) ، وحدة سْتْرُوبِنْغْ (باڤاريا) ووحدة الرون

(سويسرا الجنوبية والجورا) ؛ هؤلاء المعدنون استخدموا مناجم النحاس في جبال الألب .

أرستقراطيون وشعوب مستعبَدَة

وثمة وجه حضاري آخر في مجتمع بداية عصر البرونز ، هذا الوجه هو حضارة وِيْسِكْسْ في إنكلترا التي تشبه حضارة الجَثوات (Tumulus) الارموريكية[1] ، فتحت تلال ضخمة من الحجْرات اكتشف مدفن أميري فاخر الأثاث . ربما كانت هذه الأبنية تخص أرستقراطية أميرية وفدت من بريتانيا وأخضعت الشعب المحلي (حضارة قوارير الرماد) . وكان هؤلاء الأسياد تجاراً قبل أي شيء آخر . وأخيراً هجرة جديدة أوصلت هذا الشعب إلى البلاد المنخفضة وبلجيكا (حضارة هِلْفَرسُومْ ودْرَاكِنْشْتَايْنْ)[2]

أما الوضع في سائر أنحاء أوروبا فهو أقل وضوحاً ، فالأثر الذي تركه حملة الأواني الجرسية الشكل يبدو بوضوح في بريطانيا العظمى وخاصة في إيرلندا حيث ازدهرت صناعة الذهب والبرونز ازدهاراً ثرياً . وعن طريق التقارب والتكامل مع المزارعين النيوليتيين نشأت حضارة آنية الطعام ، فهذه الشعوب نفسها هي التي شيَّدت الهياكل المستديرة العجيبة المبنية بحجارة منصوبة كما في مدينتي سْتونْهِنْجْ وآفْبِرِيْ (في بريطانيا) ، وربما خصصت هذه الصروح لعبادة بعض الكواكب وخاصة الشمس . وهذا العمل نفسه الذي قام به حملة الأواني الجرسية الشكل يشاهد في وادي الراين الأوسط (حضارة أَدْلَبُورْغْ) وخاصة في إسبانيا الجنوبية حيث فريق الأرغار الذي استثمر الثروات المحلية وصنع أسلحة متقنة كالطبر ودفن موتاه غالباً في جرار بيضوية الشكل .

عصر البرونز الأوسط والجثوات[3]

حوالي السنة 1500 ق.م ، بزغت على جميع مواطن حضارة الأنتيسا تقريباً ، من الأندلس إلى تشيكوسلوڤاكيا ومن الألب إلى المانيا الشمالية ، وبتطور هادىء ،

---

(1) نسبة إلى الهضبة الأرموريكية وهي منطقة واقعة في غربي فرنسا بين الأطلنتيك والحوض الباريسي (م) .

(2) مدينتان في شمالي هولندا (م) .

(3) أكمة اصطناعية من تراب وحجارة تشيد فوق المدفن (Tumulus) . (م)

حضارة جثوات عصر البرونز التي تمثل إلى حد ما العالم السلتي بكامله. والمظاهر. الإقليمية التي تتميز بالنماذج المختلفة لأثاث المنازل هي كثيرة ولكن الطقوس الدينية لا تتغيَّر. تُمدَّد الجثة تحت الحجارة وتغطى بالجثوة (ركام من حجارة وتراب) ووجود الحلي يحدد بسهولة جنس الميت. والجدير بالملاحظة أنه في كثير من المناطق الأوروبية في الشرق كما في الغرب، تدفن الأجسام مطوية على شكل الجنين.

ويبدو الموقف في مناطق الدانوب والبلقان أكثر غموضاً في عصر البرونز بين 1700 و 1200 نتيجة لتفتت الأراضي الواضح في العصر النيوليتي. فإن فرقاء مثل فريق بونانج/هوم في يوغوسلافيا ومجموعة من الكيانات الحضارية تستوطن القطاعات المجاورة للدانوب الأوسط والأسفل حيث يمكن مشاهدة قرى زراعية تشكل أكمات حقيقية (حضارة ناجيريف وپرجاموس). وكانت علاقات تربط الأناضول باليونان. وأدّى تطوُّر بطيء إلى نشوء فئات حضارية استخدمت الخزف المرصَّع، مع زينة محززة مطلية بمعجون أبيض، وانتشرت من هنغاريا إلى بلغاريا ومولداڤيا (حضارات دوبوڤاك وأوتوماني ومونتيورو). وإلى الشرق على الأراضي السوڤييتية (سابقاً) ترسخت التقاليد، التي أوجدها حملة الفؤوس الحربية الذين انطلقوا من السهوب الأسيوية إلى مدى مديد. وتقوم حضارة فاتيانوڤو، المعروفة في روسيا الوسطى، قرب حضارة القبور الدياميس ذات الغرف المدفنية البيضوية الشكل والحفر المدعمة بالأوتاد. وحدث تطور حوالي 1500 ق.م. في القطاع المحصور بين بحر قزوين والبحر الأسود، ترافق مع وصول قبائل قادمة من الشرق؛ إنها حضارة « الضرائح المشيدة ». وعثر على بقايا شخصية كبيرة هي، بلا شك، شخصية قائد خطير مدفون داخل نوع من البناء المشيَّد بروافد خشبية، وحواليه تقادم ثمينة هي عبارة عن أشياء مصنوعة من الذهب أو حيوانات، وقبور أشخاص قدموا قرابين في هذه المناسبة. ويعلو كلَّ هذه الأشياء جثوةٌ كبيرة (كورغان). وإن وجود بقايا سرْج حصان كالشكيمة واكتشاف عربات يدل على تبني نموذج من المعارك خاضها فرسان يعتبرون أسلاف السيتيين[1](Seythes) ويكتشف فيما بعد النموذج نفسه في القبور الأميرية في حوض البحر المتوسط. وظهر في جزيرة كريت فن

(1) شعب من أصل إيراني قطن في السهوب شمالي البحر الأسود (سيتيا) (م).

تنظيم المدن بلغ الذروة (مدينة مينوس)[1] . ويفسر بناء القصور المتواضعة في كنوسوس وماليا (مدينتان في كريت) بوجود هيمنة بحرية على جزر سيكلاد (في بحر إيجه) . وأدت بعض الغزوات التي اجتاحت اليونان القارية زاحفة من أوروپا الوسطى منذ 1600 إلى ولادة الحضارة الميسانية وأبنيتها الأرستقراطية كما تشهد على ذلك قبور (ملكية) فاخرة الأثاث . وامتد نفوذ الحضارة الميسانية باتجاه صقلية في حين كان فجر عصر البرونز ينبلج ببطء .

الأصالة الإيطالية

وظلت حضارة الأپنين (Apennine) ، في أواسط إيطاليا ، قليلة الإختراق من قبل الصناعة المعدنية . أما في الشمال فقد لعبت الإسهامات الآتية من مناطق الألپ والدانوب دوراً كبيراً . ويظل فريق ريميدلّو ناشطاً في عصر البرونز القديم ، ثم حلّت محله حضارات بنت مساكن على ضفاف البحيرات مثل حضارة پولادا حول بحيرات لومبارديا ، وحضارة تِرّاماري (Terramare) في سهل الپو . ففي هذه المنطقة قرى مستنقعية لها شكل شبه المنحرف محاطة بحفرة ورتبت أكواخها في صفوف متوازية .

عِدانة سكندينافية مزدهرة

ونشأت في السهول الفسيحة لشمالي أوروپا وفي سكندينافيا صناعة برونزية عظيمة الشأن تميزت بخصائص منتجاتها وتنوعها . وفي هذه الأقاليم تشهد طقوس الدفن على وحدة شاملة : توضع الجثث ورماد الموتى تحت جثوات ضخمة ، هذه المجموعة الأثرية الفسيحة عرفت بها الشعوب الجرمانية . والحدث الأبرز هو تطور صناعة البرونز في مناطق خالية من هذا المعدن ، فالتجارة هي التي حققت هذه المعجزة .

مقايضات تجارية متنامية

وهكذا فإن المقايضات ، ليس فقط بالبضائع بل بالرجال والأفكار ، عملت على تثبيت قطع هذه الفسيفساء . ورسخت هذه الطرق بين الشمال والجنوب العلاقات بين أوروپا الشمالية وعالم البحر الأبيض المتوسط ، وخاصة بحر إيجه

---

(1) هو ملك كنوسوس (كريت) عاش بين القرنين السادس والخامس ق.م . تقول الأسطورة إنه ابن الإله زفس وأوروبُ وتعتبره مؤسس الحضارة والعمران في جزيرة كريت (م) .

الذي استخدم كمحطة بين مصر واليونان . كانت الطرق تتبع محاور الرون ـ الراين وإلْب ـ بْرِنْيَرْ وڤاردار ـ موراڤيا . من شواطىء البلطيق كان يُحمل العنبر ومن الجنوب النحاس والمصنوعات الدقيقة . وكانت حركة التجارة ناشطة في عهد الحضارة الميسانية ؛ وعُثِر على لآلىء مجزعة بالعنبر في الپيلوپونيز وألمانيا الجنوبية منتشرة على هذه المحطات . وثمة طريق تنطلق من كريت واليونان فتصل إلى خليج الأسد (Lion) وتصل إلى الغارون والأطلسي عبر عتبة نورروز (Naurouze) . من هنا كانت تمر طريق القصدير المنطلقة من كورنواي ، وقد استخدم وادي اللوار أيضاً لذلك . وكانت الحركة التجارية تبلغ إنكلترا الجنوبية لدى أصحاب حضارة وِيْسِكْس ، فهؤلاء كانوا يسلكون الدروب الموصلة إلى كورنواي وكانوا يحملون أيضاً الذهب والقصدير من إيرلندا إلى پا ـ دي ـ كاليه والسهل الكبير في أوروپا الشمالية .

قادة عظماء

من هنا جاءت عظمة هذه الشعوب المقيمة على مفارق الطرق ، في ساكس وتورانج ، مثلا ، والتي كانت تراقب وتحرس الطرق المتجهة من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب . وكانت أيضاً تشارك في الحركة التجارية ؛ فينتج عن ذلك حتماً إثراء بعض أصحاب النفوذ المحليين . هؤلاء هم الذين نجد جثثهم محاطة بالقرابين الثمينة ومدفونة تحت جثوات ضخمة . إن الشواهد الأثرية غير كافية لإعادة بناء هذه المجتمعات . ولكن ما يمكن أن نستنتجه هو وجود أرستقراطية محاربة . ولم يلاحظ في حفريات القرى أي بيت قائد أو أي مسكن ممتاز في أوروپا الوسطى والغربية بشكل دقيق .

« حقول قوارير الرماد » والهجرات

يعتبر عصرا البرونز القديم والمتوسط ما بين 1700 و 1200 ق.م . عصريْ استقرار . وابتداءً من 1200 يتغير الموقف : فمن جهة تعم طقوس حرق الموتى جميع أوروپا ، فيوضع رمادهم في قوارير تدفن في التراب وتجمع في مقابر فسيحة . ومن جهة أخرى فإن حركة نزوح الشعوب ذات النزعة القتالية ـ انطلق أكثرها من حوض الدانوب ـ أدّت إلى تلاشي القوة الميسانية وتدمير الإمبراطورية الحثية وإلى غزو مصر (شعوب البحر) . وإن أسباب هذه التبدلات وهذه الهجرات لا يزال مجهولاً ، والبحث عن أصول هذه التغيرات يبقى عبثياً . وقد تكون نقطة انطلاقها

في بداية القرن الثالث عشر في حوضي الدانوب الأوسط والأسفل . ربما حملت إحدى موجات النزوح في بداية القرن الثاني عشر قبائل إلى ما بين نهري إلب وفيستول وأخرى إلى ألمانيا الجنوبية ، إلى ممر الرون ـ الراين ، وغيرها أيضاً باتجاه شبه الجزيرة الإيطالية . ويلاحظ ابتداءً من القرن الحادي عشر استقرار عام يدوم حتى سنة 800 ق.م . إن تسمية عصر حقول القوارير الذي يذكر بمراسم دفن الموتى توافق عصر البرونز الأخير .

المجموعات الكبرى

وعن هذا التحرك الظاهري ينتج تشكيل مجموعات كبرى :

1 ـ مجموعة هنغاريا والكرپات والبلقان .

2 ـ فريق لوزاس في الشمال مع قرى محصنة مثل قرية بِسْكُوپَانْ (پولونيا)، وهذا الفريق هو في أصل السلاڤيين التاريخيين.

3 ـ الفرقاء التشيكيون في كْنُوڤِيزْ ومِيلاَڤْسْ وڤِيْلاَتِيْسْ .

4 ـ المنطقة الغربية التي تعتبر مكان ظهور الشعب السلتي مع كيانات محلية متعددة منها كيان فرانكونيا والراين السويسري والمين ـ شْوَابْ والراين الأسفل والتيرول/شرقي فرنسا وكاتالونيا وأراغون .

5 ـ وفي إيطاليا ، فإن إسهامات أوروبا الوسطى أثرت ، في لومبارديا وأميليا ، على حضارات قديمة كحضارة تِرْاماري وأدت بالتالي إلى نشوء فريق ڤيلانوڤا باتجاه پولونيا .

أما هذا التأثير فقد ضعف أكثر فأكثر كلما ابتعدنا نحو الجنوب وخاصة في الجزر حيث يترسخ نفوذ البحر المتوسط الأوسط والشرقي . تلك هي حالة الحضارة النوراغية في سردينيا . والملاحظ أن مناطق الأطلسي من البرتغال إلى الجزر البريطانية ظلت بمنأى عن هذه التحركات .

عصر الإزدهار والإستقرار

ويكاد يكون من المؤكد أن المراحل الأخيرة من عصر البرونز تتوافق ، في أوروبا ، مع ازدياد في عدد السكان يُعزى إلى ازدهار الإنتاج الزراعي . إن تصميم

الحراثة شيء ثابت وقد عثر على آثار أثلام تحت الجثوات في أوروبا الشمالية . وانتشرت كذلك عِدَانة البرونز في كل مكان وخاصة في مناطق الدانوب . وترفد صناعة السلاح ، من سيوف وخناجر ودروع وخُوَذ ، تجارةً ناشطة متجهة في أكثر الأحيان نحو شواطىء البلطيق . وهكذا نشطت تُجارة الحلى والزينة وخاصة الأساور والدبابيس ومشابك الثياب والزنانير .

القرية والمنازل

وطرأ شيء جديد على فن بناء المساكن ، ليست القرية ، في أكثر الأحيان إلا امتداد صغير يتسع لحوالي خمسة عشر كوخاً . أما التجمعات الكبيرة التي تشتمل على مئة منزل كما في بِسْكُوبِانْ (پولونيا) فتظل حالة استثنائية . وإذا وجد عدة نماذج من البيوت فإننا نجدها مختلطة في جميع أقسام القارة ؛ تدعم الأعمدة السقف أما بناء الجدران فيتغيَّر : إمَّا أن يكون سياجاً خفيفاً ، أو صفائح أو جذوع أفقية - إن قياسات الأبنية تنقص إجمالاً عما هي عليه في العصر النيوليتي - تتراوح قياسات الأبنية المستطيلة بين 8 و 12 م طولاً ، و 4 و 7 أمتار عرْضاً كما في پِيرْلِبِرْغ (Perleberg) (ألمانيا) يزخرفها عادة محراب أو رواق . إن تصميم أكواخ بوشو (Buchau) في ورتمبرغ على شكل U (كوب) يتوافق مع شكل مزارع بقياسات 25× 25 م تقريباً وذات سقف واحد ، ولا يتسنى تحديد طبيعة الأجزاء الستة المخصصة ، ربما ، للسكن والضيافة .

وفي الجزر البريطانية يكثر وجود الأكواخ المستديرة ؛ وفي البحر المتوسط وإيطاليا الجنوبية للبيوت شكلٌ بيضوي يقرب من شكل المستطيل وهي مبنية بالحجر غير المثبت بالطين .

الأماكن السكانية المحصنة

من الهموم التي أقلقت أوروبا بأسرها ، همُّ الأمن الذي ارتبط بتكاثر الغزوات . تبنى القرية على جزيرة في قلب بحيرة أو مستنقع ويحيط بها سور كما هي الحال في وَسِيرْبُورْغ (Wasserburg) في بوشو : وهذا الترتيب عينه يوجد في أوروپا الوسطى ، ثم بدأت الحصون تغطي المرتفعات التي كانت ملاجىء في حالات الإضطرابات والخوف . ويعزل حاجزٌ أو خندق رأساً صخرياً ناتئاً ، وفي أوبِيْرِيت (Oberriet) في سويسرا استنْبِط جهاز معقد من الروافد الخشبية جعل صقالة داعمة

لمرتفع من التراب المرصرص ، استمرت هذه التجهيزات طيلة عصر الحديد .

المحطات الساحلية

وهناك طريقة سكن مبتكرة عاشت فترة قصيرة : تلك هي المحطات الساحلية التي تشبه إلى حد كبير محطات العصر النيوليتي . وظلت مشكلة العزل ، بإدخال طبقات من القشر أو صنع أرضيات الأكواخ من جذوع الشجر ، هي الهم الدائم . هذا الإستيطان الجديد للبحيرات في سويسرا وجبال الألب الفرنسية كما في بروجيه بدأ نحو السنة 800 ق.م . ومن تعليلاته هبوط بارز ملحوظ في مستوى المياه في المرحلة الثالثة من ذوبان الجليد المدعوّة سوبوريال (Subboréal) .

ثورة تكنولوجية

الحديد

إن الندرة النسبية لمناجم النحاس والقصدير حدَّت من تطور عِدانة البرونز ، وعلى العكس من ذلك فإن ركاز الحديد الجيد موفور في أوروبا واستثمار الجيوب الموجودة على سطح الأرض تقريباً لم يكن يشكل أي صعوبة . إن ضعف المؤسسات الحرفية استتبع استهلاكاً طفيفاً لركاز المعدن، من هنا إمكانية استثمار عروق صغيرة.

دور الشرق الأوسط والبحر المتوسط

انتشر استخدام الحديد ببطء في أوروبا ، والحقيقة أن شعوب الشرق الأوسط وآسيا الصغرى والحثيين خاصة عرفوا المعدن الجديد الذي لم يبلغ اليونان ثم أوروبا الوسطى قبل منتصف الألف الثاني أو في نهايته . وغالباً ما كان يستخدم الحديد ، المادة الكمالية ، استخداماً استثنائياً ، في تقوية حد السلاح أو عُدَّة ما أو يُنزَّل في البرونز على شكل زينة . وعلى أي حال تصبح الأدوات أكثر فاعلية وأقل كلفة . ويستخدم البرونز والذهب لصنع الكماليات والزينة بشكل خاص .

وحدة ثقافية حقيقية

إن استيطان فئات حضارية في أوروبا في عصر الحديد الأول (750 ـ 450 ق.م) يستدعي بعض الملاحظات ؛ أولاً ، إن الشرق الأوسط يفقد الأولوية لمصلحة المناطق الواقعة لجهة الغرب . وإن دولاً مثل فريجيا وفينيقيا ثم اليونان

بمدنها تبسط قوتها وتمد نفوذها باتجاه أفريقيا الشمالية وأوروبا الوسطى والغربية ، ويحدد الإنتشار السريع للكتابة في هذا القطاع تحوُّلات ثقافية . ثم تُكثِر شعوب البحر المتوسط من مبادلاتها التجارية مع « البرابرة » داخل القارة فتقايض سِلعاً مشغولة بمواد أوَّلية ، منها الملح والعنبر . والميزة الثالثة تكمن في تقوية المجموعات البشرية الكبيرة التي نشأت في عصر البرونز : الحضارة الهولستاتية (Hallstattienne) ومجموعة السيت (Seythes) واللوزاسْ . وتابعت هذه الأخيرة تقاليد عصر البرونز وتتبنى الحديد منذ القرن الرابع ، وقد نشأ عنها السلاف التاريخيون .

الشعوب الفرسان

إن المجال الهولستاتي ـ نسبة إلى مقبرة هولستات في النمسا ـ يتمحور حول المناطق الألپية وخاصة عند سفح الألب شمالي الجبال مع امتداد نحو اسبانيا ويوغوسلاڤيا .

كانت هذه الأرض الواسعة منذ منتصف القرن السابع ق.م . مسرحاً لتغيُّرات معقدَّة وغير مفهومة . فمن هنغاريا إلى تشيكوسلوڤاكيا حتى بلجيكا وفرنسا الجنوبية مع محطات في باڤاريا ووادي الراين والجورا والهضاب الوسطى ، بُنيت الجثوات التي تضم مدفناً وحيداً يصحبه أحياناً سرْج حصان وسيف طويل من برونز أو حديد . ويظن أن هذه القبور هي قبور فرسان دعيت فيما مضى التراكو- سيميرية (Thraco-[1]Cimmeriens)[2] . ولكن هذه التسمية هي موضع جدل . يبدو أن استخدام الحصان كحيوان ركوب بدأ في أول القرن الثامن في السهوب المحيطة بالبحر الأسود في الأراضي التي استوطنها السيتيون والسيمريون . هذه الخطوة الجديدة أدَّت إلى تطور حياة الترحُّل والنشاطات الرعوية على حساب الزراعة . زد على ذلك أنه حوالي سنة 750 ق.م حدثت تغيرات مناخية وازدادت غزارة الأمطار ، الأمر الذي أبرز هذا التبدل في نظام الحياة ، ومن المحتمل أن تكون مطاردة السيتيين

---

(1) شعب هندو ـ أوروبي من الرُحّل ، استقر شمالي البحر الأسود في القرن الثامن ق.م .

(2) نسبة إلى Thrace وهي منطقة في جنوبي شرقي آسيا تمتد من الدانوب حتى بحر إيجه إلى الهروبونتيد (م) .

للسيمريين ، على شواطىء البحر الأسود ، لطردهم من أراضيهم ، كان لها مضاعفات في الغرب .

وحدة وتنوُّع

وجود خصائص محلية مميِّزة

على أي حال لقد حدث في موطن الشعوب الفرسان تطور أدّى نحو 600 ـ 550 إلى الوصول بالحضارة الهولستاتية إلى الذروة . فإن المبتكرات في الزينة النسائية والتعديلات في شكل المدافن تشهد على ذلك بالرغم من الفوارق المحلية التي تعود إلى شعوب مختلفة . وأهم الكيانات هي : فريق البوسنة والكارتيول وفريق النمسا وألمانيا الجنوبية وفريق سويسرا والجورا والألزاس وبورغونيا . أما القطاعات الأخرى مي العالم الهولستاتي فتغيرُت ببطء وظلت شواطىء الأطلسي والبلطيق أمينة لعصر البرونز . وظلت إيطاليا منذ منتصف عصر البرونز تحتفظ بعلاقات مع حضارات أوروبا الوسطى ، مستفيدة من إسهامات البحر المتوسط . فعلى هذه الطريق الأخيرة ، وانطلاقاً من كريت واليونان دخل الحديد باكراً إلى شبه الجزيرة (الإيطالية) خلال القرن التاسع (ق.م) . واكتسبت المميزات المحلية شخصية خاصة بها . أمّا في الشمال فاستمرت التقاليد الموروثة من عصر البرونز الأخير مثل حرق الموتى ، دون أن تتلاشى الإتصالات بالمناطق المجاورة مثل الكارنيول[1] والبوسنة (حضارات ڤيلا نوڤا وغولاسيكا وإسْتِهْ) وفي إيطاليا الوسطى والجنوبية سيطرت التأثيرات اليونانية منها مراسم الدفن التي تقضي بدفن الميت في حفرة أو ضمن جثوة (حضارة القبور المحفورة ، في نوڤيلار وأپوليا) . هذه التأثيرات اليونانية عينها فعلت فعلها منذ القرن السابع في سكان ڤيلانوڤا الذين استقبلوا من توسكانا مهاجرين وافدين عن طريق البحر من الشرق الأوسط . ومن هذا الإنصهار الوثيق تنشأ الحضارة الأتروسكية .

عِدَانة وحِرَفِيَّة من مستوى عالٍ

بلغت تقنيات التعدين لدى كل هؤلاء الفرقاء مستوى من الكمال يفوق بأشواط التقنيات التي يستعملها الرومان . تنتج الأفران المنخفضة الحرارة نوعاً جيداً من

(1) إقليم قديم في النمسا يقع بين كارنتيا وستيريا (م) .

الحديد يستعمل لصنع السيوف وخاصة أدوات النجارين ونجاري العربات والزوارق الصغيرة المتينة . وعرفت نشاطات حرفية أخرى النجاح الباهر ، وكانت عمليات التنقيب في النمسا وألمانيا واللورين ومناطق الأطلسي تستخرج الملح من المناجم ومن المياه المالحة . وكانت مناجم النحاس وخاصة مناجم التيرول تحتاج إلى بذل الكثير من الجهد . وعرفت صناعة نسج الصوف ازدهاراً رائعاً بفضل بلوغ مهنة النسيج ذروة الكمال . وباختصار شملت الحِرَف اليدوية الناشطة مجالات أكثر تنوُّعاً دون أن ننسى حِرَف صناعة الجلد والبرونز .

حركة تجارية كثيفة في المتوسط

من النتائج الطبيعية لازدهار الإنتاج كثافة التبادل التجاري . إن المحاور التي استخدمت في العصور السابقة ظلَّت مستعملة ، وبعضها كان ذا أهمية خاصة . هذه المقايضات ظلت تبدو متشابكة ومتنوعة الوجوه . وفي بعض الحالات استخدمت عمليات النقل الطرق البرية والطرق البحرية . وكانت التجارة الساحلية ، في البحر المتوسط كما في البحر الأسود ، متطورة ومزدهرة لارتباطها بإنشاء المكاتب والوكالات التجارية . وتبنت الشعوب التي تجيد الكتابة ، كالفينيقيين واليونان هذا الأسلوب .

ويعرف العالم تأسيس قرطاجة ومنشآت فينقية أخرى حوالي السنة 800 ق.م وتأسيس مرسيليا من قبل الفوقيين[1] حوالي السنة 600 . ويصل تيار تجاري ينطلق من شرقي المتوسط إلى صقلية وشبه الجزيرة الإيبرية وإيطاليا والأدرياتيك . فيستغل الأتروسكيون ذلك ويشكلون محطة على طريق أوروبا الشرقية والغربية . وتصل البضائع ، عبر عتبة النوروز إلى الجزر البريطانية وتتابع طريقها نحو الشمال . وتتم مقايضات على نطاق محدود : من البندقية باتجاه جبال الألب النمساوية وبالعكس . ومن البحر الأسود باتجاه السهوب التي يسيطر عليها السيتيون . ومن اليونان والجزر السويسرية نحو شواطىء البلطيق . وكانت البضاعة المنقولة قليلة التنوع وذات قيمة مثل : الدروع والسيوف والأواني البرونزية المخروطية الشكل والحلى الذهبية .

---

(1) نسبة إلى مدينة «Phocée» وهي مدينة قديمة في آسيا الوسطى ـ إيونيا ـ تقع على خليج أزمير تأسست حوالى القرن 10 ـ (م) .

عالم « البرابرة » والبحر المتوسط

ويربط تيار مقايضة هام ، من القرن الثامن حتى القرن السابع ، منطقة مترامية الأطراف تشمل الدانوب الأعلى والهضبة السويسرية والجورا ، بمنطقة بورغونيا وعالم البحر الأبيض المتوسط . وفي قطاعات فسيحة من محور الرون ـ الراين والمناطق المجاورة ، قبور ومساكن تحتوي على آنية من البرونز وآنية مخروطية الشكل وقصاع ذات أعناق وقوارير وأجاجين للماء بثلاث عروات وباطيات لمزج الخمر وأوانٍ خزفية مصدرها بلدان البحر المتوسط ومناطق في اليونان واليونان الكبرى وأترووريا ومؤسسات تجارية ساحلية . وكثير من هذه الأواني المعدنية يعزى إلى تجارة الخمور ، المشروب الذي يجله الأسياد المحليون في غاليا ، أما الطرق المحددة التي كانت تسلكها هذه البضائع فلا تزال غير معروفة .

كانت طرق المضائق الألبية (وجبال سان غوتار) تؤدي إلى الهضبة السويسرية ومنطقة بال ـ وبعد تأسيس مرسيليا في حدود السنة 600 ق.م . استعمل ممر الرون والسون الذي كان يصل السون الأعلى بالراين والدانوب .

المدافن الأميرية والتراتبية الإجتماعية

كانت مدافن فخمة تضم جثث الزعماء الأقوياء ، أما الجثوات الأخرى في العالم الهولستاتي فتضم ، أكثر الأحيان ، مدافن جماعية تخص إحدى العائلات . إنه إجمالاً مجتمع طبقي مؤلف من أرستقراطية محاربة ومن الشعب بمزارعيه وحرفييه . وفي مدافن الأمراء تعرض عادة عربة إلى جانب جثة الميت ، هذه العربات المعدة للقتال ظهرت في بداية القرن السابع في تشيكوسلوفاكيا ولكنها استخدمت أيضاً في الدانوب الأعلى والجورا والسون العالي وذلك خلال القرن السادس . إن جذور هذه المراسم الجنائزية غير معروفة جيداً وقد نسبت إلى التراقيين والسيمريين أو إلى السيتيين .

وكان لهذه الارستقراطية نفسها مساكن هي عبارة عن قلاع محصنة تشرف على نقاط عبور إلزامية وتشيد بجانبها الجثوات الأميرية . وكون هذه الجثوات هي تجمعات مشهورة لقد حفظ منها مدفن ڤيكس وڤون ـ لاسُو في بورغونيا وهُوْلْميشَالْ وهُوْ نِبُورْغْ في وُرْتِمْبُرْغْ . أما مساكن الطبقة الشعبية فبنيت بالجذوع على أرضية

مربعة ، معروفة منذ عصر البرونز الأخير ، أو على أرضية مستديرة ، وهي تشغل قسماً من الأسوار المحصنة . أما في الأرياف فيجري البحث عن التلال لبناء المساكن عليها ، فإن الدفاع عن النفس هو همهم مقيم .

الفصل الرابع

ظهور الشعوب التاريخية

حوالي السنة 500 قبل الميلاد يبدأ عصر الحديد في أوروبا . هذا الفاصل التاريخي المصطنع يتوافق مع إرساء كيانات المجموعات الإقليمية الكبرى التي بدأت تتضح معالمها وخصوصاً استناداً إلى الإمكانية التي توفرها بعض النصوص الكلاسيكية حول معرفة وجود الشعوب التي لا تزال تجهل الكتابة مثل السلتيين والجرمانيين والإيبيريين وخاصة السيتيين (Seythes) .

الحضارة السلتية في التين (La Tène)

من الجزر البريطانية إلى مصب الدانوب ، ومن سهول ألمانيا إلى نهر البو ، يعاصر وجود الشعب السلتي حضارة التين التي امتدت من سنة 500 إلى سنة 5 ق.م : تكشف هذه الحضارة على صعيد الآثار وخاصة بالنسبة إلى الآثار المادية عن تجانس باهر . . الأسلحة نفسها والزينة عينها والقبور هي هي تنتشر على تلك الأرض الفسيحة التي سيطر عليها السلتيون . ورغم هذه المماثلة لم يكن الشعب السلتي نسباً واحداً ولا أمة واحدة حتى ولا عرقاً واحداً وهو لم يكن دولة واحدة بالمفهوم العصري لهذه اللفظة ، وحدها اللغة ، بالرغم من بعض التباينات الحتمية كانت الصلة بين هذه القبائل المتعددة أو هذه الاتحادات القبلية . إن جذور الشعب السلتي غير معروفة جيداً ، ودون أن نتوغل بعيداً في الماضي ينبغي البحث عنها في الحضارة الهولستاتية التي تطورت ، حوالي السنة 500 ، لأسباب مجهولة ، ربما كانت من المستوى الاجتماعي الاقتصادي ، في منطقة شاسعة تشمل وادي الراين الأوسط والباڤيار وسويسرا والجورا وبورغونيا .

التنقلات السلتية

دفعت عمليات الهجرة ، خلال ثلاثة قرون ، ببعض المجموعات البشرية ،

في اتجاهات مختلفة . ولوحظ منذ القرن الخامس تكوّن مركز إضافي ثابت بين المارن وشمالي الراين كان في أصل التحركات باتجاه إسبانيا (القرن الخامس) وفرنسا الجنوبية (القرن الرابع) والجزر البريطانية . ومن النواة الأساسية تتفرع مجموعات خاصة باتجاه الجنوب والبحر الأسود (القرون الخامس والرابع والثالث) ، ونحو إيطاليا الوسطى (القرن الرابع) .

مجتمع محارب (عسكري)

تُبرِز هذه الهجرات ميزة قتالية ، وتطغى أهمية البنية العسكرية على تاريخ السلتيين القديم . وكثيراً ما تنشأ علاقات بين الوقائع الحربية والوقائع الاجتماعية الاقتصادية . إن العربات ذات العجلتين والحصانين التي عثر عليها في مدافن شمپانيا الثرية ، في القرن الخامس ، لا شك أنها كانت تخص النبلاء . ويكتشف في قبور المشاة سيوف ودروع ورماح تشهد على تماثل تام بين أوروپا الوسطى والغربية وتخص هذه القبور مجتمعاً من الرجال الأحرار يملك أرضاً مشتركة يتعاطى الناس جميعاً عليها الزراعة وتربية المواشي والقتال . وكان النبلاء ينتمون إلى فرقة الخيالة .

مجتمع سلتي متطور

إن المجتمع السلتي ، الذي يمثل الميزات السلفية بالنسبة إلى اليونان وروما وبالرغم من الخصوصيات المحلية والتطورات المتباينة ، يملك بعض المميزات الجوهرية المشتركة بين القبائل المختلفة والمدن . إنه في الواقع مجتمع (بربري) في ذروة تفككه بسبب المسيرة الإقتصادية . هذه الملكية ذات الوظائف العسكرية لم تقوَ على الصمود ، وخاصة في غاليا ، في وجه المد الأرستقراطي أو بالأحرى الأوليغارشي الذي يستغل أتباعاً من الرجال المدنيين الذين يقرب وضعهم من العبودية .

وهناك عامل توحيدي آخر يعم موطن السلت : إنه جماعة الكهنة ورجال الدين والآلهة أو الطقوس العامة (عبادة الأشخاص) ، يضم إليها أيضاً الهياكل والأماكن المسورة المختصة بالعبادة وهي ذات شكل مستطيل من نوع هِيْثْ رُوْنْ في إنكلترا ولِيْبِيْنِسْ في بوهيميا .

نواة تنظيم مدني
إقتصاد فعال

وثمة عامل توحيدي آخر في بلاد السلت يكمن في إنشاء قلاع قوية ، أو مدن محصنة تحميها أسوار متينة مبنية بالروافد المتشابكة (الجدار الغالي) ومستعمل لغايات مختلفة : ملجأ ، وسوق ومركز حرفي . وفي محيط هذه القلاع ، أرض ممهدة فيها حقول بدائية مربعة التقاسيم تحيط بقرى من الأكواخ المستطيلة الشكل في بلاد الغال وأوروبا الوسطى ومستطيلة في الجزر البريطانية . ويعطي الاقتصاد السلتي ، بشكل عام ، إنطباعاً عن ازدهار بالنسبة إلى اقتصاديات البلاد الأخرى كاليونان وروما . وكان إنتاج الحبوب ، من قمح وشعير ، وفيراً ، وكانت تربية المواشي ، التي تكيفت مع جميع المناطق ، مزدهرة أيضاً . وكانت بريطانيا تفضل تربية الأغنام فيما غاليا تربي الخنازير والثيران . أما بالنسبة إلى الحرفيين ، فإن مهارتهم تستحق التقدير ، سواء أكانوا حدادين يصنعون السلاح أم نجارين أم صانعي صقالات أم خزافين أم صاغة أم مزخرفين . فهذا النشاط الاقتصادي الملحوظ يغذي تجارةً مختلفة الأوجه ويجب ألاّ نبالغ في التحدث عن الإكتفاء الذاتي لبعض المدن ، ففي هذه المدن كان إنتاج السلع المتنوعة الأهداف والصفات يستخدم للمقايضة على نطاق ضيق مع الفئات المجاورة . وبالمقابل ، لقد تأكد التبادل التجاري مع عالم البحر المتوسط واليونان والأتروسكيين والرومان . وفي القرن الخامس استمرت بعض العادات التي تقلصت في المرحلة الهولستاتية وامتدت تقريباً إلى المناطق نفسها : أودية الرون والسون ، والألزاس واللورين ، والبلاتينيت الرينانية ، ثم شمپانيا .

وظلت آنية الخزف اليونانية والأواني البرونزية رائجة باستمرار ، الأمر الذي يؤكد تجارة الخمور التي امتدت حتى الفتح الروماني . ومن بلاد السلت ، كانت تجلب الحبوب والمقددات والجلود والقصدير والملح . واستخدمت بطرق أخرى كذلك باتجاه الدانوب إنطلاقاً من الأدرياتيك واليونان والبحر الأسود . وما سهل هذه الحركة التجارية في القرن الثالث استخدام العملة من قبل السلتيين . وكان تجار يونانيون ورومان وأتروسكيون يرتادون طريق القارة ، وتوطدت علاقات بحرية بعيدة فيما وراء جبل طارق عبر شواطىء الأطلسي باتجاه بريطانيا العظمى وسكنديناڤيا .

الوحدة الفنية في العالم السلتي

وبالرغم من أن الفن السلتي اقتبس النماذج والتقنيات من الشعوب المجاورة إلا أنه برهن على وحدة أكيدة وأن النماذج البشرية تكشف أحياناً عن تقليد فاشل لفن النحت اليوناني، ولكن تقاسيم الوجه هي ذات طابع محلي . أما بالنسبة إلى النماذج التزيينية فبعضها مُستوحى من النماذج السيتية كالحيوانات الخرافية وبعضها من اليونان كالزخارف الشجرية ، ولكن الفنانين السلتيين عرفوا دائماً كيف يمزجونها بطريقة مبتكرة ويخرجونها في منحنيات ولولبيات لها أروع الأثر . واستعملت مواد متنوعة كالذهب والمرجان والميناء لترصيع أدوات عديدة وتزيينها .

إسبانيا والإيبيريون

فالسلتيون ، إذاً ، بالمقابلة مع الشعوب التي تحسن الكتابة ، كانوا يهيمنون على عالم البرابرة . وكان لجيرانهم ، المتفاوتي الأهمية ، دور يلعبونه على الساحة الأوروبية . وعلى الشاطىء الشرقي لإسبانيا ، بنى الإيبيريون مدينة أصيلة ، وكانوا داخل شبه الجزيرة وغربها ، منذ عصر الهولستات ، جيراناً للسلتيين (السلتيبير) .

ولكنهم ، وبسبب احتكاكهم الوثيق بالتجارة اليونانية ، طوروا ، على الشاطىء ، حضارة أصيلة ابتداءً من كاتالونيا وصولاً إلى الأندلس : وقد اكتشفت مدنهم المحصنة المنظمة تبعاً لنظام المدن اليونانية المجاورة والتي كانت تستخدم بمهارة مزيجاً من ثروات البحر والأراضي الزراعية الخصبة ومعادن الفضة والحديد في سْيِرَامورينا وكاتالونيا . وكذلك الدين والفن خضعا للتأثيرات الهلينية . وبعد أن تألق نجم إيبيريا من القرن الخامس حتى القرن الثالث خضعت بسرعة للسيطرة الرومانية . وهناك شعوب أخرى ، على شواطىء المتوسط ، أقلّ أهمية ، ولكنها ، باحتكاكها المباشر مع اليونان ، وإيطاليا ، فقدت استقلالها واحتلها الرومان ، هؤلاء هم الليغوريون[1] ، والڤينيت[2] ، والإلليريون[3] ، والرّيت[4] (Rhètes) .

---

(1) Les Ligures : شعب قديم استقر على شواطىء مرسيليا ـ م ـ .

(2) Les Venètes : شعب هندو أوروبي استقر أساساً على الأدرياتيك وفي الارموريك ـ م ـ .

(3) وهم سكان Illurie وهي القسم الشمالي من بلاد البلقان تشمل كرواتيا ودالماسيا والبوسنيا وألبانيا والهرسك (المترجم).

(4) شعوب قديمة سكنت جبال الألب الوسطى وتشمل شرقي سويسرا والتيرول النمساوي وشمالي لومبارديا .

شعب السهوب

السيتيون (Les Seythes)

وهذه الظاهرة تتكرر كذلك على شواطىء البحر الأسود ، بالنسبة إلى التراقيين والداسيين سكان مصب الدانوب الذين سيطر عليهم السيتيون . فهؤلاء الذين يعتبرون ورثة حضارة المدافن ذات الصقالة التي تعود إلى عصر البرونز ، احتكوا باليونان على الشواطىء الشمالية للبحر الأسود وفي الكريمه منذ القرن الثامن . وبلغت الحضارة السيتية ذروتها في القرن السادس قبل المسيح ، وفي القطاع الغربي من البلاد تقدمت الزراعة على تربية المواشي . غير أنهم شنوا ، في القرن السادس ، غارات متفرقة على أوروبا الوسطى وألمانية ، دون أن يتركوا أثراً واضحاً في المناطق التي مروا بها . وكان هذا الازدهار قصير العمر فحوالي السنة 340 انهارت قوة السيتيين تحت ضربات فيليب المقدوني ، والسلتيين . وقد تعرضوا أيضاً ، من القرن الخامس حتى القرن الثالث ، لهجمات جيرانهم وذوي قرباهم السرماتيين . فهؤلاء الذين جاؤوا من شواطىء السون وظلوا متمسكين بحياة الترحل ، احتلوا تدريجياً السهوب الواقعة شمالي البحر الأسود من جبال الكرپات إلى بحر قزوين حيث استطاعوا الإحتفاظ بسيطرتهم حتى القرن الرابع ق.م . إن إسهام سكان السهوب في حضارات سائر الأقطار الأوروبية ليس هامشياً ، من ذلك استخدام الخيول والعربات والطقوس الجنائزية المعقدة التي اقتبس الغرب بعضها . ويحتفظ فن تمثيل الحيوان ، عند السيتيين ، بأصالة بارزة ، بالرغم من اقتباسه الثابت من الشرق الأوسط وفارس .

أوروپا الشمالية والجرمانيون

ويلي عصر البرونز المتألق ، في شمالي أوروپا ، في القرن الخامس ، عصر الحديد الباهت . والحقيقة أن المعلومات التي تركها المؤلفون القدامى عن هذه الأقطار تفتقر إلى الدقة ـ وكما يصعب دائماً نسبة الآثار المادية إلى فئة بشرية محددة ، وكلمة جرمانيين وجرمانيا تغطي واقعاً معقداً . ويبدو أنه من الصعوبة بمكان أن نعين على الأرض حدوداً ثابتة . وبشكل عام ، إن شمالي أوروپا الذي ازدهرت فيه صناعة البرونز ، انعزل عن عالم البحر المتوسط بحدود القرن الخامس . وإن هذا المدى الفسيح ، وبعد أن حُرِم من ثرواته التقليدية للتزود بخامات المعادن ،

وبعد أن تعرضت مقايضاته التجارية للعراقيل ، تحول ببطء إلى التقنيات الحديثة . فلعبت هذه البيئة بغاباتها الفسيحة وأراضيها الرطبة دوراً من الأهمية بمكان (حضارات جاستورف وريبدورف) .

حدود غير دقيقة للشعوب

إن رسم الحدود بين الجرمانيين والسلتيين مهمة شاقة . فلا شك في أن الشعب السلتي لم يتوقف عند شاطىء الراين بل تقدم منذ العصر الهولستاتي نحو الشمال الشرقي باتجاه هِسْ ووستفاليا ، وبين الراين والألپ قطنت شعوب مجهولة اللغة استعمرت أرضاً قاحلة . وفي المنطقة الواقعة بين فريزا وساكس السفلى ، تنتشر أكواخ غريبة الطراز مبنية على تلال من الحجارة . مارس السلتيون في وقت مبكر نفوذهم على هذه الفئات ، بالرغم من المقايضات التجارية المحدودة ، حتى ظن أن الغاليين استغلوا المناجم المعدنية في الروهر . من هذه البقعة انطلقت ، في تاريخ غير دقيق (300 ـ 150) التحركات البلجيكية التي وصلت إلى شمالي غاليا بين البحر الأسود ونهر الموز . وفي شرق الألپ وصولاً إلى الأودَرْ تقابل حضارة الجاستورف بحضارة التين . إنه من هذه المناطق هاجر السمبريون[1] والتوتونيون[2] ، منذ السنة 120 ، باتجاه بوهيميا ومورافيا ، ثم هاجر أريوفيست[3] باتجاه الراين الأعلى والسون بين 60 ـ 58 ق.م ، وتبدأ فيما وراء الأودَرْ منطقة الحضارات اللوزاسية والبلطيقية التي مر ذكرها . ويصعب في هذه الأقاليم التمييز بين أرض السلافيين وأرض الجرمانيين . ولا تبدو أوروبا في نهاية هذا المطاف كقارة أعطت اكتشافات ثقافية قيمة . إن هذه الأرض تشهد لسهولة مذهلة في التكيف ، فمنذ أبعد العصور حتى العصر الروماني تتضح معالم انسجام عظيم في الحضارات الأثرية ، من الأطلسي حتى جبال الأورال . وبالرغم من بعض التفاوت في مظاهر التطور مرده غالباً إلى ظروف بيئية متبدلة ، إلاّ أن التقهقر لا يلبث أن يعوض بسبب سهولة المواصلات . وقد أدركت الامبراطورية الرومانية ، منذ فجر التاريخ ، مهمتها التوحيدية السهلة .

---

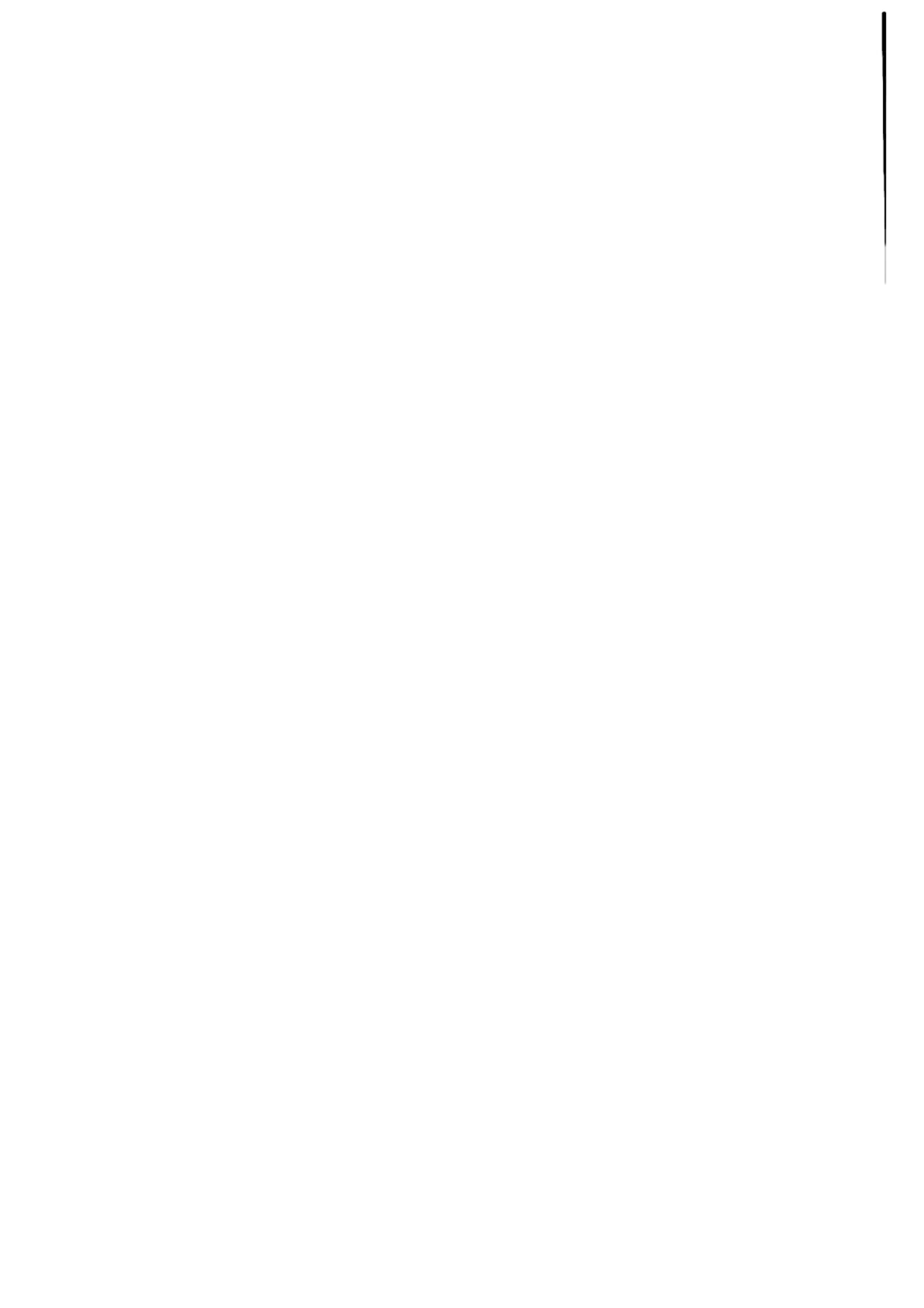
(1) شعب ألماني أول ما استقر في شرسونيز (شبه جزيرة جوتلند) (م) .

(2) شعب ألماني اتحد مع السمبريين لغزو غاليا (م) .

(3) قائد قبيلة سْوِيْفْ الجرمانية ـ القرن الأول ق.م . (م) .

الكتاب الثاني

التاريخ القديم



الفصل الأول

مفهوم أوروبا والاستيطان

في النصف الثاني من القرن الخامس قبل المسيح كان مفهوم القارة المسماة أوروبا ، والمتميِّزة عن القارتين الأخريين آسيا وأفريقيا (المدعوة وقتئذٍ ليبيا) اللتين تشكلان معها موطن الجنس البشري ، قد ترسخ واستقر في أذهان الجميع ، وقد تأمل هيرودوتس في أقسام العالم الثلاثة هذه واعترف بأنه لا يعرف أصلها وأن الأمر يحيِّره . ويروي معاصره السفسطائي هيبياس أن آسيا وأوروبا هما الإبنتان البكر لأوقيانوس وأنهما أعطتا اسميهما للقارتين .

ولقد وصل إلينا في الواقع مفهوم أقسام العالم منذ بداية القرن (الخامس) أو في نهاية القرن الذي سبقه . وكان المؤرخ والجغرافي اليوناني هيكاتيه دي ميليه (Hécateé de Milet) ، المولود حوالي 520 قبل الميلاد ، قد أعطانا صورة عن الكون تظهر فيها الأرض كجزيرة كبيرة ، برزت في وسط الأوقيانوس الذي يحيط بها وفي وسط هذه الجزيرة بحر مقفل هو الذي نسميه البحر الأبيض المتوسِّط (يدل اسمه على هذه الفكرة التي حدَّدت مركزه) الذي يتصل بالأوقيانوس بواسطة أعمدة هرقل (مضيق جبل طارق) وكذلك بواسطة نهرين كبيرين يمكن أن نطلق عليهما تسمية « المحوريين » هما : النيل وفاز «Phase» . فالنيل يحمل إلى المتوسِّط مياه الأوقيانوس ، وبما أن مجراه يشكِّل حلاً للاستمرارية بين أرضين فهو يعتبر الحد الفاصل بين آسيا وأفريقيا . أما نهر الفاز (الذي أطلِق عليه فيما بعد اسم هيبانيس أو كوبان الحالي) فيظن المؤرخ هيكاتيه أنه يصل البحر الأسود ببحر قزوين الذي يعتبر هو نفسه فرعاً من الأوقيانوس ، وهو لهذا السبب يشكل القناة الثانية التي تقسم الأرض : فعلى شاطئها الشمالي تبدأ أوروبا وعلى شاطئها الجنوبي آسيا . من هنا نرى الأسباب التي من أجلها حددت القارات بالمياه وتبعاً لخطوط مائية . فالماء هو العنصر الأساسي وهو منشأ كل حي ، إن فكرة أن الأوقيانوس يحيط بموطن الإنسان

ليست فكرة يونانية في أساسها، بالرغم من أنها ماثلة في تِيوغونْيا هِسْيودْ[1]، وأيدتها أشعار هوميروس، بل هي ترقى إلى أجيال قبل ذلك حيث تصادف في النصوص المصرية الخاصة بالأهرام وحيث يُدعى الأوقيانوس « الدائرة العظمى » ويشكل خزّاناً للحياة الأولية .

فهذه هي الفكرة التي عبَّر عنها اليونانيون بقولهم إن القارات هي بنات أوقيانوس وهو المبدأ الذَّكر . فهذا لا يدعو إلى العجب ولكن يفسر حتماً بأنّ أوقيانوس المصريين هو جسم نون أي الأوقيانوس البدائي للإله الخالق والذكَر . وآلهة الأنهار الذين أنجبوا الكثير من البنات والبلدان هم ذكور أيضاً في الأساطير اليونانية . والنموذج الأول لكل هؤلاء الآلهة هو لا شك نهر النيل . وهذا ما فعله الرومان بعد ذلك بعدة أجيال متبعين التقليد نفسه إذ جعلوا من نهر التِّيبْرْ أباً لمنطقة لاتْيومْ وإيطاليا الوسطى . وأياً تكن الأصول البعيدة لنظرية هيكاتيه ـ ولا يشك ألاّ تكون هذه الأصول مصرية ـ فإن القارات تعتبر بعد الآن جزراً . أما بالنسبة إلى ليبيا (أي أفريقيا كما أسماها المصريون بسبب الشعب اللِّيْبُو الذي ظهر هناك حوالي سنة 1100 ق.م .) فقد تأكد أنها جزيرة بفضل أسفار الفينيقيين البحرية . ويكفي هنا أن نستشهد بـ « تواريخ » هيرودوتس . أما بالنسبة إلى آسيا فالبرهان كان أقل وضوحاً ولم يكن يستند في عصر هيكاتيه إلاّ إلى استقصاءات حديثة ، بل معاصرة . وبالنسْبة إلى أوروبا فالأمر مختلف . ففي أيام هيرودوتس كان معروفاً ولا شك أنه في غربي مضيق فارس كان الأوقيانوس يغسل شواطئها ولكنه قال فيما يخص « الشاطىء الشرقي والشاطىء الشمالي فليس من الواضح أنهما محاطان بالمياه » . وينتج عن هذا الشك بخصوص حدود أوروبا والتأكيدات المعروفة عن القارتين أن أوروبا هي أكثر القارات الثلاث سرية وغموضاً ، بينما كان من المؤكد (على الأقل في القرن الخامس ق.م) أن القسم الشرقي من آسيا ، فيما وراء بلاد الهنود ، كان مقفراً « بسبب الرمال » ، وكان يظن عصرئذٍ أن شمال أوروبا كانت تسكنه شعوب تتميز بالتقوى والسعادة ، تلك الشعوب التي كانت تسمى سكان أقصى الشمال . وعندما نشأت ، فيما بعد ، نظرية المناطق ، تبين أن أوروبا هي ضمن المنطقة الصالحة

(1) قصيدة مؤلفة من 1022 بيتاً من الشعر يذكر فيها الشاعر أنساب الآلهة اليونانية وعلاقة بعضهم ببعض واختصاصاتهم . (م)

للحياة البشرية ، الأمر الذي دعم فكرة أن هذه القارة الفسيحة هي خزان بشري . لقد اقتبس مفهوم أوروبا التقليدي الكثير من هذه المحاولات العلمية . فالفكرة القائلة بأن أوروبا تشكل قارة ، وبالرغم من أنها لا تحقق الشرط الأساسي في نظرية هيكاتيه ، وهي أنها محاطة بالمياه من جميع جهاتها ، وبالرغم من ذلك وخلافاً للتكذيب الذي جاءت به التجربة فإن أوروبا ظلت قارة ولم تصبح أبداً معتبرة كملحق لآسيا . فربما ، عندما انجلت الحقيقة ، كان قد فات الأوان للتراجع عن النظرية القديمة خاصةً ، وأن مفهوم القارة لم يعد جغرافياً بحتا بل اتخذ معنىً إضافياً مرتبطاً بالثقافة الإنسانية .

والنتيجة الأخرى ، أي الصورة التي تكونت ، لمدة طويلة عن أوروبا ولم تمحِ أبداً ، هي فكرة أنّ أجزاءها الشمالية ليست إلاّ ملحقات متباعدة لأشباه جزرها المتوسطية وأن « مركز ثقلها » يوجد في الجنوب . ومن الصعب حتى في أيامنا هذه ، أن نفهم أن لأوروبا الجغرافية السياسية محوراً ينطلق من بولونيا[1] إلى مصب الدانوب . هل ستوصل فكرة أوروبا الوسطى إلى أن تفرض نفسها خارج نطاق الطموح ؟ ومنذ زمن طويل لم ينظر إلى أوروبا على أنها حقيقة متكاملة ، لقد بدت كفسيفساء من المناطق المجاورة ، صغيرة وكثيفة السكان في الجنوب ، واسعة وغامضة كلما ابتعدت عن شمالي البحر المتوسط الذي سيظل لمدة طويلة في ذهن الكثيرين كـ « وسط العالم » .

ولكن كان لمجموعة الافتراضات الخاطئة ، التي تعاونت على تكوين فكرة عن أوروبا ، نتيجة أخرى وهي إعطاء هذه القارة قيمة تفوق قيمة سائر القارات . وأن أوروبا تبدو ، في نظرية هيكاتيه ، على قدم المساواة مع آسيا ، فيما هو ينتقص من قيمة أفريقيا . فهذا الأمر يدعو إلى الموازنة ما بين أوروبا وآسيا اللتين تتواجهان على شاطىء بحر إيجيه واللتين تسكن أطرافهما شعوب هِلّينيّة . ولكن القسم الداخلي لكلا البلادين لا يثير هذه المشاعر إيّاها . للحقيقة أن آسيا هي أكثر فتنة وسحراً بفضل الآثار التاريخية والكنوز التي تجمعت منذ آلاف السنين ، ولكن أوروبا تبدو أرحب وأغنى بالإمكانيات التي توفرها للنشاط الانساني . إنها أرض الإستكشاف والإستعمار . وكان لآسيا ماض مجيد منذ ولادة الحضارة الهلينية ، ولكن يبدو أن

(1) Boulogne منطقة فرنسية تقع عند با ـ دو ـ كاليه ـ (م) .

لأوروبا مستقبلاً أكثر وعداً ، أولاً لأنها تعطي انطباعاً بأنها غير محدودة وثانيـاً لأن محاولات الاستيعاب لم يكن محكوماً عليها بالفشل كما في آسيـا ، وذلك بسبب البنى السياسية القوية التي تدير شؤون البلاد منذ قرون . كان الآسيويون بحاجة إلى الكفاح والفتح وكان على الأوروبيين أن يحتلوا ويستوطنوا .

معلومات جغرافية

أوروبا والبرابرة

عندما قسم الفلاسفة اليونان الأراضي إلى قارات كانوا يعرفون جيداً أن هذه القسمة لا تعني قسمة الأجناس البشرية . وعندما يروي إسْخيلوس[1] حلم أتوسًا[2] في مسرحية « الفرس »[3] يجهد في أن يؤكد أن المرأتين اللتين يحاول الملك قرنهما بالعربة هما « أختان من دم واحد » ، وبالرغم من أنهما تسكنان بلادين مختلفتين ، الأولى ، كما يقول الشاعر ، منحها القدر الأرض اليونانية ؛ والثانية ، أرض الجبابرة ؛ إحدى المرأتين تلبس لباساً دُوريـاً (Dorien) والأخرى لباساً فارسياً . الأولى ترمز إلى يونان أوروبا والثانية إلى آسيا ـ من حيث إنها خاضعة بكاملها للملك الفارسي . ويحرص إسخيلوس على أن يوحد بين هِلَّاد اليونان وأوروبا . إن البلاد التي يستعد أحشورش لاحتلالها ونهبها هي « أرض الإيونيين » ، أو بالأحرى النصف الغربي لإيونيا ، لأن إيونيا الآسيوية كانت قد خضعت له . ففي الحرب التي اندلعت ليست أوروبا هي التي تواجه آسيا ولكنها روح الحرية تقاوم روح الخنوع . إن هِلَّاد الغربية هي ملاذ الحرية .

إن وحدة العالم الإيجي كانت أكثر وضوحاً من وحدة القارة التي استقر الهلينيون على أطرافها . وفي عهد الإمبراطورية الرومانية كتب الشاعر اللاتيني هوراس أنه أثناء الحرب الطروادية « تصدت اليونان للبرابرة » وفي ملحمة هوميروس

---

(1) Eschyle (575 ـ 456 ق.م) : كاتب مسرحي يوناني سليل عائلة نبيلة اشترك في حرب سلامين وحرب الماراتون ـ م ـ .

(2) Atossa : أم الملك الفارسي أحشوروش رأت مناماً مزعجاً فسره المنجمون بأنه ينذر بهزيمة الفرس أمام اليونان .

(3) Les Perses : مسرحية تمجد انتصار سلامين ـ م ـ .

لم يظهر الطرواديون كبرابرة . إن ذرية ملوك طروادة تشبه ذرية أمراء اليونان : إن جدهم دَرْدَانوس جاء من جزيرة ساموتراس وتحدر من زفس . وتوسِرْ (Teucer) الذي استقبل دَرْدَانوس في طِرِوادة كان هو أيضاً من الغرب أي من كْرِيْتْ أو من أتّيكا تبعاً لبعض المؤلفين . وكـان الآخائيـون المحاصـرون طروادة والـطرواديـون ، داخـل المدينة ، يؤمنون بالآلهة نفسها والقيم الأخلاقية عينها ، ويتكلمون لغات متشابهة . لم يأتِ حلفاء بْرِيَامْ فقط من آسيا ، فالشاطىء الأوروبي لبحر إيجيه الشمالي قدم الكثير من الأحلاف وقد عهد بإبنه بوليدورس إلى صهره بُولِيْمِسْتورْ ملك تْراقيا . ومن الواضح إذاً أنه في الوقت الذي نظمت فيه الإلياذة ، كما نقرأها تقريباً ، أي بحدود القرن الثامن أو القرن السابع قبل الميلاد ، لم يكن هناك تناقض واضح بين آسيا وأوروبا . وكانت فْرِيْجْيَا على علاقة وثيقة بالبلدان الأوروبية ـ وقد استُقبِل پاريس في بلاد سبارطة ضيفاً مكرَّماً . وإيْقَانْدر الأركادي هو أيضـاً صديق أنكيـز[1] وسيذكـر فِرْجِيلْ هذا التقليد القديم الذي يسمح له بتـدعيم مفهومـه للعلاقـات بين اللاتين والهلّينيين .

والانطباع الناشىء عن هذه الوقائع والأساطير المتصلة بالعلاقات بين الغرب المتوسطي وبلاد آسيا هو أن هذا الطرف الأوروبي المعروف يشكل ، مع « الواجهة » البحرية لآسيا ، وحدة ثقافية أقوى بكثير من الوحدة التي ستجمـع بعدئـذٍ البلدان الأوروبية فيما بينها . هذا الانطباع مبني على وقـائع وليـس على أسـاطير ، ونعلم استناداً إلى الأطروحة التي ناقشها المرحوم جان بيرَارْ ، أن الاكتشافات الأثرية أيَّدت حقيقة المنشآت الميسانية[2] على شواطىء البحر التيـراني . وقد تـأكدت كـذلك العلاقات التجارية والثقافية وكذلك الهجرات من الشرق إلى الغرب في نهاية الألف الثاني : وليـس ما يدعو إلى العجب ما جاء في الأساطير أن الطرواديين استوطنوا في صقلية قبل حرب طروادة ، وذلك استناداً إلى تسلسل الوقائع التاريخية القديمة ، قبل 1183 ق.م .

وفي حـدود هذا الـوقت عينه (أي حـوالي 1230 ق.م) تخبرنـا النصوص المصرية عن أولئـك الذين يـدعون « شعـوب البحر » . إنهـا شعوب كثيـرة العدد

---

(1) Anchyse : راعي اسطوري من طروادة ، حبيب أفروديت وقد ولدت منه إينه (Enée) ـ م ـ .

(2) نسبة إلى Mycène وهي مدينة يونانية في البيلوبونيز ، عاصمة أرغوليد موطن أول حضارة هلينية . (م)

ومتنوعة ، فتشت ، بعد أن طردها الغزاة من آسيا الصغرى والأناضول ، عن أرض آمنة مطمئنة تستقر فيها ، فاصطدمت بالقوى المصريـة التي نجحت في منعها من عبور مصر ، فعاد قسم من هذه الشعوب فاتخذ طريق البحر ومن بينهم هؤلاء الذين نعرفهم باسم توروشا (Turusha) سافروا متخذين طريق المتوسط الغربي . إذا وافقنا أن هذا الشعب ليس إلا موجة من التيرانيين أي الأتروسكيين أو على الأقل النـواة الأولى لشعب نعرف أنه بعد عدة قرون يستقر في إيطاليا الوسطى وهناك أسس حضارة عريقة لا تزال بالنسبة إلينا غامضة . ففي هذا العالم المتوسطي للألف الثاني قبل الميلاد ، كان مهد الحضارة الأكثر ازدهاراً ، بكل تأكيد ، في حوض إيجيه حيث كانت قد اختلطت « أجناس » عديدة وحيث لم تتطور أي ظاهرة ثقافية في عالم مغلق وحيث كل شيء هو توليف وتهجين ، وينطلق في حركة لا تهدأ من جزيرة إلى أخرى ومن شاطىء إلى شاطىء . وتمتد هذه الحركة نحو بلاد الغرب حيث ستستقر على مر القرن جاليات فينيقية (أي سامية) وأتروسكية ويونانية . لا نعرف إلا بعض هـذه « الأجناس » التي تقاسمت ، خلال الألف الثاني ، البلاد التي أصبحت تدعى فيما بعد أوروبا . هناك معياران يسمحان لنا باستشفاف وجود كل جنس من هذه الأجناس كحقيقة مميزة : النموذج « الثقافي » تحدده بعض الأشياء التي كشفتها الحفريـات الأثرية والشواهد اللغوية . والأكيد ، من ناحية ، أن هذين المعيارين هما غير دقيقين نسبياً . وهما ، من ناحية أخرى ، لا يمكن الاستفادة منهما إلاّ في حالات قليلة ، وبالتأكيد ، أقل من الفئات البشرية المختلفة ، التي اسهمت ، بين حين وآخر ، في بناء حضارة « أوروبية » ، ولا يمكننا أن نميِّز ، في أحسن الأحوال ، إلاّ الخطوط العريضة في هذه اللوحة ؛ وكل استنتاج هو مؤقت ومشكوك فيه وافتراضي إلى حد كبير . وهكذا فإن الاستنتاجات والإيديولوجيات التي استندت فيما مضى إلى فكرة تكونت حول أوروبا وأجناسها البشرية وتياراتها الثقافية لن تُحمْل على محمل الجد .

وقد يكون معيار اللغة التي تحكيها أو تكتبها فئة من الفئات أكثـر دقة وهو يسمح لنا بالاقتراب من الحقيقة أكثر . ونعلم أن اللغات الأساسية التي يمكن تمييزها من بين لغـات العالم الإيجي ، في الـوقت الذي ارتسمت فيـه الخـطوط الأوليـة لأوروبا ، هي تلك التي تتصل بالفئة السامية وبـالفئة الهنـدو ـ أوروبية (وخـاصة اللهجات اليونانية) ، وأخيراً اللغات غير المنتظمة في مجموعة ما وغير المعروفـة جيداً ، والتي تنتمي إلى الفئة الإيجية . وقد سـادَ ، لمدة طـويلة ، الاعتقاد بـأن

النصوص المكتوبة بأغلبيتها على ألواح من الصلصال وجدت أول ما وجدت في كْنُوسُوس (كريت) ، ثم في پيلوس في مسّينيا (أي على أرض أوروپية) ثم في ميسين ، والتي تعطي صورة عن كتابة هيروغليفية ، كتبت كلها بلغة غير هِلّينية ، وقد تكون لشعوب نحن مدينون لها بالحضارة الإيجية أي ثقافة عصرنا . . ولكن تحليل قسم من هذه النصوص أظهر أنها محررة باليونانية وأن نظام الكتابة وحده اقتبس من كتابة تستخدم لتدوين لغة أخرى حروفها غير هلّينيّة وأن حل رموز هذه الكتابة التي رقمت بحرف ب (B) (تمييزاً لها من الكتابة المرقمة بحرف أ (A) التي ظلت لغتها مجهولة) أرغمت المؤرخين على أن يكوّنوا مفاهيمهم عن بدايات الثقافة الهلينية على شواطىء بحر إيجيه وبالتالي ما كانت عليه المراحل الأولى من الحضارة « الأوروبية » في هذا الطرف الشرقي من القارة .

ومن المسلّم به أنه ، في بداية الألف الثاني قبل الميلاد ، نحو 1900 ربما ، ظهرت الشعوب التي تتكلم اللغة الهندو ـ أوروپية ، اللغة التي أصبحت اليونانية الكلاسيكية بعد ألف وخمسمائة من السنين ، على الشاطىء الأوروپي لبحر إيجه . لقد وجدت هناك حضارة متألقة هي حضارة كريت التي لا يمكن إنكار علاقاتها الثقافية مع سوريا ومصر دون أن يمكن التدقيق كثيراً بطبيعة هذه التأثيرات وعمقها . ولكن من الأكيد أن الحوض الشرقي للبحر المتوسط ، في وقت وصول الهِلّينيين ، كان مركز ثقافة مركّبة يمكن أن نسمّيها المصرية ـ السورية ـ الإيجية التي تفرعت مظاهرها المختلفة بحسب المناطق وحيث انتشرت تيارات الفكر في كل الاتجاهات . وراح الغزاة الجدد (ونفضل أن نقول فقط الواصلون) الهلّينيون بدورهم يسهمون بهذه الثقافة ويطورونها فتصبح على المدى الطويل الثقافة اليونانية التي ستولد . وسيوجد في قلب العالم الهليني فوارق كثيرة كان يمكن تمييزها في العصور الكلاسيكية : إن ثقافة أثينا تختلف بشكل ملحوظ عن ثقافة الدوريين في لاكونيا أو ثقافة كريت . وأحد الأسباب الوجيهة لهذه التنوعات يعود إلى تاريخ وصول كل شعب من هذه الشعوب إلى شواطىء بحر إيجه وإلى طبيعة الإحتكاكات التي نشأت عن ذلك مع الشعوب التي صادفها الواصلون هناك وإلى حدّة هذه الإحتكاكات . وهكذا يبدو أن سكان أتّيكا تشرّبوا أكثر من سائر الهِلّينيين الثقافة ما قبل الهِلّينية إلى درجة أنهم آعتبروا أنفسهم من أبناء البلاد ، مواطنين أصليين . لقد

عـدلـوا جـذريـاً المفـاهيم الـدينيـة التي ورثـوهـا عن مـاضيهم الهنـدو ـ أوروبي والبنى الاجتماعية التقليـدية قـد تموهت وأخـرى طمست ، وتغيـر التـوازن الاقتصـادي لمجتمعهم بتكيفهم مع ثروات البيئة السكنية ومتطلباتها . وباختصـار إنها حضـارة جديدة كانت تتبرعم وتولد على أرض أتِّيكا . إنها لم تكن هي نفسها الحضارة التي تكونت ، قبل ذلك ، على أقسام أخرى من اليونان ، وخاصة في الپيلوپونيز ، مهد الحضارة الميسانية حوالي منتصف الألف الثاني .

ليس عرق جديد ولا ثقافة غريبة استقرا في ذلـك الوقت في سهـل أرْغوس ولكنها حضارة أصيلة نشأت واقتبست الكثير من البنى الاجتماعية للقادمين الهندو-أوروبيين ؛ فعلى سبيل المثال ، التوزُّع على فئات صغيرة من المحاربين تابعة كل منها لإمرة قائد ، واللجوء إلى الحرب كمصدر للثروة . ولكنها احتفظت ، بالإضافة إلى خصائصها الأصلية ، بآلهة الأجداد ، منها الإله زفس الذي كان في أول أمره حامي القَسَم والضيف ثم كإله للسماء العاصفة وكَرَبٌ للأرباب الأخرى . ويحتفظ الإلهـان أپولـون وهِرْمِسْ بمكـانهما التقليـدي في مجتمع الأربـاب (البـانتيـون) الأريِّين ، ولكنهما أخذا يقتبسان ميزات استعاراها من آلهة الحضارة ما قبل الهلينية .

وراحت الأوجه المتعددة للحضارة الهلينية تتكون ببطء حول بحـر إيجه في النصف الثـاني من الألف الثاني . ولكن هـذا التكـوُّن لم يحـدث دون تقهقـر أو عراقيل . إن حالة انعدام الأمن التي تسببت ، حوالي منتصف القرن الثالث عشر ق.م عن محاولات شعوب البحر وانقطاع العلاقات أو تباطئها بين المنابع الحيـة لحضارة ذلك الزمان (أي مصر وسوريا) والبلاد الهلينية ، كان من نتائجها هنا ، ركود وفقر ازدادا خطورةً حوالي سنـة 1000 ق.م . وهـذا مـا يسميه المؤرخـون المحدثون غزوات الدُّوريين أي وصول موجة هلينية جديدة آتية من الشمال مع بقائها قريبة من المظاهر القديمة للحضارة . وكان من تأثير هذا أن الهلِّينيين الذين اجتازوا منذ أجيال بحر إيجه تحولوا إلى الجزر ثم إلى شواطىء آسيا حيث أقاموا شريـطاً ساحلياً هِلِّينياً . وهكذا فإن الحضارة اليونانية التي تكونت ونمت ببطء ستتطور على أراض مختلفة انطلاقاً من براعم متفاوتة النضج . وهذا التاريخ الطويل الذي لم نرسم إلَّا خطوطه الرئيسية يعلمنا أن الحضارة ليست عمل عـرق بشري واحـد ، وأنها هبـة ربٍّ من الأرباب لشعب مختار ولكنها تولد وتنضج عندما تتهيأ لها الظروف الإنسانية .

الملائمة وهي طبيعة قابلة للتكيف والكمال ولكنها ، طبعاً ، عرضة للموت والفناء .

إرث ما قبل التاريخ

إن لوحة « الثقافات » الأخرى المتنوعة في فجر الأزمنة التاريخية وفي بداية العصر التاريخي على أرض القارة الأوروپية لا تزال أكثر تعقيداً وأقل دقة ووضوحاً مما يمكن أن نرسمه بالنسبة إلى جنوبي البلقان . أما بخصوص المرحلة الموغلة في القدم فلا يُلقي عليها أي بصيص نور سوى علم الآثار والإناسة . ولم يتدخل التحليل اللغوي إلا حديثاً جداً وبشكله الأكمل بالنسبة لبعض الفئات البشرية فقط . وليس من الضروري ، لكي يتدخل ، أن يكون لدينا نصوص مكتوبة . فهناك أسلوبان متكاملان ممكنان هما : تحليل أسماء الأمكنة (جبال ، أنهار ، قرى ، أماكن محددة) يسمح لنا بأن نكتشف وجود فئة بشرية معينة بنت ، في مرحلة من المراحل وفي مكان ما ، مساكنها ، ثم أسلوب الموازنة الذي يوفر ، بدراسة الأشباه والإشتقاق اللغوي ، وسيلة للعودة إلى ماضٍ سحيق ، ونستشف ، إذا لم نعرف معرفة جيدة ، البنى الإجتماعية وأنظمة القرابة والتقنيات الأساسية وكذلك أزهار المنطقة وحيوانها والزمن الذي تطورت فيه اللغة « الأم » : وثمة أيضاً بداية تاريخ للغات يمكنه ، إلى حد ما ، أن يُنْطق الآثار المادية البحتة التي هي مادة عالم الآثار . وتتكشف آثار « الثقافات » الإنسانية على الأرض الأوروپية ، على الأقل في حالة معلوماتنا الراهنة المؤقتة ، وفي حالة الإفتراضات التي غالباً ما تكون متناقضة والتي علينا أن نقابل بينها ونختار ، وذلك قبل المسيح بخمسمائة ألف سنة وألف أي من العصر الپاليوليتي (عصر الحجر القديم) الأدنى . تميّز هذه الحضارة بالنسبة إلينا ، بداية استخدام الكائنات القريبة الشكل من الإنسان لأدوات مصنوعة انطلاقاً من الحصى وقطع الحجارة المشغولة كيفما اتفق . وجدت هذه الأدوات في كل مكان من أوروپا الغربية وفي بريطانيا العظمى والحوض الباريسي والدانمارك والجبال المشرفة على مدينة نيس وفي إيطاليا وإسبانيا .

يبدو أن هؤلاء الناس قد تكتلوا في جماعات وأنهم عاشوا حياة ترحّل متنقلين من مكان إلى آخر تبعاً للفصول ولمواسم جمع الثمار البرية وإمكانيات الصيد . ومن الأكيد أن هؤلاء الناس كانوا يتصلون فيما بينهم وأنهم كانوا يستعملون لغة ما . ومن

الأكيد أيضاً أنهم يمارسون حياة روحية بدائية إذ كانوا يدفنون موتاهم ولا يهملونهم كجثث الحيوانات : إن حفظ الجثث ووضعها في حفر يشار إليها بوضع حجارة عليها يدل ، إما على الاحترام وإما على الخوف منها وإماً على الأمرين معاً .

وشيئاً فشيئاً وببطء شديد أخذت تقنية صناعة الأدوات تتطور وتتكامل . وبحدود مئتي ألف سنة قبل المسيح ، المرحلة التي يدعوها علماء ما قبل التاريخ عصر الحجر الأوسط الذي عرفت آثاره (شفار من ظران ، وسكاكين حقيقية من حجارة ومكاشط لتحضير الجلود) في كل مكان على الأرض الأوروبية وخاصة في سهل لَاتْيُوْم . ولا يمكن القول ما إذا كانت هذه المرحلة تميزت بوصول أجناس بشرية جديدة أو إذا كانت الجماعات التي استقرت سابقاً في منطقة ما حيث قامت بتنقلات موسمية ، قد تطورت من تلقاء ذاتها بطريقة مستقلة نسبياً . هذا التطور ، بعد الألف الأربعين من السنين قبل الميلاد ، أدّى إلى ما يسمّى العصر الپَالْيُوليتي الأعلى ، لأن تقنية الأدوات التي كانت لا تزال تعتمد أساساً على استخدام الحجر ، مع تغير في صناعة الأدوات ، تشهد على مهارة فائقة ؛ ومن ناحية أخرى فإن « ثقافة » الذين يستخدمونها تغيرت كثيراً . وبدت اهتماماتهم أشد وثوقاً بالمحافظة المادية على الحياة . وإلى جانب الأدوات الحجرية يصادف ، في هذه الفترة ، أدوات من عظام أصغر منها وأسرع عطباً ، ولكنها معدة ، للسبب عينه ، للتكيف إلى أشكال نحيفة ، ليس فقط لتستعمل لأعمال دقيقة ولكن أيضاً لتضيف إلى مرافق الحياة اليومية قيمة جمالية بالإضافة إلى القيمة المادية .

وحدث خلال هذه المرحلة تغييرات مهمة في نظام الحياة . لقد برد المناخ في أوروبا كثيراً ، الأمر الذي جعل حياة الترحل صعبة . ففي هذه المرحلة لجأ الناس إلى المغاور (وذلك هرباً من البرد أكثر مما هو خوفٌ من الحيوانات ، كما يدعي الفلاسفة والشعراء اللاتين) أو أنهم أسندوا أكواخهم إلى الصخور . ولكن هذه المساكن المستقرة كانت تستدعي اختيار أماكن تناسب هذه الطريقة من الحياة ، أماكن توفر احتياطات الغذاء ويمكن الوصول إليه باستمرار . ولهذه الأسباب كانوا يلجأون دائماً إلى صيد السمك . وكانت مجاري المياه العميقة الغور المحاطة بالصخور الكلسية مفضَّلة لما لها من قيمة خاصة . ولهذا عثر على عدد كبير من الآثار، في هذه المرحلة، على شواطىء نهري ڤِيزِيْـز (ليموزين) وكُـوزْ وأماكن مشـابهة .

فإلى هذه المرحلة الطويلة التي تمتد على ما يقرب من ثلاثين ألف سنة (أي ما بين الألف الأربعين والألف العاشر) ، تنتسب أولى مظاهر الفن الإنساني وأدهشها . ويكفي هنا أن نذكر اسم ألتاميْرا ولاَسْكو ومغارة المجدلية وألباسيت . وقد ظهر الرسم أولاً ثم بعد عدة آلاف من السنين ظهر النحت ، جدرانيات واسعة حيث نرى قطعاناً من الحيوانات ، نتوءات محفورة على جدران صخرية عريضة ، ثم تماثيل ناتئة تطرح على المؤرخ كثيراً من التساؤلات . لماذا كل هذه التصاوير ؟ هل كان لها فائدة ما ؟ هل رسمت أو حفرت من أجل المتعة فقط ؟ فالسؤال بهذا الشكل لا يكتفي بجواب بسيط . إنه من الممكن ، بل من المحتمل جداً ، أن يكون رسم هذه الحيوانات الضخمة من ثيران وخيول (هذه التي دجنها الإنسان فيما بعد) قد استُخدِم كوسيلة سحرية لتأمين امتلاك الإنسان لهذا الحيوان . ويمكن ولا شك اعتبار بعض هذه الصور أثراً لمراسم الصيد ولكن هذه الفكرة البسيطة لا تفسر كل شيء . إن العناية بالتشابه الذي لا مناص منه ليكون للسحر تأثيره ثم الإيحاء بالحياة والحركة الحقيقية هي ضرورية لإمتلاك المقدرة والزخم الحيوي للكائن الذي تمثله الصورة . فليس ثمة من تمييز بين الإرادة السحرية والإرادة الفنية . إن الصورة التي تعطي الإنطباع الحقيقي ـ ليست القضية هنا قضية واقعية أدبية ، ولكن نموذج متخيل يعيش في داخل الفنان ـ هي تلك التي تنقل بشكل أفضل سر الكائن الذي هو موضوع الرسم .

هذه الفكرة الموجودة في صورة كل كائن تفسر ربما لماذا تظهر الحيوانات خاصة في الفن الپاليوليتي الأعلى . ولماذا الإنسان موجود أو غائب أو مصَوَّر بشكل جيد ، ويتهيأ لنا أنه يقوم بدور صوري أكثر من دور فاعل . فالدور الفاعل للحيوانات التي أودعت فيها الطبيعة هذه القوة الحقيقية التي يحسدها عليها الإنسان والتي سيتوصل يوماً ما إلى الحصول عليها ، مضاعفاً بذلك قوته ؛ وبالطريقة نفسها ينبغي فهم تصوير المرأة . وهنا أيضاً ليس الفن مجرد تمتع مجاني بالجمال بل هو عملية خلق للجمال بالذات ، وتشكيل مفهوم الجمال ، الذي يصوغ صورة الكائنات بطريقة تساعد على اقتناص القوة منها وكل ما يوقظ في وعينا الدهشة والإعجاب والرغبة وكل أشكال الشهوة .

أهو عامل الصدفة فقط أن تكشف الروائع الفنية في الفن الحجري الپاليوليتي

في منطقة تمتد من شمال إسبانيا على طول شاطىء المتوسط حتى كاتالونيا ومن جهة أخرى على طول الشاطىء الكانتابري وفي البيرينيه الوسطى والغربية وفي تَـارَانْتْ ودوردونيـا ؟ وهل ظهـور الفن كان نعمـة لبعض الأعراق ؟ أمعـرفتنـا عـاجـزة عن استخلاص النتائج ، ويظن أن ظروفاً حياتية محددة سهلت ولادة الفن الجداري ، ومن المؤكد كذلك أن ظروفاً روحية (حقيقية ، سلبية كغيـاب هذه المحـرمات أو تلك) لا يمكننا مع الأسف إلا تخيلها .

وفي نهاية العصر الپاليوليتي وتحت تأثيرات الدفء العام اكتمل رسم الخطوط الكبرى لأوروپا . ويتغير مناخ المنـاطق المختلفة ومعـه تتغير الأزهـار والحيوان . وبموازاة ذلك تتغيـر ظروف الحيـاة البشريـة : لم يعد من الضـروري اللجوء إلى الكهوف والحواجز الصخرية ؛ فانتقلت الحياة إلى الأكواخ ، ولكن لم تَضِع التقنيات المكتسبة أثناء المرحلة السابقة . وظل الصيد والقنص الموردين الرئيسيين ، ولكن يبدو أن الجماعات البشرية أصبحت أكثر استقراراً ، على الأقل في أوروپا الغربية والشمالية (التي كانت أكثر دفئاً من أيامنا هذه) . ويظهر أن الناس المحصورين في أفق أضيق قد فقدوا الميل ، أو الحاجة ، إلى الجدرانيات الكبيرة التي تميز ثقافات العصر الپاليـوليتي الأعلى ، وأصبحوا أقـل اهتمامـاً بالحيـاة القاسيـة وأكثر عنـاية بالتزيين ، الرفيق الدقيق ، للحياة اليومية .

ويبدو أن فكر الإنسان قد توجه شيئا فشيئاً نحو قيم أخرى ، وأصبح ما يطلبه أكثـر فأكثـر من الطبيعـة ، على مدى الآلاف من السنين التي امتـدت من العصر الپاليوليتي الأعلى إلى العصر النيوليتي (إن تواريخ هذا التحول لم تكن متزامنة من الشرق إلى الغرب ، إنها أسرع في الشرق وأبطأ في الغرب) ، ليس الهيمنة على الحيوان أو امتلاكه لكن الحصول على ثروات العالم النباتي : لم تعد الحياة تعتمد فقط على الحيوان أو الحيوان البري ، إنها تقوم على النبات ، على حبة القمح التي تنبت . ويستنتج علماء ما قبل التاريخ وعلماء الإجتماع أنه تبع إقتصاد صيد الطيور (ونضيف صيـد الأسماك) إقتصـاد جني الثمار ثم الـزراعة ، ويتسـاءلون (أيحق لهم ؟) حول النتائج الروحية لهذه التغيرات ، ومع ذلك ، فليس من المستحيل ، على ضوء ما نعلمه من النصوص اللاحقة والشاهدة ، ولا شك ، على أزمنة قديمة جداً ، أن نكوّن منها فكرة ما . وسنقابل بين التناقضات الموجـودة بين نوعين من

العبادة والمعتقدات ، بين نظامين مختلفين تماماً ، أحدهما يتضمن عناصر من عبادة الحيوان والآخر مبني على حياة النباتات المغذية . يتضمن النموذج الأول مراسم كالتي نلاحظها في العالم الإيجي قبل الهِلّيني ، كتقدمة الثُور ذبيحة بعد حفلة صيد - كل ما رفضه أفلاطون في أسطورة كريتياس[1]. ورمز إليه في وصف الاطلنطيد[2] وترتبط بالثاني كل خرافات آلهة القرى (ديما) والإيمان بالآلهة الأولين الذين خَلقوا من أجسادهم أشجار الحياة ، عبر موتهم ، لقد تغيّر خط قوى الحياة واختلفت وسائل تحقيق الإتصال بهذه القوى ، وسنجد في التاريخ الروحي لأوروبا القديمة هذين القطبين للدِّينَ الذي قوة الاجتذاب فيه حساسة ، وكثيراً ما يكونان متزامنين في شعب واحد وفي وقت واحد .

وفي العصر النيوليتي بدأت مرحلة الإستقرار التي استتبعت بناء القرى وبالتالي تنظيم الجماعات التي سميت عن جدارة « بالسياسية » ، ثم تنشأ مبادلات تجارية بنسبة تعقّد تقنيات الصناعة وتطلُّبها لحرفيين أكثر خبرة . فليست كل أنواع المواد تناسب صناعة الأدوات ، فالجماعات التي تمتلكها تقايض بها مع الشعوب التي تفتقر إليها . لقد ارتسم مخطط أولي لتفاضل الصناعات والتجارة . وكمثل على هذه الصناعات المتنوعة نجد أن صناعة السلال والخزفيات خاصة قد انطلقت وتنوعت أشكالها بالإضافة إلى زخارف مميزة .

وظهرت « ثقافة » ذات صبغة زراعية في الشرق المتوسط حوالي الألف التاسع قبل الميلاد . وكان من أسبابها على الأرجح الظروف المناخية الملائمة حيث كانت الأشجار تنبت بسرعة وحيث الأرض لم تكن بحاجة إلى عمل بشري مرهق لتكافىء من يعاملها . وإن اللوحة الكلاسيكية ، للعصر الذهبي ، التي نجدها عند الساميين الغربيين كما نجدها عند اليونان وفي روما وكذلك في التقليد المصري ، يمكنها أن توفر نوعاً من التبرير التاريخي هو ذكرى الزمن البعيد عندما كانت الأرض الخصبة تعطي الإنسان ، تلقائياً ، غذاءً مضموناً لا يثير أي مشكلة كالغذاء الذي يوفره القنص . إن التطور البطيء الذي توصل إلى تنظيم الحصاد تطلّب عدة آلاف من

(1) Critias : حوار لأفلاطون غير كامل ، وهو تتمة لحوار تيماوس ينهي فيه قصة صراع آثينا مع الأطلنطيد . (المترجم) .

(2) Atlantide : جزيرة خرافية ورد ذكرها في كتابات أفلاطون .

السنين ، وفي نهايته ، أي بحدود الألف الرابع ، كان سكان البلدان التي يطلق عليها اسم بلدان الشرق الأوسط ، بأغلبيتهم قد أقلعوا عن حياة الترحل وبدأوا حياة حضارية . ذلك هو أحد الأسباب التي بواسطتها نتبين ، في التاريخ القديم ، أن بلدان الشرق الأوسط لعبت دوراً مهماً جداً ولكنه لا شك ليس حاسماً في مطلع التاريخ الأوروبي . كانت هذه البلدان تتمتع بأسبقية حضارية عظيمة وقد نشط إشعاعها وسرّع تطور المناطق الحضرية المختلفة التي كونت فيما بعد أوروبا .

ومن الصعب جداً أن ندوّن تاريخاً ، ولو نسبياً ، للمناطق الحضارية المختلفة ، كما أنه من الصعب أيضاً أن نحدد بشكل كافٍ أرجحية تيارات النفوذ . ويستنتج من ذلك أن أسَرًا حضارية أخذت تتكون ، إذا أخذنا هذه الكلمة بمعناها (الأوسع) ، في عدد كبير من الأمكنة تتميز ، كل مرة ، بخصائص محلية بارزة . ومن الأكيد أيضاً أن تطور كل هذه المراكز الحضارية كان متوازياً ، لأنه حدث تحت تأثير عوامل متشابهة . ولكن لا يمكننا أن ننكر أن مبادلات قد حصلت كما حصل نزوح للسكان في فترات قديمة جداً . إن المدنيات التي نشأت على شواطىء بحر إيجه تطورت ، إجمالاً ، بشكل أسرع من المدنيات التي نصادفها في سائر أنحاء أوروبا فخلال الألف الخامس ق.م ، مثلاً ، انتقلت مصر من العصر النيوليتي إلى حضارة البرونز الأولى بينما حافظت اليونان القارية على الحضارة النيوليتية التي كانت ، بالرغم من ذلك ، أكثر تطوراً من حضارة أوروبا الغربية ، ومن حضارة السهول الروسية التي عرفت بداية الحضارة نفسها .

إن اكتشاف المدن وتعميمه طوّرا في الصميم حياة الإنسان ، ليس فقط بتكييفها التقنيات المختلفة ولكن أيضاً بتنمية الفوارق بين الفئات البشرية المختلفة . وكانت هناك شعوب تمتلك المعادن وشعوب أخرى كان عليها أن تستوردها أي أن تدفع ثمنها . وحدثت تقوية للتيارات التجارية وبدأت طرق النقل ترتسم وتتجدد . وإن تنقل السكان لم يعد كما كان في السابق ، عمليات نزوح ، بل أصبح عمليات سفر ، الأمر الذي عاد بفائدة ثقافية كبيرة .

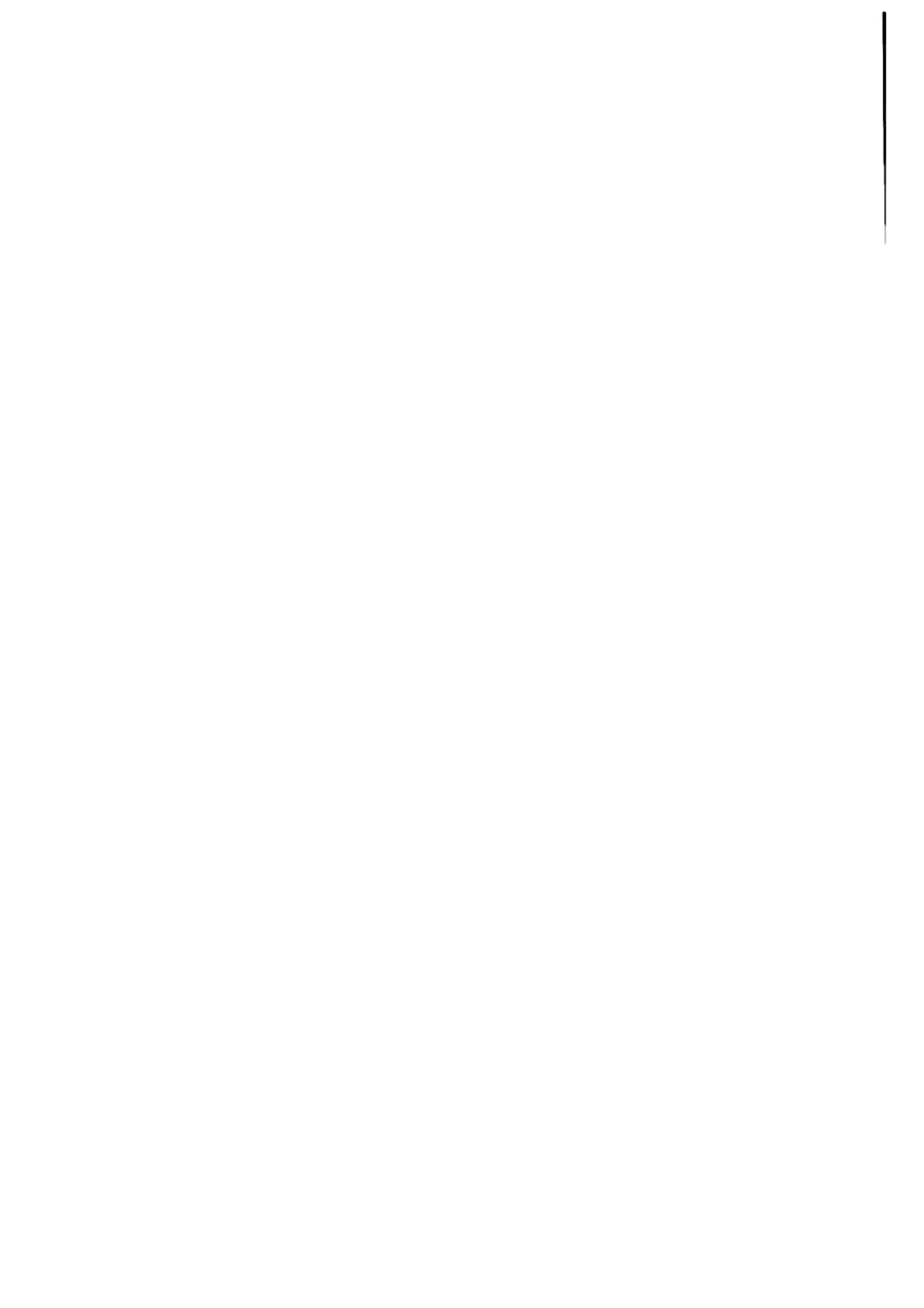
ودعّمت حضارة البرونز وسرّعت نزعات عديدة كانت قد ترسّخت في الحضارات النيوليتية مثل تدجين الحيوانات وتعزيز المسيرات الحضارية ، والتخلي بشكل شبه نهائي عن جني الثمار البرية الذي لم يكن منذ مدة طويلة سوى وسيلة

حياتية ثانوية . وإن الحاجة للقيام بأسفار طويلة بحثاً عن المناجم ، وأكثر الأحيان ، عن معادن جاهزة أو مصنوعة أدّت إلى البلوغ بتقنيات النقل حدّ الكمال . ولوحظ ظهور العربة واتخذت المراكب أشكالاً أقل بدائية . ومما لا شك فيه أن هذا التطور سهّل إقامة علاقات بين مختلف الفئات ولكنه أسهم ، بالمقابل ، بإبراز خلافاتها . إن أسطورة الأرغونوت[1] التي تروي المرحلة الأولى التي قام بها الهلّينيون بحراً ، سلّطت الضوء على هذا العمل كما فعلت الأوديسة . وترمز الأساطير التي تروي رحلة الأرغونوت إلى توجيه الهلّينيين اهتمامهم نحو الشرق . أما ملحمة الأوديسة التي ترتبط بالمرحلة الطروادية في تاريخ متأخر ، فتوجهت نحو الغرب .

ومن الصعب أن نعرف ما إذا كانت بداية العِدانة ثم تطورها وازدهارها قد سببت تطورات سياسية واجتماعية عميقة الجذور . إن هذا لممكن ولكن معلوماتنا ينقصها الكثير لتسمح لنا بإعطاء شيء غير الإفتراضات . ونلاحظ بعض الوقائع مثل تكون طبقات إقتصادية مختلفة وميزة خاصة اكتسبتها ، من عدد كبير من الحضارات ، حضارة « الحدادين » الذين تحولوا طوعاً إلى نقل علوم شبيهة بالسحر . وليس أكيداً ، من ناحية أخرى ، أن امتلاك سلاح أكثر فعالية سبّب حروباً عديدة وسهّل تشكيل طبقات عسكرية . . . وكان أهم تطور تكتيكي هو إدخال العربات كسلاح حربي ، تلك الوسيلة التي كشفت عن فعالية متساوية في مختلف العصور التي ظهرت فيها : في المعارك التي دارت حول طروادة كما في تلك التي جرت في شبه الجزيرة البريتانية ضد الفيالق الرومانية في عهد قيصر وكلوديوس ، ويقاس ، آستناداً إلى هذه المقابلة الوحيدة ، الإمتداد التاريخي للوقائع الحضارية ، لأن أكثر من ألف سنة تفصل الزمان الذي تضع فيه الأسطورة آخيل وأغاممنون عن زمان معارك الرومان في السهول البريتانية .

---

(1) Les Argonautes : أبطال من الميتولوجيا اليونانية انطلقوا على سفينة تدعى أرغو بقيادة البطل جازون إلى منطقة كولخيس (آسيا الصغرى) للحصول على الفرو الذهبي .



الفصل الثاني

العنصر الهلِّيني

نشوء الهلِّينية

الكريتيون والإيونيون والدوريون

وإذ لا نستطيع أن نتتبع ، ولو من بعيد ، المسيرات المختلفة ، في تعرجاتها ، للحضارات التي صنعت ، أخيراً ، أوروبا القديمة ، فإننا نكتفي بأن نرسم الخطوط العريضة لأهمها ، مسجلين ، بقدر الإمكان ، تاريخ ظهورها . وإذا كان من المناسب ، كما يفرض تاريخ إيجه السابق ، أن نضع في هذا الإطار الأوروبي حضارة كريت المدعوة «مينوسية»[1] فإنه من الأنسب أن نبدأ بهذه الحضارة. لقد ظهرت الحضارة « المينوسية » في أواسط الألف الثالث قبل الميلاد في حين كانت تقنيات البرونز في قمة انطلاقها . إن هذه الثقافة في نظر البعض لم تنطلق بشكل منعزل ، ولكنها بدت وكأنها امتداد لثقافات شرقية ترسخت قبلها في فينيقيا وخاصة في مصر . لقد حفظت الأسطورة ذكرى العلاقات التي كانت موجودة بين العالم «المينوسي» وبلدان الشرق[2] ؛ وإن تحليل النماذج الفنية يشهد أيضاً على هذه العلاقات . وقد سبق أن ذكرنا أن لغة سكان كريت لم تكن من أصول هندو- أوروبية ، الأمر الذي يعني أنهم لم يأتوا من الشمال ، من حيث جاء ، فيما بعد ، الهلِّينيون ولكنهم ينتمون إلى أرومة عرقية قديمة جداً ، ربما كانت تلك التي توزعت في جزر البحر المتوسط بكامله وفي بعض مناطق الغرب .

---

(1) Minoenne : نسبة إلى الملك مينوس ملك كنوسُوس - كريت - (القرن 16 - 15 ق.م) يقترن اسمه بأسطورة تجعله ابن زفس وأوروبّ ويعتبر محضر الشعب الكريتي (م) .

(2) والمقصود هنا اسطورة أوروبّ أخت قدموس وبنت أشنار ملك صيدون ، وقد اختطفها الإله زفس بعد أن تقمص جسم ثور وانطلق بها إلى كريت ، وكانت ثمرة هذا الزواج الملك مينوس المذكور أعلاه (المترجم) .

هذه الحضارة الكريتية هي مهمة بالنسبة إلى تاريخ أوروبا لأنها استُخدمت كأساس للحضارة الهلِّينية وعززت تطورها السريع وانطلاقتها . إن أبناء الحضارة « المينوسية » كما أسلفنا ، هم الذين قدموا لطلائع الغزاة الهلينيين (حوالي منتصف الألف الثاني ؟) كتابة صالحة لتدوين كلمات لغتهم بطريقة بدائية . ففي هذه المرحلة يبدأ التاريخ في الإطار الأوروبي مع أولى المستندات المكتوبة التي وصلت إلينا، تساعدنا هذه المستندات على إدراك أنّ ثقافة الهلِّينيين كانت قد تكونت بصورة إجمالية : لقد عرف الآلهة الأساسيون مع أسمائهم التقليدية . وتشكل المجتمع الاخائي (الذي تذكره أشعار هوميروس) مع ملوكه وقواده الذين كانوا يقودون الشعب إلى الغزو والسلب . ونجد هناك ، في العالم الميساني ، إقليماً من الأراضي الفسيحة التي انتشر فيها الأريون أي الشعوب التي تتكلم لغة ذات صفة هندو-أوروبية .

ويمكننا أن نكوِّن فكرة واضحة إلى حد ما عن هذه الثقافة الهلينية - الأوروبية التي يمكن تحديدها بفضل الإكتشافات الأثرية من جهة ، والنصوص الهوميرية ، من جهة أخرى . إن الاختلاف في توقيت الأحداث بين هذين النوعين من المصادر يترك مجالاً لبعض الشكوك : تتحدث قصائد هوميروس ، مع تراجع إلى الوراء بحوالي خمسمائة أو ستمائة سنة ، عن أحداث ثقافية حددتها هذه الأشعار في منتصف القرن الثامن قبل المسيح ، فيما هي تنتمي إلى ماضٍ قديم ، هذا إذا كان من الواجب تحديد احتلال طروادة سنة 1183 ق.م ، كما يذكر تقليد قديم . ولكن بين المرحلة الميسانية وعصر هوميروس تكامل تاريخي وثقافي . فلم تكن ذكرى الزمن الغابر قد أُمحت ، فالموجة الثانية من الغزاة الأريين (الذين يدعوهم اليونانيون دوريين) التي وصلت إلى اليونان القارية في نهاية القرن العاشر لم تطمس آثار الثقافة الأخية السابقة . وخلال هذه العصور التي تدعى « العصر الوسيط » اليوناني تكونت ، فعلاً ، الحضارة الهلينية انطلاقاً من عناصر مختلفة تقاربت وتمازجت دون أن يحطم بعضها بعضاً . فمن الملاحظ واللافت أن أشعار هوميروس ، وبالرغم من أنها تصور ثقافة مادية وأخلاقية قديمة جدّاً ، قد قبلها وارتضاها جميع اليونانيين إلى أي فرع من الفروع انتموا ، لأنها تبرز المثل الأخلاقية والدينية الهلينية ، فمن القرن الخامس إلى القرن الرابع ق.م . كانت أشعار هوميروس ، وخاصة الإلياذة ، تُقرأ وتُحفظ غيباً في

المدارس . وكان آخيل هو البطل المفضل لدى الإسكندر ، وهو النموذج الذي يتخذه الفتيان المبهورون بالمجد . إن صُوَر الآلهة الهوميرية تحتلّ الأيقونات .

إن التفوق الذي حظيت به أشعار هوميروس أسهم في خلق خرافة ثقافية ألا وهي صراع الهِلّينية القديمة مع الحضارات الآسيوية : أغاممنون والأمراء الآخائيون بمواجهة بْرِيَام الفريجي (Phrygien) . لقد ظهر هذا المفهوم في اليونان ابتداء من العصر الكلاسيكي ، وستظهر آثاره في روما ، حيث سيكون الصراع بين الهلينية والبربريّة . ويجب أن نعترف أن ذلك وهم لا تؤيّده أشعار هوميروس عينها . لنكرر ذلك مرة أخرى : إن الطروادييِن والآخائيين يعون وعياً تامّاً العلاقات التي تجمعهم . لقد جاء ملوك إليون من الغرب ، والعائلات الأميرية لها أنسباء في العالم اليوناني . فجميع القادة ، في المعسكرين يتكلمون لغة واحدة ويتصرفون تبعاً لأخلاقيات مماثلة ، ويؤمنون بالآلهة عينها ، وتدافع الإلياذة عن وجود جماعة ثقافية من الصعب أن ندحضه . إن هذه الجماعة أو بالأحرى الشعور بها لن تتحطم إلاّ في وقت متأخر أي بعد استقرار الإمبراطورية الفارسية في آسيا الصغرى، هذه الإمبراطورية التي تكونت هي أيضاً من غزاة آريين ، الأمر الذي يعني أن العامل العرقي ، أيّاً كان مفهومنا لهذه الكلمة ، لم يكن عاملاً طاغياً .

ومهما يكن من أمر فإن شعر هوميروس فرض فكرة الهِلّينية الواحدة . ولكن الهلينية تبدو ، في حقيقتها ، في العصر الوسيط اليوناني وفي العصر الكلاسيكي وكأنها مؤلفة من عدد كبير من العناصر الثقافية والعرقية . هذا التنوع هو ، أولاً ، تنوع اللهجات : فالإيونيون والإيوليون والدوريون لا يتكلمون تماماً لغة واحدة ، ولم يعالجوا بطريقة واحدة ظاهرات اللغة الهندو ـ أوروبية المشتركة ، وهذا يدل على أن وراءهم تاريخاً طويلاً خاصاً بكل منهم ، مرحلة طويلة تلقوا خلالها تأثيرات مختلفة وظلوا مستقلين عن أنسبائهم في العرقية . فليس من العجب والحالة هذه أن يكون كل فرع من الفروع قد حمل في ذاته مُثُلاً وميولاً لم تكن مِثْل سائر مُثُل اليونانيين وميولهم . وكان الدوريون أقرب إلى حياة الغزو والسلْب وكانوا مرتبطين بمؤسسات قديمة تتصف بالحياة الجماعية (وقعات طعام مشتركة ، مثلاً ، أملاك جماعية ، نفور من الثروة المنقولة ، التي تبرز عظمة الفرد على حساب العشيرة) . والإيوليون استقروا في منطقة بحر إيجه قبل الدوريين بوقت طويل ثم نزحوا بشكل جماعي إلى

آسيا الصغرى . وفي بلاد اليونان تعتبر البيوسيا أرض الايوليين الخاصة . والشاعر هسيود يعتبر في نظر الكثيرين ، لسان حال وطنه الأيولي . وقد جاء من إيوليا من آسيا واستقر بين قروي البيوسيا . في الواقع أن هسيود لم يكتب باللغة البيوسية ولكن بلغة هوميروس المركّبة من خليط إيولي وإيوني ؛ ذلك أنه في أيام هسيود بعد هوميروس بجيل أو بجيلين (أي حوالي النصف الثاني في القرن الثامن) أصبحت لغة هوميروس تلك ، لغة كل قصيدة ملحمية (تلقى على نغم القيثارة) ، لذا فرضت عليه (هسيود) . وإن ما يعبر عنه هسيود في الواقع هو أحاسيسُ الشعب القروي الذي يتغلب في مجموعه عدد الرعاة على عددِ المزارعين ولكنه متشبث بحقوله وهو شعب مستقر . ونرى في كتابه « أعمال وأيام » صورة لليونان الوسطى أقرب إلى الواقع المعاصر من الصورة التي رسمتها الإلياذة ـ التي تذكر وقائع تواريخها خطأً في الوقت الذي حددت فيه تواريخ الأشعار . . . .

وينقلنا هسيود إلى اليونان الضيعة حيث حياة الزهد مرتبطة بتقلب الفصول وحيث ينفرون من حياة البذخ التي تفرغ المخازن والأهراء . ومع ذلك فالهِلّينية الإيولية عبَّرت عن نفسها بطريقة مختلفة ولكن على أرض أخرى : ففي المدن الإيولية الأسيوية ، وعلى الأخص في لِسْبوس ، ولد الشعر الغنائي ، أو على الأقل نوع من الغنائية من أصل شعبي فطري ، على الأرجح يصور عواطف الحب والتطلعات السياسية وثورات الغضب . وليس للشاعرين سافو[1] (Sapho) وألْبيه[2] (Alcée) اللذين جاءا بعد هيسود بوقت طويل ، ربما بحوالي قرنين من الزمن ، ما يجمعهما به سوى ذلك التوتر الحسي وإرادة الإلتزام الشخصي اللذين هما جوهر كل غنائية . ولكي نقيس الفرق الفاصل بين الروح الإيولية والروح الدورية يكفي أن نقرأ ، جنباً إلى جنب ، قصيدة غنائية للشاعرة سافو وقصيدة للشاعر الإسبارطي تِيْرتِيه (Tyrtée) فنرى من ناحية نفسا منطوية على عواطفها الخاصة مصغية إلى خفقان قلبها . ومن ناحية أخرى شاعراً يتوجه إلى الآخرين ويمجد المشاعر الجماعية السامية والحب والمجد والخوف من العار ، وكل العواطف التي يمكن أن يهيجها

---

(1) شاعرة يونانية اشتهرت بالشعر الغنائي (ما بين القرنين السابع والسادس ق.م) .

(2) شاعر يوناني معاصر ومواطن لسافو ، تعاطى السياسة ، اشتهر بأشعاره الساخرة والثورية والغرامية . مدح الجمال الأنثوي والمذكر وتغزل بالشاعرة سافو (المترجم) .

الوجود الحقيقي أو الخيالي لفئة اجتماعية بكاملها . وبين هذين النموذجين الشعريين ، الدوري والإيولي ، صفة واحدة مشتركة ، هي الرغبة في فرض شكل متكامل وبالتالي خالد للتعبير عن العاطفة . وهذه الصفة هي التي تجعل من هذا النموذج وذاك شعراً هِلّينياً .

إن العالم الإيوني أكثر صعوبة على الفهم . والشعوب الإيونية تنتمي ، مثل الإيوليين، إلى أعمق الجذور الهِلّينية، وعصر ما قبل التاريخ عندهم يوازي الفترة نفسها عند الإيوليين ولكنهم ربما تمثلوا ، بشكل أعمق ، الثقافات ما قبل الهلينية في اوبئة (Eubée) التي تشكل هامشاً لشبه الجزيرة هذه. لقد انتشروا من هناك بشكل واسع على الشاطىء الآخر لبحر إيجه من إزمير حتى ميليه (Milet) . وفي لوحة النزاعات الهلينية الأساسية التي نحاول رسمها يظهر الإيونيون الأكثر تحضراً وتعشُقاً للبذخ والتأنق وأكثر تقبلاً من الآخرين للمستجدات الحضارية التي يصادفونها أو يتلقونها من الخارج . والإيونيون هم كذلك شديدو التأثر بالمظاهر الدينية الزهدية . فعلى أرضهم سيُبنى وسيستمر أشهر المعابد الزهدية الهِلّينية ألا وهو معبد إلُوزِيْسْ (Eleusis) وعندهم أيضاً في أثينا ستترسخ بشكل أقوى ديانة ديونيسوس (إله الخمرة) الذي يعتبره الإيوليون (أو على الأقل البيوسيون في طيبة) لفترة طويلة مثار شبهات وهو لم يُفْرض عندهم إلاّ بالعنف . وفي أثينا أيضاً نشأت ، في وقت مبكر ، العلاقات الحميمة مع دِيْلوُس ، جزيرة أَبُوْلون وإله مدينة كْلاَرُوس تقبلُه الإيونيون فأصبح مختلفاً تماماً عن أبولون الدوري . وقد أشَعَّ الأول من معبده في ديلوس واستقر الآخر في دِلْفيس حالاً محل وسيط إلهي ، ربما يعود إلى عصر ما قبل الهِلّينية ، حيث يعتقد أنه اكتشف إله جهنمي قدير كان يرمز إليه بالأفعى (Python) .

والفرق بين الإيونيين والدوريين وُجِد ، في العصور القديمة (في القرنين السابع والسادس ق.م) متمثلاً بالفرق بين طرازين في فني البناء والنحت . لقد عرف فن البناء طرازاً دورياً يتميز بخطوطه الهندسية والغياب شبه التام للمنحنيات (بآستثناء حلية التاج التي كانت في الأشكال القديمة لا تزال لينة مثل مسند مضغوط ولكنها أصبحت بعد ذلك أكثر صلابة حتى ليكاد يصبح إنحناؤها غير منظور) . وإلى جانب ذلك كان الطراز الإيوني أكثر زينة ، وكانت منحنياته أكثر عدداً : حلزونية حلية التاج وزخارفها البيضوية ، ومرتكز قاعدة العمود المستديرة تميز بكثرة الأضلاع . إننا

هنا أمام تفسيرين مختلفين تمام الاختلاف ، نوعين لموضوع قديم ، مصري في أساسه ، في فن البناء الذي يقوم على أعمدة . وكذلك في فن النحت يتقابل منذ القدم فن دوري أكثر صلابة وأقل زينة حيث ينحدر اللباس مستقيماً ليس فيه ثنايا عميقة ، وفن إيوني حيث الثياب في غاية الأناقة ملتصقة بالجسم فتظهر تقاسيمه . وكذلك تعابير الوجه مختلفة جداً تبعاً للأساليب: صراحة وملامح رزينة في التماثيل الدورية ؛ وعكس ذلك ، ابتسامة النساء والشابات القديمة المكتشفة على الأكروبول ، وهي في غالبيتها من الفن الإيوني القديم . هذه التناقضات هي في الحقيقة ، مصطنعة إلى حد ما ، والاستشهاد بها يعتبر تسهيلاً للأمور إلى حد كبير . إن هاتين المدرستين في النحت وهذين الطرازين في البناء أثّر أحدهما في الآخر وتأثر به ، منذ وقت مبكر ، مع ترسخ الوحدة الهلّينية . وهكذا ففي آثينا في عقر دار الإيونيين هيكل دوري هو البارتينون الذي شيد للتعبير عن مجد المدينة التي انتصرت على البرابرة الأسيويين . يمكننا أن نتصور أسباب هذا الخيار : ذلك أن الفنانين ورجال الدولة الذين عزموا على بناء البارتينون ، بعد أن أخذوا من البارتينون ما هو حربي وقاسٍ ، قصدوا بذلك التعبير عن المثال الإمبراطوري . ولكننا لا نزال حتى منتصف القرن الخامس ق.م . عندما كانت عناصر التباين في الهِلّينية تراوح مكانها ، وكل عنصر يتخذ مكانه المناسب وكانت الهِلّينية ذاتها في طور نشوئها .

وإنه ليبدو بشكل واضح أن هذه الهِلّينية ، التي ألّهها المحدثون وآعتبروها وحياً حقيقياً أنزله الآلهة على البشر ، لم تكن يوماً من الأيام كياناً محدَّداً . ومن الأوفق ، دون ريب ، أن نفهمها على أنها فكرة على طريق التحقق أكثر من كونها حقيقة لم يتحقق إدراكها ، أو مجموعة من النزعات تارة متوازية وطوراً متناحرة أو حتى متناقضة أكثر من اعتبارها إرثاً ثقافياً مشتركاً ينهل منه المفكرون ورجال السياسة والفنانون . وتتكون الهِلّينية نفسها تحت أعين المؤرخ . ولكنها ألقيت باكراً جداً في ماضٍ خرافي أسطوري في حين أنها ، بحق ، حالة ثقافية نمت وتطورت تدريجاً ، عن طريق التجربة ، في أحضان التناقضات التي بدت أخيراً أنها زائلة . فالمعارك المستمرة التي قسّمتها ، والأحقاد بين المدن التي تسببت بأبشع الخيانات وأشرس أنواع العنف الذي لا يعوّض . ويمكن القول إن الهِلّينية لم تبلغ حجمها الحقيقي إلّا في الموت .

من الممالك إلى المدن

تتفق الآراء على أن أحد التأثيرات الأساسية للهلِّينية في أوروبا يتمثل في استنباط صيغة سياسية أصيلة هي المدينة ـ الدولة . وبالرغم من أنه يمكن استشفاف بعض الإتجاهات لخلق مدن حقيقية في سائر أنحاء العالم الشرقي ، وخاصة عند الساميين الغربيين ، ولكن من الصحيح أن هذا النوع من التنظيم الإجتماعي تطور وبلغ ذروة ازدهاره في العالم اليوناني الذي فخر بأنه يمتاز بكونه بلد « المدن » التي كان سكانها أحراراً مستقلين لا يخضعون لمشيئة أي ملك من الملوك .

إن أقدم نظام سياسي يمكن معرفته في بلاد الهلِّينيين وفي المناطق المجاورة هو نظام الممالك العسكرية الذي يمكن العثور عليه في العالم الميساني كما مرَّ معنا . إنه خاص بالحضارة « الهوميرية » . كان ملوك أرْغوس قادة حربيين يختارهم الجنود أو ينتخبونهم أحياناً بالأقتراع العام . وسنجد هذا التنظيم ، بعد ذلك بعدة قرون ، في المملكة المقدونية حيث كانت جمعيات الجيش تولي الملك الذي تختاره الكرامة والسلطة . ونجده كذلك في المجتمع الحتي (Hatti)[1] الذي تجمعه بالأخائيين الهوميريين وجوه شبه بارزة : يحكم كلا المجتمعين ملك مقتدر يتبعه ملوك ثانويون وفي كليهما تتدخل المجالس الشعبية لتعيين الملك وتثبيته وتمارس نوعاً من الرقابة على استخدام السلطة . في الإلياذة ، وربما لأن الملحمة تعطي صورة عن المجتمع المحارب ، يبدو دور الملك طاغياً . وفي الأوديسّه ، وخاصة في مملكة إيثاكا ، ترمخ الجمعيات الشعبية أقدامها بالقوة . وعلى الملك أن يؤدي حساباً أمامها عن بعض تصرفاته وعليه أن يبرر نفسه تجاهها عندما يقضي على الطامحين إلى اغتصاب الحكم منه . ويبدو أن هذه الملحمة قد نظمت في وقت كانت تتكون خصائص المدينة المستقبلية ، وهي المشاركة الفعلية للشعب في شؤون الدولة . وقد بدأت المدينة تتمتع بالجهاز الأساسي للمدينة ـ الدولة : الساحة العامة حيث يجتمع الرجال لاتخاذ قرارات هامة أو للموافقة على القرارات التي اتخذها الملك أو المسؤلون الكبار . وكانت الساحة العامة (Agora) خلال القرون التي تفصل اليونان الميسانية عن اليونان القديمة الكلاسيكية أحد الأمكنة التي تتجلى فيها

---

(١) شعوب كانت تسكن الأناضول تغلب عليها الحثيون في القرن الثاني ق.م . (المترجم) .

الحياة الإجتماعية ، وكثيراً ما كانت تنبسط عند أقدام قلعة . إنها لا تشكل جزءاً حيوياً من المدينة فهي محصورة داخل القلعة في كنف الأسوار . وفي هذه القلعة ـ المدينة الشاهقة (الأكروپول في أثينا الكلاسيكية) ، تشيد مراكز العبادة الأساسية التي تعنى بسلامة المدينة . وعرفت مدينة أثينا بعبادة الإلهة أثينا والإله پوزيدون المولجين بحماية الدولة .

وهكذا تبدو المدينة ـ الدولة لأول وهلة كحقيقة مادية : أي تلة محصنة حيث مقر الآلهة ويذكر من هذه التلال قَدْمِيَّة طيبة (Cadmée)[1] وأكْروكُورِنْتْ (أو اكروپول كورنثيا) اللذان هما مكانان محصنان ومرتفعان خاصان بالعبادة مثل أكروپول أثينا . إن الحماية المادية التي توفرها الدفاعات ازدادت ترسخاً بالتأكيد على أنه ، في هذا المكان بالذات ، تمارس الآلهة حمايتها . هذه الآلهة التي قذفت ، فيما مضى ، من أعلى أكروپول الآلهة الأولمبي ، العمالقة وسكان الترتار[2] الثائرين .

إن الأكروپول هو في البداية مركز السلطة . هناك يخلد إسم المؤسس الذي كان أيضاً ملكاً ، وكان مغتصبو الحكم أول ما يحتلون الأكروپول عندما تؤسس المدينة الدولة . وهذا لا يفسر فقط بكون المكان معداً للأعمال العسكرية بل إن أعلى المدينة أو القلعة هو قلب الدولة حيث تقطن روحها . وفي أثناء الحروب الميدية (بين اليونان والفرس) بذل رجل الدولة الأثيني تِيمِسْتُوكْلْ جهداً كبيراً لينزع من قلوب الناس هذا الشعور ويقنعهم بأن الدولة توجد حيث يوجد المواطنون حتى ولو كان بناءً من خشب وليس حيث ينغرس الأثر المنظور لآلهتها .

يمكننا إذاً أن نقتنع بأن الدولة في جوهرها هي صيغة إجتماعية لتجمُّع بشري يتعلق ، بطريقة واعية ، بمكان مرتفع يرمز إلى وحدتهم . هناك دولة حتى لو لم يكن ديموقراطية وحتى بوجود الحكم المغتصب . ويصح هذا المفهوم ليس فقط بالنسبة إلى الإغريق ولكن أيضاً بالنسبة إلى روما وإلى العالم الإتْروسْكِي .

تتألف المدينة الدولة مادياً من قلعة في ظلها تمتد الساحة العامة وتحيط بها منطقة سهلية حيث يعيش القرويون الذين يزودون مجموع السكان بالمواد الغذائية .

---

(1) قلعة في طيبة القديمة ـ في البيوسيا ـ بناها قدموس فنسبت إليه .

(2) Tartare : عمق الكون وتحت الجحيم ـ م ـ .

وغالباً ما تمتلك هذه الدولة مرفأ فتحصل بواسطته على قسم كبير من ثرواتها عن طريق البحر : إمّا بواسطة الصيد أو التجارة أو القرصنة . والملاحظ أن هذه الشروط لم تتحقق إلاّ بعد استقرار المهاجرين الهلّينيين بعدة أجيال على أرض هلاّد (اليونان) وفي جزر بحر إيجه ، وكان على القادمين الجدد أن يعتادوا الحياة الهادئة نسبياً ويقلعوا عن السعي وراء الثروة الأساسية في الحرب والسلب . وكان من الضروري أيضاً أن تعمم الحركة السلمية هذه لتضمن اطمئناناً نسبياً للدول الصغيرة التي تشكّلت بهذه الطريقة .

وكانت المدينة ـ الدولة تواجه الإمبراطوريات لأنها تمتلك ، مبدئياً ، في ذاتها ، كل مقومات الحياة الإقتصادية والدينية المستقلة . ولأنها أيضاً يجب أن تبقى ضمن حدود متواضعة . ولكن الوقائع على ما يبدو تكذب هذا التعريف : وذلك أن أثينا كانت تريد أن تصبح إمبراطورية ، وقد كان هناك إمبراطورية إسبارطية . وأخيراً ، فإذا صحّ أن روما كانت مدينة ـ دولة ، ألم نرَ أنه تأسست حولها أكبر الإمبراطوريات الغربية على الإطلاق وأطولها عمراً ؟ ولكن من السهل أن نبرهن أن هذه المظاهر الكاذبة تحمل في حقيقتها تأكيد الأفكار المذكورة هنا . فإن أثينا لم تطمح إلى الامبراطورية إلا بعد تنكرها لرسالتها الخاصة وتحطيمها توازن العالم السياسي وتهديدها النظام بكامله في الداخل كما في الخارج ، وهذا الخروج على المألوف رد عليه الإسبارطيون بعنف. وتبرهن المطامح الأثينية على أن الدولة المعزولة لا يمكن أن تتمدد إلى ما لا نهاية وأن الدول يمكن أن تتعايش وأن وجود الآخرين ضروري لحياة كل دولة ، ليس اقتصادياً (لأن كل دولة تتمتع باكتفاء ذاتي كما يّذكر أرسطو) ولكن لإيجاد توازن قوى ومنع مطامح البعض من الإضرار بالمجموع .

ونأمل أن نوضح بالنسبة إلى ثروة روما كيف أن الدولة ـ المدينة لا تستطيع أن تتحول إلى إمبراطورية إلاّ بتغيير بنيتها وبمعاناة أزمة طويلة وخطيرة وباستنباطها شيئاً فشيئاً أشكالاً سياسية جديدة .

إن الشيء الجوهري في الدولة كان قد تكوّن ، على الأقل بالقوة ، في المرحلة التي كانت فيها السلطة في يد الملوك . إن التطور الذي حصل خلال الهلّينية القديمة (القرنين السابع والسادس) والذي اتجه في أكثر الدول ، لانتزاع

السلطة من الملوك (الذين كان حكمهم نصف وراثي لأن سلطتهم يجب أن تؤكدها الجمعيات المختلفة حتى ولو كانت في أغلب الأحيان منتخبة من سلالة واحدة) كان من نتيجته ازدياد دور أرباب العائلات . هذا التقهقر في موقف الملوك الذي كان رؤساء العشائر يحلون محلهم ـ وغالباً من قبل قبائلهم الخاصة ، كما حدث في كونتيا ـ هو ظاهرة طبيعية نجدها في مناسبات تاريخية أخرى ، ولكنه مع ذلك لم يكن يؤدي إلى إزاحة الملك نهائياً : إنه كان يتابع نشاطه السياسي رغم كل الإنتقاصات التي تعتري سلطته ، كما في إسبارطه ، أو أنه كان يحتفظ بوجود ديني ، كما في أثينا وروما .

وكان يتكوّن ، في الوقت نفسه ، نظام معقّد من المجالس القضائية والسياسية والدينية يضطلع كل واحد منها بمظهر خاص من مظاهر السلطة الجماعية أي الدولة . يبدو أن مجلس المسؤولين الكبار ، خاصة ، الذي كان يعاون الملك في الأوقات العصيبة قد تسلّم أو انتزع المسؤوليات الأساسية وإلى جانبه مجالس أخرى تتمتع بامتيازات دينية وهي بالتالي تنظم علاقات الدولة مع الآلهة . هكذا يمكننا أن نتصور ولادة الدستور في آثينا ومجلس الأعيان والمستشارين (Boulée) ومجلس القضاء وهما هيئتان أقليتان ولكنهما متمايزتان . والخطوة التالية في تطور الدولة تقوم بزيادة عدد المستشارين ، وفي الوقت نفسه ، بتقوية دور مجلس الشعب الذي يبدو أنه لم يتمتع لمدة طويلة إلاّ بسلطة تسجيل القرارات التي كانت تتخذ خارجاً عنه من قبل السلطات العليا . وظلت حياة الدولة ، لمدة طويلة ، وفي كل مكان تقريباً بين أيدي الأرستقراطيين وأرباب الأسَر العريقة المرتبطة تقليدياً بذكريات العصور الأسطورية ومقرَّبة من الآلهة . إن احترام هؤلاء كان يضمن السلطة لذريتهم . وقد ترسخت طبقية لا تقبل الجدل اعترف بها الجميع : فوق ، يهيمن الآلهة الذين يهتمون ، بشكل أو بآخر ، وبنشاط زائد ، بقضايا البشر ؛ ودون الآلهة يأتي البشر الزائلون وفي طليعتهم أولئك الذين تجري في عروقهم دماء الآلهة ثم الباقون، وبعد ذلك يجيء العبيد في الدرجة السفلى . ويؤكّد المؤرخ هيرودوتس أن الهلينيين لمّا وصلوا إلى بلاد الإغريق في الوقت الذي كانوا يحاربون السكان الأصليين أي البلاسجيين ، لم يكن لديهم عبيد . فمن المحتمل أن تكون هذه المؤسسة اقتبست ، سواء في بلاد الإغريق أو في روما ، من أصول أجنبية . قد يكون العبيد أسرى حرب وتحول أولادهم هكذا إلى عبيد . ومهما يكن من أمر فإن العبيد كانوا

منذ أقدم العصور المعروفة ، يشكلون جزءاً أساسياً من الدولة ـ المدينة الأغريقية . إن وجودهم شرط ضروري لحياة « الرجال الأحرار » . ويشرح أرسطو الوضع قائلاً إن القانون الطبيعي يحتم وجود مخلوقات « قادرة على الحدس والتنبؤ » (قادرة أن ترى المستقبل بفضل ذكائها الخارق)، فهؤلاء يعود إليهم أمر القيادة. وبعض المخلوقات تمتلك القوة الجسدية وبإمكانها أن تنفذ الأوامر التي تعطى لها . فهذه المخلوقات التابعة هي فئة العبيد .

وحقيقة القول إن أرسطو الذي كتب ذلك حين كانت الدولة مؤلفة من المجتمعات الهلِّينية التي لا تقبل الجدل ، كان ينظم ، بصفته فيلسوفاً ، أفكار الرأي العام الذي كان العبيد بالنسبة إليه مصدر طاقة ويد عاملة بمستوى الحيوانات الأليفة . وقد أخذ على عاتقه تبرير هذا الرأي العام « عن طريق المنطق » . ومن العدل أن نلفت الإنتباه إلى أن بعض فلاسفة الإغريق أنفسهم ، وذلك قبل أرسطو ، أعتبروا أن الرق هو نتيجة العنف وهو بالتالي ظلم . وحلم بعض الشعراء بالعصر الذهبي حيث لا وجود للعبيد . ويعود فلاسفة العصر الهلينستي[1] إلى الموضوع شيئاً فشيئاً معتبرين أن الرق هو من أحكام القدر ولا شأن للإنسان به . ولكن هذا الرأي لم يتقبله العصر الكلاسيكي ولا عصر أرسطو ولا عصر أفلاطون .

وعرفت المدينة ـ الدولة ، خلال القرن السادس ، أزمة طالت تقريباً جميع الشعوب الإغريقية . ففي مدن عديدة كان أحد الرجال ، من طبقة الأشراف ، غالباً ، عضو من الأرستقراطية الموجهة ، يقلب النظام القائم ويستولي بالقوة على السلطة مؤسساً ما سمي ، باسم غريب لم تعرفه اللغة الإغريقية القديمة هو الاغتصاب (Tyrannie) وكان المغتصب يعتمد على قوى عسكرية ، فئة من « الحرس الخاص » وكان أول عمل يقوم به ، من أعمال الثورة ، هو احتلال القلعة . ومن الطبيعي ألاَّ يستطيع المغتصب أن يستمر في الهيمنة إلاَّ إذا نال موافقة الشعب . لم يكن المغتصب ملكاً : لم يكن يُمْسَحْ ملكاً ، بل كان سيد الأمر الواقع ، وكثيراً ما تكون نتيجة الإغتصاب العمل على تسريع مجيء الديموقراطية ،

(1) هو العصر الذي بدأ باحتلال الإسكندر للشرق . والحضارة الهلينستية هي الحضارة اليونانية التي تكونت على أثر هذا الإحتلال بعد أن تلقحت بالحضارة الشرقية ـ (المترجم) .

محطمة النظام الأرستوقراطي ، منتزعة منه شرعيته التي هي الدعم المنظور من قبل الآلهة .

تلك هي ، بنوع خاص ، المراحل الكبرى التي عرفها تاريخ أثينا على امتداد القرن السادس ق.م . بعد الملوك هيمنت على الأحكام العائلات الكبيرة ذات الصفة الكهنوتية ، وقد طردوا من قبل بِيْزِسْتْرَاتوس[1] الذي استطاع أن يصمد في الحكم من 561 إلى 528 . ولم يكن بيزستراتوس آنئذٍ ، المغتصب الوحيد في العالم الهليني . وفي جزيرة ناكسوس كان يسيطر المغتصب لِيْغْدامِسْ وفي جزيرة ساموس المغتصب بُوليكراتوس ، وآخرون غيرهم في أماكن أخرى . ونستنتج أنه يوجد بين الدول تعاون واقعي مدهش ، أو بالأحرى ظاهرة تجاوب أو صدى - بفضل ما سبق لنا من محاولة لتحديد طبيعة الدولة ، وهذا الواقع هو أنه لا يمكن لأي دولة أن توجد إلّا بجانب دول أخرى تحدها وتسهم في تحديدها ، أي التعريف بها ، وتتجه بشكل طبيعي ، لتعطي ردود الفعل نفسها والمساوىء نفسها . وهكذا فعندما بدأ المغتصبون يتعرضون للطرد ، كل في دولته ، لم يستطع النظام أن يصمد في مكان آخر ، وشيئاً فشيئاً خرجت بلاد الإغريق من عصر الإغتصاب .

في هذا التحول لعب العرافون والمقدسات دوراً بارزاً . ومن الأمور ذات المغزى أن عراف دِلْفِيس فرض على الإسبارطيين أن يقضوا على النظام الذي أسسه هِيْبّياس الابن الوحيد لبيزيستراتوس الذي بقي على قيد الحياة . فالإبن الآخر هيبارْكْ قتله عدوّاه الشخصيان هَرْموديوس وأرستوجينون اللذان ضُفِرت لهما فيما بعد أكاليل المجد وكُرِّما حتى التأليه . أجبر هِيْبّياسْ على الفرار تحت ضغط القوى الإسبارطية سنة 510 ق.م السنة التي سجلت نهاية حكم الإغتصاب في أثينا . لقد قام بهذه العملية إحدى العائلات الكهنوتية الكبيرة من أُتيكا هي عائلة الأَلْكْمِيُونيد (Les Alcméonides) وإن تسلط الحكومة الأقلية في القرن السابق على المقدسات كانت الغاية منه فرض قوتها . ولكن الأوان كان قد فات لأن فرداً من عائلة الأَلْكْمِيُونيد يُدعى كْلِيْسْتِيْنْ[2] تحديداً قد أرسى نظاماً جديداً مبدأه مساواة جميع المواطنين أمام

---

(1) مغتصب الحكم في آثينا (600 ـ 528 ق.م) من عائلة فيلاپيد وابن عم صولون ـ (المترجم) .

(2) Clisthème : سياسي آثيني من عائلة الْكْميونيد ، جد بريكليس ، أطاح بالطاغية هيپاس . (المترجم) .

القانون . لقد حطم كْلِيْسْتِين الأطُر الدينية في الدولة غير معترف لها بقيم الأطر السياسية ولم يَدَعْها تستمر إلّا إسمياً . وكان ذلك بداية الديموقراطية .

التمدد الإستعماري

إن المرحلة الهِلِّينية القديمة كانت أيضاً تلك الفترة التي عرفت فيها أعظم قوة توسعية . إنها تلك اللحظة التي توفرت لها فيها فرصة « تمدين » بلدان أوروبا الغربية لو منحت تلك البلدان عبقرية التمدن .

إن حقيقة المقايضات التجارية بين العالم الميساني وبلاد غربي المتوسط لا ينكرها أحد ، ولكن يبدو أن هذه الفترة السابقة للإستعمار لم تترك إلّا آثاراً ضئيلة على الأراضي التي خضعت للإستعمار ، ولكنها مهدت ، في أحسن الأحوال ، الطرق أمام الإستعمار الثاني الذي حدثت في العصور التاريخية . إن الاستعمار اليوناني لشواطىء المتوسط بدأ يصبح فعّالاً حوالي منتصف القرن الثامن ودام حتى نهاية القرن السادس . ولم تؤدِّ المحاولات القليلة السابقة إلاّ إلى الفشل والخيبة . ولكن على مدى قرنين ونصف القرن استوطنت جاليات يونانية في كل مكان تقريباً ، في شرقي المتوسط وعلى شواطىء البحر الأسود وخاصة في إيطاليا وفي جنوبي غاليا وإسبانيا وفي بعض الجزر . أما على الشواطىء الجنوبية للبحر فكانت مؤسساتهم أكثر ندرة ، أهمها كان تأسيس قيرينيا الذي لم يتعدَّ ، كما تبيّن حديثاً ، سنة 631 ق.م . وقيرينا ، التي تأسست بين المملكة المصرية ، حيث لم يستطع اليونانيون إقامة إلّا مؤسسة تجارية في نوكراتيس[1] ، لم تكن قبل الإسكندر مستعمرة حقيقية ، وبين الأراضي الفينيقية في قرطاجة ، إن قيرينيا تلك كانت محطة معزولة لا يبدو أنها مارست تأثيراً ما على داخل البلاد .

وبالنسبة لتكوُّن أوروبا وتاريخها يبقى استعمار المغرب ، حتماً ، هو الأهم ، وكما تابع الغزاة الهِلِّينيون ، قبل ذلك بعدة قرون ، هجرتهم باتجاه آسيا عن طريق كريت وقبرص وجزر آسيا الصغرى ، هكذا فكر الإغريقيون في وقت مبكر باجتياز البحر الإيوني وواصلوا تقدمهم غربي جزيرة كورسير وشواطىء البلقان . والمدهش بما فيه الكفاية أن أقدم مؤسسة هلينية من العصور التاريخية ، على المتوسط

---

(1) Naucratis : مدينة مصرية قديمة مقدسة على شاطىء النيل ـ م ـ .

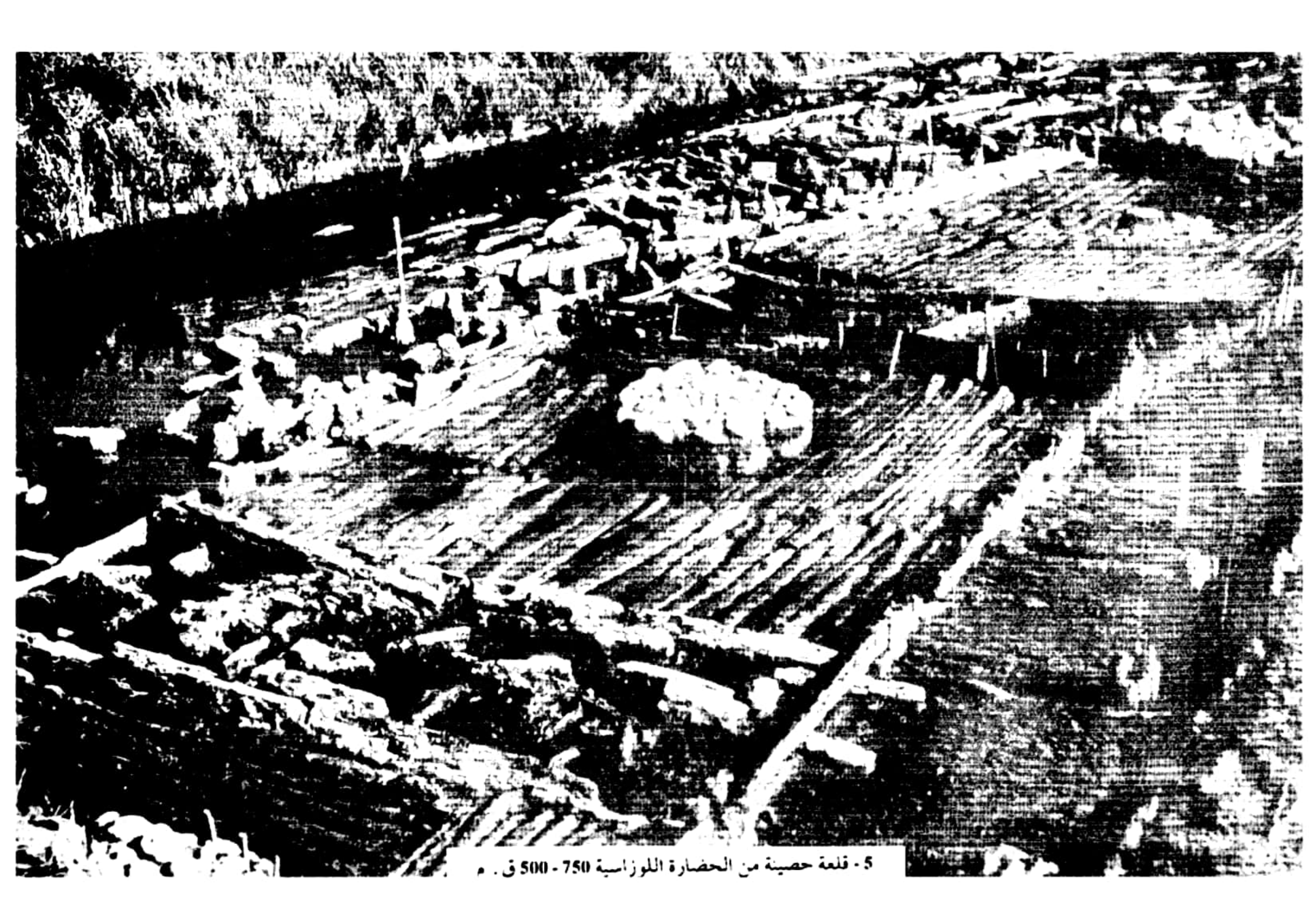
الغربي ، مستعمرة كوم (Cumes) على شاطىء كومپانيا (إيطاليا) بعيدة جداً عن موطن أولئك الذين أسسوها والذين كان بعضهم من كَلْسِيْسْ والبعض الآخر من إرِتْرِيا من أوبِيْه (Eubée) والبعض الآخر من سِيْمِيْه (Cymé) مدينة الإيُوليدْ في آسيا حيث عاش فيما مضى والد هسْيود . إن الأسباب التي تفسر اختيار شاطىء كومْپانيا لهذه المستعمرة (المعروف أنها تأسست سنة 1049 ق.م) هي عديدة ومتشابكة . فقبل أن يستقر بعض اليونانيين في كوم ، كانوا قد شغلوا الجزر الساحلية وخاصة إيسْكِيا (Ischia) . إن تأسيس إسْكِيا كان محطة على الطريق التجارية وقد أصبحت كوم على أثر بنائها التاريخي ، الذي لم يتعد 750 ق.م ، أهم قاعدة للتجار الأوروبيين في البلاد الإيطالية . وبرزت كوم كمكان تتدفق إليه المواد الأولية التي يحتاج إليها « صناعيو » كَلْسِيْسْ وإرِتْرِيا وخاصة الخشب والمعادن التي كانوا يقايضونها بالمنتجات الجاهزة المصنوعة في مصانع أوبِيْه كالأنسجة الصوفية والفخاريات .

وفي الوقت نفسه كان داخل البلاد مهيئاً لإقامة المؤسسات الزراعية بفضل وجود أراضٍ خصبة كانت الجاليات تشعر بالحاجة إلى مثلها في وطنها الأصلي . وإن المستعمرة الجديدة لم تكتف فقط بمدينة بسيطة بل سعى سكانها إلى طرد السكان الأصليين الذين هم من الأوسْكْ (Osques)[1] والسيطرة على أرض فسيحة بما فيه الكفاية . وولدت دولة هلينية جديدة شبيهة بدول الوطن الأول مع قلعتها ومرفئها والحقول التي تؤمن محاصيلها الإستهلاك اليومي . وحول كوم تم الإستعمار التالي لكل كومپانيا ، وإذا كان الإتجاه اليوم أقل مَيْلاً للتصديق بأن الجاليات الكلسيدية (من كلسيس) هي التي علمت الإيطاليين فن الكتابة ، وإذا ظُنَّ أن الألفباء الرومانية اقتبست بواسطة الإتروسكيين ، فإن إسهام الهِلِّينية في الثقافة الإيطالية القديمة ليس أقل بروزاً ، وإنه عن طريق كومپانيا ، على الأخص ، دخل إلى شبه الجزيرة الإيطالية .

وقبل تأسيس كوم بجيل واحد استقر الكَلْسِيديُّون في صقلية ونَاكْسُوس ليس بعيداً عن مضيق مَسِّينا . ويعود تاريخ تأسيس ناكسوس إلى حوالي 757 ق.م . وسعى الأغارقة ، في صقلية كما في كومپانيا ، إلى بسط سلطانهم على هذه الأرض

---

(1) شعب يتكلم اللغة السيبيلية استوطن كومپانيا وهي منطقة قديمة في إيطاليا (المترجم) .



5 - قلعة حصينة من الحضارة اللوزاسية 750 - 500 ق . م



6 - منظر جوي لمدينة عصر الحديد في هونبورغ، قرب أولم

الملائمة للزراعة وخاصة زراعة الكرمة . وكذلك أسست الجاليات الكَلْسِيدية منذ 729 مدينتين أخريين في جنوبي ناكسوس هما لِيُونْتِينُوا وكاتان ، في حدود هذا التاريخ بنى الكَلْسِيديون مدينتين على شواطىء مضيق مَسِّينا هما زَانْكَلْ على الشاطىء الصقلي (وقد أصبحت فيما بعد مسِّينا) ورِيْجِيون (Rhégion) على الشاطىء الإيطالي . تدل هذه السلسلة من المدن على إرادة واضحة بتأمين طريق تجارية تصل ، عبر البحر الإيوني ، مضيق كورنثيا بمضيق صِقِلِّيَة وتتابع من هناك باتجاه كُومْبانيا . والكلسيديون هم الذين بنوا أيضاً على الشاطىء الشمالي لصقلية مدينتي ميليه (Mylae) وهيمار (Himère) .

ولكن الكلسيديين بدأوا بعد فترة يواجهون مزاحمة الأخصام . لقد نشبت حرب ضروس بين كَلْسِيسْ وإِرِتْرِيا خلال القرن الثامن أنهكتهما معاً . وكذلك كان من السهل نسبياً على كورنثيا بدورها أن تنطلق في سياسة إستعمارية . والمدن التي أسستها كورنثيا تشبه إلى حد بعيد المدن التي بناها الكلسيديون ، منها المدن التي بنوها ، في المرحلة نفسهافي كورسير (أو كورفو) وفي صقلية على الشاطىء الشرقي وبنوع أخص في جنوبي ناكْسُوس وسَرَقُسْطَة حوالي 734 . وربما كانت سرقسطة أروع ما تركته الهِلِّينية في صقلية ، وأنطلاقاً منها وحولها تكونت واحدة من الممالك الأغريقية النادرة جداً التي نجحت بتخطي الإطار الضيق لهذه المدينة الدولة . وقد قدَّمت لروما أحد أولى نماذج البنى الإقليمية ، ولكن قبل هذه المرحلة التي لم تبدأ قبل نهاية القرن الثالث ق.م . أصبحت سرقسطة بطلة الهلينية التي تتصدى للقرطاجيين الذين كان لهم وجود أيضاً في صقلية . إن قسماً كبيراً من التاريخ الصقلي ، الذي يمتد منذ أوائل الإستعمار اليوناني حتى الفتح الروماني ، يسوده الصراع بين الهلينيين والقرطاجيين . والحقيقة أن هذا الصراع ليس إلاَّ مرحلة هي الأطول والأشرس ، تميزت بالمزاحمة ، على امتداد الحوض الغربي للبحر المتوسط بين التجار الساميين والجاليات اليونانية التي هي أيضاً من التجار .

إن وجود الفينقيين في القسم الغربي من جزيرة صقلية حدَّ من تمدد الإستعمار الإغريقي باتجاه غربي الجزيرة . ونجحت سرقسطة في أحتلال منطقة أَكْرِيه الواقعة داخل البلاد على هضاب صالحة للزراعة ، واستدارت حول رأس پاشِيْنُونْ لتأسيس مدينة بحرية في كامارِيْنْ في نهاية القرن السادس .

وموجة جديدة من الجاليات انطلقت هي أيضاً من ميغارا وجاءت لتدعيم الوجود الهليني في صقلية . وعلى بعض الأميال إلى الشمال من سرقسطة أسس الميغاريون مدينة ميغارا هِيبْليا في نهاية القرن الثامن وبعد مضي قرن أسسوا مدينة سَالِيْمُونْت كمركز متقدم للهلينية في منطقة النفوذ الفينيقي .

وكان آخر القادمين من يوناني صقلية هم الرودوسيين المتعاونين مع الكريتيين . وأسسوا حوالي 690 مستعمرة جيلا (Géla) على مقربة من كامارين ، وبعد مرور قرن على ذلك أي حوالي 580 بنوا أكْراغَاسْ التي دعيت فيما بعد أغْرِيجِنْت . وهكذا انتشرت المدن اليونانية على الشواطىء الشرقية والجنوبية لصقلية ، واستمر داخل البلاد بتسلم السكان الأصليين الذين كانوا هناك قبل الهلينيين . وظل القسم الغربي من الجزيرة منطقة نفوذ فينيقية . ولكن يوناني صقلية كانت تتنازعهم انقسامات عميقة على غرار اليونانيين في الوطن الأم . وكانت الخلافات العرقية بارزة بقوة كما هي الحال في المستعمرات اليونانية في اليونان الكبرى .

وفي أواخر القرن الثامن (أي بعد المنشآت الكلسيدية بعدة أجيال ، أسس الأخائيون مستعمرات على الخليج الذي تَسمَّى فيما بعد باسم تارانْت المدينة الدورية . وكانت أولى المستعمرات الآخائية في اليونان الكبرى هي سِيبَارِيْس (بحدود 710) . ويبدو أن الآخائيين تعاونوا ، لإنشاء هذه المستعمرة ، مع جماعة من مدينة تْرِيزِيْنْ ، ولكن بما أنَّ هؤلاء اعتُبِروا دوريين لم يلبثوا أن طردتهم من هناك عناصر آخائية ، فذهبوا يسعون وراء الثروة في مكان آخر ، فأسسوا مستعمرة پوزميدونيا (پايستوم) على البحر التيراني . وأصبحت سيباريس مدينة كبيرة بلغت أوج ازدهارها ، وكانت تقصدها السفن من ميلهِ بانتظام وبواسطتها انتشرت الثقافة الهلينية الأسيوية في إيطاليا ممهدة ومعززة للمرحلة الإستشراقية من الحضارة الإتروسكية . وبالإضافة إلى سيباريس بنى الأخائيون مستعمرة كْرُوتُونْ المعدة لاستقبال سكان الجبال . تلك كانت مسيرة الإمبراطورية الآخائية الحقيقية أو أنها قد أصبحت كونفدرالية الآخائية امتدت باتجاه الشمال نحو مِيْتَاپُوْنْت وكانت تشمل مدينة سِيْرِيْس .

ولحق مواطنو الپيلوپونيز الآخرون بالآخائيين فبنى اللاكونيُون أي الدوريون

تارانْت في السنوات الأخيرة من القرن الثامن . وظلت تارانت أمينة لأصولها الدورية وحافظت ، بدافع الغيرة ، على لهجتها وبُناها السياسية القديمة التي اقتبستها عن إسبارطة .

أصبح الموقف السياسي الذي نتج عن ذلك في غربي المتوسط شديد التعقيد ، فبالإضافة إلى المعارك مع القرطاجيين ومع السكان المحليين الذين كانوا يشنون غارات متكررة علىْ المدن اليونانية المحصنة بأسوار قوية . وقعت معارك بين اليونانيين أنفسهم . إن أسباب هذه الحروب كانت ، ولا شك ، التنافس التجاري وخاصة في إيطاليا ، والرغبة بالتمسك بطرق القوافل الداخلية عبر جبال لوكانيا بين خليج تارانت وخليج بايستوم . يضاف إلى ذلك ذهنية الخصام التي لا تقهر والتنافس الذي ما فتىء يذكي الهلينية ويمزقها . ولم تستطع أسمى المطامح الفلسفية أن تفعل شيئاً لإزالة هذه الأحقاد . وقد حطمت مستعمرة كْرُوتونْ الفيثاغورية سنة 511 حليفتها القديمة سيباريس : فقتل سكانها وسُوِّيت المدينة بالأرض ولم تبق حية إلاّ في ذاكرة الأساطير . ولم تكن المعارك ، في صقلية ، أقل حدة . إن الأعمال الحربية للطاغية جيلونْ ، مغتصب سرقسطة (485 ق.م) أفرغت مدن كامارين وناكسوس وميغاراهيبليا من سكانها لتوسيع الدولة التي أصبحت إمبراطورية عظيمة الشأن .

وكان إغريقيو فوسيه (Phoceé)[1] قد توغلوا في استطلاعاتهم حتى أبواب بلاد تَرْشيش (الأندلس) التي كانت منذ زمن متقدم منطقة نفوذ فينيقية ، واستوطنوا في ليغوريا بعد موافقة ملك البلاد (حوالي 600 ق.م) . وكان ذلك بداية تأسيس مَسَّاليا (مرسيليا) وانطلاقاً من هذه المدينة الجديدة انتشرت على التوالي شبكة منشآت تجارية ومدن تابعة للمدينة الرئيسية ، على الشاطىء الشرقي لإسبانيا وعلى شاطىء ليغوريا وكورسيكا حيث تأسست مدينة ألَالْيا (ألِيْريَا) . وفي المياه الإقليمية لهذه المدينة نشبت سنة 535 ق.م . المعركة الشهيرة بين المسَّاليين والقرطاجيين المتحالفين مع الاتروسكيين ، فانـدحر المسَّاليون واضطرت جالياتهم لمغادرة الجزر ، فلجأ بعض الناجين إلى مدينة ريجيون ومن هناك انطلقوا من جديد لتأسيس مستعمرة إيليه (ڤيليا) على شاطىء بايستوم الجنوبي .

---

(1) مدينة في آسيا الصغرى (إيونيا) على خليج إزمير - (م) .

إن أهمية مرسيليا في تكوين أوروبا لا غبار عليها ، إنها هي التي أنشأت على شواطىء غاليا الجنوبية هذا الستار من الثقافة الهلينية التي أسهمت في وحدة البلاد الأوروبية ، من أعمدة هرقل إلى البوسفور ، وحدة ثقافية امتدت إلى أبعد من ذلك ، على امتداد الأناضول وسوريا وذلك قبل أن تزحف غزوات طاحنة تفصل أوروبا الجغرافية عن امتدادتها الثقافية في الشرق الأدنى . وفتحت مرسيليا بلاد الرون أمام الثقافة المادية الهلينية ، واستخدمت كمحطة للقوافل الحاملة من بريتانيا وغاليا المعادن الضرورية لصناعة البرونز . وقد تكون قد نشرت بعض الثقافة الفكرية في العالم السلتي ، بالرغم من الإعتقاد السائد اليوم أن طرقاً أخرى جمعت بين السلتيين والإغريقيين . وربما كان الدور الأهم ، ذلك الدور الذي قامت به مرسيليا في القرن الثالث ق.م . عندما حالفت روما وتدخلت في الترتيبات السياسية التي نجم عنها حرب هنيبعل ، الحرب الفونية الثانية .

إن استعمار الغرب لم يستنزف كل طاقات الهلينية في نهاية القرن الثامن وخلال القرن السابع . إننا نعثر على تأسيس العواصم بالذات على طول شواطىء تراقيا وفي الجزر ، وينضم إلى الكلسيديين والإرتْـرِيِّين والكونتيين ، على سبيل الجوار ، سكان الجزر مثل أهالي شِيُو ولِسْبوسْ . ويصبح شاطئا الهِلْسْپونْ (مضيق الدردنيل) والبْرُوپُونتيدْ (بحر مرمره) بحيرة يونانية ، ثم بشيء من التباطؤ والتردد والإحجام راحت بعض الجاليات اليونانية تنتشر على شواطىء البحر الأسود الذي أحاطوا به من الجنوب والغرب معاً ، وخاصة بفضل المستعمرات التي أسسها سكان مِيلِيْه فهذه المدن ، التي بنيت وسط شعوب معادية ، نصف متبدية كانت مهددة باستمرار . وإلى جانب كونها مرافىء للصيد ، كانت تستخدم كأماكن للمقايضة بين اليونان والسيتيين ، ولكنها وإن لم تكن مشيدة إطلاقاً في بلاد البرابرة ، إلاَّ أنها كانت تدفع الجزية لهؤلاء ، وبسرعة قامت المستعمرات اليونانية ، في منطقة البحر الأسود ، بدور أساسي هو تزويد اليونانيين بالقمح ، بصورة مؤقتة عندما أصبح هذا المحصول الثروة المحلية الوحيدة . وقد لعبت المستعمرات اليونانية في منطقة البحر الأسود ، بالنسبة إلى شعوب داخل البلاد ، الدور الذي لعبته مرسيليا بالنسبة إلى بلاد السَّلْت ، وإن شعوب سِيتْيَا وروسيا الحالية ، الذين لم يصطبغوا بالصبغة الهِلِّينية أكثر من شعوب السلت ، لم يعرفوا إلا الهلينية التي وفرتها لهم منتجات الصناعة اليونانية .

وكـان الـدور الأساسي للإستعمار اليوناني في تكوين أوروپا هو الدور الذي قامت به مدن صقلية وإيطاليا الجنوبية التي استحقت إسم اليـونان الكبـرى ، لقد قدمت صورة شبيهة بالصورة اليونانية الأساسية ، وهي مـدينة بهـذا الدور ، بنـوع خاص ، إلى التأثير الذي مارسته على الشعوب المستعدة لاستقباله وتوسيعه ونشره ، بل لإيجاد مقدرة على الخلق كانت تستنزف على شواطىء بحر إيجيه . ومن العدل أن تدعم فكرة أن روما وبصورة أشمـل إيطاليـا سمعتا ، إلى حـد ما ، بـالإشعاع الهليني ، بل إنهما خلقتا هذا الاشعاع .

الهِلِّينية الكلاسيكية

مركز أثينا ودورها

في أوائل القرن الخامس ، وبعد أن أتمت الهلينية انطلاقتها الإستعمارية ، وجدت تعبيرها الأكمل ، تعبيراً كان يطلب من مدينـة تبدو ، على تقـادم الزمن ، الأروع بين سائر المدن ، وكعاصمة للعالم الإغريقي ، الشيء الذي لم تعرفه على الإطلاق . لقد عـرفت هذه المـدينة ، أثينـا ، دون شك ، حضـارة فنية وروحيـة مدهشة . كانت عظيمة وتزينت بأروع الأبنية ، وأستقبلت أو أنبتت الشعراء الذين احتلت أعمالهم تاريخ الفكر الأوروبي ، والفلاسفة الذين جعلوا الفكر الإنساني ذا إحساس بالقيم التي كانت لا تزال حتى ذلك التاريخ في عالم الحدْس والظنون ، هناك تطور المسرح بأشكاله المختلفة على مدى قرن ونصف القرن ، يفصلان بين إسخيلوس ومِينـاندر . ولا يمكن التصـديق بأنهـا استغلّت قدرات الهلينيـة الحيـة وغناها ، لأنه ليس في أثينا وحدها نشأ النحاتون ومهندسو البناء ؛ فالمهندسون الذين شيدوا الهياكل العظيمة في صقلية (هيـاكل سيليمـونت وأغريجنت) وفي اليـونان الكبرى (ميتاپـونت وپايستـوم ومعبد هيـرا لاسِيْنيا) ليسـوا أثينيين ؛ ويستفيد الپـارتينون من الخبرات التي اكتسبت في كل مكان من العالم الإغـريقي . وكذلـك في اليونـان الكبـرى، في إيليه Elée ولـد وعلّم أنبه عقـول الفلسفة الإغـريقية ، زينـون الإيلي الـذي أقلقت أفكاره وأثارت أفلاطون وأرسطو . وبعد ذلك ، على أثر الإنحطاط السياسي وزوال أثينا شبه النهائي عن المسرح العالمي ، أثناء القرن الثالث قبل المسيح ، لم تتوقف القوى الحية في الهلينية ، التي همدت قليلاً ، عن أن تعطي الحياة لبعض الفروع المتأخرة ، ولكن ذلك حدث في رودس مع علماء البـلاغة والفلاسفة ، وفي

سوريا وعلى الأخص في الإسكندرية ، إن ثروة أثينا هي نتيجة عدد من الظروف التي لم تكن كلها وليدة الصدف بل إن بعضاً منها وليد خيار واعٍ تجلّى تجلياً سعيداً .

إن مجد أثينا ، عنوانها الأساسي للسيطرة اليونانية ، هو أنها تركزت حولها المقاومة ضد البرابرة وضد الغزوات المسلحة التي كان يحاول ملكا فارس ، داريوس ثم أحشورش ، أن يخضعا بواسطتها ، الهلينيين. وكان الصراع ، الخفي تارة والمعلن طوراً ، بين اليونان والإمبراطورية الفارسية ، يملأ التاريخ الهليني الكلاسيكي بكامله ، ابتداء من نهاية القرن السادس إلى أن سحق الإسكندر الملك الفارسي العظيم ، بعد منتصف القرن الرابع بقليل . ودامت المواجهة حوالي قرن ونصف القرن ، وإذ أنتهت مملكة فارس بالسقوط ، فلقد مضى وقت طويل كان اليونانيون فيه يدفعون لها الجزية ، وتدخلت دبلوماسيتها تدخل المهيمن في العلاقات المتشابكة بين المدن . وإذا كانت هذه المدينة أو تلك تظهر العداء الحقيقي للملك (الفارسي) ، وإذا كانت بعض الدول قد طلبت مساعدته ، فإن مجد أثينا الدائم هو أنها كانت بطلة الحرية ضد الإغتصاب والإستبداد اللذين هما رمز السلطة الفارسية . ولكن هذه المعارضة لم تكن واضحة في البداية كما أصبحت عليه فيما بعد ؛ لم تظهر إلاّ خلال مرحلة قصيرة ، في الوقت الذي أرست فيه أثينا ، بعد تطور إجتماعي طويل الأمد وبعد ثلاث ثورات سياسية ، وبشكل مبدئي على الأقل ، فكرة المساواة بين كل المواطنين . إن حكومة كهذه ، بمجلسها المؤلف من خمسمائة عضو مجندين ، ليس كما في الماضي من عائلات أرستوقراطية ، بل بواسطة الانتخاب ، من جميع المواطنين الأحرار ، وبأراخنتها العشرة ، وبجيشها المنظم على صورة البنى السياسية والديموقراطية بكاملها ، يمكنها من الناحية الشرعيّة أن تكون النقيض لملكية الحق الإلهي حيث الملك هو القانون الحي . هذان مفهومان مختلفان في العالم قاطبة ، تُواجَه فيهما علاقات الإنسان بالآلهة وحقوق الإنسان بالعيش ، حتى بالنسبة لكل فرد من الناس . وكان الأثينيون يعرفون أنه لو ربح الفرس لانهار عالمهم بكامله . لم تكن القضية بعد قضية دفاع عن الهلينية لأنها ، كما يبدو ، لم تكن متعارضة في آسيا مع الشرق . إن عدداً كبيراً من المدن اليونانية الأوروبية ، لما علمت في ربيع 490 ، أن داريوس يعلن متباهياً أنه ينوي أجتياح اليونان بجيوشه ، أبدت أستعدادها للسماح له بالمرور . ولكن الأثينيين شعروا بأنهم مهددون

مباشرة ، وبأن المساعدة التي قدموها ، قبل عدة سنوات ، لهليني آسيا الثائرين جعلتهم هدفاً لانتقام داريوس . وكان يُظن أن هذه المدينة الأتيكية الصغيرة لا تستطيع أن تواجه قوة الملك العظيمة ومع ذلك ، فإنه ، في سهل ماراتون الذي يضيق عن أن يستطيع الجيش الفارسي نشر فرسانه فيه ، استطاع عشرة آلاف فارس ، بإمرة مِلْتياديسْ ، بالإضافة إلى ألف جندي من پْلاتِيْه استجابوا لنداء أثينا ، أن يحرزوا ، في 13 أيلول/سبتمبر 490 ، انتصاراً غير منتظر على 50,000 من جنود داريوس . وكان أحد أسباب هذا النصر المهارة التكتيكية لِملْتياديس الجندي المحنك والخبير بأساليب حرب البرابرة . ولكن يجب أن نفشي عن أسباب أخرى في رعونة القادة الفرس ، أو نقص السلاح لدى جنودهم وربما أيضاً بسبب شعورهم بالتعالي على الأثينيين . ومهما يكن من أمر ، ففي سهل ماراتون تقرر مصير الهلينية ، أو على الأقل الأشكال السياسية التي ابتكرتها . تشبه معركة ماراتون هذه المناوشات التي كان القادة الرومان ينظرون إليها ، في بداية حملاتهم العسكرية ، كدليل على مصير المعركة النهائية . فلولا جنود مِلْتياديس ، لكانت إحدى صور الحرية الإنسانية قد تلاشت إلى الأبد .

والنتيجة الأولى المباشرة كانت إبعاد الخطر الفارسي ، مؤقتاً ، عن اليونان ، والثانية هي إذلال سبارطة التي ، بالرغم من عنجهيتها العسكرية ، لم ترد أو لم تستطع أن تلبي نداء الأثينيين . وإنه لمن الصعوبة بمكان أن نقوّم تأثير انتصار ماراتون على أثينا . ويستشف ذلك من قبل العداوة التي بدأت تنذر قرنها ضدها في بعض الأوساط وخاصة في دلفيس التي يلجأ عرافها إلى تعابير إنهزامية متشائمة ويسخر من « الجدران الخشبية » التي يدعو الأثينيين إلى اللجوء وراءها ويتحدّث كهان دلفيس عن حظائر من قصب تحمي أكروپول أثينا . والحقيقة أن أثينا أساءت استخدام انتصارها إلى حد ما ، عندما قامت ، بعد ماراتون مباشرة ، بحملة تأديبية ضد جزر بحر أيجه التي ساعدت داريوس ، وقد باءت هذه الحملة بالفشل .

وقد جهز أحشورش ، بن داريوس وخليفته ، حملة أقوى من التي جهزها أبوه . ولكن المسألة لم تكن ، هذه المرة ، مسألة تأديب مدينة متمردة ، ولكن القضاء على الهلينية . إن موقعة ماراتون أعطت بعداً ومعنىً جديدين للحرب . هل فهم أحشورش اللعبة السياسية والخصام بين روح الحرية وروح الإذعان ؟ إنه لمن

المؤكد ، على أي حال ، قد سمع بشن هجمات عامة ضد الهلينية بشكل عام ، من صقلية إلى شواطىء إيجيه لأنه تلقى من القرطاجيين الموافقة على مهاجمة المدن الإغريقية من الجهة الغربية . وفي هذا المخطط الضخم الذي رسمه أحشورش ، تمثل بشكل واضح ، فكرة المجابهة بين الإمبراطورية الآسيوية وما يعتبر بداية أوروبا المستقبلية . ولا يغيبن عن بالنا أن القرطاجيين الذين ظلوا أوفياء لعاصمتهم الفينيقية وأن هذه العاصمة التي تتمتع بشيء من الحكم الذاتي لم تندمج في إمبراطورية أحشورش .

ورداً على هذا التهديد حاولت أثينا أن تحقق الوحدة اليونانية العسكرية . لقد اتفقت مع إسبارطة في خريف 481 ، على عقد مؤتمر عام للمدن اليونانية في برزخ كورنثيا . ولكن ثلاثين دولة فقط لبت الدعوة. لقد حضرت الدول الأقوى، من بينها إسبارطة وكورنثيا، وسجل الكثير من الغائبين.

ومع ذلك لقد انتصر اليونانيون مرة أخرى . ولكن بطولة الإسبارطي لَيُونِيداس الذي ضحى بنفسه ليدافع عن ممر ترموپيل ، مداخل اليونان الكبرى ، لم تأت بفائدة. إن معركة ماراتون لن تتكرر، وميدان المعركة أوجده، هذه المرة أيضاً ، يوناني يدعى تاميستوكل تجرأ على أن يرفض المعركة في البر وأن يحفظ كل قواه لمعركة بحرية ضخمة يشترك فيها الأسطول الفارسي بكامله . وفي 29 أيلول/سبتمبر أحرزت السفن اليونانية، ذات الصفوف الثلاثة من المجاذيف، نصراً ساحقاً في قناة سلامين . وبعد عام على هذه المعركة وقعت معركة پْلاتِيْه التي حرَّرت اليونان نهائياً .

وفي الغرب فشل الهجوم الفينيقي على مدينة هيمير ، حيث رسَّخ جيلون السرقسطي ، بانتصاره ، هيمنة سرقسطة . وفي الشرق أنجز فوز الهلينيين بالإنتصار الذي أحرزوه في جبل ميكاليا في إيونيا ، في مكان لا يبعد كثيراً عن مدينة پْرِيَان . وابتداء من هذا التاريخ وعلى مدى عدة أجيال أصبحت اليونان في منأى عن الهجمات الفارسية، وتحققت إلى حد ما ظروف تعايش سلمي بين الفرس والهلينيين واستطاعت الهلينية أن تتوسع بمقدار ما سمحت لها المعارك الداخلية والأحقاد التي نجمت عنها .

ولئن عجزت أثينا عن تأسيس إمبراطورية خاصة بها فلقد أنشأت حِلْفاً بين

الدويلات تولت هي زعامته . إنه حلف ديلوس أنشىء برعاية أپولون الإيوني ، رداً على ميل الدوريين إلى أپولون دِلفيس . ولقد تكرس صدع في قلب الهلينية هو الإنقسام بين الإيونيين والدوريين. الأولون مع أثينا والآخرون يتبعون إسبارطة ، وإن عصر پريكلس ، الذي وسم ذروة الإزدهار الأثيني وعرف أروع انتصارات «الأعجوبة اليونانية » انتهى بالدم والدموع التي سفحتها بغزارة حرب الپيلوپونيز حيث تواجه الأثينيون والإسبارطيون على مدى سنوات تزيد عن سنوات الحرب الطروادية .

ولكن قبل هذا الخلاف وخلال مرحلة الزعامة الأثينية وحكومة پريكليس وأصدقائه ، تسنى لأثينا متسع من الوقت لتتنفس ؛ وكانت تلك مرحلة الخلق والإبداع .

الدين والجمال

إنها لمهمة عسيرة أن نعطي نظرة إجمالية ، مهما كانت مختصرة ، عن الهلينية الكلاسيكية . فالروائع الشعرية التي أبصرت النور حينذاك وخاصة روائع المسرح الأثيني والأبنية التي برزت في كل مكان وهي في أثينا أبدع مما هي في سواها ، وغليان الأفكار التي أثارها الفلاسفة وأزدهار الرسم والتصوير وتطور النحت والظلال ، والتفنن في صناعة الخزف ، كل ذلك يشكل مجموعة متماسكة يصعب بل يستحيل اكتشاف وحدتها الفنية .

وكثيراً ما يقال إن هذا المبدأ يكمن في إخضاع كل القيم لسلطان العقل « القوة الخاصة بالإنسان » بل هو طبيعة الإنسانية بحد ذاتها . والحقيقة ، هو تعبير يوناني أن جعل منظرو الهلينية منذ القدم ، الغاية القصوى لكل نشاط هي اعتبار الإنسان « مقياس كل شيء » ، وكان أرسطو ، أحد المفكرين الذين توغلوا وتعمقوا في الفكر الهليني أكثر من سواهم ، وهو الذي أشار إلى أن هذا المبدأ يوجد في كل المؤسسات اليونانية : في المؤسسات السياسية ، فالمدينة الدولة يجب أن تبقى ضمن المقاييس الإنسانية ؛ كما في قياسات الهياكل (الهيكل الضخم المخصص لأثينا لم يكتمل) ، وحتى في الفكرة التي كونوها عن الآلهة . وربما في الطريقة التي فهم بها اليونانيون العلاقات بين الإنسان والإله يجب البحث عن أصالتهم البعيدة الغور .

في حين أن الآلهة الساميِّين هم خالقون ، يملكون ، دفعة واحدة ، حجماً كونياً ، نرى الآلهة الإغريقيين ، حتى أكبرهم ، زَفس ، يولدون قبل أن يَحكموا ، كان صغيراً ضعيفاً معرضاً للأحقاد والمخاطر ، كما حدث لابنه هِرَقل (هيراكليس) . إن ولادة زفس لا تنسجم مع عظمته الكلية ، لا سيِّما وأن الظروف التي تحيط بولادته تختلف وتتناقض تبعاً للدول والمناطق ، وأن الحكايات التي تُروى عن غرامياته لا تشرِّف أبا الآلهة ، الذي هو أشبه ببطل مسرحية هزلية أو بورجوازي غارق في ملذاته ، منه بإله. والشيء نفسه يقال عن الأساطير التي لا تحصى والتي نسجت حول الشخصيات الإلهية الأخرى مثل هِرْمِس أو أبولون وديميتروبنوع عام كل سكان الأولمپ وكل الذين يشاركون بالمآدب الكبيرة التي يقيمها الآلهة الرفاق المرحون العابثون دون أن يهتموا بشؤون الغد ولا بمتطلبات الحياة .

إن الصفة الأكثر تعبيراً في « الديانة الإغريقية » أي الفكرة التي يكونها الإغريق على آلهتهم هي التنافر التام الذي يشوبهم . فهؤلاء الآلهة الذين يمثلونهم خاملين مستسلمين للملذات يتضرعون إليهم ، تحت أسماء مختلفة ، عندما تعترضهم صعوبات الحياة اليومية ، أو بالأحرى إن من يتوسلون إليهم هم قوى لا إسم لها ملازمة للأشياء والآلهة ليس لها مذابح ولا هياكل ولكنها مستعدة دائماً لتستجيب للصلوات والتوسلات . كل ذلك يحدث كما لو أن اليونان يعيشون حياتهم الدينية على مستويات عدة : فهناك دين شعبي متجذر عميقاً في النفوس ، إنه من السحر أكثر مما هو دين حقيقي ، هو الذي ينظم الطقوس ويخترع بعضها ، وتُفْرض العقيدة على المتكهنين وعلى العرَّافين ، وتُنسب للآلهة النوايا الحسنة والسيئة أو الحاسدة أكثر الأحيان ، وهذه هي فكرة نيميزيس (Némésis) ، رمز انتقام الإله من كل من يحاول تجاوز الحالة الإنسانية في العادة والكبرياء ، إنها نوع من المساواة بين الكائنات ، فهذه الديانة لا علاقة لها البتة بالخرافات التي تشكل عالماً مستقلاً ، دائم التغير ولكنه لم يستقر إلاَّ في وقت متأخر . إن الخرافة تنشأ غالباً من عدم الفهم : عدم فهم طقس ما أو شخصية دينية أو علاقة قائمة بين إسم إله وشجرة مثلاً أو نهر أو صخرة. بعض الخرافات انتقلت من خارج الهلينية، من الحضارة الإيجية، من المعتقدات المقتبسة من مختلف الشعوب الأسيوية . وكان هسيود قد جمع ، في بداية الهلينية القديمة ، في كتابه « تيوغونيا » كثيراً من هذه الخرافات الغريبة عن

المهاجرين الآريين ، ونسبت ، كيفما اتفق ، إلى شخصيات دينية مألوفة لديهم .

إن التقوى الشعبية موجودة وحية خارج إطار الخرافات . إنها تهتم ، قبل كل شيء ، بالعمل الذي يمارسه هذا الإله أو ذاك ، في وقت من الأوقات وفي مكان محدد ، إنها ميالة لترى التجليات الإلهية ، وكثير من الأدلة تثبت لنا ذلك ، منذ الأوديسة حتى الروايات في العهد الروماني وتؤمن هذه التقوى بوجود علاقة حميمة ودالة بين الخالدين والناس ، الأمر الذي يدعو إلى إلقاء الظلال على الغراميات الإلهية وعلى كل خبر مشين ينسب إلى الآلهة . ويمكن أن نقول هنا إن الفكر اليوناني جعل الإله « على قياس الإنسان » ؛ ويذكر أيضاً أن الفنانين هم من أصل إلهي : فالعائلات العريقة ، عائلات مؤسسي الدول ، تنسب إلى جد إلهي . ويلح الكورنثيون بشدة على الإيمان بأن لقبهم هو « أبناء زفس » إلى درجة أن ذكر هذا النسب غداً تفكهة مبتذلة لدى سائر الأغارقة . وهذا ما يجعلنا نتفهم بشكل أفضل كيف أن الأثينيين ألّهوا الملوك الهلينستيين الأول حتى إن الملك المقدوني ديمتريوس بوليورسيت توصل إلى الإدّعاء بأنه زوج الإلهة آثينا ، دون أن يثير سخط الأثينيين ضده . إن تأليه الملوك ، الخاص بالعهد الهلينستي ، لم يكن يثير اشمئزاز الوعي الإغريقي، لم يكن يصدم سوى بعض الفلاسفة وخاصة هؤلاء الذين ، على غرار الرواقيين ، كانوا يكوّنون عن الآلهة مفهوماً قريباً من مفهوم الساميين .

هذا التقارب بين الآلهة والبشر ، الذي أدّى إلى حضور الخالدين باستمرار بين الفانين ، يفسر ، لا شك ، تدخل الآلهة في كل شعر يوناني . وليس من عيد إلا وهو مكرس للآلهة ، ولكن لآلهة حاضرين ملازمين . فكل عرض مسرحي يبدأ ، مثلاً ، بذبيحة حيث يقدم للإله ما يجذب انتباهه ليكون حاضراً فعلياً . إن الشعر ، من مديح وملهاة ومأساة يوضع تحت رعاية الإله ، وليس ما يمنع أن يكون هذا الإله موضع سخرية - كما فعل أريستوفان في مسرحية « الضفادع » حيث يمثل ديونيسوس الذي يحتفل بالعيد على شرفه ، دور شخصية فقيرة .

وكان الأثينيون ، كسائر الأغارقة ، يؤمنون بالآلهة ، ويمحضونهم الكثير من التقوى وكانوا حريصين على أن يحيوا الطقوس بكثير من الاهتمام والدقة ، ونعرف كيف أن صراحة سقراط (والإغريق يقولون حُرّيته ، ويجعلون من حرية كهذه فضيلة إذا لم تتعارض مع تقاليد المدينة) قادته إلى السجن وسببت له الحكم بالموت .

ونعلم أيضاً أن عملية تشويه صُوَر الإله هِرْمِس ، انتهاك حرمة صور الإله الموضوعة على الطرقات ، أثارت شكوكاً خطيرة في الوقت الذي بدأ الهجوم على سرقسطة ، أثناء حرب البيلوپونيز ، وألسيبياد القائد الأثيني نفسه كان ضحية موجة شرسة من الحقد عليه ، الأمر الذي يفسر بوضوح الموقف الديني العميق « لأكثر الشعوب تفلسفاً في العالم » .

والشعراء الذين جعلوا من الميتولوجيا موضوعهم المفضل ، أصبحوا نهباً للشكوك ، منذ وقت مبكر ، إذ رأوا الإلهيات تنحط إلى درجة أصبحت فيها تختلط بالحياة الإنسانية في أسفل مظاهرها . فالشاعر پندار ، مثلاً ، كان مهووساً بعظمة الآلهة . وكان آخرون يرددون معه أن الدناءات لا تليق بالخالدين . وفي الوقت نفسه ، لم يكفَّ مزيِّنو الأواني في مصانع أثينا عن رسم مشاهد أسطورية حيث كان أريس ، مثلاً ، يُرى مثخناً بجراحه أو معرَّضاً للسخرية ، أو تُشاهَد أفروديت أسيرة شبكة سحرية حيث سجنها هيفستوس . إن الإله المرسوم على الآنية الأتيكية في القرن الخامس يشارك في صنع النكتة ، لم يكن « حجمه » أبداً بشرياً .

وكردة فعل على هذا الميل الشعبي الفكري والفني تكونت لدى شعراء التراجيديا فكرة عن الآلهة تسمو بهم فوق الألم والضعف البشريين ، هذه الحركة التي يمكن أن ندعوها « تنزيه » الآلهة بدأنا نلمسها عند إسخيلوس . لكن المهمة ، كما يلاحظ ، كانت شاقة : إن عالم الأدب الذي يكتشفه إسخيلوس والذي سيكون مادّة أدبه هو مليء بالأسرار والعنف . فالبشر لا يستطيعون النجاة من الإنتقامات الجائرة وأحكام القدر الأكثر عنفاً ، لقد سُمِّر بروموتيوس على صخرته لأنه أراد أن ينقذ البشر من مصيرهم البائس . ولكن « عبر الغم والرعدة ، عبر السر الذي يغلِّف المقدسات ، وجد في كل مكان إيمان واحد ، يسعى أن يرى في قواه الهائلة ، آثار عدالة عليا ودلائلها ورموزها ، تلك العدالة التي يساء فهمها » .

إنها النفس الإغريقية التي تحاول الهرب من رعب كوابيسها بالرغم من أن أسطورة ثابتة تشاء أن يكون الآلهة ، تحت سماء اليونان ، صانعي خير أو أقله راضين مطمئنين . إن صفاء الآلهة هو من تطورات الإنسان .

إن الذي أسهم في جعل هذا التطور ممكناً ، ربما كانت واحدة من تلك الصفات التي تميز المأساة اليونانية أكثر من سواها ، ألا وهي ذلك التناقض الثابت

بين المشاهدين والأبطال . وتتحول جوقة المغنين إلى مجموع المشاهدين وهم أدنى مستوى من أبطال المسرح ، ويجري الحوار بين الأبطال والمنشدين الذين يشهدون على العمل المسرحي ولكن دورهم فيه يكون ثانوياً . إن الفرق الذي يفصل مستويين في المسرح يجسد الفرق بين أوضاع الفئتين : الجوقة أو مجموع المشاهدين يرمز إلى البشر العاديين ، إلى الجماعة التي لا إسم لها ، وينتمي الأبطال إلى عالم الآلهة وهم من سلالة هؤلاء . إن ابتعادهم الذي يرفعهم فوق مستوى المشاهدين فيه بعض ما يطمئن . ويلخص الفيلسوف ديموقريطس هذا الشعور عندما كتب أن سعادة النفس وطمأنينتها ليستا ممكنتين إلاّ لدى الذين يعرفون أن يتحاشوا القضايا الخطيرة وأن يظلوا أمناء على الوضع البشري ، وكذلك عبارة « عدم الإفراط » المدونة في دلفيس لتنشئة المؤمنين تنهَى عن المغالاة في التمنيات والخروج عن الحد في المطامح . وذاك هو نداء پندأر لنفسه عندما دعاها إلى عدم اشتهاء حياة الخالدين بل الإكتفاء بكل ما يؤمن لها حاجاتها اليومية .

ليس هناك نوع أدبي أكثر « أرستوقراطية » من المأساة الأتيكية والملهاة الأقدم التي هي ملهاة أريستوفان ، إذ نرى فيهما آلهة الأسطورة وملوكها . من المؤكد أن هذا المسرح يروي نهم مفهوم دنيوي هو مفهوم المجتمع القديم الذي كان على طريق الزوال عندما كان إسخيلوس وسوفوكل وأوريپيد يدونون أدبهم . فكل جهود أوريپيد لم تكن كافية لتبديد هذا المفهوم القديم المتأصل في المأساة ، ولكن الملهاة استطاعت أن تفعل ذلك . واحتاج المسرح اليوناني إلى حوالي قرن من الزمن ليعطي صورةً لمجتمع أقرب إلى التاريخ والواقع . وخلال العصر الهلينستي أي بعد تقهقر الدولة ـ المدينة وتحت تأثير أسباب مختلفة تبدلت الملهاة وأصبحت بورجوازية (هنا أيضاً كان يشوبها شيء من العودة إلى القديم لأن القيم التي كانت تضعها على المسرح ظلت قيم القرن السابق !) .

وهكذا تكون ، باتجاهين متناقضين ، مسرح الملوك العاطفي أو الدموي ، الدرامي دائماً ، ومسرح الفانين البسطاء الذي لا يمكن أن يكون إلاّ متفائلاً ضاحكاً لا يعرف إلاّ المغامرات التي تنتهي إلى حل سعيد . وقد أثر هذا التراث تأثيراً بليغاً في تاريخ مسرح الآداب الكلاسيكية الأوروپية .

الفلسفة

ومن المتفق عليه العثور ، في الفلسفة اليونانية ، على أحد المنابع الرئيسية للفكر الأوروبي والأخلاق والميتافيزيقا والمنطق حتى العلوم . وأول ما يخطر في البال هو إسم أرسطو . فمن المؤكد أن مؤلفات أرسطو أثرت تأثيراً عميقاً في الفلسفة الأوروبية في جميع مجالاتها . ولعب هذا التأثير دوره في طرق مختلفة وفي فترات متنوعة . ليس ثمة من مرحلة ، خلال القرون الأوروبية ، لم يكتشف فيها أثر لهذا التأثير ، سواء كان ذلك بواسطة مفكري الإسلام أو بواسطة التومائيين ، وأخيراً بإعادة اكتشاف مجموعة مؤلفات أرسطو . وإن تأثير الفلسفة اليونانية لا يقتصر فقط على فلسفة أرسطو وهو يتعدى ما يمكن أن ننسبه إلى فلان أو فلان من المؤلفين . إنها تنتج من عملية إخصاب بعيدة الغور أخذت طريقها خفية ، بإعداد متواصل ، إلى روما أولا ثم إلى المفكرين المسيحيين الذين لم يرفضوا لا التقليد الرواقي ولا ، خاصة ، التقليد الأفلاطوني الحديث .

هذه الفكرة الفلسفية اليونانية لا يمكن أن نلخصها ببعض الصيغ الكلامية ، فإذا نوهنا بالعقلانية ، كما يحدث غالباً ، يجب أن يخطر ببالنا رأساً أن قسماً كبيراً من الفكر الأفلاطوني وكذلك الفكر الرواقي يتضمن ، بالإضافة إلى المتطلبات المنطقية للجدلية الخاصة بهذين النظامين ، تأملاً شبه صوفي بالإلهيات . إن ما يزعجنا في الواقع ، هو عادات التفكر التي اكتسبناها منذ قرنين أو أكثر ، في محاولة فهمنا لفلسفة الهلينيين في تنوعها وتناقضاتها وتبايناتها .

بالنسبة إلى هذه الفلسفة كل شيء يبدأ بالتأمل في هذا العالم « بما هو كائن ، المنظور منه وغير المنظور ، وكذلك في الدين فلا فرق طبيعياً بين ما هو إلهي وما هو بشري . إنْ هما إلاّ درجات في سلم الوجود لا تفاخر بينها ، فما هو إلهي ينتمي إلى « الطبيعة » أي إلى دينامية الكائن عينها ، كما ينتمي إليها النبات والحيوان والأشياء . هذا « المعطى » اللامحدود يجب أن تستوعبه فكرة واحدة ، وحيدة . وحدها الفكرة متسامية عن الكائن ، ولكن هذه الفكرة عينها ليست مادة ، إن إحدى أولى المسائل التي طرحها فلاسفة اليونان هو فهم كيف يمكن للفكرة أن تأتي متطابقة مع الكائن وهذا ما يدعى مسألة المعرفة .

ينصب التأمل أولاً على المظاهر الأكثر بعداً عن الإنسان ، التي تبدو الأكثر ثباتاً وبالتالي الأكثر سهولة على الفهم ، وهذا هو السبب الذي من أجله تبدأ السلسلة الطويلة من الفلاسفة الهلينيين باسم طاليس الذي اهتم بالأشياء السماوية وإيقاعات الكون الكبرى ، ويقول لنا أرسطو إنه هو مؤسس كل الفلسفات التي تبحث في الوصول إلى الحقيقة القائمة وراء الظواهر . ولنا كل الحق في التفكير بأنه استوحى ، على نطاق واسع ، النظريات اللاهوتية في نشأة الكون التي تكونت في مصر وبابل ناقلة إلى لغة طبيعية الرموز الميتولوجية التي أعلنها الكهنة المصريون .

ويبدو التقليد الميتولوجي الخاص بالهلينيين قليل الإهتمام بأصول الكون والأشياء . إن الخرافة « الأورفية » عن البيضة الأولى من المحتمل جداً ألّا تكون إغريقية ويمكن أن نسلم مع نسبة كبيرة من الإحتمال بأن القوى الأولية التي أثيرت في تيوغونيا هسيود هي مقتبسة من العالم الآسيوي : والظاهرة المعبرة هي أن المفكرين الهلينيين قد أزالوا بسرعة الآثار الميتولوجية من تفكيرهم ، فإذا كانت « العناصر » في نظريات التكوين الأولى لا تزال تحتفظ بفضائلها الإلهية ، لقد جردت منها بسرعة ، وجرى التحول نحو المفهوم الميكانيكي أو بالأحرى « ما قبل الكيميائي » الذي تتحول فيه العناصر إلى مادة الأشياء عن طريق الإندماج فيما بينها أو بواسطة التكاثف أو التلطيف . كل الجهد ينصب على المسألة التي يطرحها التنوع في الكون والحاجة إلى تفسير موحد . إن ما هو كائن يجب أن يكون « واحداً » ، ولكن ما تقع عليه الحواس هو متعدد . يجب على المعرفة أن تعد نظاماً يأخذ بعين الإعتبار الوحدة والتعددية في آن واحد .

هناك عدة اتجاهات محتملة يمكن بواسطتها إيجاد حل للمسألة : أحد هذه الإتجاهات هو ما يسمى بالتحليل الرياضي أو الهندسي للكون ، وهو اتجاه طبيعي لكل من يتأمل في نظام الأجرام السماوية : مهما كانت وضعية الكواكب فإن الأشكال التي ترسمها تمثل نسباً ثابتة . وتكوّن شيئاً فشيئاً مفهوم بنية رياضية للكون والأشياء : هذه البنية يمكن معرفتها تارة بواسطة الرؤية فقط وطوراً بواسطة السمع (كأصوات أوتار القيثارة) وأحياناً عن طريق التأمل . هذا التوجه يعزى عادة وبصورة إجمالية إلى الفيثاغوريين ، وقد أخذ به أفلاطون ، على الأقل في بعض مظاهر فلسفته .

والاتجاه الآخر ، بحثاً عن الأزلي ، الصمد ، وراء الأشياء ، يقوم على تأكيد

وحدة الكائن والبرهنة على أن التعدد ليس إلا وهماً ، ومما لا شك فيه أن هذا الفصل بين طريق الإيمان وطريق الحقيقة يعود إلى پارمنيد . ولم تنكشف نتائج هذا الحدس إلا متأخرة عندما تكونت مع ديموقريت من جهة وهيراقليت من جهة أخرى ، نظريتان تسمحان بالتعبير عن حتمية ما ورائية الوحدة بالتعابير الطبيعية . ولكن فيما كانت تعاليم هيراقليت تعتمد على « العناصر » المنظورة والمحسوسة ، كان ديموقريت (المتأثر بتعاليم لوسيپ على ما يبدو) يفتش عن الوحدة في أساس غير محسوس دعاه « غير القابل للتجزئة » (أي الذرة أو الجوهر الفرد (Atome)) . وانطلاقاً من هنا راحوا يفسرون الكون بلعبة الكائن (الجوهر الفرد) والعدم (أي الفراغ) أي حركة الأجزاء « غير القابلة للتجزئة » . وحذفت الألوهية تماماً من نظرية نشوء الكون ، دون أن يعني ذلك أن ديموقريت وتلاميذه الإبيقوريين كانوا ملحدين ؛ لقد حافظوا على الآلهة ولكن لم يشركوهم في حركة الكون .

وأبصر النور على التوالي ، تياران قويان : من جهة ، الطبيعيات (وما وراء الطبيعيات) تبرز كحقيقة وحيدة ، هي حقيقة المادة ، الكائن الرحيب ، أساس كل الموجودات ، ومن جهة أخرى الطبيعيات التي تمنح المفاهيم أي الحقائق غير المادية دوراً حاسماً في خلق الأشياء ؛ من جهة أولى ديموقريت وهيراقليت ، ومن جهة أخرى أفلاطون وأرسطو . وبين أفلاطون وأرسطو فرق جوهري ، ففيما كان الأول يستند إلى الأشكال الهندسية وإلى البنى العددية التي يصنع منها الحقيقة الأسمى ، كان الثاني يرفض هذه الرياضيات في الأشياء ويركز على ما يسمى اليوم الحقائق البيولوجية ، أي طاقة التحول في الأشياء التي تحفظ ، عبر تطورها ، حقيقة واحدة محددة . الولد هو رجل بمقدار ما الرجل يعمل . إن مثال الرجل هو « صورة » موجودة بالقوة في النوع بكامله وهذه الصورة هي وحدة تعطي الشكل للمادة ولجوهر كل كائن دون أن تمتلك هي بذاتها حقيقة مادية ، بمعنى أن الطبيعة مفهومة لأنها تحيا تبعاً لمقولات الفكر الإنساني . إنها شبيهة بالفكرة وعلى العكس من ذلك ، فالفكر الإنساني هو شبيه بالكائن المحقّق .

وفي التحليل الأخير ، كل شيء رهن بما يسميه أرسطو العلة الأولى أو المحرِّك الأول ، الذي هو ثابت بحد ذاته وفكرة مجردة غير مادية ، يتحرك حوله سائر الكون ، بفعل الرغبة التي تدفعه ليحقق ذاته في كماله باقتدائه بالكائن الكامل . لا

ينطلق التفكير ، في أي من هذه الفلسفات ، من الخرافات ولا من الدين ، وينظر إلى الآلهة الخاصة ، آلهة التقليد ، ككائنات لا مجال للشك في وجودها وهي تلعب دوراً في النظام الكوني ولكنه ليس دوراً متفوقاً . إنها توجد كما يوجد البشر والكواكب . لقد أعطيت كياناً مادياً وهي مدفوعة في سيرها بحركة الكون بطريقة مباشرة إلى حد ما . ولكن وراء الآلهة ، هناك اللّه الذي هو المرجع الأسمى ، المنزلة المطلقة للكائن . لم يتحرر الفكر اليوناني تدريجاً ، من الشرك ليصل إلى التوحيد الديني . إن إله الفلاسفة ، ليس في جوهره ، زفسا ولا برجيساً ، ولا إلهاً سيداً يهيمن على كل الآخرين بشكل وثيق . يصادف عند الرواقيين أحياناً تعابير توحي بأنهم يؤمنون بإله كهذا ولكن ليس ذلك سوى صور وأشكال كلامية . إن إله الفلاسفة هو فكرة ميتافيزيقية ، هو إحدى مسلَّمات المعرفة ، في نطاق أن كينونته ذات طابع عقلاني ، وهو مماثل للفكرة الإنسانية .

الثورة السقراطية

يتفق المحدَثون وبعض القدماء على التنويه بأهمية الثورة السقراطية أو ما يسمَّى بهذا الاسم . ويعود الفضل لأفلاطون في تقريظ شخصية معلمه سقراط الذي كان له من قوة الشخصية ما أثار إعجاب كْزِينُوفُونْ الذي يختلف اختلافاً بيِّناً عن أفلاطون ، وتهكم أرِستوفان الذي كان يمثل « الذوق السليم » الأثيني بمقابل الفضول والتناقضات التي عرف بها ذاك الذي تجرأ فازدرى آراء الآخرين وتطاول ، في عصر الحرية ، فأثار الشك حول « العدد » .

من الصعب بل من المستحيل أن نعيد لسقراط وجهه الحقيقي . إن ما يمكن أن نلاحظه يقوم على موقف سلبي ، على شك يصيب كل شيء وسقراط نفسه بالدرجة الأولى . إن نفي إمكانية تطبيق المعرفة الإنسانية على الكون (أو كما يتردد : « نقل الفلسفة من السماء إلى الأرض ») والتمتع بتذكر الحدود الشخصية والجهل الشخصي ليسا وصفين نهائيين فمن الممكن أن يشكل هذا تفكراً خلاصياً ويحذر من الوثوقية المفرطة ، ولكنه في نهاية المطاف ، تفكُّر مؤقت . ثم أليس من المدهش أن تكون من سقراط انطلقت الأفلاطونية التي تعمل على إخضاع بنية الكون لقوانين العقل ، حتى ولو كان أفلاطون يؤكد أن المظاهر وحدها هي التي تدرك مباشرة . وسقراط هو مصدر المذاهب التي تركِّز على الوضع الإنساني وتجهد

في اكتشاف قواعد الكمال الإنساني الذي جعل منه الرومان فضيلة البسالة .

إن تحول الفلسفة ، بعد سقراط ، إلى « فن الحياة » كما كانت عند الإبيقوريين والرواقيين وآخرين غيرهم ، لا يمنعها من أن تصبح عند هؤلاء الفلاسفة أنفسهم مادة تأمل في الكون . إن نزوع الفكر الهلّيني لاكتشاف نظم الحياة وترسيخها ، التي هي آداب العمل ، لا تعود إطلاقاً إلى سقراط . يجب ألاّ ننسى أولئك الذين حاربهم ، ومنهم أرستوفان والسوفسطائيون و« الرجال المهَرَة الذين يجعلون السعادة البشرية في الاستخدام العملي للذكاء وعظمة الإنسان في نجاحه المؤقت وإمكانياته في الدولة ومجده خارجها . ويرى سقراط أن هذا المفهوم ليس جديراً « بفيلسوف » ، وهو لا يصل بالإنسان إلى تمييز القيم الحقيقية بل كل ما يؤدي إليه هو إغراق العقول في الجهل . لقد ثار على الفن المفضل لدى السوفسطائيين ، فن الإقناع بالكلام وبالتالي الحصول على النفوذ والسلطة .

سقراط هو عدو الخطاب المتساوق والبيان الذي يجذب الألباب ويسحر العقول . وتبدو « ثورته » أخيراً كردة فعل على إحدى النزعات الأساسية « للدولة المدينة » ، ألا وهي تسلط الكلمة . كان رفضه لفصاحة الكلام كنتيجة طبيعية لارتيابه تجاه الجماهير ومعتقداتها . كيف يستطيع « تهكمه » وإعادة النظر المستمرة في كل شيء أن ينسجما مع متطلبات السلطة في نظام ديموقراطي ؟ وقد لوحظ أيضاً على أثر الثورة التي أخضعت أثينا لسلطان ترانت بعد هزيمتها أمام إسبارطة ، أن استقلالية سقراط لا تصلح حتى لنظام أوليغارشي . وبعد ذلك أي بعد موت المعلم برهن تلميذه ديوجين الكلبي أن التهكم السقراطي لا يتفق أبداً مع النظام الملكي .

إن الفكر الهلّيني المقسوم على ذاته ، المأخوذ بسحر الكلمة ، الحاذق بالتعليل والاستدلال ، صواباً أو خطأً ، وبطريقة معقولة ، والبارع في تقليب طريحة على أخرى (هذه الميزة خاصة السوفسطائيين وكانت بعدهم مطمح الأكاديميين ومنهم كارْنيَاذْ ، في القرن الثاني ق.م ، الذي ظل أبرز ممثليها) ، كان هذا الفكر يعتريه الشك بمهاراته عينها ويرتاب بأن يخدع نفسه . إنه يتردد بالإنفصال عن المعتقدات التي وصلته ، ويعجب بالخطباء ويدين سقراط . كما أن الشعب الأثيني كان قد نفى فيما مضى أريستيد لسبب وحيد وهو أنه اعتبر عادلاً وأن هذا الأمر أقلق سواد الشعب . إن الإعجاب سبب كاف له ليحطم شخصاً أو ليسير في ركابه . وإن

هذا الشعب المنطقي يتساوى في اللامنطق مع أكثر النساء نزقاً ورعونة وهو أيضاً وللسبب عينه عاجز عن أن يخلد إلى السكينة .

هذه الصفات المتباينة للفكر الهليني تفسر ، في الوقت نفسه ، نجاحه المدهش وفشله ، هذا الفشل الذي يرجّح في التاريخ الأوروبي على نجاحه .

إن توقه إلى المجد، بل عشقه لاقتناص الخلد ، يطغيان على شعر پِنْدَارْ وعلى فني النْحت والبناء . والإغريقيون مقتنعون تمام الإقتناع بأن الجمال وحده ينعم بالخلود . فالآلهة يتمتعون بالجمال والجمال البشري هو مجد وسؤدد والخير والجمال يتّحدان . إنها طريقة تقاوم ، بكمال اللحظة الحاضرة ، الحركة الكونية التي تجر الكائنات نحو الفساد . ويمكن الاعتقاد بأن هذا التوق إلى الجمال إلى درجة أن يمزج في هذا المفهوم كل ما يعتبر ، في صميم الروح الهلّينية ، دواءً مجلوباً لهذا الهروب اليائس من العالم الذي عبر عنه هيراقليت خير تعبير . ومن الجرأة ، ولا شك ، الاقتراح بأن جماليات اليونان الكلاسيكية ، هي ، في قسم منها ، رد فعل لليأس ، مع أنه تاريخياً وجد الفكر الأوروبي ، في القرن العشرين ، أو ادّعى أنه وجد ، في عودته إلى الهلينية ، التوازن الأخلاقي الذي حطمه التفكير الرومنسي الطويل الأمد بالموت . ولكن هذه الجماليات تبدو بوضوح غاية من غايات الديالكتيكية التي تقابل، في الفكر اليوناني ، الحركة بالسكون ، النسبي بالمطلق والإنسان بالإله ، ولا يغيبن عن البال ، باستعراض أروع المراكز الأثرية الهلّينية أنه عند أقدام هياكل الآلهة التي لا تزال منتصبة ، كانت تتزاحم المساكن المجهولة الهوية التي لا يمكن اليوم تمييز بعضها من البعض الآخر . إن هذه المساكن لم تكن على شيء من الجمال لأنها لم تبق صامدة على مر الزمن .

العصر الهلِّينستي

الإسكندر والممالك

لم تكن الهلينية قد نشرت ، حتى منصف القرن الرابع ، على شواطىء البحر المتوسط ، إلّا خلايا سياسية فيها أقليات من المواطنين تحكم شعباً مستعبداً أو قروياً ، (أو القريب من العبودية في البلدان الدورية غالباً) . كل واحدة من هذه المدن كانت تملك أرضاً قليلة المساحة . وفي الغرب فقط ، في صقلية ، تكوُّن نوع

من الإمبراطوريات ضيقة الحدود جداً ومزعزعة . ويطريقة شبه نبوية لم يتسنّ لهذه الإمبراطوريات التي تكونت حول المدن ، نوع من الصلابة إلاّ عندما رضخت لسيطرة سيد دُعِي مغتصباً ثم ملِكاً بعد ذلك . هناك وخاصة في اليونان الكبرى كانت الدول المختلفة تسعى لتحطيم بعضها بعضاً في اليونان نفسها خلال القرن الخامس وبداية القرن الرابع ، أثينا وإسبارطة وطيبه . ومع تصاعد مقدونيا ، ذلك البلد الذي كان يشك بكونه هلّينياً حقيقياً ، بدا أنه أصبحت على وشك التحقيق تلك الوحدة اليونانية التي تراءت في الماضي وكأنها مثال صعب التحقيق ، حتى بوجه الخطر الفارسي . فالمحاولات الأيلة إلى جمع المدن المتشبثة بالديموقراطية ، لمواجهة فيليپ لم تنجح . وفي أثينا نفسها ، حال أحد الأحزاب الموالية لمقدونيا ، دون المقاومة الفعالة . فهذه المرة لم تنجح قضية الحرية . وربما لأن الموقف يختلف عما كان عليه أثناء الحروب الميدية ، إذ ليس جيشاً ما من العبيد كان يهدد المدن ولكن دبلوماسية ملك يثير المدن المتخاصمة الواحدة تلو الأخرى . وليس ما يهدد القيم التقليدية : فالآلهة ذاتها والطقوس نفسها واللغة هي هي ، حتى إنه باسم الهلينية خطط الاسكندر ، آخيل الجديد ، لغزو آسيا .

ولكن هل كانت القضية فعلاً قضية حملة عقائدية أو بالأحرى نوعاً من الثأر من الفرس ، جلادي الهلينيين ؟ قد تكون هذه الفكرة أثارت الاسكندر في لحظة من اللحظات ، ونعلم أنها كلمة السر التي انتشرت على نطاق واسع بين أصدقاء الإسكندر ، ولكننا يجب ألاّ ننخدع بها . فالإسكندر ، في واقع الأحداث ، لم يتصرف كعدو ظاهر للحضارة و « الأمة » الفارسيتين ، فلم يحطم إمبراطورية داريوس ، ولكنه على العكس عمل جهده ليحافظ عليها لمصلحته الخاصة ، وليخلق حضارة مشتركة (وكانت ظهرت ملامحها في مدن إيونيا ، التي كانت تحت الحكم الفارسي) . وقد عرفت عنه سياسة التزاوج التي أعطى عنها مثلاً باقترانه من روكسانا[1] ، وتفرض عليه سياسة التروي أن يفعل ذلك ، لأنه ، بعدما أخضع ، على رأس جيش قليل العدد نسبياً بلاداً مترامية الأطراف ولم يصطحب معه من مقدونيا سوى نخبة عسكرية ، لم تُعَدَّ الإعداد اللازم للحكم ، لم يجد بدّاً من القبول

---

(1) ابنة أحد المرازبة الفرس ، وَلَدت للإسكندر ابناً بعد وفاته وقتلت هي وابنها هذا بإمر من كاسّاندر الملك المقدوني (المترجم) .

بالأُطُرُ والبنى الموجودة في البلاد المحتلة . واستمرت الإمبراطورية الفارسية ، ولم تصبح مرتبطة بأوروبا ، فظلت بجوهرها « آسيوية » . ومصر لم تفقـد أصالتهـا بل احتفظت بتقاليدها ، وهكذا سوريا وبابل وبلدان آسيا الصغرى التي احتفظت بآلهتها ولغاتها وعاداتها .

ومع ذلك لقد عمل الإسكندر وخلفاؤه على خلق مدن عديدة بنوها في قلب البلدان الآسيوية وليس فقط على الساحل البحري . هذه المدن كانت دولاً يونانية من النموذج التقليدي . لقد نقلت بعيداً عن بلاد اليونان (الهِلاّد) الثقافة والدين والفن والمثل الهلينية ، تبنت التنظيم القضائي المستعمل في اليونان . إنها مـدن ملكية تشكلت غالباً من جاليات مؤلفة من المحاربيـن القدماء والمرتزقة الذين تركوا الخدمة الفعلية ، كانت مرتبطة بالمؤسِّس برباط ديني يجعل منه نداً لأبطال الأساطير الذين كانت مرتبطة بهم مدن التقليد الدائم ، وكانت تتمتع بامتيازات إدارية ومالية . ولكنها أغلب الأحيان كانت تظل كجسم غريب في الوسط الذي غُرِست فيه . لقد كانت ، في أحسن الأحوال ، أمكنة اتصال وتلاقٍ مثل اسكندرية مصر ، أروع نجاح حققته مقدونيا . هناك تطور الفكر الذي أخذ جذوره ليس فقط من الهلينية ولكن من اليهودية والتقاليد المصرية المقدسة ـ أما هذه المدن الهلينية التي لم تكن مرتبطة بالوطن الأم إلاّ بعلاقات تتزامن يوماً بعد يوم ، استُوعبت شيئاً فشيئاً ، والفنون التي تطورت فيها تأثرت بالثقافة المحلية (خـالقة الفن اليـوناني ـ الهنـدي) ثم ذابت في محيطهـا الجديد .

وفي السنـوات التي تلت موت الإسكنـدر تقسمت إمبراطـوريتـه إلى ثـلاث ممـالك ، وإن الأراضي التي انفصلت فعلت ذلـك منطلقـة من واقـع التجمعـات الجغرافية والتقاليد القديمة أكثر من انطلاقها من صدفوية المعارك . ودخلت اليونان الأوروپية وجزر بحر إيجه ، مع بعض الإستثناءات ، في مملكة واحدة ، هي مملكة الأنطيغونيد التي حلت محل ذرية فيليپوس على عرش پلاّ في مقدونية .

كـان ملك مقدونيـا يحكم المدن اليـونانيـة التي ظلت ، نظريـاً ، « حـرة » ومستقلة ، وكانت السلطة الملكية تمارس هناك بعدة طرق تارة بواسطة أحزاب موالين لمقـدونية أُوصِلَت إلى الحكم واستمـرت بواسـطة دعم الملك ، وطوراً بـواسـطة مغتصبين وبالشروط نفسها . وفي المراكز الإستراتيجية الهامة كانت تـوضع بعض

الحاميات لإخضاع المدن التي قد تسوِّل لها نفسها الخروج على الطاعة ، وتاريخ أثينا في هذه الحقبة يبرز هذا الوضع بشكل كافٍ . فبعد انتفاضة تَلت موت الإسكندر ، (في 23 حزيران/يونيو 323 ق.م) أثارها الحزب الديموقراطي بزعامة هيباريد[1] ، وبعد سحق الجيوش الأثينية من قبل كاسَّاندر الذي كان يمارس آنئذٍ السلطات الملكية في مقدونية ، انتقلت حكومة المدينة إلى ديمتريوس الفاليري[2] الذي كان يعتمد على الحزب الأرستقراطي ، ولكن عندما وصل في شهر حزيران/يونيو 307 إلى آثينا أمير آخر هو ديمتريوس پُولْيورسِيتْ[3] طرد الحزبُ الديموقراطي الحاميةَ المقدونية من پيريه وأعلن « محرره » . وبعد عدة سنوات اضطر ديمتريوس پوليورسيت إلى مغادرة المدينة حيث عاد الأرستقراطيون إلى الحكم تحت إشراف كاسَّاندر . وأخيراً آل أمر مقدونية إلى ابن پوليورسيت المدعو انتيغون غوناتاس وظلت في حوزة ذريته حتى معركة پِيْدْنا[4] 168 ق.م عندما انهزم آخر ممثل للسلالة ، الملك پِرْسِيْه ، أمام القائد الروماني پول إميل .

وتشكلت في سائر المناطق اليونانية أحلاف تجمع مدناً قليلة الأهمية غالباً ولم يكن بإمكانها أن تحتفظ باستقلالها لوحدها . كانت هذه الأحلاف تضم جماعات عرقية قديمة أو بالأحرى جماعات ثقافية كانت عناصر مرتبطة بجملة من التقاليد الأسطورية أو باللهجات . هكذا تشكل الحلف الإيتولي الذي هو صيغة سياسية على النمط القديم الذي يسبق تطور الدولة المدينة ، إذ ليس هناك عاصمة قوية لكن فقط معبد إتحادي وقرى متفرقة . وكان للحلف الإيتولي مؤسسات سياسية شبيهة بمؤسسات الدول أي مجلس مؤلف من الرجال البالغين والقادرين على حمل السلاح ، ثم مجلس دائم وقاضٍ مسؤول عن تخطيط الشؤون الحربية . الجميع في هذا الحلف كانوا ميالين إلى الحرب . كانت إيتوليا أرض لصوصية وقطع طرق . وكان الحلف يسخّر قراصنة لخدمته . فهذه الظاهرة بعيدة عن المثال الأثيني والثقافة الإنسانية التي تبدو في نظر المحدثين (بشيء من الخفة) غير منفصلة عن الهلينية .

---

(1) خطيب يوناني (389 ـ 322 ق.م) .

(2) رجل دولة وخطيب يوناني أثيني (350 ـ 283 ق.م) ـ م ـ .

(3) ملك مقدونية (336 ـ 283 ق.م) ، (المترجم)

(4) مدينة مقدونية على خليج ترماييك ـ م ـ .

وتشكلت أحلاف أخرى في البيوسيا وأركاديا وفي الجزر ، ولكن مساوىء السياسة والتنافس بين الملوك والحروب المستمرة ضد الأحلاف الأخرى سبب زوالها بسرعة . غير أنه في البيلوپونيز نجحت المدن ذات التقليد الآخائي (المدن التي كانت تضم جماعات استقرت على هذه الأرض قبل مجيء الدوريين) بالإحتفاظ ، تحت اسم الحلف الآخائي ، بتنظيم قوي انضم إليه الإسبارطيون وملك مقدونية . وبالطبع كان أعضاء الحلف الآخائي الأعداء اللدودين للإيتوليين ، وفي البيلوپونيز نفسها جهد الآخائيون بوضع سائر الدول تحت إشرافهم .

الثقافة الهِلّينِسْتية

إن تاريخ اليونان الهلينستية ـ أي ما بين موت الإسكندر والفتح الروماني الذي لم يصبح فعالاً إلا سنة 150 ق.م ـ هو تاريخ حقبة مضطربة ، شكلت خلالها ، الفوضى وفقدان الأمن والحروب الدامية بين الملوك والثورات الأكثر دموية ، داخل المدن والأحلاف ، والمؤمرات التي لا نهاية لها ، شكلت كلها مفارقة فريدة مع وهج الثقافة التي فقدت خصوصيتها شيئاً فشيئاً واكتسبت قيمة عالمية .

لهذه الثقافة منابع في الماضي ، تطورت رغم كل شيء ونمت كما تنمو الأغصان على أرومة عتيقة سقط جذعها منذ أمد بعيد . وفي نهاية القرن الرابع كانت أثينا لا تزال العاصمة ، إنها استحقت ذلك من ماضيها ومن صروحها التي تخلد مجدُها ، وأحاطها الملوك بعنايتهم معتقدين أنهم يسهمون في هذا المجد إذا شيدوا بوّابة أو هيكلاً أو نصبوا تمثالاً في ظلال الأكروپول يحمل اسمهم .

وفي آثينا استقر الفلاسفة متبعين بذلك تقليداً قديماً ، وتابعت الأكاديمية رسالتها شارحة ومطورة أفكار أفلاطون محوِّلة إياها أكثر فأكثر نحو التشاؤم غير مقتنعة بمعرفة إلاّ معرفة الممكن . وتحتل مدرسة أرسطو ، المتفرعة عن مدرسة أفلاطون مركزاً مرموقاً ، على الأقل في نهاية القرن الرابع ؛ إنها العقيدة الرسمية للأرستقراطية الأثينية ؛ ومجدت ، من الناحية الأخلاقية ، مبادىء المدينة وقيمها ومثال المواطن « الخيرّ والجميل » ، سيد نفسه ، الإنساني الجبار المحجم عن تجاوز الحدود ، المحترم الآلهة لأن الدين القائم هو إحدى القوى الجبارة التي تدعم الوجود الإنساني وتحقق استقرار الدول ، ومن الضروري لهذا المواطن أن يعترف رسمياً بفكرة الله

كنموذج ومثال للخير والجمال ولا فرق بين أشكال هذا الإعتراف . وتتمثل الفلسفة اليونانية عندئذٍ في جيلها الثاني والثالث كنوع من التأمل في الازدهار الروحي لأثينا ، وكدليل على العظمة والتفوق ، وفي مجال الدستور كما في مجال الفنون والشعر ، بنوع خاص ، وفي البيان . هذه هي الفلسفة التي ينشأ عليها الفتيان أثناء خدمتهم العسكرية ، إنها فلسفة ديمتريوس الفيلاري تلميذ تيوفراست الذي كان هو نفسه تلميذ أرسطو ؛ إنها فلسفة الدولة التي كانت ترغب في أن تطبع في إذهان المواطنين الفتيان ، فكرة أن السعادة ، وبصورة أشمل ، تفوّق الأنسان (الإنسان المولود حراً والمنشأ تنشئة الأحرار) يَنْتُجان ليس فقط عن مزاياه الطبيعية وتفكيره ولكن عن اللقاء السعيد لهذه المزايا مع الظروف السياسية الملائمة ألا وهي وجود مدنية على رأسها حكومة صالحة وكفاية من الثروة لإعطاء سائر المواطنين الصورة المتناغمة لفكر متحرر من كل عمل قذر ومتسامح مع الجميع .

هذه الفلسفة التي وُفِّقت إلى اختصار الكثير من أوجه الهلينية كان لها تأثير السحر على المفكرين الرومان وعلى الأخص شيشرون ورجال الدولة المعاصرين لقيصر وقيصر نفسه الذين يدينون لهم بشيء من فكرة المدينة ـ الدولة . إن ما بقي من فلسفة أرسطو الأخلاقية والسياسية ، من هذا الفكر السوفسطائي القديم ، أثار في نهاية القرن الرابع ، ردة فعل يمكن وصفها « بالسقراطية » تجاه فلسفة إبيقور . وكان إبيقور ، تلميذ أرسطو ، ينكر أن كمال الإنسان أو تفوقه يتعلق ، من قريب أو بعيد ، بالظروف الخارجة عنه . إن الإنسان يكتفي بذاته ، ويجد في ذاته ، على ضوء وضوح حياته الساطع ، مبدأ هذه السعادة التي ليست سوى وعيه لتفرقه ، لفضيلته ، المحقق في كماله . ويضع إبيقور الخير الأسمى في اللذة ، ما يعني أن الكائن الخاص يحقق ذاته في اللذة وبواسطتها ، والعكس صحيح أيضاً إذ إن اللذة هي سمة هذا التفوق . العاقل وحده يمتلك اللذة ، ولكن هذه اللذة ليست متعة جسدية شهوانية نابعة من الحواس ، إن لذة كهذه هي زائلة ، متحركة ، ليست لذة في المطلق . لقد سبق أرسطو أن قال ذلك وإبيقور هنا يحذو حذو معلمه . اللذة بالنسبة إلى إبيقور ، هي لذة ثابتة ، مستقرة ، ساكنة ، هي وعي الكائن المنزه عن الألم وعن كل ما يحطمه أو ينزع إلى تحطيمه إذا أعطي أقل تسامح أو تساهل . . ومن الأنسب التكلم عن الصحو والصفاء أكثر من الكلام عن اللذة لأن الصورة الإبيقورية

الفضلى هي صورة هدوء البحر المتألق عندما تسكن الرياح . كان إپيقور المواطن الأثيني يحمل في أعماق ذاته صورة آلهة وطنه .

إن امتلاك هذه الحكمة لن يكون ممكناً إلاّ إذا طُردت قوى الشقاق من النفس ، وفي الدرجة الأولى الخوف من الآلهة الذي يسبب الغم . وإن هذا الخوف ينتج عن الجهل أمام ظواهر الطبيعة . والإپيقورية تبني الحكمة على معرفة الطبيعة ، وليس صحيحاً أن نردِّد ، كما قيل غالباً ، أن الإپيقورية هي بجوهرها فلسفة أخلاقية نسجت حولها ، كيفما اتفق ، فيزيائية ديموقريت ولوسيپ الذرية . إن إپيقور قد أعد نظاماً كاملاً للكون ـ كما فعل قبله أرسطو . هناك ما يسمى سياسة إپيقورية وجماليات ومنطق (يرفض الجدلية ، ولكنه يتبحر في شروط الوضوح المحسوس كمصدر وحيد للمعرفة) وهناك خاصة رؤيا شاملة للكون أكثر تكاملاً من رؤيا ديموقريت وأحدث وأكثر اهتماماً لأن تستجيب للحقيقة ، لتعطي ، مثلاً ، تبريراً تلقائياً لواقع الحرية الإنسانية ، هذا الواقع الضروري لبلوغ الحكمة والواضع في معاناة الحياة اليومية تحت تأثير هذا الضغط المزدوج ـ ضغط الإوالية الذرية الشاملة وضغط الحياة الأخلاقية ـ يتوصل إپيقور إلى تخيل مفهوم في غاية الجرأة ، كان هدفاً لانتقادات قاسية على مدى قرون ولكنه أصبح اليوم أكثر وضوحاً وهو تصور أن حركة كل جُزَيء مادي هي ، إلى حد ما ، صدفوية . وهذا ما عبر عنه لوكريس[1] ، في اقتباسه اللاتيني للإپيقورية ، بطاقة الحرية الكامنة في بعض الذرات . وبفضل لُوكْرِيْسْ ، الذي نَظَم في السنوات الأخيرة للجمهورية الرومانية ، شعراً إپيقورياً دعاه « في الطبيعة » ويمكن أن نسميه « في وجود كل ما هو موجود » . بفضله استطاعت تعاليم إپيقور ، التي رفضها الرومان ، على الأقل ظاهرياً ، بسبب الدور الذي تعطيه للذة ، أن تجتاز العصور وتستعيد زخمها في أوروپا عصر النهضة والعصر الكلاسيكي ، حيث أسهمت بشكل عظيم بتجديد الفكر العلمي . وبعد إپيقور ببعض السنين ، أسس في أثينا ، أحد القبارصة من أصل فينيقي يدعى زينون ، مدرسة دعيت الرواقية أو مدرسة الرواق ، لأنه كان يعلم تحت رواق دعي پوسيل (Poecile) . كان إپيقور يعلم في حديقة ضمن مُسَوَّرة صغيرة في جوار أثينا حيث كان يجمع بعض أصدقائه ،

---

(1) شاعر لاتيني (98 ـ 55 ق.م) صاحب كتاب « في الطبيعة » اعتبر الخوف من الآلهة سُمًّا للنفوس (المترجم) .

بينما كان زينون يعلّم في الساحة العامة ، ولهذا الفرق مغزىً كبير . إبيقور كان يقترح فلسفة للحياة الخفية ، عدوة للنشاط السياسي الذي يبعث القلق في النفس ، أما زينون الذي تأثر بالكلبيين ، وبطريقة غير مباشرة بسقراط (الذي كان معجباً به كثيراً ، كما تذكر « كلمات مأثورة » لصاحبها كْزِينُوفُونْ) ، فكان يتوجه إلى الجمهور ، داعياً الناس إلى الاصغاء إلى رسالته ، وعلى غرار إبيقور وسقراط كان زينون ينتقد قيم المعتقدات . إن تفوق الكائن البشري ، بالنسبة إليه أيضاً ، يكمن في فكره ، في رياضة عقله . وعلى مثال إبيقور أيضاً كان يؤسس فلسفة على مفهوم كوني . ولكن هذا المفهوم كان مختلفاً جداً . وفيما كان إبيقور ينكر كل تدخل للآلهة في آلية الكون ، كان زينون يرى في الأشياء ، في كل موجود تجسيداً للإله ، هذا الإله ائمادي كان الكائن ذاته المعتبر علة . لا شك في أنه كان مادة لأنه لا يمكن لشيء أن يتحرك إلاّ بانتقال الحركة ، والمادة واحدة قادرة على الحركة . ولكن « جسم الإله هذا » (الذي هو في الوقت نفسه نفس ، أي نفس الكون) هو في تحوّل دائم . اقتبس زينون جوهر فيزياء هْيراقليتْ . الله في كل مكان ، فتارة مادة ملتهبة ، قبل انطلاق دورة الحياة ، وطوراً مكثف إلى درجات مختلفة باختلاف تكون العوالم والسيارات والحيوان والنبات والإنسان . إن نفسنا إلٰهية ، تشارك في العقل الكوني ، وهي تماثل الكائن . العقل هو ناموس كل ما هو موجود ، وهو نتيجة فعل الوجود ، وله بطبيعته قيمة كونية كالكائن نفسه ، وقوام الحكمة الإنسانية البحث عن تفوق الكائن ، في حالة ما من حالات الكون ، وهي تتحول إلى معرفة وعدالة أيضاً (معرفة كل كائن بشكل خاص ومركزه في النظام العام) . إنها كذلك قوة (أو شجاعة) ، مقاومة معقولة لكل ما يحاول إثارة القلق في ذاتنا وفي الكون ، وهي أخيراً اعتدال ورزانة ورفض لكل ما يحملنا على التخلي عن مكاننا الصحيح في النظام الكوني .

هذه الفضائل الأساسية الأربع للرواقية لم تخطر ببال زينون . إنها توجد عند إبيقور ومصدرها التعاليم الأفلاطونية ، وصلت بواسطة أرسطو . واللافت هو أن جميع معتقدات العصر الهلينستي قد تقبلتها متحفظة عن أن تقدم لها تبريرات أو تفسيرات خاصة . إنها الأعمدة الأربعة للحكمة القديمة التي لم ترفضها المسيحية ، وربما كانت أحد أخلد انتصارات علم الأخلاق الإنساني ، نجد فيها من جهة فضيلتين للتأمل : المعرفة التي هي في المفهوم الروماني تعني الحكمة والتبحر في

الأشياء وفي مناهج الفكر ، والعدالة التي هي معرفة النظام ؛ ونجد أيضاً فضيلتين للعمل : الشجاعة (أو القوة) ، والاعتدال (أو القناعة) . ولكن هذه الفضائل ترتب تبعاً لأهدافها : اثنتان منها (المعرفة والقناعة) تهم الحكيم نفسه والاثنتان الأخريان تنطبقان على الآخرين . وهكذا تُنَقَذ الحياة الاجتماعية كما تُنَقَذ الحياة الداخلية . هذا النظام من الفضائل يحقق التوازن بين الفرد والمجتمع وهو بهذا المعنى يمكن أن يعتبر نتيجة اختبار طويل للعلاقات بين المواطن والدولة بين حقوق الفرد وحقوق الجماعة ، وهذه مسألة في غاية الأهمية في تاريخ الفكر الأوروبي .

تعتبر الفلسفات الهلينستيه بوجه عام ، وعلى الأخص الإبيقورية والرواقية ، فلسفات الوجود الداخلي ، نشأت في الوقت الذي اصبحت فيه الدول فقيرة ضعيفة قاصرة عن أن تقدم المُثل التقليدية في الحياة ، وحيث أصبح كل فرد ، بعد أن استثناه عملياً تطور الممالك من كل حياة سياسية حقيقية ، مضطراً للتفتيش بنفسه عن أسباب معيشته . ويخشى أن تكون هذه الفكرة الذكية ، التي يلجأون إليها غالباً ، خداعة . وليس صحيحاً أن الرواقية والإبيقورية تسببان للإنسان الإنطواء على ذاته . فالرواقيون يهتمون بالحياة السياسية ، ويتبرعون بتقديم النصائح للملوك ، ويؤكدون على أن طبيعة الإنسان تنطوي على ما نسميه اليوم الغريزة المجتمعية والتطوير الروماني للرواقية سيصبح سياسياً على نطاق واسع . وعلى الطريقة نفسها ، تعتبر الإبيقورية أن بلوغ الكمال الإنساني ـ أي لذته بالمعنى الفلسفي ـ لا يكتمل إلّا بالصداقة . ويسعى لوكريس إلى تثقيف صديقه ممْيُوسْ واجتذابه إلى الحكمة ، كما أن إبيقور كان يجمع تلاميذه في بستانه وعندما يفترقون كان يبعث إليهم رسائل مسهبة . إن أي فيلسوف يوناني أو بالأحرى روماني لم يعلِّم ، على أي مستوى من المستويات ، اعتزال الحياة أو الإنزواء : إن محاولة الإبتعاد عن الناس كانت غالباً أمراً واقعاً في تلك الأزمنة المضطربة ، كان يرفضها الفلاسفة كما يرفضها مؤلفو المسارح الهزلية ، لسان حال علم الأخلاق الجماعي ، على أنها انحراف النفس . إن كاره البشر تيمون الأثيني[1] أو بطل مسرحية « ديسكولوس » (العبوس) للكاتب ميناندر[2] تعبر أفضل تعبير عن النفور الذي يشعر به الناس من الإنسان الإنعزالي .

---

(1) فيلسوف يوناني (القرن 5 ق.م) سببت له مآسيه ومآسي مدينته كرهاً عميقاً للبشر ـ م ـ .

(2) شاعر هزلي يوناني (342 ـ 292 ق.م) صديق إبيقور (المترجم) .

هذه الإدانة لم تكن غائبة عن الفكر المسيحي وأسهمت في اعتبار المتنسكين في سبيل الله رجالاً إستثنائيين على هامش هؤلاء الذين يجتمعون في الصوامع .

ولقد برهنت الرواقية والإپيقورية ، مقابل ذلك ، على أن التفوق الإنساني لا يرافقه بالضرورة مطامح سياسية ولا يستلزم الممارسة الشخصية للسلطة أو المشاركة في الحياة العامة . إن المجتمع الإنساني منفصل عن « المدنية » أي عن مفهوم الدولة . لقد توصل الفلاسفة لتكوين فكرة المجتمع العالمي ، مجتمع الحكماء الذي لا يعرف الحدود المكانية والزمانية ، ومجتمع الناس ككائنات عاقلة طامحة إلى الحكمة أيا كانت الظروف التي يجدون أنفسهم فيها . هذه الأفكار التي تختلف مع الحقائق السياسية لهذا الزمن وجدت ترجمتها الكاملة في الإمبراطورية الرومانية ، عندما تأسست دولة عالمية اعتبرت قياساً إلى المدن والمجتمعات مساوية في امتدادها للمسكونة .

إنه في مجال الفن والأدب ، كما في المجال الفلسفي ، نشأ خلال العصر الهليني ، ولأول مرة ، المجتمع الحقيقي للهلينية . وابتداء من مطلع القرن الثالث ق.م . لم تعد الحياة الفكرية ، في أسمى مظاهرها ، وقفاً على مدينة واحدة عظيمة ، هي أثينا التي تعالت على الآخرين مثل طيبة وسرقسطة وبيلِه أو تارَانْتْ بتفوقها الصِّلِف . وتعددت المنتديات الثقافية ، فكل مملكة كان لها منتداها الذي ينافس المنتديات الأخرى . منافسة أثينا كانت الإسكندرية ، وهذه كانت تنافس پرغام وانطاكية . وكان الملوك يجتذبون إليهم العلماء والشعراء وكذلك البنائين والنحاتين ، وكانوا يحاولون ، بكل الوسائل (حتى بالقوة) الحصول على الكتب التي تزين مكاتبهم العامة . ويتقاطر أصحاب المواهب نحو المراكز العلمية وخاصة الإسكندرية حيث رعاية البطالسة تستضيف الشعراء والفنانين والعلماء في مركز العلوم (Musée) الذي انشأوه في المدينة ، قرب قصورهم . جاؤوا من جميع البلدان ، بعضهم من قيرينيا (ليبيا) مثل غالّيماكْ[1] والآخرون من صقلية أو من آسيا . وكان الكتاب ينقبون في التراث ويبحثون في الأساطير الغامضة في المدن الصغيرة وفي العادات القروية التي كاد أن يعفي عليها الزمن ، عن التجديد الشعري . شرحوا هوميروس ،

---

(1) شاعر نحوي وعالم يوناني (دفيريتا : 315 ـ 240 ق.م) قبل في مكتبة الإسكندرية وفي بلاط البطالسة ـ (المترجم) .

بحثوا في اللغة وفي مختلف اللغات واللهجات في بلادهم . وأخذ التبحر في المؤلفات الموجودة يأخذ أهمية تفوق أهمية تأليف كتب جديدة .

ويروح عالم الأسطورة ينفصل شيئاً فشيئاً عن عالم الدين . وإذا وضعت أناشيد للآلهة فإنها تقاريظ زخرفية ومشاهد خلابة أكثر مما هي صلوات مخلصة .

وبخلاف شعراء أثينا الكلاسيكية ونحاتيها ، قل اهتمام شعراء هذا الزمان وفنانيه بالعظمة الإلهية ، فكانوا يفضلون ما يمس ألوهية الإنسان وقصص « الطفولة » (الخاصة بِزَفْس وأبولون وهِرْمِسْ) وقصص الغرام وخاصة عندما لا تشرّف الآلهة . إن أكثر الآلهة الذين كانوا يكرمونهم ويحتفلون بأعيادهم بشغف هم أفروديت وديونيسوس ، قد يكون تأثير البلدان السامية (عبدة عشتروت) يفسر ذيوع صيت هذه الإلهة ، التي كانت مدن اليونان القارية ، حتى ذلك التاريخ ، تنظر إليها بشيء من الريبة . أما شهرة الثاني فتبدو أنها لم تكن على علاقة مع المستجدات الدينية التي أخذها البطالسة الذين وجدوا في عبادة إله الخمر أيضاً ، رمز الموت وتجدد الحياة ، سبيلاً لإعطاء صيغة هلينية للشعور الديني ذي الطابع المصري الخاص . لقد غدا الإله ديونيسوس عندهم يشبه الإله أوزيريس المصري كما أنه تقمص شخصية سارابِيْس[1] الذي يدمجها الأسياد الجدد بشخصية إيزيس . وتحت هذا التأثير وجدت الآلهة الهلينية أصولها الشعبية والطبيعية ، وتغلبت العبادة الشعبية على العبادات السياسية أو أنعشتها . وكان يعلن في كل مكان عن ظهورات إلهية تُحيي ذكراها بتشييد المعابد وتكريس الأعياد . فعلى امتداد السنة ، يحج المؤمنون إلى هياكل عجائبية . وهناك أماكن مقدسة مثل ديلوس[2] وباقوس[3] يقصدها الحجاج أكثر من الآلهة التقليديين الذين بدأ نجمهم بالأفول . كان كل حوض إيجه يشكل مسرحاً لنشاط ديني حار ذي مظهر شعبي ، فكل تاجر وكل مسافر كان يجهد باستدرار بركة هذا الإله أو ذاك يمحضه الثقة والإيمان . هذه العبادة المهووسة تشكل مع عبادة الفلاسفة نقيضاً واضحاً . ويقال إن أم إبيقور كانت تتاجر بأوهام الجماهير ـ ربما كان ذلك خرافة لفقتها النوايا السيئة لبعض الفلاسفة المنافسين ولكنها ترمز إلى وقت

---

(1) إله أدخله بطليموس إلى مصر ليوحد الدينين المصري واليوناني (المترجم) .

(2) جزيرة يونانية ـ م ـ .

(3) اسم مدينتين في قبرص ـ المترجم .

يجب أن يبدأ فيه كل شيء من جديد ، وقت تبدو فيه انتصارات الفكر هشة وسطحية وسط عالم مشدود إلى جميع الاتجاهات . وحيث الشعب يحيي ديمتريوس پوليورسيتْ كإله ، إذ يسمح له بتدنيس هيكل أثينا وإذ يتوسل بطيبة خاطر إلى إلهة الحظ (تيكِهْ) أكثر مما يتوسل إلى عناية زفس . وحيث العبادة القديمة للحرية يحل محلها الخضوع للملوك الغرباء ، وحيث الفلاحون يستنفدون قواهم في زرع أرض قاحلة . كل هذا والمال الحاصل من الفتوحات في آسيا كان يوفر لسكان المدن مظاهر الفن وينمي الميل إلى الكسب وكانت أثينا حينئذٍ أي في نهاية القرن الثالث ق.م . تقدم صورة عن حضارة اكتسبت مساحة واسعة وتمثلت في بلدان بعيدة جداً بعضها عن البعض الآخر ولكنها خسرت دعامتها التقليدية أي دعامة المدينة ـ الدولة . واليونان الحقيقية المفتقرة المتناقصة السكان كانت تعيش على الذكريات . إن وهج الماضي ، الذي يمجده الحاضر ، أسهم في جفاف الخلق والإبداع . لقد تعبت من هوميروس وتعبت من الفن « الكلاسيكي » وتعبت من مآسي الحاضر وملاهيه وراحت تفتش عن أشكال جديدة تستجيب مباشرة للمجتمعات التي أحيت القدماء . أهو الانحطاط ؟ إنها على الأقل ، إبوتقة يفقد المعدن فيها شكله قبل أن يكتسب شكلاً جديداً .

الفصل الثالث

العنصر الإيطالي (1)

رومـا

العالم الإيطالي

عند إيجازنا تاريخ الهلّينية التقينا الرومـان أكثر من مـرّة . لقد نمـا العالم الروماني وتوسع على موازاة العالم الهليني . وإنه لمن الخطأ الفادح والسذاجة أن نقول إن الرومان أخذوا عن الإغريق أسس الحضارة التي دعيت فيما بعد بالحضارة الأوروبية . فهذا الأمر يعتبر غير صحيح من الناحية التاريخية . فالهلّينية على ما يبدو عرفت كثيراً من الأشكال وبرزت في عدة أمكنة قبل أن تحقق وحدتها . وعلاوة على ذلك فإن الحضارة الإيطالية بدأت تتكوَّن في وقت لم تكن الهلّينية قد وُجِدت بعد إلاّ في أشكالها البدائية جدّاً . يبدأ التاريخ الروماني بالنسبة إلينا في أوائل الألف الأول قبل الميلاد ، في حين كانت إيطاليا الشمالية والوسطى يسكنها بمجملها شعب يسمى الشعب الڤيلاّنوڤي[1] ، أو بتعبير أدق عندما ظهر في هذه المنطقة الفسيحة نوع من الثقافة المدعوة ڤيلانوڤية تتميز بوجود قارورة مدفنية مؤلفة من قسمين مخروطيين يستعمل أحدهما غطاءً للثاني . فالڤيـلاّنوڤيـون (إذا جاز لنـا التحدث عن شعب واحد) كانوا يحرقـون موتـاهم ، فيما كـانت الشعوب السـابقة تـدفن موتـاها في الأرض . والمسلَّم به غالباً أن هذه الثقافة الڤيلاّنوڤية أتت بها إلى إيطاليا موجة أو أكثر من موجات النازحين الهندو ـ أوروبيين ، أجداد هؤلاء ، وكانوا في العصور التاريخية يتكلمون لغات أو لهجات هندو ـ أوروبية ـ قريبة من اللغة اليونانية ـ في شبه الجزيرة بكاملها : فهؤلاء ليسوا اللاتينيين الذين يشكلون الفئة الأضعف من الناحية العددية ، ولكن الشعوب التي عرفناها فيمـا بعد في جبـال أبِّنين وتدعى الشعـوب الأُمْبْرِيَّـة

---

(1) تنسبة إلى قرية ڤيلاّ نوڤا الواقعة قرب مدينة بولونيا الإيطالية اكتشفت فيها 1883 مقبرة جماعية يعود تاريخها إلى الألف الأول ق.م (م) .

(Ombriens) (من المنحدر التيراني إلى المنحدر الأدرياتيكي ، في مرتفعات پيروز وأريزُّو) والأوسك ، جنوبي لاتيوم وفي كل البلاد التي تمتد حتى سهل تارانت وفي الجبال الساحلية حتى أقصى نقطة في إيطاليا . وإلى هذه السلالة من اللغات ينتمي الصقليون (Sicules) الذين هجروا إلى وسط إيطاليا أثناء الاستعمار اليوناني وكذلك الڤِينِيْتْ (Venètes) على الشاطىء الشمالي للأدرياتيك وعند مصب نهر الپو . ومن الأكيد أن حضارة لاتيوم كانت ، في الوقت الذي بنيت فيه روما ، قريبة الشبه بالنموذج الڤيلاُنوڤي ، ولكن الموازنة بين الحضارة المادية واللغة ليست دائماً إلزامية . إننا نعرف ، مثلاً ، أنه في العصور التاريخية كانت بعض العائلات الرومانية العريقة تدفن موتاها ، بينما الأكثرية الساحقة كانت تحرقهم . ومع ذلك فالجميع كانوا يتكلمون لغة واحدة .

ومن المرجح ، واقعياً ، أن الأرض الإيطالية كانت ، في القرون الأولى ، من الألف الأول ق.م . مكاناً اندمجت فيه شعوب مختلفة تفاعلت وتطورت بسرعة ، ويمكننا أن نستشفُّ هذه الطريقة عند الإتروسكيين الذين ظهرت آثار حضارتهم من توسكانا حتى مصب الپو وباتجاه الجنوب حتى لاتيوم وكامپانيا ابتداءً من القرن الثامن ويعتقد البعض أن الشعب الذي ترك الأبنية « الإتروسكية » (منها قبور مزينة بجدرانيات ونقوش وآنية شبيهة بالآنية اليونانية ومرايا محفور عليها مشاهد ميتولوجية وحلى ، ومدن بكاملها عثر عليها على أثر إجراء حفريات جديدة في مَرْزا بوتّو قرب بولونيا وفي بُولْسِينا) ، إن هذا الشعب قد جاء إلى إيطاليا مكتمل التنظيم ، ويظن البعض ، متأثراً بقدامى المؤرخين ، أنه جاء من ليديا عن طريق البحر ، ويقول آخرون إنه جاء من الشمال بطريق البر وانتهى به المطاف إلى الاستقرار في توسكانا . ويميل المؤرخون وعلماء الآثار ، في أيامنا هذه ، إلى الإعتقاد ، أن هذا الشعب أو بالأحرى هذه الحضارة التي عرفت باسمه هي نتيجة صيغة جديدة ، نضجت في إيطاليا نفسها تحت تأثيرات مختلفة .

ويستنتج علماء الآثار أنه لا يوجد في الطبقات الأرضية التي يحللونها أي انقطاع بين الحضارة الڤيلاُنوڤية والحضارة الإتروسكية ، بل على العكس من ذلك فإن الإتصال بينهما تام . لقد عُثِر على مدافن جماعية ڤيلاُنوڤية في كل الأماكن التي ازدهرت فيها مدينة إتروسكية . والتفسير الأبسط المعقول يحمل على الإعتقاد أن





8 - احد مشاهد الصيد

الثقافة الإتروسكية هي نتيجة تفاعل وتوليف بين التقاليد الإيطالية الڤيلاّنوڤية ، التي هي نفسها مركبة ، وبين الروافد الآتية من الشرق مع بعض فئات المهاجرين الذين وصلوا في نهاية القرن التاسع ق.م . ولقد ذكرنا كيف أن هذه الجماعة كانت تنتمي إلى شعوب البحر ، غير أن افتراضاً كهذا لا يخلو من المخاطرة ، ولكن إذا تأكدت هذه الفرضية فمعنى ذلك أن هجرة الطوروشا (Turusha) تكون قد دامت أكثر من ثلاثة أجيال وأن وجودهم يكون قد استمر في إيطاليا، بشكل مستتر، عدة أجيال، الأمر الذي لا يمكن فهمه .

ومهما يكن من أمر ، لقد اكتشف في إيطاليا ، في القرن الثامن ، حضارة مادِّية مشرقية خاصة بشعب يتكلم لغة هي بالتأكيد ليست هندو ـ أوروبية (بالرغم من أننا لا نعرفها إلاَّ بشكل مشوَّه ، لقد عرفت معاني بعض الكلمات فقط) ، وعرفت بنيتها الإجتماعية في العصور التاريخية ، طبقة من كبار الملاكين يسيطرون على شعب من الفلاحين حوَّلهم الرومان إلى عبيد . وكان الشعب الإتروسكي مقسَّماً إلى مدن لها كيانات الدول المستقلة ، لكل منها عباداتها وعاصمتها . وكانت هذه المدن مرتبطة باتحاد ويجمعها معبد إتحادي . يشبه هذا التنظيم إلى حد ما بعض المدن ـ الدول اليونانية ولكنه يبقى مختلفاً نوعاً ما ، كي لا نتحدث عن اقتباس الإتروسكيين عن الهلينيين .

اللاتينيون

وكان يعيش على شواطىء بحيرة ألبا (Albe) في لاتيوم شعب تعرفنا إليه بفضل مقبرة جماعية أنشئت على تلة تشرف على البحيرة ، كان هذا الشعب يحرق موتاه ويعيش حياة رعوية وينتمي إلى مجموعة الشعوب التي استقرت على الهضاب الممتدة من تلال الأبِّنين نزولاً نحو البحر ، إلى الجهة الجنوبية من نهر التيبر . كانت هذه الشعوب قد تجمعت في قرى منذ وقت قصير ، ويبدو أنها كانت تخضع لسلطة ملك واحد وتعبد إلهاً واحداً ، هو جوبيتير اللاتيني الذي يرتفع معبده على ذروة في المنطقة ، هي قمة « جبل ألبانوس » الذي يشرف على بحيرتي نامي وألبا . ولدى هذا الشعب (الذي دعاه الرومان فيما بعد « اللاتين القدماء ») حُفِظت وبواسطته انتقلت التقاليد الدينية والإجتماعية وكذلك لغة المهاجرين الهندو ـ أوروبيين .

للحقيقة أننا لا نملك الكثير من المعلومات عن هذا الشعب اللاتيني السابق

لروما ، وأن ما نقوله هو وليد فرضيات . وما يبدو هو أن النظام الإجتماعي كان مبنياً على الطبقة الشعبية ، العشيرة العائلية التي يسودها الأب ـ رب العائلة . هكذا يبدو أقدم شكل للمجتمع الروماني في عنصره اللاتيني . تتألف الجماعة من عدة عائلات تُقَسَّم بينها الأرض التي لم تعد تجزأ بكاملها من جديد . إذ يبقى القسم الأكبر منها مشتركاً يخص المجموع (وقد أصبحت فيما بعد ملكاً جماعياً) . وكل عائلة من ضمن هذا الشعب تملك قطعة أرض يمكن انتقالها بواسطة الإرث ، تحيط بالمسكن وتستخدم لإنتاج الخضار التي تشكل مع الطرائد ولحوم الخنزير التي تربى في الغابة العنصر الغذائي الأساسي . ويجب أن نضيف إلى ذلك بعض الحقول المزروعة قمحاً ولكنها تخص عامة الشعب . ونحن هنا أمام مجتمع يحتفظ بالكثير من حياة الترحل ولكنه بدأ يرتبط بالأرض .

ومن تقاليد الترحل ، في هذا المجتمع ، مبدأ الهجرة الذي أوصل هذه الشعوب إلى لاتيوم ، التقليد الذي يفرض على الشباب البالغي سن الرجولة أن يذهبوا لتملك أراضٍ جديدة في أماكن بعيدة . إن هجرة الشباب هذه هي تلقائية ـ فالرجل الذي يتميز بالجرأة والإقدام يجمع حوله بعض الرفاق للبحث عن الثروة في مكان آخر ـ وتأخذ أحياناً شكل مراسم تدعى « الربيع المقدس » . ومن أجل التخلص من كارثة أو وضع حد لوباء أو لحرب طويلة الأمد ، يعمد الآباء إلى التضحية للإله مارس ـ إله الشباب والربيع ـ بكل ما ولد أو سيولد تلك السنة . تقدم الحيوانات الصغيرة ذبائح لله . وعندما يصبح الفتيان في عمر السفر والمغامرة يرسلون لتأسيس قرية جديدة . وإن ما كان يسمَّى « الربيع المقدس » وما تأكد لدى السابيين من سكان الجبال ، لم يجهله الرومان في غمرة العصور التاريخية . ويمكن القول إن رحيل الفتيان (تستثنى الفتيات) كان يحتمه غالباً نظام الأبوَّة القاسي الذي يجعل الأبناء تحت سلطة آبائهم الصارمة .

وظل التقليد الأبوي (البطريركي) متبعاً في الدولة الرومانية واستمر طويلاً ، مثيراً صعوبات كثيرة ، ولكنه أسهم في إعطاء القانون الروماني أصالته وطبع التاريخ القانوني في أوروبا بطابعه الخاص . وكان من نتيجته أنْ حدَّ من تدخل الجماعة في ما يعود لرب العائلة من حقوق ؛ وقلص من سلطات الدولة إلى حد كبير . وكان الشعب الروماني يبدو قلقاً دائماً من السلطة المركزية ، أيًّا كانت وكان يتهمها بأنها

ظالمة طاغية ؛ وكان يخشى أن يبرز أحد الرجال بين القادة الآخرين وينتقص من « الحرية » أي من سلطة سائر القادة .

ويُعْتقد ، من أجل هذه الأسباب جميعها ، أن المِلك كان في قرى اللاتين القدماء ، كاهناً وممسكاً بالسلطات المقدسة (وهذا ما عرف في تقليد التاريخ الروماني عن الملك نوما ، ثاني الملوك بعد رومولوس المؤسس) ، وتميزت الحياة الجماعية القروية بمراسم مُعَقَّدة من أجل الحصول على تعاقب سعيد للفصول . ويحتفظ التقويم الروماني بكثير من الأعياد . منها عيد الباريليا الواقع في 21 نيسان/أبريل والمختص بتطهير القطعان (وقد أصبح الذكرى السنوية لتأسيس روما) ودورة أعياد البذار ونمو القمح ونضجه وأخيراً عيد الحصاد . ثم دورة أعياد الخمر الذي كان يعتبر ويعامل كسائل مقدس له خصائص سحرية ويوضع تحت رعاية جوبيتير أعظم الآلهة وإله السماء والحكمَ الشاهد على كل شيء . وكانت الغاية من بعض الأعياد إلتماس الحصول على بعض القوى الطّبيعية ووضعها في خدمة الجماعة ؛ والألعاب التي كانت أوّلاً عبارة عن سباق الخيول ، إذ كان يذبح الحصان الفائز ويحفظ دمه المفعم بالقوة ، التي حققت له الإنتصار ، في منازل الشعب .

ويبدو لنا (استناداً إلى بعض الإفتراضات والاستنتاجات) أن هذا المجتمع اللاتيني الأول السابق لتأسيس روما مدين بوحدته لديانته أكثر مما هو مدين لبنيته الاجتماعية التي كانت تشجع على فدرالية الشعوب ، هذه الفدرالية التي تمثلت (بمجلس الآباء) .

بداية تاريخ روما

يؤكد التقليد الروماني أن روما أسسها رومولوس ابن إحدى الأميرات التي تنتمي إلى عائلة ملكية والإله مارس . وقد أُلقي رومولوس وأخوه التوأم ريموس ، من قبل عم أبيهما الحسود ، على شاطىء نهر التيبر ، فرضعا لبن ذئبة ثم عثر عليهما أحد الرعاة ورباهما كأولاده . وبعدما أكتُشِف أمرهما انتقما من مضطهديهما ثم ذهبا وأسسا مدينة في المكان حيث أنقذهما ، بطريقة عجائبية ، تدخل أبيهما السماوي .

فهذه الأسطورة التي هي ثمرة إعداد كثير التعقيد ، في وقت كانت فيه الخرافات اليونانية الخاصة بتأسيس المدن تقدم الكثير من النماذج للشعراء

والمؤرخين ، ليست أقل مغزى تاريخياً منها . والنتائج التي توصل إليها علماء الآثار الذين لا يفتأون يستنطقون أرض روما تؤيد فكرة أن مؤسسي روما الأولين هم أقرباء اللاتين الذين استوطنوا منطقة ألْبَا ؛ هناك مجموعتا خصائص متشابهتان في كلتا المنطقتين ؛ حتى إن التاريخ الذي يقترحه المؤرخون الرومان ، التاريخ المقدر لسنة 753 ق.م عندما شق رومولوس ، في 21 نيسان/أبريل ، الثلم المقدس حول المكان الذي بنيت عليه روما ، ليس فادح الخطأ حتى لو حسب ، بعد ذلك بعدة أجيال استناداً إلى مطابقة تسلسل الأحداث التاريخية مع حوليات المستعمرات اليونانية في إيطاليا . وبالمقابل فإن حدث التأسيس نفسه ، تلك المأثرة الطقوسية التي شيّدت سور مدينة تحت أنظار الآلهة ، لم تُرجَع إلى تاريخ قديم .

ويرجح ، استناداً إلى معلوماتنا الراهنة ، أن استيطان روما حدث تدريجاً ، وربما على امتداد القرن التاسع أو القرن الثامن ق.م . وقد استوطنها شعب يمارس إحراق الموتى ويعيش من رعي المواشي وجمع الثمار البرية ، وقد استقر على منحدرات التلال المشرفة على منخفض الفورم (Forum) (أي الساحة العامة) أي على المنحدرات الشمالية لمرتفعات پالاتان[1] (Palatin) وڤيليا[1] (Vélia) وأوپيوس[1] (Oppius) وڤيمينال[1] (Viminal) وربما أيضاً منحدر إسكيلان[1] (Esquilin) . وكانت عندئذٍ لا تزال « قرى » وليست مدينة متكاملة . وكان الموتى يدفنون لبعض الوقت في الساحة العامة . وقد وجدت قبور على تلة پالاتان الأمر الذي ينفي اختيار هذه التلة أوّلا لتكون مقراً للمدينة ، كما يقول التقليد الرومولي ، لأن القاعدة المطلقة في الدين الروماني السابق كانت تمنع دفن الموتى داخل المدينة .

واستمر هذا الوضع حتى نهاية القرن الثامن وبداية السابع . ثم توقفت عمليات الدفن في الفوروم وكأن المدينة قد أحاطت به من جميع جوانبه . إن أساسات روما وضعت ، لا شك ، في تلك المرحلة . ولم يحدث ذلك على تلة الپالاتان ولا بعناية بطل آتٍ من ألْبا ولا من البلاد اللاتينية ، ولكنه كان عملاً إدارياً ودينياً ومن وحي إتروسكي ؛ وإن ما كان حتى ذلك التاريخ حِلْفا بين القرى المبنية

(1) وهي بعض منحدرات روما السبعة .

على التلال ـ جبال روما السبعة ، الذي كان يُحتفل به كل عام وكان يتضمن مسيرة تجتاز المؤسسات القديمة السابقة لتنظيم المدينة . وربما بدت روما القديمة كصورة مصغرة للحلف اللاتيني الذي حل فيه جبل ألبانوس محل جبل الكاپيتول . وعلى جبل الكاپيتول كان جوپيتير يرفع عرشه . إن القرابة بين هذين الإلهين لم يتنكر لها الرومان ، وحتى أيام الإمبراطورية لم يكن رئيس الدولة يتخلف عن الإحتفال بعيد جوپيتير ألْبا كأحد أيام البطالة .

ومن المحتمل أن يكون تأسيس روما يعود إلى الوقت الذي خضع فيه موقعها مع موقع القرى المتفرقة للتأثير الإتروسكي . ويمكن تمييز عناصر الأساسات الهندسية في الفورم بالذات ،°حيث يلتقي ، على زاوية قائمة ، شريانان عظيمان في المدينة : الديكومانوس الذي يتجه من الشرق إلى الغرب والكاردو الذي يعتبر المحور الجنوبي ـ الشمالي . تحول الأول إلى ما يسمّى بالدرب المقدسة ، ويدعى الثاني ، من شمالي الساحة باسم شارع أرجيليت ومن جنوبها باسم شارع ڤِيلاَبْرِ وهو تكملة للأول . وعند ملتقى هذين الشارعين يرتفع معبد ڤِيسْتَا ـ إلهة العائلة والموقد عند الشعب الروماني ـ ونشاهد كذلك الريجيا ـ المحلة التي كان الملك يمارس فيها عمله المقدس . وإذا كان الأمر كذلك تكون روما كدولة ، مع قلعتها المقدسة التي تحتوي منطقة يتجلى فيها الآلهة تبعاً لقواعد تختلف عن القواعد التي يجرون بواسطتها أحكامهم في سائر أنحاء العالم ، تكون روما هذه مدينة إتروسكية . وهذا لا يعني أنها مدينة غريبة عن العالم الإيطالي ، أو عنصر مستورد بالقوة إلى قلب حضارة وُضِع حدّ لتقاليدها . وإذا كان صحيحاً أن الحضارة الإتروسكية ، في نهاية القرن السابع ق.م . كانت ظاهرة إيطالية ناتجة عن انصهار ثقافي شبيه بذاك الذي عمل على تكوين الهلينية ونجاحها ، فإن روما لا تتوانى عن البروز كمحطة منطقية في التاريخ الإيطالي ، محطة يتجذر ، خلالها ، نهائياً ، مجتمع كان حتى ذاك التاريخ قليل التعلق بالأرض التي يشغلها ولا يستجيب لإغراءات الترحل ويغيِّر مصيره إلى الأبد .

والمؤرخون اليوم أقل ميلاً مما مضى إلى أن يرفضوا بالجملة الرواية التقليدية عن أيام روما الأولى على أنها خرافة . وليس فقط إننا حددنا ، فعلم الآثار يؤكد ، إلى حد ما ، تفاصيل هذا التقليد التي هي من اختصاصه . ولكن تسلسل الملوك

الذي يعرفه هذا التقليد يتفق مع ما نعلمه عن سائر إيطاليا . وليس من المستحيل أن السلطة كانت في نهاية القرن السابع تقريباً (ويذكر التقليد سنة 616 ق.م) في روما بين يدي لوكومون الإتروسكي الأصل في مدينة تركينيا . وقد حكم هذا الرجل تحت لقب التركيني (نسبة إلى تركينيا) مستهلاً بذلك حكم سلالة إتروسكية أعطت المدينة أطرها السياسية شبه النهائية ، لأنه ينسب إلى الملك سرڤيوس ، خليفة التركيني ، تأسيس الطبقات التي تدفع الضرائب وإلغاء تقسيم الشعب إلى ثلاث قبائل (تبقى طبيعتها غير أكيدة ولكنها كانت تتشكل على الأرجح من مجموعات قرى) حلت محلها قبائل مالكة للأراضي حيث يرتّب المواطنون بحسب ممتلكاتهم .

ومن الممكن أن تتغلب الملامح الرمزية على الحقيقة التاريخية بالنسبة إلى الملوك أسلاف التركيني وهم رومولوس ونوما پومپيليوس وتولّوس هوستيليوس وأنكوس مارسيوس وأكثرهم أسطورية بالتأكيد هو رومولوس ، إنه المؤسس ونصف إله . وإذ ولد من صلب مارس واختارته الآلهة ليتمم عمله ، انتهى به الأمر إلى أن يُرفَع إلى السماء حيث يصبح هو نفسه إلهاً باسم كيرينوس . إنه ، على ما يبدو بوضوح جلي ، رمز « الجماعة البشرية » (الكيريتيون ، اسم يطلق على سكان روما في حالة السِّلم) ؛ إنه بطل لاتيني ؛ والمقام الرفيع الشأن الذي نسب إليه يشهد على العز الذي بلغته المدينة بسبب العناصر الإتنية التي هي من أصل لاتيني ، ربما كان هذا المكان السامي هو قرية تأسست على قمة جبل پالاتان . والجدير بالملاحظة أن حكم رومولوس ، في الرواية التقليدية لا يتضمن إلاّ القليل من الأحداث التاريخية ، باستثناء الأحداث التي سببها تأسيس المدنية التي يعتبر بعضها ، كخطف الشعب السابيني ، بمنزلة خرافات إتيولوجية . وكذلك نوما الملك - الكاهن كان على الأخص مشترعاً . ويضاف إلى هذه الملامح ، التي جعلت منه ممثلاً لطبقة اجتماعية هي طبقة الكهنة ، سمة إضافية ، هي أن كل المؤرخين يصرون على أن نوما هو سابيني وأنه يمثل عنصراً آخر من العناصر الإتنية التي تتألف منها روما . وإلى الرمزية الوظيفية يضاف رمزية عرقية . وفي عهد نوما أيضاً لم تجْرِ أحداث تاريخية هامة . ولكن كل شيء يتغير مع هوسيليوس الذي هو محارب و « منجم » . وأخذ المؤرخون يشيرون إلى التطور الذي حققته العظمة الرومانية . وتستمر المسيرة نفسها مع أوكوس مارسيوس الذي أُولي الشرف بأن يؤسس ، في موقع روما ، قرى

استوطنها سكان الضواحي اللاتينية القديمة التي هدمها هو . لقد بلغنا هنا ظاهرياً ، المرحلة الأخيرة السابقة لروما ، المدينة المنظمة ، إنها مرحلة الكونفدرالية . وهكذا نصل إلى مرحلة الإعتقاد بأن المدينة ، المدينة ـ كدولة وككيان أدبي وديني لم تبدأ إلا مع التركيني .

بنية سياسية واجتماعية رومانية

حدث الكثير من التقلبات خلال فترة الحكم الملكي التي دامت قرنين ونصف القرن ولقد سبق لنا أن ذكرنا كيف غير سرڤيوس تاليوس البنية الإدارية للشعب الروماني ، فالغى نظام العشائر القديم وأنشأ تقسيماً مزدوجاً ، أحدهما يضم العشائر المالكة للأراضي . والآخر مؤلف من الطبقات تبعاً لثرواتها ، الأمر الذي يعني أن المدينة تحولت إلى دولة ذات مساحة محددة ، وأن سكان المدينة ليسوا هم وحدهم سكان روما ، ولكن العائلات المقيمة على الأراضي خارج روما كانت تشارك أيضاً في الحياة العامة ، والعائلات التي كانت تسكن القرى خارج حدود المدينة كانت ، في أكثر الأحيان ، هي العائلات الأرستقراطية اللاتينية وقد اندمجت بها أيضاً العائلات ذات الأصول المختلفة وخاصة السابينيين . حتى إن سكان المدينة نفسها لم يكونوا يتميَّزون بطباع واحدة . ويمكن الإعتقاد بأنهم كانوا بأكثريتهم من الحرفيين والأفراد الذين استوطنوا المدينة ولم ينتموا إلى العشائر . هذه البنية الاجتماعية المزدوجة تعني من ناحية أنه ، في روما الجمهورية ، كانت العشائر المدنية تشمل تقليدياً المواطنين الأحقر نسباً في حين أن العشائر الريفية كانت ذات أصل أرستقراطي . ومن المحتمل أن يكون هذا الفرق في أصل تقسيم الشعب الروماني إلى فئتين كبيرتين ، هما الأعيان والشعب .

وطالما طُرِحت تساؤلات حول معنى هذه القسمة وحول أصولها . ويدّعي الأعيان أنهم يمثلون أسمى التقاليد الدينية وربما أقدمها . وكانوا لا يزالون حتى عصور متأخرة يمارسون الوظائف الدينية وهم وحدهم يتمتعون بحق استخدام العرافة والكهانة ، باسم الدولة . وليس الأعيان هم بالضرورة أعضاء العائلات الأغنى في روما ولكنهم أبناء العائلات الأعرق نسباً ومن المسلَّم به أنهم كانوا يمتّون بصلة إلى الأباء ، زعماء العشائر الذين شكلوا قسماً من مجلس الشيوخ منذ عهد الملوك الأوَل . وكان للشعب آلهته الخاصة ، أهمها : سيريس (Cérès) إلٰهة الخصب التي

شُيِّد معبدها على تلة أفونتان قرب هيكل لِيْبَرْپَاتِرْ (الموافق لديونيسوس) وربما كان ذلك نواة للتنظيم السياسي الديني ، إذا صح أن القضاة الأولين الذين هم من الشعب وحده والقضاة وكهنة هيكل سيريس ، كانوا يتمتعون بصلاحية تنظيم الشؤون الخاصة بالشعب . يتمثل تنظيم المجتمع الروماني ، منذ عهد سرڤيوس بثلاث طبقات مختلفة متراكمة . الأولى أساسها المنزل والثانية الثروة والثالثة الإنتماء الديني إلى حد ما . ويمكن أن نلاحظ كذلك بنية رابعة موروثة ربما عن الإتحاد السابق للعصر الروماني ، بين القرى التي كانت موجودة قبل تأسيس روما ، إنها الكوريات (Curès)[1] وهي مجموعة محلية ذات غايات دينية . وتقابل هذه الكوريات وحدة التقسيم الإداري الخاص بأفريقيا والمسماة دِيْمْ (Dème) وفيها تعالج المسائل المتعلقة بالوضع القانوني للأفراد . ولقد وجد في روما « مجلس كوريات » . ومنذ أيام سرڤيوس قُسِم الشعب إلى أُطُر مئوية ، وهو تنظيم عسكري داخل كل طبقة تدفع الضرائب . وكان هذا التجمع الجديد المسمى لجان المئة مكلفاً ، في بعض الحالات ، بإصدار الأحكام القضائية . ويلاحظ أن « القانون الأساسي » الروماني الذى كان موضع إعجاب المؤرخين القدماء، تكوَّن على مراحل متتالية، ولم تكن البنود الجديدة لتُلغي المؤسسات القديمة بل كانت تزكّيها وتحدِّد مجال تطبيقها ، هذه البنود الجديدة كانت تفرضها الظروف الطارئة على المواطنين والتطور الإقتصادي ونمو السكان واتساع الأرض وحاجات الدفاع . فمنذ عهد سرڤيوس كان الشعب الروماني مستعداً لحمل السلاح . وكانت الأُطُر الشعبية هي نفسها أُطُر الجيش . فعندما تجتمع اللجان المئوية في ميدان مارس[2] كان يقف مراقبون على إحدى التلال . ولدى أقل إشارة كان الرجال يتصدون لكل اعتداء محتمل على البلاد الرومانية الخالية من حماتها . ولكن ذلك كان موقفاً دفاعياً . فالجيش الروماني لم يكن أداة تعَدٍّ أو هجوم ولم تجعل روما ، في وقت من الأوقات ، من اللصوصية نشاطاً شريفاً أو مورداً إقتصادياً أساسياً للبلاد ـ على نقيض ما كان يحدث في مدن يونانية وبربرية عديدة . هكذا تبدت لنا روما ، منذ البداية ، دولة عادلة صالحة .

---

(1) جزء من العشيرة .

(2) سهل قرب روما يمتد من شمالي الكابيتول وينعطف مع مجرى التيبر كان مخصصاً قديماً للعمليات العسكرية ولاجتماع اللجان (المترجم) .

قلقة على حقوقها الخاصة ومحترمة حقوق الآخرين ، إلى حد ما ، أو على الأقل لبعض الأشكال القانونية التي تضمن سيادة الدول الأخرى .

الدولة الجمهورية

تروي التقاليد أنه في سنة 509 ق.م طُرِد الملوك بشخص التركيني المهيب ، آخر من يمثل من السلالة الإتروسكية . ويشكل هذا التاريخ تقهقر عظمة الإتروسكيين في إيطاليا الوسطى والجنوبية . وقد كبدت الشعوب الإيطالية والمستعمرات اليونانية في إيطاليا التحالفات الإتروسكية هزائم خلدت ذكراها . واحتُلَّت روما من جديد وخضعت ، لا لسلطان الشعب الصغير في المدينة عينها ، بل لزعماء العائلات وللمواطنين الأكثر ثراء وللعشائر الريفية . ويبدا لبعض الوقت أنه لم يؤخذ بعين الإعتبار الفارق بين الأعيان والشعب لأن قائمة القناصل التي وصلتنا تحتوي ، في السنوات الأولى ، بعض الأسماء الشعبية ، ثم انتقلت السلطة إلى الأعيان وانحصرت بهم وحدهم .

وكان الملك حتى ذلك التاريخ يمسك بجميع السلطات ، كان الكاهن والقاضي ورئيس المجالس واللجان المئوية ومجلس الآباء الذي يشكل مجلس الشيوخ وكان القائدَ الأعلى للجيش . وقد وزعت هذه السلطات المختلفة بين القضاة السنويين ونظمت في مجامع . ثم استعيض عن الملك بقاضيين متساويين في الحقوق كانا لدى وجودهما معاً في روما يمارسان السلطة مداورة ويتبادلانها شهرياً . هؤلاء القضاة الكبار دعوا أوّل الأمر حكاماً شرعيين ثم اطلقت عليهم تسمية قناصل . وخصص اسمِ حاكم شرعي للقاضي المكلف بتولي القضاء . ثم استحدثت وظائف قضاة الإحصاء والمراقبة الذين أنيط بهم السهر على بنية المجتمع وإحصاء المواطنين والتأكد من أن كل مواطن مسجل في فئته وأنه أهل لها أخلاقياً ومالياً . ثم في منتصف القرن الخامس ظهر القضاة الماليون الذين التحقوا بالقناصل لمعالجة القضايا المالية .

ولم يكتمل نظام القضاء إلا عندما حصل الشعب على قضاته ومحاميه والقضاة البلديين . وكان الأولون حماة الشعب وكان بإمكانهم أن يستعملوا حق النقض ضد كل عمل أو قرار صادر عن سائر القضاة إذا ارتأوا أن حقوق فرد من أفراد الشعب أو مجموعة من الشعب قد تعرضت للخطر . ويعتبر القضاة البلديون كمعاونين لمحامي

الشعب. واستحدث في الوقت نفسه قضاة بلديون سموا «قضاة كراسي العاج» لأنهم كانوا يجلسون على كراسي من العاج وهي امتيازات لقضاة طبقة الأعيان.

هذا هو النظام المعقد للدستور الجمهوري، الذي صيغ، كما سبق أن ذكرنا، منذ أزمنة بعيدة تحت ضغط الأحداث، لمواجهة الحاجات الطارئة، وهو ينزع لتحقيق توازن دقيق بين متطلبات عديدة متناقضة، أولها المحافظة على البنى الدينية القديمة. لقد أوجدوا «ملك الذبائح» لأن اسم الملك هو أساسي في بعض الطقوس منذ عصر القرى اللاتينية. وأعطي القضاة المتفرعون مباشرة من تفكك الملكية، ومنهم القناصل والحكام الشرعيون، الحق باستشارة الآلهة رسمياً في الأعمال الخطيرة في الحرب والسلم. وكان ضرورياً، من ناحية أخرى أن تحكمَ المدينة سلطةٌ قوية. يُزَوَّد القناصل أثناء تولِّيهم سلطات كاملة، فيتمتعون بالحكم المطلق الذي يعطيهم حق الحياة والموت على المواطنين. ولكن الحكم المطلق في الواقع لا يمارس إلاّ ضمن الجيش عندما يكون القنصل قد غادر حرم المدينة [بعد أن يكون قد حصل على رضى الآلهة]. وطالما هو لم يفعل فلا مناص له من تسليم المواطن المتهم بجرم خطير إلى محكمة اللجان المئوية. ويسهر المحامون على احترام هذه القاعدة. ومن ناحية أخرى فلا يمكن ممارسة القوة المسلَّحة والعنف داخل المدينة أي روما، ولا يستطيع الجنود أن يدخلوها بسلاحهم. والقنصل الذي يذهب إلى الحرب يفقد، عندما يعود، صفته العسكرية وسلطته إذا وطىء أرض المدينة. وهناك حالة واحدة شاذة سمح بها مجلس الشيوخ، وهي عندما يمنح هذا المجلسُ القائدَ الظافرَ الحق بالمثول، بصفته قائد الجيش وبرفقة جميع جنوده، أمام هيكل جوبيتير ليضع على قدمي هذا الإِله ما غنمه من الأعداء وشعار القيادة الخاص به، وعندما يسرِّح الجيش فلا يعود القائد الظافر سوى شخص عادي.

تحقيق احترام كل مواطن في شخصه وأملاكه، ومنع القائد المنتصر من التجرؤ على القيام بانقلاب، والسهر على أن لا يمكث مسؤول واحد مدة طويلة في وظيفته كي لا يستقل بالسلطة: هذه هي الأمور الثلاثة التي تفسر التنظيم المعقد للدولة الرومانية.

الفتح الروماني

ويتنافس المؤرخون منذ القدم ، بإظهار دهشتهم ، لأن يروا مدينة صغيرة في إيطاليا الوسطى تعظم قوتها إلى حد أنها ، على مرور الأجيال ، توصلت إلى الهيمنة على العالم المعروف وأنها لم تتوصل إلى ذلك إلاّ بفضل قواها المسلحة . ويعتقد بوليب ، المؤرخ اليوناني من القرن الثاني ق.م ، أمام هذا التناقض الذي أحدثه النجاح الروماني مع الحالة المزرية للعالم اليوناني (قبلَ أن تتدخل فيه روما جدِّياً) وهشاشة الإمبراطوريات التي تشكلت فيه ، أن هذا المصير الذي استحقته روما إنما استحقته بفضائلها الخاصة وحكمة لا يمتلكها إلا ألرومان أنفسهم . لكن المؤرخين المحدَثين يبدون أكثر تشاؤما ويشكون في الفضائل الرومانية ، ويفضل البعض الإعتقاد أن الدولة الرومانية نعمت بظروف اقتصادية وجغرافية وبسلسلة من المصادفات . ومع ذلك فإن مما لا يشك فيه هو أن أحد أسباب التفوق الروماني يكمن في التبني الملحاح لبعض القيم الأخلاقية التي سادت سياسة الدولة بكاملها منذ بداياتها حتى نهاية الامبراطورية في حين كانت هذه المثل لا تعني شيئاً بالنسبة إلى الناس .

ويعتبر الرومان أن فضيلتهم الأولى هي التقوى أي احترام النظام الكوني الذي وضعه وحافظ عليه الألهة . كانت هذه التقوى تفرض عليهم أن يحاولوا بجميع الوسائل المشروعة ، ما تريده الألهة وما ترضى به . لقد سبق أن صادفنا فكرة كشف الطالع وهي مجموعة من الرموز (كزجر الطير وأحداث تجري في وقت محدد أو بشكل طارىء ، كقصف الرعد . .) تظهر للناس لكي يحلوا رموزها . إن معرفة هذه اللغة هي تقليد يحتفظ به عرّافو الإتروسكيين . ويمكن أن نستشف من هنا تأثيراً ناشئاً عن الهيمنة الإتروسكية التي تَنظُم في كنفها ، استناداً إلى تقليد ربما كان مصدره آسيا ، تفسير الإشارات التي كانت دائماً ذات أهمية للشعوب اللاتينية التي تفتش عن هذه الإشارات من تلقاء نفسها في تحليق الطيور في الغابات ، في تصرف الحيوانات وفي الأصوات الخفية التي تخرج من الأدغال . إن روما مدينة للإتروسكيين بالسمة التنظيمية لديانة الدولة . إن الهدف الأول للتقوى هو توفير السلام بين الألهة والإنسان ، ولا يستتب هذا السلام إلا بشرط احترام القواعد . كانوا يحترسون من كل جديد ، من كل وحي آني وهذا ما يدعوه الرومان « خرافة » أو

وسواساً دينياً يشذ عن السوابق والأنظمة .

من نتائج هذا الشرط الأساسي للتقوى أن يُخضَع للسلطات الدينية ـ أي الكهنة الذين يختارهم الشعب دون تكريس ولا احتفال خاص ويشكلون ، كالقضاة ، مجامع خاصة ـ كل أعمال الحياة السياسية والعسكرية . يجب أن تفحص كل خطوة ليُعلم ما إذا كانت تنسجم مع إرادة الآلهة أو تنال موافقتهم . فلكل موقف أمر خاص به ، هناك أمر للحرب وأمر للسلم ، وإن الإنتقال من حالة إلى أخرى يتطلب مراسم محددة . فكل تعدٍّ أو هجوم لا يسبقه إعلان لحرب نظامية يعتبر غير عادل . ولا تكون هذه الحرب حاصلة على موافقة الآلهة . إنها خاسرة سلفاً ، ولكي يتم إعلان للحرب يجب أن يكون هناك سبب شرعي للحرب وأن هذا السبب يجب أن يُعْرَض حسب الأصول على الطرف الآخر فإن رفضه عند ذاك تُعلن الحرب . وكان الكهنة المنوط بهم السهر على تطبيق القانون وخاصة أيام الحرب يقترحون دائماً حلاً سلمياً ، ولا تشن الحرب إلا إذا رفض هذا الحل . ومن ناحية أخرى ، فالعمليات الحربية يجب أن يقودها قائد مكلف شرعياً من قبل الشعب وحائز على رضى الآلهة . هذا القائد هو مواطن كسائر المواطنين ، إذ ليس في روما طبقة عسكرية ، على الأقل في الماضي المعلوم . كل المواطنين هم جنود وقت التعبئة ووحدهم المواطنون يمكنهم أن يصبحوا جنوداً . وإن تجنيد العبيد لكفر شنيع . وإذا قضت الضرورة إلى ذلك ، إبَّان الشدائد ، يُصار إلى تحرير العبيد الصالحين للتجنيد فتشتريهم الدولة من مالكيهم الشرعيين . وحده الرجل الحر يمكنه أن يقسم اليمين العسكرية ويصبح ، أمام أعين الآلهة ، ساعِدَ القائد . وإن الجندي عندما يُحَل مؤقتاً من قسمه (أي عندما يكون مأذوناً ، مثلاً) لا يستطيع أن يشارك في المعركة دون أن يأتي كفراً ، فعمله هذا يناقض النظام والحق .

من الواضح أن شعبا بهذه الصرامة وهذا التشدد في هذه النقاط لا يسمح لنفسه بشن حروب توسع واحتلال ، أو أن يكون كل هذا النظام مبنياً على خبث يستغلق على الفهم . في الواقع ، لقد ظلت روما لفترة لا همّ لها سوى أن تفرض احترامها واحترام حقوقها على الأخرين وأن تقيم نتيجة ذلك ، مع الشعوب الأخرى ومع جيرانها أولاً ، حالة قانونية محددة بدقة . كل حرب يجب أن تقود إلى معاهدة ، إلى اتفاق يوقع بين المتحاربين ويعتبرَ بمنزلة دستور ينظم العلاقات وقت السِّلم . وتكون

مواد المعاهدة متغيرة بتغير الموقف الذي أملاها ، ولكن جوهرها يبقى هو إياه . وكان الشعب الذي يبرم الاتفاقية مع روما يلتزم باحترام الشعب الروماني ومساعدته إذا تعرض لاعتداء وأن يحافظ على حقوقه وأن يقدم له جيوشاً تعتبر مساعدة للجيش الروماني وتقاتل ضمن أُطُرها الخاصة تحت إشراف ضابط روماني .

وعندما ينهزم العدو انهزاماً كاملاً ويستسلم ، مع ما يملك ، لروما ، فإن القائد الظافر لم يكن يتصرف عادة ، كما كان يفعل الأغارقة ، إذ كانوا يذبحون الرجال القادرين على حمل السلاح ويبيعون ما تبقى من الشعب كالعبيد . وعندما يقرر العدو المنهزم أن يستسلم وأن يضع نفسه في ذمة الشعب الروماني فإن هذا كان يحافظ على شخصية عدوه وعلى استقلاليته ولكنه يؤكّد عليه حقاً بارزاً وهو أن ما ترك للمهزوم ترك بفضل ثقة روما وقرارها المتسامح الذي اتخذته بألاّ تستخدم حتى النهاية قوة السلاح[1] ، فقرار التسامح هذا يمكن نقضه في أي لحظة من اللحظات ، فيصبح الشعب المغلوب مَواليَ لروما وبالتحديد للقائد الروماني الذي هزمه ولخلفائه من بعده الذين ، بفضل هذه العلاقة الذمية التي نشأت عند الاستسلام ، يتعهدون له بحق المساعدة والحماية ، فهذا السيد الظافر يُعنى بألاّ تفرض على الشعب التابع له شروط قاسية جدًا وألا يُعامل معاملة ظالمة . وإن الشعوب المغلوبة وكذلك الشعوب التي انضمت إلى روما عفوياً والتي تعاهدت معها بملء حريتها وتلك التي أبرمت معها اتفاقاً بالإكراه توضع جميعها تحت حماية مجلس الشيوخ الذي يلتزم تجاهها واجباً أخلاقياً ودينياً ويعاملها معاملة حق وعدل .

فالفتح الروماني لم يؤدِّ إلى تحطيم الشعوب المغلوبة مادياً . وعندما يدعو أحد الأسباب الاستراتيجية إلى إزالة مدينة الأعداء كان يُنقل سكانها ويُسكنون في مكان آخر أقل خطراً . واتبعت هذه السياسة على مدى عصور ، منذ احتلال ألبا أيام الملوك أو أيام ڤيِّيس (Véies) في أوائل القرن الرابع ق.م . حتى فتح غاليا من قِبَل الاسكندر . لم تكن روما تحول الأرض إلى صحراء أمامها بالرغم مما قاله عنها تاسيت نقلاً عن أحد البرابرة . كانت تفرض السلام الحقيقي وذلك لمصلحتها ، دون تأكيد ، ولكن مع المحافظة على الاتجاه السياسي العام الذي تمليه على

---

(1) لكن ما فعلته روما بقرطاجة يناقض هذا الكلام (م) .

حلفائها متحاشية التدخل ، قدر الإمكان ، بشؤونهم الداخلية . هكذا ولدت وتطورت الإمبراطورية الرومانية التي هي شكل من الرابطة تقف على منتصف الطريق بين إذلال العدو والمعاهدة من الند إلى الند .

والذي جعل هذه الرابطة أكثر متانة ، وبالنسبة لبعض الحلفاء ، على الأقل ، أكثر تسامحاً ، هو أن التنازلات القانونية لم تقدم كلها من قبل الحلفاء . لقد خطط الرومان ، منذ وقت مبكر ، لإشتراك حلفائهم في تنظيم الوضع القومي ولمنحهم حقوقاً مدنية محدودة ، ولقد منحوهم ، دون شك ، حقوق تملك الأرض تملكاً باتًا ، وإجراء معاملات الزواج المعترف بها من قبل القانون الروماني . وإضافة إلى ذلك فإن هذا الوضع القانوني لم يكن نهائياً إذ لم يلبث أعيان الأرستقراطية المحلية أن حصلوا على حق الدخول في سلك القضاء الروماني . ومنذ نهاية القرن الرابع نالت بعض المدن اللاتينية الأعضاء حق القنصلية .

لقد حصل اندماج الشعوب المحتلة ببطء ، طبعاً ، ولكن هذا الإندماج كان موعوداً به منذ البداية ، للأرستقراطية الإيطالية أوّلاً . إن أحد أسباب نجاح روما يكمن في أن هذه الإمبراطورية الرومانية كانت تحافظ على الأرستقراطية المحلية في المدن الحليفة وتساندها . يبدو ، بنوع عام ، أن الشعوب الإيطالية شكلت مجتمعات تحكمها الأرستقراطية ومنحت السلطة لبعض العائلات الكبيرة . لقد جرى هذا في بلاد الإتروسكيين وكذلك في موطن السَّمْنِيِّين ، هذه الشعوب الجبلية في إيطاليا الوسطى والجنوبية وقد لاقت روما الأمرَّين في إخضاعها لسلطتها . وهذا واضح أيضاً بالنسبة إلى مدينة كابو (Capoue) التي ، استناداً إلى أقوال بعض المؤرخين الرومانيين ، استسلمت لروما عملياً على يد أرستقراطييها ، الفرسان الكابيين (أي المواطنين الأغنى والأشرف الذين ، على غرار الرومانيين ، كانوا يشكلون هيئة الفرسان) الذين رفضوا مقاتلة الشعب الروماني ، والشيء البارز أن هؤلاء الأرستقراطيين الكابيين أنفسهم نالوا ، مباشرة تقريباً ، حقوق المدينة الرومانية .

إن أحد شعارات السياسة الخارجية الرومانية هو الثقة ، وهي لا تعني فقط ببساطة احترام القانون الممهور بالقسم . وبالرغم من أن الشيوخ الرومانيين كانوا يتُّهمون غالباً بالمماحكة ، يظهر أنهم كانوا يعتبرون الثقة الواجبة للشعوب (حتى

الذين لم يبرموا معهم أي اتفاق) تذهب أبعد مما يلحظه النص الحرفي للاتفاقيات . إن الثقة تبدأ ، حتماً ، باحترام المعاهدات ولكنها تتخطّى إلى أبعد من ذلك ، إنها إرادة دعم فعّالة تتجاوز الحق المحض البسيط . وكان أعضاء مجلس الشيوخ يمنحون ، بملء إرادتهم ، بلاداً أو أمّة ، صفةً صديق للشعب الروماني ، فهذا يرتب على روما الإقلاع ، مبدئياً ، عن استخدام العنف والسلاح بحق هؤلاء الأصدقاء . وهذا يفرض على روما أيضاً أن تمنحهم حمايتها وأن تغطيهم بسلطتها العالمية . والرومان الشرسون كانوا ، عندما تخلُّ المدن الحليفة بوعودها لهم وتثور ، يحترمون ، بالمقابل ، تعهداتهم التي قطعوها على أنفسهم حتى الأخلاقية منها .

وكانت سياسة روما الخارجية أيضاً مفصلة على قياس إحدى البنى الأساسية للمجتمع الروماني ، وهي علاقات « السّيد بمواليه » . فالسيِّد شخصية تتمتع بسلطة ونفوذ خاص في المدينة ، أما الموالي فهم رجال فقدوا كل نفوذ ودعم ببسبب فقرهم أو أصلهم الوضيع أو لسبب من الأسباب فربطوا مصيرهم بنفوذ هذا السيد أو ذاك . ان أصل هذه المؤسسة غامض ، إنها على الأرجح مرتبطة بتركيب الطبقات النبيلة العريقة ، فهي تعتبر امتداداً لها . إن السيد أو الولي يمثل دور الأب في الأسرة . فبين السيِّد والموالي روابط ثقة ترتب التزامات متبادلة دقيقة . فالمولى لا يستطيع أن يشهد أمام المحكمة ضد سيِّده ولا السيِّد يستطيع ذلك ضد مولاه . على السيِّد أن يوفر الحماية لمولاه في كل الظروف وعلى المولى أن يقدِّم المساعدة لوليِّه للحصول على حقه وللفوز برتب الشرف ومرافقته في الأماكن العامة . . . ومن واجب الولي أن يكفي مولاه حاجاته ويقدم له ما يعينه على الحياة ويساعده على تزويج أبنائه . إن أحترام هذه الإلتزامات يأتي ، في سلم القيم ، بعد الواجبات الأبوية والبنوية ، ولكن قبل الواجبات تجاه أبناء العمومة والحلفاء . لقد ذكرنا أن الشعب المهزوم يصبح مولى لمن هزمه . وينطبق هذا الأمر بشكل عام على كل حلفاء روما الذين يعتبرون موالي ويصبح للشعب الروماني الولي عليهم حق التفوق والسيادة الناشىء عن الإنتصار الذي تلطفه الثقة .

إن الثقة بالرومان تأكدت عدة مرَّات أثناء الحروب ضد السّمنيِّين في القرن الرابع ق.م . وبهذه الثقة استجارت ، في نهاية القرن ، المستعمرات اليونانية في خليج تارانْت .

لكل هذه الأسباب ، يبدو أن العامل الأساسي في التفوق الروماني هو في خيار القيم الأخلاقية التي وسمت سياستها الخارجية ، هـو السحر الـذي يمارسـه على الشعوب الأخرى ذلك الأمل بالسلام والأمن اللذين تقدمهما لها ، ولو كان ذلك على حساب جزء من سياستها . لكن هذا الترقي الذي جعل المساعدة تستمر لم يكن مُمكنا إلا بالتمسك بتربية قومية هي السياسـة التي تحاشت الانقسـام الخطيـر بين الأرستقـراطية والشعب وتفـادت المعارك الشـرسة التي أضعفت وحجَّمت المـدن الهلينية الكبرى إلى حدود العجز . وقد أدركت روما بسبب دهائها أو بنوع من الغريزة السياسية كيف تنفس الضغوط الاجتماعية وتعترف بوجود شرعي لجماهيـر الشعب وتؤسس له ليس قضاءه الخاص به فقط بل مجلسه ، أي لجانه الانتخابية ، الذي اكتسب فوراً حق الإقتراع على القوانين التي تلزم الشعب برمته ، الأعيان والسواد الأعظم . ولكن الذكاء الروماني عرف كيف يتحاشى أن يتحول هذا التطور ، إذا تم بسرعة ، إلى ثورات . وقد أسهم في هذه النتيجة بشكـل فعَّال احتـرام الطقـوس والتقاليد الدينية ، هذا التزمّت الذي كان يسود حياة الدولة بكاملها . وهكذا فبعد أن حصل الشعب على حق اختيار أحد القنصلين ، لم يستخدمـه لمدة طـويلة ، فتم اللجوء إلى أشكال قضائية جديدة انتقالية كما لو كان المقصود من ذلك تعويد الآلهة تلقي الأسئلة من قبل قاضٍ لا ينتمي إلى طبقة الأعيان .

من ناحية أخرى يذكر المؤرخ الروماني تِيْتْ لِيْفْ ، في مناسبات مختلفة أن الشعب لم يلجأ في هذه الأزمنة المتأخرة إلى أي عنف للحصول على الحقوق التي كان يتوق إليها . فكل شيء حتى الانشقاقات ، حصل بانتظام إلى درجة أن الشعب لم يفقد احترامه ولا إجلالـه للشيوخ . وربمـا كان ذلـك ، كما يحب البعض أن يفتـرض ، تجميلاً للصـورة الوطنيـة ، ولكن تِيْتْ لِيْفْ لم يستطع أن يمـوِّه بعض الأحداث التي تسيء إلى عنفوان روما الوطني . فندرك هنا أنه يصيب كبد الحقيقة بقوله : إن السلطة الأدبية للآباء روعيت في كل العصور . ويحاول غوغائيو العصر الكلاسيكي أن يثيروا الشكوك حولها . وبالإضافة إلى ذلك ، لقد استقر شعور آخر عميق هو الإقتناع بأن كل عنف في الحياة المدنية يرتد إلى صانعه ، إلى حد يصل معه إلى تهديم المجتمع عينه وإلى تعكير « سلام الآلهة » ، وقد أسهمت ظـروف كثيرة بتحقيق هذه الظاهرة الضرورية لليوناني ـ وربما لليوناني الحديث ـ وهي حياة

سياسية ، إن لم تكن خالية من ثورات الغضب ، فهي على الأقل بريئة من الأحقاد .

روما والهلينية

في بداية القرن الثالث ق.م وفيما كان العالم الشرقي مقسوماً على ذاته يحارب بعضه بعضاً والروح الجديدة تترسخ في كل المجالات ، وقد أخذت القيم القديمة تفقد من فعاليتها ، أنذاك أصبحت روما سيدة شبه الجزيرة الإيطالية بكاملها . وكانت منذ عدة أجيال ، قد بدأت تتصل بالمستعمرات اليونانية في إيطاليا الجنوبية وأخذت تستوعب الثقافة الإتروسكية وتوطد علاقاتها مع أكبر قوة بحرية في إيجه هي الجمهورية الرودسية التي لم يستطع الملوك إخضاعها . وفي قلب إيطاليا نفسها كانت المستعمرات اليونانية تستنجد بروما لإنقاذ الهلينية من « برابرة الداخل » أو من الأطماع الإمبراطورية لبعض هذه المستعمرات . قد يظن أن روما والهلينية قد تصادقتا وأن الأغارقة استبد بهم الشعور بالتعالي تجاه البرابرة الذين ليس لهم تقاليدهم الثقافية الخاصة ولا رقة طباعهم، ولكن ما يدهشنا هو أن اليونانيين بدأوا يتكلمون عن روما ، الداخلة في أفقهم ، وكأنها مدينة أغريقية ، وقد حاولوا إدخالها في نطاق الهلينية الغربية . لقد ذكروها وكأنها مدينة أسسها انتشار الأبطال الطرواديين أو المحاربون اليونان الذين انتصروا في حرب طروادة ، فأيا كان المغزى الذي يستخلص من هذه التقاليد الأسطورية ـ فالعرف الذي يَنسب بناء روما إلى عمل الطرواديين ، أي بعض المهاجرين القادمين من آسيا الصغرى إلى لاتيوم أثناء حركة تنقل الشعوب التي اجتازت البحر المتوسط قبل اثني عشر قرناً من عصرنا ، لا ينطبق على الواقع ـ فمن المؤكد أن المؤرخين اليونان الذين جمعوا أحاديث يتداولها التجار والسفراء أو الحجاج الذين يعرفون روما أو قدموا منها ، يُعْتبرون حجة لا تدحض ، ومن أقوالهم إن روما استقبلت الفكر اليوناني وهي منذ بدايتها نصف هلينية ، وهي مدينة بذلك ربما لوجهها الإتروسكي ؛ ويقال إن التركين هو ابن أحد الكورنثيين جاء فاستقر في إتروريا ، وإنه منذ القرن الثامن عشر ق.م ، وربما قبل ذلك ظهرت عناصر الثقافة الهلينية في لاتيوم . وكانت روما مستعدة دائماً للمشاركة في التطور الذي أدّى إلى انتشار الهلينية الكلاسيكية في الشرق .

إن هذا التقارب بين الثقافتين شجعته كذلك الظروف السياسية . ولقد ذكرنا أنه في القرن الخامس كان الرومان في معسكر واحد مع الإغريق لأنهم شاركوا في سحق

التحالف الذي جمع بين الإتروسكيين والقرطاجيين ضد المدن اليونانية في الغرب . وناحية أخرى فإن المؤسسات التي أنشأها الرومان بعد ثورة 509 لم تكن مختلفة كثيراً ، أقله ظاهرياً ، عن المؤسسة التي كانت تدير سياسة الكثير من المدن اليونانية التي طردت مغتصبي الحكم هي أيضاً . كان الشعب هو الذي يمارس السلطة مبدئياً . وكان ينتخب القضاة ، وكانت المجالس الشعبية تقترع على القوانين وتحاكم المواطنين ؛ ثم إنه في روما مجلس شيوخ (Sénat) كما كان في أثينا أيضاً مجلس شيوخ (Boulè) ولكن هذا التشابه الظاهري كان يخبىء تحته فروقات جسيمة ، وكان هذا الأمر مدهشاً إلى درجة جعل المؤسسات الرومانية مألوفة لدى اليونان عندما تعرفوا إليها .

حتى الدين الرسمي لروما كان ، ظاهرياً ، قريباً جداً من الدين اليوناني . فهنا وهناك كان رب الأرباب هو سيد السماء : جوبيتير في روما وزفس في اليونان ، يحيط به تقريباً الأولمپيون أنفسهم بأسماء مختلفة ، ولكن يمكن معرفتهم بسهولة . والحقيقة أن هذا التقارب بين مجمعي الأرباب (Le Panthéon) كان منشأ الكثير من الصعوبات للمؤرخين ولا يمكن تفسيره باقتباس الرومان عن اليونان ولكنه ناشىء عن عدة أسباب ـ من جهة ، إن بعض الآلهة هم من أصل واحد ويعودون إلى الجذور الهندو ـ أوروبية ، وهكذا ، فإن زفس وجوبيتير هما ، تاريخيا ، متشابهان ، وڤِيْستا وهِسْتِيا هما تقريباً سميَّان وكلتاهما تقوم بحماية النار المنزلية أو العامة . أما بالنسبة إلى الآلهة الآخرين فالتقارب بين روما واليونان هو أقل وضوحاً . وهكذا بالنسبة إلى ڤينوس وأفروديت ، ومارْس وآرِسْ ، وليبرپاتر (الأب الحر) وديونيسوس ، وبين سيريس وديميتير . وهنا أيضاً يقوم العالم الإتروسكي بدور الوسيط . وإن تكوُّن الشخصيات الإلٰهية التي نصادفها في إيطاليا عند الرومان تعود ، في نهاية المطاف ، إلى الوقت الذي كان فيه أجداد الإتروسكيين الشرقيون يشكلون جزءاً من هذه الجماعة الدينية والثقافية التي انبعثت منها الهلينية . وربما كانت هذه هي حال لِيْبِرپَاتِرْ الذي تقمص رأساً شخصية ديونيسوس عبر شخصية الإلٰه الإتروسكي فوفلونس (Fufluns) الإلٰه الشرقي المتهتِّك الذي كان فيما مضى إلٰها قويًّا تقمص شخصية يونانية . وربما كانت هذه حال سيريس إلهة الحنطة التي وجد الرومان فيها ديميتير الهلينية فيما كانت عندهم مظهراً للأرض أم البشر . هذا التداخل بين

الديانتين اليونانية والرومانية دام عدة أجيال لأن جذوره تعود إلى ما قبل تاريخ روما ، ولم يكن قد اكتمل إبان الحرب الفونية الثانية ، ولكنه كان قد قطع أشواطاً بعيدة في نهاية القرن الرابع حتى ظهور مناسبة أيّدت الفكرة القائلة بأن روما ليست في جوهرها سوى مدينة يونانية .

إن أول خلاف خطير تواجهت فيه روما والجيوش اليونانية لم يكن حملة هلينية ضد البرابرة ؛ وأكثر من ذلك ، لم يكن مشروع احتلال أرادتْه روما ، بل عملية قام بها أمير هليني بحثاً عن مملكة ، فبعد أن يئس بيروس[1] من تأسيس مملكة على شواطىء إيجه اعتقد بأن إيطاليا الجنوبية تتيح له ذلك بثمن زهيد ، ولكنه أجرى حسابه هذا بمعزل عن الرومان الذين لم يريدوا ولم يقبلوا بإنشاء مملكة على حساب الشعوب السمْنية التي كانوا هم حماتها . وبعد أن حقق بيروس عدة انتصارات رائعة تعب من هذه الحرب الطويلة فاستسلم لأحلام أخرى وغادر إيطاليا . وكانت هذه هي المرة الأولى والوحيدة التي استطاعت فيها الهلينية مواجهة روما على الأرض الإيطالية . ولكن هذه الحرب بالرغم من عنفها لم تكن قذرة . فلم تكنْ روما لبيروس البغضاء وبيروس ظل يحترم روما . وكلاهما تكلما لغتين جارتين . لكن الأمر أصبح مختلفاً جدًا بعد مضي قرن عندما اضطر الرومان إلى محاربة القرطاجيين .

فمنذ وقت طويل توصل الرومان والقرطاجيون إلى إقامة علاقات متبادلة وإلى توقيع معاهدات تحدد لكل من الشعبين ولحلفاء روما مناطق محددة لتجارته البحرية . ففي أيام بيروس قلق القرطاجيون من التقدم الذي يحرزه الملك وعرضوا على الرومان مساعدتهم . إنها مساعدة لا جدوى منها ، ولكن مجرد اقتراحها يعني أن قرطاجة كانت عدوة لكل ما من شأنه أن ينقل حدود الهلينية باتجاه الغرب . ولكن المفارقة في تصرف قرطاجة تكمن في أنها وجهت سياستها ضد روما . وعندما نشأت قضية مساعدة التجار الكومپانيين الثائرين على أسيادهم في مسّينا تردد أعضاء مجلس الشيوخ في ذلك لأن الثائرين أخلوا بواجب الوفاء بالتزاماتهم وبقسَمهم . ولكن أنصار الهلينية في أوساط الأرستقراطية ـ أي من كانوا يعتقدون أن مستقبل روما هو

(1) ملك أبير وقريب الاسكندر (319 ـ 272 ق.م) (م) .

تمتين العلاقات السياسية والتجارية مع الإغريق - دعوا مجلس الشعب لتجهيز حملة لمساعدة التجار الذين كان يهددهم جيش فينيقي وجيش سرقسطي في وقت واحد . وبعد مضي عدة أيام قلب الجيش الروماني الموقف رأساً على عقب ، إذ طلب السرقسطيون بقيادة هْيِيرون[1] مسالمة الرومان وأصبحوا حلفاءهم ضد الفينيقيين . وكان هذا الحلف يبدو وكأنه دائم ، إذ قد سمح للرومان بأن يحققوا في النهاية انتصاراً على قرطاجة في نهاية الحرب الفونية الأولى ولم يُنْقَضْ إلاّ بعد هْيِيرونْ ، عندما اعتقد رجال الحكم في سرقسطة بأن الرومان خسروا نهائياً ضد هنيبعل في ميدان المعركة في كانْ . لكن هذا التحالف بين سرقسطة وهنيبعل لم يدم طويلاً : إذ سقطت المدينة بعد أربعين عاما وتمركز فيها الرومان نهائياً :

وفي أيام هنيبعل حاولت الدبلوماسية الفينيقية (خاصة مساعي هنيبعل نفسه) جاهدة تحريض الهلينيين ضد روما ، وكان هنيبعل هو المسؤول عن الصراع الطويل الأمد بين روما ومَلِكيْ مقدونية فيليپ الخامس وپرسيه[2] (Persèe) . وهذه الحروب الثلاث التي انتهت الأخيرة منها سنة 168 ق.م . بهزيمة الملك في پِيْدْنا[3] هي التي جعلت المؤرخين المحدثين يقررون أن روما هي التي تدخلت في إيليريا وفي الأدرياتيك قبل الحرب الفونية الثانية للدفاع عن الجاليات اليونانية المهددة من قبل البربر . فهؤلاء المأجورون لملوك مقدونية (يبدو أن ديمتريوس الثاني هو الذي خطط هذه السياسة) كانوا مُكَلَّفين بإحداث كل ضرر مستطاع ضد مدن الحلف الإيتولي ، أعداء ملوك مقدونية التقليديين . فكانوا أيضاً يقضُّون مضاجع التجار الإيطاليين واليونان الذين يترددون بين شواطيء الأدرياتيك ، فكانوا ينهبون المؤسسات اليونانية في فونيسيا وإيسًّا وكورسير وأَپِيْدَانْ . فكانت هذه الأعمال اللصوصية شغل روما الشاغل ، فكان عليها أن تدافع عن حلفائها وتساعد السرقسطيين المستوطنين في إيسًّا . فلم ينخدع اليونانيون بذلك ، إذ عندما أرسل الرومان إلى كونتيا سفراء يعلنون أنه ، بفضلهم ، لن يخاطر برابرة إِلّيرْيا (Illyrie) ، بعد اليوم ، بمهاجمتهم ، اعترف الكورنثيون بهذه المِنّة ومنحوا الرومان حق المشاركة ، ابتداء من ذاك التاريخ ،

---

(1) Hiéron طاغية سرقسطة (466 - ؟ ق.م) (م) .

(2) آخر ملك مقدوني ، ابن غير شرعي لفيليب الخامس (912 - 165 ق.م) (م) .

(3) مدينة في مقدونية - م - .

بالألعاب البرزخية[1] (Jeux Isthmiques) .

لم تكن العداوة ، إذا ، بين الرومان والهلينية بل بين مقدونية وروما المدافعة عن الهلينية أو عن جزء منها كان يقاوم الإمبريالية المقدونية . وليس عجباً ، والحالة هذه أن يسعى هنيبعلِ للإفادة من هذا الموقف بعرضه المساعدة على فيليپ الخامس ضد روما . فقَبِل هذا عرضه معتقداً أنه بفعله هذا يمكنه التغلب على الإيتوليين الذين كانوا يشكلون ضد مملكته وسلطته في سائر أنحاء اليونان القارية تهديداً مستمراً . فكان من الطبيعي أن يسعى الإيتوليون إلى التحالف مع روما التي وجدت نفسها منحازة طوعاً أو كُرْهاً وبمشيئة هنيبعل ، إلى المأزق الشرقي .

الحرب الفونية الثانية

وأثناء الحرب التي امتدت على السنوات الأخيرة من القرن الثالث ق.م . والتي تسمى تارة الحرب الفونية الثانية وطوراً حرب هنيبعل ، اصطدمت روما بقرطاجة . وتكتسي هذه الحرب ، بالنسبة إلى أوروپا ، أهمية كبرى ، لأنها عرَّضت مستقبلها للخطر ، على مدى أجيال ، ووضعت ، وجهاً لوجه ، مفهومين سياسيين مختلفين وربما حضارتين . فقرطاجة التي تأسست في الطرف الأقصى من المغرب ، ربما خلال القرن الثامن ق.م . (مثل روما) كانت مؤسسة صُوْرِيَّة فينيقية لم تقطع علاقاتها أبداً مع الوطن الأم ، وكانت ترسل كل عام سفارة مقدسة إلى صُوْر تقدم الذبائح للإله ملكارت . كانت قرطاجة جمهورية تجار تأسست عند عتبة البحر المتوسط الغربي ومن هناك سعت إلى بسط سيادتها الإقتصادية على كل الشعوب الساحلية . إن هذا المطمح أدّى ، كما رأينا ، إلى المواجهة بين القرطاجيين والجاليات اليونانية وكانت صقلية ميدان الصدام الأساسي وقد طرد القرطاجيون منها نتيجة انتصار روما في الحرب الفونية الأولى لصالح الهلينية الصقلية وخاصة السرقسطية .

وقرطاجة التي كان الإسكندر ربما ينوي توجيه حملته ضدها ، كانت قد اندمجت بالنظام السياسي الهليني . وعندما شكل اللاجيديون (Les Lagides)[2]

---

(1) عيد كان يحتفل به في برزخ كورنثيا في حَرَم پوزيدون المقدس (م) .

(2) سلالة مصرية أسسها بطليموس أحد قادة الإسكندر الكبير (م) .

حول الإسكندر أعظم قوة إقتصادية في الشرق ، اتخذت قرطاجة لنفسها عملة تتوافق مع المعيار المصري واستخدمت أساطيلها وعلاقاتها الاقتصادية التي أقامتها مع الغرب (أفريقيا وجنوبي إسبانيا) لتبني محطات بطريقة ما للتجارة المصرية ، كان بالإمكان أن تصبح الجمهورية القرطاجية بلداً إغريقياً تتلقى التأثيرات الثقافية الهلينية . ولكن هذه التأثيرات التي لم يكن ممكناً في الواقع إنكارها ، لم تفعل فعلها إلا في وقت متأخر وبشكل سطحي .

والذي أدهش القدماء هو تقلب الحياة السياسية في قرطاجة وشراستها ، ودستورها نفسه يشبه إلى حد ما دستور المدن الهلينية ودستور روما ، بقضاتها السنويين (أو السافط) الذين حلوا محل الملوك ـ ولمجلس شيوخها المؤلف من أنبل المواطنين وأغناهم ، وبمجلسها الشعبي ، ولكن بعض المؤسسات الأخرى جاءت لتعطي هذه البنية عملياً سمة مختلفة جدًا عما عرف في اليونان وروما ، وكان يراقب عمل القضاة هيئة قضائية مؤلفة من 104 أعضاء يختارهم مجلس الشيوخ بواسطة لجنة من خمسة قضاة كانوا يتمتعون على ما يظهر بالسلطة الفعلية . وكل شيء كان يجري في الجمهورية كما لو أن أحداً لا يثق بأحد ، وكان جو ضاغط من الشك والخيانة يسمم الحياة السياسية . كان القضاة المكلفون قيادة الأسطول أو أي جيش من الجيوش معرضين إلى الاستدعاء المفاجىء إلى قرطاجة حيث يصلبون . ويروى ، كنتيجة لهذا النظام ، أن قائداً لامعاً كحنون العظيم الذي ينتصر على دنيس[1] (Denys) في سرقسطة ، أعد مؤامرة اغتال فيها كل أعضاء مجلس الشيوخ ، بعد أن دعاهم جميعاً إلى عرس ابنته ، وذلك بِدَسِّ السم لهم في الطعام . ويُذْكر أنه ، أثناء حرب بيروس ، رفض القنصل الروماني العرض الذي قدمه له طبيب هذا الملك بقتل سيِّده ، وأرسل الخادمَ إلى الملك كاشفاً له الخطة التي دبَّرها .

وكان الرومان ، لهذه الأسباب ولأسباب أخرى غيرها ، يتهمون القرطاجيين بالخيانة والغدر ، في حين أنهم هم ، كما ذكرنا ، كانوا يؤلهون الاستقامة في الأخلاق ، حتى جعلوا منها مبدأ حياتهم السياسية والخاصة . واستنتجوا أثناء حربهم

---

(1) طاغية سرقسطة (430 ـ 367 ق.م) (م) .

مع هنيبعل أن عدوُّهم لا يحترم الاتفاقيات ولا المعاهدات ، ولكنهم هم أيضاً عرفوا في الماضي كيف يحورون النصوص ملتجئين إلى ذرائع قانونية مدَّعين ، مثله ، أن العهد الذي قطعه أحد القادة لا يلزم سواه وأن الشعب الروماني يرفض أن يوقع على التزام اتُّخِذَ باسمه . ولكنَّهم لم ينقضوا أي هدنة أو إلقاء سلاح ، بدون ذريعة كما فعل هنيبعل عدة مرَّات . حتى ولو ساد الإعتقاد بأنَّه من الأوفق عدم الاعتماد على هذه الإتهامات التي يوجهها الرومان إلى عدوهم ، يبقى أن طبيعة هذه الإتهامات تدل إلى أي مدى كانت روما تظن أن بإمكانها مواجهة قرطاجة .

إن الصدام بين الشعبين يظهر أيضاً ، بطريقة أخرى ، بالدور الذي يعطيه كل منهما للثروة . كان رومان تلك الأيام ينفرون تقليدياً من الثروة المنقولة ، فليس من ثروة عندهم سوى ثروة الأراضي . وقبل حرب هنيبعل بوقت قصير كان القانون يحظِّر على أعضاء مجلس الشيوخ ممارسة التجارة . وظلت الملكية العقارية ، حتى نهاية روما ، تتمتع بسحر خاص ؛ أما في قرطاجة فكان الوضع مختلفاً تماماً . كان النبلاء في الواقع يملكون بعض الأراضي داخل البلاد ، ولكن اقتصاد الجمهورية كان يعتمد على التجارة . وكان الذهب والفضة يتراكمان ، بشكل سبائك في الخزينة العامة ، وكان يتوجب على الشعوب المغلوبة في أفريقيا نفسها أن تؤدِّي الجزية وتدفع نصف إنتاجها . وكانت هذه المبالغ . مُضَافة إلى الدخل التجاري ، تسمح بتسليح الأساطيل واستئجار المرتزقة . وهنا أيضاً تتناقض قرطاجة مع روما : يقابل جنود المواطنين الذين كانت تجندهم هذه ، زمر المرتزقة الطارئين من كل مكان ، من إيطاليا الجنوبية ومن بلاد الغال وآسيا التي تستأجرهم تلك ، فهذه الجيوش المأجورة لم تكن تقاتل كما يقاتل الرومان ، في سبيل الآلهة والوطن ، بل لحساب أسيادها الذين كانوا هم بدورهم متطوِّعين في غزوات استعمارية ومعارك احتلال .

وهنيبعل هذا هو ابن هملقار الذي قاتل طويلاً ضد الرومان في صقلية واستطاع أن يُنْقذ حياته بانتصاره الساحق على المرتزقة الثائرين في قرطاجة . وقد أخذ هملقار على نفسه بناء مملكة حقيقية في إسبانيا الجنوبية تُحوُّل مداخيلها إلى المدينة الأم . وكانت هذه المملكة أيضاً قاعدة لانطلاق الجيوش التي تستعد للانتقام من روما . فكان قَدر هنيبعل أن يقوم بهذا الانتقام . انطلق هذا الفتى ، الذي يتمتع بطاقة وعبقرية خارقتين ، في حرب كانت الغاية منها إزالة « الاسم الروماني » من الوجود .

كانت هذه الحرب تستهدف النظام السياسي والديني والأخلاقي أكثر مما تستهدف روما التي كان نفوذها وحمايتها ينبسطان على قسم كبير من العالم الآهل بالسكان .

فأيًا ما كانت الأسباب المباشرة وغير المباشرة والذرائع الدافعة إلى الحرب (كالنصائح الحربية التي قدَّمها تجار مرسيليا لروما ، مثلا) فإنه من الأكيد أن القائد القرطاجي كان يبدو معتدياً وأن روما كانت تدافع عن قيمها الأدبية وحتى وجودها . فهاجمها هنيبعل على رأس برابرة إسبانيا وغاليا واقتحم حاجز جبال الألب حيث هاجم السينونيون الغاليون ، منذ قرن من الزمن ، البلاد الإيطالية . وجلب زحفه العنف والفوضى إلى شبه الجزيرة بكاملها . وكانت سياسته تهدف إلى فك عرى الثقة القائمة بين روما والمدن الإيطالية . وسببت هذه الحرب ، كما كان يخوضها ، تقهقراً لمشروع روما الأوروبي . وحوَّل انتصاره البلدان الأوروبية في غربي المتوسط مناطق مستعمرة ومستثمرة ، بلا قيد أو شرط ، من قبل تجار قرطاجة . بالإضافة إلى ذلك لقد ترسخت في إيطاليا وغاليا وإسبانيا ثقافة سامية قديمة الطابع ، عصيَّة على صورة الجمال وعبادته وعندما دمرت قرطاجة في منتصف القرن الثاني ق.م . لم يكن فيها أي أثر للمسارح .

وظلت ذكرى حرب هنيبعل حية في روما ، لقد أسهمت هذه الحرب في أن توقظ في روما وعياً لأصالتها ولشخصيتها الثقافية ، وكان من نتائجها البعيدة أن دمرت ، بعد حرب جديدة ، العدو الكريه وأنهت النفوذ السياسي للساميين في البلاد الأوروبية . إن إمبريالية هنيبعل جرَّت على وطنه الخراب وحثت روما ، بالمقابل ، على أن تصبح بدورها قوة إمبريالية .

احتلال الشرق

إن عملية الإحتلال التي قامت بها الإمبراطورية ، بعد انتصارها على هنيبعل ، وبالمقابلة مع الأخطار التي اعترضتها بعد الحرب الفونية الثانية ، كانت سهلة نسبياً . لقد ترك انهيار قرطاجة فراغاً في المتوسط الغربي فملأه الرومان وأخذوا على عاتقهم إحلال السلام في إسبانيا أي إخضاع سكان البلاد الأصليين للقوانين التي كانت تطبق على حلفاء روما . وسبق إحلالَ السلام عمليةُ الاستغلال . ومما لا شك فيه أن هذه الشعوب المحكومة فُرِض عليها تأدية الجزية ولكن الأسياد الجدد بنوا المدن الجديدة

في كل مكان وعزّزوا الأرستقراطية المحلية . وكانت المبادىء المطبقة في الماضي على المدن الإيطالية تطبق على الإقليم الجديد ، وظلت سارية المفعول بعد قرن من ذلك عندما باشر قيصر (الذي تدرب على الحكم الإقليمي في إسبانيا) تطبيق النظام الروماني في غاليا ، وسنرى هذا النظام في الأقاليم الغربية ، تلك الأقاليم التي تسكنها شعوب « بربرية » أي غير يونانية والتي لم تكن تعرف بُنى محلية قوية شبيهة بتلك البنى التي أسسها ، مع الزمن ، الهلينيون والرومان . وفي القسم الشرقي من الإمبراطورية أي في البلاد اليونانية والبلدان ذات الثقافة الهلينية كانت تحترم البنى القائمة . وقد جهد الرومان حتى للعودة إلى الحالة السابقة لتأسيس الممالك . وكان قرارهم الأول ، بعدما تغلبوا على فيليب الخامس ، إعلانهم ، أثناء الألعاب البرزخية سنة 196 ق.م . أن كل المدن اليونانية هي حرة . وقد أعلن غيرهم ، في وقت سابق القرار إياه . وعادت روما إلى اتخاذه على حسابها الخاص ، معتقدة أنه يكفي لإلغاء الممالك ، وأن النظام الإيطالي للإتحاد يصلح لأن يطبق في الشرق بطريقة مرضية .

وأثبت الواقع ، بعد قليل ، أنه من الضروري الاحتفاظ بسلطات بينَ بينَ مدعومة بقوى عسكرية . ولكن هذه القوى وهذه السلطات وُجِّهت لفترة طويلة ضد الأخطار الخارجية . ولم تكن اليونان تشكل إقليماً على امتداد المرحلة الأخيرة من النظام الجمهوري ، إذ لم يكن في تلك المنطقة سوى إقليم واحد هو مقدونية الواقعة على حدود البرابرة . أما مدن الداخل ، حواضر الماضي المزدهرة فكانت علاقتها فقط بمجلس الشيوخ الذي أصبح المحكمة العليا والحكم .

وتعمم هذا النظام شيئاً فشيئاً على الشرق ، وحلّت روما تدريجاً محل الملوك . وأحد هؤلاء الملوك المدعو أتّال الثالث ، ملك پرغام (حيث آثار طروادة) أورث الرومانيين مملكته في سنة 133 ق.م . ويتساءل المؤروخون المحدثون حول هذا القرار ، ولكنه يبدو قراراً واضحاً إذا علمنا أن روما كانت ، في ذلك التاريخ ، القوة الوحيدة التي يمكنها أن تحافظ على التماسك في هذه المملكة المتعددة الأجناس ، إذ يختلط فيها ، مدن يونانية وشعوب آسيوية وعناصر سلتية وغلاطية وصلت بعد هجرة طويلة ، في بداية القرن الثالث ، إلى هناك بعد أن زرعت الرعب في اليونان بكاملها ونهبت هيكل دَلْفيس . وملك قيرينيا (ليبيا) هو الآخر أوصى

بعرشه للرومان بعد عدة سنوات من ذلك التاريخ .

ولم يسجَّل في العالم الشرقي بكامله سوى محاولة جِدِّية واحدة تقاوم تلك الحركة الداعية إلى الإستسلام لروما . تلك هي محاولـة مِتْريـداتْ ، ملك نصف بربري ، كان يجلس على عرش مملكة البونط على أطراف البلاد الهلينية ، واستطاع متريدات الذي اشتبك بمعارك مع جاره نيكوميد ملك بيتينيا (Bithynie) الذي يدعمه الرومان ، أن يضع هؤلاء في موقع المخطىء . فأصبحت الحرب حتمية ولكن في ظروف ظهر فيها متريدات وكأنه البطل المدافع عن آسيا ضد روما . وكان قسم كبير من الرأي العام لا يزال معادياً للرومان الذين لم يستطيعوا أن يلجموا جشع القوَّاد وخاصة جباة الضرائب الذين عُهِد إليهم بإدارة البلاد أو بالأحرى استثمار البلاد . وقد نظم متريدات انتفاضة سِرِّية في كل الشرق . وذات يوم من سنة 88 ق.م . وُجِد جميـع الرومـان والإيطاليين مقتـولين ، في جميع المـدن ، في ظـروف غـامضـة مأساوية . وفي السنة التالية انضمت أثينـا تحت تأثيـر فيلسوف ديمـاغوجي ، إلى متريدات . ولكن الرودسيين قاوموا هذا الملك الثائر مقاومة عنيفـة واستطاعـوا أن ينقذوا عدداً من التجار الإيطاليين لجأوا إلى الجزيرة . وكان مطمح هذا الملك أن يجيِّر لنفسه مملكة الإسكندر ، دون أن يكلِّف نفسه مرَّة عناء الدفاع عن الهلينية ضد البرابرة الزاحفين من الغرب . وهو نفسه كان إيرانياً أكثر منه يونانياً ، وقواه الأساسية كانت بأكثرها من شعوب آسيا الداخلية التي لا تمتّ إلى اليونانية بصلة . وكانت إحدى بوادره الأولى فرض الضرائب والحاميات على المدن اليونانية ، كما كان يفعل دائماً الملوك الهلينستيون الذين أراد أن يخلفهم ويرثهم .

وبعد خمسة عشر عاماً وبعد العديد من الحروب هُزِم متريدات الذي انتهى به الأمر إلى اللجوء إلى شواطىء البحر الأسـود القصِّية . وكانت نهايته سنة 63 ق.م نهاية الممالك التي تفرعت عن مملكة الإسكندر (ما عدا مملكة البطالسة في مصر التي لم تصبح ولاية رومانية إلا في بداية الإمبراطورية مع انتصار أوغسطس على أنطونيوس وكليوباترا) . وكلف پومپيوس بترسيخ الأمر الواقع الروماني في الشرق كله . الأمر الذي دعاه إلى أن يجمع في ولاية واحدة كل ما بقي من النظام القديم في فينيقيا واليهودية وسائر آسيا . وتأسس نظام ملكي معقد على أطراف الامبراطورية وتابع لها . واحتفظ بداخلها ببعض الممالك أو الإمارات التقليدية ، وجهدت روما ،

انسجاماً مع تقاليدها ، أن تغير ، بقدر الإمكان ، التوازن القائم ، وتمنع عودة الفوضى التي كانت منذ أجيال مصيبة هذا الشرق .

إن حرب متريدات والإنتهاء من احتلال الشرق رافقتهما خضات عنيفة هزت المملكة الرومانية ، في بداية القرن الأول ق.م . إن التوازن الداخلي القديم الذي سمح لروما بمقاومة أزمة الحرب الفونية الثانية مقاومة ظافرة اختل بسرعة وأُعيد النظر في كل شيء . إذ بدأت مرحلة الصراعات الأهلية التي أدّت إلى ولادة الإمبراطورية .

من الجمهورية إلى الإمبراطورية

إن النبدُّل العظيم الذي طرأ على روما ، ومعها كل العالم الذي سيطرت عليه ، هو إحدى أهم الظواهر التاريخية في تاريخ البشرية ، إحدى الظواهر التي أدهشت المؤرخين وعلماء الأخلاق . إن البنى السياسية والأخلاقية القديمة ، التي عملت على تفوُّق المدينة وحملتها على لعب دور عظيم في العالم المتوسطي ، لم تصمد أمام الظروف الجديدة التي فرضها نمو الإمبراطورية الرومانية . كانت روما القديمة تعتمد على اتفاق « الطبقات » على مراعاة بعض القيم الأخلاقية كما حاولنا الإشارة إلى ذلك . وكانت تستند أيضاً إلى الفقر الطوعي وعلى ندرة المال وعلى انصهار الفرد في المجموعة .

كل عامل من هذه العوامل التي أدّت إلى التفوق الروماني وجد فجأة في قفص الإتّهام لمجرد أن وصل هذا التوسع إلى أطراف العالم . كان المؤرخون الرومان يعون ذلك وعياً تاماً ، وقد أخطأ المؤرخون المحدثون خطأً جسيماً بكونهم لم يصدِّقوهم بل اتَّهموهم بالاستسلام إلى حجج خطابية واهية ، ولكنها الحقيقة بعينها التي تفرض علينا أن نصدِّقهم : فإن الحروب في إيطاليا ثم في اليونان القارية لم توفر إلا القليل من الغنائم ولم تُضِفِ الكثير إلى ثروة روما . ولقد تبدّلت الحال عندما استولى الرومان على الكنوز التي كدَّسها الملوك الهلينستيون ؛ والغنائم التي وجدت عند ملك پرسيه كانت كافية لإعفاء المواطنين الرومان من الضرائب إلى الأبد . وكان القواد الظافرون ، في تلك الفترة ، يتكتمون في شأن حصتهم من الغنائم . ويقال إن پول إميل لم يحتفظ لنفسه ، من ثروات پرسيه ، سوى بمكتبته وعدَّة صيده . ولكن

شيئاً فشيئاً ، ليس القواد فقط ، بل جميع الجنود من مختلف الرتب ، وجدوا وسائل للإثراء أثناء الحملات وبعد الإنتصار . كان الأسرى يباعون كالعبيد ويوزع ثمنهم على الجنود . وكانت قوافل التجار تسير خلف الجيوش للمتاجرة بالأسلاب . فهذه الظاهرة ، التي كانت محصورة في بداية القرن الثاني ق.م ، تسارعت وانتشرت . سُلِّمت كنوز أتّال الثالث بكاملها إلى الشعب الروماني ، وعرفت روما فيضاً من الأموال شبيهاً بذاك الفيض الذي أغرق (أو أسهم في تقويض) اليونان في عهد الإسكندر . بدأ البذخ العام ينتشر في بداية القرن مع بناء الأقواس الكبيرة والهياكل التي ضاهت هياكل الماضي ترَفا وزينة . في الحقيقة إن الذهنية الرومانية القديمة استمّرت وهكذا أُدخِل المسرح على الطريقة اليونانية ، في أواسط القرن الثالث ، ولكن البناء المعد للتمثيل ظل نقّالاً غير ثابت ، وقد رفض أعضاء مجلس الشيوخ بعناد تشييد مسارح من حجر ، وحجتهم في ذلك أن المسرح كان مكان لهو للشعب ومصدر خلاف . ولأن الآلهة كانوا يستسيغون مشاهدة المسرحيات من مآسي وملاهي كان بإمكان الشعب الروماني أن يحضر هذه الألعاب على أن يفعل ذلك واقفاً . وبومبيوس هو الذي شيَّد أول مسرح من حجر سنة 55 ق.م . وذلك في نهاية الجمهورية .

وابتنى السادة العظماء منازل أكثر اتساعاً وغنى . وكان العبيد ، الذين أصبحوا أكثر عدداً بسبب الحروب الشرقية ، يعملون خدّاماً شخصيين غصّت بهم قصور الحكام . فعند الصباح وفي النهار كانت وفود من الموالي تأتي إلى فناء الدار تحيّي سيِّدها . ومن بين هؤلاء الموالي أناس مساكين كانوا يعيشون في روما بعد أن تركوا القرى التي كانوا يملكون فيها عقارات وقد أغرتهم عروض مَنْ هم أغنى منهم فتركوا أملاكهم لقاء كمية من المال كانت تنقص قيمة يوماً فيوماً . وبدلاً من العقارات الصغيرة والمتوسطة ، كما في الماضي ، عرفت إيطاليا تكوُّن ملكيات واسعة تخص ملأكاً واحداً . وتناقص سكان المدن والقرى الإيطالية وافتقروا وازداد عدد سكان روما ، وكان دخل أكثر هؤلاء المدنيين الجدد غير كافٍ لحاجاتهم فكان عليهم أن يضعوا أنفسهم تحت حماية الأغنياء الذين أحيطوا بجماعات من البطالين ، وستشكل الطبقة الشعبية في روما ، بعد قليل ، كتلة من الرجال الجاهزين للعمليات السياسية ، ولهم قيمتهم الثمينة في فترة الانتخابات ، لأن عدة أشهر كانت روما تصرفها ، سنوياً ، على العمليات الإنتخابية ، وإن التوازن الإجتماعي الذي وفّر ،

فيما مضى ، القوة لروما وأعطى الإتحاد استقراره المميز ، قد بات مهـدَّدا بشكل خطير . وسينهار بعد قليل وسيؤدي انهياره إلى مرحلة طويلة من الإضطرابات في روما كما في إيطاليا أيضاً .

وأثناء الحرب الفونية الثانية ، بدأت تتكون طبقة اجتماعية جديدة هي طبقة جباة الضرائب الذين كانوا يتعهدون نقل الجيوش وتسليحها وتجهيزها فكان هؤلاء المتعهدون المتكتلون جماعات يحققون أرباحاً باهظة بسبب التسليفات التي كانوا يقدمونها للدولة . لقد أنشىء هذا النظام الضرائبي العام على غرار ما رآه الرومان في الكثير من الممالك الهلينستية المجاورة ، في صقلية وفي مصر التي أرسوا معها ، منذ وقت مبكر ، علاقات دبلوماسية مميزة . وكان من الطبيعي أن يسند إلى هؤلاء الجباة جمع الضرائب في ولايات الإمبراطورية كلما أنشئت ولاية جديدة . وكانت الجباية الأهم ما كان يُجبى من آسيا بعد سنة 133 ق.م . لقد وفَّرت الثراء للحياة وأعطت الأهمية الأساسية للطبقة الثانية في الدولـة ، طبقة الفـرسان . ففيمـا كان الشيوخ لا يزالون من مالكي العقارات ، كان الفرسان ، الذين يضاهونهم غنى وربّما يفوقونهم ، هم رجال المال ، وكانت ثروتهم تتألف من الفوائد المثمِّرة في شركات الجباة وفي الأموال التي يقرضونها للمدينة الحليفة بفوائد باهظة .

وقد تغيَّر المجتمع الروماني تغيُّراً جذرياً ، فعلى قمة المسؤولية مجلس شيوخ مؤلف من عدة عائلات مالكة للأراضي تجمع حولها موالٍ يزداد عددهم باستمرار ويزدادون خضوعاً لتبعية اقتصادية متشدِّدة . وكان الشيوخ يستقلون بوظائف القضاة التي لم تكن ، من الناحية العملية ، مُمهَّدة أمام حديثي النعمة ، هؤلاء الذين لا يستفيدون إلَّا مِنْ دعم عائلة واحدة أو من فئة من الأشراف . وكان إلى جانب الشيوخ رجال الأعمال والفرسان الذين لا يحق لهم عملياً تسلُّم مراكز القضاء ، كانوا مرتهنين لمشيئة الشيوخ ، أسياد عقد المواثيق والعدالة في الأقاليم . وكان لا مناص من وقوع خلافات بين الشيـوخ والفرسـان . إذ كان هؤلاء يـطمحون إلى السلطة السيـاسية والقضائية خاصة ، لأنه كان يتوجب عليهم ، في الدعاوى العديدة المتعلقة بنشاطهم المالي ، أن يعتمدوا على حسن نية القضاة .

ومن ناحية أخرى فإن الحلفاء الإيطاليين الذين أسهموا إسهاماً فعَّالاً في عملية الفتح إذ رأوا أن الملاكين الرومان الكبار يسيطرون على ملكيات متزايدة في الأراضي

الإيطالية ، أظهروا استياءهم لكونهم لم يدمجوا دمجاً فعلياً في الدولة الرومانية .

وكانت كل هذه الأسباب الداعية إلى عدم الإستقرار قد تجمعت عندما انبرى أحد محامي الشعب ، طيباريوس غراشوس ، الذي كان ينتمي إلى أرفع طبقات النبلاء لأنه كان حليفاً لآل شيبيون ، عازماً على إجراء إصلاحات بإيقاف حركة النزوح التي تؤدي إلى إفقار الريف وطَرْد الفلاحين الأحرار لإحلال العبيد محلهم ، وتزيد مدينة روما وسكانها إلى ما لا حدود له . وكان ذلك فاتحة صراع طويل . وعانت روما كذلك الأحقاد السياسية واللجوء إلى العنف والقتل والتشريد . وكلما أوشك الهدوء أن يستتب كانت تنفجر أزمة جديدة . فتارة يستقل الحزب المعادي لمجلس الشيوخ بالسلطة ويصفّي أهم أخصامه ، وطوراً يسيطر الأرستقراطيون مع سولا ويقضون على جميع خصومهم . وحدث ذات مرّة أن ثار الحلفاء الإيطاليون بجملتهم فظُنَّ أن عهد روما قد انقضى . ومع ذلك ، وبالرغم من كل هذه المتاعب ظلت روما على قيد الحياة . وكان لا بد من موقف حازم - إذ شنت حرب شرسة على الإيطاليين - مصحوبة بشيء من التساهل - فأعطي حق المواطنية للثائرين الذين أعلنوا خضوعهم - وكانت هذه التدابير كافية لإخماد نار الفتنة ، وأسهم بعض الرجال بما لَهُمْ من عبقرية ، بإنقاذ روما من أخطارها الداخلية . سولا نفسه وبعده لوكولوس وكذلك پومپيوس الذي بدأ عمله نائباً لسولا ، هؤلاء جميعاً حققوا الإنتصار في الخارج ضد مخططات متريدات كما ضد مؤامرات الشيوخ الرومانيين الذين أَلّفوا ، في الولايات ، في أفريقيا وخاصة في إسبانيا ، حول سرتوريوس ، حكومات منشقة ، لقد نجحت روما ، ولكن بالرغم من الكراهية التي أورثها إياها احتلال إسبانيا ثم هزيمة متريدات التي تبعها فتح الشرق بكامله ، وبالرغم ، أيضاً من الوهج الذي نسب إلى السلاح الروماني بإخضاعه الشعوب الغاليّة الذي بدأه قيصر سنة 58 ق.م . وانتهى عملياً بعد ذلك بعشر سنوات . بالرغم من كل ذلك لقد تشوهت المؤسسات التقليدية بشكل لا يمكن تعويضه . وكان النصف الأول من القرن الأول بكامله مرحلة الوسائل السياسية . وكانت المؤسسات تتعدل باستمرار وكان تعديلها مرهوناً لإيجاد الأنسب أكثر من ارتهانه لإيجاد حالة مستمرة .

إن أحد المبادىء الأساسية الموجِّهة للجمهورية ، حتى بداية القرن الثاني ق.م . كان عدم منح صلاحية زائدة أو سلطة مطلقة لرجل واحد مهما كان ذا هيبة

ونفوذ ، والحال أن هذا المبدأ قد خرق عدة مّرات منذئذٍ .

وبدأت روما تتعرف إلى شخصيات « أرسلتهم العناية الإلْهية » . لقد بدأت هذه الظاهرة مع ملحمة الفتى شيبيو الذي قبْل أن يبلغ السن القانونية التي تخوله تسلم القيادة كُلّف بالذهاب إلى إسبانيا لتسوية الأمور فيها . إن شيبيو ، الرجل التقي الزاهد كما يقول البعض ، والداهية المشعوذ كما يقول الآخرون ، ما لبث أن اعتبره جنوده شخصاً سماوياً أوحى إليه جوبيتير ، وقائداً باركته ربة الحظ . وهكذا أصبح قائداً رومانياً شبيهاً بالملوك الهلينستيين ، وبهنيبعل نفسه ، الذين ارتفعوا فوق مستوى البشر . ومنذ ذلك التاريخ كانت بركة الآلهة مضمونة للقضاة.وليس للإنسان العادي ، كانت مخصصة بشخص معين . ومنذ ذلك التاريخ أصبح الامبراطور يساهم شخصياً بالعظمة الإلْهية . وجاء بعد شيبيو أشخاص آخرون يبدو أنهم تمتعوا بهذا السحر الجماهيري نفسه . منهم ماريوس الرجل الذي أرسلته العناية الإلْهية هو أيضاً ، لقد استطاع أن يوقف زحف التوتونيين[1] والسمبريين[1] . وسولا الذي استحق لقب فليكس (السعيد) . وبومبيوس الذي كانت حياته تحدِّياً لكل القواعد الدستورية . وأخيراً قيصر الذي صادر لنفسه ، كما أعلن ذلك في خطاب شهير ، بمناسبة دفن عمته جوليا ، عظمة الآلهة والملوك الذين يدَّعي أنه يتحدَّر منهم .

إن الخلاف الذي نشب بين قيصر والشيوخ في بداية سنة 49 ق.م كان سببه معرفة ما إذا كان فاتح بلاد الغال، سليل ڤينوس وإينيه، سيعاد إلى صفوف الشعب في نهاية مهمته أم يُمنح مركزاً استثنائياً في المدينة، بالمقابل كان بومبيوس، بطل مجلس الشيوخ رسمياً ، يطمح إلى شرف مماثل ، إن الخصام المسلَّح الذي انفجر ليس بين شخصين بقدر ما كان بين مفهومين سياسيين أي مفهوم جمهوري (أو على الأقل أوليغارشي) كان يعتبر أن رجال الدولة لا يمكن مبادلة مناصبهم ، يكلف كل منهم مؤقتاً بمهمة محددة ومحدودة ، باسم الشعب الروماني ، أي الجماعة السياسية ذات الرأسين المؤلفة من مجموع المواطنين ومن مجلس الشيوخ ؛ ومفهوم ملكي يدعو إلى السلطة ، لتمثيل الشعب الروماني ، رجلاً فرضته انتصاراته وماضيه ونوع من المبايعة ، هي صوت الشعب الذي يعترف به كقائد . هذه المبايعة أو بالأحرى

---

(1) شعبان جرمانيان تعاونا على مهاجمة غاليا (م) .

هذا الترشيح الشعبي كان عُرْفاً تقليدياً في روما . فعشية الإنتصار وفي ميدان المعركة بالذات كان من عادة الجنود أن يحيُّوا قائدهم باسم الإمبراطور . وكان يحدث أن يمنح مجلس الشيوخ نفسه هذا اللقب لدى تلقيه أخبار الإنتصار فيرسل للبطل الظافر لوحة الشرف محاطة بالغار . هذا اللقب ، إمبراطور ، الذي سيسمّى به ، بعد قيصر ، شخص الأمير نفسه (وسيحمل الأمير هذا اللقب كاسمه الأول) هو مثقل بالمعاني : إنه يعني أن الجنود (الذين كلهم مواطنون) يعترفون لقائدهم بحق الموت والحياة عليهم شخصياً ، وهو حق كان يكتسبه صاحبه قانونياً ولكنه أخذ يحصل عليه الآن بعمل إرادي ، ويعني أيضاً أن هؤلاء الجنود رأوا فيه ممثلاً لسلطة عليا تكاد تكون إلٰهية تقربه من الإله جوبيتير سيد روما ، ورمز السلطة المطلقة . ويصر قيصر ، بعد إنتصاراته ، على أن يحصل من مجلس الشيوخ « التماساً » موجهاً على شرفه ، إلى الآلهة ، وعند رفع هذا الإلتماس ، تفتح المعابد ويدعى المواطنون ، رجالاً ونساءً لشكر الآلهة على النعم التي منحوها للشعب الروماني بواسطة الإمبراطور الظافر . وهكذا يرفع الإمبراطور فوق سائر الناس ولن يكون له ند في المدينة .

وكان قيصر يطمح بالتأكيد إلى الملكية ، وهي ليست ملكية ملوك روما القدماء ولكنها أقرب إلى ملكية الملوك الهلينستيين ورثة الإسكندر . لقد كان مفتوناً بذكرى الفاتح الذي انطلق بحثاً عن نهاية الكون . فبعد أن بلغ الغرب الأقصى ، بغزوه بريطانيا ، كان يحلم ، في اليوم الذي اغتيل فيه ، يوم العيدس من آذار/مارس (أي الخامس عشر من الشهر) سنة 44 ق.م . بإعداد غزوة نحو الشرق . كان يحلم بأن يصبح سيد العالم المطلق . ولقد أطلق إشاعة أن الشرق لن يفتتحه إلا رجل يحمل اسم ملك .

لقد أراد متآمرو يوم عيدس آذار/مارس أن يصرعوا ذاك الذي دعوه مغتصباً ، الذي نشأ في الجمهورية بطريقة كانت تبدو لهم غير مسموح بها ، لكن عملهم لم يغير شيئاً من حقيقة الوضع . فكل المحاولات الهادفة إلى إعادة الأمور إلى نصابها القديم ، ورد الصلاحيات إلى مجلس الشيوخ وإرجاع الإمتيازات إلى الشعب ، لم تؤدِّ إلا إلى فوضى جديدة . إن الحروب الأهلية التي أنهت تفتيت الأرستقراطية ،



9 - منظر من الجهة الغربية لاكربول أثينا، وإلى اليسار، وراء بناء أغريبا، مدخل القلعة والبيناكوتيك وهيكل أثينا نيكه، وفي الوسط البارتينون وإلى يمينه الاركتيون



10 - الباستوم، هيكل بوزيدون. أواسط القرن الخامس ق. م

والتي دامت من سنة 43 إلى 31 ، أي منذ الحرب الذي قادها أنطونيوس وأوكتافيوس ، ابن الإمبراطور القتيل بالتبني ، ضد قتلة الإمبراطور ، الذين يرئسهم بروتوس وكاسيوس، إلى الصراع بين حليفي سنة 43 والتي انتهت بانتصار أوكتافيوس في أكتيوم في 2 أيلول/سبتمبر من سنة 31 ، كل هذه الحروب دلّت بوضوح على أن الجمهورية قد ماتت وأنّه لا مناص بعد اليوم من الإعتراف بضرورة وجود أمير ، رجل يبسط حمايته على كل ما هو روماني ، ويرسخ الوحدة ويقي الدولة من الإنشقاقات .

هذه الحقيقة الساطعة لم تفرض أولاً بالقوة ، لقد برزت في آراء المفكرين السياسيين وبالدرجة الأولى شيشرون الذي كان له الفضل العظيم في أن يجمع إلى ممارسة السلطة وخبرتها معرفة الفلسفات النظرية الموضوعة منذ أفلاطون حتى عصره ، وأن يستخرج منها دروسا لمصلحة روما . فبعد التجربة وفترة التأمل اللتين وفّرهما له نفيه في سنة 38 ق.م . في حين كانت السلطة بين أيدي الثلاثي ، الثلاثة المتعاونين : بومبيوس وقيصر وكراسوس الذين كان يضمهم حلف خاص استأثروا بواسطته لمصلحتهم بكل النفوذ . كان شيشرون منذ 55 ق.م ، أي ست سنوات قبل اندلاع الحرب الأهلية ، قد أعد نظرياً ما يجب أن تكون عليه الإمبراطورية بعد 25 سنة أي سنة 27 ق.م . لقد صمم نظاماً ينظم بواسطته المواطنُ الأول ، حامي البلاد ، ممارسةَ السلطة معتمداً على مجلس شيوخ يكون بمنزلة المستشار له وطالباً الموافقة على أعماله من قبل الشعب . وهكذا يتم الإجماع في الدولة . هذا هو الانسجام بين فئات الدولة الذي دافع شيشرون عنه طوال حياته وحاول أن يحققه عندما تسلم بعض المسؤولية . لقد علِم علْم اليقين أن آفة روما مصدرها الإنشقاقات التي حصلت بين طبقات الشعب وهي : القادة (مجلس الشيوخ القابض على السلطة السياسية) وكانوا دائماً على خلاف مع الفرسان ، أصحاب الثروات ومنظمي الإقتصاد في الامبراطورية وأخيراً الشعب الذي كان خاضعاً لمن يدفع له . إن الدستور الذي كان شيشرون يطمح إليه هو ذاك النظام الجامع الذي وضعه أرسطو وأيّده الرواقيون الذين أشادوا جميعاً بفوائد نظام ينسق بين الحكم الملكي وحكم الأقلية والحكم الديموقراطي ، متحاشياً التجاوزات ووضع العراقيل من قبل هؤلاء أو أولئك .

لكن شيشرون الذي كان يتصور المواطن الأول كخطيب فيلسوف على صورته

ومثاله انساق وراء الأوهام في وصفه الظروف التي يجب على هذا المواطن أن يرسخ سلطته ضمنها . ولا يمكن أن تكون هذه السلطة أخلاقية بحتة . وكان رجل الدولة الكهل هذا يعتقد أن على روما أن تتحاشى الثورات الدامية . إنه ليتذكر ذاك اليوم من كانون الأول/ديسمبر من سنة 63 بعدما أمر بإعدام المتآمرين على كاتيلينا[1] وعاد إلى منزله وسط هتافات الجماهير مقتنعاً بأنه استعاد إجماع الوطن بقوة كلمته التي وضعها في خدمة القانون . والواقع أن ولادة هذا النظام الجديد احتاجت إلى حمام دماء ، ليس فقط في روما بل في إيطاليا وفي كثير من الولايات . وأسباب ذلك كثيرة ، أولها ولا شك ، أن قيصر انتصر بواسطة القوة وأن النظام الجمهوري ، بعد أن رُسِّخ بالعنف ، احتاج إلى كثير من القوة ليصمد . وأن ورثة قيصر امتشقوا السلاح لينصروا ما كانوا يعتبرونه من حقوقهم ، وفي ميدان المعركة كان يتقرر مصير المنافسات . وامتدت سلسلة العنف الحتمية إلى حين لم يبقَ إلاّ منتصر وحيد . وتشاء الأعجوبة أن تنتهي هذه السلسة على أثر فوز أوغسطس ، والمؤامرات التي حيكت ضده قضي عليها بسهولة ، فهي لم تلقَ من الدعم ما لقيته مؤامرة عِيدِسْ آذار/مارس . لأن الظافر اتّخذ في أعين الرأي العام ، حجماً يفوق مستوى البشر ، وصفة إلٰهية لم يكن ليطمح إليها المواطن الأول لدى شيشرون .

---

(1) سياسي روماني محافظ أقليم في أفريقيا (108 ـ 62 ق.م) (م) .

الفصل الرابع

العنصر الإيطالي (2)
الإمبراطورية الرومانية

الفكرة الامبريالية

إن قيصر الذي كان يُؤلَّه قبل وفاته اعتُبِر إلهاً بعدها . وهناك تقليد قديم ، منذ رومولوس ، يجعل لملوك روما علاقة بعالم الآلهة . ورومولوس أيضاً ، الذي قيل إنه اغتيل على يد الآباء الذين حسدوه على أمجاده ، قد صعد إلى السماء . وما فعله قيصر هو تجديد لذاك الاعتقاد القديم لأنه يدعي أنه سليل الإله مارس (المريخ) . وقد حدث أن ظهر مذنَّب في السماء في الوقت المناسب للإدعاء بأن هذه روح البطل المغدور متجهة نحو مواطن الآلـهة . وأوكتافيوس الذي ادعى إرثَ أبيه بالتبني أصبح هو بدوره ابن الإله ، الأمر الذي أكسبه وهجاً جماهيرياً منقطع النظير . وكانت المناقشات السياسية حوله ، بعد ذلك ، تثير الشكوك حول المقدسات . وأنطونيوس ادعى أنه إله ، هو أيضاً ، وادعى نسباً خرافياً يصله بهرقل وباخوس وقد تزوج ملكة اعتُبِرت هي بدورها إيزيس الجديدة . وكانت هذه الإلهة الغريبة المجلوبة تؤثر في الرومان والإيطاليين أقل من تأثير مارس وقيصر . وبالإضافة إلى اشتباك الجيوش والأساطيل كان الآلهة ، على غرار ما يحدث في ملحمة هوميروس يتقاتلون : ومرة أخرى كان النصر حليف الآلهة الأوروبيين على آلهة الشرق الآسيوي والأفريقي . لقد تقمَّص أوكتافيوس شخصية الإله مارس ، وقيصر تقمص أبولـون الإله الهلِّيني والإيطالي معاً وقد تبنته روما منذ وقت طويل . أمَّا بالنسبة إلى أنطونيوس وكليوباترة ، لقد ادعى أنطونيوس أنه الإله ديونيسوس الذي فقد الرومان ثقتهم به منذ البداية ، ونفروا خاصة من الآلهة المصرية ذات الوجه الحيواني التي صوَّرتها دعاية أوكتافيوس في موكب كليوباترة .

وقد أسهم الشاعران مرافقا أوكتافيوس ، ڤرجيل وهوراس خصوصاً ، في بث

هذا التفسير للإنتصار على أنطيونوس . لقد استعادا عمداً الموضوعات القديمة التي انتشرت منذ أيام ماراتون وسلامين السعيدة وقابلا بين « الحرية » العزيزة على الشعوب الأوروبية والطغيان الذي يرضى به الأسيويون . فهذه الصورة الخرافية للحدث كانت تنطوي فعلياً ، على شيء من الواقع . لقد كان أنطونيوس يبدو وكأنه مكمل لقيصر ـ الملك ـ كانت له مطامح قيصر بالامبراطورية العالمية ، مملكة يتسلم زمامها في مصر والشرق عامة على حساب الوحدة الرومانية ، واستطاع منافسه أوكتافيوس (بل توجب عليه) أن يتنكر وألّب حوله الجمهوريين أو على الأقل لم يبعدهم عنه نهائياً . وقد احتفظ أوكتافيوس لنفسه من الملكية بما خوّله إياه النصر وبما سمح له أن يمارس على الدولة تلك الوصاية التي اعتبرها شيشرون ضرورية . ولقد غدا أميراً بعد أن حذف من الملكية كل مظاهر التعسف ولم يحتفظ إلاّ بلقب « صاحب الجلالة » الظافر ، سليل الألهة . ولقد تفتتت حاشيته من حوله بإعطاء شخصيته الساحرة تفسيراً رومانياً ، وبعد عدة محاولات خائبة فكرت بإعطائه لقب « أوغسطس » الذي يرمز إلى ما يجب أن يكون في روما « المواطن الأول » الوسيط بين المدينة وآلهتها (أي ما كان عليه القضاة المكلفون بالتعيين وليس بسبب سحر شخصهم) القائد المظفر في مخططاته في الداخل والخارج .

وإلى جانبه احتفظ أوغسطس بالنظام الجمهوري ، على الأقل في البنى الأساسية : مجالس القضاء ، ومجلس الشيوخ والمجالس الشعبية . ولكن عمل هذه المؤسسات كان خاضعاً لإشراف الأمير . وكان هذا الإشراف يمارس بطرق مختلفة ، فتارة يقلد أوغسطس مهمة القنصلية فيصبح رئيساً للهيئة التنفيذية ، وطوراً يتسلم « السلطة القضائية » الأمر الذي يجعله فوق القانون لا يطاله النقد وله الحق بمعارضة كل قرار يتخذه القضاة والأخرون . هذا النظام الذي تأسس كان نظاماً ملكياً بالقوة ، ومع ذلك لم يكن رئيس الدولة يفرض سلطته مباشرة وباستمرار ، كان يترك لسواه ممارسة هذه السلطة محتفظاً لنفسه بالتدخل عندما يرى ذلك ضرورياً . ويجب أن يكون تدخله حاسماً . وهكذا فبخصوص تعيين القضاة كان يوعز إلى الشعب بعدد من المرشحين تاركاً سائر المراكز دون مرشحين رسميين . وكان ، طبعاً ، القائد الأعلى للجيش ، الآمر (الامبراطور) . ولم يكن القادة الذين يأمرون فعلياً سوى نواب عنه . كانت مراسم العرافة وزجر الطير تقام باسمه ، وقد أصبح في وقت من الأوقات الوحيد الذي يحق له الاعتراف بالنصر .

وهكذا ولدت الإمبراطورية ، تلك الفكرة التي سحرت النفوس طيلة القرون الوسطى . بدايات أريد لها أن تكون متواضعة . كان يجب تحاشي اسم الملكية ومظهرها ، ولكن لم يكن كل شيء نفياً وهروباً في هذا النوع الجديد من السلطة الذي تسربت إليه عناصر رومانية عميقة الجذور ، منها الفكرة الراسخة في النفوس ، وذلك أن ممارسة السلطة هي ذات بعد ديني وأن أحد أهم الوظائف الأساسية هي ضمان « سلام الآلهة » .

فالإمبراطور هو الكاهن الأول في الدولة ـ وبما أنه الإمبراطور (الآمر) الذي هتف له الجنود ، فهو قائد المدينة ـ الدولة المسلحة ، ولأن الجنود الذين اختاروه هم جنود الفيالق والكتائب الشرعية المؤلفة من المواطنين ، فدعامتهم ليست القوة المحض ، إنها موافقة الأمة المسلحة وتأييدها ؛ وسلطة الإمبراطور في الداخل شبيهة بسلطة الأب أو ولي الأمر : تمارس بواسطة تقديم المشورة . وكما أن رب العائلة يستشير أقرباءه وأصدقاءه قبل اتخاذ قرار خطير ، فالأمير ليس فقط عنده ، ككل قاض مستشار شخصي خاص ، ولكنه يستشير مجلس الشيوخ الذي هو ، استناداً إلى تحديد شيشرون ، مستشار المدينة . . يتمتع الأمير بعظمة فائقة . إنه فوق أي مواطن آخر مع بقائه مواطناً . إن عظمته الإمبراطورية وشخصه السامي ، ربه الحارس (كل أب ، كل مسؤول عن عائلة ، عن بيت عنده رب حارس لكل أفراد أسرته أو جماعته) يسمو على جميع الآخرين ، وتقدم له فروض العبادة . وكذلك أفراد العائلة يكرمون شفيع سيدهم ، كما رعاع روما كانوا يقدمون فروض العبادة لرب أوغسطس الذي هو حاميهم أو بالمعنى الديني شفيعهم وحارسهم .

وهكذا نرى كيف أن التقليد الروماني القديم ذا النسب الشريف أسهم في تكوين الفكرة الإمبريالية . وينتج عن ذلك أيضاً أن الإمبراطور اعتبر على الفور كمحام وشفيع ليس فقط لسكان روما بل أيضاً لكل سكان الولايات مواطنين وغير مواطنين حتى العبيد . إنه رَب حارس ، منه تُنتظر العدالة وأكثر الأحيان ، الخلاص . وسكان البلاد البعيدة والطبقات الوضيعة تتوجه وترفع إليه التماساتها . هو القاضي الأعلى ، ويبدو أن صفة الإمبراطور الدينية كانت أكثر مراعاة في الولايات مما هي في روما . فمنذ وقت مبكر رفعت المعابد للإمبراطور . إن هذا التصرف التقوي العفوي بدأ يزعج الأباطرة الأولين الذين يتذكرون قيصر ، فعملوا على كتمان

ما في تأليه الأشخاص من إزعاج لروماني روما (وخاصة الشيوخ) بدمج أسمائهم ، في عبادة سكان الولايات ، باسم روما . وقد أصبح الإمبراطور وروما بعد قليل شيئاً واحداً . ولا يمكننا هنا تتبع ألوهية الإمبراطور في جميع تعرجاتها . ولكن خطوطها الكبرى واضحة . إن الاساس الأول لألوهية أوغسطس ، نسبه ، احتفظ بالإمبراطورية في بيت يوليوس ، ومن طريق التبني في بيت كلوديوس ، وانتهت ذرية أوغسطس مع نيرون ، ولكنه نسب مبني على عمليات تبنٍّ متعددة وصلات قرابة بعيدة . وحاول كاليغولا ونيرون أن يتخذا شرعية دينية معتمدين على تقليد أنطونيوس ، وألّه كاليغولا إحدى أخواته الميتة بإعلانها إيزيس ، وهو نفسه كان أحياناً كثيرة يخاطب جوبيتر في الكابيتول ، مخاطبة الند للند . وأظهر نيرون نفسه مثل أپولون جديد يعزف علي القيثارة ويقود العربة كالإله . ولكن إذا كانت هذه المحاولات ، وخصوصاً محاولات نيرون ، وجدت صدى مستحباً في الشرق ، فإن الأرستقراطية الرومانية لم تكن بعد مستعدة لتقبلها ولتجعل من أباطرتها آلهة أحياء . وعندما فرضت القوى المسلحة ڤسپازيان بعد ثلاثة انقلابات متتابعة ، انضم الرأي العام طوعاً إلى هذا البورجوازي الإيطالي الصغير الذي قبل مهمة الإمبراطور ولكنه سخر من المظهر الإلهي لهذه المؤسسة . وكان يكفيه أن يقوم بمهام العرافة كقضاة العهد السابق ، دون أن يدعي لنفسه الطبيعة الإلهية . ولكن ابنه الثاني دومتيان اقتنع بأن الإمبراطور بدون هالة العظمة الإلهية لا يقوم إلاّ بنصف دوره . وفتش دومتيان عن البراءة الدينية لدى هرقل ، الأمر الذي اعتبر منه ضربة موفقة ، لأن هرقل كان ، منذ أجيال ، يعتبر في نظر الرومانيين البطل الظافر المفضل ، الذي اكتسب خلوده بواسطة قوته وشجاعته ، وكان المنتصرون يقدمون له واجب الإحترام ، خلال حفلة دخولهم إلى الكاپيتول . وسيحتفظ الأباطرة بعد دومتيان بزمن طويل بذكرى هذا السحر الهرقلي الذي سيفرض نفسه ابتداء من اقتسام السلطات الإمبراطورية في القرن الرابع لأن أوغسطس يدعي نسب جوبيتير وقيصر ، معاونه والموعود بخلافته ، يدّعي النسب الهرقلي .

ولكن ثورة حدثت في البلاط أطاحت بدومتيان ، ومرة جديدة يحاول الآباء إعطاء روما أميراً قريباً من التقليد المدني القديم ، فاختاروا نِرْڤا وخلال قرن ظلت الخلافة الإمبراطورية تحدث بدون عنف ، فكل إمبراطور كان يعين خليفته مقدماً إيَّاه

على أنه « أفضل » رجل في الدولة . ومع ذلك فإن هذا التدبير لم يمحُ فكرة الألوهية عن المؤسسة بل العكس هو الذي حدث . فإن مديح پْلِينْ لتراجان ينبئنا كيف أن تفوق رجل يندمج حتماً بفكرة الألوهية . وقد جنَت روما ثمار هذا الإخصاب الطويل الأمد الذي عوّد النخبة الرومانية والإيطالية ، منذ منتصف القرن الثاني ق.م . قبول القيم الرواقية وممارستها . . إن الإنسان الباسل الحكيم ، بالنسبة إلى الرواقيين ، هو الإنسان الإلهي ، صورة الإله الأعظم على الأرض . ويصبح تراجان ، المواطن الأول الأفضل ، بين الرجال ، وكأنه جوپيتير ، الذي هو أيضاً الأفضل ، المعوان الأمين بفضل كماله الخلقي . وسيكون الأمير مقداماً وقوياً ، سيِّد نفسه وانفعالاته بنوع خاص ، وسيكون عادلاً لأنه الحاكم المطلق في الكون ، وسيكون بعيد النظر واضح الرؤيا حكيماً لقيادة شعبه . هذه الكمالات الأربع ، أو الفضائل الأساسية الأربع التي أبرزها الفلاسفة منذ أيام أفلاطون ثم أرسطو ، استخدمت لتحدد مواصفات الإمبراطور ولتحدد ألوهيته في حياته وتؤمِّن له التأليه بعد موته . ولا يبالي إذا شيدت له الهياكل في حياته ، على الأقل في الولايات ، لإن هذا التأليه يتخذ قيمة رمزية تبرز الفلسفةُ الايمانَ بها . ولا يحتاج الأمير ، مثل كاليغولا ونيرون ودومتيان ، إلى أن يلجأ إلى مظاهر تصدم العقلية الرومانية القديمة وإلى قيادة العربات والظهور على المسرح والنزول إلى الحلبة ليثبت قوته ، إن روحاً الهية تسكنه ، ومن الضروري أن يكون كذلك ، لأن جوپيتير دعاه ليحكم العالم الفاني كما يحكم هو بعنايته الكون أجمع . ويتبارى الشعراء في كشف تجليات هذه الروح الإلهية ، في جميع المناسبات . كما فعل مارسيال[1] بخصوص الألعاب التي رافقت تدشين الكوليزه[2] . والإمبراطور هو سيد الحيوانات التي تكتشف فيه قوة تفوق القوة البشرية فتنحني أمامه . إن تملق شاعر يعني أن شعوراً يتولد في العقول والألباب . فالأمير هو حتماً ذو طبيعة إلهية : هو ممثل العدالة الخالدة على الأرض وممثل القوة التي تنظم الكون وتحرِّكه . إن ما هو مفهوم فلسفي عند الشيوخ والنخبة هو دين عزيز عند الآخرين . والمعتقدات القديمة في الشرق تجتذب إليها الديانة الإمبريالية . إن عبادة الشمس القديمة الشائعة بين الساميين في سوريا وفي مصر تستعيد بواسطة

---

(1) Martial شاعر لاتيني (40 ـ 104 ب.م) صديق پْلِيْنْ الفتى وجوفينال ، مؤلف 15 كتاباً في الهجاء .
(2) Le Colisée مسرح روماني وضع له ڤسپازيان الحجر الأساس ودشنه تيتوس سنة 80 (المترجم) .

عبادة الميطرا[1] لدى الشعوب الآرية في آسيا الصغرى ، عند الامبراطور ، معناها السياسي القديم . وهذه الحركة يمكن إماطة اللثام عنها في معرض الحديث عن نيرون . وأصبحت شديدة الرسوخ مع سلالة آل ساويروس في نهاية القرن الثاني ق.م . وفي بداية القرن الثالث . وبعد ذلك بقليل نلاحظ على عملات كل الأباطرة ، حتى الأقصر عهداً ، صورهم تتوّجها الشمس . وفي نهاية القرن يجعل أورليانوس عبادة الشمس الإله رسمية ويعتبر نفسه ممثّلها على الأرض .

إن الصورة المجردة للإمبريالية ، بسلوكها دروب الفكر والدين ، تتلون تبعاً للأزمان والأمصار وتبعاً للعادات الروحية لكل واحد ، بألوان مختلفة ، ولكنها تتخذ على كل هذه الدروب مفهوماً كونياً ، فالامبراطور من الناحية الحقوقية هو سيد العالم ، حتى الشعوب التي لا تعترف بقوانينه . إن له عليهم حقاً ساطعاً يرتكز على عدالته وعنايته ، هو حامي القانون والمدافع عن الجميع : تساعده الآلهة في مهمته وتجترح العجائب لمصلحته ، وتسقط الأمطار عندما يشعر جنوده بالعطش مثلا ؛ إن التمرد عليه يعتبر خطيئة بحق الآلهة .

البنى الروحية

انطلاقاً من القرن الثاني لعصر كان فيه العالَم الروماني يشتمل ، فعلياً ، على مجموع الناس الذين ينتسبون إلى مثال واحد يُخْتصر بكلمة حرية : الحرية هي أن يكون الإنسان حراً ، هي حالة تعطيها قوانين يوستينيانوس التحديد التالي : « الحرية هي الإمكانية التي توفّرها الطبيعة لكل إنسان كي يقوم بما يحلو له سوى عرقلة العنف أو إحقاق الحق » والإمبراطور ليس ملكاً ، والدولة هي ، قانونياً ، جمهورية ، هي هيئة عامة ، وليس الإمبراطور ، كما أوضحنا سالفاً ، سوى المواطن الأفضل « المواطن الأول » . ليس هو كالملك ، قانوناً حياً ، إرادته ليست تعسفية ، ومقرراته ، إذا كان لها قوة القانون ، تقدَّم على أنها تفسير للحقوق ، وهي في أكثر الأحيان مبنية على اجتهادات سابقة وإذا كانت جديدة يجب أن تبرر عقلياً أو قانونياً . يتصرف الإمبراطور كالقضاة الذين خلفهم وبالحكمة نفسها التي كان يتحلى بها القضاة البلديون قديماً إذ يذيعون مرسوماً عندما يتسلمون وظائفهم ، يحددون فيه

---

(1) Mithra : إله إيران القديمة متفرع من ميطرا الهندي . يعني اسمه العَقْد وهو إله قطعان الثيران ـ م ـ .

المبادىء التي سيعملون بموجبها لإحقاق الحق . ومنذ عهد هدريانوس لم يعد مرسوم القاضي سنوياً ، أي قابلاً للتعديل ، لقد أصبح ثابتاً ويؤلف قانوناً حقيقياً .

إن إعداد القانون المرشح للحرية الحامي المواطنين من الاعتباطية هو خاص بالعالم الروماني . وقد ترك بصماته العميقة على تاريخ أوروبا . لقد جسد الطموحات القديمة التي سُمعت أصداؤها إبّان الحروب الميدية . وستبرز أوروبا موئلاً للحرية ، أرضاً لا تخلق القوة فيها قانوناً ، بمقابل البلدان الخاضعة للبرابرة في الغرب والشرق ، جرمانيين وپارثيين حيث الحق هو تعبير واضح وبسيط عن الانتصار المسلّح ، وستفرض هذه الفكرة نفسها إلى درجة أن صورة الإمبراطور يوستنيانوس ، المشترع الكبير ، كما نراها في كنيسة سانت ـ ڤيتال في راڤينا[1] ستجسد ، بالنسبة إلى دانتي ، في رؤى الجنة ، روح الإمبراطورية نفسها .

ليس من الممكن أن نرسم هنا مخططاً لما كان عليه القانون الروماني الذي أسهم إسهاماً فعالاً في تكوين الإيديولوجية الأوروبية ، بل نكتفي بأن نذكر أنه أبرز ، على المدى الطويل ، بعض المفاهيم أو بالأحرى بعض مسلمات الوضع البشري ، كاحترام الإنسان في حياته وجسمه وممتلكاته . إن حكماً واحداً تصدره محكمة تمثل مجموع المواطنين يمكن أن يسيء إلى إنسان ما أو إلى الآخرين . والحقيقة أن الإمبراطور يملك ، بحكم موقعه ، حق استخدام السلاح ، والسلطة العسكرية التي تظل ممارستها استثنائية ويجب أن تبرَّر بظروف معينة أو بجرائم خارجة عن المألوف . وفي الحياة العادية لا يبدو الأمبراطور كمغتصب بل بالعكس ، إنه ضامن العدالة والمساواة ضد التعدِّيات المحلية . ولكل مواطن الحق باللجوء إليه فلا يتوانى عن تلبية النداء ، حتى إن ديوان الرسائل الإمبراطوري يغص بالرسائل وعلى الدواوين أن تجيب على كل هذه الطلبات . وتحفظ الأجوبة الإمبراطورية فتصبح مصدراً تشريعياً . ويبدو الإمبراطور كمجتهد أكبر ، أكثر مما هو جندي ، كما يفترض أن يكون بحكم لقبه . إن التقليد المدني الخاص بالمدينة الرومانية يتغلب على الوظيفة العسكرية، ونستعيد هنا صدى الجملة التي تفوّه بها، ذات مرة، شيشرون الذي انتصر بالوسائل الشرعية (أو كاد) على العنف والحرب التي شنها على الدولة

---

(1) Ravenne مدينة إيطالية في مقاطعة إميليا ـ م ـ .

اليونانية : « فَلْيَتوارَ السلاح أمام ثوب القضاة » . إن تفوق السلطة المدنية والسِّلم على الحرب ظل فكرة مثالية بعيدة ، لا شك ، على مر العصور ، ولكن الشعوب المتفرعة عن الإمبراطورية لم تفتأ تتطلع إليها . ـ ولقد أشار تاسيت وقيصر إلى أن الجرمانيين كان يحدوهم مثال آخر هو كراهية السلام والاستقرار (والكلمتان تعنيان شيئاً واحداً في اللغة اللاتينية) إنهم متنقلون باستمرار ويرفضون الاستيطان . والمصدر الأساسي لاقتصادهم هو النهب ، وكل ملكية عندهم ، هي وقتية يمكن نقضها ، وكل هذه المؤسسات كان ينفر منها الرومان . ففي داخل حدود الإمبراطورية أي على خط ممتد من مصب الرِّين إلى مجرى الدانوب ومن القوقاز إلى الفرات ، مع بعض التبدلات المختلفة ـ وأخيراً من السودان إلى حدود الصحراء فإلى أطراف الأطلس ، وطنت الإمبراطورية الرومانية الناس أو حاولت توطنيهم . بدأ هذا التطور في إيطاليا ، حيث كانت شعوب الداخل ، كما حددنا ذلك لدى ذكرنا لبدايات روما ، لا تزال نصف مترحِّلة ولا تعرف إلاَّ القرى ـ الملاجىء . وشيئاً فشيئاً تطورت المدن السكنية واتخذ العالم القديم الشكل الذي نراه في القرن الثاني من عصرنا ، حيث الأماكن الشاسعة التي تنتشر عليها المدن ، أي المدن ـ الدول المتضامنة مع روما أو المندمجة مع مستعمرات المواطنين الرومان . هذه المدن الدول تجمعت في ولايات ، يبرر وجودها تاريخ الشعوب الموحدة مع الإمبراطورية أكثر مما تبرره التقسيمات الإدارية المناسبة . لم تعامل روما التقاليد المحلية بقسوة . فالولايات التي رسمتها ظلت تظهر فيها التجمعات البشرية السابقة وكانت تسمح لها بالتطور . وهكذا لقد بدأت ترتسم داخل الإمبراطورية معالم دول أوروبا المستقبل . فعلى سبيل المثال كانت بلاد الغال ، التي احتلها قيصر ، محمية بشريطين ألمانيين يفصلهما الرين حيث تتمركز على امتداده الفيالق المعدة لصد غزوات البربر . وكانت بلاد الغال هذه مقسمة إلى ثلاثة أقسام : غاليا البلجيكية في الشمال ، وغاليا السلتية في الوسط ، وأكيتان في الجنوب : ثلاثة مثلثات كبيرة يقع رأسها المشترك عند مدينة ليون حيث تلامس أقدم ولاية غاليَّة هي ولاية ناربون . ولكن هذا التقسيم تلاشى شيئاً فشيئاً . لقد برره ، ظاهرياً ، وجود إتحاد بين السكان الغاليين . وابتداء من حينه ، راحت جاذبية الحضارة الرومانية تمحو الفروقات الموروثة ، وتولَّد وعي غالي مشترك لم يوفق إلى التماسك زمن الاستقلال ولكنه انتشر حول معبد ليون حيث يلتقي ، ليس فقط السون والرون ، ولكن الشعوب الغالية التي جاءت تقدم

فروض العبادة لآلهة روما وأوغسطس .

هذا التطور الذي حدد الولايات ومهد لتكوُّن الأمم يبرز بشكل واضح وملموس خاصة بالنسبة إلى غاليا . ولكن يمكن العثور عليه في أجزاء أخرى من الإمبراطورية ، كما في إسبانيا حيث تسهم روما في دمج مختلف الشعوب وتلغي فوارق اللغة والتقاليد السياسية والبنية الأقتصادية . ويطبق العمل التوحيدي نفسه في بلاد الألب وولايات الدانوب حيث استطاعت روما أن تتجاوز ، جزئياً ، التجزئة القبلية السابقة . ويتسع أفق الحياة الإجتماعية والسياسية إلى البلاد التي كانت منذ قليل بربرية .

وفي الشرق حيث مارست الممالك الهلينستية عملاً مماثلاً دون أن تتوصل إلى إزالة كل الخصوصيات ، نجحت روما في أن تعطي الهلينية وعياً أكثر وضوحاً لوحدتها الروحية وسهلت انتشارها في الوقت الذي كان السلام المستتب يسمح بنهضة ثانية .

وبالرغم من أنه كان يوجد في الإمبراطورية نصفان لا يتكلمان لغة واحدة ، كانت اللاتينية اللغة الرسمية في كل الولايات الواقعة غربي الأدرياتيكي وغربي الصحراء الليبية . وكانت اللغة اليونانية شرقي هذا الخط ؛ وبالرغم من كل ذلك ظلت وحدة الإمبراطورية قائمة لمدة طويلة . وكانت مكاتب الإمبراطور ، منذ أوغسطس تجيب على الطلبات بإحدى اللغتين بحسب الولايات ، وكانت الأفكار والرجال تنتقل بكل حرية من سوريا إلى غاليا ، وكان السوفسطائيون اليونانيون من آسيا أو من مصر أو من اليونان نفسها ، يأتون غالباً ليلقوا بخطبهم في مدن الغرب . وبالمقابل ، كان علماء بيان أو خطباء غاليون وإسبانيون يرتادون المدارس في أثينا وپرغاموس . كل مواطني الإمبراطورية ، حتى الطبقة الشعبية أحياناً ، كانوا يتكلمون لغتين . كان الأولاد يبدأون بتعلم اليونانية ، حتى في روما نفسها ، ثم يحصلون فيما بعد على تنشئة رومانية . وهكذا كان التقليديان الروحيان والأديان يتعايشان في ذهنية واحدة .

ومن الخطأ أن ندَّعي أن هذه الازدواجية الثقافية في العالم الروماني هي التي أدت ، بعد القرن الرابع ، إلى قسمته إلى نصفين بين امبراطورية غربية وامبراطورية شرقية ، الأمر الذي ترتب عليه نتائج خطيرة بالنسبة إلى تاريخ أوروپا وتكونها . فإن

الأسباب التي فرضت نقل العاصمة من روما إلى القسطنطينية كانت أسباباً عسكرية بحتة . لقد وجد الغرب مهدداً بضغوط متزايدة من قبل البرابرة الذين اندمج قسم منهم سريعاً في إطار الإمبراطورية . هل توهم قسطنطين أن هذا العمل كافٍ للحفاظ على الديموقراطية ؟ هل اعتقد أن الأخطار المباشرة الآتية من الشرق تهدد ، بنوع خاص ، جبهة الدانوب وتراقيا ؟ ومهما يكن من أمر ، فإن القرار الذي اتخذه بنقل مركز السلطة إلى الشرق ، كان من نتائجه ، بعد عدة أجيال ، زوال روما في الغرب .

وعندما حاول الأباطرة بعد قسطنطين استعادة الولايات الغربية التي سلمت للجرمانيين رفضت الشعوب الإيطالية ذلك لأن الأمر بدا لها وكأنه مخطط أمير غريب أكثر مما هو عودة إلى نظام سابق . ولم تكن رافينا ، آخر مدينة آوت عاصمة الإمبراطورية الغربية ، سوى رأس جسر متداع في يد البيزنطيين .

إن المعارضة السياسية ونقل القوة الذي جرى لمصلحة البرابرة في غاليا وإسبانيا وإيطاليا وأفريقيا لم تكن هي العوامل الوحيدة التي أسهمت في شق الإمبراطورية وفي بروز شعوب على أطلالها . فالخلافات الدينية سرعت هذا التطوُّر . فبعد أن كانت هناك ديانة واحدة هي الديانة المسيحية أصبحت ديانة الدول مع قسطنطين . وعلى نقيض ذلك فإن الوحدة الروحية التي عرفتها وحققتها الوثنية تحطمت ، وأسهمت عدة انقسامات وانفصالات وهرطقات بحفر وَهْدَة لا تزال تعتبر إلى اليوم صعبة العبور بين الشرق والغرب .

وقبل أن يحمل القرن الثالث من عصرنا هذا إلى الإمبراطورية سلسلة من الثورات واغتصاب العروش التي رافقها إفقار عام وتقهقر التجارة وصعوبة نمو المواصلات البرية والبحرية ، كان العالم الروماني ، في أوج مجده ، قد منح الناس الذين يعيشون داخل حدوده ، ليس فقط السلام ولكن أيضاً تقاليد حياتية وأفكاراً مشتركة .

وشيئاً فشيئاً زال التمايز القانوني بين المدن والناس . ففي سنة 212 ب.م أعلن كراكلا ، في مرسوم شهير ، أن كل الرجال الأحرار سيصبحون ، من الآن فصاعداً ، مواطنين رومانيين بكامل حقوقهم . ومهما كانت أسباب هذا القرار فقد كانت له نتائج هامة . إن روما أصبحت على أثره وطناً ، وطن الجنس البشري ،

الوطن الذي يطمح ليكون عالمياً أو كما يقال باليونانية « كاثوليكياً » . إنه مطمح يناقض الإمبريالية ، إذا صح أن كل إمبريالية تفترض وجود سادة وأتباع . وأصبحت كل شعوب العالم ، قانونياً ، رومانية الأمر الذي يبسط إلى حد كبير عمل المكاتب الإمبريالية ويكرس ، على الأخص ، واقعاً قائماً في نهاية تطور دام خمسة أو ستة أجيال .

وفي الحقيقة أن مفهوم « حق الإنتساب إلى المدينة » لم يكن له المعنى الذي عرفه في نهاية الجمهورية . . فإنه لا يعني أنْ يشترك المواطنون في الحياة العامة في روما ، فهذه كانت مقصورة على الأمراء . . ولكن كان هذا الحق يفرض حماية متساوية من قبل القانون والمشاركة في امتيازات المواطنين الضرائبية والقانونية .

في الواقع كانت المشاركة في الحياة العامة تحدث داخل المدن . إن الاستقلال الذاتي للمدينة هو أحد أقدم المبادىء وأثبتها تطبيقاً في الإمبراطورية الرومانية . وكان لكل مدينة صغيرة مجلس بلدي يناقش كل المسائل المحلية وإدارة الأموال والعلاقات مع المدن المجاورة وبناء الأبنية العامة أو صيانتها ، ويسهر على تطبيق العدالة وذلك لأسباب قليلة الأهمية أو متوسطتها (مع الأخذ في الحسبان طلب مساعدة الأمير) . وكان مجلسان قضائيان يمارسان السلطة التنفيذية والقضائية على غرار ما كان يحدث منذ وقت طويل في روما الجمهورية . ويمكن القول إن الإمبراطورية كانت ، في تلك الفترة ، ملكية مؤلفة من إتحاد جمهوريات : إن هذا النظام الذي كان يوفِّق بين نظامين مختلفين في الظاهر ، يتطابق مع ما تواضع عليه الفلاسفة السياسيون في روما ، انصار الأنظمة المختلطة ، كما نوهنا بذلك في معرض حديثنا عن أصول الجلالة الإمبراطورية . وكان من حسناته الظاهرة أنه يعطي المواطنين مسؤوليات مختلفة ويوفر لهم ، في إطار حياتهم اليومية ، صورة عن الحرِّية وممارسة لها . وكان يقدم ، بالإضافة إلى ذلك ، ضمانات الاستقرار ، حتى عندما يشعل المغتصبون حرباً أهلية ، تظل المؤسسات تقوم بخدماتها ، الأمر الذي يحد من الفوضى ، كما لو كانت حاجزاً واقياً .

من ناحية أخرى ، إن الحياة المدنية ، بخلقها ما يسمى « الأوطان الصغيرة » ، كانت ترضي شعور الجميع ، بتقديمها للطامحين رغبات سهلة المنال ، وبسماحها للذين قضوا حياتهم يعملون بعيداً ، في الإدارات الإمبراطورية ، مثلاً ،

واكتسبوا بعض الشهرة ، بالعودة إلى المدينة الصغيرة مكللين بالأمجاد . نعرف الكثير من الأمثلة على هؤلاء الحكام والكتاب والفلاسفة والخطباء والشعراء الذين استحقوا من مواطنيهم شرف تكريمهم بتمثال أو بتخليد ذكراهم على بلاطة ضريحهم أو بمرسوم تنويه يصدره أعضاء المجلس البلدي أو المستعمرة . ولا شك في أن أشهر هؤلاء هو پْلِيْنْ الفتى[1] ، من مدينة كوم[2] ، الذي أصبح المدافع عن هذه المدينة والمحسن إليها . وكذلك نعرف الشرف الذي مُنِح لمادور (Madaure) في أپوليه[3] ، الفيلسوف الأفلاطوني الذي لمع في قرطاجة . إن مجموعة النقوش التذكارية تحفظ أسماء الكثير من الأمجاد التي لولا هذه النقوش لضاعت في ظلمات التاريخ .

إن ذكرى هذه الحياة المدنية ظلت حية إلى ما بعد نهاية العالم الروماني بوقت طويل . هذه المؤسسات وأخرى تشبهها ستعيش متمتعة بنشاط يضاهي ما يعطى لهذه البلدان من الصفة الرومانية .

لقد حققت روما أيام السلم مِثالاً هِلِّينياً قديماً أي حضارة مدينية بحتة ولكن دون أن تستدعي هذه الكلمة معاني مكدِّرة مزعجة وفظة ومغالية . إن التمدن الروماني هو نوع من اللطف والتهذيب والظرف والثقافة التي تجعل الناس يتمتعون بالعيش . يعاون بعضهم بعضاً دون أن يكونوا أصدقاء . هذا النوع من التمدن يوجد في غير روما أيضاً ، إنه يسود أقصى المدن ويستمر معتمداً على التنشئة الهلينية التي تكونت هي أيضاً من ثقافة فكرية وأخلاقية .

أعطت الإمبراطورية الرومانية الناس منهجاً سياسياً ، وفي الوقت نفسه ، نوعاً من فن الحياة حيث يقضي المواطنون ساعات طويلة جنباً إلى جنب ، أكثر ربما مما يعيشون في بيوتهم الخاصة . إنه ذاك النوع من الحياة الذي يجمع الناس ، كل مساء ، عند الحمامات الساخنة ، وكل صباح للتداول في أعمالهم في ميدان روما (Forum) . إن المدينة الرومانية ، عندما تزدهر ، فأول شيء تقوم به هو إنشاء ساحة

---

(1) Pline le jeune (61 ـ 114) محام شهير وقنصل وسفير الإمبراطور في بِتِيْنْيا . وكان خطيباً من الدرجة الأولى . (المترجم) .

(2) Côme : مدينة إيطالية في الشمال (لومبارديا) ـ م ـ .

(3) Apulée : منطقة في جنوبي شرقي إيطاليا ـ م ـ .

أفسح وأجمل لأن فيها يتجسد كيان المدينة .

ولكن الإمبراطورية الرومانية نشرت ، بشكل أكثر عمقاً ، ورسوخاً ، وفي كل المدن التي تتألف منها ثقافة فكرية حية هي مزيج من الهلينية واللاتينية . هذه الثقافة كانت تعمل على نشرها مدارس عديدة ، تقوم بنفقاتها المدن أو المواطنون الأغنياء وتجتذب معلمين من ذوي الشهرة . إن أحط المواطنين أي العبيد كانوا يحسنون القراءة والكتابة . كان طلاب المدارس يقرأون ويدرسون مؤلفات الكتاب العظام وخاصة الشعراء والمؤرخين والخطباء ، وكانوا يجهدون بالمحافظة على نقاء لغة روما في مواجهة لهجات الولايات . والمقصود بذلك الحفاظ على الوحدة الروحية ونوعاً من المثال الرسمي للجمال .

إن الشكلين اللذين كانا يعتبران أسمى أشكال النشاط الفكري هما الشعر والخطابة ، فالشكل الأول يعتبر شاهداً على الذهن المتوقد والتضلع من اللغة تضلعاً تاماً ويتناسب مع العلاقات الدنيوية ، وفقد الثاني ما كان يعتبر فيما مضى قوام عظمته ، عندما أصبحت الحياة السياسية متعلقة بالشعب ، أو كما قيل ، كان الشعب مرتَهَناً للكلمة . ولكن نوعين من الخطابة استمرًا : هما الخطابة القانونية وخطابة التباهي والظهور . كان النوع الأول محترماً جداً في المجتمع حيث كانت المحاكمات كثيرة وحيث كان لكل الحكام قضاة وكانت خطابة المباهاة كذلك رائجة . أن يكونَ الإنسان خطيباً بليغاً أي أن يسحر ألْباب سامعيه ، في أي موضوع كان ، بدقة تقريظ الريح أو الأزهار ، مثلاً ، هو أحد إبداعات الفكر البشري بل الإنسان بالذات . إن مهارة الخطيب في الدفاع عن قضية وعكسها على التوالي ، وإقناع الجمهور بإنه على حق لم تكن تشكك أحداً من الناس . كانوا يحضرون مشهداً إيمائياً أو حفلة موسيقية . وهكذا تكوُّن مثل أعلى إنساني رسمه السوفسطائيون وانتقده سقراط بعمق ، وعرضه بإسهاب شيشرون ورجال الدولة الآخرون الذين حافظوا على استمرارية روما أثناء الحروب الأهلية ؛ هذا المثال الذي حددته فيما بعد جملة مشهورة بأنه « الرجل الصالح الحاذق في الكلام » اصطبغ شيئاً فشيئاً بالفلسفة . إن قيم الرواقيين الأدبية التي تضع الإخلاص للطبيعة فوق كل اعتبار والقيم الأفلاطونية التي تمجد النشاط الفكري وما يسمَّى عبادة أرباب الفنون . والتقليد الروماني الذي يُحصي بين الفضائل الأساسية الإخلاص للمدينة والكرم

بالنسبة إلى الأغنياء وقبول المسؤوليات ، كل بحسب منزلته الإجتماعية ، كل ذلك كان يسهم في رسم صورة جديدة للإنسان الروماني ، للرجل الذي يستحق هذا الإسم .

وظلت هذه المفاهيم تعبر عن نفسها حتى نهاية العصر الروماني ، إننا نعثر عليها في مؤلفات أوزون[1] مثلاً ، وظلت حية ناشطة في مدارس غاليا وإسبانيا ، وفي كل محلة ظل فيها النظام الروماني على قيد الحياة . والمعلوم أن سحر إغرائها ظل قوياً بعد الموت السياسي لروما بزمن طويل ، لقد اتحدت بمثال الإمبراطورية بالذات . وليس صدفة أن نهضة شارلمان أعادت الإعتبار إلى المظهر السياسي للتقليد الروماني وإلى مظهره الثقافي . وقد أسهمت ذكرى ڤرجيل وشيشرون وسينيكا إسهاماً عظيماً بتكوين أوروپا ، موفّرة نوْعاً من مرجعية روحية عمت الشعوب التي تتألف منها . ولا تزال أوروپا ، حتى يومنا هذا ، توفق إلى وعي ذاتها وتحديد ذاتها .

الرِّق

إن إحدى المميزات البارزة في العالم القديم وأحد الفوارق التي تميزه عن العالم الحديث هي بكل تأكيد وجود الرِّق . هذه المؤسسة الغريبة في ظاهرها عن المجتمعات الهندو ـ أوروپية ، انتشرت في العالم اليوناني كما في العالم الإيطالي ، ويبدو أن الرق كان ، في بداية أمره ، يستخدم كيد عاملة وكان يتألف من أسرى الحرب والغرباء عن الدولة الذين ليس لهم من حق إلّا ما تريد الدولة أن تعترف لهم به . وكان رجال القانون الرومان يعتبرون أن العبيد تطبق عليهم « حقوق الأمم » على قدم المساواة مع أي غريب ليس لدولته أية علاقة بروما لا بمعاهدة ولا باتفاقية صداقة .

وبما أن العبيد لا ينتمون إلى جماعة المواطنين فلا يحق لهم عقد معاملات زواج معترف بها من قبل الدولة ، فلا يمكن « اذاً أن يكونوا آباء » ولا يمكنهم أن يملكوا شيئاً ولا أن يدافعو عن أنفسهم أمام المحاكم ، بل يظلون بكليتهم تحت سلطة سيدهم . وهذا يستتبع أن أولادهم هم أيضاً عبيد .

وانطلاقاً من هذين المصدرين ، حق الفتح وواقع الولادة ، تكونت طبقة رقيق

---

(1) Ausone : شاعر لاتيني (310 ـ 385) ـ م ـ .

يصعب الإلمام بتاريخها لأن الأدلة المتعلقة بذلك هي نادرة وجزئية وأكثر الأحيان غير مباشرة . ومع ذلك فإن ما يمكن أن نستشفه يسمح لنا بالإعتقاد بأن وجود العبيد لم يكن قليل التأثير على تكوُن بنية الحضارة القديمة .

إن هذا التأثير متعدد الوجوه ، فوجود الكثير من العبيد أسهم بالتأكيد في رسم صورة الإنسان « الجميل الصالح » الذي يعتبر المثال الأعلى الهليني الكلاسيكي . ويرجع أرسطو بإستمرار إلى كمال هذا الانسان المولود في دولة سعيدة محرر من الأشغال المادية ، المعفى من كل جهد غير جهد التمارين الرياضية المتآلفة . إن تفوق هذا الإنسان يكمن في عقله . وسكان الأرياف الأتيكية هم غالباً مواطنون ، يتحولون إلى فلاحين أجلاف لمجرد ممارستهم أشغال الحقول يفقدون آسم الرجال الأحرار . وكذلك في عهد ميناندر[1] كان الرجل الغني الذي يقرر أن يفلح حقله بنفسه يعتبر إنساناً غريباً كارهاً للبشر ، أو شخصاً يتآكله وسواس عمل قبيح .

أما في روما فلم تكن هذه الرغبة موجودة ، بل على العكس من ذلك لقد كان أرباب العائلات يتباهون باستثمار أراضيهم بأنفسهم . ولم يكن العبيد ، حينئذٍ ، في روما البدائية سوى مساعدين لأسيادهم . لقد اندمجوا بالعائلة بطريق أوثق مما كانوا عليه في اليونان ، كانوا خدّاماً منزليين . ووجد في روما أيضاً منذ وقت مبكر ، مرجع للعبيد الذين يسيء أسيادهم معاملتهم . يمكن أن يلجأوا إلى القاضي البلدي إذا لم يقدم لهم الطعام أو الكسوة بشكل كافٍ . إن اقتصاداً محدداً يؤدي ، في وقت يندر فيه المال ، إلى مراعاة العبد الذي يشارك في فروض العبادة المنزلية ، إذ يقدم كل شهر مع رب البيت ، أو بالنيابة عنه ، البخور للأرواح المنزلية ، وإن الشخصية التي لا يمتلكها قانونياً أعطيت له إلى حد ما أخلاقياً . إن صفته الإنسانية خولته ألّا يعتبر ، كما أراد أرسطو ، « كآلة » ، أو كمطية . وبالإضافة إلى قوانين المدينة كان هناك « حقوق الأمم » وهي حقوق طبيعية يتمتع بها العبد . وأخيراً فإن العبد يمكن دائماً أن يحرَّر وعندئذٍ يصبح مواطناً . وعندما يعتق يصبح مديناً « لمولاه » (الذي هو بمنزلة الأب) ببعض الخدمات التي لم تحدَّد جيداً ، فيظل تحت رعايته الإقتصادية ، إلى حد ما ، خاصة بالنسبة إلى الإرث (تعود أملاكه بعد موته إلى

(1) Ménandre شاعر هزلي يوناني (342 ـ 292 ق.م) ـ م ـ .

مولاه) ، ولكن هذه الصلات تتلاشى في الجيل الثاني ، فإن ابن المعتوق هو مواطن عادي كالآخرين .

وكانت عمليات الإعتاق تحدث بكثرة ، وبمقدار ما كان يزداد عدد العبيد كانوا يزيدون كل سنة عدد المواطنين الجدد زيادة هائلة ، إلى درجة أن أوغسطس اضطر إلى تسجيلهم والحد من عددهم . هناك قوانين كثيرة كانت تحدد عدد الرقيق الذي يمكن للسيد أن يحرره بوصية بالنسبة إلى عدد العبيد الذين يمتلكهم . وكذلك كان ينفى إلى خارج روما العبيد العتقاء الذين تعرضوا أثناء استرقاقهم لأحكام قاسية من قبل أسيادهم أو الحكام العامين. وكان يحظر على الأسياد، إلّا بإذن خاص، تحرير العبيد إذا كانوا دون الثلاثين من العمر ، كما يحظر على السيد الصغير السن استخدام حق الإعتاق إلّا بإذن بالموافقة من الحاكم . . وتدل هذه التدابير على وعي أوغسطس التام لنتائج التحرير الكيفي على المجتمع الروماني . إن التقاليد الوطنية التي هددتها الحروب الأهلية بشكل خطير والقضاء على أرباب العائلات الأساسية القديمة التي انحازت إلى بومبيوس أو إلى أنطونيوس واجتزاء أملاك الشيوخ ، وكل التغيرات الإقتصادية التي سببها اندماج الشرق في كيان الإمبراطورية على مدى أجيال ، كل ذلك كان يتهدده الزوال. وإذا كان المقصود الحفاظ على الأصالة الأخلاقية لروما وما سبّب عظمتها ، لقد كان من الضروري عدم إغراق الرجال الأحرار في فيض من العتقاء الذين كان يخشى أن يغذوا بعض الحقد على المجتمع الذي جعل منهم عبيداً .

ولم يكن القانون اليوناني ولا الأخلاق تحول دون اندماج من كانوا عبيداً سابقين في جسم الدولة . وكانت الأخلاق تسجل سبْقاً على القانون ؛ فبالرغم من أن العبد لم يكن له الحق قانونياً في أن يُجري عقد زواج ، إلّا أنه ، في الواقع ، وابتداء من الحكم الجمهوري حدثت عمليات زواج كثيرة بين العبيد اعترفت بها السلطة ، وأكثر من ذلك لقد حدث أن نساءً أحراراً تزوجن من عبيد . وكان للأولاد الذين نتجوا عن هذه الزيجات وضع أمهاتهم فكانوا مواطنين يتمتعون بكامل حرياتهم . وتكاثرت هذه الزيجات إلى درجة أن الإمبراطور كلوديوس وجد أنه من الضروري تحديد نتائجها ، فأعلنت محكمة مجلس الشيوخ ، بناء على طلبه ، أن الأولاد الذين يولدون من الآن فصاعداً من زواج عبد بامرأة حرة ، يعتبرون عبيداً .

ولكن هذا التدبير الذي اعتبره رجال القانون منافياً لحقوق الأمم ، ألغي وأعيد العمل بالقانون القديم . وحدث ، ذات مرة ، من القرن الثاني ق.م . أن تكاثر عدد الأرقّاء في إيطاليا تكاثراً خطيراً . وكان ذلك نتيجة للفتوحات في الشرق . وأخذ أصحاب الأملاك في إيطاليا ، تماشياً مع الإقتصاد الجديد ، الذي نشأ عن ذلك ، يطبقون أساليب الزراعة المستعملة في الشرق وفي البلدان الهلينستية . لقد استغلوا أرزاقهم بواسطة العبيد الذين شكلوا أيادي عاملة وفيرة ولكنها من النوع الرديء .

وكان هذا أحد الأسباب التي من أجلها أصبحت إيطاليا ، لبعض الوقت ، بلاد المراعي في حين أنه كان ، حتى ذلك التاريخ ، قد مورست زراعة القمح والكرمة والزيتون . ففي ذلك العصر ، كان العبد الذي يرسل إلى الريف لا يعتبر من العائلة ، فكان لا يعرف سوى مدير المنطقة سواء كان عبداً أو محرراً . وكان يخضع لنظام تربية قاسية ويؤخذ وصف حياته من المبادىء التي وضعها كاتون الكهل في دراسة له بعنوان « في الزراعة » حيث يتم الحصول غالباً على استنتاجات غير دقيقة عن وضع الرق في روما . إن تشدد كاتون وقساوته يفسران برغبته في جعل النشاط الزراعي ذا مردود، إنهما يشهدان على ذهنية جديدة مصدرها الشرق ولا يدلان على الأخلاق الحقيقية . وعلى العكس من ذلك ، فإن جميع الوثائق تشير إلى أن روما استوعبت العبيد بملء اختيارها ، وشيئاً فشيئاً عندما لم يعد بإمكان الممالك الشرقية أن ترسل رعاياها كعبيد إلى أسواق المتوسط وعندما تباطأت الحرب ضد البرابرة ، عند ذلك قل السكان العبيد . غير أنه ، في الملكيات الكبيرة وخاصة في أملاك الإمبراطور في كل الولايات استمر الرق أطول مدة ممكنة ولكنه تطور : كانت « عائلات » العبيد التابعة لهذه الأملاك تتكاثر باستمرار يشجعها على ذلك الأسياد الذين كانوا يرون في ذلك حلاً مناسباً لتعبئة عمال من جيل إلى جيل . وقد أدى هذا التدبير إلى تشكيل شعب قروي كان يدعى « شعب الأمير » و « عائلة القيصر » : كان هذا الشعب مرتبطاً ببيت المال (الإدارة الإمبريالية) تحت إشراف الولاة الرومان ، موظفي الأمير الأخصاء وكان يتمتع بامتيازات كثيرة . لم يكن « فلاحو الأمير » هؤلاء مختلفين كثيراً عن الفلاحين الأحرار الذين كانوا في خدمة الملاكين الكبار أو عن أولئك الذين كانوا نادراً يعملون في حقولهم الخاصة .

ولم يكن هذا التنظيم خاصاً بالزراعة ، لأن كل طبقات المجتمع كانت ثابتة

في مكانها من إمبراطورية القرن الرابع ، فأبناء الجنود يجب أن يصبحوا حتماً جنوداً وأبناء التجار يكونون تجاراً وأبناء أعضاء البلدية عليهم أن يرضوا بالحلول محل آبائهم في المدن الإقليمية ويقبلوا هذه الوظيفة التي أصبحت مرهقة لا تطاق بسبب الإنهيار الإقتصادي العام .

ففي حين أن الطبقات الأخرى لم تبقَ جامدة ولا يمكنها أن تبقى فإن الجاليات ، أو بشكل عام الفلاحين ، حافظت على استقرار تام ، ولدى هؤلاء ، في القرى ، حفظت لأطول مدة ممكنة الذهنية القديمة في روما . « سكان القرى » هؤلاء سيظلون على وثنيتهم وقد لاقى المبشرون ورهبان عصور البرابرة ، الأمرين في تنصيرهم ولو سطحياً .

وهكذا نرى كيف أن الرق في تحوله وفي بقائه في الأرياف على شكل مستوطنات ، كان ينزع لتغيير طبيعة حياته . وكان في المدن يتلاشى تدريجاً بنسبة ما كانت تشح منابع الطبقة الخادمة ، ولم تعد الولادات كافية لتوفير العدد الكافي من العبيد ، خاصة وأن صغار العبيد الذين يولدون في البيت كانوا يندمجون أكثر فأكثر كأعضاء آخرين في العائلة . ومن الممكن ، وليس المؤكَّد ، أن المسيحية أسهمت في إكمال حركة الصيغة بالعقل الروماني وأن الفلاسفة شجعوا (في روما خاصة) على اعتبار أن كل الكائنات تستحق الإحترام والحرية .

الإقتصاد الإمبريالي

من المتفق عليه ، بشكل عام ، أن اقتصاد العالم القديم مرتبط ارتباطاً وثيقاً بالرِّق ، ويصح هذا في بعض أشكال هذا الإقتصاد ولبعض الوقت . لقد قلنا إن الإنتاج الزراعي يقوم على العمال العبيد وعلى الأخص في الملكيات الكبيرة في العالم الهليني ، وبعد الهلينية ، في الإقتصاد الروماني . وقد حل محلهم في النهاية الفلاحون الأحرار والجاليات .

ومن ناحية أخرى كانت التجارة في أيدي التجار الأغنياء ، مالكي السفن . وهم إن كانوا يقتنون العبيد فإنهم يستخدمون ، أيضاً ، عمالاً عتقاء أو مولودين أحراراً . ومن المؤكد أيضاً أن الكثير من الأعمال التجارية الصغيرة كان يقوم بها العبيد الذين كانوا يحتفظون لأنفسهم بقسم من الأرباح ويسلمون القسم الأكبر

لأسيادهم . وكان العمال العبيد هم الأكثرية الساحقة في الإستثمارات الكبيرة ، في الصيد الصناعي (صناعة المحفوظات وصلصة الأسماك) وخاصة في المناجم . أما بالنسبة إلى المناجم التي تعود ملكيتها إلى الدولة ، فكان يعمل فيها المحكومون بالأشغال الشاقة الذين يعملون أيضاً في ورش العمل الكبيرة العامة .

وفي غياب الوسائل الآلية كانت الطاقة البشرية تقوم بالعمل الأساسي . إن المطحنة كانت سجناً للعبيد الميؤوس من إصلاحهم . هناك كانوا يديرون حجر الرحى ، ولكن في أكثر الأحيان كانت حيوانات الحمْل تستخدم لذلك . وبدأت المطاحن المائية تعرف مع بداية الإمبراطورية ، إن الوضع الشرعي للعمال ليس هو ، إجمالاً ، بذي أهمية . والشيء الثابت هو كثرة اليد العاملة ، حتى الحرة ، وقلة الإنتاج الذي كان مطلوباً منها . لم يكن الدخل الأساسي متوقفاً على العمل بل على التجارة ، الأمر الذي أدى إلى تجويد الإنتاج وانتقال الثروة إلى طبقة التجار أو بشكلٍ أعمّ إلى كل الذين يؤمِّنون حركة المنتجات . وعرف العالم القديم تفاوتاً عظيماً في قيمة الثروات . وهناك الكثير من الأدلة على ذلك . فلنذكُر فقط بالوضع في نهاية الجمهورية حيث كان السادة الرومان يتقاسمون مداخيل الولايات ويقتنون بذلك أملاكاً شاسعة . وحصلت في الإمبراطورية بعض التغييرات إذ كان الأمراء يدعون الحق بحجز ممتلكات أغنى الشيوخ أو يَرِثونها . ولكن فيما كانت الإمبراطورية تتسع إلى ما لا نهاية كانت العائلات البورجوازية في المدن الصغيرة في الإمبراطورية تغتني هي أيضاً في كنف بيت المال .

إن هذا الإزدهار الذي يستنتج من المدوَّنات ، خلال القرن الثاني من عصرنا يفسره ازدهار العائلات المحلية الكبيرة ، ولكن تقليداً رومانياً قديماً يلح على أن خيرات الأغنياء يجب أن يستفيد منها الآخرون . فبدأ تنظيم خيري مع إنشاء المؤسسات التي كان يشرف عليها الإمبراطور مثل بيوت النفقة التي أنشأها الإمبراطور تْرَاجَانْ مثلاً ، وتبع ذلك العديد من المبرَّات المحلية (لقد ذكرنا مدرسة پْلِيْنْ في كوم) وأبنية عامة ومآدب تقدم للشعب وألعاب للترفيه عن الحياة وجعلها ممتعة للجميع . وقد وصف سينيكا في كتابه المدعو « المبرَّات » نظرية هذا النظام الذي انتشر في جميع العالم الروماني والذي كان يقوم على التعاون بين أعضاء المدينة كافة .

تلك هي ، إلى حد ما ، الصورة التي أعطتها الإمبراطورية الرومانية لرجال دولة قادرة أن تحقق ، بمقدار ما تسمح المؤسسات الإنسانية ، التطلعات الأساسية للشعب وهي الأمن والسلام ومثالاً من العدالة والإنصاف وتعاوناً فعّالاً وأُطُراً اجتماعية بحيث لا يشعر أحد، بالرغم من اتساع الإمبراطورية، بأنه بعيد. هذه الذكرى لن تعبر دون حنين إليها ولن تصبح عندئذٍ إلا أغلى وأكثر تأثيراً .

الفصل الخامس

تأثير الشرق

ولدت أوروبا في أحضان الإمبراطورية الرومانية وانطلاقاً منها بعد أن تقطَّعت الصلات التي تربطها بأفريقيا الصغرى ومصر والولايات الآسيوية . ومن الناحية الجغرافية فإن أراضي شاسعة كانت رومانية غابت عن أوروبا ، ولكنَّها أسهمت في خلقها بطرق أخرى لا يمكننا أن نبالغ في دورها ، غير أنَّها لم تستطع أن تؤثِّر بشكل فعال إلَّا في الإمبراطورية ومن خلالها . شاركت هذه البلدان باكراً ، كما قلنا ، في ولادة الجماعة الثقافية والروحية التي أصبحت هي الإمبراطورية . وقد حددت بدايات الهلينية وتطورها ؛ وعرفنا فيما بعد كيف أن ديانات الشرق ـ آسيا الصغرى وسوريا ومصر ـ عملت على إغناء الحس الديني في العالم الروماني وعلى تشعبُّه . وأخيراً ، إن ديانة ولدت في الشرق ، عرفت باسم بالمسيحية ، سيطرت شيئاً فشيئاً على الإمبراطورية وحلت محل النظام الديني القديم ، ولم تكتفِ بإضافة إله جديد إلى البانتيون أو طقوس جديدة إلى المؤمنين ولكنها أطاحت كل ما ليس منها وحطمته أو بالأحرى استوعبته مخاطرة بتشوُّهها ، مكوِّنة توليفاً ضخماً من جميع التيارات القوية للفكرة القديمة ، متوصلة في النهاية إلى تكييف ـ أو احتواء ـ جميع البنى السياسية في أوروبا .

الديانات الشرقية

تُظهِر الديانات الشرقية ، منذ أقدم العصور ، حيوية وتنوُّعاً عظيمين . والكثير من هذه الديانات عرضت نظاماً للكون وتاريخاً للآلهة والخلق وطوَّرت نظريات صوفية حقيقية في نشوء الكون ، الأمر الذي لم تعرفه المعتقدات الدينية للشعوب الهندو ـ أوروبية التي تشكل ، منذ بدء معرفتنا بها في فجر العالم اليوناني ، مجموعة متنافرة من الطقوس والمعتقدات والأساطير يصعب التمييز فيها بين ما ينتمي إلى

التقليد الهندو- أوروبي البحت وما دخل عليها منذ انفصال الأعراق الهلينية المتنوعة ، ولقد قلنا كيف أن « تيوغونيا » هسيود ، أول غوص في العالم الروحاني ، تتضمن تأثيرات آسيوية واضحة ، يضاف إليها عدد كبير من العناصر الجديدة ، وإن پانتيون هوميروس يختلف كثيراً عن پانتيون هسيود . وتعرف بعض الهياكل هنا وهناك ، ديانات من نوع آخر ، أبلغ أثراً ومهتمة بتفسير لغز الحياة ، أشهرها هيكل إِلْوزِيْس حيث تملك ديميتر ، إلهة أم ، وشفيعة الزروع وخاصة القمح ، وهناك « رواية مقدسة » ، يجب أن تبقى سراً كما يجب أن تبقى الطقوس ، تروي كيف أن هذه الإلهة التي خطف هاديس ، إله الجحيم ، ابنتها پِرْسِفُونَه ، أصابت الأرض بالقحط ثم لما أعيدت إليها ابنتها وافقت على القيام بدورها الغذائي من جديد . وكان أتباع إلوزيس ، أثناء إحيائهم الاحتفالات الليلية ، يطّلعون على أسرار الآلهة ويتلقّون وعداً بالتغلب على الموت مثلها . عبادة طبيعية إيمائية لدورة الحياة والموت العظمى . تنتمي عبادات إلوزيس إلى العبادات « الخلاصية » الناشئة عن تأمل في قوى المستقبل التي تنطلق ، غالباً ، من خرافة غايتها لفت الإنتباه إلى ولادة النباتات . هذا النوع من الدين يوجد تقريباً في كل مكان من العالم . ويمكن أن تكون ديانة إلوزيس ذات أصول تعود إلى ما قبل الهلينية ، إلى أصول مينوسية ، إذا شئنا ، ولكن ذلك ليس ضرورياً . ويمكن أن تكون قد نشأت محلياً ، ولكنها لا تنتمي إلى مخططات الأديان المنتشرة في العالم الهليني .

وثمة « ديانة خلاصية » أخرى لم تلبث أن اندمجت بديانة إلوزيس ، تلك هي الديانة التي نُسِجت خيوطها حول شخصية دْيونيسوس وطقوسه . ويظهر أن ديونيسوس ، إله الخمر ، ضم إليه عدَّة عناصر آتية بعضها من تراقيا والأخرى من آسيا الصغرى ، حتى إن بعض خطوطها قد اقتُبِس من أوزيريس المصري ، إن ديونيسوس ، إله الحياة والنبات والولادة هو أيضاً بطل هبوط إلى الجحيم . وإذ هو لم يَعِدْ أتباعه بالخلود فلقد وَعَدهم بانبعاث جديد في دورة النبات الكونية . إن ديانة ديونيسوس هي قريبة الشبه بالأورفية التي هي حركة دينية وروحية لم يتفق المؤرخون على طبيعتها وقد تكون جمعت عدة تيارات ذات أصول ومستويات مختلفة . هناك أورفية فلسفية تصورت نشأة رمزية للكون وأورفية شعبية وشعرية . استطاع بطلها الشاعر أورفيه أن يتغلب بقوة أغانيه وسحرها على قوى الجحيم وأعاد الحياة إلى حبيبته .

إن بعض الأشكال من الديانات الخلاصية هذه انتشرت خارج إطار الهلينية الكلاسيكية ورأيناها قد انتشرت في صقلية وفي إيطاليا الجنوبية ، ربما لأنها أسهمت في صياغة معتقدات وطقوس طبيعية محلية . وليس من قبيل الصدفة أن تكون الرُّقُم (المدونات) الأورفية المعروفة قد وصلتنا بكليتها تقريباً من منطقة لوكريس (Locres) . وإذا كانت الفيثاغورية ، الفلسفة التصوفية ، التي تؤكد على أن النفوس تندمج في دورات الإنبعاث الكبرى ، قد استقرت بقوة في تارانت وفي اليونان الكبرى بشكل عام .

وظلت هذه المعتقدات تحيا ، في العالم الذي أصبح رومانياً ، حياة هامشية إلى حد ما ، وليس من السهل دائماً أن نستجلي أهميتها الحقيقية . إن الديانة الرومانية ، دين الدولة الرومانية ، لم تقم وزناً لخلود الكائنات ولا يوجد معتقد « رسمي » عن طبيعة الموت ومصير النفوس . من ناحية أخرى ، يوجد طقوسية محددة جداً تتحدث تقريباً بما فيه الكفاية عن العلاقة بين الناس والآلهة . ليس لمفهوم « الخطيئة » أي مظهر أخلاقي ، ليس خطيئة إلاَّ ما يُقْتَرف ضد الطقوس . وهناك خطيئة الدَّنس ولكنها لا تعني إلاَّ طهارة النفوس : رجس الدم مثلاً ولكنه يعتبر رجساً مادياً ، وذلك هو المفهوم الديني للإغريق على مدى العصور . أمَّا في الأورفية فعلى العكس من ذلك فالطهارة الأخلاقية تلعب دورها . ومهما يكن من أمر ، فلا يمكننا الإنكار أنه من المجادلات التي دارت حول الأورفية أو « المزعومة أورفية » نشأ نظام عقائدي يميل إلى اعتبار النفس الإنسانية عنصراً إلهياً هبطت من الملأ الأعلى وسُجِنت في الجسم كما في سجن ، وعندما تحرَّر هذه النفس وتمثل أمام ديَّانين يقررون استقبالها في وطنها أو وضعها من جديد في دورة البعث تبعاً للاستحقاقات التي كسبتها في حياتها الأرضية . وأكثر ما ترى هذه المعتقدات ظاهرة في محاورات أفلاطون ولكنها تظهر كذلك عند پِنْدار وهيرودوت وأرِسْتوفان وأوريبيد . إن هذه المعتقدات أكَّدتها ، في العصر الهلينستي وبعد ذلك في روما ، تصورات شعبية حيث ترى إلهة الحب تلعب أو تداعب الفتيات المجنحات اللواتي يرمزن إلى النفوس (پْسِيْكِه) . أحد هذه النصوص الأكثر شهرة ـ وعادة الأكثر إهمالاً ـ التي تلمِّح إلى هذه المعتقدات هو قصة أمور (الحب) وپْسِيْكِهِ (النفس) التي ذكرها أپُولِيْه (Apulée) ، الفيلسوف الأفلاطوني في كتابه « التحوُّلات » .

إنه لمن الصعوبة بمكان أن نعرف ما إذا كانت هذه النظرة الصوفية إلى الحياة الأخرى انتشرت بتأثير من الديانات الآسيوية ، أو كما ذُكِر بنوع خاص ، الديانات السورية . وكان من المعقول أن تعكس معتقدات نشأت في بيئة هلينية أو محلية عامة ، انطلاقاً من أشكال دينية قديمة . وكل ما يمكن أن نؤكده هو أن العالم الهليني والإيطالي وربُما السِّلْتي (إذا جار لنا تصديق بعض الإشارات إلى ديانة الدِّرْوِيْدْ) كان أكثر استعداداً لاستقبال ديانة يتخذها كأحد مبادئه الإيمانية في خلود النفس . وكانت المعتقدات الشعبية والخرافات الفلسفية تتحد في هذا الاستعداد الإنجيلي .

الميتولوجيات السَّامِيَّة

فإذا كان صحيحاً أن الزراعات الأولى للنباتات المغذية ظهرت في بلاد ما بين النهرين وفي وادي النيل ، فلا عجب أن تكون هذه البلدان بالذات قد أبصرت ، منذ وقت مبكر ، نشوء عبادات طبيعية وخرافية هدفها إثارة الإنتباه إلى سر نمو النبات والحياة .

إن ميتولوجيات البلدان السَّاميَّة ـ وما قبل السَّاميَّة في سُومر ـ عرفت فكرة الإله الذي يموت ويُقطَّع جسده وتعطي بقايا جسده غذاء لحياة النبات . توجد هذه الفكرة في عدة أماكن ، كل مرة يظهر فيها مفهوم الآلهة البدائية الموجودة في العصور الأسطورية (قبل بدء الزمن المعدود) التي خلقت الموجودات . وتروي إحدى الأساطير التي تؤكِّدُها غينيا الجديدة كيف أن إحدى الإلهات التي ولدت بتلقيح زهرة بالدم الإنساني ، قطع جسدها في نهاية حياتها ودفنت في فسحة مكشوفة من الغابة ، ومن نِثار لحمها خرجت نباتات مجهولة هي النباتات التي تستخدم اليوم لخدمة الإنسان ، وتقبلت الميتولوجيا اليونانية بترحاب بعض الأساطير التي تروي أن أجساماً بشرية تحوَّلت إلى أشجار أو أزهار ، ولكنها قصص عارية عن كل معنى روحاني ، إنها نوادر جرَّدتها الروح اليونانية من فحواها المقدس ، وإن الأصل الساميّ لهذه الأساطير هو في بعض الحالات ، صحيح . فإن قصة ميرًا وخاصة قصة أدونيس ، حبيب عشتروت ، الذي ترمز حياته وموته إلى مأساة حقيقية مقدسة ، إلى سر حياة الكائنات في الطبيعة وموتها .

من بين الديانات الساميَّة ، احتفظت عبادة أوزيريس بشكل واضح بمعناها

الروحاني وذلك عائد إلى أن شخصية هذا الإله وشخصية زوجته إيزيس اللتين لا يبدو أنهما اكتسبتا أهمية كبيرة في مجموع الفكر الديني المصري ، كانتا مؤهَّلتين لشرح هذه الفكرة الطبيعية الشرقية الراسخة ألا وهي أن الحياة منشأها موت الآلهة . والموضوع نفسه يظهر في قصة بعل ومُوْتْ التي نعرفها بفضل اكتشافات رأس شمرا : بعل السيد افترسه مُوْتْ ولكن جثة بعل تنبعث من الموت وترد الخصب إلى الطبيعة .

وكما في عبادة أوزيريس كذلك في عبادة بعل وأدونيس يشارك المؤمنون في المأساة منتحبين لابسين ثياب الحداد بسبب موت الإله ويفرحون عندما ينبعث من الموت .

إسرائيل

تلك هي الخلفية التي انطلقت منها الديانة اليهودية ، الديانة التوحيدية التي خاصمت بحزم « الألهة المزيَّفة » والتي من خلالها اكتشفنا أن الديانات السابقة الطبيعية في أرض كنعان حيث استقر الإسرائيليون بعد أن كانوا رُحَّلاً حتى ذلك التاريخ ، ما فتئت تفعل فعلها الأكيد . تقوم اليهودية ، ديانة إسرائيل ، على الإيمان بإله واحد هو يَهْوَه الذي قطع عهداً لشعبه وأعطاه الشريعة على يد موسى ووعده بمساعدته العظيمة إذا ظل وفياً لهذا العهد ، واحترم الطقوس الجماعية والشخصية . إن مضمون الديانة مسطور في كتاب يحتوي كلمة اللّه . كل إخلال بالشريعة ينال عقابه ، ويقتص يَهْوَه من شعبه ويصب نقمته على الخطَأة بشكل إفرادي ، وتُكافأ الأمانة بالخصب المادي وانتفاء الشرور وسلام النفس . ولكن هذه المكافآت مقتصرة على الحياة الأرضية وإن خلود النفس ليس مقبولاً لدى جميع علماء الشريعة ، وهو إن لم يرفض ، لم يعتبر وعداً من اللّه .

وتبدو حياة إسرائيل وكأنها صراع دائم ضد أعداء الخارج الذين يهددون وجودها نفسه ويخضعونها للعبودية ، ويعرضونها للنفي ويدمرون هيكلها ويخضعون المؤمنين للتجربة ويمنعونهم من العيش طِبْقاً لفروض الشريعة ، وصراع أيضاً ضد الشعوب الأخرى التي وإن لم تكن أعداء لإسرائيل ، فهي لا تمارس الشريعة ، وتعبد الآلهة المزيَّفة التي يكرهها يَهْوَه . إنهم نظرياً الغرباء (أو ما يسمونهم الأمم) المعرّضون للّعنة ، وإذ لم تعرف اليهودية التسامح ، فإنها بدأت تدرك خلال العصر

الهلينستي أنه بإمكانها تهويد الأمم . ومن ناحية أخرى ، فإن الجاليات اليهودية المختلفة المقيمة خارج إسرائيل منذ العصر الهلينستي - في الإسكندرية وأنطاكية ثم في قرطاجة وروما - كانت قد اعتادت إقامة شعائرها الدينية بلغات أخرى غير العبرانية ، خاصة باليونانية . وهذا الواقع كان كافياً لإقامة علاقة روحية حقيقية بين اليهود والأوساط الهلينية التي تعيش فيها .

حتى إن الهلينية ، بالرغم من ادعائها التوحيد المطلق ، يمكن أن نصادف فيها عدة انجاهات على سبيل الإنشقاقات . فإذا كان اليهود الذين ظلوا في اليهودية قاوموا بكل قواهم محاولات الملوك السلوقيين لتهلينهم (جعلهم هلينيين) فإن إخوتهم يهود الشتات لم يستطيعوا إلّا أن يُصْغوا إلى صوت الشعوب التي تحيط بهم . وفي داخل الشعب اليهودي نفسه لم تكن بعض الفئات الدينية محافظة تمام المحافظة على تعاليم دينها . فالبعض كالفرِّيسيين كانوا يتباهون ، بحجة طهر الشريعة ، أن يستخلصوا منها جوهرها ، الأمر الذي جرهم إلى إدخال عناصر جديدة كفكرة قيامة الإنسان في نهاية الأزمنة . وآخرون كالأسينيين الذين اطُّلعنا على أفكارهم وحياتهم بطريقة أفضل بعد اكتشافات كتبهم المقدسة التي تحتويها المخطوطات المكتشفة على شاطىء البحر الميت - هؤلاء انفصلوا مادياً عن سائر الناس وعاشوا في الصحراء منتظرين قدوم ملكوت اللّه . وما فعله الأسينيون ليس سوى إثارة ظاهرة دينية كامنة في إسرائيل هي المسيحانية (أو انتظار المسيح) . وكان الاعتقاد سائداً في كل لحظة أن ملكوت اللّه قد قرب وأن نبياً قد ظهر ليعلنه وأن هذا المسيح سيتبعه مباشرة مجد يهوه وفناء الأمم . هذه المسيحانية أفادت المسيحية وعاشت بين المسيحيين وأفسحت في المجال أمام أدبٍ رُؤْيَوي تبنَّى العهدُ الجديدُ قِسْماً منه فقط . ولا تنفصل المسيحانية عن موقف تشاؤمي بالنظر إلى الأشياء الدنيوية التي يعرف ، أو يعتقد ، أنها في طريق الزوال وتؤدي غالباً إلى زهد يبلغ الحدود اللاإنسانية .

إن زهد الأسينيين هذا يتخذ أشكالاً رهبانية ويناقض روح الثقافة اليونانية والرومانية حيث كل الأفكار موجهة نحو اكتشاف فن الحياة وحيث الفضائل هي دليل تسامي الإنسان وتفوقه في هذا العالم ، في كامل شخصيته ، وهي كذلك صور من الجمال والحياة . وكان بعض فلاسفة الإغريق والرومان ، رواقيين وإبيقوريين ، يعتقدون بأن للعالم نهاية ، ولكنهم لم يكونوا يفكرون بأن هذا الأمر يجب أن يؤدي

إلى إدانة ما في الوجود ، ولا على الأخص ، أن رفض الحياة نفسها من قِبَل الانسان يكتسي بعض الأهمية بالنسبة لمصير الكون .

إشعاع اليَهوديَّة

لكن الجماعة اليهودية التي كانت تطرح بثقلها المتزايد على التاريخ الديني للعالم القديم كانت جماعة الإسكندرية التي يلاحظ وجودها منذ تأسيس المدينة . هناك كان اليهود يختلطون بسائر السكان حتى لو كانت الأكثرية مقيمة في حي خاص . كانوا يشكلون كياناً سياسياً خاصاً ، هو عبارة عن دولة ضمن دولة ، لها مجلس شيوخ ورئيس له يُدْعى واليا ، كان بيده سلطات قضائية ومالية . وكان لهؤلاء اليهود كنيسهم وكانوا يمارسون في المدينة كل أنواع المهن التي لا تميزهم عن سائر السكان . مثلهم كانوا حرفيين وتجاراً ، بحارة وموظفين ولكنهم كانوا أوفياء لهيكل أورشليم وبالطبع لحياتهم الخاصة . ورغم ذلك كان من المقدر أن تنشأ ثقافة « يهودية ـ هلينستية » كانت الخطوة نحو التقارب بين الشعب المختار والأمم .

ولنا على هذه الثقافة دلائل كثيرة . إننا نعرف أسماء مؤرخين يهود كتبوا باليونانية ، وشعراء ، أحدهم يدعى حزقيال ألّف مأساة يصف فيها حياة موسى ، المثل الوحيد الذي في حوزتنا (على الأقل بطريقة مختصرة) عن المأساة الهلينستية .

وقد أثار التقليد التوراتي الكثير من الصعوبات أمام اليهود الذين حاولوا التقريب بين اليهودية وأفكار الفلاسفة الأغارقة ، وهما أفقان متناقضان تمام التناقض : فمن ناحية ، شكلية جائرة وقبول بالوحي المفارق وقومية خانقة ، وتوحيد متشدد ، ومن ناحية أخرى ، وتبعاً للمدارس ، شِرك متطور (على الأقل عند الرواقيين) نحو التوحيد دون التخلي عن بعض الآلهة الخاصة ، وعند الجميع الإيمان بقدرة العقل المطلقة كمبدأ كوني شامل وكأداة للأمتحان النقدي : حتى التحررية الدينية النسبية لدى الأثينيين شككتها الحريات التي مارسها سقراط تجاه التقاليد المقدسة . وجميع الفلاسفة كانوا تلاميذ لسقراط . وبالرغم من الشعور الراسخ عن تفوق الثقافة اليونانية على سائر الشعوب ، كان الجميع يخصون الناس ببعض الترحيب ، وكانوا يشعرون بميل نحو العقيدة الخلاصية وإن كامنة . والبرابرة ليسوا برابرة ، في أعين اليونان ، إلاّ بسبب لغتهم وتقاليدهم السياسية ونادراً بسبب

دينهم ، وليس لأنهم لايخضعون لشريعة مُوحَى بها .

تلك هي المسائل التي يصادفها المفكرون اليهود الهلينيون . طريق واحدة انفتحت أمامهم لحلّها ، هي طريق التفسير الرمزي . وأقدم محاولة بهذا الصدد ـ على الأقل بين ما وصل إلينا ـ هي رسالة أرِسْتِيْه (Aristée) إلى فيلوقراط ليتفقه بالحقائق اليهودية . هذه الرسالة (بالواقع هي دراسة دفاعية) كتبت على الأرجح في القرن الثاني ق.م ، نرى فيها ، على لسان أحد كهنة أورشليم الكبار المدعو أليعازار ، نقداً يكاد يكون مسيحياً للآلهة المتعددة ، ويستند إلى فكرة الوحي الإيبقوري الذي يجعل من الآلهة أمواتاً مؤلَّهين بسبب الخدمات التي قدّموها للناس . اليهود هم الوحيدون الذين تنزهوا عن الحمق العام الذي يرتكز على دمج الخالق بالمخلوق . فإن واضع شرائعهم الذي أوحى إليه الله ، أحاطهم بسياج حقيقي من الممنوعات والمحظورات تقيهم الرجس الروحي . إن تفاصيل التفسير الرمزي تبدو غير مقنعة لنا ، ويفترض أن تكون أقل صدماً لفلاسفة الإغريق الذين وُجِّهت إليهم هذه الكتابات . وكانت الديانات الأخرى أيضاً هدَفاً لتأويل مماثل ، كالديانة المصرية ، وبالطبع الخرافات اليونانية القديمة . ومن المتفق عليه أن بعض الشعوب كانت أقرب إلى الحقيقة من سواها ، وإن حكماء العصور القديمة كانوا قد غلفوا مواعظهم بغشاء من الرموز التي تحتاج إلى تفسير . وإن منهج أرِسْتيه لا يختلف كثيراً عن منهج أفلاطون في تأويلاته لعادات سكان جزيرة أطلنطيد . وبعد أرِسْتيه بثلاثة أجيال ، انبرى فيلون اليهودي من الاسكندرية هو أيضاً ومعاصر لطيباريوس وكاليغولا ، يتابع بمزيد من العمق التفسير العقلاني للشريعة الموسوية ، ولكنه تحليل لم يتوقف فقط عند الأنظمة الموسوية ولكنه تطرق إلى تاريخ اليهود حيث حاول أن يجد أُودِيسَّة حقيقية للوجدان الإنساني : فالأحداث التي ترويها التوراة ، دون أن تفقد حقيقتها الحقيقية ، اكتسبت قيمة الرمز ، وهذا ما يمهِّد للشرح المسيحي لأحداث العهد القديم . ويتأمل فيلون أيضاً بخلق الكون بحسب سفر التكوين ، وفي هذا الخصوص ، بطبيعة الله بالذات . ينطلق من نص مقدس ويحاول التوغل في معانيه العميقة ، فكان لهذا ينكب بدقة على الكلمات نفسها ويتساءل عن أصلها (حقيقي أو مجازي) ـ وهذا موقف أفلاطوني بقدر ما هو موقف يهودي . إن الوحي الإلهي الذي أملى الكتاب تَضْمنه الميزة القصوى للألفاظ ويعود

إلى الناس أن يقدروا قيمتها بدقة ، ويتساءل أيضاً عن القصة نفسها : عندما طرد آدم وحواء من الفردوس ، وضع الرب السرمدي ، كما يقول سفر التكوين ، أمام باب الجنة ملاكين من الكاروبين وبينهما سيف ملتهب يتحرك بشكل دائري . هذان الملاكان هما ، كما يقول فيلون ، طاقتا اللّه : تسامحه وقدرته ، والسيف يرمز إلى القوة التي تجمع هاتين الصفتين ، وهو اللوغوس أي الكلمة والعقل معاً ـ الكلمة كما سيقول إنجيل يوحنا « ولا يعطي فيلون ضمانة لهذا التفسير سوى الصوت الداخلي المفعم بالحكمة الذي من عادته ، في قرارة نفسه ، أن يوحي إليه اللّه ، وأن ينقل الوحي النبوي مما لا يعرفه » . وهذا قريب جداً من أفلاطون ، من شيطان سقراط[1] ومن استخدام الخرافة ليذهب إلى أبعد من النقطة التي يتوقف عندها العقل .

ويرى على طريقة أفلاطون والفيثاغوريين أن الجسم هو سجن للنفس ، أنه جثة يجب أن تتخلص منها تهجرها كما هاجر إبراهيم بأمر من اللّه . ولكن من الضروري أن يكون مديناً بهذه الفكرة لأفلاطون نفسه . لقد كانت مبثوثة في الفكر الرواقي ، وتَمْثُل بشكل مسهب في الدروس التي يوجهها سينيكا إلى تلميذه لوسيليوس . يصادف في مؤلفات أفلاطون كثير من التيارات التي تنعش الحياة الروحية وستصب بعد قليل في المسيحية .

ولا يبدو أن أفكار فيلون كان لها أدنى تأثير على اليهودية ، فهذه لم تكن نية الفيلسوف الذي كان يوجه كلامه للأمم أكثر مما يوجهها لأبناء دينه . لقد أثرت تأثيراً قوياً بالمفكرين المسيحيين بتبيانه الطريقة التي بواسطتها يمكن للتقليد اليهودي أن يتناغم مع متطلبات الفلسفة الوثنية ويحظى بتبرير عقلاني في أعين الأمم .

تأثير بعض الأفكار اليهوديّة

وهكذا ، ففي القرن الأول بعد المسيح ، عندما انتشر تبشير رسل المسيح في العالم الروماني ، كان التقليد الديني اليهودي قد تخطى الدولة اليهودية منذ زمن بعيد ، لقد أصبح مطية لعدد من الأفكار التي كانت النخبة المثقفة مستعدة لتقبلها . وإن مفهوم الإله الواحد السيد المطلق لكل ما هو موجود أصبح مألوفاً لدى كل العقول التي تمرّست بالفلسفة أو حتى قراءة فرجيل . ومن ناحية أخرى فإن الخلقية التي

---

(1) صوت باطني قال سقراط إنه يسمعه في نفسه وينهاه عن عمل الشر (المترجم) .

تسرَّبت إلى ممارسة الديانة الوثنية بتأثير من الفلاسفة بدأت تثبت فكرة الخطيئة ضد الله التي من عواقبها الموت . وكانت الرواقية قد هيأت العقول ، بخصوص هـذا الموضوع ، مبرهنة كيف أن كل خروج على نظام الأشياء وكـل تمرد على العقـل الكوني مهما كان نوعه فإنه يجر إلى تحطيم الوجود . لقد تعود الناس أن يعيشـوا تحت نظر الله ويعتبروا أن هذا الكون هو هيكله حيث يوجد ويعمل .

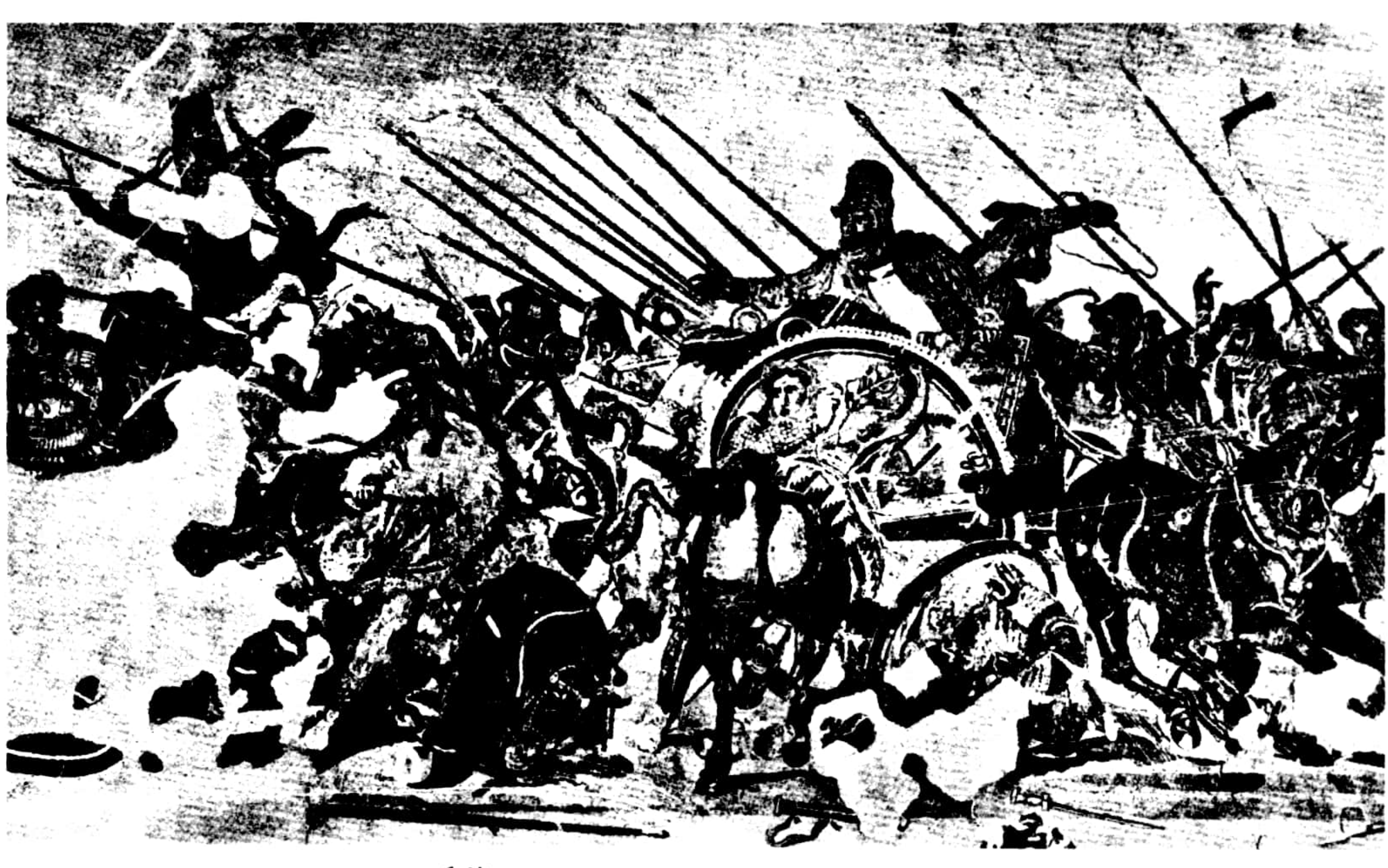
وبرزت فكرة غيرت التقاليد القديمة . تظهر هذه الفكرة كيف تغلغل مفهوم القدسيَّات أو بالأحرى الإلهيات في صلب الحياة اليومية . فالزمن في اليهودية هو ككل الأشياء خلق إلهي . ومن ناحية فإن إيقاع الفصول يستدعي عودة الأعياد التي تفصل ظواهر الطبيعة ، الأسبوع ، الأشهر ، الفصول « تحذو حذو » الله . فهـذه فكرة غريبة كل الغرابة عن النظرة الأثينية للزمن . وليس الزمن ، بالنسبة للرومان ، سوى إطار الأشياء وليس هو في الأشياء . يجب أن يعاد اكتشافه في كل لحظة . في البداية كان الكاهن الأعظم هو الذي يعيِّن كل شهر غُرَّة الشهر والتاسع من الشهر وعِيدِس[1] الشهر . فهذه تواريخ ثلاثة ثابتة أما سائر الأيام فليس لها من قيمة سوى مرورها العادي البسيط . وفي الحياة العملية كان المواطنون يتخذون أيام السـوق تـواريخ ثـابتة لأنـه في هذه الأيـام كانـوا يذهبـون إلى المدينـة . ولكن في عصر الإمبراطورية كانت هذه النظرة البدائية للزمن قد تلاشت منذ وقت طويـل . وبعد مرحلة انتقالية طويلة كان تقويم قيصر قد فُرِضَ على الناس وهو تقويم فلكي ليس له أي صدى ديني . ويأتي الأسبوع المسيحي المنسوخ عن الأسبوع اليهودي ليقدس التقويم الوثني أي يضع سمة الخالق السرمدي على كل يوم من الأيام : وابتداء من عصرنا هذا وقبل حدوث أي تأثير مسيحي أوحت بعض التقاويم الرومانية أن كل يوم من الأيام وضع تحت اسم كوكب ، ومن المؤكد أن هذا التطور الجديد الناشىء ربَّما عن تأثيرات المنجمين الكلدانيين ، كماكانوا يسمُّون آنئذٍ ، قد سهَّـل ومهَّد لتبني النظام المسيحي اليهودي . وبعد أن قام علم التنجيم بهذا الدور لم يلبث أن أُهمِل ونُبِذَ في طلاسم المنجمين .

---

(1) العيدس هو اليوم الخامس عشر من مارس ومايو ويوليو وأكتوبر والثالث عشر من سائر الأشهر (المترجم).



11 - ديلوس : أسود ناكسوس . نهاية القرن السابع ق.م



12 - معركة ايسوس بين الجيش الفارسي بقيادة داريوس وجيش الاسكندر

المسيحيّة

فإذا كانت المسيحية أوّلاً ، وبحق ، كهرطقة في صلب اليهودية ، فمن المؤكد أنها أصبحت بعد عدة أجيال ، في نهاية القرن الأول للمسيح ، واقعاً دينياً وفلسفياً واجتماعياً امتد خارج حدود اليهودية . وأثارت بعد قليل ، في أحضان الإمبراطوريّة ، سلسلة من الأزمات أسهمت في التعجيل بالتطور السياسي والروحي للعالم الروماني .

روما والمَسِيحيَّة

تحتفظ المسيحية من اليهودية بميزة أساسية هي عدم التساهل ؛ ليس عدم التساهل « العرقي » بل الديني . ومنذ وقت مبكر توقف ناشرو العقيدة المسيحية (أو أكثرهم على الأقل) عن الأصرار على أن يكون المؤمن بالمسيح مختوناً وعلى أن يقطع علاقته بغير المؤمنين ، وهذا أقل ما يمكن . ولم يستطع المسيحيون أن يتصوّروا أن الخلاص ممكن بغير ممارسة الإيمان المسيحي . إن إلههم يرشق بالحرم كل من لا يذعن لدينهم وهذا يخالف كل التقاليد الدينية في روما . والمسيحية عقيدة شمولية تفرض خيارات ميتافيزيقية على ما يبدو للمفكرين الوثنيين كطروحات مشكوك فيها . وتفرض نوعاً من الممارسة الأخلاقية لم تكن مثيرة للشكوك بالنسبة إلى « الإنسان الشريف » . فلو عرفها هذا لوجد فيها مفاهيم كان قد ألِفَهَا منذ وقت طويل ، مثل التعاون ومحبة الناس بعضهم لبعض (التفاهم بين الناس لدى الرواقيين) ، ضرورة الإعتدال ورفض العنف في العلاقات الخاصة ، وممارسة العدل (فضيلة اعتبرها المفكرون الرومان خاصة أساسية) . ولكن لكي نعرف هذا الوجه للمسيحية يجب أن ننتظر مؤلفات كليمان الإسكندري[1] . ولكن ليس هذا المظهر المطمئن هو الذي تراءى للرومان في بداية الأمر . فأول إشارة عن المسيحيين أي تلاميذ المسيح وجدت عند سويتون[2] تقول إن كلوديوس طرَدَهُمْ من روما لأنهم « مثيرو شغب » ، وربما كان ذلك في الجاليات اليهودية في المدينة . وبعد ذلك أي سنة 64 عندما التهمت النيران القسم الأكبر من روما اتُّهِم المسيحيون

(1) كاتب يوناني مسيحي (150 ـ 215) ـ م ـ .

(2) Suétone : كاتب سيرة لاتيني (70 ـ 128) (المترجم) .

بـأنهم هم الذين أشعلوهـا . لقد دُفِعـوا إلى ذلـك بسبب « حقـدهم على الجنس البشري » . هذا الاتهام الذي اعتبر ملفقاً ، يمكن تفسيره بشكل مقبول إذا سلمنا بأن الأوساط الرسمية (التي أبلغتها پوپيه[أ] التي كانت على علاقة مع يهود روما) أخذت على المسيحيين تطلعاتهم المسيحانية : إن المسيح قد ظهـر والأزمنة الأخيـرة قد قربت والمسيحيين ينتظرون أن يتحقق ملكـوت الله ، في فناء الجنس البشـري ، والصالحين وحدهم (أي المؤمنين بالمسيح) يخلصون . وحكمت حاشيـة نيرون على المسيحيين استناداً إلى النوايا المنسوبة إليهم خطأ وهي أنهم ينوون إحراق روما وأنهم فعلوا ذلك .

وقد تأكد نوعاً ما أن القديس بولس لم يكن له أي علاقة مع سينيكا ، كما تفتـرض بعض المـراسـلات (المـزورة حتمـاً) بين الفيلسـوف الـوثني والمبشـر المسيحي . ولا يستنتج من ذلك أن مثقفي الرومان المتطلعين إلى كل ما يأتي من الشرق قد جهلوا كل شيء عن الأفكار المسيحية أو على الأقل تلك الأفكـار التي كانت تنتقل من جماعة إلى جماعة والتي تشهد عليها الرسائل . وواقع الحـال أن المسيحيين كانوا يفضلون العذريَّة والتعفف على الحياة الزوجية . حتى إن البعض بلغ بهم الأمر حد إدانتهم الزواج وإعدادهم بذلك نهاية الجنس البشري ، الأمر الذي شكك وأقلق المجتمع المؤسَّس على استقرار العائلة واستمرارية المدنية . والحقيقة أن إدانة شاملة لحياة جنسية معتدلة لم تدعمها النظرة القويمة للدين ، وإلاَّ فإن ذلك سيعني نهاية الجنس البشري أو على الأقل الكنيسة نفسها ، أو بالأحرى الكنيسـة الأرضيـة . وشيئـاً فشيئـاً ترسخت في الغـرب خاصـة ، فكرة أن الـزواج والحيـاة المسيحية يتوافقان ، ولكن ظلَّت هناك ترسبات من الطرح الأوّلي الذي هو في أساس الرهبانية والمؤسسات التي لا تزال حتى الآن الأقوى في الكنيسة الكاثوليكية . ومن المحتمل أن تكون أسس هذا الثناء على التقشف قد وجدت عند الأسينيين . ومهما يكن من أمر لقد كان مقدَّراً لهذا التقشف أن يمارس نفوذه العميق على تاريخ أوروبا الروحي .

ويضاف إلى هذه الأسباب العقائـدية التي تثيـر شكوك السلطات ، أسبـاب

(أ) Poppée : امرأة رومانية مشهورة بجمالها وتبذلها. (المترجم) .

سياسية ، إذ كان يبدو أن المسيحيين الذين يعيشون على ذكرى يسوع « ابن داود » يساهمون في المسيحانية اليهودية وبالتالي يواجهون روما . لذا كان من الضروري ، بالنسبة إلى الحكام ، وبشكل عام السلطات الرومانية ، أن تتأكد من إخلاصهم ، وأفضل طريقة لذلك هي أن تجعلهم يشاركون في عبادة الإمبراطور ، الرمز المحسوس للإخلاص لروما وللإنتماء إلى الإمبراطورية الرومانية . . والحال أن المسيحيين الذين ورثوا عن اليهودية الخوف من « الآلهة المزيَّفة » واعتبروا أنه من الكراهة بحق الله الواحد الأحد أن يؤدوا مراسم العبادة لآلهة سواه ، لم يستطيعوا أن يذعنوا لما طُلِب منهم .

وحول عبادة القيصر تركزت المواجهة بين روما والمسيحيين ، مواجهة لم تكن من طبيعة الأشياء ولم تكن حتمية وكان بالإمكان إزالتها لو استطاعت العقيدة المسيحية التخلص باكراً من ارتباطاتها باليهودية الهامشية وآثرت الإقتراب من خلقية الفلاسفة .

سلام الكنيسة

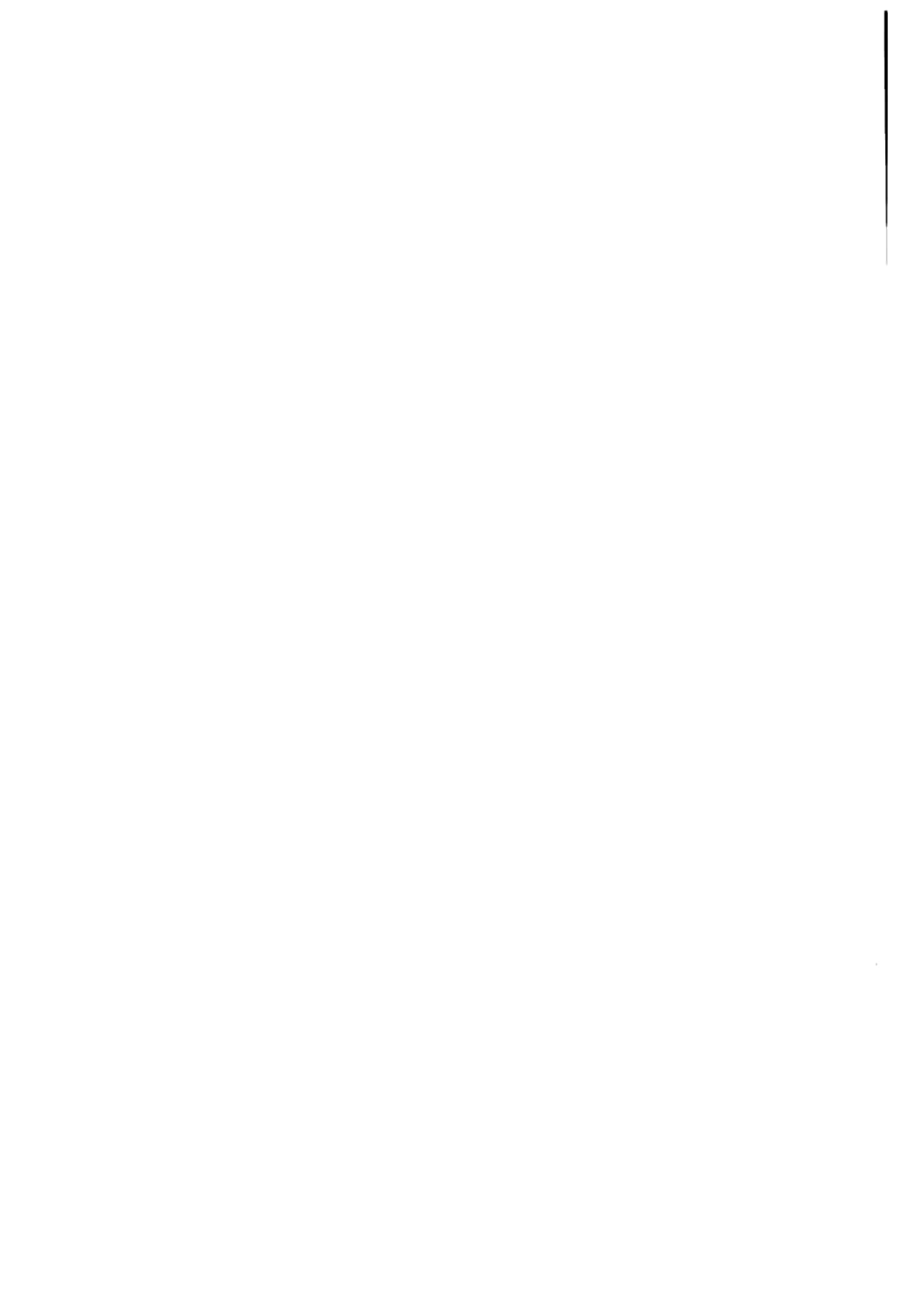
لن نرسم هنا صورة أولية لتاريخ العلاقات بين المسيحية والسلطة الإمبريالية : فهذه السلطة ، من جهة ، كانت تزداد استشعاراً بالتهديد الذي كانت الكنيسة المتنامية والمنتشرة في جميع العالم الروماني تشكله بالنسبة للمثال الوثني المديم ، وبالمقابل كان المسيحيون المقسومون بدعاً وشيعاً ، يحاولون إجمالاً التقرب من القيم السابقة للمسيحية للتأكيد لها أن تعاليمهم لا تتعارض معها على الإطلاق . وأخيراً ، وفي بداية القرن الرابع ، حدث الاتفاق على أعلى مستوى ، كما يجب أن يكون ، وذلك باعتناق قسطنطين للمسيحية . وكان تنصر قسطنطين يشكِّل أمراً واقعاً ، فالتحول إلى المسيحية كان يزداد يوماً بعد يوم بين شعوب الإمبراطورية ، وزال السبب الاساسي للخلاف القديم وذلك بتبعية صاحب الجلالة الإمبراطورية لصاحب الجلالة السماوية ، الله . وفوق ذلك ، لقد نُسِب إلى الإمبراطور وهج مسيحي ، وكان ذلك وسيلة لإعادة شيء من الوحدة لنظام سياسي كان منذ قرن تقريباً مهدداً بالتفتت وأصبحت الكنيسة عضواً في الدولة ونالت وضعاً قانونياً خاصاً ؛ وأحسن من ذلك لقد اعترف بالأساقفة ، كقضاة فاندمجوا في سلك القضاء الروماني . وهكذا نشأ عالم القرون الوسطى مع أملاك الكنيسة إلى جانب أراضي

الحق العلماني . وأخيراً بدأت الطاقة الخلاقة للفنانين ومهندسي البناء والنحاتين والرسامين تضع نفسها في خدمة النظام المسيحي ، وكذلك الفلاسفة والخطباء الذين تابعوا الترويج والإعداد للإيمان . ونزعت روما والكنيسة إلى الاتحاد ، والمسيحية التي ظلت حتى ذلك التاريخ تُطْلبُ لذاتها اتجهت بعد ذلك لفرض نفسها ، خارج محتواها الروحي ، لأنها دين الدولة ، وذابت الجماعات المسيحية العلمانية في المجتمع برمّته ، وتعرضت المعتقدات الوثنية للهجوم واستوعبتها المسيحية التي هيمنت في الأرياف على الطقوس التقليديّة بعد أن تمثلتها .

وهكذا فإن المسيحية لم تؤدّ إلى تقسيم روما بل إلى تطويرها وإلى إعطائها حجماً روحياً ضمن بقائها بالرغم من الكوارث السياسية التي ، لولا ذلك ، لأدّت إلى زوالها ونسيانها ، وفي أوروبا القرون الوسطى والحديثة ، عاشت روما ، والفضل الأكبر في ذلك يعود إلى الكنيسة التي هي بدورها مدينة لروما لأنها استطاعت أن تضم إليها الشعوب التي احتوتها الإمبراطورية . هل كانت تمكنت ، لولا مساعدة النظام الروماني الذي أعدّ لها طُرُقها ومهّد لتقبل مثلها الأخلاقية وتنظيمها الإداري وتراتبيّتها المسكونيّة ؟ والمسيحية هي التي أعدّت لاستيعاب البرابرة ، وجعلت رافين تحت حكم تيودور تحاول إعادة بناء دولة رومانية بدلاً من أن تترك الأرض المفتوحة تحت رحمة باروناتها . وعاش في ظل الكنيسة مثال قديم للعدالة والسلام والوحدة الإنسانية بذلت روما الكثير من القرون لخلقه .

الكـــتاب الثالث

العصر الوسيط
حتى نهاية القرن الثالث عشر



الفصل الاول

أوروپا المنهكَة أو زمن الخلافات

نهاية القرن الخامس ـ اواسط القرن الثامن

خلال القرن الخامس انهارت "الإمبراطورية الرومانية في الغـرب ، وأُجبرت بعض الشعوب الجرمانية الأصل ، أمام زحف الهـون على أوروپا الشرقية ، على النزوح والاستيطان في إيطاليا وإسبانيا والقسم الأكبر من الجزر البريطانية . غير أن هذا التبدل السكاني لم يكن غير متوقع ، لقد تم على مدى العقود من السنين . فهو لم يُصِب دولة في أوج نشاطها وعزها بل جهازاً نخره المرض منذ وقت طويل . ولكن المرض ، مع ذلك ، لم يسبب موت هذا الجهاز . فمن الثـابت ، أثناء التحـول التاريخي ، أن لا شيء يتلاشى تماماً ولا شيء ينـدثر إلى درجـة يضطر معـه إلى الانـطلاق من العدم . وهـذه المرة أيضـاً تستمـر الحيـاة ، على الأقـل في بعض القطاعات ، حتى ولو وهن نشاطها . وقد أدرك المعاصرون ذلك جيداً ، وحـاول أصحاب الجرأة منهم أحيانا إحياء هذا الجسم الواهن ؛ ولكن لسوء الحظ ، فإما لأنهم يحلمون بقيامة لم تعد مستحيلة ، وإمّا لأنهم لم يكونوا يملكون وسائل العلاج الحقيقية لهذا الهرَم ، وإما ربما ، لأن الحظ لم يشأ أن يبتسم لهم ، فإن جهودهم ، بشكل عام ، ذهبت أدراج الـرياح بسبب الجمـود غير الـطبيعي للبنى الإقتصاديـة والاجتماعية والثقافية والسياسية التي كانوا يتحركون ضمنها . وعندمـا بدأت هـذه البنى تنتعش صدفة أو بفضل المبادرات التي لا تنطلق من الرومنة (الحالة الرومانية) وحدها ، وبرزت بعض المستجدات الباهتة في بعض الميادين . وعندما نستنتج ، إذا لم يتم التلاشي كلياً ، أن كل شيء قد تغير وكل شيء يتغير ، فإن التجديدات والتبدلات لا تتوصل إلى بعث دينامية حقيقية وخلق عالم جديد وتجاوز التناقضات وإزالة الخلافات .

نهاية العالم الروماني

إنهيار اقتصادي ووَهن إجتماعي

لم تبدِّل الغزوات الجرمانية الوضع على الإطلاق ، لقد ظل كما كان عليه غداة الأزمة الخطيرة في القرن الثالث ، وظل الجمود مسيطراً بشكل ، أكثر من أي وقت مضى ، حاجزاً أمام كل إصلاح .

وبسبب أزمة القرن الثالث ، الحدث الأهم في تاريخ الإمبراطورية البيزنطية الذي وسَم تنظيم القرون التالية ، تأثر القسم الغربي من العالم الروماني بشكل خاص ، إلى درجة لا نغالي معها إذا قلنا إن الحضارة الرومانية قد انهارت فعلاً والدليل الثابت هو أن المدينة (أي روما) ، التي كانت حجة دامغة لكل ثقافات الشرق والبحر المتوسط ، رأت دورها يتأثر حتى الأعماق ، والسبب الجوهري ، وليس الوحيد ، هو أنه يجب الأخذ في الحسبان خلخلة المؤسسات . هو الإنهيار الإقتصادي الذي تسبب بدوره عن ضآلة انتقال المعادن وندرة المال المتفاقمة التي غشيت عصراً تفرق فيه الزُّبُن وتناقصوا بتأثير الفقر وبسبب الأحداث السياسية والعسكرية ، ولم يستطع أي نشاط سكاني أن يعوِّض هذا النقص ، وبموازاة ذلك فإن الصناعة ، التي كانت مزدهره ، قبل ذلك في كل المقاطعات ، ما لبثت أن تقهقرت . وعليه لقد تفككت الشبكة المدنية وانحل نسيجها وأقفرت المدن من سكانها فانطوت على ذاتها . ولم تعد المكان الممتاز للاتصالات والملاذ الأغنى للثقافة .

وفوق ذلك ، لم يحدث شيء ما بين القرنين الخامس والثامن لإحيائها ، في الغرب ، حيث استقر « البرابرة » ، مع بعض الاستثناءات ، بشيء من النفور والحذر ، وذلك إمَّا لأن الحضارة المدينية بعاداتها « الدنيوية » وظرفها وتأنقها الفكري ولهوها المنظم قد غيرَّت اتجاههم ، وإمَّا لأنهم تحاشوا ثورة الشعب ضدهم في هذه الأماكن التي أحاطها سكانها بالأسوار خوفاً منهم ، لقد احتفظوا هناك بالإدارات التقليدية ، وخاصة بالمحاكم ، وفي بعض المدن ، بالقضاء الأسقفي ؛ وربما أيضاً بعد أن شغلوا بعض القلاع الرومانية أو أسسوا قلاعاً جديدة للحاجات العسكرية ، قد سمحوا بنهوض بعض القرى إلى مستوى المدن (مثل : غَانْدْ ،

بونْ ، سْتراسْبورغ) كما فعل في القرون التالية بعض الرهبان انطلاقاً من أديرتهم . ولكنهم ، إجمالاً ، لم يسندوا إلى هذه المدن أي دورٍ سياسي ، وإن القادة والملوك لم ينزلوا في المدن القديمة الأكثر اتساعاً والأكثف سكاناً . ولأسباب متباينة ، فإنهم ، باستثناء ، تيودوريك ، لم يخصوا المدن التي أقاموا فيها ، بأي تطور خاص . فإن مساحة باريس وسواسّون وشالون وطليطلة لم تتعدَّ بضع عشرات من الكيلومترات .

كان سكان المدن يتألفون من موظفين دينيين وقلة من الموظفين الإداريين ومن حِرفيين وبعض التجار وفلاحين جاؤوا يبحثون عن ملجأ ، وقد انضم إليهم جنود تركوا الخدمة وعبيد فارون من أسيادهم . إنها مجموعة متباينة من السكان يشغل المنتجون بينهم مكاناً ثانوياً ، وتفتقر افتقاراً خطيراً إلى الجهاز المؤهل للقيادة السياسية والإقتصادية . أما القسم الضئيل من التجار ، الذين ظلوا هناك يمارسون التجارة المحلية وتجارة الفضة ، فبعد أن أقلعوا عن التجارة مع البلدان البعيدة ، وجدوا أنفسهم غرباء أكثر فأكثر عن الجسم الاجتماعي الناقص الذي يعيشون بإزائه ؛ وقد ابتعدوا أيضاً شيئاً فشيئاً عن القطاعات الاقتصادية المنتجة . ونستشف من علوم المصطلحات اللغوية أنهم سوريون ويونان وشرقيون ويهود . وهكذا فالمدينة (أي روما) التي جُرِّدت مما كان يشكل ، فيما مضى ، قواها الحية وتوازنها الاجتماعي المتداعي ، لم تعد تشع على الريف المجاور وقد قطعت صلتها به حتى حينما بقيت ، بشكل استثنائي ، تتمتع بشيء من الحيوية ، لقد عزلت هي أيضاً .

هذه التحولات التي طرأت منذ القرن الثالث وازدادت خطورة في القرون الأربعة التالية أصابت الغرب في الصميم . أما في الشرق فلم يكن للأزمة النتائج نفسها ، لقد أمكن تخطيها ؛ فالبنى المدينية استمرت وذلك لأنها ، دون شك ، نتيجة ثابتة لهذه الحضارات واستمرت التجارة بالرغم من تأثرها ، والثقافة بالرغم من تقهقرها . وقد حصلت منذ مطلع العصر الوسيط ، في القطاع التجاري ، تحولات ونتائج مختلفة . أمّا الغرب ، حيث كانت غاليا أكثر من إسبانيا انفصالاً عن الشرق ، وإسبانيا أكثر من إيطاليا ، فقد اكتسب هوية ، لكنها هوية تشوبها الفوضى وحالة التقهقر .

وفي هذه الأقاليم الغربية كانت « الحقيقة الفعلية » هي الأرض حيث النشاط

الوحيد الذي يستحق أن يطلق عليه الزراعة . والشعوب الرومانية ، بعد أن استقرت ، لم تغير شيئاً من هذا الوضع ؛ فبعد أن نزلت في الأرياف أوّلاً وبعد أن أسّست أو طوّرت أو أطلقت قرى جديدة ، كان همها الأول أن تجد المواد الغذائية والمنتجات التي تحتاج إليها . لم تُحدِث أي تغيُّر ، والسبب أنها كانت أقل بكثير مما اعتقِد لفترة طويلة ، مع أن كثافة مؤسساتها قد تنوعت تبعاً للمناطق ، وبالرغم من أنها كانت وافرة في أودية الأنهر (مثل : الإسْكو ، الموز ، الراين ، السون) إلا أن المجموع لم يكن لافتاً على الأطلاق . لقد استهلك الناس كل ما كان موجوداً وأساؤوا استخدام ما قُدِّم لهم وقد شددوا بذلك ، ربما دون قصد منهم ، على أولوية الزراعة وظروف عمال الحقول .

قسّمت الإمبراطورية إلى مناطق زراعية واسعة وفّرت لأصحابها الرومان والجرمانيين ، بعد أن صادروا الأملاك العامة وقسماً من الممتلكات الخاصة ، رفاهية العيش والثروات الطائلة التي رفعتهم فوق مستوى الطبقة العامة حيث يوجّهون ويحكمون من يعمل لأجلهم ، وجعلت منهم ارستقراطية أوليغارشية . وظل إلى جانب هؤلاء بعض القرويين الأحرار وخاصة بين البرابرة القليلي العدد الذين حصلوا على بعض الممتلكات الصغيرة ، ولكن دورهم ظل ثانوياً في النظام الإجتماعي إذ قد خضعوا للفئة القوية منذ وقت مبكّر . ولم تتوصل جماعة المزارعين إلى الحصول على الملكيات الواسعة ؛ فإن قسماً كبيراً منهم كان يكتري الأرض مدى الحياة لقاء دفع أتاوى عينية وأحياناً كثيرة عدة أيام سخرة في الأسبوع ؛ وإذ لا يملكون حريات واسعة ، بخلاف أسيادهم ، فإنهم مضطرون لخدمة هؤلاء ومجبرونْ على عدم التخلي عنهم أبداً . وكان قسم لا يستهان به من الفئات الأخرى لا يزال في عداد العبيد ، لأنه ، بالرغم من تضاؤل الرق في القرنين الثالث والرابع على أثر توقف الفتوحات وسوء مردودية النظام وبسبب نفوذ المسيحية ، حتماً ، فإن جماعات الرقيق ظلت على مستوى من الأهمية إلى درجة أن بعض الشعوب الجرمانية ألفت هذه الممارسة ـ كما هي حال الألَمان (Les Alamans) والساكسون وربما الفرنجة أيضاً ـ شجعت هذا النظام الذي دفع بفئات عديدة من الفلاحين نحو العبودية الكاملة . وينتج عن ذلك ، منذ القرن السادس ، خليط بشري تتضاءل في صفوفه الحرية ، ويبدو التمييز بينها غامضاً بالنسبة إلينا إذ تراوحت بين جماعات غير حرة ونصف حرة

ومحررة تحريراً كاملاً ومحررة مع بعض الإلتزامات .

إن مجموع السكان ، بأربعة أخماسهم ، على الأقل ـ في الغرب الروماني القديم ـ ينتمون إلى هذه الفئات الأربع التي ، باستثناء مهمتها وعملها الرتيب ، لا تسهم في أي نشاط ولا تعرف أفقاً غير أفقها الخاص ولا رأي لها سوى رأي السيِّد الذي يكون أحياناً المدير (الإداري أو العسكري) الممثل للسلطة العامة ، وهم لا يستطيعون التمييز، والحالة هذه، بين المالك الحقيقي وممثل السلطة العامة . إن جهلهم هذا بل عدم إدراكهم الذي هو واقع معروف ، إذا لم يكن شاملاً ، يمنعهم من أن يعوا مصيرهم ويعوا أن هذا المصير هو مصير جميع الناس ، ويحول دون فهمهم لتنظيم المجتمع . وربما حدثت ، لأسباب محلية ، بين فئة من هؤلاء التابعين وسيدهم ، بعض التشنجات والصدامات التي تعبر عن الواقع العام لطبقة الفلاحين . ولكن ليس من أحد في هذه الجماهير يشعر بنوع من التضامن يتجاوز الإطار المحلي حتى إنه في كل ملكية ، وفي كل منطقة ، بالرغم من الواقع القائم وأنواع الحياة المتشابهة ، يهيمن الإنطواء على النفس والصمت بعد أن توارت الفكرة والصورة اللتان راودتا التاجر ، فيما مضى ، عن التلاحم الإقتصادي والإجتماعي وفائدته والحاجة إليه .

تخلُّف الثقافة القديمة

وبعكس الإقتصاد ، ظلت النشاطات الثقافية حية على امتداد القرنين الثالث والرابع وحتى الفترة التالية مباشرة . وظلت روما تتابع انطلاقتها ويستمر تألقها ، وتظل الروح تخفق في الثقافة القديمة التي بلغت اهتماماتها واهدافها أعلى مستوى فكري في التعبير عن نفسها بلغة لم تتخلَّ عن أناقتها حتى وإن لم تكن لاتينية شيشرون وتاسِيْت ، وفي الظهور بمظهر أدبي رفيع وفي تحقيق إنجازات فنية رائعة وفي عمق التحليل والبرهان الذي جاءت المسيحية لتدعيمه . وهكذا تألقت في نهاية القرن الخامس وبداية القرن السادس عطاءات جديرة بالتقليد الروماني يعتبرها بعض من يستغلها وسيلة تأمل ولهو وإلى حد ما متعة . ويتخذها البعض ، بتأثير من المسيحية ولحاجة المسيحيين ، كمادة بحث فلسفي وصوفي لفهم أركان العقيدة . وهكذا فإن ما بقي منها وهو ثقافة بلغت من الانتقائية ما لم تبلغه أي ثقافة على الإطلاق ، يستعمله بعض الناس مادة تسلية دنيوية ، أو يلجأون إليها هرباً من مواجهة

مآسي العصر ، أو يتوكأ عليها رجال الدين واللاهوتيون الذين يستخدمونها جزئياً لحاجاتهم ولحاجات الجماعات المسيحية الناشئة : إنها أخيراً ثقافة لا تهم الشعب بمجمله ، إذ قد تخلت عن إرث العصور القديمة شيئاً فشيئاً وعملت على تأسيس الإرث المسيحي .

والبرابرة الذين ليسوا مؤهلين ولا يعنيهم الأمر في الصميم تركوا الأمور تأخذ مجراها . إنهم لم يدمّروا شيئاً إلا ما حدث عرضاً أو عن حاجة . فهم مضطرون إلى إتلاف بعض الأبنية والمؤلفات عندما يحتلون ، وزيادة على ذلك فإنهم جميعاً تقريباً ، ومنذ وقت مبكّر ، كانوا يحافظون عليها ، إمّا احتراماً وإما غيرة . لقد حاولوا ، حتى ، أن يعيدوا البناء لكي يكتسبوا رفعة ونبلاً ولأنهم خاصة ، كانوا قليلي الخبرة في إدارة الدول وفي تشغيل المؤسسات . وكان من مصلحتهم أن تستمر الإدارات الرومانية .

كل ذلك يفسر الاستمرارية المحدودة للمدارس والمراكز الثقافية اللاتينية التي أسهمت في الاحتفاظ بشيء من الإشعاع في بعض المدن ؛ ففي روما ظل تعليم اللغة والبيان والحقوق وممارستها على مستوى عال ، وفي ميلانو بقيت مدرسة البيان ذائعة الصيت تستقطب الفتيان من إيطاليا بكاملها ومن جنوبي غاليا . وعرفت مدرستا آرْل وليون ارتياداً لا بأس به ، على الأقل، في السنوات الأخيرة من القرن السادس وانطلاقاً من السنوات الأخيرة من هذه المرحلة لم يبقَ تقريباً شيء . ولكن العائلات الرومانية الأصل الثريَّة ظلت تربي أولادها بالتربية القديمة على يد مربين مزودين بمعايير متطورة .

وخلاصة ذلك أنه خلال هذا القرن وحتى أواسط القرن السادس ظل يبرز كتَّابٌ لمؤلفاتهم مزايا متنوعة ولكن تشوبها بعض العيوب التي سببها تراجع في التقنيات والمعرفة المتفرعة من الرومانية الكلاسيكية التي لا شك في تعلقهم بها .

إن بُوِيْسْ[1] وكاسِّيودور[2] وبنوا النورسي[3] المولودين في حدود سنة 480

---

(1) Boèce : فيلسوف وسياسي إيطالي (480 ـ 524) ـ م ـ .

(2) Cassiodore : كاتب لاتيني وقنصل أيام تيودوريك (480 ـ 575) .

(3) Bénoit de Nursie : قديس ومؤسس الرهبنة البنديكتية (480 ـ 547) (المترجم) .

يعطون على ذلك مثالاً واضحاً : فالأوّل (المتوفى سنة 524) الذي يتميّز بتنشئة رومانية ، متأثرة حتى الأعماق بالقيم الفكرية التي تحملها والذي احتفظ طيلة أيام حياته المتألقة المنتهية بمأساة ، والبالغة به أعلى مراتب الشرف في خدمة تيودوريك والذي انتهى أمره إلى زوال الحظوة وإلى السجن والموت ، احتفظ بحبه للآداب وباهتمامه بالفلسفة اليونانية التي كانت ما زالت مشرعة الأبواب ، لقد جذبه ، بنوع خاص ، الفكر الأفلاطوني ، كما استعاده بعض آباء الكنيسة وعمل على تعميق الفكر المسيحي الذي يؤمن به بلا مواربة استناداً إلى إيضاح صاحب الجمهورية ، وقد جهد ، في الوقت نفسه ، في أن يُدخِل عليه التشدد والمنطق الأرسطيين ، واهتم بنقل الإرث القديم إلى الأجيال الجديدة محتفظاً بتعليم راقٍ ؛ وقد ألّف لهذه الغاية أبحاثاً في التربية العلمية تدخل في سلسلة الفنون المسماة حرّة والتي تؤلف برامج تربوية كما حددها مارتيانوس كاپيلا[1] قبل ذلك بمدة قرن من الزمان . أما مؤلّفه الأخير والأشهر الذي ألّفه في السجن في نهاية حياته والمدعو « التعزية النفسية » والذي هو عبارة عن حوار بين المؤلف والفلسفة حول خيرات هذا العالم وحول الكون والله ، فيعتبر ، بفضل أسلوبه البياني وأناقة تعبيره وسمو أفكاره ، في مصاف أفضل مؤلفات التأمل الداخلي في العالم القديم . وكاسيودور (المتوفى 580 أو 575) شخصية سياسية مرموقة ، ترك العالم سنة 555 ليسجن نفسه في صومعة بناها على أملاكه الخاصة في جنوبي إيطاليا وهو ، إلى ذلك ، أديب متأنق . لقد حاول تعميق الثقافة اليونانية حالِماً بجعل روما مركزها ، ولكنه لم يهمل الثقافة الدنيوية التي أراد أن يجمع معارفها في النصوص الدينية ، لذا فهو يعرض في كتابه الثاني من « المؤسسات » مختارات من أقوال الكتّاب القدماء فيعلمنا بذلك إلى أي مدى كانت علاقته بهم مثمرة . وأخيراً بِنْوَا ، مؤسس دير جبل كاسّينو (Mont-Cassin) (المتوفى 555 أو 547) فهو ، وإن لم يكن مؤلفاً غزير الانتاج ، إذ لم يترك سوى كتاب واحد خاص هو « النظام » ألّفه لرهبانه ، فإنه رجل تثقف في روما تبعاً للبرامج والأساليب التي لا جدال في مزاياها ، كان يكتب بلغة لاتينية جيدة .

(1) Martianus Capella : كاتب لاتيني عاش في القرن السابع وألف دائرة معارف (المترجم) .

وفي النصف الثاني من القرن السادس ، يشهد ثلاثة من بين المؤلفين الكثر ولدوا حوالي 540 ، بدورهم ، على استمرارية الثقافة القديمة ، والبابا غريغوريوس الكبير (المتوفى 604) أفاد ، خلال حداثته في روما ، من تعليم رصين جداً وحصّل بعض العلوم ولكنه لم يحاول استخدام هذه المعرفة لمتعته الشخصية ، لم يكن ليهتم بزراعة أجمل الزهور لينعم برائحتها كما كان يفعل ، ببراءة وبلا وعي ، بُوِيْس وكاسيودور ، لقد كان هدفه نشر الثقافة المسيحية ، الثقافة العالِمة ، أي ثقافة تظل أمينة بشكلها وإخراجها وتنظيمها الجدَلي ، للنماذج الرومانية ، وفي المرحلة ذاتها تلقى سميُّه غريغوريوس ، اسقف تور (558 ـ 594) الذي كتب « تاريخ الفرنجة » المفيد للمؤرخين ، تلقّى في عائلته الرومانية ثقافة كلاسيكية وأكبَّ على نوع تقليدي من الأدب اللاتيني مصرّاً على رواية أخبار عصره حسب معرفته الحقيقية بها والفكرة التي يكونها عنها كرجل عصري ، وليس تبعاً لفلسفة ورؤيا صوفية معدَّتين سلفاً . ومعاصره الإيرلندي كولومبان الذي عاش في أوروبا من 590 إلى 615 ، تاريخ وفاته والذي هو أقدر من أسّس الأديرة وأنشط ، برهن ، هو أيضاً ، كالقديس بِنُوَا ، قبل ذلك ، عن مزايا أدبية ممتازة وعن تضلعه من اللغة اللاتينية .

وفي النصف الأول من القرن السابع تلقى إيزودور الإشبيلي (حوالي 560 ـ 635) ، أسقف المدينة والشخصية البارزة في مملكة الفيزيقوط ، في أحد الأديرة ، ثقافة دينية من الدرجة الأولى . ولكنه إذا كان ألف كتباً في التعليم المسيحي والكتب المقدسة ، فإن كتبه الأكثر شهرة هي ذات طابع دنيوي . إن كتاب « تاريخ القوطيين والسويڤ[1] والڤاندالِيين ، هو ، ككتاب غريغوريوس دو تور ، يقوم على عرض للحقائق الإنسانية . وإن كتاب « علم الإشتقاق » ، دائرة المعارف الواسعة التي تقدم لرجال الإكليروس جملة من المعلومات ليحفظوها ، هو مجموعة مكتوبة تبعاً للذوق الروماني وتعطي أولوية غظيمة للإعراب النحوي طبقاً لتقاليد الإمبراطورية البيزنطية . ويجدر بنا أن ننوه ، إضافة إلى ذلك ، بأن إيزودور يكتب بلغة لاتينية أنيقة .

إلّا أن هذه القائمة من المؤلفين الممتازين لذاك العصر يجب ألا تخدعنا . فالثقافة القديمة كانت في بداية القرن السابع ، بالرغم من بروز غريغوريوس وإيزودور وكولومبان والإيرلنديين ، تعاني سكرات الموت ، فالمدارس قد اختفت ،

---

(1) Les Suèves : شعب جرماني استوطن شرقي ألبا ثم في الراين والدانوب (المترجم) .

وذلك ، قبل كل شيء لأن العلمانيين الذين كانوا منذ وقت قصير يرتادونها ويرسلون أولادهم إليها . لم يعودوا يُولُونها أي اهتمام . وبدأ الكتّاب يتناقصون ويفتقرون إلى الإبداع شيئاً فشيئاً . كانت لغة غريغوريوس دي تور اللاتينية رديئة جدّاً ، ومعرفة إيزودور الإشبيلي كانت سذاجة وحذلقة لا مثيل لهما . وما يلفت انتباه المؤرخ هو افتقاده العقول الكبيرة بعد منتصف القرن السابع . وفوق ذلك فهؤلاء المفكرون الكبار والمؤلفون ، المشهورون منهم والمغمورون ، كانوا بأكثريتهم الساحقة من رجال الدين تعلموا في الأديرة والكنائس وليس في مدارس . فإن بُوِيْس وكاسِّيودور وبِنْوَا وغريغوريوس الكبير انطلقوا من مدارس تقليدية . أما غريغوريوس دي دور وكولومبان وإيزودور الإشبيلي فلا !.. لقد كان الإنحطاط ، إذاً ، كاملاً . ومن ناحية أخرى ، فكيف تم التوصل إلى حفظ الثقافة القديمة في عصر لا تنطبق فيه قواعد الحياة الإجتماعية والتساؤلات التي كانت تطرح على الجماعات والأفراد ، والطرق التي كان الناس ينظرون من خلالها إلى أنفسهم (أما ما يسمّى الذهنيات)، إطلاقاً ، على الظروف التي نشأت فيها الحضارة الرومانية وترعرعت ؟ لأنه أليستْ الثقافة ، في جوهرها ، تعلماً بواسطة الذكاء والشعور إنطلاقاً من معارف فطرية أو مكتسبة لبيِّنات تتيح للمجتمعات والأفراد أن يتوقفوا أمام مشاكل الحياة ؟ لقد تغيّرت هذه المسائل تماماً وتحتّم على الثقافة القديمة أن تفقد عنصر الحياة فيها .

هذا الواقع يبدو أقل وضوحاً في التطور الفني ، لأن الفن الديني المسيحي كان قد استخدم سابقاً أساليب العصور القديمة ومفاهيمها وكيّفها وفقاً لحاجاته . هكذا جرى تعهد الفن المسيحي القديم فيما كان الفن البيزنطي يبزغ إلى جانبه وينمو ويروح يؤثر في أبنية إيطالية وبعض الأقطار الأخرى . وكان فن الهندسة المعمارية يعني في القرن السادس فقط الكنائس والأقبية الدينية (غرف التعميد) مع بعض الاستثناءات القليلة ، حتى إنه من الطبيعي جدّاً متابعة البناء والتزيين تبعاً للنموذجين المتوفرين للبنائين والفنانين . وما يلاحظ في روما وميلانو ورافينا حيث النشاط الهندسي يلازم المهارة التزيينية (الفسيفساء) وكذلك في الكنائس الأكثر تواضعاً في پروفانس (مركز العماد في رِيِيْه = Riez) وفي غاليا . وهنا أيضاً يلهث هذا « الإنتاج » في نهاية القرن السادس ، فلن يعود يمثل شيئاً لا كمّاً ولا نوعاً في القرن التالي .

الممالك « البربرية »

وبعد أن وهنت الشعوب الغربية بسبب اقتصاد مترهل جمَّع الناس في أراضٍ ريفية واسعة عاد فوزعهم وعزلهم . وإذ توقفت الثقافة الحيَّة عن استثارة هذه الشعوب انطوى بعضها على البعض الآخر ، لا سيما وأن الغزوات الجرمانية سرَّعت ، في جميع القطاعات ، الوهَن والإنهيار . وأن التنظيم السياسي الروماني قد تقوَّض . والوحدة التي كانت قائمة محلياً حفاظاً على بعض المؤسسات حلَّت التجزئة محلها .

ودخلت بعض الشعوب الجرمانية على خط الأحداث نتيجة البلبلة التي أثارها الهون في أوروبا الغربية . وتعتبر سنة 406 تاريخاً يحمل في أوروبا معنى خاصاً لأن الحدث الذي تلا ذلك حدَّد بداية سلسلة ذات اتجاه واحد من الأحداث . انهارت حدود الراين تحت ضربات الڤاندال والسُويْف والآلان[1] (Les Alains) بينما الألَمان والبورغونيـون ، عوضـاً عن أن يحذوا حـذو أندادهم المتحمسين ويجتـازوا غاليـا للوصول إلى إسبانيا ، تصرفوا بحكمة وبطء وتغلغلوا في الأقطار القريبة من خطوط الحدود القديمة واستقروا هناك . وفي الفترة نفسها كان الڤيزيقوط ـ الجماعة القوية الجيدة التنظيم ـ الذين لجأوا قبل ذلك إلى الشرق الروماني واستقروا في شبه الجزيرة البلقانية ، قد دخلوا إلى إيطاليا ونهبوا روما سنة 410 ولكنهم قرروا على ألا يبقوا هناك فانتقلوا في السنوات التالية إلى جنوبي غالياً وإلى إسبانيا ، وأسسوا بموافقة الإمبراطور الروماني مملكة قويت ونمت في عهد الملك أوريك وامتدت حدودها من وادي اللوار إلى جنوبي شبه جزيرة إيبيريا التي ضُمَّت إلى مملكتهم عندما خضعت لها شعوب الآلانْ والسُويْف الذين استوطنوا غاليا وأسسوا دولة حول بْراغا (Braga) . وعنـد سقوط الإمبـراطوريـة الرومـانية رسمياً في الغرب سنـة 476 أصبحت دولة الڤيزيقوط مستقلة تمام الاستقلال .

هذا الحدث الذي جرى سنة 476 كان صغيرا لكونه لم يغير الواقع بل ميَّز فقط السنـة التي انطلاقاً منها ، لم يعد فيها الإمبراطور الروماني يقيم جسدياً في الغرب ـ إذ منذ وقت طويل لم يعد خلفاء أوغسطس وتراجان يحكمون شيئاً ـ هذا الحدث تسببت به فئة جرمانية كانت تشكل جزءاً من الشعب القوطي الذي يتزعمه

(1) شعب رحُل من أصل إيراني استقر في القوقاز (المترجم) .

سْكِيْرْ أُوْدُوَاكْرْ (Skire Odoacre) الذي احتل روما وعزل الإمبراطور وأرسل شعائر الإمبراطورية إلى القسطنطينية فيرسل الإمبراطور المقيم في هذه المدينة وعلى عجَل ، إلى إيطاليا ، أوْسْتروغوتْ تيودوريك الذي وضع نفسه في خدمة الإمبراطور فألح عليه أن يتدخل ضد قاهر روما ، فيقضي تيودوريك على أوْدُواكْرْ وعلى رجاله ويؤسس في إيطاليا مملكة تمتد على جبال الألب وعلى شواطىء البروڤانس .

وأثناء هذا الوقت كان الباڤاريون يتقدمون على امتداد الدانوب باتجاه القسم الأعلى من هذا النهر ويستقرون في أودية الألْبْ وعلى الهضاب والسهول في جنوبي جرمانيا . وبلغ البورغونديون الموجودون في جنيف حوالي سنة 440 منطقة ليون وانتشروا في أوروبا ، في أودية السون والرون . وإلى الجهة الشمالية تجمَّعت قبائل الفرنجة واتحدت ، طوعاً وبالقوة ، تحت إمرة قبيلة من القبائل السالية (Les Saliens)[1] وتمركزت في أسفل وادي الراين ، بين هذا النهر والبحر ، دون أن تتجاوز مجرى نهر الإسكو باتجاه الجنوب . ثم في مرحلة لاحقة استطاعوا ، بقيادة كلوڤيس ، أن يطردوا منافسيهم وأعداءهم من مناطق السين ويتغلبوا على الألمان الذين كانوا منتشرين في الألزاس وفي أراضي سويسرا الألمانية الحالية ويفرضوا هيمنتهم عليهم ويطردوا الڤيزيقوط من جبال البيرينيه ، وقد كان هؤلاء يحتفظون بمنطقة سپتيمانيا (الشاطىء المتوسطي لمنطقة اللانغدوك) الواقعة شمالي هذه الجبال ، ومن هناك أخذوا يرصدون البورغونديين وقد تغلبوا عليهم في المرحلة التالية وضموا مملكتهم .

السراب الروماني

إن البرابرة الذين كانوا يشغلون ويحكمون القسم الأكبر من أراضي الغرب لم يأتوا إجمالاً بشيء جديد . وهم ، إلى ذلك ، لم يأتوا لكي يخربوا ولكن ليتمتعوا وينعموا بخيرات البلاد التي احتلوها : طقس أكثر اعتدالاً ، أرض مفلوحة يعتبرونها أوفر خصباً ، طرقات ، مؤسسات ، ميزات متنوعة وعديدة كانت في أنظارهم التعبير على حضارة مغايرة تحدد طريقة أفضل للحياة . وقد استوطنوا هذه المناطق مدفوعين بحتمية الظروف (كالهون) وقدَّسوا ما وجدوه تحت تأثير حتميات أخرى ، وذلك

---

(1) قبائل الفرنجة التي استوطنت المنطقة البحرية من بلجيكا وهولندا (المترجم) .

لأنهم لم يكن عندهم إلاّ القليل ليحملوه إلى هذه المناطق ، وقد آزدروا ما يمكنهم أن يقدموا ، فاحتفظوا بالعملة الرومانية أو العملات المتصلة بالنظام الروماني وبمكاتب المكوس ورسم المرور والجمارك ، وقد ساعدتهم الكنيسة في وضع التنظيمات المالية وتنظيم الأسقفيات والدوائر الإدارية الرومانية وجعلت لكل منها مركزاً ومنطقة ريفية حوله ـ وهذا ما دُعي فيما بعد قرية ، هذه اللفظة التي اعتبرت عنوان تفوق الريف على المدينة ـ كانت القرية فيما سبق جزءاً ريفياً ، عادة ، من المدينة . أما القادة والملوك فكانوا يتخذون ألقاباً رومانية أو يلتمسونها من إمبراطور القسطنطينية . وكانوا يراعون پروتوكولا مستوحى من البلاط الروماني فيتخاطبون ويتلقبون بتعابير معروفة (مثل عطوفتكم ، سموكم . . .) ، وكانوا لا يتورعون أحياناً ، في فواتح أعمالهم ، عن ترداد البيانات العلنية للمراسم الإمبريالية .

هذه الرغبة في المحافظة على ما أصبح ، خلال القرنين السادس والسابع ، أكثر فأكثر خرافياً هو ، بالإضافة إلى بعض الأدلة ، في أساس المحاولات التي تهدف إلى إحياء الروح الرومانية الغربية .

وأشهر هذه المحاولات وأكثرها إثارة ، بالنسبة إلى مدوِّن تاريخ أوروبا ، بما تتضمن من مطامح أدت بها إلى النقل ، هي محاولة تيودوريك ملك إيطاليا من 493 إلى 526 ، وكانت كل جهود هذا الأمير الذكي النشيط المتسلِّط تتجه في الداخل إلى الاحتفاظ بالنظام الروماني . وتحمَّل الأوسْتروقوطْ وبعض الفئات الجرمانية الأخرى التي دخلت إلى شبه الجزيرة (الإيطالية) بالإضافة إلى ما نالوه من الأرض الضرورية لكفاية الحاجات ، مسؤولية الدفاع عن البلاد . وقد تجمعوا شمالاً في سهل الپو وفي ڤينيسيا (Vénétie) وبعض مدن الأبِنين الشمالية وفي المدن الأساسية حيث شكَّلوا الحاميات فيها ، وكان لهم ضباطهم وحكامهم الخاضعون مباشرة لملك القوط . وبالمقابل فلم يتغيَّر شيء بالنسبة إلى سائر السكان إلاَّ عندما كانت تفرض التدابير الضرورية إعادة تقويم التقاليد الرومانية . فالهيئات القضائية (من قضاء بلدي وحاكمية وقنصلية وولاة المدن ورؤساء المحاكم) ظلت في مراكزها . وأعيد تنظيم مجلس الشيوخ واستمرَّت الأرستقراطية القائمة . والحقيقة أن مجموعة الهيئات والفئات والأفراد خضعت لمراقبة تيودوريك وسلطته . وأظهر هذا الأخير نفسه ، عن قصد ، كممثل لإمبراطور الشرق ، الذي أعطاه لقب قائد القوى المسلحة أو

البطريق ، وسك عملة باسمه وكان ، طبقاً للتقاليد ، يهتم بتموين روما فنظّم توزيع الحنطة وألعاب السيرك ، وجهد ، فوق كل ذلك في تجميل المدينة ، كما أنه من أجل تدعيم مجده والتعبير عن جدارته زيّن عاصمته راڤينا بمبانٍ لا مثيل لها أصبحت في أيامنا هذه طابعاً مميزاً .

وفي الوقت نفسه ، فإن العمل الأهم ، من وجهة نظر المؤرخ للمؤسسات الغربية ، هو إعداده لسياسة غربية تطمح في النهاية إلى السيطرة على الشاطىء الغربي للبحر المتوسط . وبعد انهزام صهره ألاريك الثاني ملك الڤيزيقوط أمام كلوڤيس ، نصح هذا الأخير بعدم متابعة فتوحاته بعيداً باتجاه جنوبي غاليا . وإذ تأكد له أن نصائحه لم تلق آذاناً صاغية تدخل عسكرياً . فاحتل سنة 508 وسنة 509 پروڤانس جنوبي نهر دورانس[1] (Durance) ثم استغل ، بعد ذلك ، فرصة المعارك الدائرة بين أبناء كلوڤيس والبورغونديين فضم المقاطعة بين دورانس ودروم[2] (Drôme) . ولم يتردد أيضاً في إرسال دعم فعّال لحفيده الصغير الذي بعد أن خلَف روريك الثاني اعترضته صعوبات داخل شبه الجزيرة الإيبيرية إلى درجة أنه اعتُبِر ، كما اعتبر نفسه ، المدافع الرسمي عن المملكة الڤيزيقوطية ، وهكذا استطاع ، مباشرة أو مداورة ، أن يشرف على الشواطىء الأوروبية للمتوسط الغربي ، من ضمنها دَلْماسيا التي نجح في جعلها تحت هيمنته . وإذا أضفنا إلى ذلك ، أنه توصل ذات مرة إلى وضع أفريقيا الڤندالية (المغرب الشرقي) في نطاق نفوذه ـ محاولة آنية ولكنها ذات مغزى ـ فمن السهل أن نستنتج أنه أسَّس حول المتوسط وفي الغرب ما كان يسمّى بالأتحاد الروماني . هذا الأتحاد الذي كان فيما مضى الأقوى والقائم على أكثر القوى فعالية . تلك المجموعة من الأراضي التي كانت تمثيلاً لبناء الماضي . لقد أخذ على عاتقه الدفاع عنها ضد « البرابرة » ، ونفر من كلوڤيس والفرنجة الذين اعتبرهم أعداءه الخطرين : ودخل إلى پانّونيا على حساب الجِپيْدِيِّين (Les Gépides) ـ أحد الشعوب الجرمانية ـ الذين كان يدعمهم اللومبارديون . وبعد احتلال سِيرْمْيُوم[3] (sirmium) ضم المنطقة دافعاً بالخط الحدودي إلى الدانوب الأوسط .

---

(1) نهر في جبال الألب الفرنسية (المترجم) .

(2) من روافد نهر الرون (المترجم) .

(3) مدينة إيطالية في لومبارديا (المترجم) .

ومع ذلك فلم يكد يتوارى حتى انهارت أعماله ، وشهدت السنوات الأخيرة لحكمه معارك دينية خطيرة ـ لقد كان آريوسيا ـ وصعوبات مع القسطنطينية . ولكن السبب الحقيقي للفشل لم يكن هنا . إنه يكمن في المغالاة في الطمع ، وفي الإدعاءات التي تجاوزت الحد وفي التقويم الخاطىء للوسائل الحقيقية ، كان الإقدام رائعاً والعمل بارعاً ولكن المطمح كان مبالغاً فيه وأوشك أن يكون مغامرة . والأرضية التي جرت عليها ـ اقتصادياً واجتماعياً وثقافياً ـ كانت أكثر ارتجاجاً من أن يقام عليها بناء ثابت . ولكن لولا هذه المحاولة الرائعة هل كانت المأثرة التالية ممكنة ؟

هذه المأثرة جاءت من الخارج ، قام بها يوستنيانوس الإمبراطور الروماني الشرقي الذي أراد أن يعيد الوحدة الإمبريالية . وإذ اعتبر أن تيودوريك قد مهَّد له الطريق فقد عرف كيف يعمل في الوقت المناسب . فمنذ سنة 533 استطاع قائد جيوشه بَلِيْزِيرْ (Bélisaire) أن يستعيد أفريقيا الفندالية « البربرية » ، ولكن جيوشه لم تتوغل بعيداً باتجاه المغرب الأوسط واكتفت باحتلال بعض المرافىء ، غير أن أفريقيا ظلت على قيد الحياة . وبعد قليل يأتي دور الجزر (سردينيا ، كورسيكا ، الباليار) . وفي سنة 535 استعيد قسم كبير من شواطىء دَلْماسيا وصقلية ، وفي سنة 536 وبقيادة بَلِيْزِيْر نفسه تحرَّكت حملة على إيطاليا الجنوبية ، وكان التقدم سريعاً حتى روما التي دخلت هي أيضاً من جديد في نطاق الإمبراطورية . غير أن المقاومة القوطية كانت بعد ذلك شرسة والقتال ضارياً . وبعد خمسة عشر عاماً استطاع يوستنيانوس أن يعتبر أنه أعاد احتلال إيطاليا . وقد استفاد من ذلك لمهاجمة إسبانيا . فوطئت جيوشه جنوب البلاد (بتيكا) الذي عاد إلى السلطة الرومانية .

هذا التجديد ، الناقص لأنه لم يذهب إلى أبعد من ذلك ، كان سريع الزوال . فالإمبراطورية الشرقية ، في الواقع ، لم يكن لديها الوسائل لضبط هذه الأراضي الشاسعة البعيدة عن مركز القوة (تحولت القسطنطينية إلى بيزنطة) ، وبالرغم من أنها نجحت لبعض الوقت في إعادة النشاط إلى بعض المؤسَّسات ، لقد كان عليها ، بالإضافة إلى ذلك ، أن تواجه في الشرق صعوبات خطيرة في الداخل وفي الخارج . وبعد عدة سنوات وقعت الأرض المستعادة تحت سيطرة قوى أخرى ، باستثناء أفريقيا وصقلية وإيطاليا الجنوبية التي بقيت تحت السلطة البيزنطية وعلى

تفاوت في التماسك . انتقلت بتيكا إلى حكم الڤيزيقوط في سنة 570 . أما إيطاليا فخضع القسم الأكبر منها ، بعد سنة 558 لسلطة شعب جرماني جاء من أواسط القارة هو الشعب اللومباردي الذي أسس مملكة تمتد من سهل الپو إلى وسط شبه الجزيرة ، وبعد أن تمركزت جماعات أخرى في الوسط حول سْپُوليت وبينيڤِنْتْ (Bénévent) رُقِّيت هاتان المدينتان الإيطاليتان إلى مستوى عواصم الدوقيات المجاورة للأراضي التي كان يحتفظ بها الإمبراطور هناك .

وبعد ذلك بقليل تم تغيير آخر في غربي البلاد الجنوبية ، ولكنه لم يكن له صدى الأعمال التي قام بها تيودوريك ويوستنيانوس ، وبدت إسبانيا في إطار جغرافي أضيق ولكنه أكثر تماسكاً ومتانة . وأضفى على مملكة الڤيزيقوط إشعاعاً محدوداً ولكنه أكيد ، وإذ اقتبس هذا التغيير واستفاد من النموذج الروماني توصل إلى ترسيخ أسس الملكية والدولة وتوفير المجد لهما . وبلغ كماله منذ نهاية القرن السادس وخلال القسم الأكبر من القرن السابع بمساعدة الإكليروس الكاثوليكي الذي اعتنق الملوكُ مذهبَه بعد أن كانوا حتى ذلك التاريخ آريوسيين . وفوق ذلك كله لقد نزعت هذه الحركة التغييرية المذكورة إلى إعادة بناء القوى العامة تبعاً لمبدأ موروث عن قانون روما وتاريخها . واستناداً إلى هذا المبدأ يحكُم الجماعاتِ سلطةٌ تأخذ على عاتقها مسؤولية الشعب بكامله فيما يخص خيرَه ومصلحته المؤمَّنين . وتميزت عملية التغيير أيضاً بدمج عائلات ڤيزيقوطية كبيرة بالأرستقراطية الرومانية ـ الإسبانية وبانصهار عرقي وثقافي ، كانت طليطلة وأشبيلية مركزه الأساسي . بناء قليل المتانة ، ربما ؛ ثبات القوى المركزية الطاردة حتما ، ضعف في بعض المؤسسات ، خاصة المؤسسة الملكية التي ظلت بالتأكيد انتخابية ؛ كل ذلك كان موضوع بحث ونقاش لدى المؤرخين . أما الثابت فهو أن مملكة طليطلة كانت ، في أواسط القرن السابع ، أي منذ سقوط تيودوريك ، أكثر تألقاً من تلك الممالك التي تأسست على الأرض الغربية من المملكة الرومانية .

الفرنجة واللومبارديون

وقد برزت أقطاب قوى أخرى منها : مملكة الفرنجة أولاً ، ثم فيما بعد مملكة اللومبارديين .

في النصف الأول من القرن السادس أنشأت المملكة الفرنجية مؤسسات ، بالرغم من أنها ظلت بدائية فإنها كانت فعّالة إلى درجة أن البلاد المغلوبة كانت بمنأى عن الأضرار الكبيرة والثورات المخيفة والإنشقاقات الخطيرة . وبعد موت كلوڤيس ظل حلم الفتح يراود أولاده وبقيت لهم الوسائل الضرورية لمتابعته ، واتخذ مشروعهم طابعاً جدِّياً . وإذا كانوا في الواقع أسياد بلاد الغال ، باستثناء بريتانيا التي فرضوا عليها الجزية وسپتيمانيا التي لم يستطيعوا انتزاعها من ڤيزيقوط إسبانيا ، فإنهم ، لما ضمُّوا البلاد البورغوندية وضعوا يدهم ، بعد ذلك ، على پروڤانس التي انتزعوها من أوستروقوط إيطاليا بالاتفاق مع يوستنيانوس ، توجَّهوا نحو ألمانيا : وقد اعتبر عملهم هذا عظيماً لأنه يشكل عودة نحو الأقطار التي لم تصطبغ أو اصطبغت قليلاً بالصبغة الرومانية ، إنها عودةٌ نحو الأرض الأصلية ، ولأنه يبرز سياسة عادت فاتجهت نحو البحر المتوسط .

تركَّز هذا الإصلاح في جرمانيا الجنوبية ، والألمان الذين نجوا من احتلال كلوڤيس الذي لم يتعدَّ مناطق رينانيا ، والذين كانوا قد استقروا بين نيكار (Neckar) والدانوب الأعلى أخضعهم تِيُودِبيْرْ (Théodebert) وفرض عليهم الجزية ولكنهم احتفظوا بحكم وطني على رأسه دوق ، وفي شمالي ألمانيا قُهرت مملكته تورانج وضمت أراضيها . وهُزِم الباڤاريون في الجنوب والجنوب الشرقي ودخلوا حوالي سنة 555 تحت حكم كْلُوتيرْ الأول الذي استبقى لهم دوقاً يحكمهم . وانطلاقاً من هناك بلغ الاحتلال أودية في جبال الألب ودخلت جماعات الفرنجة ، بالتواطوء مع يوستنيانوس ، إلى شمالي إيطاليا . وهكذا توطدت حوالى سنة 550 « امبراطورية الفرنجة» الواسعة الممتدة من الپيرينيه إلى الراين الأسفل فإلى ألمانيا الوسطى . وكان لها من القدرة، بفضل موقعها على جبال الألب وشمالي سلاسل الجبال ما يمكنها من الإشراف على جرمانيا الشمالية وسهل الپو؛ وحلَّ نفوذها، لمدى غير قصير، محل النفوذ الذي كان الأستروقوط يمارسونه مع تيودوريك في عصر سابق.

أما بالنسبة إلى اللومبارديين ، فإن موقفهم ، في سياق مختلف جداً ، يشبه موقف مملكة الڤيزيقوط ، بمعنى أنهم لم يمارسوا ولم يدَّعوا أنهم يمارسون أي سلطة حقيقية . ولم يتوصلوا حتى إلى قهر إيطاليا بكاملها وحكمها (لقد ظل الجنوب خارجاً عن سيطرتهم وكذلك بعض الثغرات شمالي الأدرياتيك من غْرادو إلى راڤينا)

ولم يستطيعوا أيضاً أن يفرضوا السيطرة الملكية على الدوقيات المستقلة في سْپُولِيْتْ وبِيْنِيْفِنْتْ ، لكنهم نجحوا ، خلال تطور طويل وشاق ، في تأسيس دولة قوية نسبياً بالرغم من الإنقسامات والمؤسسات الضعيفة (ملكية انتخابية) واحتجاجات العائلة الدوقية . وانطلاقاً من نهاية القرن السادس (بداية حكم أجيلُلْفْ ـ Agilulf ـ سنة 590) حتى منتصف القرن السابع ، وأكثر من ذلك في نهاية القرن وفي النصف الأول من القرن الثامن (حكم لْيُوتْپْرانْدْ ـ (Liutprand) ـ من 712 إلى 744) فرضت الملكية نفسها معتمدة على رعاياها الذين قدموا لها خدمات عسكرية ومستخدمة منفذين محليين نشيطين ، وفي پاڤيا التي أصبحت العاصمة تأسست إدارة تامة التجهيز : جمارك ناشطة وطرقات تحظى بالعناية والترميم ثم مِهن منظمة وعملة وطنية تُسَك ـ كما في إسبانيا ـ وبموازاة ذلك فإنه منذ منتصف القرن السابع تمت رَوْمَنة (إعطاء الطابع الروماني) المحاربين وتقبل الشعوب « الرومانية » ، مع أطرها ، بالمشاركة :

البنى الجديدة

إذا وضعنا موازنة لكل هذه المغامرات العسكرية ـ من تيودوريك إلى يوستنيانوس إلى الڤيزيقوط إلى الفرنجة فاللومبارديين ـ نستنتج أن تبدّلاً عميقاً حصل منذ نهاية القرن السادس . وكانت المبادرات الأكثر شهرة متوسطية وتحققت في أقطار متوسطية أو انطلاقاً من البحر المتوسط . وذلك لإعادة جمع شمل البلدان المنتشرة على طول شاطىء هذا البحر . ولقد فشل أكثرها صخباً ودوياً . ونجح مشروع الڤيزيقوط ، بمعزل عن سواه ، نتيجة عمل طويل صامت . ولا يمكننا بالمقابل ، أن نقول ما إذا كانت محاولات الميروڤنجيين قد نجحت فعلاً أم لا ـ فنتائجها تثبت العكس ـ ولا أن المملكة اللومباردية اعتبرت نجاحاً بارعاً ، ولكن ما يمكن أن نؤكده هو أن لشعوب المناطق الجنوبية (إيطاليا وإسبانيا حتى پروڤانس وجنوب غربي غاليا) تاريخاً مختلفاً تماماً عن تاريخ شعوب القارة ، وأنهم غالباً ما وعوا ذلك .

وهكذا وجدت على المستوى الإقليمي والسياسي مجموعتان كبيرتان : المجموعة المتوسطية والمجموعة الفرنكو ـ جرمانية ، وهما منفصلتان ومتميزتان بمقدار ما توفر شبكة الطرق الرومانية القديمة ، التي كان يجري ترميمها في القرن السادس ، من صلات بين الشرق والغرب وليس من الجنوب إلى الشمال . زد على

ذلك أن التباعد قد حصل أيضاً على مستوى الثقافة والحضارة وما زاد من حدته هو التناقض في الظروف الطبيعية ـ إنه لمن السخف بالنسبة إلى سائح هذه الأيام أن يميِّز عالماً متوسطياً بأجوائه وكرومه وزيتونه وأراضيه الجافة من عالم قاري بشتائه وقمحه وغاباته الرطبة . غير أن الواقع الأهم ليس في هذا الفرق الذي أبرزه التاريخ بل قد يكون عمل جميع العصور ، إنه في نسبة القوى بين الكتلتين التي جاء الغرب ليقلب توازنها . فالغرب لا ينظر فقط باتجاه « البحر المغذِّي » القديم فهو لا يشعر أنه مجتذب إليه ، ويكتشف أنه لا يستطيع رغم حدة الرغبة ، أن يكون مرتهناً له . ويجب ألا يكون كذلك ، وبالرغم من ذكرى روما فإن النموذج الروماني أصبح خرافة حتى لو بقي حياً في الأحلام ، إذ لا يمكن أن يبنى عليه شيء صلب .

منذ ذلك الوقت لم يعد يُقامَر بمصير الغرب على الشطآن الساحرة بل في البلاد الممتدة بين السين والفِيْزِرْ (Weser) ، ولم يكن ثمَّة سوى فرضية لم تخطر ببال أحد باستثناء ، ربما ، البابا غريغوريوس الكبير . في الواقع ، لم يبق ، مكانَ ما كان يسمى ، من القرن الثاني إلى القرن الخامس ، أوروبا الرومانية واللاتينية ، على صعيد الأراضي والبنى ، ما يمهِّد ، بالضرورة ، للتوحيد أو للحفاظ على وحدة ما ، أو لبعض التلاحم والتعاون . لم يكن التاريخ ، يوماً ، من الحتميات ؛ يمكن أن يحدث التطور عندما يكتشف الناس أو الجماعات أو المجتمعات وسائلهم ويحددون أهدافهم أو عندما ، في ظروف سعيدة أو ملائمة ، يتولى قادة عباقرة أو مخططون مسألة التغيير .

إن التنافر والشك هما من الوضوح بمقدار ما يكون الفرق وهمياً بين مجموعتين إقليميتين وثقافتين عظيمتين ، لأن التباينات داخل كل منهما تبدو في غاية الوضوح . وإن فرادة شبه الجزيرة الإيبيرية ساطعة لأن الأقطار التي تؤلفها ليست مؤتلفة مع الكتلة الشمالية التي تعكس عليها بعض الإشعاع ، ولكنها تظل كذلك منفصلة عن سائر البلدان الجنوبية باستثناء الشاطىء اللانغدوكي والهضبة الرودانية السفلى . وپروڤانس من جهتها لها وضع مستقل لأنها ظلت متوسطية مع نزوعها نحو الشمال بفضل اجتذاب مملكة الفرنجة لها . ولكنها انطوت على نفسها لأن عامل الجذب هذا لم يكن قوياً . والأمر نفسه ينسحب إلى حد ما ، على إيطاليا الشمالية والوسطى التي يسكنها اللومبارديون الذين يعتبرون مهتمين بما يجري شمالي مملكتهم

ـ جرمانيا التي هي امتداد لهذه المملكة ـ وفي الغرب ـ غاليا ـ كما في الجنوب ، بينما الأقاليم المتوسطية بكاملها تعيش في عالم آخر ، هو ، بالرغم من الانقسامات ، عالم بيزنطة والشرق . وأخيراً في الشمال ، كانت عزلة الجزر البريطانية حيث استقر الأنغلز (Angles) والجوت (jutes) والساكسونيون منذ القرن الخامس طاردين السلتيين باتجاه المناطق الغربية وواسمين البلاد المأهولة بِسَمة جرمانية . كانت هذه العزلة عميقة وإن لم تكن شاملة . وكان الفريزيون ، إلى شرقي مصب الراين وإلى شماله ، والساكسونيون فيما وراء الڤيْزِرْ ، يعيشون جميعاً على انفراد بينما في پانونيا حل الشعب الآڤاري ـ أتراك قدموا من آسيا ـ محل اللومبارديين الذين راحوا يشنون الغارات على إيطاليا .

ابتعاد الشرق

الفتوحات العربية

يشكل التطور الذي حصل بين القرنين الخامس والثامن ، على المدى الطويل ، انقطاعاً عن البنى الإقليمية والسياسية والاجتماعية التي هي إرث تاريخ الإمبراطورية الرومانية ، هذه الحركة سرَّعها الابتعاد الذي حصل ، لأسباب أخرى ، بين الشرق والغرب وحفر وهدة يستحيل اجتيازها . والواقع أن الأحداث الخاصة بالغرب ، في القرنين الخامس والسادس سببت هذا الانفصال ، تاركة لكل بلد ولكل شعب مشاغله الخاصة ، وخاصة عندما بدا أنه من المستحيل متابعة مهمة الإحتلال التي قام بها يوستنيانوس . قد يكون هذا ما يفسر فشل الأباطرة البيزنطيين ، في المرحلة التالية ، في محاولتهم المختلفة لإعادة العلاقات مع الغرب والتدخل ، بشكل تسلطي ، في شؤونه . ونستنتج أنه ، حتى في الأقطار ، بل حتى في قلب الجماعات وفي الأوساط التي تسعى للاحتفاظ بالتقاليد والمفاهيم الرومانية ، كان يقل الاهتمام شيئاً فشيئاً بالأخذ بالمفاهيم الشرقية ، وأخذ التمييز يزداد بين ما هو لاتيني وما هو يوناني . وهكذا تفسر المقاومة التي واجه بها بعض الإيطاليين والإسبان غير القوطيين جيوش يوستنيانوس ، وهكذا يفهم تلاشي الصدى الذي صادفته ، في القرن السابع ، بعض المبادرات الإمبريالية .

إن السبب البعيد والعميق لهذا الإنفصام يعود إلى الخلافات الجوهرية بين الثقافتين اللتين اتبعتا منذ وقت طويل مسارين متمايزين : لغة يونانية من جهة هيمنت

في القرون الماضية على القسم الأكبر من اللهجات ، ولغة لاتينية ، من جهة أخرى ، لم تستطع أن تتصدى للنفوذ الجرماني ولا للنزعات الطارئة ؛ ومسائل ذهنية ظلت في الشرق موسومة بالتأمل والتجريد ، بينما كانت في الغرب تافهة ومبتذلة ؛ حضارة مدينية مع الاحتفاظ بالمبادلات والاختلاط في الشرق ؛ وانطواء على عالم ريفي ومقفل في الغرب : كل هذا أدى منذ القرن السابع ، إلى تجاهل الذات ، إلى التنكر للذات ، إلى عدم السعي لمعرفة الذات وإلى اعتبار الآخر وكأنه غريب حقيقي .

إن الخصومات الدينية التي حافظت على الإتصال عمقت سوء التفاهم . فمنذ القرن الخامس حتى القرن السابع ظلت تزعزع كنائس الشرق مجادلات حول شخص المسيح . فبمواجهة الذين يعتقدون ، كالكنيسة اللاتينية الرومانية ، أن المسيح هو إله وإنسان معاً ، يصرح آخرون في العالم اليوناني ، أن ليس للمسيح سوى طبيعة واحدة هي الطبيعة الإلهية فيروّجون بذلك لعقيدة أصحاب المشيئة الواحدة (المونوفيزية) . والأباطرة الذين كانوا يشاركون في المناقشات كانوا يدخلون في صدامات حامية مع أسقف روما الذي كان قد ذكر ، في نهاية القرن الخامس ، عاهل الشرق بأن العالم تحكمه قوتان ـ سياسية وروحية ـ وأن كل قوة سيدة في نطاقها، وأن الإمبراطور لا شأن له في القضايا الكنسية . وفي منتصف القرن السادس ألقِي البابا فيجيلوس في السجن بأمر من يوستنيانوس . وبعد قرن من ذلك التاريخ أوقِف البابا مرتينوس الأول (649 ـ653) بدوره ، وهو الذي رفض مذهب أصحاب المشيئة الواحدة ، ووجهت إليه تهمة الخيانة العظمى فحُمِل إلى الشرق حيث قضى نحبه بعد أن عانى عذابات قاسية . وفي كلتا المرتين ساند أساقفة الغرب البابا ضد الإمبراطور والشرقيين ، إلى درجة أنه ، منذ تلك المرحلة ، قررت بيزنطة الإنفصال . وفي سنة 663 يأتي الإمبراطور البيزنطي ، كونستانس الثاني ، لآخر مرة إلى روما ؛ وعندما قرر الأساقفة الشرقيون سنة 692 ، أي بعد أن كان المجمع المسكوني قد حاول منذ عشر سنوات رأب الصدع العقائدي ، أن يبرزوا بقوة ما يميزهم في المجال النظامي ، يرفض البابا سرجيوس معتقداتهم على أنها خاطئة . وعبثاً حاول الإمبراطور توقيفه ، إذ يتخذ الإيطاليون احتياطات عسكرية لمنعه من ذلك . ومنذ ذلك الحين ، إذا لم يكن قد بدأ الانفصال الرسمي ، لقد كان

في أفضل الأحوال تعايش سلمي إلى حد ما ، بين كنيستين تعيش الواحدة غريبة عن الأخرى .

والغزوات العربية التي زعزعت ، في تلك المرحلة ، العالم الشرقي ، زادت طين هذه الحالة بلَّة . شملت هذه الغزوات في السنوات 633 ـ 643 سوريا (دمشق 643) وفلسطين (أورشليم 638) والعراق (البصرة 640) ومصر (الإسكندرية 642) وليبيا (طرابلس 643) ووضعت هذه الأصقاع تحت الهيمنة السياسية والدينية للحكم الخلافي ـ الذي استقر في الشام ابتداء من 660 ـ . وهاجم الإسلام ، في ذروة اندفاعه ، المغرب حيث نصب أعلام الظفر بالرغم من المقاومة العنيفة . وفي بداية القرن الثامن (711) ، هاجم إسبانيا القيزيقوطية التي انهارت خلال عدة أشهر وتابع جنوده غاراتهم على سپتيمانيا وأكيتانيا ، فأوقف شارل مارتيل واحدة من هذه الهجمات الخطرة في پْوَاتِيِيه سنة 732 .

وكان لهذا الفتح المبين نتائج خطيرة على تاريخ الغرب ؛ فهو من ناحية حاصر الإمبراطورية البيزنطية التي اضطرت للتخلي عن أقاليمها الغنية في سوريا ومصر وفي الشمال الشرقي للبحر المتوسط وجعل دورها ثانوياً في هذا البحر ، وسمح بالمقابل ، للمناطق الداخلة في الإسلام بانطلاقة جديدة وبانتعاش النشاطات الملاحية بفضل تطور العلاقات التجارية التي أقامتها فيما بينها . ومن ناحية أخرى ، وبالطريقة نفسها عمل هذا الانتعاش على تقوية عزلة الغرب المسيحي ، وخاصة انطلاقاً من مرحلة بلغ فيها النشاط التجاري المغرب وإسبانيا ، وإن خسارة شبه الجزيرة (الإسبانية) زادت من بروز قاريَّة الغرب : وجدت بيزنطة محشورة في زاوية ، والغرب في زاوية أخرى وكلتاهما في الشمال ، والإسلام في كل مكان غير ذلك ؛ في الغرب والجنوب والشرق . أما إيطاليا فقد حافظت ، من الناحية الجغرافية على وضع مميز لأنها كانت صلة الوصل بين الغرب وبيزنطة وشكلت في البحر سداً منيعاً بينهما وبين دار الإسلام . ولكن ، للأسف ، فإن مملكة لومبارديا ، كما ذكرنا آنفاً ، لم تكن مفتوحة على المتوسط ولم يكن من المناطق الملحقة بالدولة العربية إلا أن زادت في إبعادها ، طالما لم يبادر الإسلام إلى استعادة علاقاته التجارية معها . أما بالنسبة إلى إيطاليا الجنوبية واليونان فلم يكن بإمكانهما أن

تدخلا ، لقد خسرنا بالإضافة إلى ذلك أُكْسَرْخُسِيَّةً[1] رافينا لمصلحة اللومبارديين في منتصف القرن الثامن .

وبدا هكذا واضحاً أكثر من أي يوم مضى أن الغرب لم يعد يهتم بالبحر ، لقد انطوى على نفسه من البيرينيه إلى الفيزر ، ومن الراين الأسفل ومن شاطىء باتافيا إلى منطقة روما وأصبح عالماً قليل الانفتاح على الخارج ، غدا نوعاً من عالم معزول ، عليه أن يجد في ذاته معنى قدره وهدفه . فأي فرضيات وأي قوى يملك ؟ وهل هذه القوى خليقة بأن تخلق تلاحماً ما ؟ هذان هما السؤالان الخطيران اللذان يُطْرحان على تاريخ أوروبا .

الذرائع الجديدة

لقاء الأرستقراطيات

فيما بين القرن الخامس وبداية القرن الثامن تم تقارب بين الأرستقراطيتين أدّى ، بنوع أو بآخر ، إلى انصهارهما معاً : فهذا التوحيد الذي كان يمكن أن يكون وسيلة للالتحام بين المجتمعين لم يصل إلى مستوى واحد في كل المناطق ؛ إنه متين في إسبانيا الفيزيقوطية ، عميق إلى حد ما في إيطاليا ، وأقل تماسكاً في البلاد الشمالية حيث كان التأثير الروماني أقصر انتشاراً .

كان هذا اللقاء وليد الضرورة ، وذاك أن فئتين أرستقراطيتين تعيشان جنباً إلى جنب تحتاجان إلى التفاهم . إن الإحتلال بتوفيره القوة للقادة المنتصرين - ليس فقط الملوك ولكن أيضاً الذين بمعيَّتهم أو في مناطق معزولة مارسوا سلطتهم على غيرهم - دعم موقف الأرستقراطية الجرمانية . في الواقع ، فإذا لم يكن يوجد ، رسمياً ، في المجتمعات السابقة لعمليات الغزو أي فئة من أصحاب الإمتيازات تنعم بحقوق لا ينعم بها غيرها ، وإذا لم يكن يوجد قانونياً في نهاية القرن الخامس ، في جماعة الفرنجة ، أملاك « للنبلاء » تختلف عن أملاك سائر الأحرار - لم يكن القانون يعترف إلا بجماعات متساوية ، دون مستوى الملك - فإن هؤلاء الناس الذين كانوا فوق مستوى العبيد لم يكونوا في الواقع متساوين . فإن الغرامات القضائية المطبقة على

---

(1) أقليم يحكمه نائب من قبل الإمبراطور البيزنطي (المترجم) .

جرم بعينه تدل على أن العقوبات كانت تختلف تبعاً لمركز الأفراد في المجتمع . وبنوع أخص كانت بعض العائلات تتمتع بزعامة تفوق زعامة الآخرين : إنها عائلات زعماء القبائل التي تؤلف الشعب ، وعائلات أخرى كانت تكتسب المجد بفضل المواهب القتالية لبعض أفرادها وتحظى بمركز اجتماعي خاص ينعم ، في أعين المعاصرين ، بسحر جماهيري منحتها إياه آلهة الأجداد فأصبحت هي الوحيدة المؤهلة للقيادة .

إن نُبلاء النسب ، هؤلاء أو أصحاب النبل المقدس ، الذين خُصُّوا على ما يبدو بأملاك عقارية واسعة ، منذ نزولهم القصير الأمد في جرمانيا ، قد استفادوا من الغزوات على نطاق واسع . وإليهم كان يعود القسم الأكبر من الغنائم ، وقد حصلوا على الأملاك والأراضي التي صودرت من « الرومان» . وكان يجب مكافأة المحاربين الأدنى منزلة ولكنهم أكثر إخلاصاً واندفاعاً ؛ وكان الملوك بحاجة إلى رعية من الخدم الأمناء والأوفياء ، كانوا بحاجة إلى مستشارين وإلى موظفين ومنفذين يختارونهم من شعوبهم . كل هؤلاء كانوا يُعْطون أراضي ومعها العبيد وإمرة المزارعين . وهكذا انضم إلى النبلاء التقليديين أرستقراطية الوظيفة ؛ أخيراً أرستقراطية الثروة الناشئة عن امتلاك الأراضي . وقد أصبحت هذه العناصر الثلاثة غير قابلة للانفصام ولم تنفصم منذ القرن السادس .

لم يكن هذا المجتمع الطبقي يختلف عن مجتمع الإمبراطورية البيزنطية التي باتت فيها الثروة العقارية سمة الإرتقاء الإجتماعي والإقتدار ، واحتفظت بعض العائلات العريقة والأصيلة بالأملاك التي كانت تخصها قبل وصول الرومان . لقد كان من هنا ومن هناك وفوق مستوى العبيد ، أحرار وغير أحرار وفئة أرستقراطية مؤلفة من كل هؤلاء الذين ينتمون إلى هذه العائلات أو يتحدرون منها . وبعد أن انقضى زمان الاحتلال وتلاشت الأحقاد الناشئة عن مصادرة قسم من الأراضي الرومانية ، حدث التقارب بشكل طبيعي لأن الجميع كان من مصلحتهم التعاون وكان للملوك حاجة إلى هذه الفئة أو تلك . وفي نهاية القرن السادس أصبح التفاهم الذي عززه تحول الجرمانيين إلى الكاثوليكية أكثر صلابة ووثوقاً . وفي إيطاليا سبب استيطان اللومبارديين اضطرابات وتباعداً جديداً ، ولكن الحركة استؤنفت وترسخت كما في سائر المناطق جميعها على امتداد القرن السابع وفي العقود الأولى من القرن الثامن .

وفي تلك الفترة أُلغِي من المستندات ذكر الأصل الروماني أو البربري للعائلات . لم يعد هناك من تمييز بين الإداريين والكتّاب ، فالاندماج والإنصهار تحققا بشكل كامل .

وهكذا تكوّنت أرستقراطية من مالكي الأراضي الواسعة يشعر أفرادها بضرورة التعاون الذي يجمعهم لأنهم على أعلى درجة من درجات السلّم الاجتماعي ، ولأنهم بفضل ثروتهم خُوِّلوا شؤون القضاء والقيادة والدفاع حتى الإعاشة والتموين . وقد تراءى لهم ، مع مرور الأيام ، أن هذه الصلاحيات ناشئة عن حق طبيعي . في الواقع ، إن الثروة ـ أي هذه الهكتارات التي كانوا يملكونها ـ لا توفر تلقائياً كل الصلاحيات وكل المؤهلات . فإن اتساع الأراضي يعجز عن إخفاء ضعف المردود الناشيء عن سوء التنظيم الاقتصادي إلى درجة أنه ، لكي يكون الإنسان قوياً ، لكي يحافظ على منزلته الإجتماعية ، يجب أن يملك عدة عقارات واسعة ويكون تحت إمرته عدد غفير من الرجال . إن الحقيقة ليست بالتالي هنا ، وقد أدركت ذلك الكنيسة التي تسيطر على ممتلكات شاسعة (15٪ من الأراضي في القرن الثامن) ولم تعد أراضيها عرضة للمصادرات بعد مرحلة الغزو ؛ وقد بدأت تنفتح على الفئة المسيطرة التي برز فيها أساقفة ورؤساء أديرة ؛ وقد دعم هؤلاء ، بحكم وظائفهم في قلب المجتمع ، الأرستقراطية العلمانية .

إذا كان الأساس الإقتصادي لهذه القوة هو الأرض ، والأساس السياسي هو المشاركة الطبيعية في القيادة والأساس الأجتماعي هو العائلة ، فإن التحليل يُظهر ، وخاصة من الناحية الجرمانية ، أن الطبقة الأرستقراطية تكونت وتدعّمت بتقارب بعض العائلات وتفاهمها .

في الواقع كان هناك فوارق بين العائلة الرومانية والعائلة الجرمانية . ويبدو أن الأولى ، بالرغم من الإصلاحات القانونية التي طرأت عليها في القرن الرابع ، ظلت خاضعة لهيمنة الأب وللمفهوم الأبوي . وكانت تمارس الزواج الخارجي (خارج الأنسباء) طبقاً للقوانين التقليدية التي أكّد عليها تيودوسيوس . وكانت تتنامى بفضل إدخال زوجات غريبات في صفوفها . وكانت الثانية تعتمد على القرابة ، على المشاركة في إدارة الذكور وتوجيههم ـ الأبناء والأصهار وأبناء الأعمام ـ تحت إشراف الأب . كانت تأخذ غالباً بالزواج اللُّحْمي ـ الذي يعقد بين الأقرباء ـ على الأقل

داخـل العشيرة ، الأمـر الذي يسهِّـل نمو العـائـلات المتفـرعـة من صلب واحـد وتجميعها . على أنه مهما كانت هذه التباينات حقيقية فإن نقضها غير متعذر . ففي الأوساط الرومانية ، كما في المجتمعات الجرمانية تشكل العائلة الخلية الأساسية ، يكون الفرد دونها وخارجها معزولاً لا يتمتع بأي حمـاية ، لا سلطة لـه وقليل من الوسائل لممارسة حقوقه . إنها ، قبل كل شيء ، جمعية ذكور هم حفظة النسب والتلاحم البيولوجي والاجتماعي ، دون أن يكون مركز النساء هامشيًا تماماً . إنها شركة مصالح تتمثل بجماعة المالكين وبممارسة مشتركة للقوة على سائر الناس ، حتى ولو كانت الممـارسة تخفف شيئـاً فشيئاً من هـذه الصلابـة بمنحها مـزارعي العقارات إقطاعات دائمة تحدد حقوق المـالكين وتترك لـلأفراد إمكـانية التصـرف بالمقتنيات .

ويجدر بنا ، إلى ذلك ، أن ننوِّه بالتأكيد على سطوة العائلة الكبيرة ، واقعياً ؛ ففي بلاد الفرنجة كما عند الشعوب التي حافظ اندماج أرستقراطيتين فيها على نفوذ العناصر الجرمانية ، بتأثير البنى القبلية في وعي الجماعات وفي تنظيماتها الأساسية ، كان ينضم إلى العائلة القوية ، بفعل قوتها ، عائلات أخرى لمساعدتها ، فتتحد هذه العائلات بالشفاعة والإخلاص وقَسَم الولاء ، فتتولَّد فئة كثيرة العدد هي نـوع من العشيرة تؤخذ مواقفها بعين الإعتبار داخل الدولة . غير أن تشكيل هذه العائـلات وتنظيمها هما أكثر هشاشة مما يظنه بعض المؤرخين . وتبدو هذه الفئة وكأنها لقاء الأنساب الناشئة عن ذرّيتين ، ذرية الأب وذرية الأم وهي تتغيَّر في كل جيل مع عقود الزواج ، ويتضاءل هـذا بإجـراء عقود الـزواج ضمن العائلة الـواحدة . ولكن في المنـاطق الأخرى حيث تتم عمليـة الاستيعاب بـطرق مختلفة وتبعـاً لعوامـل نفوذ أخرى ، وخاصة في المناطق الجنـوبية ، فـلا أثر للعـائلات الكبيـرة . ولكن هذا الموقف لا يمنع وجود تفاهم بين فئات صغيرة تقوِّيه تحالفات مع عائلات الأمهات . وبالإضافة إلى ذلك أفلا نلاحظ ، مع غموض الوثائق ، هذا النوع من الجماعات في الأوساط الدنيا بين الفلاحين تجمع حول الأب الأولاد والزوجات ولكنها تحدد القرابة بشكل لا يكثر معه أعضاء العائلة وتتفرق بسهولة ؟

هذا يعني أن الزوجين يحتلّان باكراً مركزاً مرموقاً ، وسواء شئنا ذلك أم أبينا فإنه يوجد في قلب العائلة الكبيرة أزواج يملكون كيانات مندمجة بالمجموع كأزواج

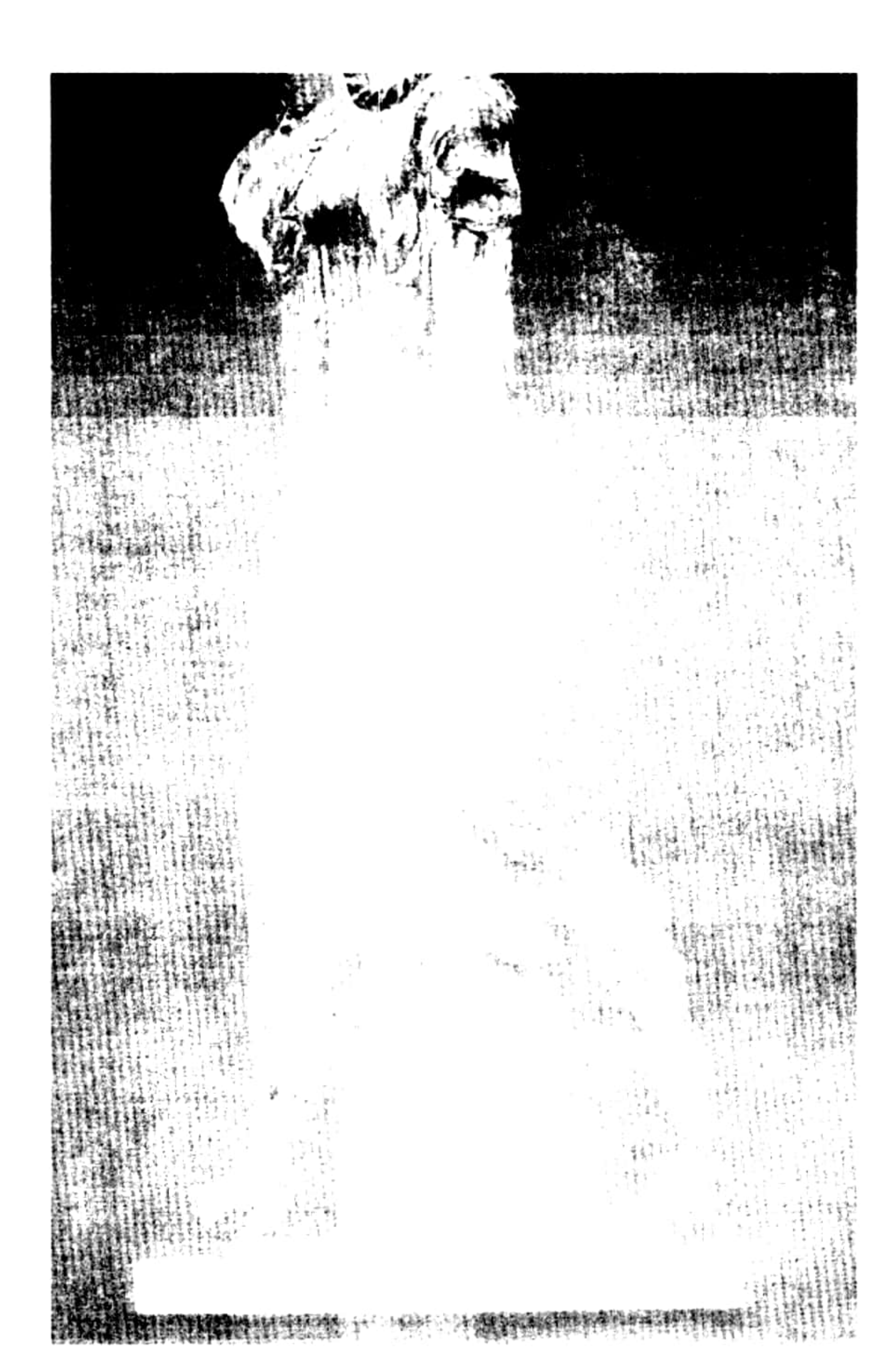
(مع أولادهم) وليس كأفراد مستقلين . وثمة نصوص عديدة تحدد وظيفة الزوجين والمرأة ، أي الوجود الحقيقي للعائلة الزوجية . والحقيقة أن بعض المؤرخين يتسرعون في هذا الاتجاه ويستخلصون ملاحظاتهم من حالات استثنائية وردت في نصوص تؤرخ لحياة القديسين كتبت في عصور لاحقة تسعى لإبراز نماذج ـ أزواج اتحدوا بالمحبة والاحترام المتبادل واقترنوا لغاية وحيدة هي الإنجاب كما توصي الكنيسة منذ ذلك العصر ، في الواقع ظل الزواج يتم بموافقة متبادلة من قبل العائلات أو بمعاهدة عقدت بينها . لم يكن يحق للزوجة إدارة مهرها وصداقها طالما زوجها على قيد الحياة ـ هذان العُرفان ، أحدهما روماني الأصل والثاني جرماني ، اختلطا دون أن يندمجا على أثر انصهار الأرستقراطيات . وبالمقابل، فإن الأم أو بالأحرى الأرملة تتمتع بمركز يسيء القانون الإحاطة به ، ولكنه يتوافق ، كمركز الزوجين ، مع الواقع البيولوجي .

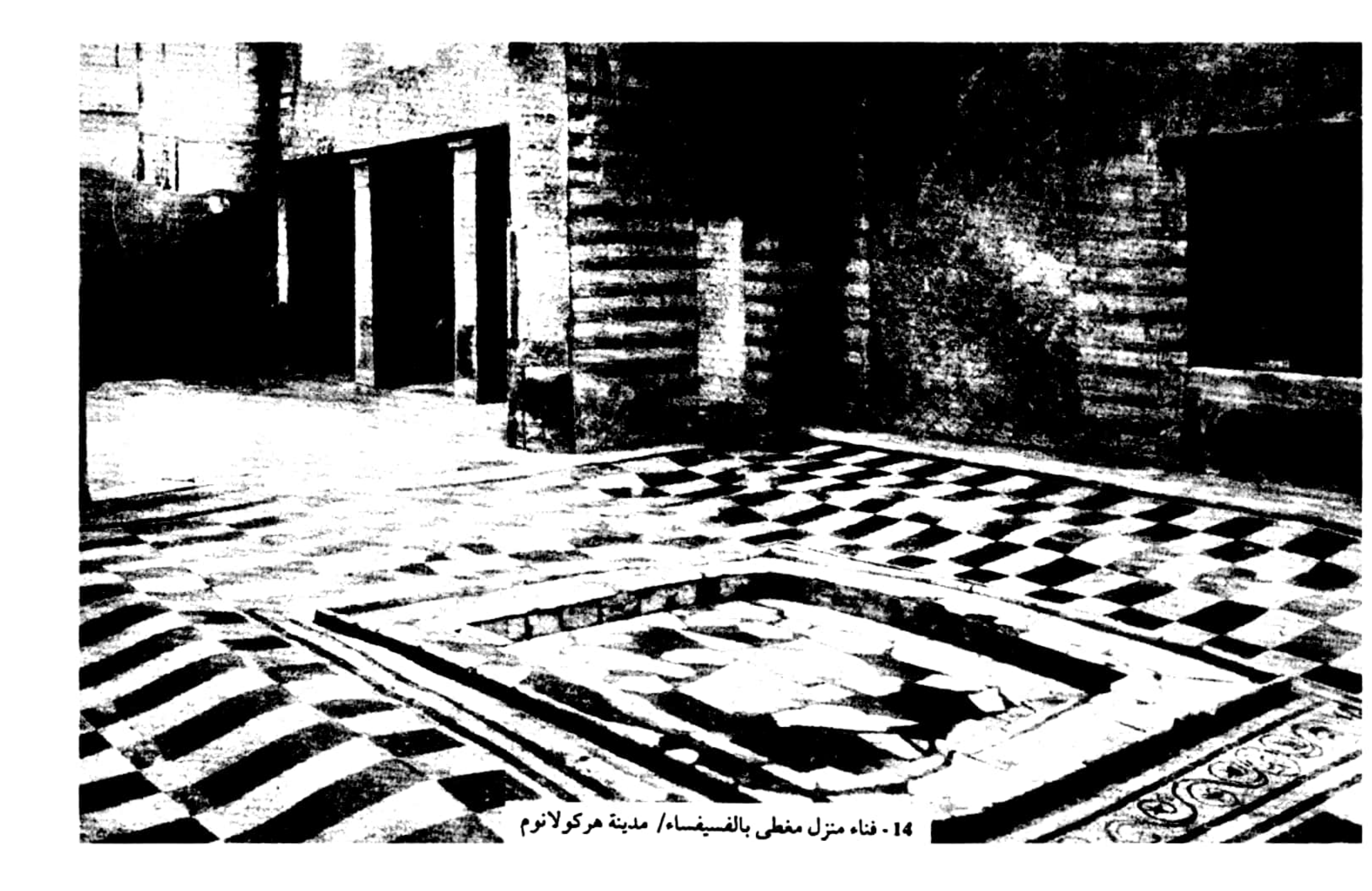
وهكذا ففي كل هذه المجتمعات ترتكز فئة الأقوياء الذين يعيشون على نمط واحد ويعترف بعضهم ببعض حتى دون أن يتعارفوا ، ترتكز على العائلة الكثيرة العدد . وقد تولد هذا العنصر عن لقاء مجموعتين لا يستهان بأهميتهما .

تنصير الأمراء والشعوب

إن تضامن هذه الفئة ناشىء عن كونها تعتنق ديانة واحدة هي الديانة المسيحية التي تجلّى انطلاقها ، في الغرب ، في تلك العصور ، تحت أشكال مختلفة، ممثلاً ، إلى حد كبير ، الذريعة المجدِّدة والأهم .

غير أن هذه الديانة التي كانت ديانة الشعوب الرومانية عرفت ، على مدى القرن الخامس، أخطاراً مخيفة بحكم أن أكثر الشعوب البربرية ، التي كانت تحارب . أو تستوطن في الغرب كانت قد اعتنقت سابقاً ، في أوروبا الشرقية ، المذهب الأريوسي ، وأصبحت جميعها آريوسية متحمسة . وكان الفيزيقوط بقيادة الملك أوريك قد اضطهدوا الكاثوليك . وملكا الفاندال ، جِنْسِريكْ (Gensiric) وهونيريك (Huneric) كانا كذلك أشد عنفاً وقد حَدًّا من سلطة الإكليروس الكاثوليكي ونفوذه في أفريقيا . وتيودور من جهته ، بالرغم من تسامحه الظاهر ، تدخل بوحشية ، خلال السنوات الأخيرة من حكمه ، في القضايا الدينية منصِّباً نفسه محامياً عن الأريوسية .





١٤- فناء منزل مغطى بالفسيفساء/ مدينة هركولانوم

وحدهم البورغونديون لم يتعرَّضوا للكاثوليك ، وذلك ، لا شك ، لكـونهم قليلي العدد في منطقة ترسخت فيها العقيدة في أوساط القادة وفي المدن .

وفي النصف الأول من القرن السادس انقلب الوضع رأساً على عقب ، ففي سنة 506 تحوَّل كلوڤيس ، الذي كان وثنياً كشعبه ، إلى الكاثوليكية وتعمَّد مع جميع قادة مملكته . وقد عمل ، فيما بعد ، على نصرة دينه ضـد الآريوسيـة ، في كل الأقـطار التي احتلهـا هـو وأولاده ، واعتنق البـورغـونـديـون والألمـان المـذهب الكاثوليكي . وبعد عدة سنوات وجهت حملة يوستنيانوس ضربة حاسمة للآريوسية في أفريقيا وهزمتها في إيطاليا حيث أعطاها الملوك اللومبارديون زخمـاً ونشاطـاً ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يرفضوا الكاثوليكية في حين جعل منهـا كل أمـراء الغرب معتقدهم الخاص . وفي سنة 587 اهتدى رِكَاريدْ (Reccarède) ملك القيـزيقوط وتخلَّى اللومبارديون عن الآريوسية ، ولكن ذلك حدث ببطء ، طبعاً ، خلال العقود الأولى من القرن السابع .

بيد أن هذه التحولات إلى الكاثوليكية كانت خاضعة ، إلى حد ما من جهة الملوك ، لاعتبـارات سياسيـة فقط ، ولا سيما أنـه في حالات كثيـرة كان التعلق بالآريوسية متيناً نسبياً . ولكن منذ اللحظة الأولى التي بدا لهم فيها أنه ، من أجل الحصول على دعم الشعوب المغلوبة التي كانت جميع أطرها كاثوليكية ، ومن أجل الاعتماد على الإكليروس الكاثوليكي الذي كان نفـوذه ، على الأقل في المـدن ، عظيماً ، من أجل كل ذلك كان عليهم ألاَّ يضطهدوا المسيحيين الذين هم من صنف آخـر والذين كـان عددهم وتنـظيمهم كافيين لـرفض الآريوسيـة . وكان عليهم أن يتسامحوا مـع الكاثـوليكية ويتجهـوا إلى اعتناقهـا . وبمهارة فـائقة وبـدهاء اعتنق كلوڤيس ، الذي لم يكن آريوسياً ، المذهب الكـاثوليكي لكي يتسنى لـه احتلال مناطق واسعة وحكمها بمساعدة الأساقفة والمؤمنين ويتخلص في الوقت نفسه من منافسة الجرمانيين والآريوسيين والألمان في الشرق والڤيزيقوط بين اللوار والپيرينيه ، ثم البورغونديين في الجنوب الشرقي . وتبنَّى رِكَاريد الوسيلة نفسها لتدعيم السلطة الملكية وقوة الدولة في مملكة طليطلة . وكـذلك فعـل اللومبارديـون في المرحلة التالية .

إن اهتداء الملوك استتبع اهتداء الفعاليات القوية ، وغالباً بعد أن يطلب إليهم

ذلك ، مع أن بعض العائلات تحولت إلى الكاثوليكية على أثر التقارب الذي كان يحدث بين الطبقات الأرستقراطية . وقد سمح هذا التحول للشخصيات الكبيرة بالإتصال بقادة الاكليروس ، بالتدخل والدخول في سلك الكهنوت وحصولهم فيه على مسؤوليات (منها اسقفيات) وأدّى كذلك إلى تنظيم من قبل الإكليروس بشكل أفضل ، وإلى متابعة مسيرة المسيحية بأقل قدر ممكن من الصعوبات ، غير أنها لم تتقدم بسرعة . إن التبشير الكامل لإقليم زْوَانْ الكنسي لم يتم إلاَّ في منتصف القرن السابع .

الهيئات الكنسية

وظلت الكنيسة منظمة كما كانت في القرن الخامس . وهي عبارة عن تجمع اتحادي لكنائس أسقفية منتشرة في الأقطار المسيحية (إيطاليا وإسبانيا وغاليا) ، ومجمعة في الأقاليم الأسقفية ، فكل قاعدة لمجموعة سكنية ـ وللمدن الأخرى في إيطاليا ـ هو مركز أسقفية ، على رأسها أسقف يعينه الإكليروس المحلي بالاتفاق غالباً مع القوى السياسية أو بتدخلها ويعتبره الجميع رئيساً أعلى لكهنة الدائرة . ويجتمع أساقفة كل إقليم باستمرار بدعوة من رؤسائهم في مجمع رعوي (سينودس) إقليمي ليقرروا الأعمال التي يجب أن تتخذ ويذكّروا بالقوانين ويحدّدوا الليتورجيا والتربية والأخلاق . وتنعقد أحيانا مجامع تضم رؤساء الأساقفة والأساقفة في مملكة واحدة بمبادرة من الملك . وهذا ما يحدث خاصة في مملكة الڤيزيقوط في إسبانيا حيث الأحبار يلتقون عادة في طليطلة ويلعبون دوراً خطيراً إذ يتدخلون بواسطة تشريعهم حتى في المجال السياسي عند تسمية الملك . وتشكل الأسقفية في الإطار الغربي الكاثوليكي اللاتيني فئة متماسكة مؤلفة من شخصيات تمارس مسؤوليات رفيعة وتلاحق الأهداف نفسها. لأن تتضمن هذه الفئة أحياناً رجالاً مغموري النسب قليلي الذكاء ـ وهو تقييم نسبي جداً في مجتمع ذاك الزمن ـ فهذا لا يمنع أن تؤلف عنصراً موحّداً بدأ دوره منذ العصر الذي قبلت فيه المسيحية في الإمبراطورية الرومانية (313) ثم أعلنت الدين الرسمي (391) . ولكن هذا الدور لم يبدُ أنه حاسم ، لقد عملت ذرائع أخرى للاحتفاظ ببعض التلاحم .

وكان من بين أساقفة اللاتين أسقف يتمتع بميزة التفوق على أنداده دون أن يكون له الحق في إمرة الآخرين مباشرة : ذاك هو أسقف روما الذي دعي منذ نهاية

القرن الرابع باسم البابا . إن تقدمه الذي يجعله على قمة الهرم الكنسي ينشأ عن أنه لا يمكن تحديد عقيدة بمعزل عنه أو بغير موافقته ، وأن كل إعلان عقائدي يتعلق بالإيمان يجب أن يضعه هو أو أن ينال قبوله . وعندما حدثت ، في تلك العصور خلافات لاهوتية خطيرة أدّت ، في الشرق خاصة ، إلى جدل بين اليونان واللاتين ، أعطاه موقعه هذا أهمية كبيرة ، لا سيما وأن أحداً ، حتى بين الشرقيين ، لم يشك في أهليته الحاسمة في الأمور . وأتاحت له هذه الأهلية أن يدّعي حق السلطة القضائية على مستوى شمولي ، في القضايا الدينية ، تشمل وتحوي وتضمن جميع المراكز الأسقفية . إنه ممثل القديس بطرس وليس فقط خليفته ، إنه ، كما يقول البابا ليون العظيم في منتصف القرن الخامس ، الرسول الوحيد ، إنه الحبر الأعظم ، ويتوجب عليه ، تبعاً لتأكيدات البابا جيلاسيوس الأول في نهاية القرن نفسه ، أن يوجه القضايا الروحية مع سائر الأساقفة باستقلال تام عن السلطات المدنية ؛ إنه يملك سلطة طبيعية تفوق أي سلطة أخرى .

ولكن بين هذه المطامح والواقع فسحة لا يستهان بها ، وإن ما يحصل عليه البابا بفضل هذه المطامح وبفضل امتيازه العقائدي الخاص بتحديد الإيمان ، إنما هو احترام أكيد ونوع من النفوذ المعنوي يعطيه سلطة تقديم النصح لسائر الأساقفة وتنبيههم ساعة ينحرفون ، ويخوّله أن يكون حكما بينهم عند الضرورة . وفي إيطاليا حيث هو ، في الوقت نفسه ، أسقف روما ورئيس أساقفتها ، وحيث يحمل لقب البطريرك ، انتقل إليه هذا الدور بسهولة تامة . ولكنه يواجه في سائر أنحاء الغرب ، التنظيم الأسقفي والمديني الذي يحد من إمكانية تنفيذ مراميه . ويضطر ، خلال القرن السادس خاصة ، لأسباب مختلفة ولاعتباره نفسه أسقف إحدى عواصم الإمبراطورية ، إلى التعاون مع الإمبراطور الذي يقيم في بيزنطة ، ويتوجه بأنظاره نحو الشرق إلى درجة يجد نفسه فيها مضطراً إلى الدخول في خلافات حادة مع السلطة الإمبريالية .

المؤسسة الرهبانية

إلى جانب الأسقفية والإكليروس ، الذي يرعى المؤمنين الذين يتميز بعضهم عن بعض ، تنمو ، في ذاك العصر ، مؤسسات هي الأطرف في زمانها ، وعرفت ، في القرن التالي وحتى القرن الثالث عشر ، ازدهاراً عظيماً وشكلت إحدى الميزات

الخاصة في المجتمعات القروسطية : إنها المؤسسات الرهبانية .

ظهرت هذه المؤسسات في الشرق بين الرجال ، العلمانيين وليس بين الكهنة ، الذين كانوا يعتبرون أن الآداب المسيحية تفرض التنكر لملذات هذه الدنيا ، وكانوا يستنتجون من ذلك أنه ، من أجل خلاص نفوسهم وتقديم المثل للمسيحيين ، من الضروري قطع كل علاقة مع هذا العالم المحيط بهم والابتعاد عنه كلياً للتمكن من تفادي مغرَياته وخيراته وبالتالي ممارسة الفضائل الزهدية ، وهي : العفة (رفض العلاقات الجنسية) والفقر (رفضِ الثروة) والتقشف (رفض الرفاهية والكماليات) . وبما أن هذه الأمور كانت تتطلّب تحكّماً كاملاً بالجسد ، كان هؤلاء الناس يظنون أنه يجب أن يفرضوا على أنفسهم التزامات جسدية قاسية أو إماتات (كالصيام وقهر الجسد) . وذلك لكي يحدوا من عنف الرغبات . وكان يتوجب عليهم في الوقت نفسه ، أن يقضوا أوقاتهم في الصلوات لكي يجعلوا نفوسهم على اتصال دائم بالله ، ولكي يعطوا للتضحيات والإلتزامات الأخلاقية التي يفرضونها على أنفسهم تبريراً روحانياً : الصلاة والإماتة ، هما فضيلتان تشكلان أساس الحياة الرهبانية الزهدية .

لقد اختار أوائل الرواد لهذه الحركة أن يعيشوا وحدهم دون رفاق ، فهؤلاء هم النساك (القديس بولس ، القديس أنطونيوس في القرن الرابع) . بيد أن البعض اعتبر ، منذ وقت مبكر ، أن الوحدة الكاملة تتطلب بطولة خارقة وهي عرضة لأخطار معنوية ونفسية ، فارتأى أنه من الأفضل تشكيل جماعات يوجه أعضاءها رئيس (هو رئيس الدير) يشغل دور القيادة الروحية والإدارية ، وهكذا يستطيع الأعضاء أن يتعاونوا روحياً ويقوموا بحاجاتهم الحياتية بفضل نظام محدد . فأسسوا أديرة زوّدوها بالأنظمة والقوانين ، كان اشهرها أديرة القديس پاخوم Pakhome (النصف الأول من القرن الرابع) والقديس باسيليوس (المتوفى حوالي 320) الذي ألح على الحياة المشتركة الدائمة بالنسبة إلى الرهبان .

وانطلاقاً من الشرق وطبقاً للأهداف عينها دخلت الرهبانية حالاً إلى الغرب ، حيث بنيت الأديرة إلى جانب النسّاك ، في الأقطار المتوسطة أولاً (پروڤانس وإيطاليا وكاتالونيا) ثم في داخل البلاد ، وكان أشهرها أديرة مدينة نول ـ Nole ـ في كامپانيا (نهاية القرن الرابع) وجزر لِيرِنْس (Lerins) قرب شاطىء پروڤانس (بداية القرن

الخامس) ودير القديس ڤكتور في مرسيليا (أسسه جان كاسيان حوالي 415) ودير ڤيڤاريوم في كالابرا (أسَّسه كاسيُودورْ في بداية القرن السادس) ودير القديس أُويِنْدْ (Oyend) (سان ـ كلود في الجورا) ودير آغون في ڤاليز السفلى ، ودير إيْلْ ـ بارْبْ قرب ليون ·، ودير القديس بطرس والقديس بولس في باريس ودير شِل (Chelles) في المنطقة الباريسية ، ودير القديسة رادْغونْدْ (Radegonde) في پواتييه (دير للراهبات) . . . وبين هذه الأديرة دير لم يكن يتميّز بشيء فريد ، منذ تأسيسه ، بالنسبة إلى معاصريه ، ولكنه اتخذ فيما بعد طابعاً مميَّزاً بارزاً وشغل مركزاً مرموقاً في تاريخ أوروپا : إنه دير جبل كاسِّينو (Mont-Cassin) الذي أسسه القديس بنوا النورسي (Benoit de Nursie) .

وبنوا هذا هو علماني مثقف متحرر ومن عائلة ميسورة من منطقة سابينا الرومانية ، يتمتع بميزات فكرية عظيمة وبموهبة في الإدارة ، وبعد خبرة طويلة الأمد (في مدينتي آفيلا وسوبياكو الإيطاليتين) وُجهها في البداية نحو التنسك ، استقر 529 على قمة وعرة من جبل كاسِّينو الذي يشرف على السهل الساحلي بين روما ونابولي ، وأسس ، بمساعدة رفاق له تبعوه واتخذوه لهم معلماً ، هذا الدير من أجل غاية وحيدة هي أن يعيش أفضل وانقى حياة رهبانية ، مصمماً على ألاّ يعود إلى العالم وعلى أن يتقيد بالالتزامات المفروضة بدقة متناهية ويتنكر لملاذ الدنيا (من هنا النذور الثلاثة التي هي الثبات والطاعة والإعتدال أو تحوُّل الأخلاق) . ولكنه لم يحاول ولم يشأ أن يفرض طريقته هذه ، بحال من الأحوال ، على المؤسسات الأخرى . لقد سنَّ قانوناً ، كغيره ، في ذاك العصر ، مستوحى من مستند سابق ، يلح فيه على الصلاة الطقسية ، دعاها العمل في سبيل الله واعتبرها الوظيفة الأساسية للراهب ، كما ألح على إقفال الدير في وجه أباطيل العالم . ولكنه لم يلح على أي التزامات استثنائية شاذة (لا عقوبات جسدية ، طعام صحي ، نوم هانىء ، عمل لكفاية الحاجات وتحاشي البطالة « عدوة النفس ») ، وهو يعبر بطرق متنوعة عن أن أفضل الأنظمة بالنسبة إليه هو نظام الحياة الرهبانية المشتركة . إن الدير هو مجموعة يعمل أعضاؤها على خلاص نفوسهم بشكل جماعي ، في حياة مشتركة دائمة بقيادة رئيس دير يوطِّد اتحادهم ، لهذا يعيشون معاً . هذا القانون الحكيم المتوازن الدقيق ، فيما يخص التنظيم الداخلي للدير ، والواضح الموجز ، قد طبق خارج جبل كاسِّينو ، في بعض الأديرة المجاورة وعرف في المنطقة حتى في روما ولكنه لم

يصل إلى أبعد من ذلك .

وانتشرت الحياة الرهبانية ، في المرحلة نفسها ، وضمن ظروف خاصة ، في المناطق حيث المسيحية ، التي انفصلت عن اللاتينية الرومانية، اتسمت بسمات خاصة ، مثل المناطق السلتية في الجزر البريطانية وخاصة إيرلندا وبلاد الغال . هناك ظهرت عدة أديرة أسسها أشخاص جعلوا منها مدارس روحية تعتمد أكثر الأحيان على شخصية هؤلاء المؤسسين وتتميَّز بقساوة التنسك ـ القهر المادي ، العقوبات الجسدية وقساوة الصيام ـ وبالاهتمام بالثقافة اللاتينية ـ الثقافة الغربية الحقيقية التي تعتبر ضرورية لمعرفة العقيدة والطقوس وفهمها . ولكن هذه الأديرة القائمة في جوار شعوب لم تبلغها بشارة الإنجيل بعد (سلتيُّو الشمال والأنغلوساكسونيون) أو وسط مجتمعات لم يترسخ إيمانها المسيحي ، بادرت إلى تبني العمل التبشيري . فاعدت أشخاصاً لهذه الغاية ، الأمر الذي جعل قادتهم يقررون أن الحياة الرهبانية ليست انفصالاً تاماً عن العالم ولكنها أداة تعمل على نشر الإيمان . واعتبروا أن الرهبان الذين ظلوا خاضعين لقانون صارم ، يجب أن يتحولوا إلى كهنة ليقوموا بحاجات العبادة وتوزيع الأسرار .

وكان المنظم الأنشط لهذه الحياة الرهبانية هو الإيرلندي كولومبان المولود حوالي سنة 540 وكان له فضل نشرها في القارة . فبعد أن حط رحاله في شمالي بريتانيا اجتاز الحوض الباريسي واستقر في الڤوج حيث أسس ديراً في لوكسوي (Luxeuil) سنة 590 . وظل هناك حوالي عشرين عاماً ، وقد وضع لرهبانه قانوناً يشدد على خشونة التنسُّك والتسامي الروحي ولكنه قلما اهتم بالتنظيم الداخلي للأديرة ، وأعدَّ الكثير من التلاميذ الذين ذهبوا يبشرون المناطق المجاورة في جرمانيا وأسسوا بدورهم بعض الأديرة ، بينما قام آخرون بالعمل نفسه في بلاد الفرنجة وقد انطلق هو نفسه للتبشير سنة 610 وأسس جماعة في بريجنز (Bregenz) على الطرف الشرقي لبحيرة كونستانس . وبعد أن اجتاز الألپ استقر في بوبيو (Bobbio) سنة 614 من قُرى لومبارديا حيث مات في السنة التالية . وقد توصلت مؤسسته إلى إنشاء شبكة واسعة من الأديرة المستقل بعضها عن البعض الآخر ، ولكنها تخضع لقانون واحد هو قانون لوكسوي . كانت هذه الشبكة من الأديرة تعطي ، بنوع خاص ، مناطق شرقي فرنسا الحالية وسويسرا الألمانية (لوكسوي ، مارْمُوتْيِيه

الألزاسية ، دِيْسِنْتِسْ ـ Disentis وبريجنز وسان ـ غال وكوار ـ Coire ـ ولور وفافِرْني وبُومْ لو ـ مسيو) . وانتشرت كذلك في غربي الحوض الباريسي (كوتانْسْ ، سان ـ ڤاليري ـ سور ـ سوم) وفي منطقة اللوار وشكلت عنصر تلاحم .

وكانت ، للأسف ، تعاني نقطة ضعف بسبب عدم دقة النظام الخاص بالشروط الحقيقية للحياة الرهبانية واستقلالية كل دير . فنتج عن ذلك أنه ، خلال القرن السابع ، اضطر رؤساء أديرة عديدون ودور كولومبانية وغيرها ، أن يكملوا أو يعدلوا القوانين ، وقد استوحوا ذلك من عدة نماذج ، أهمها النموذج البنديكتي الذي بدأ يُعرَف بفضل أعمال البابوات وبواسطة الأديرة الأنغلوساكسونية التي تأسست منذ تبشير انكلترا . وبدأت المؤسسة البنديكتية تحل محل غيرها من المؤسسات شيئاً فشيئاً ، بسبب نفوذها وبفضل بعض الأساقفة وبعض القادة . فلم تقبل في كل مكان كما وضعها القديس بنوا . ولكنها أثرت في أنظمة العدد الأكبر من المؤسسات الرهبانية في الغرب . لقد أعدَّ هذا النموذج منذ بداية القرن الثامن جماعة روحية ، ووجهت الذين يؤيدونها إلى مواقف متشابهة في المظاهر التقوية . إلاَّ أن هذه الجماعة بقيت هشة لأنه لم يوضع لها أي رابط عضوي ولا تراتبية محددة . كان هناك أديرة ، ولكن لم يكن يوجد رهبانية أو جمعيات رهبانية .

دور غريغوريوس الكبير

يشغل البابا غريغوريوس الكبير (590 ـ 604) في المرحلة الأولى من تاريخ الرهبنة البنديكتية مركزاً خطيراً ، فهذا الروماني المولد المتحدر من عائلة أرستقراطية رفيعة متميزة بثقافتها جذبته الحياة الرهبانية فقرر أن يترك العالم في حين أنه كان قد بدأ حياة علمانية كموظف مدني في إدارة المدينة . ثم اعتزل مع بعض التلاميذ في منزله الخاص الذي تحول فيما بعد إلى دير القديس أندراوس في روما ، وبعد أن درس أفضل الطرق ليعيش في العزلة والخشوع اكتشف أفضلية قانون القديس بِنْوَا واقتنع ، من خلال ممارسته لهذا القانون ، بأنه يشكل أفضل نظام . وبعد عدة أشهر خرج من هذا المعتزل ليدخل في خدمة الكنيسة ، ثم بعد أن أصبح بابا عمل على نشر هذا النظام محدداً للرهبان أهدافاً لم يأتِ على ذكرها مؤسس دير جبل كاسِّينو وهو لو عُرِضت عليه لكان رفضها .

لم يتوقف عمل غريغوريوس عند هذا الحد ، بل تخطى إطار الرهبنة الضيِّق بشوط بعيد ، واهتم بالعالم المسيحي بأسره ويؤثر تأثيراً فعالاً في تاريخ الغرب ، ويقوم على ثلاث دعائم أساسية .

من جهة ، إن الحبر ، بإكراه نفسه ، ربما ، على موقف مناقض لما كيفته عليه تنشئته وشبابه ، يشعر بهذا التباعد الذي حدث بين الشرق والغرب ويستنتج منه أن الكرسي الرسولي يجب أن يتوقف عن التدخل في المسائل الشرقية ، ما لم تقتض ذلك مصلحة الكنيسة المسكونية ، وأنه ، كروماني وكأسقف لروما التي تظل نظرياً تحت المظلة الإمبريالية ، يحترم الإمبراطور احتراماً عميقاً ويعتبر نفسه أحد أتباعه وله يؤدي الحساب كحاكم لروما ، لأن البابا هو الذي يدير شؤون المدينة . ولكنه لا يخفى أنه بحاجة ، في تدبيره الإداري والسياسي إلى شيء من حرِّية التقويم لا سيما وأن العاهل الذي كان قلما يهتم حينذاك بالأقطار الغربية ، لم يكن يملك وسائل الحماية لعاصمة الإمبراطورية القديمة .

وطمح ، من جهة أخرى ، وكنتيجة لذلك ، إلى أن يكون الرئيس الفعلي لكنيسة الغرب بحكم شمولية الوظيفة التي يضطلع بها ، ويلمح إلى ذلك بفطنة دون أن يصرِّح وذلك عندما ينكر على بطريرك بيزنطة لقب مسكوني الذي كان يحاول أن ينسبه إلى نفسه . ويقرر عملياً أن الإكليروس اليوناني يجب أن يتمتع باستقلالية واسعة . ويترك ، بالطريقة نفسها ، للأساقفة اللاتين الاستقلالية التي يمنحهم إياها التنظيم الكنسي في ذاك العصر . ولكنه يعتبر نفسه مسؤولاً ، خاصة ، وبشكل مباشر ، عن الغرب ، إذ يعتبر نفسه بطريركا لهذا الغرب. وهذا يحمله ، كرئيس أساقفة ، على توجيه أكثرية أساقفة إيطاليا وإقامة علاقات وثيقة مع مطارنة إسبانيا ومملكة فرنسا ، وعلى تقديم النصيحة ، كمرشد للنفوس ، للملوك الميروفنجيين بخصوص الأهداف الخلقية التي يجب أن تسعى إليها سياستهم والإلتزامات المسيحية التي على الحكومة الصالحة أن تحترمها . ويتجه ، بسبب الممارسة وبفضل نفوذ هذه السلطة المعنوية ، إلى اعتبار وفرض اعتبار أن الغرب يشكل كُلاً متكاملاً ومجموعة مختلفة تماماً عن الشرق ولكن لا يستحيل تلاحمهما . وأنه عن طريق العمل في هذا الجزء من العالم يكمن مستقبل الكنيسة اللاتينية والكنيسة الرومانية والمسيحية جمعاء . إن هذا الموقف والمشاريع التي صدرت عنه تشكل

منعطفاً واضحاً ومهماً في تاريخ البابوية . في الحقيقة ، أنه على مدى القرن السابع وبسبب الرأي الخاص لبعض البابوات وبنتيجة المناقشات التي حدثت عاد الكرسي الرسولي للتدخل ، من جديد ، في المسائل الشرقية (مرتينوس الأول) وأهمل الغرب بعض الإهمال . وكذلك وُجِد ، حتى منتصف القرن الثامن وفي أوساط الإكليروس الروماني ، أنصار للاتحاد الوثيق والتعاون مع بيزنطة . ولكن شيئاً فشيئاً يقوى حماة « القضية الغربية » ، وفي النهاية ينتصرون . ولكنهم ما كانوا استطاعوا ذلك لو أن غريغوريوس الكبير ، بشخصيته ونفوذه وقداسته التي جعلت منه ، في العصر السابق ، نموذج الراعي الصالح ، لم يطلق هذه العملية ، لولاه لما كان تاريخ أوروبا كما صار عليه فيما بعد ، إن مشروعه يستحق أن يعرض كحدث مميز .

إن مسؤولية الغرب السياسية التي يضطلع بها البابا أكثر من أي إنسان آخر تحمّله ، في قناعاته هو ، تبعة بث الإيمان المسيحي ، بشكل أفعل ، في الأخلاق والعادات وتوسيع المدى الإقليمي للمسيحية . وتحت هذا العنوان يقيم علاقات وثيقة جداً مع الأسقفية ويشرح ما يجب أن يكون عليه العمل الرعوي الأفضل ، ويسهل للأسباب عينها عملية دخول الفيزيقوط الأريوسيين الذين اهتدى ملكهم رِكَارِيْدْ سنة 587 إلى الكنيسة الكاثوليكية ويحاول تخفيف الصعوبات على اللومبارديين يتخذون هذا التوجيه ، وأخيراً وانطلاقاً من الرؤية نفسها يطلق عملية تبشير الوثنيين تحت إشرافه ويعطي العمل الرسولي دفعاً قويّاً .

انتشار المسيحية

القديس بونيفاس

وانطلاقاً من مواقف مؤاتية كانت بمنزلة تنبيه من قبل عاهل مملكة كِنْتْ (Kent) الصغيرة في جنوبي شرقي انكلترا ، قرر البابا غريغوريوس الكبير نشر الدين المسيحي في أوساط الشعوب الأنغلوساكسونية التي كانت تقيم في القسم الأكبر من الجزيرة البريطانية والتي كانت لا تزال على الوثنية . وقد عهد بهذه المهمة إلى راهب بنديكتي ، من دير القديس أندراوس في روما ، يدعى أغسطينوس وصل مع بعض الرفاق سنة 397 وبعد أن حصل على تنصر الملك اعتبر أن العمل يمكن متابعته بسهولة . وقد أعطاه عندئذٍ توجيهات محدداً وأوعز إليه أن يعيد بناء مركز الأسقفية

التي كانت موجودة منذ وقت قصير واقترح عليه الأشكال والأساليب التي عليه بموجبها أن يحقق مهمته : عدم الإكراه على تبني الطقوس الرومانية في الأراضي السلتية التي تحافظ على تقاليدها الخاصة ؛ احترام التقاليد والاستعاضة عن تدمير الهياكل الوثنية « بتنصير العادات الدينية المكتسبة » .

ويعد أن يتشجع أغسطينوس بهذه التوصيات وهذا الدعم يستقر في كانتربري التي أصبح أول أسقف عليها . وينشيء بعض المطرانيات ويؤسس بعض الأديرة البنديكتية التي أصبحت مراكز للتبشير ، الأمر الذي يشكل قطيعة ، منسجمة مع أفكار البابا ، مع فكرة التنكر التام للعالم وعدم إقامة أي صلة به . وازداد العمل الرسولي نشاطاً بعد موته الذي حدث سنة 604 ، فامتد حتى المناطق الجنوبية الشرقية والوسط والشمال الشرقي (تأسست كنيسة أسقفية ثانية في مدينة يورك سنة 627) ، واصطدم في المناطق الشمالية بالمبشرين الإيرلنديين الذين تتعارض تقاليدهم الدينية مع تقاليد روما والقارة ويرفضون الخضوع للسلطات الأسقفية المؤسسة طبقاً لتعليمات البابا ، فنتج عن ذلك مجادلات طويلة وحامية . وأخيراً في سنة 664 يفضل الأنغلوساكسونيون على مؤتمر وِيْتْبِي ، الذي حدثت فيه مواجهة بين الفريقين ، الطقوس الرومانية ، الأمر الذي أدّى إلى انطواء الكنائس السلتية وتراجعها نحو بلادها الأصلية ، وفي العقود الأخيرة من القرن السابع كان كل شمالي انكلترا قد بلغته بشارة الإنجيل .

وبفضل البادرة البابوية دخلت هذه البلاد في الدين المسيحي وكان تعلقها بالمؤسسات الكنسية الغربية أكثر بروزاً من تعلق القارة ، وأصبحت انكلترا ، بنعمة من التاريخ ، الأرض الأكثر حماسة وغيرة والمكان الذي ترسخت فيه الرهبنة البنديكتية أشد الرسوخ ، تلك الرهبنة التي كانت في ذلك العصر الأكثر تعلقاً بالكنيسة الرومانية . وبالإضافة إلى ذلك ، فإن الدواعي الملحة التي كان يتطلبها التبشير بالإنجيل وتنشئة المرسلين في بلد يجهل اللغة اللاتينية ، والحاجة إلى تأهيل قسس ورهبان محليين وتثقيفهم بهذه اللغة ، الوسيلة الوحيدة للمعرفة العقائدية واللغة الرسمية للطقوس ، كل ذلك جعل من الأديرة والمعابد الأنغلوساكسونية مراكز للحياة الفكرية نضجت فيها ثقافة لاتينية مسيحية رهبانية في أساسها . مراكز كانت الأكثر تألقاً والأكثر نشاطاً في الغرب في نهاية القرن السابع وعلى مدى القرن الثامن .

وأدّى تبشير انكلترا إلى تبشير الأقطار الجرمانية التي كانت لا تزال وثنية وتحول الزخم الرسولي الذي تعمل به الأديرة البنديكتية ، بعد إنجاز عمله الرائع في الجزر البريطانية ، بشكل طبيعي ، إلى مناطق تسكنها شعوب ذات إتنيات ولغات متقاربة ، حيث كانت المسيحية قد دخلت خلال النصف الثاني من القرن السابع وأولها المناطق الرينانية .

وفي بداية القرن الثامن بدأ الراهب الإنكليزي وِلّيبرورْدْ (Willibrord) بنشر الكاثوليكية في فريزا وأقام هو في أوتراخْتْ . وقد تلقى ، لبعض الأشهر ، مساعدة من راهب شاب جاء من مدينة إكزيتر (Exeter) ، ويدعى وينيفريد (Wynifrid) ، قرر فيما بعد أن يعمل في مكان آخر ، وقد حصل على إذن من البابا غريغوريوس الثاني (719) . وبعد أن اتخذ لنفسه إسما رومانياً ، بونيفاس ، انطلق في العمل بحماسة خارقة وهمة قعساء يعاونه لفيف من الرفاق انتسبوا هم أيضاً إلى الأديرة البنديكتية . وقد استطاع أن يحوِّل إلى الكاثوليكية منطقتي هِسْ وتوارنج ، وأسس في ألمانيا الوسطى عدة أديرة (بعضها في مدينة فولدا) وبعض المراكز الأسقفية التي أصبح هو رئيساً عليها . ونظم صفوف الإكليروس في بافيرا ـ وبلغ بغيرته وقداسته شهرة جعلت منه أبرز شخصية في الغرب وغدا مستشار الملوك والأساقفة (أصلح نظام الإكليروس في الممالك الميروفنجية) . وفي سنة 754 شنّ حملة تبشيرية على فريزا حيث الوثنية كانت بعد ناشطة . ولكنه قتل على يد أحد أعداء المسيحية مكلّلا بغار الشهادة حياة كرّسها بكاملها لنشر الإنجيل . وكانت نتيجة ذلك توسيع حدود المسيحية اللاتينية إلى شرقي الراين وإعطاء مجموع الشعوب الجرمانية ، ما عدا الساكسونيين الذين لم يسمعوا ، بعد ، صوت الإنجيل ، قوة تلاحم تجمعها تحت راية إيمان واحد ، وتوثيق علاقات ألمانيا بسائر الغرب وطبعها بطابع عميق من الثقافة المسيحية اللاتينية وإلحاقها بالكنيسة الرومانية التي كان رسولها مخلصاً لها ، عن اقتناع وعاطفة ، إلى أقصى حدود الإخلاص . وبعد أن أرسى القديس بونيفاس في الأعماق ، أسس العملَ الذي قام به ، في القرن الخامس ، الملوك الميروفنجيون وهو تجميعهم الأراضي الجرمانية ممهدين بذلك الدرب أمام شارلمان ، استحق أن يدعى هو أيضاً ، المهندس النشيط لبناء الغرب بوضعه بعض الأسس لما سيسمَّى ، فيما بعد ، أوروبا القروسطية . غير أن عمله هذا لم يكن

يطمح ، في مظهره الخاص ، إلى الذهاب أبعد من ذلك ، وجل ما كان يبتغيه ، ببساطة ، هو بعض الإيمان في النفوس وهداية الشعوب الجرمانية بجعلهم يتخلون عن معتقداتهم الوثنية وتنصير بعض ممارساتهم . ولهذا اعتبر مجرماً في نظرهم لأنه أفسد النقاء الأصيل للجرمانية الأريوسية وتعرَّض لكراهية العقائديين النازيين والمؤرخين المزيفين .

الفقر وتباين النتائج

إن المستجدات التي طرأت ، في عصر الوهن والتغيير اللذين لا شكل لهما ولا ضابط ، تعني ، بالدرجة الأولى ، الحياة الدينية والنشاط الكَنَسي ، مع أن التقارب الحميم بين فعاليات العرقيات المختلفة لتشكيل فئة أرستقراطية متماسكة لم تخل من الأهمية ، غير أن هذه الذرائع المتنوعة لم يكن لها من القوة والدينامية ما يكفي لتجاوز الجمود والتنافر ، ويظل التباين السمة الأبرز ، إلى درجة أنه لا يُسْتَشَف أدنى شعور ولا أقل رغبة في التعاون إلا في بعض القطاعات .

الإنهيار السياسي

وعلى امتداد القرن السابع وفي العقود الأولى من القرن الثامن تصدَّع كل شيء وتفتت . ووراء هذه اللافتات الزائفة الخداعة يعود مرض الجذام إلى الظهور . وهذا يعود أساساً ، دون شك ، إلى الأخلاق التي ظلت في هذه المجتمعات « البربرية » فظة وعنيفة ، وإلى خشونة الأعيان وطمعهم وإلى فساد رأي السلطات العامة المسؤولة عن الشعب بأسره وإلى ترسيخ الإقتناع بأن السلطة هي ملك شخص خاص يجب أن يستفيد ويسمح باستخدام السلطة وسوء استخدامها .

أما في الماضي فلم تكن الأمور هكذا ، ففي القرن السادس كان الأوستروقوط (القوط الشرقيون) والڤيزيقوط والفرنجة قد وضعوا نظاماً مؤسساتياً مدعَّماً ولكنه يقوم ، من جهة ، على الخدمات المركزية المحصورة في القصر ، مركز السلطة العامة ، ومن ناحية أخرى ، على الموظفين المعينين المكلفين بتطبيق الأوامر واستدعاء الأحرار إلى الجيش وجمع الضرائب غير المباشرة (وأحياناً المباشرة أيضاً) وترؤس اللجان المؤلفة من الرجال الأحرار الذين يقضون بين الناس وينفذون الأحكام الصادرة . وبالمقابل ظل الإتفاق بين العائلات الحاكمة والسلالات والقوى

الأرستقراطية مضطرباً وهشاً في كل مكان . ففي مملكة الڤيزيقوط ثم في مملكة اللومبارديين ظلت الملكية ، إنطلاقاً من هذا الواقع ، انتخابية . وهذه هي النقطة الأضعف في هذه الأنظمة . وهذا لم يمنعها ، كما ذكرنا ، من اكتساب دينامية حقيقية ومن الظهور بمظهر التماسك وتلك الهشاشة ظلت كامنة وراء المظاهر ـ لقد انهارت إسبانيا الڤيزيقوطية بسرعة تحت هجمات المسلمين ، ولم تصمد المملكة اللومباردية أمام الكارو لنجيين . وعلى أي حال ، فإن الجغرافيا كانت ، في التنظيم العام للغرب ، في تلك الفترة ، تضع هذين البلدين على حدة .

أما في مملكة الفرنجة فقد حدث التفتت في النصف الثاني من القرن السادس ، على أثر التجزئة التامة كما لو كانت الدولة والأرض أملاكاً خاصة بالعائلة ـ وكان رد الفعل المعاكس هو التخلص من النظام الانتخابي ومنذ سنة 511 كان كلوڤيس قد قسم الأرض التي يحكمها بين أبنائه الأربعة . المدن الرئيسية للأقسام الأربعة هي : ريمس وأورليان وباريس وسواسُون . وأعادت صُدَف الأحداث والوفيات توحيد الأرض لمصلحة كلوتير ثم حدث تقسيم جديد على أثر وفاة هذا الأخير سنة 561 ولكن مع اختلاف في الحدود نوعاً ما ؛ لقد أعطيت مملكة ريمس الأراضي الأكثر جرمانية ، من شمپانيا إلى ڤيزر وإلى الإلبا العليا . . وأعطيت مملكة أورليون طابعاً جنوبياً لأن المناطق الأساسية كانت ، بالإضافة إلى بِرّيْ (Berry) ، سهول السون والرون وخصت باريس بإدارة المناطق الغربية من بْرِيْل (Bresle) إلى پواتو حتى الپيرينيه ، بينما كانت حصة سواسون زهيدة جدّاً ، وقد زالت فيما بعد ، هذه الدولة الأخيرة . وتقلصت الممالك الثلاث الأخرى استناداً إلى معطيات الجغرافيا والتاريخ السابق . وهكذا تحررت في الشمال الشرقي أوسترازيا وفي الغرب نوستريا ، وفي الجنوب الغربي بورغونيا ، ومملكة الفرنجة التي كانت تشكل قوة وتطمح إلى بعض التماسك النسبي بربطها العناصر الجرمانية بعناصر أكثر رومانية ، انفجرت بدورها ليحل محلها كتل أكثر تجانساً وأفضل ترابطاً ولكنها كانت تعيد بطريقة ما تجميع الإتنيات المختلفة ومستويات الرومنة (الحالة الرومانية) المختلفة والإغراءات الخارجية المتنافرة . وكانت ، أخيراً ، تعيد إبراز التباينات وتغذيها . أوسترازيا متمحورة حول الراين موحدة الملامح إلى حد ما ، قادرة على التحرك باتجاه الجنوب كما باتجاه الشرق . وعكس ذلك ، نوستريا منعزلة ومؤلفة من

عناصر متنوعة ، وبورغونيا أكثر اتحاداً ولكنها متنازَعة من جوانب عدة وأضعف من أن تتحرك وتسيطر .

بيد أن التجزئة توقفت عند هذا الحد ؛ إمَّا لأن النظام أخذ يتفهم العادات والأخلاق ، وإمَّا لأن المسؤولين الكبار وجدوا من المناسب استخدام بعض العائلات التي استطاعوا بواسطتها العمل في الممالك الأخرى . ونتج عن ذلك ، منذ بداية القرن السادس تجمع أراضٍ إلى حد يجعلها مهيأة لأن تحكم (إذا لم يكن من قبل الملك فعلى الأقل من قبل الأرستقراطية) ، لأنها تكيَّفت مع معايير العصر (افتقار إلى التقنيات ، ضعف في العلاقات التجارية وغيرها ، اكتفاء اضطراري بالثروات والمنتجات المحلية ، امتداد المسافات التي أصبحت أطول أكثر فأكثر بالنسبة إلى الوقت اللازم لاجتيازها ، وأكثر من ذلك بالنسبة إلى الفكرة التي يكونها الناس عنها) . وفي الوقت نفسه اقتصر ميدان عمل الملوك اللومبارديين على المنطقة الممتدة من ميلانو إلى بيروزا ، وأصبح شبيهاً بعمل ملوك أوسترازيا ونوستريا وبورغونيا .

غير أن هذا الإنكماش ظل غير وافٍ لأن الأراضي كانت أفسح من أن يتكامل فيها حكام القمة ومحكومو القاعدة . زد على ذلك أن السلطة العليا كانت لا تزال تصطدم ، أكثر ما تصطدم ، بقوة الأرستقراطية التي كانت تُبقي الممالك ، دون وعي منها ، في هذا الوضع الوسيط ، وذلك لأنها كانت من جهة ، أكبر من أن يستطيع الملوك منعها من الحكم والتصرف على هواها ، محلياً ، وكانت ، من جهة أخرى ، أصغر من أن تستطيع الهيمنة على الملك . وكانت هذه السلطة نشيطة عند اللومبارديين وشامخة الرأس في نهاية القرن السابع في مملكة طليطلة ، وعادت ، منذ 580 ، في الممالك الميروفنجية ، إلى ما كانت عليه دائماً : أي القوة السياسية الوحيدة . وكان الملوك عاجزين عن التحرك تجاهها ، كما أنهم لم يكونوا يتمتعون بأي من المزايا التي تجلب لهم الاحترام ؛ فلم يقوموا بأي عمل باستثناء بعض المحاولات التي قام بها داغوبير . وبفضل عدم كفاءتهم وبسبب عيوبهم أسرعوا إلى الهاوية .

فقدان التماسك الاجتماعي

كان بالإمكان أن تنطلق النهضة ، منذ ذلك الوقت ، على يد الأرستقراطيين ،

فهذا ما حدث فعلاً في القرن التالي ، وربما شاء القدر ، لسوء الحظ ، ألاّ يوجد حينئذٍ رجل حاذق ومثابر إلى حد يكفي لأخذ زمام المبادرة ، وليس من فريق له من القدرة ما يخوله فرض نفسه على الآخرين . إن الحاجة كبحَت ، فوق ذلك ، من إمكانيات العمل ، إلى حد كبير .

وكانت الحاجة هي الخبز اليومي ، وقيل إن الإفتقار إلى التقنيات والنقص في العدة جعل الإنتاج على مستوى منخفض جداً . وبما أن الملاكين الكبار كانوا مضطرين لإعالة أتباعهم الكثيرين الذين يحيطون بهم وخدمهم وجنودهم ، كانوا ينتقلون من عزبة إلى عزبة ومن قصر إلى قصر يستهلكون الغلال في أماكنها ، هذا التنقل ، الذي يؤدي إلى عدم الاستقرار دون أن يقضي على العزلة ، يشكل تبذيراً للعائدات والوقت . وفي شكل عام ، فإن العظماء ، باستثناء بعض العائلات الواسعة الأملاك ، لا يحصلون على عائدات كبيرة من أملاكهم العقارية التي هي ثروتهم الوحيدة ومثلهم أصحاب الإقطاعات والمزارعون وغيرهم الذين يعيشون باستمرار على حافة الشقاء والفاقة ، فإنهم يتركون الأرض والعمل آملين في أن يجدوا في مكان آخر أراضي أفضل أو يكبِّلهم يأس لا واعٍ من التجول . فهؤلاء ينقصون كذلك من مداخيل الأسياد ، وهم إذ يتصرفون كذلك فلأن الأرستقراطية تبقيهم ، بلا هوادة ولا شفقة ، في حالة من شظف العيش والخنوع . ولم تفكر الطبقة الأرستقراطية الجرمانية ، حين تأسيسها ، بالإعتماد عليهم لمراقبة الأرستقراطية الرومانية بطريقة أفضل . إن القطيعة بين الفئتين ـ الأسياد وعامة الشعب ـ هي عميقة وواضحة فالقرويون لا يحصلون على أي منفعة ذات قيمة من العمل الذي يؤدونه ولا يستطيعون أن يفقهوا أنه بالإمكان إقامة تعاون حقيقي مع الآخرين ، لأنه بالإمكان الإسهام في مشروع يستطيع هؤلاء وأولئك أن يقوِّموا ويدركوا معنى التعاضد الذي يخلقه مشروعهم والذي يجب أن يجمعهم معاً . فلا مجال هنا ، بكل بساطة ، لسوى العمل الذي يجعله شاقاً ظروف الزمان وضغوط الأقوياء الذين يعتبرون هذا أمراً طبيعياً جداً . وعندما يطرأ أي تحرك أو انتفاضة يتبين أن الغالب على واقع الفئتين هو جهل إحداهما للأخرى وإغفالها إغفالاً تامّاً . لهذا السبب لم تكن جماهير الشعب تشترك في عمليات العصر الإنتخابية ، ويشبه تاريخ الوقائع لذاك العصر ، أكثر من أي عصر آخر لعبة الدمى المتحركة .

كان كبار الملاكين ، الذين يسيئون حكم الفلاحين لأنهم يجهلونهم فيرهقونهم بقدر ما يستطيعون لأنهم بحاجة إلى ثمار أعمالهم ، يمتكلون قدرة أقل تماسكاً مما يتراءى للعيان ، إن قوتهم الأساسية أن يكونوا ما هم استناداً إلى مولدهم ، أن يكونوا الفئة الوحيدة البارزة ، الفئة القليلة العدد ؛ لأنه يُجب ألا نلقي بالا إلى الأنصار الكثيرين الذين يرتبطون عن طريق الصداقة أو المصلحة بعائلة من العائلات . وهم إفرادياً لا يمثلون شيئاً : إنهم فئة هزيلة يدب الحسد بين أعضائها ، تحلم بالحصول على الأملاك التي تدر أكثر مما تدره الوظائف ـ لأن الوظائف العامة التقليدية لم تعد منتجة إلّا لبعض الأسر التي على علاقة وثيقة بالملوك ـ وهي مستعدة للإثراء عن طريق المغانم . وهكذا فالأرستقراطية التي تتجذر ، أكثر فأكثر ، في الأرض ـ بإصرارها على الحصول على ملكيات لا تكون بعيدة بعضها عن بعض ـ تضيق آفاقها شيئاً فشيئاً ، وهي تخاف الحقائق السياسية والإقتصادية والاجتماعية على أدنى مستوى ، على مستوى الحضيض ، لا تنظر إلى الأعلى وإلى البعيد ، كيفما فهم معنى هذه العبارة .

هذه الفاقة هي على درجة من الحدة بحيث إن الاحتفاظ بنظام خصوصية القوانين يشكل ، إلى جانب التفاوت في الثروات والقدرة والنجاح ، تنافراً يحول دون تكوُّن طبقة متحدة ، في الواقع ؛ وبالرغم من إنصهار الإتنيات ولو ببطء فلم يسجل هذا الإنصهار تقدماً ولم يلحظه المعنيون بوضوح ، وقد تمسك الجرمانيون بهذا النظام لأنهم أدركوا جيداً منذ البداية ، أن تقاليدهم لا تأتلف بشكل كافٍ مع القانون الروماني ، وظل معروفاً ، في مختلف الممالك ، أن كل إنسان يخضع لقوانين جماعته ، الأمر الذي أدّى إلى إعداد ونشر تشريعات خاصة ما زال المنقبون ينشطون لدراستها والاختصاصيون يتناقشون . البعض يستعيد تقاليد الجرمانيين والبعض الآخر (مرسوم تيودوريك وقوانين ألاريك) يجمع لمصلحة المواطنين الأصليين ، نصوص قانون تيودوسيوس . وابتداء من منتصف القرن السابع دعت الحاجة إلى التخلي عن هذا النظام . لأنه كان من الضروري أن توجد ، في جميع الحالات المختلطة التي تجمع أو تواجه بين أشخاص يخضعون لقوانين مختلفة ، قاعدة عامة ، لأن الاتحادات وصفقات الزواج تبدِّل آلياً وبيولوجياً في القوميات ، ولأن الكنيسة ، التي تنبع أنظمتها من أخلاقيات محددة وثابتة ، تشترع بطريقة متناسقة . وشيئاً فشيئاً أمكن التوصل إلى إقليمية القانون . ولكن على صعيد التفكير

والعادات والمواقف ، أي الذهنيات ، احتفظت الخصوصيات بالفوارق ، إلى درجة أن بعض العائلات وبعض الفئات ظلت تعتبر أنه يستحيل اندماجها بالآخرين . ومن بين الملوك ، كان ملك الڤيزيقوط رِكْيسْڤِنْثْ (Recceswinth) ، هو الوحيد الذي الغى رسمياً هذا النظام سنة 654 ، فيما حافظت عليه بعض الولايات الأخرى حتى لو تخلت عن تطبيقه عملياً لأنه لا يمكن العمل بغير ذلك وخاصة عندما تطرأ خصومات حادة ، كما كان يحدث في القرن السابع في مملكة الفرنجة .

وبعد موت داغوبير (635) حاولت كل من الممالك الثلاث ، وخاصة نوستريا وأوسترازيا ، أن تسيطر على الإثنتين الأخريين ، وفي كل من هذه البلدان سعت الفئات الأرستقراطية إلى فرض نفسها على الملوك بسيطرتها على المراكز العالية وقبل كل شيء على حاكمية البلاط التي تخوِّل متسلمها الهيمنة على المراكز الأخرى عن طريق توظيف أنصاره وإبعاد خصومه . كانت هذه التدابير تتم بالمكر والعنف . وكانت تحاول ، في الوقت نفسه ، بسط هيمنتها وسلطتها على المملكتين الأخريين أو على واحدة منهما بفضل مؤامرات الأسياد المقيمين على أرض تلك المملكة ، الأمر الذي يسمح ، في حال نجاحهم ، بتوزيع غنائم قيمة ترضي الأنصار ، غير أنه لم يتَّسِمْ أي من هذه المطامح ، لا في البداية ولا فيما بعد ، بِسِمَة نبيلة شريفة . فلم تنزع أي من هذه الدول ، أبداً ، إلى نوع من الإمبريالية تستطيع أن تفرض بواسطتها ، يوماً ما ، سلطات تطبق على أراضٍ شاسعة ، أو أن تخلق فيها بعض التلاحم ، ولم تستهدف توحيد الأرستقراطية في حركة متماسكة . ولم تحدث طيلة هذه العقود من السنين ، صدامات بسبب الخصومات العائلية ولا ، بالأحرى ، نتيجة التناقضات القومية أو العرقية التي كان من شأنها أن تضع وجهاً لوجه الفئات القوية المختلفة . بل على العكس من ذلك كانت الصدامات تبدأ ، بكل بساطة انطلاقاً من الرغبة في التفوق والهيمنة ، من الشهية إلى الاستخدام وسوء الاستخدام . وأدى كل ذلك إلى خلافات حادة جداً ، تفهم على حقيقتها طبقاً لأهدافها وتجري تبعاً لظروف العصر وعاداته . وقد أدت إلى التفرقة والإضعاف دون أن تأتي بشي جديد . وكان أقوى هذه الفئات الطامحة من كانت تعتمد على عائلة كثيرة العدد وافرة الأملاك وتحظى بتأييد الأصدقاء والمخلصين ، وقادرة على استخدام مساهمين كثيرين بإبرازها الأهداف المستقبلية بطريقة مغرية . وقد انطلق إبْروانْ (Ebroin) بمغامرته في نوستريا . وبما أنه لا يعتمد على عائلة قوية ، فشل

18 ـ تاريخ أوروبا العام/ ج 1.

في مهمته (643) . وعلى العكس من ذلك ، نجح آل پيپيناد (Les Pépinèdes) بالرغم من الصعوبات الهائلة . ولكن ما يجب أن نلاحظه هو أن هذه العشائر بحروبها بعضها ضد البعض الآخر أبقت ، حتى في أواسط القرن الثامن ، حاجزاً فيما بينها . لقد حالت دون تشكيل تعاون حقيقي يشمل كل المجتمع أو يعبر عنه إطار إقليمي كافٍ .

تقصير الكنيسة والدين

إن انتشار الإيمان المسيحي وتعاون المؤسسات الكنسية وازدهار الحياة الرهبانية تخفف من حدة البلبلة في هذه القرون ، وتعزّي عن الإمعان في « البربرية » . والحقيقة أن هذه الإنجازات التي تمت حينئذٍ ظهر أثرها أخيراً في تطور الغرب . ولكن يجب ألا نغالي في تأثيرها على ذلك العصر ، بل يجب ، على العكس من ذلك ، أن نكتشف حدودها وننوّه بأنها أسهمت في الحفاظ على التجزئة والخلافات .

وعلى امتداد هذه القرون كان البابوات موضوع احترام يستحقونه . لقد شكلوا سلسلة تتمتع بقيم تسمو ، في كل المجالات ، على قيم الملوك والطبقة الأرستقراطية بنسبة كبيرة . وكانت البابوية ، مع غريغوريوس الكبير ، وبعد مئة عام ، مع أحبار مستهل القرن الثامن ، تنعم في الغرب بأسره ، بنفوذ عظيم . ولكن مع الأسف ، بالرغم من السلطة المعنوية التي تملكها فعلياً وبالرغم من الامتياز المطلق الذي تتمتع به في الموضوع العقائدي ، فلم يكن يتيسر لها إدارة أسقفية حقيقية . فلم تكن تختارها ولا تعيّنها ولا تأمرها على الإطلاق . كانت الكنيسة تحتفظ ببنى أفقية ، كان من نتيجتها أن الكرسي الرسولي لم يكن ليتمكن من فعل شيء بارز ودائم إذا لم تدعمه السلطة السياسية الفعّالة وأنه يجب أن يعود ذلك إلى القوى المنفذة . وقد يكون هؤلاء مخلصين له ، كالقديس بونيفاس ، وقد لا يكونون أو لا يبقون كذلك . وإن الأساقفة ، بشكل خاص ، كانوا يملكون حرّية عظيمة . كانوا يجتمعون على مستوى الإقليم أو المملكة فيعودون من هناك بالإنقسامات بين الأقاليم وبين الممالك ويتنافس الأرستقراطية ، فلم يكن ثمة أي رابط عضوي أو أي اتحاد متين بين الرأس والأعضاء . فكان هؤلاء منقسمين إلى فئات لا يفهم بعضها بعضاً ، وإذا حاولت مرّة أن تتعارف ، فمن أجل أن تتحدى الواحدة منها الأخرى .

والرهبنات الكولومبانية والبنديكتية وغيرها لم تكن تؤلف عنصراً اتحادياً لأنه من المعروف أن الأديرة كانت منعزلة بعضاً عن بعض وكثيراً ما كان قادتها منغمسين، كالأساقفة، في الخصومات المحلية والخلافات السياسية. وزيادة على ذلك فإن الشيء الذي لم يأتِ أحد على ذكره هو أن الدعوة الرهبانية كانت تنطوي على سم زعاف على مستوى تنظيم العالم والمجتمع بحكم أنها هي نفسها رفض لهذا العالم وهذا المجتمع. ألا يُفسَّر نجاح الحياة الرهبانية في تلك العصور، جزئيًا بالخوف من تلويث اليدين والخشية من جهنم وأكثر من ذلك، بالأنانية والرغبة في التحرر من هموم الوجود المادية لأن الدير والجماعة هما مجهزان بشكل يجعلهما يفيان بالحاجات اليومية؟ إن الأوساط الرهبانية التي تشكل فئة خاصة جدّاً ومنعزلة تسيء الاختلاط بالآخرين، تجازف دائماً بالنظر باستخفاف إلى كل ما يجري حولها.

والحقيقة أن الرهبان، وعلى الأخص البنديكتيين، اهتموا اهتماماً زائداً بالعالم لأنهم انطلقوا في رسالة تبشيرية بتشجيع من غريغوريوس الكبير الذي أدرك، أكثر مما يزعم مؤرخوه، كم يفقد الزهد والتقوى والروحانيات من قيمتها إذا لم تقترن بعمل تستمد منه القوة والغذاء. ولكن من الخطأ الاعتبار أن الرهبان كانوا جميعاً مرسلين أو مهيئين ليكونوا رسل المستقبل. الكثيرون منهم ظلوا طيلة حياتهم في ظل أديرتهم يعملون ويصلون ويمارسون الفضائل دون أن يبحثوا عن آفاق جديدة غير صوامعهم.

أما بالنسبة إلى التبشير بالإنجيل، فمن الواضح أن ما كان يجري في إنكلترا وألمانيا يشكل حدثاً في الدرجة الأولى من الأهمية غير أن الفائدة الحقيقية لهذا الحدث هو كونه نقطة انطلاق وانطلاقة مؤقتة قطعت شوطاً بعيداً ولكنه في ذاته لم يفعل أكثر من ذلك. لكن في الحقيقة، لقد ظل في منتصف القرن الثامن، بين الجماعات الريفية لهذه الأقطار المنتصرة حديثاً، وحتى بين المسيحيين الجدد، جماعة وثنية تقدر بأكثر من نصف السكان، وفي «الأراضي المسيحية القديمة» حيث يتمثل الإكليروس بشكل أكثف وحيث نظمت الأسقفيات وحيث الجميع تقريباً يقومون بممارسات صورت لهم على أنها إجبارية. كم هو عدد المسيحيين الذين يدركون أن المسيحية تشكل إيماناً كاملاً ـ مهملين الأخلاقيات التي تنجم عنها ـ وليست هي فقط مجموعة طقوس جذّابة بقدر ما تحتوي من الخوارق التي تفسِّر،

على غرار الأديان البدائية ، ما هو غامض في الطبيعة ، طقوس يمارسها رجال يدَّعون أنهم يملكون قدرات سِرِّية ونوعاً ما سحرية ، طقوس يجب الاكتفاء بها لأن الآخرين يفعلون ذلك ولأن السلطات تفرضها ولأنه قيل إن التنصل منها يعرِّض لقصاص الآلهة وانتقامها ؟ يتخلل ربع السكان ، أي ما يوازي ربما ثلث مجموع المؤمنين ، الكثير من المتنصِّرين الجدد من الأنغلوساكسونيين والتورانجيين والفريزيين . وبالمقابل ، ففي الأوساط الرفيعة من المجْتمع ، أي التي تصفها لنا المصادر من بين الملوك والأمراء والعظماء والأساقفة ، الجميع ، في البلدان المسيحية القديمة وفي الأمم التي شملتها حديثاً رسالة الإنجيل ، كانوا مسيحيين ويجهرون بذلك ، غير أنه يجب متابعة التحليل وسبر النفوس . ويتبين لنا ، على أي حال ، أنه في حال عدم وجود إلا أقلية ضئيلة تعتبر أن المسيحية تفرض نوعاً محدداً من الحياة نتيجة تقيُّد إلزامي بـأخلاقيـات تتصل بـالمعتقد . وأنـه بين «المسيحيين الصالحين» يـوجد «الكثيـر؟» ممن يلتزمون بالدين ، خوفاً من الجحيم وتحت تأثير الخوف السلَفي من الحياة الأخرى . وإذا استطعنا أن نحدد أوروبا لعام 750 إقليمياً عن طريق المناطق التي ترسخت فيها الكنيسة الكاثوليكية الرومانية اللاتينية وبتسلسلها الهرَمي وإكليروسها ومؤمنيها ، يجب الحذر من اعتبارها مسيحية بكاملها .

التباين الثقافي

يوجد حياة ثقافية كما يوجد حياة دينية ، فمن جهة لا يمكننا تجاهل النتاج الأدبي الذي ظهر في تلك العصور ولا الفن الذي لا يخلو من بعض المميزات . ويجب أن نلحظ ، من جهة أخرى وجود نقائص وثغرات . وسُجِّلَ على امتداد تلك الفترة ، تراجع بالنسبة إلى العصور القديمة يتراءى في فساد البنى السياسية ويفسره في شكل جزئي . ونزيد على ذلك أن هناك تشتتاً وانكفاءً إلى بعض المراكز التي يظل إشعاعها محدوداً .

الفوارق من الناحية النوعية واضحة ونلاحظها ، في هذه المرحلة عينها ، في كل ما يميِّز بين كتّاب مختلف المناطق . وخير مثل يقدمه غريغوريوس الكبير وغريغوريوس أسقف تُورْ اللذان لا يمكن وضعهما على مستوى واحد لا من ناحية عمق الفكرة ولا من ناحية قوة التحليل ولا من حيث سلامة الأسلوب . وهذا يعني أن الفوارق هي من النوع الجغرافي وتنشأ عن سوابق خاصة بكل قطر من الأقطار

فإيطاليا تظل ، إجمالاً ، بفضل بعض مدنها ، مركزاً نشيطاً بالرغم من بعض الأندثار في نهاية القرن السابع ، وإسبانيا أيضاً ، تفرض نفسها ، وإن متأخرة ، وتتألق فعلياً في القرن السابع . وإنكلترا السلتية والأنغلوساكسونية الأعمق أصالة كانت ، في تلك الفترة وفي القرن التالي ، المنطقة الأكثر دينامية وغنى ؛ وبالمقابل ، كان التقهقر ، في مملكة الفرنجة ، باكراً وسريعاً . وكان في هذه البلدان الواقعة في وسط القارة مسرح شبه فارغ تظهر عليه بعض الأشباح أحياناً ، وتتابع شعوب أخرى اللعب حوله وهي مديرة له ظهرها .

فضلاً عن ذلك ، لقد قيل إن « قضايا الفكر » كانت تعني الأقلية من الناس : ففي كل جيل كان يظهر بعض المئات من الأشخاص يحسنون القراءة والكتابة وتسجيل أفكارهم وتأملاتهم فيعدُّون ثقافة دينية ورهبانية قليلة الإلتفات نحو مسائل هذا العالم (ولم يكن بين هؤلاء المؤلفين ، عملياً ، لا قضاة ولا منظرون سياسيون) ، ولكنهم عاجزون عن الإرتفاع إلى مستوى التأمل الفلسفي الناشط (لا نجد بينهم أي لاهوتي موثوق به سوى غريغوريوس الكبير وإيزدور الإشبيلي وبِيْدْ الجليل[1] (Bède le Vénérable) . ولكن الإبداع لم يبلغ حداً بعيداً ، غير أنه حمل معه ما يعتبر بُرْعُم الثقافة القروسطية التي لم يدركها أحد في ذلك العصر سوى غريغوريوس الكبير وبعض البنديكتيين الأنغلوساكسونيين الذين عملوا وهم ينظرون إلى المستقبل . هذه الإنجازات الخجول والعديمة القيمة وهذه المطامح التقوية هي غير كافية ، لأنه لكي تنشأ الثقافة القروسطية الحقيقية تحتاج إلى أدلة أخرى لا يوجد واحد منها في القرن السادس حتى ولا في العقود التالية . أما سواد الأميين الذين لم يكونوا على صلة بالأوساط المثقفة فلم يجدوا فيها أي فائدة أو ما يثير الاهتمام .

ويُبرز التطور اللغوي هذا العجز كما يفسر في الوقت نفسه ، إنزواء بعض المراكز وبعض الأفراد . وكما أوضح فيليب وُوْلْف بجلاء في مؤلفه (الأصول اللغوية في أوروبا الغربية) ، فإن المؤسسات الجرمانية على أرض الإمبراطورية الرومانية قد أثارت تغيرات جذرية . فمنذ ذلك الوقت اختفت اللغة اللاتينية من باڤيرا (إلى جنوب الدانوب الأعلى حتى أعلى وادي الأديج[2]) وفي ألمانيا (Alémanie)

---

(1) عالم ومؤرخ وقديس انغلوساكسوني (673 ـ 735) (المترجم) .

(2) Adige نهر في إيطاليا (المترجم) .

(الألزاس وسويسرا الوسطى والشرقية) . ولكن إلى شمالي تلك المنطقة ، وبالرغم من وجود بعض الجزر اللاتينية التي بقيت في إيفِلْ وفي وادي الموزيل الأوسط قرب تْرِيفْ ، انتشرت اللغة الفرنجية ، في نهاية القرن الخامس ، بين الهضبة الرينانية والراين الأسفل وبحر الشمال حتى الفلاندرا . وقد تبعتها بعض المناطق في بلاد السوم ، بينما أدخلت بعض الفئات الساكسونية لغتها إلى بولونية[1] (Boulonnais) حيث ظلت محكية إلى القرن التاسع وما بعده . وفي المناطق الأخرى ، كانت اللغة اللاتينية تُفرَض على الغزاة ، فادخلوا على مفرداتها وصوتياتها بعض العناصر الجرمانية (خاصة في إيطاليا الشمالية ، وفي القرن السادس في لومبارديا) . ولكن ابتداء من سنة 500 تغيرُت اللاتينية المحكية ، التي يسميها الأخصائيون الرومانية البدائية ، بشكل جذري عن اللغة التي كانت مستعملة قبل ذلك بقرن . وفي سنة 800 بلغ التقهقر ذروته ، فلم تعد تستعمل على الإطلاق ، فلم يعد يستعمل في المعاملات الجارية ، لا اللاتينية العامية ولا اللاتينية المشوُهة لأنه لم يعد يفهمها أحد . فاستعملت محلها لهجات متفرعة عن هذا التطور أطلق عليها اسم اللغات الرومانية ، وقد عرفت في المناطق ذات النفوذ الجرماني لهجات من النوع نفسه ، ولم تبدع لا هذه ولا تلك أي عمل كتابي ، ما عدا ، ربما ، في انكلترا حيث ظهر ، في القرن الثامن ، أول أدب شعبي . ولكن اللاتينية ، لغة الإكليروس والليتورجيا ، لغة النخبة الفكرية التي كانت تدرس في المدارس ـ التي انقرضت ـ ، لا علاقة لها مع هذه الثقافة الشعبية التي ظلت بلا ضوابط وتحاول عبثاً التعبير عن نفسها .

أيعني هذا أن التباين الثقافي يتمثل بالمواجهة بين ثقافة لاتينية لنخبة تزداد تعلقاً بالدين وثقافة رديئة نشأت عن مصادر أصلية مجهولة ؟ ونضطر إلى الاستنتاج أنه بكلامنا على النتاج الأدبي يستحيل علينا أن نجيب على هذا السؤال ، وأنه باقتناعنا بأن اللغة المكتوبة ليست شرطاً ضرورياً لتطوير ثقافة شعبية ، نبقى عاجزين عن توضيح ذلك ، لأنه من الصعوبة بمكان إيجاد العناصر التي تدخل في تكوين الثقافة ، وبالمقابل ، فإن النتاج الفني يحمل الكثير من التوضيح . فالجرمانيون الذين تأثروا بتقاليد الشعوب النائية في سهوب آسيا أدخلوا إلى المناطق التي استوطنوها أذواقهم في صناعة الحلى والأدوات التزيينية الصغيرة وتقنيات الأشغال

---

(1) منطقة في با ـ دو ـ كاليه (م) .

المعدنية والترصيع . هذا الفن المعدني ، الذي أنتج أعمالاً مشهورة يختلف تمام الإختلاف في مفاهيمه وتنفيذه عن عادات الغرب المتمسك بفن الحجر والأبنية والتزيين بواسطة النحت والفيسفساء والجدرانيات . غير أنه يستحيل أن يتناقضا تناقضا تاما . فمن الواضح أنهما مظهران ، في أقنية متنوعة ، لحضارتين مختلفتين ؛ وأنهما وإن كانا متباينين أشد التباين . فإنهما يتداخلان شيئاً فشيئاً كما يتأكد ذلك في عدة أقطار . ويبقى أن نوضح ما إذا كان الفن البربري هو فن غير مدرَّب متصل بعفوية الجماهير بشكل وثيق . ولكن ألا يوجد أيضاً في هذا النتاج الفني ، فن أكثر نضوجاً وحِرَفية أكثر بساطة ، كما يلاحظ غالباً في العالم « الروماني » في القرنين الخامس والسادس ؟ ونرى لزاماً علينا ، أخيراً ، أن نكتفي بملاحظة الحاجز الذي يفصل بين فئتين بشريتين نعرف أنهما يتميزان بصفات أخرى كثيرة .

وفي حدود سنة 700 كان التباين مسيطراً في كل مكان . والحقيقة أنه من الخطأ التأكيد على أنه لا شيء ينوجد ولا شيء يبقى ولا شيء يدوم . بل على العكس ، هناك عناصر جديدة مؤهلة للبقاء والتطور ، وهناك عناصر أخرى في القطاع الإقتصادي ، خاصة ، ليست سائرة إلى الزوال . ولكن تجاور هذه وتلك وتلاقيهما كان ، على مدى القرنين السابقين ، بحيث يبدو أنه من المستحيل فعلاً إعادة التناسق والتلاحم والتعاون بينهما ولا أحد يدري ما إذا كان ذلك يمكن أن يتم أمْ لا، ما عدا بعض الإستثناءات القليلة، وهذا ما لا يتمناه أحد.

ولا شك في أن هذا ما يفسر الغموض الذي كان يحيط عندئذٍ بكلمة « أوروبا » التي ظلت ، مع ذلك ، مستعملة ، ولو نادراً جداً ، في أكثر الأحيان استناداً إلى الجغرافيا وبكثير من التردد ، وقد كتَب القديس كولومبان ، في نهاية القرن السادس ، إن « البابا هو رأس جميع الكنائس في أوروبا بأسرها » وهذا لا يحمل أي تدقيق في الحدود التي يعطيها لهذه المجموعة ولا يسمح بالتوصل إلى معرفة رؤيته لها . وبعد ذلك بعدة عقود من السنين يصرح إيزودور الإشبيلي ، الرجل المثقف ، مذكّراً بتاريخ القوط بقوله : « كل الشعوب الأوروبية اضطربت أمامهم » . إنها جملة تستغلق على التفسير ، وذلك إما لأنها تشكل عبارة غامضة كعبارة القديس كولومبان أو لأنها تشير إلى المناطق التي عبرها القوط ، وهي تستثني المناطق الشمالية الغربية للقارة ، وبمقابل ذلك ، وتقريباً في الفترة نفسها ، تحدد « حوليات » آفانش

(Avanches) أوروبا على أنها البلد الذي يرويه الراين والدانوب ، مقلّصاً حدودها بشكل خطير بالنسبة إلى ما كان يراه أوروز أو سْترابونْ اللذان جعلاها تمتد من أعمدة هرقل إلى الدون . وبعد قرن من الزمان يعتبر بِيْدْ الجليل في « دراسة حول القارات الست » أن أوروبا تشمل أراضي غاليا وجرمانيا وإسبانيا ـ باستثناء إيطاليا والجزر البريطانية .

تدل هذه الشهادات الغامضة على أنه لم يكن عند أحد فكرة تمكنه من أن يرى ، على مساحات شاسعة ، بنى مهيأة ومتحدة عقلانياً لتشكل مجموعة متماسكة ، غير أنه من المفيد أن نذكر أنه منذ منتصف القرن السابع بدأ تحديد أوروبا انطلاقاً من الراين حيث توضع حدود جرمانيا وغاليا ولو بطرق مختلفة أو أحياناً بأسلوب خاطىء .

الفصل الثاني

أوروبا الكارولنجية
أو زمن الأوهام

من منتصف القرن الثامن إلى منتصف القرن التاسع

عندما روى المؤرخ إيزودور الفتى سنة 769 أخبار معركة پواتييه التي حدثت قبل سبعة ·ثلاثين عاماً استخدم عبارة تؤكد ، إذا صدقنا بعض الكتاب مثل دنيس روجمون (Rougemont) ، أن الغزوات الإسلامية أثارت بعض التعاون الأوروبي الذي تمثّل في انتصار مشترك ، فيقول : « يخرج الأوروپيون عند الصباح من منازلهم . . فيجدون خيام العرب منظمة أحسن تنظيم » . ويتحاشى المؤرخ ، بمزيد من الواقعية ، أن يذهب إلى أبعد من ذلك ويشير إلى أن هذا الكلام لا يختلف أبداً عن الصيغ التي استعملها كتّاب العصر الذي يسبق هذا العصر مباشرة . إنه ، في الواقع ، غير دقيق ولا يعبر بحال من الأحوال عمّن هم هؤلاء « الأوروپيون » . وهو بالإضافة إلى ذلك غير دقيق على الإطلاق لأن من واجه المسلمين في معركة پْواتْيِيه هم محاربو الفرنجة ومقاتلون آخرون جاؤوا من ممالك ميروفنجية لا غير . بيد أنه من الواضح أن الفتح الإسلامي زاد من حدة القطيعة الدينية والثقافية والسياسية بين الشرق والغرب وأسهم إسهاماً كبيراً في الضغط على الشعوب الغربية لتتعايش معاً وتتحد . وبامتداده على شبه الجزيرة الإيبيرية وَلّد عند الشعوب المجاورة خوفاً حقيقياً سهّل لبعض الوقت ، التفاهم والتكتل ، كما سبّب على جبهات أخرى في الشرق وفي الجنوب الغربي ، التهديدات الساكسونية والآفارية ؛ ولكنه لم يكن السبب الوحيد ولا بالطبع الحدث الحاسم في الافتراق بين الشرق والغرب . ويكفي لتغليب هذا الرأي أن نذكر أن غريغوريوس الكبير الذي كان اهتمامه ينصب ، بالدرجة الأولى ، على الغرب ، مات قبل بدء التاريخ الهجري بثمانية عشر عاماً . وأن كنيستي يورك وكانتربري ، قاعدتي المسيحية في انكلترا ، تأسستا قبل أن يصل الإسلام إلى الشام والاسكندرية .

إن الأسس العميقة للبنية السياسية التي ، بعد أن تأكّدت منذ القرن الثامن ، تتابعت في العقود الأولى من القرن التاسع والتي تقوم على تجمع أراضٍ شاسعة تحت السيطرة الوحيدة للإمبراطور الكارولنجي ، وجدت في العلاقات المتشابكة للقوى التي ضغطت داخل الارستقراطية من أجل قيام فئة تستطيع أن تسيطر على الآخرين ثم تدعو جميع العظماء إلى شن حرب جماعية . ويبدأ هذا التبدل انطلاقاً من المنافسات العائلية ويعتمد منذ البداية على نشاط « حزب » أرستقراطي محوره إحدى العائلات . وبدلاً من أن يتم بحسب الطريقة الرائجة في تلك الأيام والتي كشفت عن صدامات عادية بين أصحاب المطامع المغمورين وحديثي النعمة غير الراضين تماماً يتسع إلى درجة أن يغزو المجال السياسي بقوة ويتجلّى في إعادة تكوين القوة العامة التي تدخلت بذكاء في لعبة الذرائع الإقتصادية والإجتماعية والثقافية المعقدة التي وُضِعَت في خدمة الحكام .

وبعد أن أعيد هكذا تكوين الدولة الكارولنجية بسطت حدودها تقريباً على جميع أراضي الغرب التي نصَّرتها الكنيسة اللاتينية (ما عدا انكلترا) واضعة إياها تحت سلطة واحدة . وكوَّنت إلى حد ما أوروبا معيَّنة من المفيد أن نعرف بالتمام التركيب الذي أعطي لها ونحدد التلاحم الذي بلغته . لقد ظل هذا التلاحم هشاً لأنه منذ النصف الأول من القرن التاسع ، رأينا الإمبراطورية تتصدع وتنهار بعد عدة سنوات . غير أن هذا الفشل لم يحُلْ دون تجذُّر بعض الإنجازات ودون تكوين إحدى الطبقات الأولى من ركام الطبقات الأوروبية .

المشروع الكارولنجي

بطولة استثنائية

في البدء كانت عائلة أخذ نجمها بالبزوغ منذ فجر القرن السابع ، بعد أن تفرعت من اتحاد سلالتين أوسترازيتين كبيرتين هما سلالة پيپان دو لانْدِنْ[1] (Pépin de Landen) صاحب أملاك في الأردين وفي وادي الموز بين تامور ولياج وفي بْرابانْ ، وسلالة القديس أرنول اسقف ميتز التي تقع أملاكها بين هذه المدينة (ميتز)

---

(1) هو جد الكارولنجيين (؟ ـ 639) (م) .

وفردان . إنها عائلة جرمانية تتكلم الألمانية ومتشبثة بالأرض التي نشأت عليها ومتجذرة في المنطقة التي لا تريد أن تتنكر لعلاقاتها الأصلية بها ، وجمعت حولها منذ وقت مبكر ، بالإضافة إلى الأقرباء ، الأصدقاء والأنصار . هذه المجموعة من « المخلصين » لم تُخلِص إلا للإسهام في إنجاح عشيرة أرستقراطية تكونت بهذه الطريقة . هذه العشيرة التي أثبتت وجودها أولاً بمعارضتها لِـ بْـرُونْهاوْتْ (Brunehaut) ملكة اوسترازيا وللفئات التي تؤيدها . وقد بلغت أوج مجدها للمرة الأولى بزعامة داغوبير (المتوفى سنة 639) والذي كان پيپان حاكم قصره وفرضت نفسها في سنوات العقد 660 بفضل غريمولد الذي هو ثمرة زواج بين وريثين من الأرومتين الأساسيتين ، ولكنها أصيبت بفشل ذريع عندما حاول هذا الأخير أن يعزل الملك الميروفنجي وينصِّب سلالته على العرش (662) ، وعاد ابنه پيپان دو هِرِشْتالْ الذي ورث بفضل زواجه ، أملاكاً واسعة في منطقة تْريڤْ ، فكرر المحاولة . تغلّب على أخصامه وأثبت وجوده ، بقوته وعلاقاته ، كرئيس للطبقة الأرستقراطية كافة التي أشركها في مشروعه . وهكذا غدت البطولة المائلية بطولة « قومية » إلى حد أن أوسترازيا شكلت كياناً متميِّزاً عن سائر الممالك الميروفنجية مع بقائها أساساً مأثرةً أرستقراطية وقد عرفت ذروة نجاحها لأن پيپان ، بعد أن تغلب على النوستريين ، حصل على حاكميات ثلاث ممالك . وكونه ليس ملكاً ، أصبح بذلك ، فعلياً ، الشخصية الأبرز والحاكم الأساسي .

وعلى أثر وفاته المفاجئة سنة 714 ثارت العاصفة وحاول كل طامح أن يرفع رأسه أو يحل محل آل پيپان ، ثار النوستريون وثار معهم الأكيتانيون أو ضدهم . والفريزيون الذين حاول القائد الراحل إخضاعهم ، ألقوا عنهم نير العبودية ، ولكن شارل مارتيل الابن غير الشرعي لپيپان انتفض ونجح . وفي أقل من سبع سنوات ، وبفضل جرأته ومهارته أو وقاحته ، استطاع أن يتغلب على خصومه ويستعيد السيطرة على الممالك الثلاث تاركاً الملوك الدُمى على عروشهم غير آبه حتى لتعيين بديل عندما يخلو أحد العروش . وعلى أثر هذا النجاح أشرك معه ، أكثر مما فعله أبوه ، محاربيه الاوسترازيين الذين وجدوا أنفسهم مع عائلاتهم ، مالكين في نوستريا وفي بورغونيا ، أراضي شاسعة صودرت من المؤسسات الكنسية ، والذين كانوا ينالون حصة من الغنائم لدى القيام بأي خدمة . وفوق ذلك ، وشعورا منه بأن من مصلحته

ألاّ يتعرّض للنوستريين لأنه لم يهتم كثيراً ببلادهم ، تدخل في الشمال وفي الشرق أي في البلاد الجرمانية حيث عيَّن بعض المخلصين له . احتل فريز (ثارت عدة مرات) وأخضع تورانج وأجبر باڤييرا ودوقها على الاستسلام . هكذا خططت أوسترازيا الكبرى ، ووحدت في منتصف القرن السادس . ولا سيما أن هذه الأقطار بلغتها بشارة الإنجيل بمسعى من شارل (ولِّيبْرُورْدْ في فريزا . ويپرمِنْ في ألمانيا وبونيفاس في هِسْ وفي.تورانج) . وفي ذاك الوقت شن المسلمون هجمات على اللانغدوك وأكيتانيا . وجمع حاكم القصر محازبيه الأوسترازيين والنوستريين وغيرهم ، فهزم المهاجمين وأرغمهم على التراجع إلى الپيرينيه دون أن يتوصل إلى القضاء عليهم على طول شاطىء المتوسط وفي سپتيمانيا. هذا الانتصار الذي أحرزه مع جميع الفرنجة، شعوب الممالك .الميروفنجية كافة عاد عليه بمجد عظيم. وشرَّع ، بطريقة ما ، أمام المعاصرين ، نجاحه شخصياً ، وبالتالي ، نجاح عائلته

لكن هذا الفوز كان ، أساساً ، فوز الأرستقراطية الأوسترازية ، وبعد موت شارل مارتيل (741) ، أصبح فوز الشعب الفرنجي (الأوسترازيين والنوستريين وبعد ذلك البورغونيين) وأنجز ما خُطِّط في پواتييه . ثم إن ولدَيْ الحاكم الراحل تقاسما الأرض لحكمها . وبينما حصل كارلومان على أوسترازيا حصةً له وحكمها مع تورانج وأليمانيا (حيث اضطر إلى قمع ثورة) تاركا لباڤييرا دوقاتها الوطنيين وتابع عملية التلاحم التي تمت في هذه المناطق ، حكم پيپان لو بريف نوستريا وبورغونيا وپروڤانس محتفظاً بأكيتانيا موحَّدة ، وتوصل ، بالرغم من الصعوبات الأولية ، إلى إقامة علاقات وثيقة مع العائلات النوسترية الكبيرة التي ارتبطت بصفقات زواج مع الارستقراطية الأوسترازية . وفي سنة 747 شعر كارلومان أنه مدعو للحياة الرهبانية فهجر العالم وتخلى عن سلطاته لأخيه ، فحكم هذا مملكة تشمل نوستريا وبورغونيا وپروڤانس وألِمانيا وأوسترازيا وتورانج ، أي المناطق الواقعة بين اللوار والرين مع ملحقين ، الأول في الجنوب ، في الممر الريناني والألپ الفرنسية ، والثاني في الشمال الشرقي ، في ألمانيا الوسطى . وألحقت بهذه المجموعة دوقيتان مستقلتان استقلالاً ذاتياً أكيتانيا وباڤيرا متعلقتان بهذه المجموعة وتحميانها وتوفران لها تلاحماً رائعاً . قامت هذه المجموعة بفضل جهود بعض الرجال وخاصة بفضل دينامية الزعماء المتجدِّدة والموجِّهة .

ومع ذلك فالنجاح يتوقف ، بصورة أولية ، على الذكاء السياسي الخارق الذي يتمتع به پيپان لو برِيْف. لقد أدرك هذا السياسي أنه من العبَث ، بالنسبة إلى عائلة أو فئة ، استخدام القوة أو سوء استخدامها لإرضاء مصالح أنانية بحتة ، لقد كان أكثر مهارة وتصميماً على خلق قوة شاملة مسؤولة عن المصلحة العامة وعاملة من أجل خير المجموع والفرد أي بالدرجة الأولى الدولة التي تخص جميع الذين يقومون بأمرها وهي تحدد وتوزع الواجبات والحقوق بحيث لا يسيطر مواطن على آخر ، وتُجْهِز على الخصومات والصراعات الداخلية التي يخشى في كل لحظة ، بادعائها العمل باسم « حزب » أو عشيرة ، أن تعمل من جديد على إرضاء مطامع ورغبات خاصة . واستنتج من هذا التحليل أنه يجب القبض فعلاً على الملكية لأن الإبقاء على سلالة ميروفنجية يسهل نشوء الدسائس والمؤامرات والصراعات . وفي سنة 751 بعد أن حرص على الحصول على موافقة الأعيان وبعد أن استشار البابا الذي أجابه أنه من العدل أن من يملك يحكم فعلياً ، فأطاح الملك وانتزع منه التاج . وأسهمت الكنيسة بهذا الانتقال مانحة إياه ، بيدي القديس بونيفاس ، المسحة المقدسة ، التكريس . وسنة 734 يزور البابا المملكة ويجدد حفلة التكريس ويكرس ، في الوقت نفسه ، ابن الملك ، الأمر الذي يشرِّع السلالة . وردّاً على ذلك قدم پيپان رسمياً حمايته للكرسي الرسولي وضمن له امتلاك الأراضي في المنطقة الرومانية التي كان يديرها ، حتى ذلك التاريخ ، في ظل السلطة النظرية للإمبراطور البيزنطي وما سيسمُّى منذ الآن فصاعداً إرث القديس بطرس أو دويلات الكنيسة . وهكذا حطمت البابوية آخر صلة منظمة تربطها سياسياً بالشرق ، مسرِّعة الحركة التي بدأها غريغوريوس الكبير وقارنة مصيرها بالغرب وحده .

إن دولة آل پيپان المجدَّدة والمجهزة بمؤسسات فعَّالة توازي إقليميا المملكة الميروفنجية في سنة 550 . وكان للأوسترازيين والبلدان الأوسترازية ، الواقعة في القسم الأوسط ، نفوذ يفوق نفوذ الآخرين . وعندما وُلِدت في منتصف القرن الثامن شكلت كتلة فسيحة نسبياً في أحضانها يحتشد التاريخ وينزوي ، لأنه لا يوجد خارجها في الغرب سوى مملكة لومبارديا كقوة منظمة على القارة . ولكن إذا أخذت هاتان المملكتان كمعاقل فإنهما تعطيان انطباعاً عن قوة هائلة بالمقابلة مع الإسلام وبيزنطة ، أو مع المملكة الرومانية القديمة التي لم يتلاشَ ذكرها كليا بعد .

الفتح الكارولنجي

بعد موت پيپان (768) وبعد أن اجتاز شارلمان الأشهر الصعبة في اقتسام الأراضي والنزاعات مع أخيه كارلومان (المتوفى 771) ، تابع عمل أبيه فأكمل المؤسسات وبنى إمبراطورية كانت في البداية أرضاً تحكمها الملكية . ومن المهم ألا نشوِّه ، كما فعلت الأسطورة إلى حد الخوارق ، والمؤرخون أحياناً بكل أسف ، حقيقة هذا البناء . ليس شارلمان ، في الواقع ، فاتحاً عظيماً فالحملة الوحيدة التي قام بها هي غزوة منطقة ساكس ، إنه بالأحرى جامع أراضٍ وشعوب وجماعات . إنه رجل دولة مفعم بالمطامح العريضة المشوشة أكثر من پيپان وواقعي إلى حد يجعله يتحاشى المغامرة، وهو نشيط في عمله . بيد أنه إذا كان من العدل أن يظل مجد الإمبراطورية مرتبطاً باسمه ، فمن الأصح القول إنه لم يُصْنع (هذا المجد) بمعزل عن الأعمال السابقة التي قام بها پيپان ، وإذا كان هذا الإقدام الرائع نجح في أن يترك أثره في التاريخ ، فالبطولة كانت أكثر جرأة من أن تدوم .

ومهما كانت مطامح شارلمان ، في البداية ، من جهة الپيرينيه فلقد اتخذ ، في وقت مبكر ، موقفاً حكيماً ، هدفه طرد المسلمين إلى ما وراء الجبال والسيطرة على الممرات الجبلية ، ومن جهة المتوسط كان هدفه السهل الكاتالاني وتنظيم الدفاع ضد الغزوات المحتملة بتدعيمه وسائل الحماية على الحدود الإسبانية (إنشاء منطقة حدودية مسلحة في إسبانيا) . وأما في إيطاليا فكانت الأمور تسير عكس ذلك ، إذ كانت مخططاته إيجابية . فبعد طلب استغاثة من البابا الذي تهدده السياسة اللومباردية يهاجم شارل مملكة پاڤيا فيحتل العاصمة ويأسر الملك ويستبقيه أسيراً ويتقلد التاج الحديد الخاص بالملوك اللومبارديين (774) . ويضم فريول[1] ويؤسس ، في كل المناطق التي يضمها إلى سلطته ، إدارات يعيِّن عليها وكلاء (كونتات) من الفرنجة ـ ويترك حاميات فرنجية ويتحاشى إرهاق السكان . ويبث حملة دعاية ذكية ، بمساعدة البابوية والأساقفة ، ضد السلالة المهزومة ومؤيديها . وهكذا يستغل انهيار عائلة بائسة جرَّت معها انهيار النظام لكي يحل هو محلها ويوجه النظام لمصلحته دون أن تبدو سياسته هذه منفِّرة ؛ كما لم يبدُ ، كذلك دوره كحام

---

(1) Frioul : منطقة تاريخية في إسبانيا (المترجم) .

لمدينة روما وللبابا وأخذ على عاتقه هذا الدور في روما مستخدماً لقباً شرقياً هو بَطْريق الرومان ، نسب إليه حديثاً كما نسب إلى أبيه .

أما ساكس فقد احتلها حرباً تبعاً لرغبة متعمدة في توسعه نحو الشرق والسيطرة على سائر جرمانيا . ولكنها كانت حرباً طويلة الأمد دامت عدة سنوات وكبدته الكثير من المشاق قبل أن يتمكن من استيعاب الشعب الساكسوني . وبعد أن انتصر شارلمان سنة 785 على ڤيدوكِنْد (Widukind) ، لم يستطع منع حدوث انتفاضات عنيفة قام بها الشعب بعد ذلك ، لكنه قمعها بشنه حملات عديدة على البلاد وبسنّه قوانين قاسية جدّاً . وأخيراً تحقق النصر سنة 803 وضُمت كل الأراضي غربي نهري الإلْبا والسال إلى الحكم الكارولنجي كما اخترق هذين النهرين من عدة أمكنة . واستمرت حملة التبشير بنشاط . وإذا أضفنا أن فريزا ، الدائمة الاضطراب ، استسلمت نهائياً وأن دوق باڤيرا ، تاسِّيلون ، المثير الدائم للمتاعب ، اضطر إلى التخلِّي عن السلطة ـ ضمَّت دوقيته وكارنثيا مباشرة إلى المملكة ـ وأنه من أجل احتواء الآڤاريين احتلَّ ستيريا وكارنيول ، نستنتج من كل ذلك أن جرمانيا بكاملها ولأول مرة في تاريخها خضعت لسلطة ملك واحد واتحدت ، في الوقت نفسه ، اتحاداً وثيقاً بسائر الغرب ، أي بمملكة الفرنجة ومملكة اللومبارديين وهي التي كانت تسمى فيما مضى غاليا وجزئياً إيطاليا .

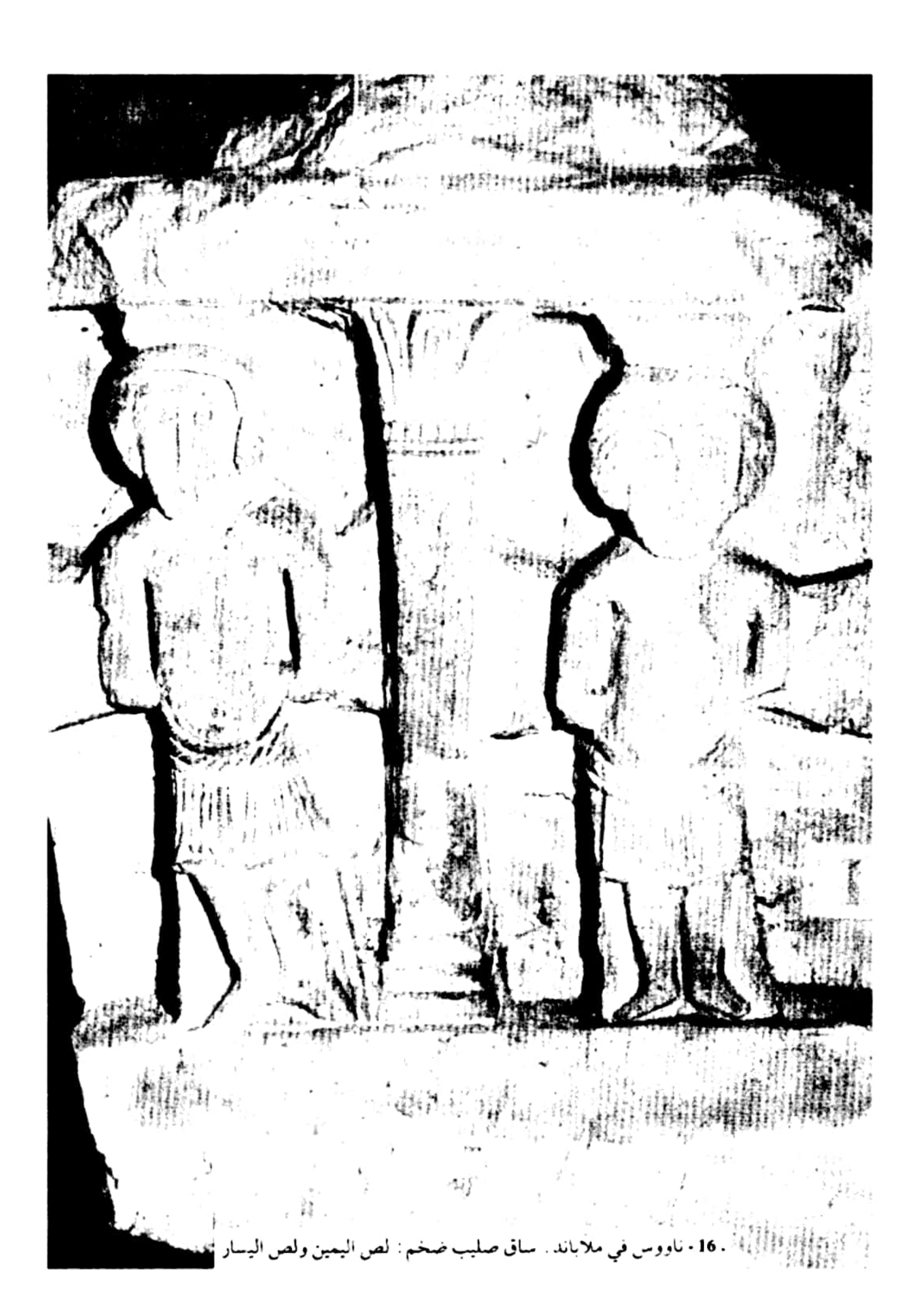
هذه هي الأراضي وهذه الولايات التي تجمعت سنة 800 وشكلت الإمبراطورية : إمبراطورية الغرب التي استثني منها ، عدا الأرموريك ، شبه الجزيرة الإيبيرية والجزر البريطانية . ولم تتوصل ، لا في حينه ولا فيما بعد ذلك ، بالرغم من جهود حفيد شارلمان لوتار (المتوفى 855) وابن حفيده لويس الثاني (المتوفى 875) ، إلى ضم ، إيطاليا الجنوبية ، فعلياً ، التي اضطرت بعض مناطق إلى دفع الجزية ، إمبراطورية كان يعيش خارجها وبعيداً عنها شعوب غير معروفة جيِّداً ، كان سكان المناطق الكارولنجية يسمونهم الغرباء وهم : الانغلوساكسون (الأقل غربة) ، السلتيون البريتانيون ، السكنديناڤيون ، والسلاڤيون والآڤاريون ، وأغريقيون ولاتينيون ولومبارديون من كالابْرا وپُـوْيْ (Pouilles) ومسلمو إسبانيا . ويرتدي الهدف أهمية استثنائية لأنه يجسد ويمجد ولادة كتلة إقليمية وسياسية متميزة تماماً عن البلاد التي تحيط بها .

وبما إنها حقاً كتلة ميزتها الأساسية هي أنها قاريَّة ، كما ظهر ذلك في تنظيم القرن السادس للأراضي وبرز في احتلال جرمانيا ، فإن إيطاليا الشمالية وإيطاليا الوسطى اتحدتا في هذا الكيان بواسطة صلات متينة ، وقد اتجهتا طوعاً نحو وسط أوروبا الذي كانتا تتطلعان إليه سابقاً دون إيجاد وسائل الإتصال والتلاحم : فاضطرتا نوعاً ما إلى الالتفات نحو الشمال والشمال الشرقي . هذه المجموعة الممتدة من المنحدر الجنوبي للپيرينيه ومن كامپانيا إلى شواطىء بحر الشمال ، ومن شواطىء الأطلسي إلى الإلبا ، إلى منحدرات جبال الألبْ فالأدرياتيكي ، هي شاسعة المساحة خاصة إذا نظرنا إليها بمنظار الظروف التقنية والاقتصادية لذاك العصر . ويستنتج من ذلك أنه من المحال ، بالنسبة إلى أناس ذاك الزمان ، أن يكوِّنوا فكرة واضحة عن هذا العالم ، أن يتمثلوه وأن يستوعبوا ذهنياً قياس المسافات التي يجتازونها والحواجز التي تنشأ عليها ، لأن هذه المسافات وحدها يمكن أن تسجل كحقائق منظورة أكيدة تتجاوز ، بصعوبة ، قواعد المسافة التي يقطعها الحصان في يوم واحد والصور التي تستوعبها الذاكرة لبعض الأيام . وبناء على ذلك فإن العجز الفكري يلعب دوراً أكبر وأخطر من طول المسافات أو الثقل الضاغط للأحداث الطبيعية . وإضافة إلى ذلك ، فالمناطق المتنوعة هي كثيرة التباين من ناحية المناخ والنبات . هناك أقاليم جنوبية تقابل مناطق كثيرة المطر في الشمال الغربي ومناطق باردة في الشمال الشرقي والشرق ـ إن مقياس الإنسان فكرياً ومادياً هو مقياس الأرض التي يسكنها والتي يستطيع أن يجتازها ويعرفها بسبب اطِّرادها وانتظامها . إن الحواجز التي لا تحول دون التلاحم والتعاون ، والتنوع الذي يمكن أن يقويهما عندما تجتمع قطاعات يكمل بعضها بعضاً ، تبقى هي الحقائق الأولى .

إن التجزئة تدعم أهمية هذه البلدان التي وضعتها الجغرافيا ومشاريع القادة الجدد في قلب الإمبراطورية : مثل الموز والموزيل والراين ومن ڤردان وميتز إلى كولونيا وإكس ـ لا ـ شاپيل (التي تصبح ، بالصدفة ، العاصمة الكارولنجية) . من هذه البلدان انطلق عمل پيپان وهنا ظل متمركزاً ، هذه هي البلدان التي حكمها الملوك وأغنوها باهتمام غيور . وفيها احتفظوا بأكبر قسم من ممتلكاتهم المنتشرة أيضاً في أقطار أخرى (من أودية الواز والإيسن (Aisne) وفرنكونيا وإيطاليا وأكيتانيا . .) وهي التي كانت بتطلعها نحو الشمال مفتوحة على كل الاتجاهات .



15 - نقش كبير في فرنسا. كاليغولا ينتخب امبراطور (؟)



16 - ناووس في ملاباند. ساق صليب ضخم: لص اليمين ولص اليسار.

ويكمل الحوض الباريسي المؤلف من طبقات دائرية وحيدة المركز هضبة اللورين . ومن منابع الموز يمكن العبور دون حواجز إلى هضبة اللانْغر (Langres) والسون الذي يتجه نحو الرون والجنوب ويؤدي مجرى الراين الأعلى إلى السهل السويسري حيث يمكن عبور المضائق المفتوحة باتجاه إيطاليا التي يمكن الوصول إليها أيضاً انطلاقاً من روافد رودانية .

وتبرز أهمية مناطق الموز والموزيل وريناينا بشكل لافت إذا أخذنا بعين الاعتبار ، في الترتيبات المؤسساتية العليا ، أن أكيتانيا وإيطاليا ظلتا مملكتين أساسيتين مندمجتين بالإمبراطورية وهما ، مع ذلك ، تتميزان عنها . ففي المملكة الفرنجية المترامية الأطراف تقع الموز والراين في وسط الأراضي التي تمتد من اللوار إلى إلْبا ، وحيث يمكن محاولة حكم جرمانيا المسيحية الجديدة المقلقة ومراقبتها على أحسن ما يكون .

وكانت المملكتان المتصلتان بالغرب اتصالاً وثيقاً مبعدتين ، في الوقت نفسه ، عن مركز الإمبراطورية أكثر مما كانتا عليه في الماضي . بالنسبة إلى أكيتانيا التي أصبحت على الحدود فإن مركزها دَعَّم موقفاً رسَّخه تاريخها وخصوصيتها . أما إيطاليا فقد وجدت مع بروڤانس في موقف استثنائي ووحيد لأنها تشغل الجزء الأوسط الوحيد بالإضافة إلى عدم امتلاكها وسيلة لعب أدوار كبيرة على المسرح السياسي . ومع ذلك فعندما نحاول أن نلقي نظرة إجمالية ـ وذلك أمر سهل في هذا العصر لسرعة الانتقال ـ نستنتج أن الإمبراطورية الكارولنجية تغطي مساحة أوروبيةً ما مقسمة ومجمَّعة انطلاقاً من مركز ثُبِّت حيث هو نتيجة الاحداث وإرادة شارلمان اليَقِظة .

الدعم الاقتصادي

وظلت البنى الاقتصادية والنشاطات المنتجة هي نفسها ، ظاهرياً ، كما في العصر السابق ، غير أن تحليلاً أكثر انتباهاً أتاح لنا أن نلاحظ تطوُّراً تمثل في تنظيم أفضل للاستثمار الزراعي وفي تحسين الإنتاج وتنويعه وفي تحسن حركة النقل والمواصلات ؛ ويصعب ، أغلب الأحيان ، اكتشاف هذه التبدلات التي تشكل ، على أي حال ، حركة ليست على كثير من الإتساع . والحقيقة أن الزراعة كانت تقدم إنتاجاً زراعياً زهيداً وقد ذكر أن عدد السلع السيئة الصنع وأنواعها كان محدوداً جداً . ومن الواضح أن التجارة كانت تشمل طنات محدودة إلى درجة أن عبارة طنَّات تبدو

مبالغاً فيها . ويبقى أن نذكر أنه بدءاً من نهاية القرن الثامن وبداية التاسع حدثت انطلاقة ما في حين أن الناس يدركون ، بشكل أوضح ، الحقائق المادية والضغوط الطبيعية ، وأن الإزدهار الذي انطلق ، بالرغم من كوارث السنوات الأخيرة ، من القرن التاسع ، هو عملياً غير قابل للانتكاس . هذه الإنطلاقة ترتبط ، بشكل واضح ، باتجاه معاكس للاتجاه الديموغرافي وبنمو بطيء وبطيء جداً وضعيف وضعيف جدّاً للسكان ولكنه نمو على أي حال . وبتأثير هذه الأسباب أعقب هذا الوهن نشاطٌ وديناميةٌ جديدة بدأت تتفجر .

وكان الإستثمار الريفي ، وبالدرجة الأولى استثمار الأملاك الواسعة ، كما كان في العصر السابق ؛ ولكنه أصبح ، لا شك أفضل تنظيماً لأن النية كانت متجهة لسد العجز في الإنتاج ، ولأن الملاكين الكبار ، وأولهم المؤسسات الكنسية والرهبانية التي اهتمت أكثر فأكثر بالثروة العقارية ، وجهوا اهتماماً خاصاً بتنظيم العمل من أجل الحصول على المزيد من الغلال . وتقسم الأرض الزراعية بين حصة السيِّد وحصة المُقطَعِين الذين يزرعون الأرض بكامل حصصها فيأخذون إنتاج إقطاعاتهم بعد أن يدفعوا منها الضريبة العينية . وفي بعض المناطق وخارج البلدان المحصورة بين السين والراين كان النظام أكثر هشاشة بفضل الظروف التاريخية والجغرافية المختلفة ، وفي كل مكان بقيت بعض الملكيات الصغيرة أو الإقطاعات الحرة ، تستغل مباشرة دون التزامات . وكانت أسس المجتمع الريفي ، بشكل عام ، موجودة فعلاً في الملكيات الواسعة التي تضم ، إلى الملاكين ، عمّالاً يقطعهم هؤلاء أراضي باستمرار ، فيعملون من أجل الجميع وهم ، إلى حد ما ، المالكون الشرعيون لإقطاعاتهم ، ويُعْتَرف لهم ببعض الحقوق ، وذلك لأن عليهم واجبات محددة ومحدودة ؛ وانطلاقاً من هذه الخلية المتماسكة التي هي القرية أو التي تتحول إلى قرية . وأكثر الأحيان الخورنية التي فيها ـ في البعض منها ـ يتحد أصحاب الاقطاعات الحرّة وفيها تهيأ ، عن طريق العمل ، الحياة الجماعية للعائلات والفئات ، الأمر الذي يدعم التلاحم الاجتماعي .

ويتحسن الإنتاج ، ليس لأن التقدم كان ملحوظاً ـ لقد ظل متباطئاً جداً ـ بل بسبب استعمال بعض الطرق العملية . وقد حدث تطور أيضاً في طواحين الماء (كان في أملاك دير سان ـ جرمان ـ دو ـ بريه تسع وخمسون طاحونة) . وتحسنت

العدة قليلاً لكنها ظلت غير كافية لأنها كانت أكثر الأحيان مصنوعة من الخشب - فالحديد كان قليل الاستعمال لندرته وارتفاع ثمنه وصعوبة شغله ، ولم يكن يستخدم ، إلا في صناعة الأواني الخاصة بالجيش (طناجر وأثافي المواقد) وفي صنع بعض الأدوات المستعملة في صناعة الخشب بالإضافة إلى الأسلحة طبعاً . وفي إطار الملكية الكبيرة ، أي في القرى ، يتطور الإنتاج الحِرَفي ويتشعب وتشير بعض الرُّقُم الكنسية إلى وجود عدة مهن : حدادون ، صاغة ، يضاف إليهم كل حِرَفيي البناء . وهكذا تتألف فئة اجتماعية تندمج بالمجتمع الريفي الذي تسهِّل حياته وتحيا به . وتتميَّز عن طبقة الفلاحين ويمكن العثور عليها في الدساكر والمدن .

وتنتعش التجارة بفضل العلاقات التي خُطِّط لها سابقاً مع بلدان الشرق الأوروبي وآسيا الوسطى بوساطة من التجار الفريزيين والفاريزيين وشجعها المركز الموزي الريناني الذي يعتبر المنطقة الحيوية للإمبراطورية . وتفيد التجارة شيئاً فشيئاً من ازدهار المبادلات الذي سببه المسلمون منذ أواخر القرن السابع في المتوسط بين شواطىء الغرب الكارولنجي وطرقه . وكان التجار المسلمون واليهود الشرقيون يبحثون عن بعض الإنتاج (عبيد وسلاح) ويعرضون بضائع ثمينة وفاخرة . إن انتعاش الحركة التجارية والنقل ، مهما كانت محدودة ، حملت شارلمان بعد پيپان ، على إصلاح نظام العملة وإصدار قطع من الفضة ذات عيار مرتفع بإمكانها أن تجاري الدينار والدرهم في سوق التداول العالمية . وأخذت العملة تنتشر في الأرياف . وعُوِّمت الأسواق التي نشأت في المدن . ودَعَمت التجارة على المدى القصير والمتوسط ودعَمت فئة من التجار الصغار استقروا في القرى على مقربة من دير أو من مدينة أسقفية ، وتجاراً أكثر غنى استوطنوا الثغور والمدن التي تلتقي فيها البضائع والتي عرفت في تلك المرحلة إزدهاراً حقيقياً .

ويدل هذا القبول والانتعاش والتطور ، أخيراً ، أنه ، عندما تتسلم سلطة سياسية طموح وذكية ونشيطة نسبياً ، مقدرات الغرب المسيحي ، يعود النشاط الاقتصادي من جديد ، وهذا ما يُشعر الناس بأنه ، لكي يوفِّروا حاجاتهم ويؤمِّنوا مصالحهم عليهم أن يتعاونوا . ذاك هو أحد الأسباب التي تفسِّر كيف عملت المؤسسات السياسية بطريقة صحيحة وبفضل مقدرة الملوك خلال بضعة عقود من السنين على الأقل .

الإيديولوجية الإمبريالية

يقوم النظام الكارولنجي على مجموعة من الأفكار ، إذا ترجمت بطرق عديدة من قبل النظام التشريعي والمؤسسات ، تدعم التلاحم بين السلطة والمحكومين وبين المحكومين أنفسهم إلى درجة أنها تُعْلِم هؤلاء بأنهم ينتمون إلى مجموعة سياسية تشمل عدة ممالك وإتنيات مختلفة . هذه الأفكار تعمل على تبرير الإمبراطورية وتمجيدها .

إن تتويج شارلمان إمبراطوراً في روما . يوم عيد الميلاد سنة 800 حدث نزولاً عند رغبة بعض الأشخاص في إعطاء الملك لقباً يحاط بالعظمة والنفوذ ، لأنه جمع تحت سلطته الوحيدة القسم الأكبر من الأراضي المعتبرة مسيحية حسب الطقس اللاتيني أي كاثوليك الغرب ، كما يذكر . ر.س . لوبيز . وبفضله يعتبر الغرب ، للمرة الأولى وحدة متكاملة منذ القرن الخامس بالرغم من أنه كان يتوجب على كل منطقة أن تكتفي ذاتياً وتحافظ على تقاليدها . وللمرة الأولى في التاريخ يشكل الغرب وحدة دون أن يكون جزءاً من وحدة أكبر . ويستمد كل قطاع حيويته من اتحاد المجموع ويشكل ، طوعاً ، عنصراً في بناء متناسق . هنا يكمن ، كما قيل حينذاك ، الفضل الأهم للإمبراطورية التي أوقفت مسيرة التفتت النهائي وخلقت روابط من شأنها أن تضمن الإتحاد بشكل دائم .

وكان شارلمان وأعوانه في مفهومهم هذا على قسط وافٍ من الواقعية ركانوا منسجمين مع التاريخ لأن هذه الإمبراطورية ، في الواقع ، تأسست على أنقاض ممالك كانت متزامنة وتخضع لسلطة واحدة . فاعتبروا أن هذا المشروع يؤدي إلى نوع من اتحاد الممالك والشعوب وأن الوحدة (إمبراطورية واحدة وإمبراطور واحد) لا تهدف إلى توحيد ودمج تامين . وعلى عكس ذلك ، كان ، بعده ، ابنه لويس التقي (Le Pieux) وبعض الأحبار ، مثل داغوبير ، رئيس أساقفة ليون ، يعتبرون الإمبراطورية وحدة عضوية زمنية فيها تنصهر ، بفضل الكنيسة والمسيحية ، الشعوب المتنوعة وتذوب الإتنيات المختلفة .

فالصيغة ، أيا كانت ، كانت تفرض أن يكون للإمبراطورية كيان خاص وأن تشكل قوة جذب قادرة على جمع فئات متباينة منتشرة على أراضٍ شاسعة ، فهذان

الكيان والقوة كانت الفكرة الإمبريالية تجدهما في عناصر ثلاثة : مبدأ ومنهج ودينامية .

كانت هذه الصيغة تستند أولاً إلى مبدأ روماني قلما ظهر في مسار التاريخ ولكنه ظل متخفياً وراء الأحداث على مدى القرون الماضية ، وكان تتويج سنة 800 نوعاً من الترميم ، بواسطته أعيد تكوين الإمبراطورية الرومانية في الغرب . وكان شارلمان الخليفة الشرعي لأوغسطس وقسطنطين . أما هذا المبدأ فلم يذكر ولم يوضع في الواجهة وذلك فقط حفاظاً على النفوذ ، لقد أعطى الإمبراطورية معناها الحقيقي ، وهو أنها تجمع شعوب متنوعة تحت سلطة واحدة حازمة ونافذة ، تجمعهم حضارة واحدة ـ وهذا لا ينفي وجود بعض التنوع . كان الغرب كله من ضمن هذا التجمع بالرغم من أن بعض المناطق كانت خارجة عن نطاقه وقتياً . وعليه فلم يكن الإمبراطور البيزنطي على خطأ عندما رفع احتجاجاً وأشعل في إيطاليا نار المعارضة ضد شارلمان ، لأن قيام إمبراطورية أوروپية غربية خارج إمبراطوريته الشرقية اليونانية والمتوسطية ذات النزعة العالمية يعتبر أمراً غير مسموح به .

غير أن المعنى الذي يعطى لكلمة ما والقيمة التاريخية التي يمكن أن يكتسبها أحد الموضوعات تظل دون أهمية الوقائع الصحيحة ، والقول إن السلطة الإمبريالية الكارولنجية كانت تتمة للإمبراطورية الرومانية يعني تعبيراً عن النوايا . إن بنيتها كانت موضوعة طبقاً لمنهج خاص : كانت ترتكز على مؤسسات خاصة بكل مملكة ومطابقة في مجموعها لمؤسسات العصور الميروڤنجية أحيتها وفعّلتها عبقرية الناس وحماسة الملوك . وكان التنفيذ فرنجياً .

وأخيراً كانت الدينامية الحقيقية التي تمجد نفوذ التقليد الروماني وتمنح الأجهزة الموروثة عن الملكية الفرنجية التلاحم والحيوية الناشئين عن الدين المسيحي . كانت الوحدة الكارولنجية تتم بالدرجة الأولى بتعاون الشعوب المسيحية أو بانصهارها ، والحضارة التي كانت أساس هذا الاتحاد كانت ، دون ريب ، الحضارة المسيحية . هذا ما عبّر عنه وهذا ما تمناه بحماسة بالغة صفوة عقول ذاك الزمان رئيس أساقفة ليون أغوبار عندما كتب سنة 817 ما يلي : «إيماناً واحداً علّم الله وأملاً واحداً بعث الروح القدس في قلوب المؤمنين ومحبة واحدة وإرادة واحدة ورغبة واحدة وصلاة واحدة . ومهما تنوعت أعراق الناس ومهما تبدلت ظروفهم

وأجناسهم وولادتهم ، نبلاء كانوا أم عبيداً ، يجب ألا يتوسلوا جميعاً إلا أبا واحداً . ويسر الله القدير أن يخضع الناس جميعاً لقانون واحد تحت سلطة ملك تقي ورع » . والحقيقة أن اندماج الإتنيات بعضها ببعض لم يكن تاماً ولكن التحرك السابق يستمر على المستوى المحلي (بين اللومبارديين والإيطاليين وبين الفرنجة وأحفاد الغاليين الرومانيين) ويتجلى هناك حيث الإتصالات تمت في مرحلة لاحقة (فرنجة وإيطاليون ، فرنجة وجرمانيو المانيا الجنوبية والوسطى) . لقد تلاشت الفوارق ظاهرياً .

وكانت حركية التطور تحتم على السلطة ، من جهة ، أن يستمر ، في الداخل ، بعث الإيمان والأخلاق في النفوس والقلوب ؛ وأن يتسع ، من جهة أخرى ، النطاق الكاثوليكي باستمرار بواسطة التبشير بالإنجيل والفتوحات ، وكانت الوسيلة الأخيرة ضرورية للمحافظة على قوة السلطة الإمبريالية وازدياد تألقها : على الإمبراطورية بكاملها أن تكون محاربة ، فلا يستطيع الكارولنجي أن يبسط سلطاته إلا بالسعي إلى توسع يتم لمجد الله الأعظم والظفر الأسطع للدين المسيحي ، كان ذلك هدفه . كانت تنتهي الحدود الإقليمية لأراضي الإمبراطورية ، نظرياً ، حيث تبدأ الأراضي التي يشغلها الوثنيون والمسلمون .

من هذه العناصر المختلفة تولَّدت ، بمفهوم إمبريالي ، فكرة المسيحية التي ستغدو عزيزة على الكثيرين من مفكري القرون الوسطى والتي كانت تُضمر تكوين أوروبا ما .

الدولة والقانون

أدى هذا المفهوم في النهاية إلى إحياء معنى الدولة ، إذ كان النجاح الكارولنجي أولاً بإعادة بناء سلطة سياسية وطيدة وكان الإمبراطور ذا سطوة ونفوذ بمقدار ما كان مُطاعاً ؛ لم يعد أميراً ضعيفاً يحكم دون قوة . وليس هو فقط قائداً ظافراً . لقد عاد ملكاً ، أي السلطة العليا (ليأمر ويُرغِم لا أن يكون مأموراً ومُرغماً) ـ كما يقول (الاقتصادي والفيلسوف الفرنسي) جان بودان ـ هو الذي يحدد قوانين الجماعة السياسية لمصلحة الجميع ويسن القوانين الموحدة للجميع . وينتج عن ذلك ، في عهد الإمبراطورية ، أن نظام إقليمية القانون يحل محل نظام الشخصية الفردية الذي أخذ يتراجع ، منذ زمن بعيد ، نتيجة تقارب الإتنيات وانصهارها ،

وهذا ، في الحقيقة يعني ليس أن جميع سكان الإمبراطورية يخضعون لقانون موحّد خاص ولكن يعني ببساطة أنه أنشئت في كل مكان مؤسسات عامة تعمل بطريقة واحدة وأن القواعد الأساسية التي تحدد العلاقات مع السلطة أهلية السلطة هي هي في كل مكان ، مع العلم أنه يمكن المحافظة على الأعراف « الأقليمية » بضمانة من القضاء الرسمي . وظلت العادات المحلية التقليدية محترمة ، استناداً إلى العرق الإقليمي المنظم المطبق على الجميع مع كون الخضوع لمتطلبات الأخلاق والممارسة المسيحية يلطف من الفوارق التي ظلت ، مع ذلك ، ظاهرة في بعض القطاعات (الأملاك ، الموروثات ، المَهر ، البائنة) .

ويؤدي إعادة تكوين السيادة العامة إلى تأكيد الحقوق المطلقة الناجمة عن مسؤولية الجماعة التي يضطلع بها الملك ، هي هذه الحقوق التي دعيت ملكية .

وأعظم هذه الحقوق هو حق القيادة والسلطة العسكرية العليا التي تشمل ، فعلياً ، كل ما عداها في هذا النظام حيث الحرب هي الوسيلة الفضلى ـ شن غارات سنوية ـ للحفاظ على التلاحم بين الملك وعظماء المملكة الذين اتحدوا من أجل الغنائم ، الحرب هي التي تحدد السياسة ؛ فهي تؤدي إلى جباية الضرائب ، وهي غالباً تكيف العدالة . وهكذا فإن سلطة القيادة هذه التي دعيت منذ وقت مبكر ، استدعاء الموالي ، تمثل الصفة الأساسية للسيادة . وتشمل هذه السيادة أيضاً الممارسة العليا للأحكام التي لا يصدرها الملك نفسه ، بالضرورة ، أو بواسطة موظفيه . ولكن يجب أن تصدر باسمه ، لإنه ، إذ يمتلك القوة الشاملة المطلقة ، هو الوحيد الذي يستطيع أن يحاكم باسم المصلحة العامة وليس من أجل منافع خاصة ، وذلك لأنه مكلف بالحفاظ على النظام لتأمين التلاحم . وأخيراً إن له السلطة أن يفرض الضرائب ويأمر بجبايتها من أجل خير المجموع ومن أجل القيام بحملات عسكرية وتغطية نفقات الحكومة والإدارة .

وتتضمن الحقوق الملكية أيضاً عدداً من الإمتيازات الإقتصادية التي يتم تنفيذها ، من جديد ، لمصلحة الجماعة العليا (احتكار سك العملة ووضعها في التداول وإيجاد أسواق تجارية) ؛ ويحق له أن يسهم بطريقة مباشرة نوعاً ما ومع احترامه للقواعد الكنسية ، بتعيين الأساقفة وترقيتهم ، لأن هؤلاء يقومون ، من جهة ، إلى جانب وظيفتهم الدينية ، بوظيفة إدارية حقيقية (بمشيئة الملك) ، ومن

جهة أخرى لأنه ، في إمبراطورية تقوم على الدين المسيحي ، من الطبيعي أن يلعب الملك ، المكلف ، من قبل الله بالقيادة العليا ، دوراً في المؤسسة الإسقفية لكي يخدم بشكل أفضل المصلحة العامة ولا سيما أنه ، طبيعياً ، حامي أساقفة الإمبراطورية .

تشكل هذه الحقوق العناصر الحقيقية للسيادة العامة أي الدولة ، غير أنه من أجل أن تتحقق هذه الدولة ولكي تعطي معنى لمشاريعها وأوامرها ولكن تكون سيادتها سيادة شاملة حقاً يجب أن تحصل على مؤازرة رعاياها ، وبفضل هذه المؤازرة تسهم المجموعة نفسها في الخير العام وتعتبر أن الملكية تحدد شرعاً واجبات كل أعضائها . هذه المؤازرة أو التعاون الذي يصعب تفسيره في بعض الأنظمة ، والذي يتم بموافقة إيديولوجية ذات أرضية دينية (التيوقراطية أي قانون الحق الإلهي للملوك) ، يبدو هنا على شيء من الوضوح بمساهمة كل الرجال الأحرار كالجنود ، يدفعون الضرائب ويصدرون الأحكام باسم الملك ، يستدعَون كل سنة تقريباً إلى جمعية عمومية تقرر الحملات العسكرية وتطّلع على القوانين التشريعية الجديدة : تلك هي الحقوق والواجبات التي تربطها بالسلطة الإمبريالية . وهكذا تهدف الإمبراطورية الكارولنجية إلى تأسيس دولة « أوروبية » تتيح لكل المواطنين أن يفهموا ماهيتها ، وأن يعتبروا أنفسهم ملتزمين بها ومسؤولين معاً ، وأن يدركوا بشكل جماعي مزاياها ويكتشفوا ، انطلاقاً من هنا ، ربما ، فضيلة التعاون بين الفئات وبين الأفراد .

تنظيم الإمبراطورية

لقد جهد بيبان لوبْريفْ وشارلمان ، انطلاقاً من مؤسسات ميروفنجية ولومباردية تجددت بفضل قدرتهما وديناميتهما ، في أن يرسيا حكماً ويؤسسا إدارة يعطيان الدولة خير فعالية ، والمواطنين بعض التعلق بنظامهم وبسلالتهم ، لقد عملا ليتوفر للأجزاء المركزية مزيد من الوسائل والإمكانيات . ولكن بعد أن استنتجا أنه يستحيل عليهما مراقبة الجميع مباشرة سمَحا ببقاء بعض الاستقلالية الذاتية .

وإذا كان للملك أن يتصرف بالقوة العسكرية وقيادة الجيش المعترف له بها ، لأن الحرب والنصر هما من أول أسباب وجوده ، فهو يملك عملياً وسيلة ممارسة سلطاته بفضل الأراضي الواسعة وعائداتها (خزانة الدولة) التي حصل عليها عن

طريق أجداده ، من جهة ، ومن جهة أخرى عن طريق الصادرات أثناء المشاريع الأوسترازية والفتوحات الكبرى . لقد توزعت هذه الأملاك في كل أنحاء الإمبراطورية . ولكنها تكثر وتكثف في بلدان الموز الوسطى والموزيل والراين الأوسط وفي أودية الإيْسْنْ (Aisne) والواز ، وعلى درجة أقل في أودية السين واللوار وفي فرنكونيا وإيطاليا وأكيتانيا . وبفضل المحاصيل والعائدات التي يجنيها الملك ومنها يستطيع أن ينفق على إدارة كثيرة الموظفين .

إن قسماً من هذه الإدارة موجود قربه في قصر إكْسْ ، وهو مقسم إلى مصالح يوجهها موظفو القصر الذين هم مستشارو الأمير . وأهم هؤلاء بالنسبة إلى دوره والآراء التي يطلب إليه اقتراحها هو رئيس الكهنة ، رئيس كنيسة الإمبراطور ، وهذا اللقب يخوله تعيين الكهنة للقيام بالخدمات الطقسية ومعاونة الملك وحاشيته دينياً وهو ، في الوقت نفسه ، وخاصة رئيس الكهنة الذين ، بالإضافة إلى مهنتهم الكنسية ، يحررون الوثائق الرسمية وأعمالاً أخرى للإمبراطور ويشكلون فريقاً من المحررين والكتبة لهذه الغاية . فرئيس الكهنة الذي ينتمي بالضرورة إلى سلك الإكليروس يحق له أن يطلب ساعة يشاء مقابلة الإمبراطور وله الكلمة المسموعة لديه ، وهو ، بفضل المنصب الذي يشغله ، يهتم بكل ما يعني الكنائس والأساقفة في جميع أنحاء الإمبراطورية ، وهو وحده يستطيع التدخل بانتظام في القرارات التي تشمل الدولة بكاملها ؛ وهو جدير أكثر من أي إنسان أن يكوِّن نظرة إجمالية عن الغرب الكاثوليكي .

وإلى جانبه ، وليس بالتبعية له ، لأنه لا تراتبية بين الموظفين الكبار ، ينعم كونت البلاط ، المركز الوحيد الذي أوجده الكارولنجيون ، بسلطة قوية ، لأن عمله الأساسي يقوم على ترؤس محكمة القصر وإصدار الأحكام باسم الإمبراطور الذي ترفع إليه قضايا عديدة . هذا أيضاً تشمل مسؤوليته كل الإمبراطورية ، وبما أنها مهمة خاصة ، فهي عملياً محصورة وتمارس عند الضرورة . أما سائر الموظفين فهم أقل نفوذاً ، وإذا كان لهم من نفوذ فذلك لأن الإمبراطور يستشيرهم . إنهم يديرون الأعمال الخاصة ، كل واحد منهم يتفرد بقطاع خاص : ضابط الديوان لحراسة الخزينة ، وهو يتولى أمر حساباتها ، ورئيس خدم القصر يشرف على الخدم المكلفين بمهام التموين ، يعاون أمين المشروبات الذي يرئس إدارة الأملاك

السلطانية ويتسلم منتجاتها التي يحتاج إليها القصر أو الجيش . والقائد العام مسؤول عن الإسطبل الملكي وتجهيز الخيالة ولكنه ليس قائداً للجيش الذي يعود أمر قيادته للملك دون سواه .

وللبلاط سلطان على كل أراضي الإمبراطورية وعلى سكانها كافة ، ولكن من أجل تصحيح مساوىء الإتساع الإقليمي وعدم الاصطدام ببعض الخصوصيات التي يخشى أن تستمر ، لم يتردد شارلمان ، الذي كان يدرك أنه، بعد موته ، ستنقسم ولاياته بين أولاده ، بإنشاء لامركزية ما ، فأسند حكم مملكة إيطاليا إلى ابنه الآخر لويس . وباڤييرا ، التي فقدت دوقاتها الوطنيين ، احتفظت ببعض شخصيتها في عهدة أحد الولاة ، ولكن يجب ألا نبالغ في شأن هذه الاستقلالات الذاتية لأن القضية كانت مقتصرة على تخفيف أعباء الحكومة المركزية أي على تدبير إداري . وكان لكل الأقاليم نظام سياسي واحد باستثناء الحق الخاص وبعض الأجهزة الخاصة . ويبقى أن هذه الإستقلالية الإدارية ، التي ترجمتها بعض التشريعات وتسمية الموظفين ، تقضي بأن يكون شارلمان ، الذي يحتفظ بالسلطة العليا فيمكنه عزل الملوك الذين عينهم ، الحاكم والمدير المباشر لمملكة پيبان لوبْريْف القديمة التي اقتطعت من أكيتانيا (أي المناطق الواقعة جنوبي اللوار) وأضيف إليها أقاليم خضعت أو هزمت في ألمانيا الوسطى والجنوبية (تورانج ، هِسْ ، فريزا ، ساكس) وانطلاقاً من هذا الواقع تنال هذه المناطق امتيازاً آخر يعطي النفوذ الأكبر لإكْسْ ـ لا ـ شاپيل ، ومجرد دمج البلاد الجرمانية بشكل أقوى يسمح لرينانيا وبشكل أعم لألمانيا أن تلقي بظلها على تاريخ أوروپا .

وعلى الصعيد المحلي ، تسمي الحكومة المركزية وحكومات أكيتانيا وإيطاليا الموظفين والكونتات المكلفين بتطبيق المقررات وممارسة امتيازات السلطات العامة بالنيابة .

قسمت الإمبراطورية ، إقليمياً ، إلى كونتيات (إلى بلاطات وغالباً إلى كانتونات) ، كان عددها الإجمالي محصوراً ، في النصف الأول من القرن التاسع ، ما بين 200 و 250 ، وكانت مساحات هذه الكونتيات متفاوتة ؛ ففي إيطاليا وفي جنوبي غاليا كانت شاسعة تشمل المدن ـ الدول الرومانية القديمة وحدودها حدود الأسقفيات . وهي في شمالي غاليا وفي ألمانيا صغيرة جداً ، مع أنه إلى جوار

الكونتيات الصغيرة التي تقسم الفلاندرا يوجد كونتية واسعة المساحة هي بْرَابانْ . وبما أن هذه الكونتيات تغطي مساحة البلدان التي يحكمها العاهل الكارولنجي ، بما أن الكونتات ، الذين يعينهم الملك ويتعرضون للنقل والعزل ، لهم في كل مكان المؤهلات نفسها والسلطات عينها فإن التوحيد الإداري كان قد اكتمل تقريباً . فالكونت هو العنصر الأساسي في الإدارة ، إنه مكلف بتعميم الأوامر وتطبيقها وبالمحافظة على النظام وجباية الضرائب وجمعها وبترؤس المحكمة العامة وبتجنيد الفِرَق المسلحة من كونتيته ؛ ويعاونه في مهماته جهاز صغير من الكتبة وكُتّاب العدول . وقد يكون إلى جانبه شخص ينوب عنه في تحمل مسؤولياته يدعى نائب الكونت ووكيله ، وأخيراً تقسم الكونتية ، إلا إذا كانت ضيقة المساحة ، إلى دوائر إقليمية ثانوية . وأحياناً إلى أقضية على رأسها حاكم قضاء وأحياناً أخرى إلى مئويات على رأسها حاكم يدعى قائد المئة . كل هؤلاء الولاة يعينهم الكونت ويقبضون منه أجورهم . أما هو فمخصصاته على نوعين : من ناحية يترك له الحاكم الأعلى حق الانتفاع ببعض الأملاك الأميرية في كونتيته (وهذا يسمى مكافأة شرفية) ، ومن ناحية ثانية يهبه ثلث الغرامات التي تفرضها المحاكم في دائرته وثلث نوع من الضرائب تدفعها رعيته .

إنه الدولة موجودة جسدياً في كل أقطار الإمبراطورية ويمثل رموز السلطة العامة ويقوم بمهماتها . ويحاكم الرجال الأحرار (ما عدا في القضايا المعترف بها للكنيسة مع التحفظ على حقوق مالكي العقارات على غير الأحرار) أمام محاكم تبعاً لمبدأ إقليمية القانون . والمحكمة العامة هي على مستوى الكونتية ومخصصة للقضايا الكبرى . وعلى المستوى الأدنى هناك محكمة المئوية للقضايا الصغيرة ، ويرئس الكونت ، كل أربعين يوماً تقريباً ، جلسات المحكمة العليا باسم الإمبراطور وكذلك قائد المئة محكمة المئوية . وهو يعمم الأحكام ويأمر بتطبيقها . واستناداً إلى مبادىء مماثلة يجبي الضرائب العامة أي الضرائب غير المباشرة المعروفة باسم خاص أي ضريبة عرض البضائع (ضريبة على المعاملات التجارية وحقوق المعارض والأسواق وضرائب على نقل البضائع التجارية ، تدفع عند اجتياز قرية أو جسر أو غابة . .) . وأخيراً تفرض الدولة الخدمة العسكرية على كل الرجال الأحرار وكل مالكي الأراضي وكل الذين يتمتعون بخيرات الوطن ، وعملياً الرجال الأوفر غنى . وينقل الكونت أوامر التعبئة والاستدعاء ويقود الفرق إلى مكان تجمع الجيش وهو لا يتولى القيادة

العسكرية المباشرة وليس تحت إمرته جنود في الحاميات . بيد أنه في المناطق الحدودية يتجمع عدة كونتيات (لا تزال تحتفظ بكونتاتها) في مناطق عسكرية كبيرة توضع تحت إمرة مركيز أو مارغراف يكون في تصرفه قوى مسلحة للدفاع عن أراضي الإمبراطورية ضد الغزوات ولمراقبة الأقطار الخارجية وشن الغارات عند الحاجة (مثل منطقة نُورْدالْبِنْجِيْ ، منطقة وِنْدْ ، منطقة الشرق ، منطقة فْرِيُولْ ، منطقة إسبانيا ومنطقة بريتانيا . . .) .

وإذ يدرك شارلمان اتساع الأراضي التي يحكمها ويراعي التعهد بترك الكونتات ، أكثر الأحيان ، يقومون بتقويم المواقف المحلية ، وتقرير ما يشاؤون بخصوصها ، وخوفاً من الإساءة إلى حاجات الدولة وإلى المصلحة العامة ، كان يوجه عناية خاصة إلى مراقبتهم بانتظام بواسطة رسل الملك الذين يتوجهون ، كل سنة ، إلى عدد من الكونتيات فيفتشون ويستمعون إلى الشكاوى وينصفون الناس بترؤسهم المحكمة العامة . ولدى عودتهم إلى البلاط يرفعون تقريراً يتيح للملك اتخاذ إجراءات إدارية أو تشريعية مناسبة . وللغاية نفسها يرى من الضروري والمفيد أن يشرك أتباعه الأحرار في الحياة العامة فيطلب من كل منهم وعداً مشفوعاً بقسم الأمانة أي الإلتزام بعدم الثورة والتمرد ، فيقدم مؤدي القسم التعهد للكونت أو للشخصيات المرموقة أو لرسل الملك ، يجب أن يدعًم هذا القسم تماسك الجماعة الذي يسهر عليه الإمبراطور باستمرار متولياً قيادة البلاط والجيش ، ناقلاً ، كتابةً ، النصوص التشريعية والتنظيمية وتعليماته ، مكلَّفاً بإجراء التحقيقات على الأرض ومتلقياً التقارير . ونجحت إرادة سياسية واحدة ، بطريقة ما وإلى حد محدود ، بفرض نفسها على الإمبراطورية بكاملها .

مساهمة الطبقة الأرستقراطية

إن عملية التلاحم تعتمد ، أيضاً وخاصة ، على إسهام الأرستقراطية في إنجاح النظام وعمل النظام ، ولو بصورة مؤقتة . هذا التعاون الذي كان العامل الأنشط ، في نجاح پيپان دوهِرِسْتالْ وشارل مارتيلْ ، استمر على أساس أن الملك الكارولنجي هو عاهل يستطيع الإعتماد على مساعدة العائلات الكبيرة ودعمها وعلى تلقي عون فعال منهم ، بعد زوال المزاحمين والأخصام . وبفضل هذا التعاون الوثيق أصبح حكم الشعب وقيادته أكثر سهولة . فكان كل كونت يقيم علاقات ، في كونتيته ، مع بعض

العائلات وبعض الأفراد . وكان باتفاقه معهم وبمراقبتهم يمنع سائر الأحرار من إحداث ما يحلو لهم ، وخاصة غير الأحرار .

هذه المشاركة كانت في البداية وظلت حتى سنة 820 شراكة محاربين من أجل الحرب وهي ، إلى ذلك ، إسهام فردي في المعركة وفي الغنائم أكثر مما هي مشروع جماعي يهدف إلى إعلاء شأن الدولة والدفاع عنها . وكان الأعيان ولا يزالون هم الذين يخوضون الحرب وينجزون الفتوحات بقيادة الملك ، وبهذا يبررون وجودهم ويجيزون لأنفسهم الحصول على المنفعة المادية التي يجنونها ، عن طريق السلب ، ثم ينالون المزيد عندما تُجري الدولة توزيعات على شكل هبات (أراضٍ وعائدات) . إنهم ، لهذا السبب ومن أجل هذه الغاية ، تحدوهم دينامية قوية ويؤلفون اجتماعياً الركن الأعظم في القوة الكارولنجية والإمبريالية . وذلك بشرط أن تستمر أعمال الفتوح ، أو ، على الأقل ، الروح القتالية ، أي ألاّ تتقهقر قوة الدولة العسكرية . وكانت هذه القوة ، في واقع الحال ، تعتمد عليهم لأن الحرب كانت تجري ، تقريباً فقط ، على ظهور الخيل ولم يكن ثمة جيش سوى الخيالة . وبما أن عدة الفارس وحصانه وسلاحه تكلف غاليا وبما أنه ليس للدولة وسائل لتجهيز جنودها بنفسها ، كان على هؤلاء أن يحضروا عدتهم وأسلحتهم ، لذا يجب أن يكونوا أغنياء ، ولكي يكونوا كذلك كانوا بحاجة إلى أرض أي إلى أن ينتموا إلى الارستقراطية ويدّعوا تعويض التكاليف ، المخصصة لكل حملة ، من غنائم النصر . لم يكن يدعى إلى جيش شارلمان إلاّ أكثر المالكين غنى . وفوق ذلك ، من أجل الحصول على الخدمة العسكرية ، كان الملك يهب ، على سبيل المنحة ، أراضي تقتطع من ممتلكات الدولة ، فيخصص للشخص المقاتل ، بالولادة ، لقاء خدمته في الخيالة جزءاً من السنة ، استغلال أراضٍ يحتفظ بملكيتها .

غير أن الأرستقراطية لم تكن تشارك فقط في الحملات العسكرية وفي فوائدها وفي القوة التي تمنحها ، بل كانت تسهم أيضاً في الأعمال الإدارية . وتلك هي إحدى مزايا شارلمان النادرة وهي أنه جعل إدارييه رجالاً متحدرين من هذه الأوساط العسكرية ، وقد جعل منهم إداريين ناجحين . وكان أكثر الكونتات يعينون من العائلات الأرستقراطية من أصل أوسترازي أوّلاً ثم من بين النوستريين البورغونيين والألمان الأكثر إخلاصاً . إنهم منتشرون في مختلف أقطار الإمبراطورية ومرتبطون

بالدولة بروابط أساسية كما بالوظائف التي يضطلعون بها والامتيازات التي ينالونها منها . وبسبب مصالح سلالاتهم وعشائرهم وتشابك هذه المصالح مع أرفع القرارات السياسية . وهكذا وجدت عائلات كثيرة مندمجة فيما بينها داخل الحكومة والإدارة ومتحدة بالإمبراطورية بواسطة الوظائف التي يشغلها أفرادها ، وعاملة على تقويتها وساهرة على خلاصها طالما بقي على رأس السلطة إدارة ثابتة تحدّد بوضوح الأعمال التي يجب إنجازها .

غير أنه لم تكن جميع العائلات ولا جميع المحاربين مندمجين في هذا النظام التعاوني . في الواقع يكتفي الكثيرون بأن يسهموا خلال عدة أسابيع ، بحملة عسكرية قبل أن يمثلوا أمام الجمعية العمومية . ويظلون ما تبقى من الوقت في أراضيهم . وإذا كانوا ممن يتمتعون بحصانة ما يكلّفون بالأعمال الإدارية العامة لخدمة مواطني مناطقهم . ولكن لا يبدو أن الحصانة كانت منتشرة بين العلمانيين المدنيين ، فهؤلاء عادة يكونون خاضعين للكونت ولكنهم يظلون نافذين بفضل ثرواتهم وعلاقاتهم وحق السيادة على غير الأحرار ونفوذهم على أصحاب الإقطاعات الحرّة المجاورة . ولكي يستطيع شارلمان ضبطهم وإقناعهم بمساهمة أوثق ، كان يطلب إلى عدد منهم ، يصبح فيما بعد من أتباعه ، أن يقرن مصيره به بقسَم خاص يتعهد بواسطته بتقديم خدمات (من النوع العسكري خاصة) بمقابل الحماية التي يمنحها لهم باستمرار ليدفع عنهم منافسيهم وليؤمن لهم العدالة والمساواة وليضمن دعم امتيازاتهم التي تحولت إلى إنعامات . وهكذا يقسم الكونتات يمين الولاء والإخلاص للإمبراطور واضعين أيديهم بيدي الملك . وفي مختلف بلدان الإمبراطورية يطلب إلى خيرة الرجال أن يتصرفوا هكذا تجاه الكونت الذي يمثّل الملك ويفرض عليهم التزامات مساعدة خاصة (وخاصة هؤلاء الذين تلقوا بعض « الإنعامات » بالرغم من أنه لم يكن في تلك الأيام أي علاقة قضائية بين الكونت والأتباع . إنهم مُقطعون عامون ، مقطعو الملك . ويغطي تعهدهم الخدمات المادية والمباشرة ، في حين أن الأمانة التي يُقسِم عليها كل الرجال الأحرار تمثل فقط وعداً معنوياً لا يحافظ عليه صاحبه إلا إذا كان يقصد به شيئاً واقعياً ـ وحدة الدولة ـ الأمر الذي ليس سهلاً أبداً .

وأخيراً ، فإن الإمبراطورية الكارولنجية هي عمل ناجح قامت به فئة

اجتماعية ، يعود الفضل في تماسكها إلى اتحاد هذه الفئة أكثر مما يعود إلى مقدرة الإمبراطور ، وكان هذا الواقع سبب ضعفها الأساسي . ولكـان هذا الضعف بـرز بشكل أوضح وأسرع لو لم ينعم هذا النظام ، في الوقت نفسه ، بمشـاركة أعمق بكثير ، من قبل الكنيسة وبانطلاقة فكرية وثقافية ثابتة .

التعاون مع البابوية

كان للكنيسة في النظام الكارولنجي مركز استثنائي جداً لقد أعطت المشروع الإمبريالي غائيّته ، وأوجدت ، بواسطة الإكليروس ، الإدارة التي تساعد على بلوغ هذه الغائية والتي وضعت تحت تصرف الإمبراطور .

ويعتبر شارلمان ، كما تعتبر حاشيته ، أن الله قد حباه السلطة العليا ليقود أتباعه إلى الخلاص ، وقد كتب لـه اللاهـوتي الأنغلوساكسـوني أَلْكُوانْ (Alcuin) سنة 799 : إن سيدنا يسوع المسيح خصًك بالعظمة الملكية لكي تحكم الشعب المسيحي . ويعود هذا إلى الزعم ، إذا ما قابلنا بين هذا التأكيد والمزايا التي جعلت من شارل ملك المسيحية القوي والأوحد ، أن السلطة الـزمنية أعـطيت له ليحكم الشعب المسيحي ، وأن ملك الفرنجة قد مجدّه الله (تمهد رسالة أَلْكُوانْ لتتويج عيد ميلاد سنة 800) ، لأنـه كان يضمن النـظام والعدالـة والسلام . وهكـذا يضطلع الإمبراطور بأكبر مسؤولية معنوية وروحية ودينية ، وأن سلطته فوق كل الذين يعيشون على هذه الأرض ، ولا يعود هـذا إلى ذات طبيعته (لأن الـوظائف الـدينية تتعلق بالفوطبيعي ولها ميزة دينية) بل ، إلى الواقع الخاضع لمشيئة الله ، وإليه تعود ، في الإمبراطورية والكنيسـة ، ممارسة أعلى سلطة وهو المدافع الرسمي عن الدين .

ومن المنطقي أن يعود إليه الأمر في أن يحدِّد وينظم نشر بشارة الانجيل بين الشعوب التي لا تزال وثنية وأن يرسم ، بتعليمات وتقنيات منه ، القوانين التي تسمح لشعبه بأن يتقيد بالإلتزامات المسيحيـة ويمارسهـا ، وتدعم مسلكيـة رجال الـدين (التذكرة العامة سنة 789 ، المختارات القانونية لسنة 813) ، وأن يجمع أساقفة الإمبراطورية في مجامع كنسية (ينعقد سنة 813 خمسة مجامع رعوية إصلاحية في آرْلْ وشـالون ـ سـور ـ سون ومـاينسْ وريمسْ وتورْ ، دُوِّنتْ مقـرراتها الهـامـة في المختارات) ، وأن يراقب ، أخيراً ، إذا كانت هذه الأنظمة وهذه القوانين الكنسية تطبق فيفوِّض مهمة المراقبة هذه إلى « رسل الملك » الذين يذهبون اثنين اثنين على

أن يكون أحدهما رجل دين . ومع ذلك فهو يطمح إلى صلاحيات أوسع عندما يتدخل في المسائل الإيمانية (عبادة الصور ، قضية انبثاق الروح القدس . فيأمر بأن يضاف إلى قانون الإيمان أن الروح القدس منبثق من الآب والإبن وليس من الأب بواسطة الإبن ، وهي صيغة ثابتة في الليتورجيا الغربية) ، كل ذلك يشير إلى موقف قيصري بابوي حازم بارز دون لَبْس ولا تحيُّز . لأنه (هذا الموقف) ، بالنسبة إلى الملك ، طبيعي ولا يمكن أن يكون هناك موقف آخر ، وكانت الطبقات الإجتماعية الأخرى ميالة إلى الأخذ بهذه الفكرة ، إنها قيصرية بابوية مبنية على تعاون دقيق وتام مع رجال الدين ـ البابا والأساقفة والرهبان ـ الذين ظلوا يتمتعون بسلطة معترف لهم بها ، في القطاعات الخاصة بهم ، وباستقلالية كبرى في القيام بمهامهم . أما السلطة الإمبريالية فظلت تقرر فقط أسمى المراسيم وتقترح المشاريع الضرورية .

كان التفاهم متيناً مع الكرسي الرسولي منذ اتفاقات سنة 751 وسنة 754 التي جعلت من پيپان لو بْرِيْفْ ، المكرَّس ملكاً على الفرنجة ، حامي كنيسة روما ، وأوجدت أيضاً ولايات الكنيسة . ومنذ هذا التاريخ الذي بدأ فيه الملك يمارس حمايته ويصدر قرارات تحكيمية للتوفيق بين أدلَّة متناقضة ، لم تتوقف العلاقات عن أن تكون وثيقة ، وأدت هذه العلاقات بالكارولنجيين إلى الاهتمام بإيطاليا أكثر مما كانوا يتوخون . ويوسِّع شارلمان هذا التعاون بمقدار تزايد قوته . وتُبرِز علاقاته مع البابا أدريان الأول (772 ـ 795) الفوائد التي تجنيها منها كلتا الفئتين ، وتظهر كذلك في عدة مناسبات ، مسؤوليته الكبيرة . ومع البابا ليون الثالث تتغيَّر اللهجة شيئاً ما فتصبح لهجة دليل منزعج أكثر من صديق يتبوّأ مركزاً سامياً ، ولكن ذلك يتعلق بالتصرف السَّيِّء للبابا الذي ليست حياته منزهة عن العيوب والذي وجّه إليه أخصامه الرومانيون إتهامات قاسية . وهكذا يستطيع الإمبراطور بطريقة متعالية ، إلى حد ما ولكنها وحيدة ، أن يعرض عليه كيف يجب أن يفهم التعاون ، فيوعز إلى موفده في روما قائلاً : نبِّه البابا إلى أنه يجب أن يعيش حياة شريفة وعليه ، خاصة ، أن يحترم القوانين المقدسة ، قل له إنه عليه أن يحكم ، بالتقوى ، كنيسة اللّه المقدسة تبعاً للاتفاقات التي تبرمانها بينكما وتبعاً لضميره . قل له تكراراً إن الشرف الذي تبوأه هو شيء زائل بينما الشيء الخالد هو المكافأة الممنوحة على الأعمال الحسنة . وكتب للبابا سنة 799 : لي يعود الحق ، مستعيناً بالتقوى ، في الدفاع ،

بواسطة السلاح عن كنيسة المسيح في كل مكان : في الخارج ضد غزوات الوثنيين واجتياحات الملحدين ، وفي الداخل ، في الدفاع عنها بنشر الإيمان الكاثوليكي ، أما أنت فمن واجبك أن تساعدنا بالصلاة برفع يديك نحو السماء .

وإنه على أثر هذه الأحداث ، التي جاء أثناءها البابا ليون الثالث يضع نفسه جسدياً تحت حماية شارلمان ـ الذي رفض أن يدينه معتبراً أنه لا يستطيع ذلك ، ولكنه طلب قسماً علنيًا بالبراءة ـ على أثر ذلك تم تتويج سنة 800 وولدت الإمبراطورية ، هذا التعظيم الأسمى للسلطة المدنية الذي جعل دور خليفة بطرس دينياً فقط أعطى البابوية ، مع ذلك ، نفوذاً لم تعرفه من قبل ، بحيث إن النجاح الكارولنجي يشكل حدثاً خطيراً في تاريخ الكرسي الرسولي ، أو على الأقل حدثاً استفادت منه البابوية في العقود التالية . أما في العهود السابقة ، وبالرغم من نفوذ بعض البابوات ، فلم تتوصل الكنيسة الرومانية ، التي كانت مرتبكة في علاقاتها مع بيزنطة ، إلى ممارسة سلطة حقيقية على الإكليروس خارج إيطاليا . كان يعترف لها بمركز متفوق بين الأساقفة وكفاءة استثنائية وحاسمة ، تقريباً ، في القضايا العقائدية ونفوذ معنوي كان يؤثر على رجال الدين والعلمانيين ، على الأقوياء وعلى الضعفاء ، وذلك تبعاً للظروف والامتيازات التي يتمتع بها الأحبار . وبعد سنة 800 وجد بابا روما نفسه على صلة أوثق من أي حبر آخر بالإمبراطور الذي يتوّجه ويستشيره في جميع القضايا حيث يحدد التشريع القانوني ذلك (مثل انشاء اسقفيات جديدة . .) ، والذي يعتبر أخيراً أن الطقوس (الليتورجيا) الرومانية هي الأفضل ويجب أن تعم الكنيسة بكاملها . وهكذا رفع مقامه فوق سائر الأساقفة . ليس هو سيد الأسقفية ولم يحصل على أي سلطة جديدة ، ولكنه كان ، في الإمبراطورية ، الوحيد الذي يذكر اسمه على مستوى واحد مع اسم العاهل العلماني . إن البابا والإمبراطور هما « كوكبا » الغرب . إنهما يمثلان نموذجين لسلطتين تحكمان هذا العالم ، استناداً إلى التعبير الذي استعمله البابا جيلاسيوس الأول في نهاية القرن الخامس . هذا التمثيل ، بالنسبة إلى الإمبراطور ، ينطبق على الواقع ، وهو ، بالنسبة إلى البابا ، صورة يلوّح بها لدعم مطامحه .

وكان على الكرسي الرسولي ، في بداية القرن التاسع ، أن يحسب حساب الأساقفة الآخرين والرومانيين الذين يضعون العراقيل ، والملوك الذين يحاولون

الإشراف عليه ومراقبته . وفي سنة 817 يستغل البابا پسكال الأول المواقف المؤاتية لدى لويس التقي ومنها صعوبات بداية حكمه فيحصل منه على امتياز يحرره من كل وصاية . لأن الإمبراطور امتنع عن التدخل في شؤون المدينة وفي الانتخابات الحبرية . لكن في سنة 524 أرسل لوتير ، ابن الملك البكر ، إلى روما لضبط النظام الذي اختل بعنف بسبب تدخل أخصام التعاون مع الكارولنجيين . وأعاد الحق إلى الإمبراطور : على جميع الرومانيين أن يُقسِموا يمين الولاء للملك ، وعلى البابا ، بعد انتخابه ، وقبل تكريسه أن يقيم قسَماً مماثلاً بين يدي ممثل الإمبراطور .

ولكن بعد ذلك وعلى أثر ضعف سلطات الملك ونفوذ الإمبراطور ، ونتيجة للخلافات الداخلية والإنقسامات تسامى مركز البابوية إلى مستوى ملحوظ . وحدث كل ذلك كما لو أن أحد النيرَّين قد خفت ضوؤه وتألق الآخر بشكل باهر أو كما لو أن القوة التي كانت حتى ذلك التاريخ فعَّالة قد شلَّت والقوة الأخرى قد تعظمت وظلت تقبض على الحسام الذي كانت يد سقيمة هشة تحاول الإمساك به . ولكن عندما نتوغل في عمق الأمور نرى أن هذا الانتقال وهمي . وليس ما يمنع أن يلعب غريغوريوس الرابع في السنتين 831 ـ 832 ، دوراً في النزاع القائم بين لويس التقي وأولاده ـ مع العلم أن تدخله كان غير حكيم وانتهى به الأمر إلى الفشل ـ وأن يظهر نقولا الأول (858 ـ 862) الشخصية الأبرز والسلطة المعنوية الأقوى في الغرب ؛ ولكن تدخله انطلاقاً من مسؤوليته الخاصة والوحيدة في جميع القضايا الكبرى (مثل طلاق لوتير) واتخاذه موقفاً متصلباً في لقائه مع فوتيوس ، بطريرك القسطيطينية ، سبب انشقاقاً جديداً وسوء تفاهم أكثر خطورة : وبعده يعتبر يوحنا الثامن (872 ـ 882) نفسه مكلّفاً بالدفاع عن إيطاليا ضد الغزوات الإسلامية بالمحافظة على السلطة الإمبريالية لهذه الغاية لكي لا ينهار التلاحم الغربي . وهو لذلك لم يتردد ، بعد موت لويس الثاني (875) ، إبن لوتير الأول وحفيد لويس التقي ، في اقتراح التاج الإمبريالي لمن يبدو له من الكارولنجيين أنه الأكثر كفاءة للقيام بهذه المهمة التي يسندها إليهم : وهكذا عيِّن وتوِّج شارل الأصلع (Le Chauve) ثم شارل السمين (Le Gros) . وظل الكرسي الرسولي المتعاون باستمرار وبشكل وثيق مع الإمبراطور والطامح إلى توجيه هذا التعاون ، ظل أحدَ الأركان البارزة في الصرح الكارولنجي حتى عندما انهار هذا الصرح .

التضامن مع الأرستقراطية الكنسية

وتحتفظ الكنيسة ، بالرغم من هذه الأمجاد وهذه المطامح ، بِبُنَى من النوع الفدرالي : إنها جماعة الكنائس المتنوعة المشتركة في إيمان واحد ، تعتبر أسقف روما خاتم وحدتها وقطبها الجاذب لأن له بنوع أخص يعود تحديد العقيدة . وأدرك الكارولنجيون تمام الإدراك هذه الحقيقة . وإذا كانوا قد دعموا النفوذ الروماني ، في عهدَي پيپان وشارلمان ، مستخدمين البابوية ، لقد أرادوا أن يكون لهم هم أسقفية قوية يستطيعون التعاون معها على الوجه الأفضل . ولهذا السبب سعى أول هؤلاء الملوك ، بمساعدة القديس بونيفاس إلى إعادة بناء الأقاليم الكنسية وإلى ترميم قوة رؤساء الأساقفة . ويجب أن يكون الإكليروس بالنسبة إليه تراتبيا : الأسقفيات تضم الخورنيات والأساقفة يأمرون كهنة الرعايا ورؤساء الأساقفة يوجهون ويراقبون الأساقفة الذين يجمعونهم في مجامع رعوية ليتخذوا معاً ، ولكن بإشرافهم وهيمنتهم ، القرارات الملحة . وفوق رؤساء الأساقفة يأتي ألبابا بالمسؤوليات التي تمع على عاتقه .

حافظ شارلمان وخلفاؤه على هذا الموقف وتعاونوا فعلياً مع هذه التراتبية . ونتج عن ذلك أنهم تدخلوا في تعيين رؤساء الأساقفة وعينوا أو اقترحوا رجالاً يختارونهم . وهكذا ترسخت أرستقراطية كنسية متعاونة بقوة مع السلطة ، وأعضاؤها غالباً متحدرون من أرستقراطية علمانية كبيرة ، الأمر الذي يقوي دور هذه الأرستقراطية اجتماعياً .

وقوي هذا التعاون بفضل العلاقات الناشئة مع الرهبانيات التي ما فتئت تنمو ، خلال القرن الثامن ، في إيطاليا وفرنسا وألمانيا . وقد شجع پيپان لو بْرِيْفْ وأسهم إسهاماً قوياً في فرض القانون البنديكتي في العدد الأكبر من الأديرة . وبالطريقة نفسها ساعد أسقف ميتز ، كْرُودِغَانْغ (Chrodegang) في إصلاح مجالس الكهنة . أدَّت هذه المهمات الدينية إلى خير تلاحم بين المؤسسات وإلى تفاهم عميق مع السلطة العامة بحيث كان الملك يعتمد كثيراً على الرهبان في سبيل نشر الإنجيل . ويتابع شارلمان السياسة إياها : فيرغب في مزيد من التناسق ويفرض على كل رؤساء الأديرة في الامبراطورية التقيد بالقانون البنديكتي الذي يطلب نصه الكامل الصحيح من رئيس دير مون كاسِّينو . وبالمقابل لم يكن يحبذ الإختيار الحر لرئيس الدير من

قبل الرهبان فكان يتدخل في ترقية أشخاص فيختارهم لمكافأتهم أو للاعتماد عليهم . هذا التصرف الذي عكّر الحياة الرهبانية وفتحها على العالم ، على عكس المقاصد الرهبانية البعيدة ، أوثق عرى التلاحم بين السلطة السياسية والإكليروس الذي تمثّل قبل كل شيء باتحاد بين الملك من جهة ورؤساء الأساقفة والأساقفة ورؤساء الأديرة من جهة أخرى ، وجعل من السهل إنجاز بعض المهمات الدينية والثقافية والتدخل أيضاً في مجالات غريبة عن الدين ، خاصة في مجال الإدارة العامة .

لقد جرى التنويه بأهمية كنيسة البلاط الإمبراطوري التي يدير شؤونها رئيس كهنة تحت إمرته كتّاب عدول وكتبة يؤلفون ديوان المستشارية . إنها تعطي دوراً بارزاً لكل موظفي هذه الإدارة وكل رجال الدين الذين كانوا بحكم وظائفهم أقرب المتعاونين وأنشطهم . إنهم يحررون العقود لمجتمع يندر فيه من يجيد القراءة والكتابة ورجال الدين موجودون أيضاً في دوائر أخرى قرب رئيس الديوان وقرب أمين المشروبات ، حتى في مكاتب كونت البلاط وعلى المستوى المحلي في جوار الكونتات . وإذ نذكّر بإنه في كل عملية تفتيش يكون أحد رسولي الملك رجل دين يمكننا أن نقدر بسهولة وزن الإكليروس في الإدارة .

وثمة المزيد من الأمثلة : فلكي يسهل شارلمان إنجاز الأعمال العامة ولكي يجمع حوله رجال الكنيسة يضاعف ، خدمة لمصلحة الأديرة والأسقفيات ، من إنعامات الحصانة التي عُرِفت في العصر الميروفنجي والتي بواسطتها استثني قطاع كبير خاص من السلطات القضائية الكونتية ولا سيما في المجالات القضائية والعسكرية والمالية . وتستند إدارة هذه السلطات إلى ملّاك أو متسلّم أملاك يمارس سلطات الكونت على الناس والأرزاق باسم الملك الذي يكنّ له إخلاصاً حقيقياً لأنه يستفيد من النظام بصفتين : فهو ، من جهة ، يستثنى ورجاله من إشراف الكونت عليهم ، ومن جهة أخرى يكتسب المزيد من القدرة والنفوذ بفضل التفويض الذي أعطي له . كانت كل الأديرة تنعم بالحصانة وتوثّق تلك الشبكة التي قلنا إنها تغطي أراضي الإمبراطورية . ويشكل رؤساء هذه الأديرة مع الأسقفية فريقاً قوي النفوذ يدعم تماسك النظام طالما أنه يعمل لمصلحته بقوة .

انخرط الرهبان ، برعاية الأساقفة ودعمهم ، منذ أيام غريغوريوس الكبير وتحوُّل الانغلوساكسونيين إلى الكثلكة ، في النشاطات الرسولية . وقد اهتم الكارولنجيون ، من جهتهم ، ومنذ شارل مارتيل ، بنشر المسيحية بين الشعوب التي كانت لا تزال على وثنيتها . فنتج عن ذلك تعاون وثيق أبرزته ، على وجهه الأفضل في منتصف القرن الثامن ، الروابط الوثيقة بين پيپان لو بريف والقديس بونيفاس . أما شارلمان فكان يعتبر ، من جهته ، أن أحد الأهداف الرئيسية للديوان الإمبراطوري والملكي هو تنصير الشعوب التي لا تزال تجهل « الحقيقة » المسيحية . ولم ينفك عن السعي في سبيل بلوغها ، فكان يشجع ويساعد الأساقفة ورؤساء الأديرة الذين تشغلهم أمور مماثلة . وكل ذلك يبرز ، من جهة دينامية النظام ورجاله ، ومن جهة أخرى ، فكرة بسط المدى الإقليمي للمسيحية اللاتينية وتوسيع الغرب الكارولنجي بتسليط أشعتها على البلدان المجاورة الواقعة وراء الحدود السياسية ، أي فكرة توسيع أوروپا .

وتحوَّلت الساكس ، التي احتُلَّت عسكرياً لهذه الغاية ، إلى المسيحية التي كان شارلمان يظن في البداية ، أنه يجب عليه ويستطيع فرضها بالقوة . ولكن نزولاً عند نصيحة رجال الدين وأعوانه تبنّى ، منذ سنة 787 أساليب أكثر ليونة فيقسم جنوب البلاد ووستفاليا إلى عدة قطاعات تبشيرية . وعلى أثر موت سْتُورْمْ ، رئيس دير فُولْدَا ، الذي أعد هذا البرنامج الجديد ، أوكلت المهمة إلى ڤِلّيْهَادْ (Willehad) الذي كان ، حتى ذلك الوقت ، يعمل في فْرِيْزَا حيث نجح في القضاء على الطقوس الوثنية . وفي السنوات الأخيرة من القرن الثامن دخل الإيمان المسيحي فعلياً إلى القُطْر ، وأجرى المبشرون بالإنجيل عمليات تنصير جماعية كثيرة ، فأسسوا أسقفية في پريما وأخرى في پَادِرْبُورْنْ ، أضيف إليها فيما بعد مراكز أسقفية في هالْبِرْسْتَادْتْ وهِلْدِزْتايْمْ ومِنْدِنْ وأُوْسْنَابْرُوْ ومُونْسْتِرْ . غير أن ردَّات فعل وثنية ظهرت حتى في سنة 840 وما بعدها . ويجب الإنتظار حتى نهاية القرن التاسع ليمكن القول إن الساكس أصبحت مسيحية وبواسطتها جرمانيا بكاملها .

وفي الشرق لم تجرِ محاولة الوصول إلى سلاڤيي الشمال . بل لقد اتجه التبشِير نحو بوهيميا ومورافيا وپانُونيا ؛ وقد واكب الاستعمار الألماني في هذه المناطق

وتجلّى بالإتساع الإقليمي لأسقفيات سالزبورغ وپاسُّو . وفي پانُّونيا ، حيث تحول الأڤاريون إلى المسيحية في النصف الأول من القرن التاسع ، وبعد المشاريع التي أطلقها پيْرْمِنْ وآرْنْ ، توطدت التراتبية الأسقفية في مُوسْبُورْغ ، قرب بحيرة بالاتون ، تحت اشراف الإكليروس الباڤاري . وإلى موراڤيا دخلت المسيحية متأخرة لأن الدوق مُوامِيْرْ (Moimir) عارض ذلك فتوجب انتظار وصول راتِسْلاَڤ إلى السلطة لكي يتم استقبال مرسلين آتين من پاسُّو . وبعد ذلك ببعض السنين انفجرت معارضة عنيفة ضدَّ هؤلاء « الفاتحين » الجرمانيين أدَّت إلى استدعاء الإكليروس البيزنطي ليحل محلهم ، وفي سنة 862 يستقر كِيْرِلُّسْ ومِيْتُودْ في البلد ويُدخلان ليتورجيا باللغة السلاڤية متأثرة باليونانية . وكان البابا أدريانوس الثاني من الحكمة بحيث يرضى بهذه الخصوصية بواسطة تعلق الكنيسة الموراڤية بروما . وبعد موت كيرلُّس (869) يستعيد ألمانيو سالزبورغ وفْرِيْزِنْغ وپاسُّو السيطرة على المنطقة الأمر الذي يدعم تعلقهم بالغرب . أما ميتودْ فقد تابع عمله في پانُّونيا ممهداً بعمله هذا لدخول الكاثوليكية إلى بوهيميا في بداية القرن التاسع . وفي الشمال ، عندما وصل إيبون (Ebon) ، أسقف ريمس مدفوعاً بإرادة أسقفية قوية ، إلى شاطىء ساكسونيا ، بعد أن علم بوجود جماعة مسيحية صغيرة (من تجار وعبيد جاؤوا من الغرب) في بِيْرْكا (Birka) ، في السويد قرب بحيرة مالار ، اعتبر أن ذاك عامل مُؤاتٍ ، انطلق في مهمته الأولى التي تدخلت في الدانمارك ولكنها لم تصادف نجاحاً على الإطلاق (823) ، وفي سنة 826 وعلى أثر المعارك الأهلية التي نشبت في سبيل الحصول على العرش الدانماركي ، تنصر أحد الطامحين ، الملك هارالْدْ ، مع جميع أفراد عائلته وتقبل سر العماد في مَايِنْس . وأُعِدَّت مهمة رسولية أخرى عهد بها إلى راهب مُبِنّ من كوربيا كان حينذاك مفتش مدارس في كورڤي من مقاطعة ساكس يدعى أنْشارْ (Anschaire) يبشّر في الدانمارك ثم في سنة 830 يصل إلى بيركا . وبعد ذلك بقليل يؤسس كرسياً أسقفياً في هامبورغ على أرض الإمبراطورية ، ليكون قاعدة لانطلاق التبشير ، وعُيِّن أنشار أول مسؤول عنها ، بيد أنه بالرغم من وجود بعض المؤسسات (بناء كنيسة سِغْتونا) ، كان النجاح محدوداً جدّاً واضطر أنشار أن يغادر البلاد سنة 845 . وتابع نشاطه الرسولي في الدانمارك ، وبالرغم من أن هامبورغ كانت قد دُمِّرَتْ وأُلحِق الكرسي ببريم . وبعده تابع رَامْبِيْرْ (المتوفى 888) عمله ولكنه لم يلاقِ نجاحاً كبيراً . ولم يتحد السكندينافيون بالغرب المسيحي إلا في

القرن الحادي عشر ، ما عدا أولئك الذين استوطنوا الإمبراطورية على أثر نزوحهم وهجماتهم ، فإنهم قد تحوّلوا إلى المسيحية في أماكنهم (نورمانديُو نورمانديا في بداية القرن العاشر ، دانماركيون استوطنوا انكلترا) .

وحصيلة القول ، لقد كانت الدينامية ناشطة ولكن النتائج كانت هزيلة في ساكس . وفي المناطق الجنوبية الشرقية التي كان بعضها على علاقة سيئة مع الكاثوليكية الرومانية والبعض الآخر (مثل پانونيا) اكتسحها مهاجمون وثنيون جدد ـ الهنغاريون ـ فدمّروا كل ما أُنجز من عمل . وبفضل عمليات التنصير هذه نمت جرمانيا واتخذت أهمية عظيمة بين بلدان الإمبراطورية . فضلاً عن ذلك فإن الإتصالات الصعبة مع الوثنية ومقاومتها ـ في سكنديناڤيا ولدى سْلاڤيي الشمال ـ أظهرت للغربيين كم هي جماعتهم متميزة عن الآخرين . وفي نهاية القرن التاسع ، كان الإنسان يعد غربياً ، أكثر من الماضي ، بمقدار ما هو مسيحي متعلق بروما .

ويدرك الغربيون معنى هذا التعاون الذي دعمته المسيحية بفضل جهود الكارولنجيين وبفضل أعمال الأساقفة والكهنة والرهبان المعدِّين إعداداً أفضل من السابق ، لأنهم هم أنفسهم أصبحوا مسيحيين أكثر من أي وقت مضى . وما بين مطلع القرن السابع ومنتصف القرن التاسع ، مع بعض التحفظ ، كانت غالبية الشعب في الغرب تقريباً ، حول الساكس وفريزا ، منظمة من قبل السلطات السياسية والكنسية ومؤطرة في أطر مؤسساتيه ـ الخورنيات ـ بحيث إن كل فرد يتلقى بطريقة ما طبيعية ، سر العماد ويدفع العشر يُدْفَن مشيَّعاً ببعض الصلوات الطقسية . وفوق ذلك ، لقد اضمحلت العبادات الوثنية وتلاشت الممارسات الوثنية أو تنصَّرت بإدخال بعض العناصر المسيحية على طقوسها ومحتواها . أما بالنسبة إلى الخرافات والمواقف الناتجة عن انطباعات متوغلة في أغوار النفوس منذ العصور القديمة إذا استمرت حية ـ الكثير منها اصطبغ بالصبغة المسيحية ـ فهي تنم عن التطفل والقلق اللذين نكتشفهما في كل مكان ودائماً ممتزجين بالأحاسيس الدينية الناضجة والواعية . بالمقابل ، فإن المعطيات الأساسية للإيمان المسيحي ، أي العقيدة ، تظل غير مستوعبة جيِّداً ، إلاّ من قبل قلة من الكهنة والرهبان الذين تلفت انتباههم بعض الأدلة اللاهوتية العقائدية والتأمل في الأسرار . ولم تكن التقوى معدومة بين السواد الأعظم من الناس ولكنها لم تكن مسلكاً عاماً . وإن الالتزامات الأخلاقية التي

ينوّه بها في الخطب الدينية والمواعظ والتي تتجلى في تصرفات أنبياء العهد القديم والقديسيين تتغلغل في العادات بالرغم من أن ذلك يصعب تحديده . ومع ذلك يتفق المؤرخون على الاستنتاج أنه في القرن التاسع كان المفهوم المسيحي للزواج معروفاً من قبل السواد الأعظم وقد بدأ تطبيقه : الزواج هو سر يُلزِم كل زوج بالأمانة ، فلا يمكن أن يلغى ، لذا يجب أن يتم بحرية من قبل أي من المتعاقدين ويجب أن يحترم بعض الإلتزامات . ويبدو أن الزواج من خارج العائلة أصبح قاعدة رائجة وأن العائلة القليلة العدد كانت تفرضه على نفسها لأنها بحاجة إليه . ولكن لا يمكننا أن نذهب في التحليل أبعد من ذلك . لقد ظل عدد كبير من عقود الزواج تقرره وترتبه العائلات ولا تحترم ، إلا بطريقة غير مباشرة ، قانون الموافقة المتبادلة . ولم يتلاشَ التسرّي دون عقد زواج ولو أنه أصبح قليلاً . وإن الاحتفاظ بخليلة ، والحياة المشتركة مع امرأة أخرى غير الزوجة ، حتى في الطبقة الارستقراطية ، لم يكونا من المظاهر الشاذة . لقد كان هناك مخطط تطور داخلي في العائلة ولكن دون أن يغيِّر التنظيم الإجتماعي لذاك العصر .

فعلى أي حال ، كل هذه الوقائع مع تاريخ المرحلة تبرز النفوذ الطاغي للإكليروس ـ العلماني والنظامي ـ على المجتمع . ومع إجراء تنظيم الأفراد والعائلات بدأت هيمنة ستدوم طويلاً ، لقد استقرت واستمرت تلح على كل إنسان التزامات عليه التقيد بها ليبلغ الخلاص ، وتصدم كل إنسان بتذكيره الدائم بالعقاب الأبدي الذي يسبب الهلع والاستسلام . ويركز المؤرخ روبير فوسْيِيْه مع بعض المؤرخين الآخرين على هذه القدرة الخارقة التي تسمح للكهنة « بإقناع أكثر الناس بتحمل نكبات الدهر وبلاياه » . فإذا كانت الملاحظة في محلها وإذا سمحت ، ابتداءً من هذا الوقت ، بذكر أهمية الكنيسة الكاثوليكية وإكليروسها في تكوين الغرب وأوروبا ، يجب ألاّ نسيء تفسيرها ، وذلك بأن نعزو لرجال الكنيسة ، لكل منهم ، وللسواد الأعظم منهم ، الرغبة المتعمدة في الهيمنة على الآخرين وفي استخدام الدين لترسيخ هذه السلطة القسريّة . في الحقيقة ، لقد سعى هؤلاء الأساقفة وهؤلاء الكهنة إلى ترسيخ إيمانهم وتحسين ممارستهم ، ولكن بعد أن ساعدتهم السلطة السياسية واستغلوا المهمة التي كلِّفوا بها أصبحوا تلقائياً من أصحاب النفوذ والسلطان ومعرضين للسقوط في التجاوزات . إن كل مجتمع تشغل فيه الظاهرة الدينية مكاناً بارزاً أو تطرح مسألة الحياة الأخرى . فالذين يطمحون إلى دور ـ مقدس ، سحري ـ

يعلِّم كيفية بلوغ العالم الآخر ، يمارسون على الآخرين سحراً يصل بهم إلى الضلال الطاغي ويمنحهم في نظر المؤمنين احتراماً استسلامياً .

النهضة الكارولنجية

تؤدي الدينامية الدينية إلى تجديد في النشاطات الفكرية والفنية تعمدتها السلطات السياسية لمصلحتها ومصلحة الكنيسة ، ويرى پيپان لو بريف وأكثر منه شارلمان أنه يجب أن يكون في تصرفهما ، لحسن سير العمل في الدولة ، جهاز إداري تلقَّى ثقافة رصينة ؛ أما بالنسبة إلى الإكليروس فيجب أن يكون الكهنة والرهبان مثقفين ، ولكنهم ، في الحقيقة ، لم يكونوا مجددين في مشروع كهذا ، لقد جرت على مدى القرن السابع عدة مبادرات ومحاولات بهذا الخصوص . ولكن بفضل سلطانهم وفعاليتهم وبفضل الكثير من الأساقفة ورؤساء الأديرة الذين استوعبوا الفكرة ووافقوا عليها ، حظيت المبادرة ببعض الانتشار .

كان الهدف الأول ، إذاً ، هو تثقيف رجال الدين وذلك لخدمة الدين في الدرجة الأولى . ومن أجل تحقيق هذا الهدف وضع أَلْكُوانْ ، مدير أكاديمية النظام الرسمية ، مدرسة بلاط إكس ، برنامجاً طبِّق في جميع المدارس : تهتم المرحلة الأولى منه بالقراءة والكتابة والترتيل وضرورة معرفة اللاتينية جيِّداً ـ الأمر الذي يتطلب بعض الوقت . ثم في المرحلة العليا ، التمرّس بالفنون الحرة واكتساب أساليبها والتعرف إليها . هذه الفنون الحرة هي الفنون الثلاثة ، أو الثلاثية ، وهي : قواعد اللغة والخطابة والجدلية (الديالكتيك) . ثم الفنون الأربعة ، أو الرباعية ، وهي : الحساب والهندسة والموسيقى وعلم الفلك . ولكن الاهتمام كان ينصب على الفنون الثلاثة : أي على التضلع من اللغة وجودة التعبير وطريقة التفكير . ويؤكد أَلْكُوانْ أنه ، بالنسبة إلى قواعد اللغة ، يجب قبل كل شيء استخدام كتاب دونا (Donat) ـ عالم لغوي لاتيني ـ الذي كان آخر مؤلِّف ضخم في العصور القديمة ، وأن دراسة الخطابة يجب أن تعتمد على كُونْتِلْيَانْ[1] (Quintilien) ؛ أما بالنسبة إلى الجدلية فيجب الرجوع إلى المؤلفين القدماء كما إلى إيزودور الإشبيلي . ولكنه لم يهمل الفنون الأربعة ، ويبين فائدة علم الفلك ، ويصرِّح أن لكل هذه العلوم غاية في

---

(1) مدرس بيان لاتيني (30 ـ 100) (م) .

النظام التربوي الذي يقترحه ، هي الفلسفة المسيحية التي تندمج ، في جوهرها ، بالجدلية وتسمح لخير العقول بتصور تفسير إجمالي للكون واللّه والإنسان انطلاقاً من المسيحية يضاهي في شهرته ما فعله فلاسفة الإغريق في العصور القديمة ، وكتب إلى شارلمان ما نصه : إن أثينا جديدة يمكن أن تنشأ في فرنسا ، أثينا أجمل من القديمة ، لأن التي سنؤسسها نحن والتي تشرّفها تعاليم السيد المسيح ستتخطى كل حكمة أتت بها الأكاديميا . وبالرغم من أنها تثقفت بالفنون السبعة الحرة فلم تترك ما يتألق . أما « أثيناتنا » ستكون ممهورة ، بالإضافة إلى ذلك ، بفيض الروح السباعي الشكل وستتفوق على كل أمجاد الحكمة الزمنية .

هذا البرنامج الفائق الطموح لم يحقق بكامله ، فهيهات ! غير أنه أدّى إلى إنشاء شبكة كثيفة من المراكز الفكرية والنوادي الثقافية اندمج فيها أولاً عدد لا يستهان به من الأديرة البنديكتية ، وذلك ، من جهة ، لأن رهبان القديس بِنْوا كانوا منذ مرحلتهم الأنغلوساكسونية ، يعلقون أهمية كبرى على تنشئتهم ولأنهم يجب أن يتثقفوا لكي يبشروا بالإنجيل . ومن جهة ثانية ، لأن شارلمان أراد أن يكون لكل دير نشاط من هذا النوع . أما بعد انتهاء ولايته ، فإن الإصلاح الرهباني الخاص بالقديس بنوا الأنْياني ، الذي أراد أن يفرض على الرهبان الإنفصال عن العالم الخارجي ، قد أضرَّ ، من وجهة النظر هذه ، ببعض الأديرة بالرغم من أن مقررات المصلح لم تكن دائماً محترمة وأن هذا لم يستبعد أبداً دعم المدارس الداخلية لتعليم المبتدئين ، وحتى دعم المدارس الخارجية التي تستقبل طلاباً آخرين في المؤسسات الأكثر شهرة ، وإلى جانب الأديرة كانت كاتدرائيات عديدة ومجالس كهنة تشرف على المدارس . وبالإضافة إلى ذلك ، لقد تأسست في بعض الكنائس مشاغل لصناعة الكتب ـ نسخ المخطوطات الخاصة بمؤلفي العصور الكلاسيكية القديمة والمسيحية أخرجت بخط أنيق ومقروء بالحرف الكارولِيني الصغير ، وأنشئت مكتبات عامة عرف بعضها بغناها بالمخطوطات ، اشهرها مكتبة سان ـ غال التي كانت تحتوي على الكثير من المؤلفات الخاصة بالكتاب المقدس والليتورجيا والتي تتحدّث عن آباء الكنيسة (غريغوريوس الكبير ، أوغسطينوس ، أمبروسيوس ، بروسپير ، إيزودور ، يوحنا فم الذهب ، غريغوريوس النازينزي وأوريجينوس) وكتب حقوق وكتب تتحدث عن أخبار القديسين وحياتهم وأعمال النحاة (دونا ،

بريسيان) ومؤلفات ڤرجيل وهوراس وجوڤينال ولوكريس وماسيال وأوڤيد . .) . وفي ليون كانت مجموعة المؤلفات الآبائية تفوق حتى السلسلة القضائية والأدب الكلاسيكي التي كانت قليلة ، وكذلك كتب شيشرون (والغريب أنه كان في الدرجة الثانية في سان ـ غال ، وربما كان ذلك صدفة) ومارسيانوس كاپيلا .

ولكن الشبكة الثقافية المرتبطة بالمؤسسات الإنكليزية التي كانت ناشطة (يورك) وببعض المراكز الإيرلندية وجنوبي إيطاليا (سالِرْنْ) لم تبلغ الكثافة نفسها في جميع الأمكنة . وحوالي منتصف القرن التاسع أسست شبكة متماسكة في المناطق الواقعة شمالي اللوار حتى وسط ألمانيا (ريمس ، لاوون ، باريس ، كوربيا ، سان ـ ريكْييه ، سان ـ مارتان دوتور، فِيْرِيرْ ـ أون ـ غاتينِهْ ، أورليان ، لُوْرْشْ ، كولونيا ، ماينْسْ ، فولدا ، كورڤي ، رَيْشْنو ، سان ـ غال . .) . ووراء ذلك ، كانت إيطاليا تمتلك مراكز تعليمية وثقافية ناشطة : پاڤيا ، بُوبيُو ، ڤيرونا ، ڤِيرساي، verceil، بريشيا، راڤينا، روما. وبالمقابل، كان في المنطقة الواقعة بين جنوبي اللوار والپيرينيه، شيء من الفراغ، باستثناء بعض البيوت الثقافية (ليون، مدن اللانغدوك الساحلية، كاتالونيا).

لم يكن تثقيف الكهنة ، الذي عاد بالنفع على الإدارة المدنية ، لأن الكثيرين من الموظفين والمعتمدين انضموا إلى أعضاء الإكليروس ، لم يكن هذا التثقيف هو الهدف الوحيد لشارلمان وأعوانه ، كان من الأهداف إعطاء جميع المؤمنين ، حتى أكثرهم تواضعاً ومسكنة ، تنشئة دينية . وشاء الإمبراطور أن يؤسس الكهنة مدارس للأولاد في القرى وفي الدساكر لتلقينهم المزامير والتراتيل وحساب الأعياد وقواعد اللغة . وفي النصف الأول من القرن التاسع رغبت المجامع الأسقفية في تور وفي تروا (Troyes) وسواسُون في إيجاد هذه المدارس الصغيرة ، وخططت لكي يتوصل جميع سكان الإمبراطورية إلى فهم اللاتينية لكي يتسنى لهم فهم العظات الدينية التي كانت تلقى بهذه اللغة . بالطبع لم يتوصلوا إلى هذا الحد ، وكانت المدارس الريفية نادرة جداً كما كانت عليه مدارس المدن (باستثناء إيطاليا) غير مرتبطة بالكاتدرائيات ومجالس الكهنة والأديرة . وعلى العكس من ذلك فإن تعليم أولاد الطبقة الأرستقراطية بفضل المدارس الإكليريكية والأديرة . وأحياناً على يد مدرسين خاصين ، لم تكن مهملة . كانوا يلقنون بالدرجة الأولى علوماً أخلاقية فَيُشْرح لهم ما

هي الفضائل وما هي الرذائل ويوَجُّهون نحو الممارسات الصالحة مع الإلحاح على قدسية الزواج والحياة الزوجية . وكان التعليم يترافق ـ على نطاق واسع ، مع السعي إلى تطور روحي وتعميق الإيمان . وكانوا ، في الوقت نفسه ، يطمئنونهم بخصوص الوظائف التي سيمارسونها في المجتمع وكانوا يرسخون في أذهانهم أن هذه الوظائف مطابقة للنظام الذي يريده الله وأنه ليس من تناقض ، مثلاً ، بين الممارسة القاسية للسلطة العامة أو العنف الضروري للحرب وبين الحياة المسيحية .

إن المجهود الفكري والتربوي يستهدف قبل كل شيء الطبقة الأرستقراطية ، أرستقراطية الكنيسة (لأنه لكي يكون ، بل قبل أن يكون هناك كهنة مثقفون ، يجب أن يوجد أساقفة مثقفون) وأرستقراطية المجتمع العلماني . ويترجم هذا الجهد أخيراً بنتاج على شيء من التنوع يعكس إلى حد ما النوايا الأولية . فمن ناحية ، مؤلِّفون ومؤلَّفات تهتم بالشؤون الروحية والتربوية ، ويتسع المجال الديني إلى القطاع السياسي عن طريق البحث في السلطة وبتكديس النصوص القضائية ، ومن جهة أخرى ، كُتَّاب وكتب أكثر اهتماماً بالأدب : شعراء ومدوِّنو أحداث ومؤرخون خاصة) ولم يتقدم الفكر الفلسفي واللاهوتي : وحده جان سكوت أريجين الذي قصد بلاط شارل لو شوف (الأصلع) بحدود سنة 845 يستحق أن يعتبر مفكرًا عميق التفكير وعالماً كبيراً . وفيما عدا ذلك يمكننا أن نذكُر ببعض الكتَّاب الكبار الذين كتبوا بلغة لاتينية أنيقة إلى حد ما : بعد أَلْكُوانْ ، لو دو فيريير (Loup de ferrières) ، أغوبار ، هِنْكمار ، رابان مور ، يأتي « المؤرخون » إيجنهارك ونِتْهارْدْ والشعراء أَنْجِلْبير ، إِرْمولْدْ ، وَلاَفْرِيدْ سترابو . .

من مؤلفات هذا العصر وكتاباته تنشأ ثقافة لاتينية مسيحية بجوهرها . كل شيء يستند إلى اللغة اللاتينية . وأولى فضائل النهضة الكارولنجية هي أنها جددت في الغرب لغة لاتينية موحدة ومتماسكة نسبياً ونقلت إلى الأجيال التالية ليس هذه اللاتينية القابلة للتبدل والتقهقر ولكن المؤلفات اللاتينية الكلاسيكية التي لولاها لما حدث تجديد ، ولولا إعادة كتابتها وإعدادها لما كانت الحضارة الغربية التي عاشت في العصور التالية كما هي عليه . غير أن النماذج التي استخدمت حينئذٍ (شيشرون ، سَالُوسْتْ ، فِرْجيل ، أوفير) تعطي ثقافة القرن التاسع طابعاً أدبياً أكثر مما هو فلسفي . وفضلاً عن ذلك ، فإن الجهد الذي بُذِل أدَّى إلى معرفة أعمق وفهم

أفضل للدين المسيحي وإلى تأسيس جهاز لنشرها بطريقة أفعل ، وباستخدامه الكتاب المقدس كثيراً من أجل التعليم والتربية ـ من هنا تأثير العهد القديم على الشعر ـ عمل على تكوين ثقافة مسيحية بحتة تفهم النشاطات الفكرية كوسيلة روحية تسِم الغرب المسيحي في أعماقه . لقد نجح الكارولنجيون من هنا ، في إعداد ثقافة شمولية قيمة أي معدَّة ومفيدة لجميع سكان الإمبراطورية والغرب وقادرة على مساعدتهم طبقاً لقوانين الدين المسيحي وعلى تحديد مواقف عامة لمواجهة مشكلات الحياة : والمعاصرون أو على الأقل أولئك الذين كانوا على شيء من المعرِفَة أدركوا هذه الشمولية التي خلقت تعاوناً بين الجميع أعطت الجماعة المسيحية ، خاصة ، إرادة تأمل وتفكير لولاهما لكان التلاحم المسيحي هشاً سقيماً . وبكلمة أخرى على مؤرخ النشاطات العقلية أن يلحظ أنه من هذه النهضة الفكرية وليس فقط من البنى السياسية أو حتى من تطورات المسيحية ، بدأت تتغلغل في العقول ، بشكل مشوش وغير دائم ، فكرة توحيد ممكن ووحدة حقيقية للغرب ، من خلال تعابير مثل : إن هذا الغرب يتميز عن العوالم الأخرى غير اللاتينية وغير « المُلَيْتَنَة » أي أوروبا .

إن طفرة فنية ما ، كالتي تحتاجها كل الأنظمة الفاعلة في التاريخ ، ترافق النهضة الفكرية وتؤكد طابعها المسيحي . غير أنّ هذه الإنجازات كانت متنوعة بحكم التقاليد المحلية المتجذرة منذ زمن بعيد في الأخلاق والمشارب ، هذه العادات الأكثر اندماجاً في حياة الشعوب الجرمانية والتأثيرات المتنوعة التي تفعل فعلها بطرق عديدة تصدر عن منابع أساسية ثلاثة هي : الفن المعماري الروماني والفن المسيحي القديم والفن البيزنطي . وكان فن بناء الكنائس يتجه أكثر فأكثر نحو التصميم البازيليكي[1] ربما لأن ذلك كان أسهل من الناحية التقنية ، غير أن الاستثناءات كانت كثيرة ومن أشهرها كنيسة البلاط في إكْسْ التي صممت بشكل دائري . ولكن في أكثر الأحيان تكون الكنيسة بناء مربعاً مقسماً من الداخل إلى أجنحة مفصولة بأعمدة ومتصلة عند أحد طرفيها ببناء آخر مربع الشكل متعامد معها وهو أقصر منها وأضخم وأعلى ويشكل الجناح المصالب . والممرات من أحد الأبنية إلى الآخر خاصة من الجناح الأوسط باتجاه الذراعين تكون عادة ضيقة . وخط

(1) البازيليك : بناء مربع مقسم إلى أجنحة متوازية (م) .

الالتقاء مفتوح على صدر الكنيسة (الخورس) المختلف العمق والمربع الشكل أحيانا وأحيانا مستدير . وفي بعض الكنائس يبنى صدر (أو عجز) عند الطرف الآخر من الجناح (في الجهة الغربية) وذلك مراعاة للتناظر أو تلبية لحاجات ليتورجية وفوق خط الالتقاء أو الصدرين تبنى أبراج وأحياناً قبب ؛ وخلال القرن التاسع بدأ الجناح المصالب يندمج أكثر فأكثر بالبناء الأساسي ويذوب فيه . ولكونه مفتوحاً على الجناح فلا يكاد يرى من الخارج . ويكبر الخورس ويظهر الرواق وتكثر المصليات أو المذابح الجانبية . ويُجعَل قبو مدفني تحت المذبح لتكريم رفات القديسين والصالحين ، ويأخذ القسم الغربي حجماً أكبر .

وبالرغم من وجود زخارف متنوعة (جدرانيات وتبليط وفسيفساء) ، يتلاشى فيها التأثير المسيحي القديم ليحل محله موحيات تزويقية ، يظل ثمة فن كارولنجي حي يحمل إلى الغرب تصميماً جاهزاً للكنيسة اللاتينية الصليبية الشكل مع أجزائها المتميزة . غير أن الحضارة الكارولنجية تتخطى ، في المجال الفني ، هذه الإنجازات الوحيدة . إنها تبرع في فن صياغة الذهب (حلى وأيقونات وتماثيل دينية) وفي صناعة العاج والمعادن وفي فن الزخرفة الذي يعرف طفرة بارزة ، في نهاية القرن الثامن وفي بداية التاسع ، في مصانع رينانيا (وفي بلاط إكس إلى حد ما) وتزداد تألقاً في منتصف القرن وفي السنوات التالية من عهد شارل الأصلع (في ريمس وتور وميتز) وبلغ الإنتاج ذروة جماله وأناقته . وبالرغم من أنه كان في أكثر الأحيان متأثراً بتقاليد الشعوب الجرمانية ؛ فلا يبدو أنه في كل القطاعات يعتمد على مفاهيم مماثلة .

وإذا وضعنا ميزانية لكل هذه النشاطات ، يتبين لنا أنه في نهاية القرن الثامن وفي السنوات الأولى من القرن التاسع ، كان الغرب المسيحي متجمعاً بكامله تقريباً ضمن حدود الإمبراطورية الكارولنجية وموحَّداً بطريقة ما ، في ظل سلطة عليا غايتها المحافظة على هذه الوحدة ودعمها من أجل أن تتعايش معاً ، تبعاً لضوابط أخلاقية واحدة ورؤيا موحدة للحياة ولمصير الإنسان ، شعوب كانت قبل ذلك مختلفة ومتباعدة . وكان هذا التوحيد المؤسس على تعاليم تمجِّد السلطة العامة على المستوى الأخلاقي يعتمد على نظام مؤسساتي ثابت ومتماسك يوفِّر لهذه المؤسسات أن تعمل بفعالية ، وقد ازداد ثباتاً وتلاحماً بفضل نشوء ثقافة وضعت في الدرجة

الأولى في خدمة الدين الذي كان يشكل الرابط الأساسي بين الحكام والمحكومين وبين المحكومين أنفسهم .

وقد أدرك المعاصرون إلى أي حد كانت هذه الثقافة تجمعهم وتقربهم بعضهم من بعض ، وخاصة الأقوى بينهم والأغنى والأكثر علماً ونفوذاً ، هؤلاء الذين يشاركون فعلاً في النشاط السياسي وأكثر الأحيان في التنفيذ والقرار . ولقد شعروا - وربما فعل ذلك الآخرون الذين يصعب سبر شعورهم - بالحاجة إلى هذا التعلق بالإمبراطورية لكي ينقذوا خصوصيتهم أي ما يميزهم ، في سلوكهم وذهنياتهم ، عن الجماعات الاخرى « الغريبة » . وبهذا يعتبر المشروع الكارولنجي ، فعلياً ، كتأسيس لأوروبا ، أو بالأحرى بناء أوروبا ما ، « أوروبا الكاثوليكية » استناداً إلى ما قاله ر.س. لوبيز الذي يذكر كل ما يميز الشعوب المجاورة والشعوب المسيحية المتعلقة ، بطقوسها ، بالكنيسة البيزنطية (أرثوذكس المستقبل) ، وتشكل الجزر البريطانية فريقاً متفرداً ولو كان ينهل من الثقافة عينها .

تتخذ هذه العبارة معنى جغرافياً أكثر تحديداً ؛ لقد استعملها بعض المؤلفين ليعبروا عن المأثرة الكارولنجية . وفي عهد شارلمان يطلب الكاهن كَاتْهولْفْ (Cathulf) من الملك أن يشكر اللّه الذي منَّ عليه بالسيادة على أوروبا . وفي سنة 791 يدعوه الشاعر أنْجيلْبِيْر (Angilbert) « سيد أوروبا الجليل ، ملك أوروبا وأباها ، سيد العالم وتاج أوروبا » . وفي سنة 843 يصرِّح البابا لاون الرابع ، مقابلاً بين الكنائس اليونانية والتنظيم الكنسي في الغرب قائلاً بأنه يوجِّه عنايته إلى كنائس أوروبا ويقول نِتْهارْدْ (Nithard) سنة 858 إن الإمبراطورية هي أوروبا الغربية بكاملها .

بيد أنه ، إذا كان ثمة من حقيقة يدركها رجال الدين والمثقفون يتوجب علينا أن نستنتج ، أيضاً ، أن الصرح الكارولنجي الأوروبي قد ظل هشاً ، إلى درجة يمكننا التساؤل معها ما إذا كان الاستعمال الذي جعل ، حينذاك ، من عبارة أوروبا لا تنطبق فقط على مُعْطى جغرافي أكثر تمحيصاً - أي مجموعة إقليمية تؤلف نواة تنضم إليها أوروبا ، حتماً ، وبدونها لا يمكن لهذه القارة أن توجد - أو كذلك رؤيا مثالية عبَّر عنها بعض الكتاب ليكيلوا المدائح الكارولنجية أو ليشيروا مباشرة أو بلا وعي منهم إلى عدم الرضى أو إلى مرارة الفشل .

والحقيقة أن البنية الكارولنجية عانت منذ البدء مشكلات خطيرة ، والصورة التي أعطيت عنها كانت مغرقة في التفاؤل ، فقد تفككت إلى أجزاء محددة تراءت متينة غير أنها ، في الواقع ، لم تكن كذلك فعلاً ودائماً ، ولم يكتمل تنظيمها إلى حد يوفر عنده المجموع للفئات والأفراد حياة رخاء وانسجام . وقد رسمت إلى حد ما نموذجاً وعبرت عن طموحات أكثر ما عبرت عن واقع حقيقي . وحدث ، خلال بضعة عقود من السنين ، ما بين 780 و 820 ، نزوع نحو هذا النموذج إلى حد تمويه الثغرات . ولكن بعد سنة 820 أو بالأحرى 860 ـ 880 ذرَّت قوى التشرذم قرنها من جديد وبعنف ، فكانت لها الغلبة .

وهم وحقيقة

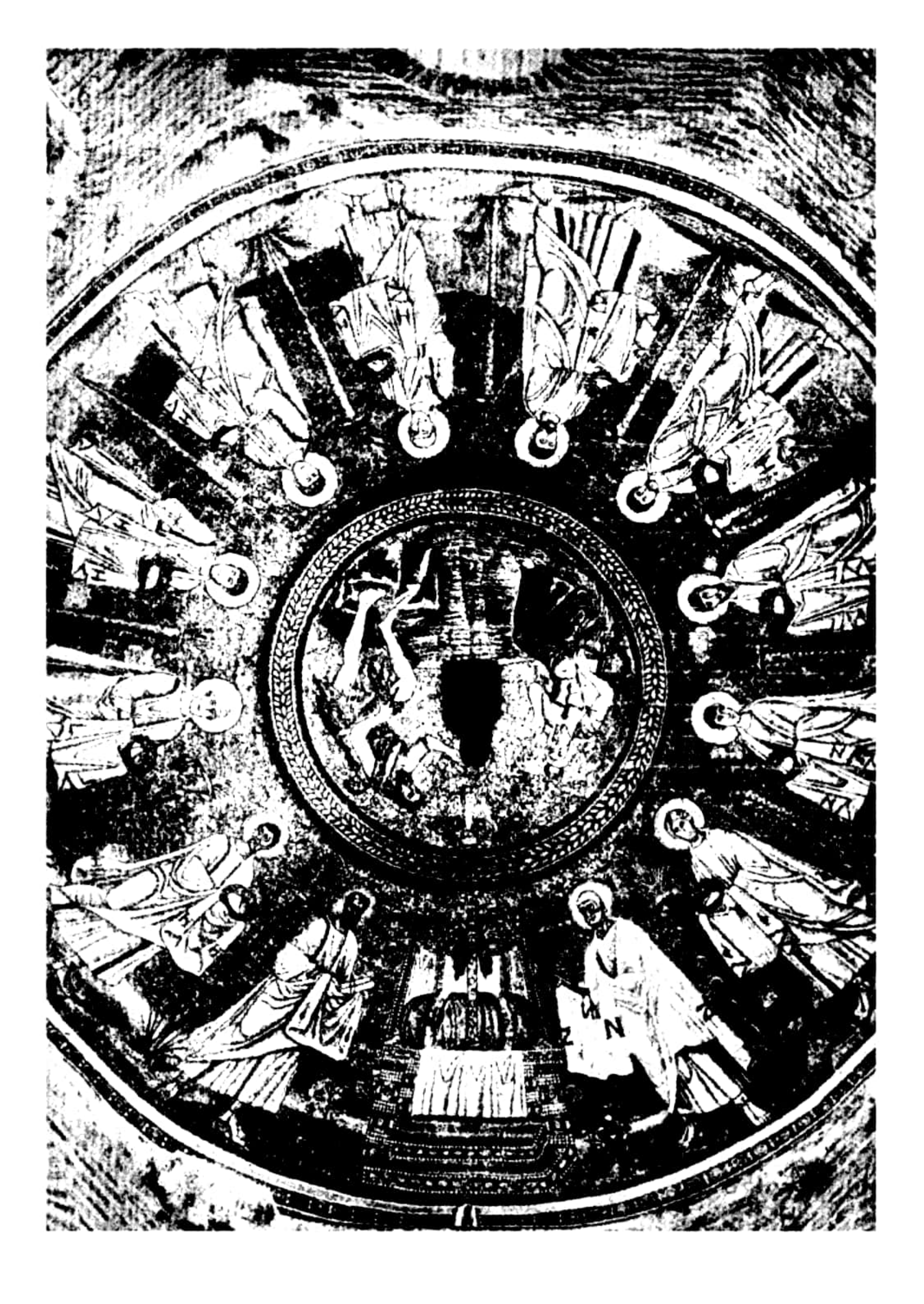
القوى المركزية النابذة

إن الإمبراطورية الكارولنجية هي إقليمياً مترامية الأطراف . لقد تألفت من بلدان مختلفة طبيعياً . وقيل إنها بإبعادها استغلق فهمها على أذهان رجال ذاك العصر ؛ تخطَّت مقاييسهم ، ولهذا كان من الصعب حكمها والهيمنة عليها ، فاضطر الإمبراطور والسلطة المركزية إلى أن يتركوا للمنفذين ـ الكونتات ـ حرية التقويم والقرار . وهذا هو السبب الذي من أجله ضاعف شارلمان وسائل إضعاف هؤلاء الزعماء المحليين (رسل الملك ، الحصانة ، القسَم) وعبَّأ ملاك الموظفين ، على الأخص من بين أقربائه وأصدقائه المخلصين له وبالرغم من هذه التدابير الاحترازية ، لم يكن من السهل ، مع إدارة كثيرة العدد ، موزعة على أرض مترامية الأطراف ، نظراً لوسائل إشراف الإمبراطورية عليها ، التأكد من أخلاصها وأمانتها واستقامتها ، حتى ومن أهليتها . والفرادة الأبرز في البنية الكارولنجية هي أنها أوجدت إدارة أكثر عدداً وانتشاراً من أن تستطيع قيادتها ومراقبتها وأعجز من أن تواجه اتساع الدويلات ووعورة المسائل التي تتطلب حلاً : إمبراطورية عاجزة الإدارة (بالرغم من الجهود المبذولة) بالرغم من أن الإداريين المحليين يتمتعون بحريات واسعة .

إن المهمة السياسية والإدارة هما من الصعوبة بحيث إنه ، وراء المظاهر الأولية ، لم يكن انصهار الاتنيات كاملاً . لإن المصهر الكارولنجي لا يعمل بشكل



17 - فسيفساء على قبر غالاّ بلاسيديا في رافينا. القرن الخامس ب.م



كامل . ويعكس أحد ألمع المؤرخين بين اختصاصيي ذاك العصر ، جـان دُونْدْتْ (Jan Dhondt) العبارة بقوله « إن طبيعة التنافر بين شعوب الإمبراطورية هي عامل تذويب الدولة الكارولنجية » . والحقيقة أن احتلال الفرنجة لغاليا وتوطيد سيادتهم في جرمانيا أديا إلى تقارب الإتنيات ؛ ولكن لا نستطيع أن نتجاهل أنه ، على مدى القرنين السابع والثامن لم تغب أعمال المقاومـة عن بعض المناطق فتـطلب ذلك عمليات قمع كلفت جهوداً دؤوباً من قبل القادة المسؤولين . وبالرغم من الجهود المبذولة بقيت بعض الخصوصيات : في أكيتانيا وفي پروڤانس حتى في بورغونيا ، وفي كل منطقة نسبت إلى الشعوب الأخـرى صفات مسيئـة . هذا مـا فعله كتّاب الفرنجة عندما تكلموا على الأكيتانيين ، والساكسونيون عندما تحدثوا عن الباڤاريين . وأكثر من ذلك لقد استمر التنافس وسوء التفاهم بين الفئات المقيمة شرقي الراين وتلك المقيمة إلى الغرب منه في حين أن النهر لا يشكل لا تخماً لغوياً ولا حاجزاً عرقياً . والأمر نفسه ينسحب على الشعوب المستوطنة على جانبي جبال الألپ .

في الـواقع إن الانصهـار العرقي لم يعنِ سـوى فئة الـطبقة الأرستقـراطية ، وحدها ، تلك الفئة التي بفضل ميزتها الفرنجية الأصيلة ، المباشرة أو المكتسبة عن طـريق المصاهـرة ، اندمجت بـالسلطة وتمتعت بالقـوة ، وعندمـا نبتعد عن هـذا « الحزب » تبرز تناقضات وعداوات ، وكثيراً ما تظهـر بين أقرب الأنصـار والخدم وتفسـر ، مثلاً ، بعض أعمـال التمرد الكـونتيـة في عهـد شـارل الأصلع ولـويس الجـرماني . على أي حـال ، فبعض الأفراد والعـائلات المغلوبـة على أمـرهـا ، والمغتصبة ربما ، ولكنها ليست عارية عن كل نفوذ ، ابتعدت عن هذه الأعمال ولم تشـارك فيها . ويـلاحظ المؤرخ ، على المستوى الإقليمي ، أن الاتحـاد الـوثيق والحميم الذي يشمل شيئاً فشيئاً الطبقة الأرستقراطية بكاملها ، قد اكتمل بين فرنجة أوسترازيا وفرنجة نوستريا (مع أن ذلك لم يكن واضحاً في المناطق الغربية والجنوبية لهذا القطر) وبين بورغونيي الشمال والألمان . هذا الاتحاد خلق بلداً على شيء من التماسك ، البلد الأفضل إدارة الذي يشمل الأرض الكارولنجية الحقيقية الممتدة من السين إلى الراين ؛ أما خارجه أي في أكيتانيا وفي وادي الرون وعلى الأخص في ألمانيا وإيطاليا ، فتعيش الجماعات طبقاً لضوابط أخرى وبنى أخرى .

ويسمح لنا التحليل الإقتصادي بكشف بعض التناقضات . فمن جهـة ، إن

التنظيم النموذجي للأملاك الريفية ، الذي لم يوطد بشكل كافٍ لا يوجد إلاَّ في المناطق الواقعة بين السين والراين . أما في المناطق الأخرى فيجري العمل تبعاً لقوانين مختلفة تجعل من احتياطي السيِّد من الأملاك مركز إدارة تجبى فيه مختلف العائدات دون أن يكون هناك نظام جماعي للعمل كالذي يتم بشأن السخرة . وينشأ التباين عن ممارسات سابقة رضي بها الجميع وعبثاً تصدى لها التشريع الكارولنجي ، كما يلاحظ هذا التباين في المشاريع الخاصة . ومن جهة أخرى ، مهما كان من أمر الملكية الكبيرة فإنها تبقى ، من الناحية الإقتصادية في حالة مثيرة من العجز : فلا تسمح عائداتها بالقيام باستثمارات جديدة وتنمية رأس المال ، فهي لا تقدم أي فائدة لمالكها ولعائلته أو للفئة المقربة منه . إنها تعطي فقط ما يكفي لعيش اليسار وتوفر للفلاحين والعمال ما يكفيهم من القوت بعد أن يكون السيِّد امتص منها ما يكفي حاجاته اليومية ـ استناداً إلى عبارة ر. فوسْيِيه (R. Fossier) . فالعمل غير المُثاب وغير المثيب لا يوفِّر سيولة : « لا مال ، لا عدة ؛ قليل من العدة ، لا فوائد ؛ هذه الحلقة المفرغة تسمم الإقتصاد . إنها تُدخِل إلى الريف وسواس الجوع والمال ، رمز التعاسة . . لأنه يقترن بفكرة الديون » . وهكذا يظل القروي خاضعاً (لجبروت الطبيعة) . وإذا أضفنا إلى ذلك أن النظام يؤدي إلى خطأ في الانتاج وفي توزيع المحاصيل ، جغرافياً واقتصادياً ، ولم يكد يصحح هذا الخطأ باستئناف حركة تجارية ضعيفة ، حتى يتبيَّن عجزه .

وأخيراً فإذا أدى نشوء المقايضات إلى تكوُّن فئة جديدة من التجار تعمل في التجارة الإقليمية والمحلية فلقد وُضِع هؤلاء التجار خارج الجماعة ؛ وكالإتنيات المنشقة ظل متعاطو التجارة هامشيين وغرباء بحكم أنهم ليسوا على صلة بأشغال الحقول وظهروا كأنهم يمارسون نموذجاً آخر من العمل وأنهم يشكلون نموذجاً مغايراً في المجتمع . ولهذا السبب ولأسباب أخرى غيرها تجمعوا في المدن حيث يكثرون في شوارع وأحياء مستقلة ، وقد ألِفوا على انفراد تجمعات سكنية استقلوا بها دون سواهم . وتكلفت عزلتهم حاجزاً اجتماعياً قوياً حيث يلاحظ أرستقراطية الموظفين وأصحاب الأملاك الكبيرة والفلاحون والتجار . وكانت هذه العزلة واضحة حتى في المناطق القليلة الانفتاح على النظام الكارولنجي الذي يضع القرى بعضها إلى جانب بعض دون أن تقوم أي علاقات فيما بينها ؛ وذلك عن طريق نظام العزبة (سيِّد

وعمال يعيشون في إطار نفوذه) كل هذا يحد من آفاق سكان العزبة ويسيء إلى تشكيل جماعة سياسية متوازنة اجتماعياً مع تدعيمه لقوة الطبقة الأرستقراطية .

وكانت العوائق قوية في كل هذه القطاعات . فمن أجل تخطيها ومن أجل منع القوى الإنفصالية من التأثير عليها تأثيراً خطيراً يحتاج الأمر إلى سلطة اتحادية قادرة . وقد بدا شارلمان ، ربما ، على مدى عدة سنوات ، وكأنه تلك السلطة الفعَّالة . ولم يكن ذلك سوى وهم من الأوهام ، فقد اعتبره هكذا فريق من معاصريه ظنوا ، بسبب نجاحه ، أنهم يرون في ذلك ويلمسون توحيداً للغرب . بيد أنه منذ عهد لويس التقي دعَّم نفوذُ بعض مستشاريه المغالين في الحماسة للإمبراطورية ـ أي وحدة أوروبا ـ والذين ضغطوا لتوطيد نظام وحدوي وليس اتحادي ، دعم نفوذُهم المواجهة بين السياسة المتبعة والواقع . هذا الجهد الوهمي الأرعن المشوب بمقاصد فئوية خفية أدّى خلال عدة سنوات إلى إضعاف السلطة المركزية وشلِّها . وقد تكشفت حينئذٍ الحقيقة الوحيدة التي راحت تفرض نفسها أكثر فأكثر ، حقيقة لم يكن للدولة الكارولنجية من الوسائل ما يكفي للحد من هذه التناقضات أو للتوفيق فيما بينها بقواها الخاصة وإيديولوجيتها ، وذلك نظراً إلى عجز في الإدارة لمواجهة اتساع أراضيها وتنوع شعوبها . وإن التطورات التاريخية الحقيقية ليست رهناً بعمل إنسان فرد أو بمجموعة أفراد ، إنها تتم في العمق وما يمكن أن يفعله الفرد هو فقط تسريعها أو تأخيرها ولا شيء غير ذلك .

الإيديولوجية المزيفة

كان للدولة الكارولنجية ، كما رأينا ، إيديولوجية دينامية وكان على الملك ، استناداً إلى هذه الإيديولوجية ، مهمة القيام بقيادة الشعب ، الذي أوكل اللّه إليه حكمه ، إلى الخلاص ، ونشر المسيحية بين الشعوب التي لم تعرفها بعد أو التي لم تفهمها على حقيقتها . فهذه هي الغاية التي تبرر السلطة التي يمارسها الإمبراطور على قارة بكاملها وعلى شعوب مختلفة ومن أجل بلوغ هذه الغاية اختاره اللّه (ورفعه إلى أعلى سلطة في أعين الناس بواسطة التكريس) . ولكن مع الأسف ، فلئن أُسنِد إلى السلطة الملكية أمر هذا الهدف المحدد الذي يصر عليه الأساقفة في عهد لويس التقي ، لقد انتزع منها صفة كونها ذات نوعية خاصة .

في الواقع ، لكي تكون الدولة قوية وفعَّالة ، عليها ، بشكل عام أن تتبنى هدفاً

خاصاً يلازم الغاية التي تقوم على تشكيل السلطة العامة وتنظيمها من أجل مصلحة الجميع . ولا تكون السلطة فعالة إلا إذا كانت مصلحة المجموع تفرض عليها أن تكون قوية ومستقلة . وإن ما يُعْلي من شأنها هو إما السعي إلى سيادتها الخاصة (وهي هنا سيادة الإمبراطور) وإمَّا رغبة المجموع في أن يُحْكم من أجل مصلحته . والحال أنه في عهد لويس التقي ، أثير شك حول ما إذا كان الحاكم الأعلى يملك السعي إلى تقوية سلطته أوَّلاً ، وقد تم الإتفاق على أنه يمكنه أن يفعل ذلك من أجل أن يكون أكثر نفعاً للدين وأن يكون ، فوق ذلك ، أهلاً لتقوية سلطته ـ أما في عهد شارلمان فلم يكن يحسب أي حساب لهذه الفوارق الطفيفة التي لم تكن ، على أي حال ، تحظى بموافقة الإمبراطور ، وكذلك لم يكن مجموع الشعب يدرك بوضوح تلقائياً ، أين تكمن مصلحته . وكانت القوى العلمانية تعتبر ولا شك أن هذه المصلحة توجد أوَّلاً في قوّتهم وفي الإمتيازات التي يمارسونها . ولكن الكنيسة هي التي هبَّت ، بكهنتها ورهبانها ، تنفخ في الصور وتقرِّع الناس تحثهم على أن يدركوا ، شعورياً أو لا شعورياً أن الخير الأسمى هو الخلاص لكي يعيشوا على هذه الفانية تبعاً للضوابط التي توصلهم إليه . وليس على الإمبراطور والملوك من عمل سوى تطبيق هذه الضوابط عندما يمارسون سلطاتهم . هكذا فهمت سلطتهم التي يجب أن تكون قوية والتي تكتسب على هذه الأرض قوة سياسية . فليس للسلطة أن تتقوى على حساب السلطة الملكية . ويستنتج من ذلك أن الدولة التي هي المعنى المجرد للحياة السياسية والمدنية وحقيقتها توشك ألا تكون مبنية على شيء .

والحقيقة أنه في المحيط السياسي ـ الديني للقرن التاسع ـ الذي كثيراً ما يوصف بالأوغسطينية السياسية بحكم أن وصف المدينة الأرضية المهاجرة إلى هذه الدنيا بصورة ناقصة ومشوهة للكنيسة الظافرة ، وصل إلينا عن طريق كتاب « مدينة الله » للقديس أوغسطينوس الذي فسِّر خطأً ـ لم يتعرض شارلمان إلى إزعاج من نوع خاص . لقد استخدم الإيديولوجية لصالحه وأشغل النظام لخير الطبقة السياسية ، مراقباً ومعيِّناً ، نوعاً ما ، بطريقة مباشرة ، رؤساء الأساقفة والأساقفة ورؤساء الأديرة ومراقباً البابوية وجاعلاً نفسه وصيّاً عليها . غير أن برنامجه كان لا يهدف إلى التمجيد المطلق لسلطة الدولة . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لم تكن الكنيسة قادرة على أن تدعي لنفسها وحدها تحديد الخير العام (أي الخلاص) الذي كانت تراه في

ممارسة الفضائل المسيحية . وكانت ، إلى ذلك ، تخشى أن تتحول ممارسة السلطة العامة ، إذا كانت عاتية القوة ، إلى باعث على الخطيئة عن طريق الكبرياء والجشع . كل ذلك دفع برجال الدين إلى الإعتقاد ، في كل حين ، بأنهم مكلفون بمراقبة السلطة التي كان عليهم أن يمجدوها من أجل خدمة أفضل للقضية المسيحية ، وبأن يوحوا أو يوعزوا إليها بالقيام بأعمال تؤول إلى مصلحة الجميع وخاصة عندما أدركوا أن لديهم وسائل العمل وعندما أصبحت السلطات المدنية عاجزة . وقد صرَّح بذلك بوضوح تام الأساقفة في عهد لويس التقي وبعدهم البابا نقولا الأول . وبالنتيجة لقد وجدت سلطة الدولة مهددة بعجزها عن أن تمارس فعلياً وبأن تبقى معنى مجرَّداً لا يتحول إلى أي واقع ، وعاجزة عن التغلغل والتجذر في مجتمع المؤسسات التي تكتسب سلطتها وفعاليتها (طاعة المواطنين) من الواقع الوحيد الذي تمثله السلطة القضائية الحقيقية العامة .

ضعف الأطر الكنسية

إن وضع السلطة الزمنية دون السيادة الروحية وتكليفها مهمة دينية يلغي المجال الخاص بالسياسي دون أن يحطم اضطرارياً كل شكل من أشكال الدولة ، بل على العكس من ذلك ، على الأقل نظرياً ، يمكن أن يُطمَح إلى تنظيم متماسك للمجتمع يضطلع كل فرد فيه بمهمة محددة يقوم بها من أجل الخير العام وينجزها ضمن إطار إداري متين يحرِّك وفقاً لمناهج صارمة . وقد أتاح هذا الأمر بعث الإيمان والتزاماته بشكل أعمق إلى درجة حمل الأفراد والجماعات كافة على اتخاذ موقف موحد من مشاكل العالم والحياة . ومن أجل بلوغ هذا الهدف كان لا بد من أن تعود السلطة إلى السلك الكنسي وأن يكون له وسائل مادية وفكرية وأدبية تمكنه من قيادة المجتمع بكامله سواء بممارسته هو نفسه السلطة أو بطلبه ، من أجل إنجاز الأعمال التي يعتبرها ضرورية للخلاص العام ، المشاركة الكاملة لرجال السياسة مع تركه لهم استقلالية واسعة للقيام بالنشاطات الأخرى .

وكان موقف الإكليروس ، في القرن التاسع ، يقصي ، مع الأسف كل إمكانية تحقيق هذا الإنجاز . وكان السلك الكهنوني ضعيفاً على عكس ما توحي المظاهر . وكانت البابوية ، كما رأينا ، قد اكتسبت نفوذاً وسلطة أدبية لا تنكر في السنوات 860 ـ 880 ؛ وبالرغم من ذلك فلم تطمح إلى حكم الكنيسة مباشرة وكان عليها أن

تجسب حساب أسقفية فعّالة وقوية تعترف لها بامتياز خاص لأنها كانت هي التي ترسخ اتحاد جميع الكنائس . غير أنه في السنوات التالية وبسبب عدم استطاعتها الإعتماد على حماية الإمبراطور الفعّالة الذي تلاشى نفوذه بشكل خطير وتجاه تصاعد القوى المحلية ، انهارت وأصبحت موضوع تنافس بين العشائر . وفي سنة 882 اغتيل البابا يوحنا الثامن ، وأيد خلفُه حزبَ الكارولنجي أرنول[1] ضد دوقات سپوليت[2] وبعد وفاته سنة 896 أعاد البابا الموالي للسپوليتيين نبش جثته وأمر بمحاكمته من قبل مجمع أساقفة . وكان هذا بدوره ضحية عملية اغتيال ، وبعد صراعات عنيفة انتصر فيها السپوليتيون إلى يوم وقعوا فيه في قبضة العائلات الرومانية الكبيرة التي لم تقبل « بالغرباء » ، وقد اتفقت فيما بينها ، بعدما ادَّعت لنفسها عرش مار بطرس ، على أن تدير لمصلحتها الخاصة ولايات الكنيسة . وكان على رأس هذه العائلات تيوفيلاكْتْ الذي توصل فيما بعد إلى حكم روما . ولكن الأصح ، ابنته ماروزيا ، خليلة البابا ، هي التي كانت سيدة المدينة . وبمساعدة أعوانها وبتعيينها الأحبار أحياناً ، استطاعت أن تحكم حتى سنة 930 عندما ثار ابنها ألبريك وطردها من السلطة ، واتخذ لنفسه لقب « أمير الرومان وشيخهم » واستأثر رسمياً بحق تسمية رئيس الكنيسة . بيد أنه كان يهتم بترقية رجال الدين الجديرين بالاحترام . ويموت سنة 954 تاركاً كل سلطاته لابنه أوكتاڤيان بعد أن استقسم طبقة الأشراف الرومان بإيصال ابنه هذا إلى السدُّة البابوية وهذا ما تحقق سنة 955 ، وأصبح أوكتاڤيان البابا يوحنا الثاني عشر . وإذ كان عاجزاً عن مقاومة أخصامه ، وإذ ضعف نفوذه بسبب سوء تصرفه ، راح يطلب المساعدة والحماية من ملك جرمانيا .

هكذا ، ومنذ السنوات الأخيرة من القرن التاسع لم تعد البابوية تملك وسائل التحرك والقيام بالمبادرات ، لقد فقدت قسماً كبيراً من الإحترام الذي اكتسبته سابقاً ، وأصبح نفوذها محدوداً . أما الأسقفية فقد ظلت دائماً ناشطة وقوية ، وظلت لمدة طويلة الدعامة الأساسية للإمبراطورية وذلك لاقتناعها بأن الصرح الذي بناه الكارولنجيون يجب ألاَّ يتداعى لأنه الوسيلة الوحيدة لدعم ثقافة قائمة على الدين المسيحي ولتطويرها . غير أن تأثيرها بدأ يتراجع شيئاً فشيئاً . فهي ، من جهة ،

---

(1) Arnoul : ملك جرمانيا وامبراطور الغرب الإبن الشرعي لكارلومان .

(2) Spolète مدينة إيطالية في مقاطعة أومبريا (المترجم) .

تعاني انقسامات داخلية تضع الأساقفة وجهاً لوجه مع رؤسائهم المغامرين الذين يسهمون ، إلى ذلك ، بإقامة الحواجز بين الفئتين بقيادتهم أقاليمهم الكنسية بطريقة مستقلة دون أن يهتموا بما يجري خارجها ، ومن جهة أخرى انقادت شيئاً فشيئاً إلى معارك سياسية . وبالرغم من أنها أكدت مرات كثيرة أنها ستدعم الوحدة ؛ إلاّ أنها كانت تتحيَّز . وبعد سنة 843 ، تاريخ معاهدة ڤردان ، رضيت بالقسمة والإنفصال . ونشأ بعد ذلك أسقفية في كل مملكة ثم أسقفية في كل إمارة . وأخيراً أصبحت المهمات الأسقفية خاضعة لإشراف العائلات الأرستقراطية الكبيرة التي حلّت محل الملوك وتدخلت في تعيين الأساقفة ، وغالباً ، بين صفوفها وأنسبائها . إن ممارسات كهذه لم تؤدِّ بالضرورة إلى ترقية أحبار غير أكفاء ولكنها ليست تنطبق على القوانين ولا يبررها دعوة السلطة الزمنية المكلفة بقيادة الناس إلى الخلاص إلى تحمل مسؤولياتها أمام اللّه ، في حين أنه لا يمكن أن يدعو إلى ذلك إلا الإمبراطور والملوك . لقد خلَّفت هذه الممارسات منذ منتصف القرن التاسع ردَّات فعل وُجِد أحد تفسيراتها في مجموعة مستندات مزوَّرة لفقت لهذه الغاية « الأحكام المزيَّفة » التي كانت غايتها منع تخطي العلمانيين إلى المجال الكنسي . ومن الأمور ذات المغزى أن كتَّاب هذه المجموعة الملفقة ، لكي يضعوا حدّاً لما كانوا يعتقدونه سوء تصرف في تلك المرحلة واجهوا به السلطة البابوية (التي تحدد الأحكام بقرارات صادرة عنها) . وقد كانت عندئذٍ ذات سطوة ونفوذ . ومع الأسف فلم يعد للبابا ، في نهاية القرن ، أي وسيلة للعمل ، والأسقفية التي وضعت تحت الوصاية فقدت بدورها كل دينامية . وهذا ما يحدث أيضاً لرؤساء الأديرة في القطاع الرهباني حيث يظهر مصلحون أرادوا تحرير الرهبانية من المخططات الخارجية وتطبيق القانون البنديكتي ـ مثل حركة كْلُوني (Cluny) التي تأسست سنة 909 ـ لكن هذه المخططات كمخططات بعض الأساقفة الذين لم يقبلوا من جهتهم بهذا التورط ، تمَّت على الصعيد الديني فقط ولم توفر في تلك المرحلة أي دليل صالح لإعادة التلاحم السياسي .

تقصير حركة التنصير

كانت وحدة الغرب قد تحققت أو دُعِّمت لو استطاعت المسيحية التغلغل في أعماق المجتمع كما كانت الإمبراطورية تحاول أن تفعل ، إن ذلك كان مسعاها الأوَّل ، لكن مع الأسف فبالرغم من الجهود الحقيقية والعظيمة الأهمية ، يلاحظ أن

النجاح في هذا المجال ظل ، لفترة طويلة ، محدوداً . ففي منتصف القرن التاسع ـ أو بالأحرى العصر التالي الذي كان أثناءه المِلاك الكهنوتي يتراخى شيئاً فشيئاً ـ كان المؤمن العادي المتلقي سر العماد والذي يدفن حسب التقليد المسيحي ، يعرف الصلاة الربية وقانون الإيمان وكان يشارك في قدّاس الأحد ويصغي إلى المواعظ الدينية التي كانت غالباً تشرح الإنجيل وتعلق عليه وتتضمن تعليماً دينياً إضافياً على شكل حكايات ورموز وليس على شكل تأملات واستدلالات ، للتوصل إلى نصائح أخلاقية وليس لتأكيد قضية عقائدية ؛ كان يصلي قليلاً ، يتناول القربان المقدس بمناسبة عيد الفصح وبمناسبة الأعياد الليتورجية الأخرى . ولكنه كان قلما يعرف ما معنى الندامة على الخطايا التي يقترفها أو على الأخص ، العزم الأكيد على عدم السقوط فيها ثانية . وهذا هو السبب الذي من أجله ، نشأت ، على مهل فكرة الندامة الخاصة التي تؤدي إلى الإعتراف أمام الكاهن ليمنح التائب مغفرة خطاياه ، ومن أجل ذلك أيضاً كان الكهنة يلقون المواعظ ويفرضون العقوبات على الخطأة ، لأنه ، بالنسبة إليهم هذه هي الطريقة الوحيدة لإبعاد الناس عن الفساد والخلاعة . هذه الممارسات الرادعة تحول دون ما تعتبره الكنيسة شرّا أكثر مما تحث على صنع الخير . ويلاحظ ذلك فيما يخص الزواج : فبالرغم من كل الجهود ظل التسري والعلاقات الجنسية مع الخدم تعتبر عادات رائجة ، لا سيما وأن الحب الزوجي الذي يصوَّر على أنه أساس اتحاد الزوجين والعائلة يتميَّز بشكل حاسم عن الرغبات الجنسية التي يجب أن تتم فقط من أجل الإنجاب .

ويدرك أفضل الأساقفة هذه النواقص بالرغم من أنهم لا يميزون بين النواقص والنوافل ، وينعى أحدهم ، جوناسْ دورليان هشاشة الإلتزام المسيحي فيقول : « إن حب الأشياء الدنيوية يتغلب ، عند العدد الأعظم من الناس ، على التعاليم الرسولية ، والأنانية على وحدة الشعوب مع الغير ، واللامبالاة على المحبة ، والاستئثار بخيرات الآخرين على العطاء والكرم . وتتغلب لذة الجسد والتطفل ونزوة العقل العابرة على فكرة الصلاة . ويكاد الإنسان لا يجلس إلى مائدة الطعام دون أن يتفوه بأقوال النميمة والكذب والشتيمة ، أو دون اللجوء إلى حفلات راقصة إيمائية أو تهريج ، أو سرد أخبار بذيئة أو ماجنة أو حماقات تفسد قلوب المسيحيين . . ويتطلب أنواع الأغذية المختلفة تبعاً لمزاجه ويثني على مهارة الطباخين الذين أعدُّوا هذه

الأطباق اللذيذة ، ويحشو جوفه بالطعام الفاخر ويرتوي من الخمور الطيبة ولا يفتح فاه لتسبيح الله ولكن ليطلق القهقهات المدوية . إن سيدنا يسوع المسيح قد بكى ولم يضحك ، كما جاء في الكتب . وقد أعطانا بهذا مثلاً أن في وادي الدموع هذا لا مجال للضحك بسبب الأفراح الهاربة التي تتلاشى كالدخان ولكن يجب أن نبكي بسبب الإرث الذي فقدناه في موطننا السماوي الذي نُفِينا منه منذ زمن بعيد » . لم تحل السماء على الأرض ؛ ولكن على أرض أوروبا الكارولنجية لم يكن للناس الطيبي النوايا الوسائل لإحلال السلام والنظام للمحافظة على الاتحاد والوئام .

حدود النهضة الكارولنجية

وفي المجال الفكري والثقافي كان الجهد أيضاً عظيماً . وإذا تتبعناه إلى فترة طويلة نراه يكتسي ، بنتائجه الإجمالية ، أهمية حقيقية . أما نتائجه المباشرة فكانت محدودة جداً كما كان نفوذه على المجتمع ضئيلاً .

إن النهضة لم تشمل إلا فئة قليلة العدد مؤلفة من أناس تخرجوا من المدارس وعملوا فيما بعد في الإدارة أو انخرطوا في سلك الكهنوت أو انزووا في الأديرة ؛ ويمكن أن نضيف إلى هؤلاء بعض أعضاء العائلات الأرستقراطية أدركتهم حرفة الأدب . وكان المثقفون في غالبيتهم العظمى من الكهنة والرهبان ، كتبوا باللغة اللاتينية لأن المناهج المدرسية كانت تعتمد على كتب العهد القديم ولأن هذه اللغة كانت لغة الطقوس الدينية . ولكنهم لم يستطيعوا نشر هذه اللغة خارج بيئتهم ، وإنهم إدراكا منهم للواقع لم يحاولوا ذلك بل اكتفوا باستعمال اللهجات الشعبية في علاقاتهم اليومية مع المؤمنين وفي علاقاتهم الشخصية ـ كانت الاتصالات الشفهية التي تجري داخل الأديرة تتم باللهجة المحلية ـ بحيث إن الثنائية اللغوية الحقيقية لم تتوطد في أي مكان سوى في حلقة العلماء الضيقة ، ويلاحظ ف. فولْفْ أن اللغة اللاتينية لم تصبح لغة الأدب لأن الآداب لم تنتشر إلا باللغة المحكية ، « إنها لغة منمقة وحية ، لغة الاتصال بين النخبة ولا تنتسب إلى جماعة عرقية » . إنها لغة نخبة توقفت باكراً عن الانتشار بل لقد انطوت على ذاتها .

وفي نهاية القرن الثامن وخلال القسم الأكبر من القرن التاسع كان رجال الفكر يدركون تمام الإدراك أن النهضة التي كانوا باعثيها ومنتفعين بها كانت متصلة اتصالاً

وثيقاً بالبنية الكارولنجية وأنها كانت إحدى أنشط الأدوات العاملة على تلاحم الغرب وتماسكه . وقد نوَّه بهذا الأمر بطرق مختلفة ، أشهر الكتاب ، منهم : ألْكُوانْ وجوناس دورليان وإِجِنْهارْدْ وأغوبار ونِتْهارْدْ وآخرون غيرهم . وفي النصف الثاني من القِرن التاسع ، في المرحلة التي كانت قوى الإنفصال على وشك الإنتصار ، وذكر ذلك هِنْكْمارْ بشكل أبرز ودق ناقوس الخطر . ولكن ابتداء من عصره بدأت الحلقات الأدبية تهمل هذا الموضوع وتدير ظهرها للاهتمامات السياسية وتأبى توجيه أفكارها نحو السلطة والقوى السياسية . وباختصار ، إن الثقافة التي كانت في الماضي ثقافة طبقة أرستقراطية ، بل أرستقراطية تسهم في القيادة وفي كل النشاطات الاجتماعية ، وانحسر إشعاعها ليقتصر على القليل من الفئات والنوادي . كان البعض يتعاطونها كهواية وتسلية ـ التسلية هي وسيلة أخرى طليقة مسترخية للحصول على ذرائع تساعدهم على فهم ذواتهم وضبط سلوكهم . والآخرون ، وهم أكثر عدداً ، وخاصة في الأديرة ، يسخرونها لخدمة الروحانيات مستعينين بالمؤلفات التقوية والعقائدية التي في متناولهم . كانت طرق التماسها تضيِّق الآفاق وتصرف عن أي اهتمام بالمشاريع السياسية أي عن وضع الغرب وأوروبا ومستقبلهما .

إنه التقهقر الفكري بعينه ما يفسر بطريقة أفضل الفشل النسبي للنهضة الكارولنجية . والحقيقة أنه لم يتلاش كل شيء في نهاية القرن التاسع ، بل استمرت بعض المدارس متألقة متوهجة وظلت تدرِّس « الفنون الحرة » الثلاثية والرباعية مشددة ، كما في السابق ، على قواعد اللغة والبيان (ريمي دوكْسِيِيْرْ يمثل الاستمرارية في مطلع القرن العاشر) واللغة اللاتينية التي كان يستعملها الكتَّاب ظلت صالحة للكتابة : ويقدم أُوْدُونْ ، رئيس دير كلوني من سنة 924 إلى سنة 942 ، الدليل الساطع على ذلك من خلال كتاباته . وفوق ذلك نرى ، في السنوات الأولى من القرن العاشر ، مفكرين من القارة ـ رهباناً من دير القديس برتان ودير القديس أومير ـ يذهبون إلى إنكلترا بدعوة من الملك ألْفْريد الكبير لإصلاح المدارس الكنسية بعد الدمار الذي سببته الحروب مع الدانماركيين . ولكن بدءاً من سنة 880 إلى سنة 940 حدث نوع من « الفراغ » في النشاطات الأدبية والثقافية ؛ فيلاحظ تراجع في الإنتاج وقحط في التفكير وندرة في المؤلِّفين وسقم في الحياة الثقافية وفي التعليم وتتقلص المكتبات العامة ومصانع الكتب ثم تزول . وتضيق بيئة

العلم وينحصر النشاط العلمي في بعض الأديرة (سان غال ، فارْفا ، فلوري سور ـ لوار) . أما إيطاليا ، حيث تظل ، على قيد الحياة ، تلك الثقافة الأدبية المستوحاة من العصور القديمة وحيث تستمر وتقوى تأثيرات الشرق ، فتنجو من الأفول . وتعرف كاتالونيا والمناطق المجاورة في جنوبي غاليا هذا الإنكماش المحدود في الفضول العلمي . ولكن بشكل عام فإن هذه التي كان يراد لها ، في النصف الأول من القرن التاسع ، أن تكون منفتحة على الجميع والتي أصبحت بعد سنة 850 المجال المحصور برجال الدين ، حل محلها ثقافة محدودة تكاد تكون وقفاً على المسائل الدينية الخاصة مثل الليتورجيا والروحانيات وتفسير الكتاب المقدس وتدوين حياة القديسين .

وأخيراً يؤدي هذا التقهقر إلى تلاشي اللُّبْس البدائي في النهضة الكارولنجية التي حرصت على استخدام الثقافة الوثنية لإعداد ثقافة مسيحية جاعلة من الأولى أداة ومركبة للغة . وإن حصر حقل البحث الديني ضمن الأبعاد الفكرية للحلقات الرهبانية أدّى إلى استبعاد السّواد الأعظم من الناس من هذه الحضارة وجعلها وقفاً على أقلية ضئيلة .

تنوع الفنون

وفي المجال الفني أيضاً كان العطاء أقل خصباً في العقود الأولى من القرن العاشر بالرغم من صعوبة تحديد تاريخ دقيق جدّاً . ويلاحظ ، بالمقابل على امتداد هذه الفترة ، أن مناطق واسعة ظلت ، إلى حدٍّ ما ، غريبة عن نشأة الفن الكارولنجي وتطوره .

وإذا استثنينا ، في إيطاليا ، المناطق الجنوبية الموسومة بالتأثيرات البيزنطية ، نرى النتاج لا يختلف كثيراً عمّا هو عليه في المناطق الباريسية والرينانية والبافارية (في سان ـ ريكْيِيْه وسان ـ ميدار في سواسُون وسان ـ كوينتان ولُوْرْشْ وفولدا) لكنه يحتفظ بخصوصية بارزة نشأت عن لقاء تقليد روماني قوي بتيّار من العصر المسيحي القديم لا تقل عنه قوة وتضاف إليها التأثيرات البيزنطية . وتميَّزت الأبنية ببعض الأبهة والميل إلى التجديد وبرفض التعلق بنماذج معتبرة نهائية ولكن بتنوع يبرزه ذوق زخرفة فخمة . وكان البناء تبعاً للمبادىء الرومانية (تصميم بازيليكي مربع) أو للطريتة الإغريقية (تصميم دائري) . بيد أنه في أكثر الأحيان كان الشكل المستطيل هو

الغالب وخاصة في لومبارديا : تشيُّد الكنيسة إلى جانب برج الجرس المنفصل عن البناء ويقسم فناؤها إلى ثلاثة أجنحة وغالباً ما تكون دون جناح مصالب ؛ تنتهي بصدر ذي ثلاثة أقسام متصلة . الجناح الأوسط مسقوف بالخشب والجناحان الجانبيان معقودان وينتهي الصدر بقبة نصفية . ومن الخارج صفوف من الكوى المسطحة القعر وحجارة مختلفة الألوان مرتبة على شكل حسك السمك تشكل زينة فريدة . إنها الشرائط اللومباردية الشهيرة (كنيسة مار منصور في ميلانو ، كنيسة القديس اسطفان في ڤيرونا ، وكنائس إيفريه وبْيلّا) . والتزيين بواسطة الفسيفساء هو سمة أخرى من سمات العظمة الإيطالية ، فالعمل التزييني الأبرز ماثل في كنيسة القديس زينون وكنيسة القديسة براكْسِيْذْ في روما . وأوحى هذا الفن الفسيفسائي بالجدرانيات الغنية والملوّنة المعروفة في منطقة روما بينما في شمالي شبه الجزيرة تُشاهد تقنية أكثر ريفية تبرز في أشكال خطوط حادة في الكنائس الصغيرة التي تعتبر صلة بين كنائس الإنغادين[1] (Engadine) وصولاً من هناك إلى جرمانيا الجنوبية .

وفي البلاد الواقعة جنوبي اللوار حتى أراغون وكاتالونيا ، تمّ تخمُّر خاص انطلاقاً من عناصر مختلفة (رومانية ، مسيحية قديمة ، ڤيزيقوطية ، شرقية وإسلامية) على أرض تتفاعل فيها تقاليد محليَّة قديمة جداً يصعب تحليلها. ولم يكن هذا التخمر ، في القرن التاسع وفي السنوات الأولى من القرن العاشر إلا مرحلة أوَّلية ، وهذا ما يفسر الطابع المركب للإنتاج الذي شهرته الكنائس الڤيزيقوطية في أراغون وناڤار وصروح أُستوريا وكاتالونيا حيث تبدو التأثيرات الإسلامية والعربية المغربية ، والأبنية الوظيفية والبسيطة نسبياً في پواتو وأوڤرنيا حيث الزخرفة أقل غنى بالرغم من وجود آثار فسيفساء أوّلية . كل ذلك ، أخيراً ، ينم عن فن ، على الأقل في مجال فن البناء ، يبحث عن تناغم يختلف إلى حد ما ، عما تتجه نحوه لومبارديا ، ولكنه يظل مختلفاً ، في المطامح خاصة ، عن إنجازات المناطق الواقعة بين السين والراين .

تلك هي الملاحظة الأساسية . إن التجديد الفني الكارولنجي ، إذا أخلى مكانه لإنطلاقة في كل أقطار الغرب ، فهو لم يعرف الإنسجام ، لأنه لم يستوحِ

---

(1) القسم السويسري من وادي إن الأعلى في دويلة غريزون (م) .

مبادىء واحدة ومفاهيم واحدة . فالفن الكارولنجي الحقيقي يبقى فن المناطق الباريسية والرينانية باسطاً نفوذه إلى باڤييرا - حيث يلتقي بتيارات أخرى - إلى ساكس مشعًا ، نوعاً ما ، على وادي الرون وعلى كاتالونيا . أما خارج هذه الأقطار فنشأة الفن تختلف . وفي المجال الفكري ، حيث الفوارق أيضاً واضحة ، بالرغم من أنها موجودة ، عرفت الثقافة الكارولنجية أبهى تألقها أيضاً . في تلك البلدان حيث ترسخت ، إلى ذلك ، المؤسسات السياسية وحيث ازدهر نظام الملكيات الواسعة على أفضل ما يكون ، إن ذلك يقلِّص من مساحات الغرب الكارولنجي الفعلية التي ، انطلاقاً من هذا المفهوم ، لا تنطبق على مساحة أوروبا حتى لو نظرنا إلى هذه الأخيرة استناداً إلى الضوابط الجغرافية والسياسية والدينية لذاك العصر (الإمبراطورية ، مجال الكاثوليكية اللاتينية) .

أزمة الإمبراطورية في عهد لويس التقي

إن غموض الإيديولوجية الإمبريالية والتناقضات المستمرة بين الفئات العرقية المختلفة والعجز الإقتصادي ومحدودية الثقافة وهشاشتها ، أي ، باختصار ، بقاء الخلافات العميقة ، كل ذلك أسهم في إضعاف النظام الذي شيَّده شارلمان . وبرزت الصعوبات بعد موت الإمبراطور العظيم بوقت قصير وأبرزت بوضوح الدور الأولي الذي تقوم به في المجتمع الطبقة الأرستقراطية ، القوة الحقيقية الفاعلة بحيث إن التطور يحدث أكثر الأحيان كما يشتهي مزاجها وفئاتها ، ويزداد تأثيرها وضغطها مع تطور زمن الفتوحات ، الأمر الذي يبعدها عن السلطة من أجل اقتسام غنائم الحرب ويحملها على الإهتمام بالمسائل الداخلية التي أصبحت شائكة بسبب المناقشات الشخصية والنزاعات السلالية . وإذ فقدت إلى حد ما ديناميتها الحربية ، ولم يعد يستثيرها سحر الغنائم والشرف ، وجدت أن مصلحتها في خدمة صاحب السلطان تتلاشى شيئاً فشيئاً .

وتفجرت الأوضاع بعد قليل من مجيء لويس التقي ابن شارلمان الذي غير النظام الاتحادي في الإمبراطورية . وبتأثير من رجال الإكليروس ، وربما أيضاً كردة فعل ضد النزعات الإنفصالية التي ظهرت مع الفتنة التي أثارها ابن أخيه برنار ، ملك إيطاليا ، والتي قمعت بقسوة ، هدفت التدابير التي اتخذها والتي احتفظت ، إقليمياً ، ببعض التجزئة (أكيتانيا وباڤييرا كانتا تُحكمان مستقلتين) ، إلى امتصاص

الخلافات وتقوية الوحدة . والأساقفة الذين دفعوا إلى هذا التصرف كانت تحدوهم نوايا طيبة : لقد ظنوا أن هذه هي أفضل الوسائل لعرقلة القوى الإنفصالية ولمواجهة الأطماع المركزية الطاردة . غير أن هذه الملاحظات هي مخالفة للموقف الحقيقي الذي يتطلب أن تعتمد السلطة المركزية على قوى محلية توجدها هي وتشرف عليها ولكنها تبقى مستقلة ذاتياً ، لأن التوحيد يعني الإصطدام بها عاجلاً أم آجلاً . ومن أجل السيطرة على هذه القوى ، على افتراض أن ذلك ممكن ، تحتاج إلى حاكم ذي هيبة ونفوذ يوضع ، طوعاً ، فوق مستوى الأحياء ، ويؤتمن على مهمة لا يستطيع أحد ، على هذه الأرض ، أن يضطلع بها ، حاكم مكلل بالمجد وفوق الشبهات والتجريح . والحال أن الأسقفية ذاتها التي من خلال رؤيا وهمية مبنية على توق حار لإيصال النظام المسيحي إلى الحكم ، تمجد الوحدة الإمبريالية والقيمة الأساسية لحضارتها ، لم تتردد في إذلال شخص الإمبراطور .

وتنصحه سنة 822 أن يندم لكي ينال الغفران عن التدابير القاسية التي اتخذها سنة 818 ضد المتآمرين الذين تعاونوا مع برنار ملك إيطاليا وضده . ونُظّمت في أتّيْنيْي (Attigny) بمعاونة الإكليروس والأعيان حفلة عامة يعترف الإمبراطور ، خلالها ، علناً بأخطائه . وفي سنة 829 يذكّر الأساقفة المجتمعون في مجمع رعوي ، في باريس أنه من العدل أن تستنير الجلالة الإمبراطورية بأنوار الذين في يدهم الحل والربط . وفي سنة 833 وعلى أثر عصيان عام قام به أبناء الملك وعلى أثر الانتصارات التي حققوها ، اتخذ الأساقفة قراراً بخلع لويس الذي يستعيد بعد ذلك عرشه ؛ ولكن ليس قبل أن يذل بإقرار جديد بإخطائه وندامة جديدة في سواسّون .

وكل ذلك يدل ، بعد الحط من شأن جلالة الإمبراطور ، على أن الغموض الناشىء منذ البداية في النظرية السياسية التي وضعها أول رجال الإكليروس قد تابع عمله المدمِّر . من هنا ، لم يكن لدى السلطة المركزية الوسائل لتكافح جدياً عناصر التشرذم التي عملت حالما انطلقت حركات العصيان التي قام بها أبناء الأمبراطور بخصوص خلافته . وفي سنة 817 حَسَم لويس المسألة مؤكِّداً ومعلنا عدم انقسام الإمبراطورية وذلك لمصلحة ابنه البكر لوتير الذي شارك في الحكم وتُوِّج وأعلِن الوريث الوحيد . أما بالنسبة إلى إخوته الباقين فقد تسلم بيبان إدارة مملكة أكيتانيا

ولويس مملكة باڤييرا فيما ابن الأخ برنار تسلم حكم إيطاليا حتى عزله في السنة التالية . ولكن في سنة 829 يلغي الإمبراطور قراره ليشرك في الإرث ابنه شارل (الذي لقب بالأصلع بعد ذلك) من زوجته الجديدة جوديْث الباڤييرية الأصل . أثار هذا التدبير ثورة لوتير يعاونه أخوته الباقون ، وبعد انتصار الملك وتوزيع جديد سنة 831 يبتعد كلياً عن النظام الوراثي المتّبع حتى ذلك الحين ، وكانت الفتنة التي حدثت سنة 833 أشرس من سابقاتها بكثير . وبعد أن عزل لويس ثم أعيد نجح في فرض نفسه حتى نهاية حياته سنة 840 . ولكن منذ ذلك التاريخ تزعزت السلطة الإمبريالية حتى أعماقها .

وأصيبت الإمبراطورية في أسسها . ولم تعد السيادة الإمبراطورية معتبرة لخير الجميع وخلاصهم . لقد صُوِّرت للشعب كما لو كانت بحاجة إلى تنظيم عملها بطريقة تكون لمصلحة أحد الأولاد أو أن يسهم الجميع بالتساوي ولمصلحة الجميع . أما الأساقفة فعندما لا يكونون معنيين مباشرة بالصراعات العائلية يميلون أكثر فأكثر ، بشكل حاسم ، إلى من يعمل لصالح الكنيسة والأسقفية .

غير أن الصراع من أجل الخلافة ليس هو في أكثره إلاّ ذريعة . في الواقع لقد ثار الأبناء الأبكار أيضاً لأنهم يخافون أن تتألب عشيرة ما حول جوديت فتتغلب على الآخرين ، بحيث إن عصيانهم يبرز القوة المركزية الطاردة ، أي الطبقة الأرستقراطية . والكبار ، هم أقل اهتماماً بالمساهمة ، فبمقدار ما يتذوقون طيبات السلطة المحلية ينحازون إلى جانب هذا الزعيم أو ذاك تبعاً لمصالحهم الخاصة . إنهم يسعون إلى الحصول على مكاسب لقاء المساعدة التي يقدمون وعلى ثمار النصر فيستغلون ذلك لتقوية سلطتهم المحلية . وأكثر من ذلك فإن البعض منهم أي الذين يملكون حرية أقل في العمل بسبب ضعف في قواهم يضطرون إلى أن يقسموا يمين الولاء تارة للويس التقي وطوراً للوتير وطوراً آخر لأحد أخوته ويدخلون في تبعية هذا أو ذاك . وينتج عن كل ذلك أنهم رأوا منذ وقت مبكر أن الطاعة للملك واجبة ، ليس لكونها واجباً طبيعياً ولكن بفعل قسَم يلزم الطرفين ، الأمر الذي من شأنه أن يدمِّر مفهوم السلطة العامة .

تقسيم ڤردان سنة 843

إن مشاريع التقسيم التي أعدَّها لويس التقي لم تكن تستهدف إحياء الممالك

القديمة في أوسترازيا ونوسْتريا وبورغونيا ، لقد كانت مشروطة بنسبة القوى القائمة حين مناقشتها وإقرارها . وقد أيّدت ، تبعاً للظروف أحد الأبناء وإحدى العشائر . على أي حال فإن قسمة أراضي الإمبراطورية كانت واقعاً حظي بالقبول قبل ذلك التاريخ . ومما لا ريب فيه ، أن شارلمان الذي كان قد أدرك ، استحالة حكم أراضٍ بهذا الاتساع من قبل رجل واحد ، صمّم على إسناد الحكم بعد موته إلى أبنائه الثلاثة متعاونين كل منهم يدير حصة خاصة ، ولكن لويس التقي ، الذي ورث وحده كل شيء بحكم موت أخويه المبكر ، قرر عكس ذلك ، بأنه سيكون هناك إمبراطور واحد وممالك تابعة له . ولكن التقسيمات التي اعتمدها تشير إلى تطور البنى الإقليمية للغرب وتبرز في الوقت نفسه ، عدم ثبات الرؤيا التي نكوّنها عنه لأنهم يقسمونه ويقطّعونه بلا رادع من حياء .

وكان شارلمان قد قرر قبل وفاته سنة 806 أن يعطي ابنه لويس أكيتانيا وغاسكونيا وسپتيمانيا وپروڤانس وبورغونيا الغربية ويعطي پيپان إيطاليا (أي الأراضي حتى جنوب دويلات الكنيسة) وباڤييرا وألمانيا الشرقية ؛ وما تبقى ـ بلاد الفرنجة القديمة ، أوسترازيا ونوستريا والقسم الأكبر من جرمانيا كانت حصة شارل . كانت هذه نظرة مستقبلية لتنظيم الغرب فاصلة شمالي أوروپا عن المناطق الجنوبية التي هي بدورها وُزِّعت على كتلتين قاسمةً ألمانيا قسمين .

وفي سنة 817 أمر لويس التقي بإعلان ابنه البكر لوتير امبراطوراً وبتتويجه . وأُمِّل ابنه الثاني پيپان بمملكة أكيتانيا التي ستعطى له وسيضاف إليها ، بعد موت أبيه ، غاسكونيا وتولوز وكونتيات كارْكَسُّونا وأوتُونْ وأفَلُّونْ ونيفِرْ . وينال ابنه الثالث لويس مملكة باڤييرا وبعد ذلك كارَنْثيا وبوهيميا مع المناطق العسكرية الآڤارية والسلاڤية . ويحكم لوتير ما تبقّى ، وتوخّى هذا التنظيم إنقاذ الوحدة . الغرب ، أوروپا هي بالدرجة الأولى أوسترازيا وألمانيا الوسطى والشمالية وبورغونيا وألمانيا ووادي الرون وپروڤانس وأخيراً إيطاليا ؛ وهي مساحة شاسعة يتصل بها جناحان من الشرق والغرب .

ومشروع سنة 831 هو تجزئة بحتة تُبرِز إلى أي حد غربت عن بال الحكومات نفسها الفائدة من تضامن الغرب . والإمبراطور الذي أراد أن يقتص من لوتير ترك له فقط شبه جزيرة إيطاليا ، وخص پيپان ، بالإضافة إلى الحصة التي عينها سنة 817

كل المناطق الواقعة بين اللوار والسين وقسماً من نوستريا . وأعطى لويس ، بالإضافة إلى حصة سنة 817 منطقة مِيْنْ (Maine) وتورانج وساكس وفريزا والفلاندرا وبرابان وهينو وشمالي نوستريا . وشارل أصغر الإخوة زيدت حصته التي وُعِدَ بها سنة 829 ، فحصل على بلاد الألمان ، ورِيْتْيا ومنطقة مُوزِيلْ وكونتيات ريمس ولاوونْ وتقريباً كل مملكة بورغونيا القديمة حتى البحر المتوسط بالإضافة إلى غوتيا (سپتيمانيا وكونتيات كاتالونيا = مناطق عسكرية إسبانية) .

وبعد التقسيم الرسمي سنة 833 الذي بواسطته خُلِع لويس التقي واستُبْعِد شارل من الخلافة ، سيطر لوتير الإمبراطور على الحصة الكبرى (ما عدا المناطق الجرمانية التي أعطيت لأخيه لويس وبعض الأقاليم بين السين واللوار أعطيت لِـ پيپان) . وبعد إعادة الإمبراطور إلى الحكم ، شكلت مشاريع 837 ـ 839 ـ پيپان يموت سنة 838 ـ تجزئة مفككة فيحصل لوتير على حصة مركبة من عدة أقسام (إيطاليا ، كل البلاد شرقي الرون والسون والموز ما عدا باڤييرا التي تسيطر على الممرات بين جرمانيا وشبه الجزيرة المنتقلة إلى لويس ، وما عدا پروڤانس وكونتيات جنيڤ وليون وشالون وتُولْ التي كانت من نصيب شارل الذي أعطي ، علاوة على ذلك ، كل الإقليم الواقع إلى غربي هذه الأنهر .

وبعد سنة 840 (تاريخ وفاة لويس التقي) لم يتوصل الإخوة الثلاثة إلى الإتفاق . فأصر لوتير على فرض سيادته ، فاتفق لويس وشارل (قَسَم سْتراسبورغ سنة 842) وأجبرا أخاهما على التفاوض ، الأمر الذي أدّى إلى معاهدة وقعت في ڤردان في آب/أوغسطس سنة 843 .

وثُبِّت تقسيم فعلي آخذاً بعين الإعتبار بعض الخصوصيات العرقية واللغوية وساعياً بنوع خاص لإعطاء كل واحد من هؤلاء الزعماء قسماً من بلاد الفرنجة القديمة بين مِيْنْ الوسطى والسين ـ وكما في عمليات التقسيم السابقة كانت حدود كل قسم حدود الكونتيات .

ويحصل لويس الذي سيسمى بعد الآن لويس الجرماني ، على البلاد الألمانية وملحقاتها في شمالي الألپ وشرقي الراين ومعها كونتيات سْپيرْ ومايَنْسْ وكذلك ألمانيا (Alémanie) وريتيا (Rhétie) . ولكنه لم يحصل على فريزا . ويؤول إلى شارل الأصلع المناطق الغربية التي حدُّها الغربي يمر في إيسْكو ثم في خط يصل بين

المنطقة الواقعة جنوبي كامْبْرِيْه ومنطقة سيدانْ ثم يمر عَبْـر أرغون فهضبـة اللونغرا والسون (مع منطقة محصورة واقعة على الشاطىء الذي يشمل كونتية شالون) تاركاً إلى شرقيِّه الليونيه والڤيڤاريه والأوزيـج (Uzège) وشامـلاً الجنوب ، نيمْ والـرون الصغير ممتداً نحو البحر ، أمـا ما تبقى فكـان من نصيب لوتيـر ، من فريـزا إلى كامپانيا .

إن هذا التقسيم ، المرتهن بالقليل للصدف التاريخية وبالكثير للوقائع ، يعطي أوروپا شكلها المستقبلي ويشكل حدثاً أوليا في تاريخ البنيات السياسية في الغرب ، إن حصة لويس التي دعيت ، في البداية ، فرنسـا الشرقية أصبحت مملكة جرمانيا (أو ألمانيا) ، وحصة شارل التي دعيت فرنسا الغربية أصبحت فرنسـا (الحالية) . ولكن هذا التقسيم يميز في الوقت نفسه ، وبالرغم من الرغبة في الاحتفاظ بشيء من وحدة الإمبراطورية ـ في نظام اتحادي إلى حد ما ـ يميز نهاية الاتحاد الغربي الذي لم يتحقق تماماً على الإطلاق ، ولكنه كان مستهدفاً بين السنوات 780 و 820 . لقد سجل في التاريخ وفي أرض أوروپا علامة فشل وخيبة .

لقد سجَّل ، في الواقع ، تقسيمـاً إقليمياً جـديداً بـالنسبة إلى المـوقف في منتصف القرن الثامن الـذي نشأ عن تقسيم أعقب الغـزوات البربـرية والمشـروع الميروڤنجي الكبير . والشيء البارز في هذا التقسيم هو اتجاه الخطوط الفاصلة . وبعـد أن شعر مـوقعو اتفـاقية ڤـردان باستحـالة الإحتفـاظ بوحـدة حقيقيـة شـاملة لـلإمبراطـورية بسبب اتسـاع أراضيها ورغبـة كل منهم في الحصـول على حصـة كبيرة ، كان عليهم أن يختاروا بين حَلَّين : إمَّا اقتطاع حصة مركزية من اللوار إلى إلْبا وترك الإستقلالية للأقسام الحدودية وأكيتانيا وباڤييرا وإيطاليا ، وإما جمـع البلدان حول جناحين والمجازفة بترك المنطقة الوسطى ـ من فريزا إلى كامپانيا ـ تفقد وحدتها وتتفتت بحكم أن إيطاليا ، على الأقل ، يصعب عليها أن تبقى ملتحمة بالأقسـام الباقية إذا لم يكن هناك سلطة تعمل على تحقيق المركزية . كان يمكن للحل الأول أن يُجرَّب ، ولكن من الخطأ الظن ، عندما يعزى إلى الجغرافيا حتميةٌ لا تعرفهـا ـ لأن الجغرافيا تخضع مع التطور السياسي لمشيئة الإنسان ـ أنه لم يكن بالإمكان توزيع أوروپا على هذه الأسس . وإن ما حال دون تبنيه هو رغبة الأخوة الثلاثة في ضمان استمرارية الإمبراطورية (إمبراطورية واحدة في ثلاثة أقسام) لأن هذا كان

يتطلب أن تكون إكس ـ لا ـ شابيل وروما في حصة واحدة . وقد اعتقد لوتير ، واهماً ، أنه بحصوله على المناطق الوسطى يستمر في فرض نفسه على المملكتين الأخريين . وفي كل الأحوال ، كانت النيجة متهافتة ولا تحمل أي سمة من سمات العبقرية . لأن أوسترازيا فصلت عن الأراضي التي كانت تجعلها منذ وقت قريب عبر الراين (في فرنكونيا الحالية) وتثبت الراين كحدود في حين كان يعيش على ضفتيه ، أكثر الأحيان ، شعوب متشابهة وتتكلم لغات واحدة . وفصلت نوستريا عن أوسترازيا التي كانت تنقل إليها النشاط الذي تحتاجه ، وضمت إليها أكيتانيا . فارغمت هكذا على الإنضمام إلى بلد ذي خصوصية بارزة جدّاً ، وقسمت مملكة بورغونيا القديمة . ولكن ، في شكل عام . لقد احتفظ داخل كل حصة ، بالانقسامات العرقية . وحدها شعوب عبر الراين القريب بعضها من البعض الآخر أرغمت على العيش معاً بين السلافيين « والرومانيين » . ولكنها استطاعت أن تشكل سريعاً مجموعة متماسكة وتمارس ضغوطاً قوية على تاريخ القارة ككتلة متميزة منفصلة عن سائر الغرب .

وعندما أعيد تقسيم الأراضي الأوروبية ، تبعاً للخطوط المتجهة من الشمال إلى الجنوب ، وضعت إيطاليا ، من جديد ، جانباً ، وتم الإنفصال عمن كانت تسعى منذ القرن السابع إلى تحقيق مملكة لومبارديا ، وأعيد النشاط إلى العناصر الكثيرة العدد التي لم تكن تؤهِّل شبه الجزيرة للبقاء موحدة مع مناطق رينانيا والموز . وبسرعة فائقة ، ومنذ عهد لويس الثاني (855 ـ 875) ابن لوتير ، عانت المملكة الإيطالية مشاكل خاصة وأصبح لها تاريخ خاص مثل فرنسا وجرمانيا ؛ أما بقية الأقسام مثل پروڤانس وبورغونيا الشرقية (الجورا) واللورين (التي اشتق اسمها من لوتارنجيا ، دولة لوتير الثاني ، أحد إخوة لويس الثاني) والمناطق الواقعة إلى الشمال ، فقد تجزَّأت ، ومع بقائها مستقلة ذاتياً ، ارتبطت اقتصادياً وبشرياً بإحدى الكتل الثلاث وظلت پروڤانس ، بعد ذلك لمدة طويلة ، متصلة بالبحر المتوسط وقريبة من إيطاليا : وكانت الأجزاء الأخرى لعدة قرون منحازة إلى جانب ألمانيا دون أن تتحد بها اتحاداً وثيقاً ، مع توجيه أنظارها أكثر فأكثر نحو فرنسا .

إن تاريخ أوروبا ، الذي توزع في القرون التالية بين فرنسا وألمانيا والبلدان الإيطالية ، لم يكن متأثراً بتقسيم سنة 843 الذي لم يشكل سوى حدث من أحداث

كثيرة . لقد حدثت تجاذبات عديدة حُكِم على إيطاليا أن تظل على هامشها . وكانت أكيتانيا واللانغدوك ، بالرغم من المشروع الكارولنجي ، غريبتين عن نوستريا . فما كانت هذه ، بالمقابل ، تعتبر نفسها أكثر اتحاداً مع أقاليم رينانينا ، وكانت بـافييرا تستعد لاجتياز جبال الألب وفرنكونيا وتتوسع باتجاه الغـرب . وبتعبير آخـر ، كان الترتيب الداخلي للغرب يتم بتأثير من القوى المحلية وطاقة الفئات الأرستقـراطية المحلية ، ومن مطامح بعض الأشخاص أو حظوظهم ومن دهاء آخرين عرفوا كيف يستغلون لمصلحتهم البنى القـائمة ويتـلاعبون بـالأوضاع الـراهنة ببـراعة . ولكن مواجهة بعض حالات التقارب والتشابه أمعنت في تقسيم القارة . وفوق ذلك ، فإن هذا الترتيب سيخلق ، آجـلا ، فكرة تقسيم طبيعي وعـادل للشعوب على الأرض الأوروبية ولتناقضاتهم ولمصالحهم المتنافرة التي تميزت على الأرض بحدود دعيت هي أيضـاً طبّيعيـة . وقـد تحـوَّل ، أخيـراً ، إلى تـلاعب بـالجغـرافيـا والعِـراقـة (الإتنوغرافيا) لتبرير السياسة .

الغزوات ونتائجها

وأثناء تفكك الغرب الكارولنجي ، كان للغزوات التي أخذت تصبح خطيرة منذ سنوات 820 ـ 850 وتشكل خطراً دائماً على مدى مئات السنين التالية ، نتائج يصعب تقويمها على حقيقتها على المستوى العام ، لقد فُكِّكت وأفسدت وفصلت وعزلت .

ويمكن أن يكون التحليل دقيق التنوع . شن الدانمـاركيون والنـورمانـديون غارات منذ مطلع القرن التاسع . وبعد سنة 814 تكاثفت هجماتهم الفوضوية التي استهـدفت مصبات الأنهـر التي كانـوا يجتازونهـا صعوداً طمعـاً بالسلب ، وبلغت الشواطىء الفلامندية وفريزا والراين والسوم وكان السين واللوار قد تعرضا للهجوم واحتلت فـريزا بكـاملها لعـدة سنوات (حـررت سنة 814 ثم احتلت من جـديـد سنـة 850) . وفي سنة 841 تغـزو زمرة دانمـاركية السين فتـدمِّـر رْوانْ والأديـرة المجاورة ، وفي سنة 842 تُغزى كُونتوڤيكْ (Quentovic) على نهر الكَانْشْ (قرب إيتاپْلْ) فتدمَّر ويساق سكانها أسرى . وسنة 843 أحرقت نـانت وسنة 844 بلغت الغارات تولوز . وسنة 845 صعدت عصابة بقيادة رانْيارْ نهر السين على متن 120 قارباً وهاجمت باريس ؛ ودفع شارل الأصلع ثمن رحيلهم . ولكن في الوقت نفسه

دمّرت المناطق الواقعة على ساحل المانش بينما أغارت جماعة أخرى على سانْتْ (Saintes) والمنطقة المجاورة وأُحْرِقت هامبورغ في ألمانيا . وبدءاً من سنة 850 أصبح تكتيك الغزوات متكاملا : تركزت الجهود في السين واللوار واحتلت بعض الجزر فاتخذت نقطة انطلاق للغزاة الذين كانوا يغيرون على الأرياف والمدن المجاورة (الجزيرة الكبيرة قرب جوفوسْ على السين الأسفل ، ونوار موتْييه (Noirmoutier) عند مدخل مصب اللوار وسان ـ فلوران ـ لو ـ ڤْيِيْ في أعالي أنسِينِيْسْ) ، وهكذا نهبت أراضي الأور (Eure) وبايو (Bayeux) وكلڤادوس وبوڤْيِه ووادي الواز وباريس وشارتر وميلون ومو (Meaux) ونوايون (Noyon) وتور وبْلوا (Blois) وأورليان وفلوري ـ سور ـ لوار ولومان وأنْجِيه وبواتْيِيْه وليموجْ وكْلِيْرمونْ . . . وتأثرت مناطق أخرى كذلك : في البلاد المنخفضة (دُوُرْسْتِيد = Duurstède) والراين وڤال وإيسكو ، ولِيْسْ وبريتانيا وشارانت . وإسبانيا نفسها لم تبقَ في منجاة من الغزوات (851 ـ 861) ، لقد طوقتها الأساطيل السكندينافية لاقتحام روسيُّون واللانغدوك وآرْلْ ونِيْمْ وبَلَنْسْيا وبيزا وتوسكانا .

ونجاه هذه الهجمات كان الغرب الكارولنجي حائراً في البداية كيف يتصرف : لقد ظل يعاني الرعب حتى سنة 860 حين عقد مؤتمران في مِيْرسِنْ (Meersen) ضمّا القادة الكبار في الممالك الثلاث فحاولوا تنظيم دفاع مشترك . وكان هذا الدفاع مستحيل التطبيق بصرف النظر عن إرادة الملوك السيئة . ويتخذ شارل الأصلع ، المعنيُّ الأساسي ، تدابير فعّالة : فيحصّن المدن ويقفل الأنهر بالجسور والحواجز ويعد استراتيجية دفاعية مكلّفاً رجالاً أشداء بالدفاع عن المناطق المهددة أكثر من سواها . ويشكل قيادات على مستوى عالٍ ، الأمر الذي أدى إلى ضم مناطق عسكرية حدودية . وهذا ما حصل أيضاً في الفلاندرا والمانش ونوستريا الغربية وفي لواء بريتانيا وفي پواتو وأكيتانيا ـ وأعطت هذه التدابير بعض النتائج ، فتراجعت الهجمات في السنوات 868 ـ 878 وجّه خلالها الدانماركيون أنظارهم نحو انكلترا وفي سنة 878 تحولوا من جديد إلى فرنسا وإلى البلاد الرينانية متبعين تكتيكا جديداً يقوم على توسيع قواعد الإنطلاق والمهاجمة عن طريق البر (بواسطة الفرسان) كما عن طريق الأنهر . وهكذا استطاعوا أن يزيدوا من كمية أسلابهم ويرسخوا أقدامهم بطريقة أفضل . لكنهم كانوا يتعرضون لخطر القتال في الأرياف الجرداء . وبعد أن

اقتحموا واجتازوا بلاد السوم والإسكو والموز والراين قهرهم سنة 881 الملك لويس الثالث في سوكور ـ أون ـ ڤيمو (Saucourt - on- Vimeu) ، وكان هذا الانتصار مع الأسف دون تأثير بحيث إنه سنة 883 تعرضت أمْيانْ لـلاجتياح وسنـة 884 اضطر كارلومان إلى دفع ثمن رحيلهم . فانسحبوا إلىْ لوڤان وإلى البلاد المنخفضة حيث توغّلوا منذ سنـة 880 (في لْيِيْج ولاهسبـاي) ومن هناك هـاجموا إكْسْ وكـولونيـا ودويسبورغ وتْرِيْڤ ، حيث يقهرهم الكونت الفرنسي هنري ويشنّ هجوماً معاكساً ، ويحاصرهم في السنة التالية في لوڤان . فيعودون حينئذٍ إلى السين والمدن الفرنسية (روان ، باريس وكُومْبِيِيْنْيا وسواسُون وشمپانيا وبورغونيا) . وفي سنة 888 دحرهم الملك أود (Ewdes) في مون فوكون ـ أون ـ أرغون ، وقد اضطر الملك مع ذلك أن يشتري رحيلهم بعد وقت قليل من ذلك ولكنه لم يوفـر البلاد (نهْب وادي اللوار وبورغونيا وشمپانيا ولورين سنة 896) . بيد أنه في سنة 891 يدحرهم أرْنولْفْ ملك جرمانيا مرّة ثانية في لوڤان . وفي سنة 898 يعقد معهم أودْ معاهدة سلام مشرِّف .

واقعياً ، تراجعت الغـارات في السنوات الأخيـرة لهذا القـرن وذلك ، دون ريب ، لأن الأفواج الدانماركية لم تعد تتلقى مساعدات وتعزيزات من الدانمارك التي كانت تنظم صفوفها وتعزز وجودها في شمالي القارة (سكنديناڤيا وإنكلترا) . وفي سنة 900 يعود الهدوء من جديد . غير أنه في سنتي 910 ـ 911 نزلت عصابة جديدة بقيـادة هْـرُوْلْفْ (Hrolf) وتمـركـزت في أسفـل السين ونهبت المنـطقــة وفي 20 تموز/يوليو تندحر على يد روبير كونت بـاريس وجد الكـاپيين (Capétiens) فيقرر هْرُوْلْفْ عندئذٍ أن يتفاوض مع الملك شارل البسيط ويتفق معه في سان ـ كلير ـ سور ـ إبْتْ ، في 24 أيلول/سبتمبـر . ويحتفظ بالبـلاد الواقعـة بين إبْتْ (Epte) والبحر (نورمانديا العليا) .وبمقابل ذلك ، يعلن ولاءه لهذه الإقطاعة ويتقبل سر المعمودية هو ورجاله . وبعد ذلك بعدة سنوات (924) تتجدد المعارك التي تنتهي بالتخلي عن كُوتُونْتان ثم عن آڤرانش سنة 933 . وبعد سنة 940 تنتهي الغزوات فعلياً .

وتعرضت الأقطار الجنوبية لهجمات المسلمين الذين كانوا في أغلب الأحيان من أصل بربري . لقد شنوا غاراتهم انطلاقاً من المغرب وإسبانيا ثم من صقلية التي هوجمت بدورها سنة 827 واحتلت بكاملها في العقـود التاليـة . ووجدت إيـطاليا الجنوبية ، بعد ذلك ، المنطقة المهددة أكثر من سواها بشكل مباشر ومنتظم . وفيها

حاول الغزاة الاستيطان بطريقة دائمة في حين أنهم كانوا يوجهون فِرَق مغاوير إلى أماكن أخرى تنهب وتخطف الرجال والنساء وتبيعهم كعبيد .

بدأت الغزوات الأولى في نهاية القرن الثامن واستهدفت كالابْرِيا (باري وتارانت) . وابتداء من سنة 830 أصبحت أكثر خطراً وبلغت المناطق الواقعة إلى الشمال (نهبت روما سنة 846 وسنة 849 وحوصرت بينيفنت سنة 847 وشاطىء سبيزيا سنة 849) وهوجمت پروڤانس بدورها (آرْل سنة 842) وكان لملك إيطاليا لويس الثاني ردة فعل ، فيشن هجوماً سنة 855 ويقود حملة بعيدة الأهداف في الجنوب في 866 ـ 867 وأخرى سنة 871 يستعيد بواسطتها مدينة باري . غير أن هذا النجاح لم يكن حاسماً لأن تارانت لم تحرر . ويتابع البابا يوحنا الثامن المعركة فيتدخل ليحول دون التفاهم بين المسلمين وبعض الجمهوريات التجارية (أمَلْفي ـ Amalfi) . ويدعو الحلف البيزنطي فيحرر الإمبراطور باسيليون الثاني تارانت سنة 880 ، غير أنه لم يستطع أن يحول دون تمركز فئات عدوّة حول أغروپوليس على ضفاف نهر غاريغليانو ، بينما عصابات أخرى تستقر قرب غاييْتْ ـ Gaète ـ في وادي ليري الأسفل الذي كان نقطة انطلاق الغارات إلى الداخل . ويطردهم من هناك البابا يوحنا العاشر والبيزنطيون في السنوات 910 ـ 916 ، فتبعثر الهجمات ولكنها لم تتوقف فعلياً (جَنَوَى سنة 932) . ولم يتم احتواء المسلمين وطردهم إلا في النصف الثاني من القرن العاشر إذ ظلوا يهددون كالابْريا حتى بداية القرن التالي . وفي پروڤانس ووادي الرون حيث قاموا بعدة غزوات وحيث ترددوا بإلحاح عندما اصطدموا بمقاومة عنيفة في إيطاليا ، وينزل فريق آخر منهم سنة 890 في لاغارْدْ ـ فْرِيْنِيْه فوق سان ـ تْرُوْپِيْز . ومن هناك كان ينطلق بعملياته على مدن المنطقة وطرقاتها ، قضي عليه سنة 972

ولم يدق الخطر أبواب الشرق إلا في القرن العاشر عندما سحق الهنغاريون ، الذين استقروا في أودية تيسا ـ Tisza ـ والدانوب ، المورافيين (بين 901 و 906) وهاجموا ألمانيا بأعداد غفيرة . وفي سنة 907 اكتسحوا الساكس وباڤييرا وسنة 908 أعادوا الكَرَّة على الساكس وسنة 909 هاجموا السواب . وفي طريق عودتهم من هذه الغارة هزمهم أَرْنولْفْ دوق باڤييرا فأخذوا بثارهم في السنة التالية وحققوا انتصارا عظيماً في أوغسبورغ ، واعتباراً من سنة 912 أصبحت

الساكس وباڤييرا تحت رحمتهم . وبما أن هذين البلدين كانا غير منظمين تابعوا غاراتهم إلى أبعد من ذلك (سواب وفرنكونيا سنة 912 ، سواب سنة 919 ، إيطاليا سنة 921 وسنة 922 وسنة 924 وسنة 926 وادي الرون سنة 924) . وفي سنة 926 وسّعوا حقل عملياتهم فنهبوا كونستانس وسان ـ غال ، ووصلوا إلى لورين وهاجموا شمپانيا . وأمام هذا التهديد المتزايد لم يكن من ملك جرمانيا الجديد هنري الأول ، إلا أن أعاد تنظيم جيشه . وفي سنة 933 يكبِّد المهاجمين خسائر فادحة في تورانج . ولكن هذا لم يَحُلْ دون وصول حملات جديدة حتى لوران وإيطاليا سنة 937 . غير أنه عند هذا التاريخ بدأ العياء يدب في صفوف الهنغاريين فاستوطن قسم منهم في پانُونيا وفي المناطق المجاورة . وفي سنة 934 ، ربما ، وبسبب المنافسات الداخلية في ألمانيا ، قاموا بهجوم جديد فاحتلوا باڤييرا وريناني وتقدموا حتى إسكو وأحرقوا كامبريه وريمس وشالون ـ سور ـ مارْنْ . ومن هناك انحدروا إلى بورغونيا فإيطاليا ثم عادوا إلى قواعدهم . وفي سنة 955 أعادوا كرَّتهم وحاصروا أوغسبورغ . فيهرع إليهم الملك أوتون ويرغمهم على رفع الحصار ويسحقهم عند نهر لِكْ (Lek) . وعند ذاك يتم زمن الغزوات العظيمة .

ويتكوّن لدينا من سرد هذه الأحداث إنطباع بأن الغرب كان وقتئذٍ محاصراً وكان التهديد مستمراً وكل أقطاره قد دمِّرت ودبّت فيها الفوضى والفساد . والصحيح أن الغارات كانت مدمِّرة وأنها حيثما تمر تخلف الخراب الذي يحتاج إصلاحه إلى وقت طويل ، وتجدر الملاحظة إلى أن الهجمات كانت متقطعة وأنه ، باستثناء بعض المناطق (مثل مصبات الأنهر) هوجمت كل مدينة ونهبت أربع مرات أو خمس في تلك المرحلة . ويبقى أن نذكر استثمارات ريفية عديدة منها مؤقتاً غزوات عصابات السلب والنهب . وأنه خلال السنوات التي هاجم النورمانديون والمسلمون المرافىء على الشاطىء وعلى محاذاة المجاري المائية ، تضررت حركة المواصلات وتقهقرت النشاطات التجارية على المستوى الإقليمي . وقد استهدفت ، بالأساليب نفسها ، الكنائس والأديرة وأتلفت الآثار الفنية ودمِّرت المكتبات العامة ومصانع الكتب وبيوت الصناعات الحرفية . كل ذلك أساء إلى الثروة والثقافة ، غير أنه علينا أن نعترف بأن النتائج ليست دائماً سلبية ، فعلى الصعيد الفكري تعاونت الأديرة لإعادة تأسيس المكتبات . وظلت المدارس ناشطة طالما أتيح لها ذلك . ولكن المقاومة وإعادة البناء اللتين عملتا على استمرارية الحياة حتى نهضة النصف الثاني من القرن

العاشر ، جعلتا الثقافة تنكفىء إلى الأديرة وأسهمتا في تضييق حلقة النخبة التي تقوم اجتماعياً على أسس ضعيفة وسريعة العطب .

وفي المجال السياسي زعزعت النتائج ، التي ترتبت على حاجات الدفاع ، البنى التي حاول الكارولنجيون الأولون إقامتها ؛ لقد تحصنت المدن وأحيطت بالأسوار في حين أن البلاد السهلية بدأت تقوّي دفاعاتها ـ عند المفارق والأودية الضيقة ـ بالحصون الصغيرة . ونتيجة لذلك ، فإن الذين يمارسون السلطة في المدن والذين بحكم وظيفتهم-وأملاكهم يشرفون على الأرياف ، حصلوا عن طريق القوة العسكرية التي اكتسبوها وفي نطاق مقدرتهم على استخدامها وظهورهم كقادة أقوياء ، حصلوا على نفوذ عظيم على المستوى المحلّي ، وخضع لهم الناس الذين وضعوا سابقاً تحت وصايتهم لأسباب إدارية واقتصادية ، وتحول الإمبراطور والملوك ، في نظر هؤلاء ، إلى شخصيات نائية وخرافية لا تأتي بأي نفع .

وهكذا سرَّعت الغزوات الكبرى حركة التفكك التي انطلقت منذ وقت طويل حثيثة الخطى ، في عهد لويس التقي عندما تدخلت الأرستقراطية بشكل فوضوي في الصراعات السلالية . غير أنه من الخطأ الاعتقاد أن الأرستقراطية كانت وحدها في وجه الصعوبات الإستراتيجية والعجز النسبي في السلطات المركزية ، بل كان كل أصحاب الملكيات الكبيرة الذين استفادوا من هذه الأوضاع وأصبحوا ملوكاً صغاراً مستقلين ذاتياً ، تحيط بهم هالة من الاحترام والتقدير . إن هؤلاء ، في حقيقة أمرهم ، حفنة من الرجال الأغنياء المغامرين الأذكياء أو ، بكل بساطة ، المحظوظين الذين استغلوا الأحداث ونجحوا في القبض على زمام القيادة في منطقتهم ؛ وإذا صح القول : طبقة رفيعة من الارستقراطية متحدرة في أكثر الأحيان من الأرستقراطية الكونتية ومن عائلات غنية ، وقد حظيت في فرنسا بحق إنشاء قيادات كبرى تمنح السلطة للبعض منها بطريقة شرعية ، وفي ألمانيا بالاحتفاظ بالدوقات أو بإعادة تنصيبهم ، هؤلاء الدوقات الذين يعود إليهم ، طبيعياً ، الحق بالدفاع عن البلاد وحكمها الأمر الذي وفرّ لأحدهم ، المدعو أوتونْ (Otton) ، الذي أصبح ملكاً ، أن يؤسس سلطة دولية متينة . وعلاوة على ذلك ، لقد أثارت هذه الأخطار ، في الغرب ، نوعاً من الدينامية إذ أحْيَت الحماسة للحرب ، تلك الظاهرة التي لا تسيء ، حكماً ، إلى التلاحم ، لأن كل إنسان يشعر ، في الأوقات الحرجة ،

بضرورة النظام ، ولكن مع الأسف ، فإن هـذا الشعور يتجلى فقط على النطاق الإقليمي ، حيث تكون التهديدات مخيفة ، ولكنه لا يدوم . فعندما يتلاشى الخطر تعود المطامع فتثير الشعور الإنفصالي . وبالمقابل ، كان النورمانديون والمسلمون ، على الصعيد الإقتصادي ، يعرفون كيف يستنبطون من هذه العلاقات العنيفة ، عندما تزول مراحل العنف ، وسيلة لإقامة أفضل العلاقات التجارية . وقد وجدت إيطاليا الجنوبية نفسها شيئاً فشيئاً مندمجة في تيارات المتوسط الوسطى (المغرب) . وفوق ذلك فإن تمركز الدانماركيين في انكلترا (وعلاقاتهم مع إخوانهم في الدانمارك وسكنديناڤيا أسهمت في تنشيط التجارة في مناطق الشمال . يضاف إلى هذا أن تمركز هؤلاء الأقوام الشماليين في الجزر البريطانية وفي النورماندي ـ وقد اعتنقوا أيضاً الديانة المسيحية ـ وكذلك فإن تمركز الهنغاريين في پانونيا ، حمل إلى أوروپا دماً جديداً ربما كان ، كما يقول ر. س. لوپيز أكثر حميَّة وفتوة ، وهو على أي حال ، دم منشط . لكن ذلك لا يمنع من أنْ تكون الميزانية الإجمالية لهذه الغزوات سلبيةً بالنسبة إلى تاريخ بناء أوروپا . لقد سهلت عملية تفكك الغرب .

نهاية الامبرطورية
وظهور النظام الإنتخابي

لم تشكل الغزوات الذريعة الوحيدة التي عملت على نمو القوى المحلية . هناك وقائع كثيرة عملت لمصلحة الأرستقراطية : وفي طليعتها إضعاف الملوك الكارولنجيين نتيجة منافساتهم ومطامحهم وكذلك جهودهم ـ أو أوهامهم ـ في سبيل الحصول على التاج الإمبراطوري وقيادة الإمبراطورية ، واقعياً ، بالرغم من أنه قد أعلن ، بعد ڤردان ، بتأثير من رجال الدين ، أن الإمبراطورية تبقى واحدة وأنه يجب أن تحكم بأُخُوَّة ، وأنه ، بالرغم من التدخلات اللاحقة من قبل البابوية ، لم يكفّ خلفاء لويس التقي عن التصادم ، إمّا لإعادة وضع قضية واقع الأراضي على بساط البحث واستغلال ضعف الدويلات المتفرعة ، منذ وقت مبكر عن تفكك حصة لوتير (القسمة بين أبنائه الثلاثة) ، وإما للحصول على العرش الأسمى الذي لا يزال سحره متوهِّجاً . وقد نتج عن الصراعات العقيمة التي أنهكت هؤلاء وأولئك ومنعتهم من تخطي الصعوبات الداخلية ـ إحجام أكيتانيا عن الأنضمام إلى مملكة فرنسا ومقاومة بريتانيا ، وتمرد بعض الكونتات في ألمانيا ، وفي إيطاليا دسائس دوقات

ساليرنو وبينيفنتو ودوقات العائلات الرومانية : كل ذلك أبرز ، باسم الإتنيات أو رفضاً لكل إذعان ، قوة الأرستقراطيات .

وعلاوة على ذلك ، فيما كانت هذه القوة تزداد نماءً وتجذراً ، كان الملوك يبذرون ثروتهم العقارية وبالتالي قوتهم متظاهرين بالكرم المفرط مع أنصارهم ليطمئنوا إلى إخلاصهم ودعمهم الفعلي . وقد بدأ لويس التقي يتصرف هكذا ، لصلاحه وتقواه ، لمصلحة الكنائس . وفعل أبناؤه ذلك لمصلحة العلمانيين ، واستفادت الأرستقراطية من هذا الإندثار والتلاشي . وأخذ المتمتعون بالحصانات يديرون أملاكهم دون أن يهتموا بما يصنعه الملوك واستقل الكونتات ، لمصلحتهم ومصلحة عائلاتهم ، بالمهمات التي كانت تمنحها الدولة . وقد خلطوا بين الأملاك الأميرية (الأملاك العامة التي يديرونها لمصلحة الملك) والأراضي الممنوحة لهم (الأراضي العامة التي يشكل حق الانتفاع بها معاشاتهم) وقد بلغ بهم الأمر إلى التفكير بأنهم يملكون فعلاً كل أراضي الكونتية التي يديرون شؤونها . وهكذا استمرت إدارة عامة تعمل تبعاً للقوانين التي سُنّت في المرحلة السابقة ولكن فكرة الجلالة الملكية وصورة الملك أصبحتا بعيدتين جداً وعدتا مجهولتين . وإن الحقوق الملكية لم تغتصب من قبل الزعماء الذين ، على الأكثر ، اتجهوا للإندماج بأصحاب الحصانات ، وبطريقة أبسط ، لقد مارسوا هذه السلطات متغاضين شيئاً فشيئاً عن الرجوع إلى سيادة الدولة وإلى السلطة المركزية . وارتبطت أرستقراطية الوظيفة (الكونت) بشكل أوثق بأرستقراطية الأملاك ، إلى هذا الحد وصلت الحال في مطلع القرن العاشر .

وما أوصل الحالة إلى هذا الحد هي الفتن التي حرّض عليها المتنفّذون : في جرمانيا منذ سنة 869 ، وفي فرنسا سنة 879 (وقبل ذلك أي سنة 845) . وقد حاول شارل الأصلع أكثر من لويس الجرماني المقاومة وإعادة تنظيم الحكومة ، وإذ كان منهمكاً بالبحث عن التاج الإمبراطوري فلم يتمكن من فعل كل شيء . وكان قد نظم في كْوارْزِيْ سنة 877 ، بمعاونة الأرستقراطية ، وارتضى وراثة المهمات الكونتية والتبعية الإقطاعية العامة .

وأدى كل ذلك في البداية إلى زوال السلطة المطلقة التي كانت الأكثر أهمية والأقل قوة وصلابة لأنها لم تتفق مع الوضع الإقليمي ولم تبلغ مستوى مشاكل

العصر : أي الإمبراطورية . وقد حاول لوتير من سنة 845 إلى سنة 855 أن يحتفظ لها ببعض التألق . وقد أعاد لويس الثاني (853 ـ 876) بعض سحرها بحروبه ضد المسلمين ولكن لم يكن له أي تأثير فعلي خارج شبه الجزيرة الإيطالية . وبواسطته استطاعت البابوية ، التي كانت بحاجة إلى مدافع عنها في البلاد ، أن تعيد بعض النفوذ المتجدد للسلطة التي كان يحلم بها باستمرار خلفاء شارلمان . وقد أصبح شارل الأصلع (875 ـ 877) ثم شارل البدين (877 ـ 887) إمبراطورين ولكنهما كانا عاجزين عن حُكم دولتيهما الخاصتين بهما . فكيف باستطاعتهما أن يحكما الإمبراطورية . وخلفاء شارل البدين الذين خلعهم أعيان جرمانيا لم يكن لهم لا حول ولا طول ولا نفوذ . وإذا بقي بعض الأثر للأباطرة حتى موت بيرانجيه دو فْرِيُولْ سنة 924 فإن الإمبراطورية كانت قد أصبحت خرافة قبل ذلك التاريخ . إن هذه المنارة التي أنارت الغرب لم تعد تبعث إلا بصيصاً من نور . أما المنارة الأخرى ، البابوية ، فقد خبا نورها منذ موت يوحنا الثامن (882) ، خارج قصور مدينة روما ومستنقعاتها .

والوظيفة الملكية من جانبها قد تحطمت أيضاً . لقد عملت منافسة الأقوياء وأطماعهم ودسائسهم على التخلي عن النظام الوراثي الذي وضعه بيبان بحنكة ودهاء . ومنذ سنة 876 كان شارل الأصلع ، الذي حصل على التاج الإمبراطوري ، يرغب في الحصول على تاج إيطاليا الذي كان يتطلع إليه أحد أبناء لويس الجرماني الذي كان لويس الثاني ، الملك الراحل ، قد وعده به . لقد جمع عظماء الدولة وطلب منهم أن ينتخبوه ملكا ، وفي فرنسا ، يجتمع ، على أثر موت لويس اللجلاج (Le Bègue) ابن شارل الأصلع ، عدة متنافسين : كارلومان ، ولويس الثالث ابن الملك الراحل من جهة ، ومن جهة أخرى لويس الفتى (Le Jeune) بن لويس الجرماني ، فاختارت الأرستقراطية الإثنين الأولين وقسمت الأرض بينهما . وفي السنة نفسها وفي بروڤانس انتُخِب إلى سُدَّة الملك المدعو بوسون (Boson) أحد أصهار شارل الأصلع ، بعد أن يتوارى في فرنسا سنة 884 لويس الثالث وكارلومان ، الواحد تلو الآخر . يعيَّن شارل البدين ملكاً وهو ابن آخر للويس الجرماني ، ويكون في الوقت نفسه إمبراطوراً وملكاً على جرمانيا . ولكن في سنة 887 وعلى أثر انتفاضة ، انتزع منه تاج ألمانيا وانتخب مكانه ابن أخيه أرْنُولْفْ الذي قام بالانتفاضة .

غير أنه في السنة التالية حصل ، في هـذا السياق ، الحـدث الأبرز ، ففي سنة 888 يخلع أعيان مملكة فرنسا شارل البدين (Le Gros) لينصبوا مكانه شارل البسيط .(Le simple) الإبن الثالث للويس اللجلاج . ثم ينقسمـون إلى قسمين ، قسم أيـد غريبـاً ينتسب إلى العائـلات النبيلة الأوستـرازيـة والنـوستـريـة هـو غِيْ دوسْپُولِيْتْ ، والقسم الآخر انحاز إلى أوْدْ بن روبير القوي (Le Fort) الذي اكتسب شهرة خارقة في قتاله ضد النورمانديين . فقر الرأي أخيراً على أوْدْ . وهكذا ينتقل الصولجان إلى يد شخص لا ينتمي إلى السلالة الحاكمة . وبعد عشـر سنوات ، وعلى أثر موت هذا الملك يعودون إلى السلالة الكارولنجية فيعينون شارل البسيط وقد اثبتوا بذلك أنهم أسياد التاج الحقيقيون . وفي التاريـخ نفسه (891) يقـوم الألمان بعمل مماثل ، فيوافقون على عودة ابن أرْنولْفْ ملكاً ولكن بعد أن انتخبوه انتخاباً . وفي سنة 888 يجتمع أعيان ترانسجورانيا (Transjuranie) في بـازيليك آغون ويعلنون المركيز رودولْفْ ملكاً على بورغونيا (الجورا والسهل السويسري) .

التبعية الإقطاعية

وحدث تطور آخر انطلاقاً من التبعية الإقطاعية التي كانت تميل ، منذ البداية ، إلى تقْوية السلطة المَلَكية ، ولكنها أدّت بالمقابل إلى إضعافها ، وتنمية قوة بعض الزعماء وبعض العائلات وبعض العشائر . وقد ذكرنا أن شارلمان كان قد قرر ، من أجل ترسيخ التلاحم السياسي في ولاياته ، أن يطلب ، من جميع الرجال الأحرار ، قَسماً بالولاء أي الإلتزام بعدم التمرد . وكان قد قرر في الوقت نفسه وللغاية عينها أن الفعاليات القوية ـ من عمداء العائلات الأكثر نفوذاً والذين يتعاونون تعاوناً وثيقاً مع السلالة المالكة ، والموظفين الكبار والكونتات وقادة المناطق العسكرية الحدودية ـ كـل هؤلاء سيكونـون من أتباعـه المُقطَعين ، أي يلتحقـون به ليقـدموا لـه بعض الخدمات ، على أن يضمن لقاء ذلك ، حمايتهم وحماية أقربائهم وأرزاقهم . وقد طلب ، في كل منطقة ، من أعيانها ، الوعد نفسه ، وعداً يناله الكونت باسمه وليس بصفته الشخصية . وشيئاً فشيئاً أهمل القَسَم بالإخلاص المطلوب من كل الرجال الأحرار في حين أن التبعية الإقطاعية قد شملت عدداً أكبر من الأشخاص ينتمون إلى الأرستقراطية ، الأمر الذي من شأنه أن يشد الأرستقراطية أكثر فأكثر إلى الحكومة ويبرز الأكثر شهـرة من أصحاب القـدرة الطبيعيـة من هذا الفـريق . فهذه التبعيـة

الملكية ، التبعية العامة وفّرت ، لوقت ما ، بعض القوة للملك . وسنة 877 أقسم الأقطاعيون لشارل الأصلع على تقديم « المساعدة والمشورة » وهي عبارة غير دقيقة ولكنها مع ذلك تعبر عن بعض الإلتزامات . ومقابل ذلك ، يعترف الإمبراطور ، في دِيّيتْ كُوِيْرْزِيْ نفسه ، بالوراثة في التبعية الإقطاعية التي أصبحت بالنسبة إلى الأعيان ، وسيلة للحصول على الوظائف ودرجات الشرف وعلى المنافع (كاستثمار قطعة أرض يطلق عليها تسمية « هبة » كانت تمنح عادة بصفة شخصية) .

إن مرسوم كُوِيْرزِيْ يوحي بغموض في النظام . يحصل الملك على خدمات المقطعين تحت شروط ، وعلاوة على ذلك ، فإن هؤلاء المقطعين راحوا يفهمون من ذلك أنه لا يتوجب عليهم إلا تقديم هذه الخدمة ، لا أكثر ، وأنه إذا لم يحمهم الملك ولا يوزع عليهم الهبات فلا يتوجب عليهم شيء تجاهه . وكان ضعف السلطات المحلية في الفترة نفسها واضحاً ، وقد ازداد وضوحاً في السنوات التالية ، فيما تقلص مجال عمل الملوك ونفوذهم ، فلم يعودوا يعتمدون إلا على إخلاص المقطعين الذي يوافقون على التعاون ، وذلك ضمن نطاق نفوذهم ، وفي مجال آخر ـ وتقريباً في جميع المناطق ـ كانت هذه المقطعيّات التي صمدت ونمت تعمل لمصلحة الكونتات وبعض الكنائس ذات الحصانة التي أوجدت لنفسها مقطعين تابعين ؛ وقوّت السلطات الكونتية التي بعد أن أصبحت وراثية ، انفصلت نهائياً عن الملوك وعن السلطات التي تعلوها والمتفرعة عن القيادات العليا والدوقيات وفئات أخرى . وزادت من طاقة الطبقة الأرستقراطية الرفيعة التي تقاسمت ، هكذا ، التبعية ولا سيما المخلصين الذين لهم مصلحة في نجاح قادتهم . وكل هذا يشير ، من جديد ، إلى أن القدرة ، في توزيع المراكز الإجتماعية ، وبالإستناد إلى ترابط مجتمع ذلك الزمن ، تعود إلى بعض العائلات وبعض الشخصيات التي تتمتع بها فعلاً ، كما كانت الحال ، لجيلين خَليا، تبعاً للمثل الذي أعطاه أجداد پيپان لو بْريف وشارلمان عندما برزوا ونجحوا سياسياً .

تجزئة الأراضي

وبتأثير الغزوات وتحت ضغط الإقتصاد الزراعي ونتيجة لانقسام الشعوب إلى فئات متميزة ، وفوق هذا كحصيلة لتصرف قادة الطبقة الأرستقراطية ، تفتّتت البنى الإقليمية إلى درجة أن تقسيم ڤردان ظهر وكأنه مؤشر بسيط لحركة التفكك ، حتى لو

احتفظت بعض الحدود التي رسمها بقيم عادت فظهرت فيما بعد . وقد حصلت الإنشقاقات باكراً فنشأ عنها تكتلات محلية .

وهكذا تتكون في نهاية القرن التاسع الإمارات الإقليمية الواسعة ، التي هي دستورياً دول حقيقية يمارس فيها « الأمراء » كل السلطات التي كانت سابقا من اختصاص الملك ، وما زالوا ـ كما كانوا ـ مرتبطين بالتاج بقَسَم الولاء والتبعية الذي يؤدي إلى التزامات محددة . وكانت الإمارة متجانسة ، على عكس الإمبراطورية والممالك . كانت تنطبق على الأبعاد الزمانية ، فيستطيع قادتها أن يفهموها ويفهموها للآخرين بشكل محسوس . ولقد حدث تقدم على هذا الصعيد .

وظلت تُحكَم تبعاً للقوانين الكارولنجية وبواسطة الحكام أنفسهم (كونت أو نائب كونت) . وفي بعض الحالات يتخذ الأمير لنفسه أو يُعطى لقب دوق يضعه فوق الكونتات ويمنحه نفوذاً خاصاً وأحياناً أملاكاً دوقية (منتزعة أو مقتطعة من مخصصات المراكيز الذين يحكمون المناطق العسكرية الحدودية = الألوية) ، ويشرف على السلطة القضائية الكونتية في عدة كونتيات . وبفضل هذه السلطات يفرض نفسه على زعماء القطر الذي يحكمه . كانت الإمارة في أواخر القرن التاسع وبداية العاشر واقعاً قانونياً عاماً .

ويمكن أن نلاحق تكوينها بسهولة . ففي أكيتانيا الوسطى يستغل برنار پْلانْتِڤِلْو (B. Plantevelu) ، مركيز تولوز ، في سنة 880 ، فشل جاره وسميِّه برنار دو غوني الذي حاول أن يستقل استقلالاً تاماً فأثار هذا الأمر اتحاد الزعماء الآخرين . وإذ يستغل فشل محاولات بوسومْ في بورغونيا يصبح سيِّداً ، بالإضافة إلى منطقة تولوز على غونيا وأوڤرنيا وليموزين وبري وماكونيا وليون . وتنتقل هذه الأراضي سنة 886 إلى ابنة غليوم التقي (مؤسس كلوني = Cluny) الذي لم يستطع أن يحتفظ بمنطقة تولوزان التي ، بعد أن شكلت مع المناطق الباقية إمارة حقيقية ، ألغيت منها كل سلطة أخرى ، اتخذ لنفسه لقب دوق أكيتانيا .

غير أن « دولته » المترامية الأطراف لم تصمد بمقتضى هذا التنظيم . بالمقابل ، ففي المرحلة نفسها ، يضم أخو بوسومْ ، ريشار العادل ، الأراضي البورغونية ويسيطر على حوالى 15 من الكونتيات (في أوتُونْوَا وبِيْنْوِنْيه وأُوكْسِيرْوَا

ودِيْجُونيْه وبلاد اللانغرا) . إنه أول دوق في بورغونيا . وفي شمالي اللوار ، في نوستريا يبسط أوْدْ سليل روبير القوي وجد الكاپيين (Capétiens) سلطاته على مناطق مختلفة . ويبرز النورمانديون بعد قليل من سيطرتهم على دوقية النورمانـدي التي تأسست إلى شمالها كونتية الفلاندرا بالذات وبلاد الواس (Waas) وكُورتْرِيْه والغانْدْ (Gand) وآرْتْوَا وتِرْنوا (Ternois) وبعد ذلك بولونيه (Boulonnais) وتورْ .

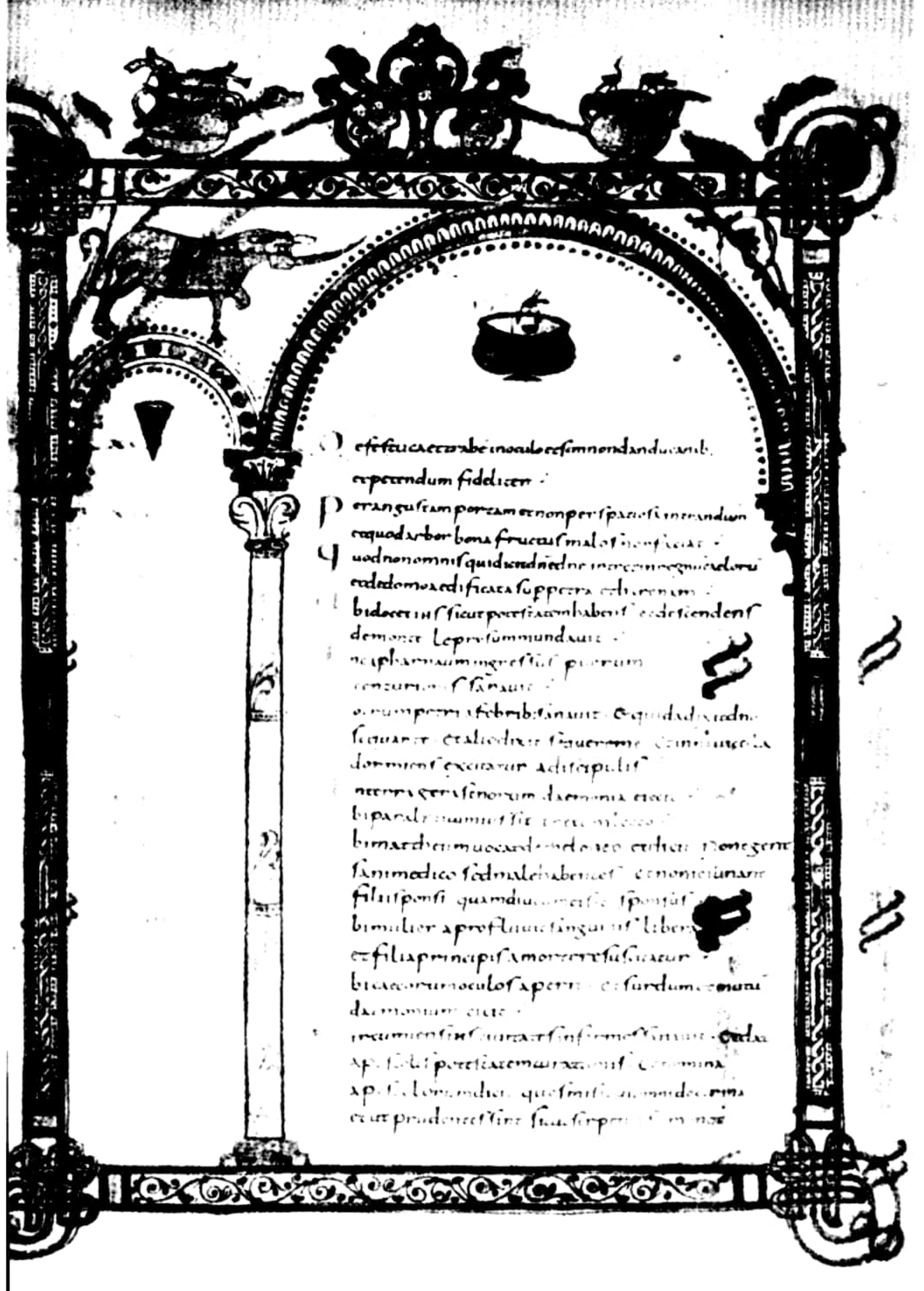
وفي ألمانيا تتخذ حركة التفكك طابعاً أكثر خصوصية ، إذ يلعب العنصر العرقي دوراً خطيراً ، وقد احتفظت الشعوب الجرمانية ، في أكثريتها ، بدوقاتها الوطنيين حتى القرن الثامن ، وبخضوعها للملك الكارولنجي ، الذي إذ ألَحّ على إلغاء منصب الدوقية لم يتعرض لبقاء الفئات العرقية التي ظلّت منعزلة بعضها عن البعض الآخر والتي تجمعها اللغة والأعراف القانونية وغالباً ذكريات الماضي . وبالإضافة إلى ذلك لقد نظمت الحقوق القومية لهذه الشعوب ودُوِّنت كتابة في تاريخ متأخر كما كانت الحال بالنسبة إلى قانون الألمان والقانون الباڤاري اللذين حررا ودوِّنا في النصف الأول من القرن الثامن ؛ أو بالنسبة إلى القانون الساكسوني الذي دُوِّن في مطلع القرن التاسع . وبعد مئة سنة أهملت هذه القوانين لأنها ، على الأرجح ، لا تنسجم مع الظروف الإجتماعية للعصر ونشأ عن هذه القوانين قانون عرفي مدعوم بمبدأ إقليمية القانون ، انتشر متنوعاً من شعب إلى شعب محافظاً ، بين أفراد كل سلالة ، على ضمير الجماعة القضائي .

وفي نهاية القرن التاسع لم يعد للدوقات الذين يترأسون الفئات القومية ، أي علاقة وثيقة بالسلالات الدوقية القديمة . إنهم ينتمون ، في آن واحد ، إلى الأرستقراطية المحلية (أو متحدون معها) وإلى طبقة نَبالة المناصب الكارولنجية . وإنهم ، كما في فرنسا ، يجتذبون إليهم كبار القوم الذين يقرِّب الشعور الجماعي بعضهم من البعض الآخر ، ويجعلون مهمات هؤلاء وألقابهم وراثية . هكذا نشأت الدوقيات القومية الأربع في ساكس وفرنكونيا وسواب وباڤييرا .

وكان الدوق الأول في سواب ، البلد الواقع في شمالي ألمانيا شخصاً يدعى لْيُودُولْفْ (Liudolf) توفي سنة 866 . ويزيد ابنه أوتون من قوته ويبسط سلطته إلى تورانج . ودوقية فرنكونيا التي كانت من الجهة الجنوبية محاذية لوادي مِيْنْ ومجتازة الراين في الغرب بين مايِنْسْ وكارْلسْروهِي (Karlsrühe) ومحاطة جنوبياً بنهر نيكار



19 - لوتير الأول، امبراطور كارولنجين «سلطة عليا ووحيدة». غلاف كتاب الاناجيل خاصته



20 - كتابة كارولنجية ومنمنمات ملوّنة. كتاب الأناجيل الخاص بلوتير

(Neckar) وشرقاً بـ رانِيِتْز (Reignitz) ، كانت في نهاية القرن التاسع مطمحاً لعائلة بابِنْبِرْغ (بابِرْغ) ولعائلة كونْرادان المستوطنة في رينانيا . وتكون الغلبة لهذه العائلة الأخيرة . وفي دوقية سْوابْ الواقعة إلى الجنوب من نيكار التي يفصلها نهر لك (Leck) عن باڤييرا وتنتهي عند سلاسل جبال الألپ العليا وقد ضُمَّت إليها الألزاس (ابتداء من 912) ، يتسلم منصب الدوق فيها سلالة آتية من لوتارانجيا القديمة ومنشأها منطقة بحيرة كونستانس . أما باڤييرا ، الواقعة شرقي فرنكونيا وسواب ، الأكثر تماسكاً من الناحية العرقية فيحكمها أوّلاً الكارولنجي أرْنولْفْ الحفيد غير الشرعي للويس الجرماني . ثم يؤول حكمها ، عندما يصبح هذا الدوق ملكاً ، إلى أحد زعماء المقاطعة المدعو لُيودْ بُولْدْ الذي يضم إليها المناطق الحدودية لبوهيميا وكارنثيا .

وفي المرحلة نفسها (أي بداية القرن العاشر) تصبح لوتارانجيا ، الإقليم الممتد من الفلاندرا وفْرِيزْا إلى الفوج وتصبح مملكة ابتداء من سنة 865 ، تتحول دوقية اللورين التي يدير شؤونها أحد أعضاء الأرستقراطية المحلية ، المدعو رينْيِه الطويل العنق (Règnier au long col) وتندمج بمملكة جرمانيا فتشكل الدوقية الخاصة فيها وتتميز عن الدوقيات الأخرى بكونها ضُمَّت مؤخراً إلى المانيا وبعدم وجود أي وحدة إتنية فيها . وكان قبل ذلك قد ظهرت دوقية تْرانْسْجورانْيا (من الجورا إلى الألپ البِنينِيَّة) التي أصبحت مملكة « بورغونيا » ابتداء من سنة 888 .

وما سهَّل هذه المسيرة ، في إيطاليا ، الإنقسامات السياسية التي كانت موجودة . فإلى جانب دويلات الكنيسة ، كانت تتجمع مركيزيات توسكانا وفريول وإيڤريه ويستقل بعضها عن بعض ، بينما بقيتْ الدوقيات اللومباردية والبيزنطية في الجنوب على حالها . وتأسست حول مودينا وپارما وپلايزانس وكريمونا وبرغامو إمارات كنسية يمارس فيها الأساقفة السلطات الكونتية باستقلالية . وپروڤانس التي أصبحت مملكة تمثل دولة على صورة هذه الإمارات نفسها .

زوال أوروپا الكارولنجية

وهكذا توارت أوروپا الكارولنجية في النصف الأول من القرن االعاشر . ولكن ما جاء بعد ذلك لم يكن يشبه إطلاقاً ما كان قائماً قبل ظهور تلك السلالة . والعمل

الذي أنجزته السلالة الكارولنجية أدّى إلى تجاوز الخلافات السابقة وحطم البُنى التي كانت مسبّبة لها . وأثيرتْ رغبة ثابتة في التلاحم . ولا شك في أنه لهذا السبب الرئيسي لم يتلاش كل شيء في هذا الانهيار الذي حصل . وظلّتْ في الأذهان والتقاليد السياسية فكرة حيّة عن الدولة والسلطة العامة التي حُدِدّتْ قانونياً بالحقوق الملكية ، حتى لو استأثر بهذه الإمتيازات رجال لا يحق لهم نظرياً امتلاكها . واحتفظتْ الحياة العقلية ، التي تجدّدتْ في القرن التاسع ، بحيوية ظهرتْ بفضلها نهضة جديدة بعد ذلك بعدة عقود من السنين ، لأنه ليس في المجال السياسي ، كما في سائر القطاعات الأخرى ، قطيعة تامّة . ويمكن أن نضيف إلى هذين الإنجازين ، اللذين يؤلفان الجزء الأساسي مما يسجّل في رصيد الميزانية ، متابعة عمليات التنصير والتنظيم الأفضل للنشاطات الإقتصادية ، مع الملاحظة أن الكارولنجيين لم يكونوا في ذلك مجدّدين ، لقد أسهموا في مشروعات انطلقتْ قبلهم بزمن طويل فلا يمكنهم إدعاء السيطرة عليها .

تجاه ذلك ، كان الدَّيْن باهظاً إلى درجة تسمح لنا بالتساؤل ما إذا لم تكن قوى الإنفصال دائماً أكثر تأثيرا من حجج الإتحاد ، وما إذا كان الصرح الكارولنجي عرف حقاً ـ لبضع سنين فقط ، من 780 إلى 820 ـ متانة حقيقية . لقد كان يستند إلى مساهمة تامة لأرستقراطية قوية ويتشكل من نظام مؤسساتي متين . أيمكننا ، والحال هذه ، أن نؤكد أن الأرستقراطية بكاملها قد ساندتْ فعلاً عمل الملك في وقت من الأوقات ؟ ألم يكن في صفوفها دائماً منافسات وانقسامات عرقية ومطامع سياسية ومادية متناقضة ؟ هل وُجدتْ جماعة أخرى غير تلك كانت تحوك المؤامرات لتقاسم المنافع أو بالأحرى تلك التي كانتْ تصطنع الأنصار للتمتّع معاً بخيرات السلطة ، مستبعدة كل الآخرين ، أولئك الذين كانوا يعارضون وأولئك الذين لم يحسنوا الدخول في صُلب القضية ؟ أمّا المؤسسات التي كان برنامجها واضحاً وذكياً فهل كانت تعمل بانتظام ، لمصلحة الدولة ؟ هل كانت تُدار وتُراقب بطريقة تسمح لها ببلوغ أهدافها المحددة ؟ وما هي بالتالي تلك الأهداف ؟ إن ذلك لسؤال أساسي ولكنه يظل مطروحاً في تعابير غامضة لأن غائية الإمبراطورية ، التي ترغب في أن تكون إعادة تأسيس للدولة ، هي خدمة الدين الذي لا يريد أن يعترف لهذه الدولة بغائية خاصة .

وإذا أضفنا إلى أنه ، باستثناء الأرستقراطية ، لم يكن لسكان الإمبراطورية الآخرين فكرة عن المشاركة في الحياة السياسية ، وأن عملية نشر الدين المسيحي تمتْ في الدرجة الأولى لتكوين شخصية مكتملة للنخبة بتزويد الكنيسة والأكليروس وليس السلطة السياسية ، بطاقةٍ تزداد يوماً بعد آخر . فلا بد لنا من الأستنتاج أن النجاح الكارولنجي لم يكن فقط عابراً ولكنه كان أيضاً وهمياً . ويكتشف كريستوفر دَاوْسِن ذلك ويقرِّظه من خلال النجاح الفكري والثقافي . ولكن إذا كان صحيحاً أن العمل الذي أنجز في هذا المجال ونقل إلى الحضارة الأوروبية التي في طور الإعداد ، قسماً من إرث الثقافة القديمة ، فإنه من المبالغة الإعتبار أنها هي وحدها التي أوجدت فعلياً هذه الحضارة وأنها وَطّدتْ « قِيَماً » معترفاً بها . لأنها لم تحددّ أبداً بوضوح الذرائع التي تقدمت بها إلاّ على الصعيد الروحي والديني البحت . إن المواقف التي أدّى إليها التفكير الذي كونته « الحضارة » تجاه مشاكل الحياة إنما كانت تعني رجال الدين ولا سيما الرهبان ، ولكنها لم تكن لِتعني المجتمع بكامله حتى ولا النخبة العلمانية . باختصار ، إذا كان البعث الذي حصل في القرن التاسع يمكنه ، مع بعض التحفظات ، أن يُعتبر صفحة من سفر تكوين الثقافة الأوروبية ، فمن المستحيل الإدعاء بأنها شكلتْ النبع الذي كان كافياً لإروائها وازدهارها .

وأخيراً ، ألم تكن أوروبا الكارولنجية مجرّد خرافة ؟ ليست ولادة قصيرة العمر ، كما قيل غالباً ، ولكن بعث مزيف ناتج عن رغبة في توحيد ما لا يمكن توحيده ، في إطار متداع ، برجوعنا إلى تصورات ووسائل موروثة عن التاريخ الروماني القديم . هل كانَ ممكناً ترميم النظام الروماني بالرغم من التداعي والنزع اللذين حاربهما الرجال الشجعان على مدى ثلاثة قرون ؟ وإعادة صنع حضارة متجانسة كما لو أن الشعب يستطيع بسحر ساحر أن يتجاوز تناقضاته أو كما لو أن هناك بوتقة تصهر في مزيج واحد متجانس كل هذه الأجسام الغريبة ؟ أو تجديد فعالية السلطة والمؤسسات ، كما لو أن الغرب في تلك الأيام لم يكن قارّة متخلفة فاسدة الإدارة ؟

إن أوروبا الكارولنجية التي لم توجد عملياً على الإطلاق إنما هي ، أوروبا المطامح والنوايا التي حُددتْ وأعدتْ بدون خبث ، ولكن حُبِلَ بها وعاشتْ في الأوهام .



الفصـــل الثالــث

أوروبـا الرومانيـة
أو زمن البذار الأوَّل

من منتصف القرن العاشر إلى
منتصف القرن الثاني عشر

يذكر دنيس رُوجْمُونْ في مقالة له عن أوروبا بعنوان «عشرون قرناً من تاريخ أوروبا» فيقول إنه، خلال السنوات الأولى من القرن الحادي عشر، كان مفهوم أوروبا الموحَّدة معروفاً ومذكوراً في بلاط الأباطرة الجرمانيين الجدد، ويذكر أن الإمبراطور هنري الثاني، الذي كان مطرَّزاً على ردائه عبارة «شرف أوربا» بكته «أوروبا بكاملها» عند وفاته سنة 1024. ومقابل ذلك، فإن المرحلة التالية، بالنسبة إليه، هي مرحلة «الكسوف القروسطي للوعي الأروبي». ففي تلك المرحلة ،أي في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، لم يعد الناس الذين تربطهم بُنَى واحدة وتحكمهم إلتزامات واحدة، وهم يشعرون بتعاون ما، لم يعودوا يشعرون، خارج العالم الكارولنجي، بما يقربهم أو بما يوحِّدهم.

فهذه الملاحظة، التي جاءت لتؤكد أن عناصر التفرقة كانت من القدرة بحيث إن الوفاق لم يعد مرغوباً فيه ولا التماسك مطلوباً على أي مستوى وفي أي قطاع ولدى أي فئة من الناس، ترتكز في شكل أساسي على رؤيا وهمية للصرح الكارولنجي الذي اتُّخِذ نموذجاً صالحاً لوحدة القارة التي بعثت في معاصري شارلمان ولويس التقي، بفضل الإمبراطورية، «وعيا أوروبيا». زد على ذلك أن هذه الملاحظة، إذ ترفض كل تحليل، تكتفي بتقويم سطحي «لقوى التفتت» وخاصة الإقطاعية التي كانت فوضى ورفضاً شاملاً لتنظيم متماسك وتمتعا شَرِهاً بالمنفعة الخاصة، في حين أن الإختصاصيين الذين لاحظوا، هم أيضاً، منذ وقت طويل، التجزئة التي سببها النظام الإقطاعي، يبرهنون كيف عبَّر هذا النظام عن «تعاون ذوي

القربى» في فئة من الفئات.

على أنه يجب أن نعترف بأن المؤرخين المحترفين اهتموا بهذا النقاش الذي أيّد فيه بعض المؤلفين آراء دنيس رُوجْمُونْ «منهم برنار فُوَايَّان مثلا». وقلما حاولوا إلقاء الضوء على ما وحَّد الأفراد والجماعات على مستوى القارّة. ولكنهم عندما قاموا بذلك. لجأوا إلى تواليف ظلت معطياتها الأساسية محصورة في بعض القطاعات وتعني بنية وحيدة، كالإقتصاد والمؤسسات والدين. بيد أن ر. س. لوپيز يشذّ عن القاعدة ويكشف عمّا قرَّب بين الناس منذ منتصف القرن العاشر؛ ولكنه بعد أن ذكر هذه الملاحظات البارزة والسريعة، استسلم هو أيضاً، لسلسلة من التحاليل الخاصة التي تخللتها هناك وهنا بعض الآراء المقتضبة والتأكيدات حول ولادة أوروپا. إن هذه اللازمة الصغيرة لم تستطع مع الأسف أن تنوب عن سيمفونية. عنده كما عند الجميع «تغطي الأشجار أكثر الأحيان الغابة».

ومن السهل أن نلاحظ، ابتداء من سنة 950، تبدلاً عميقاً في الغرب استمر حتى سنة 1150 ترك في البلاد التي يتكون الغرب منها بُنًى وتصرفات تختلف اختلافاً بيِّنا عما كانت عليه في الماضي. ومن الواضح أن هذا التحول أدّى باستمرار إلى بروز عناصر التشتت والفوضى والتنافر. ومن الأكيد أن هذا التبدل ليس عملاً متعمَّداً أو سعياً واعياً لتضامن تام وتعاون شامل. ولكن من الحق أنه، في ثنايا هذه المواجهات الجدَلية القوِّية نشأت وتدخلت آراء وقوى حدَّت من التناقضات، وقد اعتبرها المعاصرون أساس المجتمع الغربي، آراء قوى كان من المستحيل بدونها، اعتباراً من سنة 1150 تشييد أوروپا المسيحية ـ العالم المسيحي ـ في القرن الثالث عشر.

وعلى المؤرخ أن يقدِّر بأي نشاط وحيوية برعمت هذه البذور المزروعة ونبتت في حين كان الزؤان ينمو إلى جانبها.

الاحداث الكبرى

الانتعاش السكاني

وفي النصف الثاني من القرن العاشر يُعيد التاريخ دورته. فطرأت عوارض

تنبىء بأنه بدأ الخروج من دائرة الشك والقلق وأخذ الجليد يتحطم. وانبعثت الدينامية، ونشطت في كل القطاعات: إنه عصر الإقتصاد المتجدد، وإنه بالنسبة إلى شعوب الغرب خاصة، عهد الشباب الجديد؛ انطلق ربما استناداً إلى ما يقول ر. س. لوبيز، من لقاء وغالباً من انصهار جيل الشباب وتكونه من الفئات الغازية التي لا ماضي تاريخياً لها «إنهم النورمانديون والهنغاريون وغيرهم..» مع الشباب المتشبث بالتقاليد الحية للأمم القديمة.

وابتداءً من هذه السنوات غدت انطلاقة النشاطات الإقتصادية وإزدهارها مؤكدين ولا يقبلان الجدَل. وإن بواعث هذا التحول هي أكثر من أن تحصى. ولكنه من الصعوبة إلقاء الضوء على جميعها بواسطة تحليلات دقيقة. كذلك يصعب تحديد تأثير كلٍّ منها، لأن هذه الأدلة تضرب أكثر الأحيان، على أوتار تاريخية مختلفة، بعضها انطلق بنشاط منذ منتصف القرن العاشر وأحياناً قبل ذلك، وبعضها الآخر خلال القرن الحادي عشر فقط. فكل هذه البواعث أو أكثرها ظل يفعل فعله وأسهم بعد أواسط القرن الثاني عشر، بإرساء بنى جديدة وتشكيل ذهنيات جديدة هي بنى المسيحية وذهنياتها في القرن التالي.

إن استخدام الحديد بشكل أفضل وأكثر انتشاراً، هذا الاستخدام الذي أبرزه التاريخ ابتداءً من القرن الحادي عشر، كان عاملاً حاسماً في مجال التطور. ويسهل علينا، دون الدخول في دراسة خاصة لأسباب هذا النمو ووسائله، أن نأتي على ذكر نتائجه. لم تعد تصنع عدة من خشب، واستعيض عنها بآلات معدنية أقسى وأصلب تتيح القيام بالأعمال الشاقة وتسمح بنوع خاص بفلاحة أعمق وأعرض وإبدال المحراث ذي السكة الحديد بالمحراث الخشبي السكة، وعُمِّم في الوقت نفسه، واستناداً طبعاً إلى هذا التحول، تطبيق التقنيات المعروفة سابقاً التي حال دون استعمالها العجز والخمول. من ذلك استخدام أفضل للقوة المحركة لمجاري المياه المستخدمة في تشغيل طواحين الحبوب والزيت - بانتظار طواحين الدِّباغة[1] وغيرها. الأمر الذي أدّى إلى بناء طواحين على ركائز متينة وإلى تغيير مجاري الأنهر أحياناً أو حفر أقنية فرعية أو إنشاء مصبّات للمياه تزيد في سرعة جريان الماء؛ والإستعاضة عن النماذج التقليدية القديمة بوسائل جديدة، لشَدِّ الحيوان إلى

(1) طواحين لسحق قشر البلوط المستعمل في الدباغة - م -.

المحراث ـ طوق الكتف بالنسبة إلى الحصان والنير بالنسبة إلى الثيران ـ تزيد من طاقة الجر. والإصلاح الأول للأراضي والبدء بنظام المناوبة الزراعية الثلاثية الحول الذي بإعطائه موسمين كل ثلاث سنوات، بَدَلاً من موسم كل سنتين، زاد الإنتاج بنسبة كبيرة. وبرز كل ذلك بعد استصلاح أراضٍ جديدة وتقويم أراضٍ أخرى وتناثر الملكية الكارولنجية القديمة (المزرعة الريفية) التي حلت محل الإقطاعات الصغيرة فيها إقطاعات تمنح مدى الحياة لقاء بدل سنوي يعتبر إلى حد ما ثمن إيجارها، وزالت السخرة نهائياً وازدادت النشاطات الحرفية والتجارية ووضع ابتداءً من سنة 1150 تنظيم جديد للإقتصاد والمجتمع.

وشاء الحظ، الذي بدونه لم يكن هذا ا لتطور ممكناً ـ ولكن أهي الصدفة أم تحسن ظروف الحياة والتغذية؟ ـ ألاّ يعرف العصر أوبئة مخيفة ونَدُر القحط والفقر شيئاً فشيئا على مدى القرن الحادي عشر وأصبحا أقل شمولاً وازدادت مقاومة الناس لهما. والحروب أيضاً لم تعد فتّاكة حتى ولو تكررت لبعض عقود من السنين، والحرب في حالتها الدائمة ، كما يحلو لبعض المؤرخين أن يقول ، العنيفة الشرسة التي يصحبها القتل والإغتصاب والخطف والحرائق، لم تعد تودي بالكثير من الضحايا، بالمقابلة مع الخسائر التي نجمت عن الغزوات الجرمانية والفتوحات الكارولنجية ومع صراعات القرنين الرابع عشر والخامس عشر. وغدا القتل نادراً والتقاتل قليلاً لأنه لم يعد يتواجه في المعركة، كل مرة إلا القليل من الرجال ، ولأن الحرب لم تعد تعني ولم تعد تهم سوى فئة محدودة، وأخيراً لأن الغاية التي حُدِّدت لها والهدف الذي يسعى إليه المقاتل باستخدامه قوته وبظهوره بمظهر الشراسة، لم يعودا للتدمير ولكن للأسلاب والمغانم.

تفسر هذه الظروف وهذه التحولات الإزدهار السكاني الذي ظهر كنتيجة لتطور عام أكثر مما هو سبب حتمي يشكل حدثاً خطيراً في تاريخ الغرب لهذه القرون. وبدأت الحركة ببطء في حدود سنة 950 وتسارعت في النصف الثاني من القرن الحادي عشر وتميَّزت بنشاط استثنائي ابتداء من السنوات 1140 ـ 1150، الأمر الذي يُلقي الضوء على طاقة المرحلة اللاحقة. وأصبح تزايد عدد السكان القوة الدافعة لكل شيء: عوارض تجدد الدينامية، أو هي الدينامية بعينها. لأنّ يستحيل على المؤرخ أن يعطي في هذا المجال أرقاماً دقيقة ، هو شيء ثانوي فيّ الموضوع،

لقد زاد عدد سكان إنكلترا بين سنة 1086 وسنة 1348 من 000 1100 إلى 000 3700 نسمة، وسكان فرنسا زاد عددهم ما بين سنة 1100 وسنة 1300 من أقل من خمسة ملايين بقليل إلى خمسة عشر مليوناً. ويكفي أن نعلم هنا أن الغرب شهد عدد سكانه يزداد ما بين سنة 950 وسنة 1150 بنسبة50٪ على الأقل، ثم يتابع هذا العدد ارتقاعه بسرعة وقد استعادت الشعوب حيويتها التي كانت تبدو خامدة في القرون الماضية.

تـوسُّع أوروبـا

ويتجلّى هذا النشاط أولاً بتمدد إقليمي يضم أقطاراً جديدة وشعوباً جديدة إلى العالم الكارولنجي القديم، فيصل تقريباً إلى الحدود الجغرافية لأوروبا الحالية، وتم هذا التوسع بتأثير الإزدهار السكاني، ولكنه تأثر بالنشاط الحربي المتجدد، وأكثر من ذلك، بإرادة التنصير التي عبَّر عنها بعض الأساقفة والتي هي بدورها مظهر من مظاهر الدينامية المستعادة.

وكما كان يحدث في المراحل السابقة وعلى الأخص إبَّان الغزوات الجرمانية ، كانت الشعوب تتحول إلى الدين المسيحي لأن قادتها كانوا يعتنقون هذا الدين ويجبرونها بالتالي ، بوسائل مختلفة ، على ترك عباداتها التقليدية واعتناق الإيمان المسيحي. وقد قام هؤلاء الأمراء بهذه الخطوة الأساسية في نتائجها على تاريخ الغرب، لأسباب سياسية ولأنهم كانوا يحكمون ويقودون شعوباً متنافرة مشتتة جماعات متعددة لا يزال لبعضها تنظيم قبلي، وجدوا في الدين الكاثوليكي، وعلى الأخص في الكنيسة التي ترعى هذا الدين وتنشره وتستخدمه بواسطة الإكليروس ، عنصراً يسمح لهم بتأسيس دولة قابلة للاستمرار. «إن إدخال المسيحية إلى البلاد من شأنه أن يضع في خدمة الأمير، شبكة تقدِّم لسلطته المركزية دعم تلك الطاقة السحرية المظهر. إن اعتناقه الدين الجديد واستدعاءه المرسلين المسيحين يؤمن له دعم الكنيسة غير المشروط»[1] وإذ يقوم الأمير بهذا العمل، مهما يكن رأيه في الكنيسة، فإنه يجد في الدين الكاثوليكي قيمة استثنائية يستخدمها من الناحية السياسية والأخلاقية معاً. ولكن عندما يمر زمن العمل السياسي يقرن دولته ورعاياه،

---

(1) ج. دُونْدْتْ وم. روش من كتاب: أوائل العصر الوسيط ص. 204 .

على الصعيد الأخلاقي، بعجلة الشعوب ذات التقليد المسيحي ويربطها بهم لقرون عديدة.

كان التحول إلى المسيحية في سنكديناڤيا، بطيئاً ومشوشاً. فبعد أن توقف هذا المشروع في نهاية القرن التاسع، استؤنف العمل به في 930 ـ 940. وفي الدانمارك، حمَل انتصار الملك الجرماني هنري الأول سنة 934 ثم الإتصالات التي أجراها أونّي (Unni) رئيس أساقفة هامبورغ منذ سنة 960 الملكَ هارالْدْ وابنه شْفِنْ (Sven) على قبول سر العماد وعلى مساعدة المرسلين الألمان. وفي حدود سنة 980 شيِّد نصب على شرفَ هارالْدْ الذي سمح، كما قيل، لكل الدانماركيين بالتحول إلى المسيحية. غير أنه في ذلك التاريخ، لم تبلغ الأمور هذا الحد، وذلك ربما لتعلق الجماهير بالوثنية. ونتيجة مناهضة مهمة تولى أمرها الألمان فتوجب انتظار عهد كْنُوتْ (Cnut) الكبير (1018 ـ 1035) الذي ملك على انكلترا والدانمارك فأرسل إلى القطر كهنة ورهبانا بريطانيين لكي يكون النجاح تاما. ويتفق جميع المؤرخين على اعتبار أنه في حدود سنة 1060 أصبح البلد مسيحياً، بالرغم من أن بعض الإلتزامات المسيحية لم تكن فيه محترمة. وفي بداية القرن الثاني عشر، كانت ترقية كرسي أسقفية لوْنْد (Lund)، المتفرعة عن رئاسة أسقفية هامبورغ إلى مرتبة كرسي رئيس أساقفة، خاتمة رسمية لعهد التبشير.

وفي النروج كان أمراء الڤايكنغ الذين تنصروا وتعمدوا في الخارج على أثر هجرات ضخمة، ثم الذين أدخلوا الدين المسيحي، من هؤلاء هاكون (Haakon) (938 ـ 961) وأولاف تريغفِسُّون (Tryggvesson) (951 ـ 1100) والقديس أولاف (1014 ـ 1030) وقد اعترضتهم صعوبات كثيرة. لم ينجح هاكون على الإطلاق، ولاقى تريغفسُّون شيئاً من النجاح بمساعدة مرسلين إنكليز ولكن الوقت لم يسمح له بمتابعة عمله. أما القديس اولاف الأكثر تجربة فقرر القضاء على الوثنية واضطر أن يفعل ذلك بقوة السلاح فقتل أثناء المعارك، غير أن النتائج كانت بعده أكثر وضوحاً ففي منتصف القرن الحادي عشر كان في المملكة ثلاث اسقفيات وبلغ عددها خمساً في بداية القرن الثاني عشر بعد كرسي رئيس أساقفة في نيداروس (تروْنْدهايْم). وزيادة على ذلك لقد حمل بعض الكهنة النروجيين، منذ القرن الحادي عشر، المسيحية إلى إيسلندا وغروينلندا (حيث قضى عليهم الإسكيمو في القرن الرابع عشر).

أما تاريخ نشر المسيحية في السويد فهو غير معروف جيّداً ومما لا شك فيه أنه في القرن العاشر، كانت بعض الجماعات المسيحية القليلة العدد لا تزال موجودة وتشهد على عمل أنْسْغَارْ ورَامْبِيْرْ حول بِيْرْكَا وسِغْتونا (Sigtuna). وفي بداية القرن الحادي عشر تنصر الملك أولاف سْكُوتْكُو نُونْغْ (Skottkonnung) فيتحقق عندئذ بعض التقدم. وفي سنة 1080 كانت أُبْسَالا لا تزالُ مع هيكلها، مركزا وثنيا مشهوراً وناشطاً. ولم تتحول المنطقة فعليا إلى الديانة الأوروبية إلا خلال القرن الثاني عشر، وكانت تعد في ذلك التاريخ ست أسقفيات تابعة لمدينة أبسَالا التي أصبحت عاصمة أسقفية سنة 1164.

وفي الشرق كان العمل، على عكس ذلك، أكثر وضوحاً وفي شكل عام أدق وأرسخ تنظيماً، ولو أن المقاومات الوثنية امتدت تحت ستار جديد. وفيما كان يجري تنصير بوهيميا (تأسيس أسقفية پراغ) ومورافيا والبلاد السلافية الجنوبية كانت پولونيا المجتمعة في النصف الثاني من القرن العاشر تحت سلطة فياشْكو، تتخلى عن الوثنية بعد أن قرر هذا الأخير أن يتقبل سر العماد سنة 966 وذلك قبل أن يصبح هدفا لهجمات جيرانه الألمان والتشيكيين الذين كان بإمكانهم بحجة التبشير بالإنجيل، أن يحتلوا البلاد، وفي سنة 1000 تأسست كرسي رئيس أساقفة پولونيا في نْييزْنو التي تفرعت عنها الأسقفيات الأربع في كولو بْرْزِيْغْ وڤْرُوكْلاڤْ وكراكوڤيا وپوزنانْ. وفي المرحلة نفسها، وبعد أن أجتاح الهنغاريون أراضي الآڤارْ وجنوبي ألمانيا، استوطنوا في پانُونيا ابتداءً من سنة 960 وتقبلوا المسيحية معتقداً لهم، وسمح الدوق غايْسَا (972 ـ 997) للمرسلين بأن يعملوا بكل حرية. لقد تعمّد هو وابنه إسطفان الأول (997 ـ 1038) الذي اتخذ لقب ملك وفرض الدين الجديد على شعبه (تأسست سنة 1000 العاصمة الأسقفية في غْرَانْ)، وحدثت بعد وفاته ردة فعل وثنية قوية ولكن قمعت بسرعة وبشكل حاسم.

وفي جنوبي أوروپا الغربية حدث التمدد بفضل أعمال حربية، وفي شبه جزيرة إيبيريا كان التمدد يعتمد، أقله في الظاهر على ذريعة دينية، أي على الكفاح، الدفاعي والهجومي، ضد المسلمين (الذين لم يحاولوا تنصيرهم) وبفضل هذا الكفاح تمت عملية تحرير الأرض. قاد هذه العملية في البداية وبشكل فوضوي، أمراء أراغون وقشتالة وناڤار وبرشلونه ومحاربوهم وقد انضم إليهم في منتصف القرن

الحادي عشر فرسان فرنسيون (بورغونيون ولانغدوكيون وأكيتانيون) كانوا يحلمون بأن يكونوا، في طليعة المسيحية، حماة الغرب وأن يجدوا في ذلك الشرف والقوة، الأراضي والثروة؛ وهكذا شُنت على المناطق الأسلامية غارات استمرت طويلاً ولكنها لم تكن تتكرر. وفي سنة 1085 يسيطر الفونس أمير قشتالة على طليطلة ويحتل البلاد الواقعة بين ألدورو والتاج في الوقت الذي كان النافاريون يحتلون سرقسطة. غير أن السنة التالية شهدت تدفق المرابطين على شبه الجزيرة، جاؤوا من الحدود الموريتانية المراكشية ثم استوطنوا المغرب، ومن هناك انتقلوا إلى إسبانيا حيث أشعلوا الحرب المقدسة. فسُحِق القشتاليون في معركة الزلّاقة وتدفقت جيوش النجدة وكواكب الفرسان يقودهم عادة إقطاعيون أقوياء، وقد جاؤوا من فرنسا. ولكن عدم انضباطهم سبب الكثير من خيبات الأمل. وقد حقق السكان الوطنيون الكثير من النجاح، من هؤلاء رودريغ دياز أو السيِّد (le Cid) الذي استقر في بلنسية سنة 1094 وأسس مملكة حولها، في حين أن الحالة الشاذة كانت حالة شقيق دوق بورغونيا، هنري، الذي ساعده القشتاليون فاستقر في لشبونه وأصبح كونت البرتغال. وما بين 1105 يستأنف المرابطون هجماتهم وتصل التعزيزات من جديد وتجري عمليات التحرير بمنهجية أكثر، فيستعيد ألفونس السابع صاحب قشتالة طليطلة، ويحتل البلاد من أعلى الوادي الكبير. ويحتل الفونس هنري كل البرتغال (باستثناء الجَرْف) ويتخذ لقب ملك. وتمتد آراغون من منطقة تيرويل (Teruel) وفي حدود سنة 1150 وُجِد المسلمون العاجزون عن التحرك في تلك الفترة محصورين جنوبي خط يمتد من شمالي بلنسيا إلى البحر المتوسط وفي جنوبي لشبونه على الأطلنطيك.

وفي جنوبي إيطاليا تجلت الدينامية الغربية باحتلال عسكري بسيط، نهض به وأنجزه نورمانديو نورماندیا الذين يقدمون أفضل شهادة على هؤلاء الشباب المندفعين الذين يثني عليهم ر. س. لوبيز ولكنهم تصرفوا في البداية كقراصنة حقيقيين، إنهم فرسان يبحثون عن مغامرة. فاستدعوا كمرتزقة، في أول أمرهم، من قبل اللومبارديين في كابو وسالرنا وبينيفَنْتْ ومن قبل السلطات البيزنطية في المنطقة ولكنهم سرعان ما خانوا أسيادهم وبدّلوا انتماءاتهم ثم وضعوا يدهم على الأرض. وكان بين أول القادمين شاب يدعى رينو (Renou) أصبح كونت أڤِرْسا، ولكي يزيد مغانمه استدعى معارفه في نورمانديا. وحوالي سنة 1030 وفي السنين التالية وصل أيضاً أبناء سيِّد

إقطاعي صغير من منطقة كوتانْس يُدعى تانْكريْدْ دو هُوتْڤِيلْ، فأعطوا عمليات التدخل حجماً أكبر وإذْ استغل الإخوة الثلاثة، روبير غيسكار وأونْفروَا(Onfroi) وروجيه، حياد البابوية وحسن نواياها، احتلوا البلاد بكاملها. وفي سنة 1600 يسيطر روبير على كالابرا بكاملها وعلى پُوْيْ، وبعد عدة سنوات يضع يده على دوقيـة أمَلْفي وإمارة سالِرنا. واثناء ذلك كان روجيه يسيطر على صقلية ويطرد منها بقايا القوى الإسلامية. وفي السنين الأولى من القرن الثاني عشر يجمع ابنه روجيه الثـاني، تحت سلطته الإمارات المختلفة. وفي سنة 1127 يرث أراضي احتلها سابقـا روبير غيسكـار، فيصبح عندئذ السيِّد الأوحد لإيطاليا الجنوبية ابتداءً من غـايِتا وصقليـة. وفي سنة 1150 يتخذ لقب ملك.

وهكذا فإذا قابلنا بين الغرب الكاثوليكي اللاتيني في القرن الثاني عشر وما كان عليـه سنـة 900 نستنتـج أن مسـاحتـه، على الأقـل، قـد تضـاعفت. وأصبـح يمتـد في الشرق إلى ما وراء الڤيستول حتى ترانسلڤانيا. وفي الجنوب الشرقي يلتقي بحدود الإمبراطورية البيزنطية على الدانوب عند أسفل بلغراد. وفي الجنوب الغربي كانت إسبانيا وحدها خارج الحدود، أما في الجنوب فكـان يشمل سكـانديـناڤيا. وعلى الصعيد البشري اندمجت الشعوب السكانديناڤية من سلاڤيين وشعوب أكثر اختلاطاً في إيطاليا الجنوبية، وفي شبه الجزيرة الإيبيرية، بالنواة القديمة للغرب الكارولنجي وتوغلوا في أوروپا الكارولنجية فحملوا إليها تنوُّعا لم تعرفه من قبل وطرحوا فيهـا مشاكل الانصهار غير أن التجاذب الذي ظل قويا أثار حركة بـالنسبة إلى البعض: فخضع السكنديـناڤيون والسـلاڤيون، على مستـويات مختلفـة، للنفوذ الألمـاني، واندمجت مملكة صقلية بالخليط الإيطالي المتوسطي. وارتبطت الممالك الإيبيرية بفرنسا الجنوبية ووجدت مصيرها في المتوسط. وكان من النتائج الرئيسية لهذا التمدد تدعيم الواجهـة المتوسـطية للغـرب وتوسيعهـا وإعطاء الغـرب ـ وأوروپا ـ رسـالته الحقيقية وهي أن يكون الوسيط، عن طريق الأفكار المنتشرة فيه والبحار التي تغسله، بين العالم المتوسطي وبلدان بحر الشمال وبحر البلطيق. بين الأراضي القارية في الشرق والجنوب والأطلنطيك.

إحتلال النورمانديين لإنكلترا

وكانت إنكلترا حتى ذلك الحين لا تزال بعيدة عما يجري في سائر الغرب.

وكانت في العصور السابقة مقسمة إلى عدة ممالك تحكمها سلالات انغلوساكسونية تتنازع النفوذ والغلبة وفي السنوات 665 ـ 670 انهارت هذه الممالك تحت ضربات الغزاة الدانماركيين والنروجيين بيد أنه في نهاية القرن التاسع نجح الملك ألفريد الكبير باحتواء هؤلاء الغزاة بعد أن تخلّى لهم عن ثلثي البلاد (التي تؤلف المنطقة التي دعيت دانْلو (Danelaw). وقد بنى دولته على أسس متينة سمحت لخلفائه في العقود الأولى من القرن العاشر. باستعادة الأراضي المحتلة وفرض سلطانهم على إنكلترا بكاملها بالرغم من مقاومة بعض الجيوش السكندينافية ووجود بعض الأراضي التابعة لبعض الأمراء السلتيين في ويلْز واسكتلندا الذين اعلنوا هم أيضاً خضوعهم.

وفي النصف الثاني من القران العاشر ينعكس مجرى الأحداث على أثر إعادة تنظيم الممالك السكندينافية، وخاصة الدانمارك، التي بدت قادرة على القيام بأعمال حربية استناداً إلى نظرة أكثر شمولية وبوسائل أفضل إعداداً وقرر الملوك الدانماركيون استعادة الدانْلو والأراضي التي احتلها أجدادهم من الجزيرة ويقود سْفِنْ، المتشعِّب اللحية، هذه العمليات العسكرية بثبات لا يعرف التراخي حتى تحقيق النصر. وعلى أثر وفاته سنة 1014 يرث ابنه الثاني كْنُوتْ الملقب بالكبير، إنكلترا ويفرض نفسه على الشعب بكامله. ويصبح بعد قليل، ملك الدانمارك أيضاً ثم ملك النروج، فيتربع هكذا على عرش إمبراطورية واسعة تحيط أراضيها ببحر الشمال وتزداد ثروتها إلى حد بعيد. وتخرج إنكلترا، التي تؤلف القوى الحية لهذه الإمبراطورية، من عزلتها، وتسهم بواسطة مرسليها وتجارها وبحّارتها وبفضل العلاقات السياسية في تقريب سكندينافيا من الحضارة الغربية.

وكان هذا الوضع يوشك أن يكوِّن كتلة شمالية تظل بالرغم من التقارب الثقافي غريبة عن الغرب، كما أنه كان لإنكلترا حتى ذلك الحين تاريخ فريد وكانت لاتزال تحتفظ بطابع جرماني عميق حتى بعد تنصرها وبالرغم من حرارة إيمانها المسيحي الذي دفعها إلى المشاركة بنشاط في تبشير ألمانيا ـ وحدث كل ذلك بين فئات جرمانية في أوروبا الشمالية. وبعد موت كْنُوتْ سنة 1035 تسارعت الأحداث التي خفّفت من وطأة هذا الخطر، ولم يكد الملك أن يتوارى حتى تقسّمت إمبراطوريته وأظهرت المنافسات الناشئة هشاشة هذا الصرح الحديث الذي تم بناؤه بسرعة زائدة. فبالرغم من أنه حرص على الزواج من ابنة الملك الساكسوني إيتلْريدْ

(Ethelred) الذي كان قد تغلب عليه، فإن المملكة الإنكليزية خرجت من يد ذريته وآلت منذ سنة 1062 إلى ابن الملك القديم إدوار المُعْتَرِف الذي تنتمي أمه ـ إيمّا ـ إلى عائلة دوقات نورمانديا والذي عاش، حتى ذلك الحين، في تلك البلاد، وقد حكم من سنة 1042 إلى سنة 1066؛ وأحاط نفسه، في البداية خاصة، بمستشارين وموظفين نورمانديين، ويصطدم بمعارضة بقايا السلالات الساكسونية القوية وأولها سلالة غودوين وابنه هارولد اللذين توصّلا إلى أن فرضا أنفسهما وتصرفا كسيدين للدولة.

ومات إدوار سنة 1066 بلا عقب، وكان هارولد يستعد ليتقلد التاج بمعاونة الأرستقراطية الساكسونية القديمة. ولكن أميرا نروجيا يحط رحاله في شمال البلاد ليستعيد حقوق كْنُوتْ فيما راح دوق نورماندیا غليوم الدَّعِيّ (غير الشرعي) حفيد شقيق إيمّا، يطالب هو بدوره بالإرث بينما لم يكن يملك بينات قانونية موثوقة ومع ذلك هو الذي ينتصر في هاستنغ متغلّبا على هارولد فيُقتل هارولد في المعركة بعد أن كان قد هزم النروجيين، ويُتوَّج غليوم في عيد ميلاد سنة 1066. وبعد أن يطلق عليه لقب الفاتح يعيد تنظيم المملكة ويوطن النورمانديين أنصاره الأوفياء ويوزع عليهم الأراضي التي طرد منها العديد من مالكيها الساكسونيين، ويفرض عادات نورماندیا وأخلاقها ولغتها ويظل دوقا عليها ويوثق الصلات في كل القطاعات (التجارية والرهبانية والثقافية) بين هذا القطر وانكلترا. ويصل انكلترا بالقارة ويجعل من هذه المملكة الرفيق الدائم والمنافس لمملكة فرنسا وكانت كفّتا الحظ تتأرجح بينهما. ولم تعد إنكلترا جزيرة فبعد أن ربطتها نورماندیا بالأراضي الثابتة سهّل عليها الإتصال بسكندينافيا.

القطيعة مع الشرق

أما على الجبهة الجنوبية الشرقية فتتطور الأحداث بشكل مختلف تماماً. هناك، في الوقت الذي كان النظام الكارولنجي يتفتتْ وينهار والعالم الإسلامي ينقسم على نفسه كانت الإمبراطورية البيزنطية تتنفس الصعداء وتستعيد شيئاً من حيويتها. وبفضل التحركات الفعّالة للسلالة المقدونية (861 ـ 1081)، استعيدت كْريتْ من المسلمين الذين أوقفوا عند الحدود السورية. وتوطدت الهيمنة على اليونان. والبلغار الذين تقبّل أميرهم بوريس سنة 864 سر العماد، ولم تتوقف

المسيحية عن الانتشار في صفوفهم، غُلبوا فاستسلموا . وفيما وراء ذلك، انضم الروس، في نهاية القرن العاشر إلى المذهب البيزنطي ، وأسسوا في العقود التالية كنيسة وطنية تعتمد اللغة والطقوس السلافية القديمة. وهكذا فرضت بيزنطة القوية نفسها في الشرق فيما انتشرت الثقافة اليونانية في آسيا وفي جزء من أوروبا.

وفي المرحلة نفسها استعاد اليونان موطىء قدم لهم في جنوبي إيطاليا وأعادوا صلاتهم باللاتين. وظهر التباعد بين هؤلاء وأولئك منذ زمن بعيد وأبرزه انشقاق فوتيوس وظل يتسع. وقد أتاح دخولهم شبه الجزيرة الإيطالية أن يستنتج الفريقان كم أصبحا غريبين واحدهما عن الآخر. وها قد أضيف إلى جهلهما بعضا لبعض وعدم تفاهمهما التنافس الذي لم يكن بين السلطات السياسية أقوى مما هو عليه بين السلطات الكنسية. وكان بطريرك بيزنطة يتألم من كونه لا يتمتع بالنفوذ «المسكوني» الذي يتمتع به أسقف روما. ويشطب في بداية القرن الحادي عشر اسم البابا من قائمة الأسماء المقدسة التي تسمي الشخصيات المرموقة التي من أجلها ترفع الصلوات العامة، وقد ساءه أن يرى اللاتين يسطون تشريعهم على كنائس إيطاليا الجنوبية وصقلية فيما هو يعتبر أن طقوس كنائس الغرب تناقض تقليد الرسل تناقضا تاماً. أما اللاتين من جهتهم فيصرون على شمولية الحبر الروماني الوحيد الذي يمجد سلطانه؛ إنهم يلومون اليونانيين على خصوصيتهم ويستنكرون أطماعهم. وتشكل الانتقادات والشتائم والإهانات أكثر فأكثر الموضوع الأساسي والأسلوب المفضل للعلاقات بين الكنيستين العالميتين.

وتزداد القضية خطورة عندما يرتقي السدَّة البطريركية سياسي طموح هو ميشال سيرولِيْرْ (M. Cerulaire) الذي يثير الشكوك حول ممارسات الغرب الطقسية - استعمال الخبز الفطير في الذبيحة الإلهية وصيام يوم السبت أثناء الصوم الكبير والتزام عزوبية رجال الدين، وهي مسائل ليتورجية طفيفة أو قضايا تنظيمية بسيطة وليست من العقائد الإيمانية. فينتفض اللاتين بتحريض من البابا لاون التاسع وعلى الأخص من قبل مستشاره ومنفذ قراراته، الكاردنال هُومْبير دو مويَانْمُوتْييه (H.de Moyenmoutier) وهو رجل عنيف سيء التصرف عنيد في مواقفه. فينتقد ويرفض زواج الكهنة المسموح به في الشرق منذ القدم ويعتبره «زنى» ويثير قضية انبثاق الروح القدس أي علاقته بالآب والإبن. ويعتبر البزنطيين هراطقة فيكيل هؤلاء بالكيل الذي

كيل لهم به ويردون الاتهامات للغربيين. وفي سنة 1054 يُرْسَل هومبير في بعثة تفاوضية إلى بيزنطة فيشمئز ميشال سيروليير من عنجهيته ويمنعه من إقامة الذبيحة الإلهية. فيحرمه المبعوث بعبارات عنيفة فيرد البطريرك برشق الرومان بالحرم.

ويقع الإنشقاق مرة أخرى، وكانت هذه المرة نتيجة الواقع. ولن يكون هناك من سبب للبحث عن سبيل الوفاق ما لم يبذل الطرفان جهوداً جبارة، ولكن هذه الجهود لن تمهد لها الطريق قبل مضي وقت طويل، وعندما وجدت إمكانية هذا الإتفاق وعندما اتخذت البابوية المبادرة بهذا الشأن ، وضعت مسبقاً، كشرط لاتحاد الكنائس الإنضمام الشامل إلى المعتقد الروماني والخضوع لسلطانه. غير أن هذا الموقف الذي أساء حتماً إلى سمعة المسيحية دعّم أصالة الغرب وفرادته وحال دون العلاقات الوطيدة ودون التكامل مع الحضارة الشرقية كما كان معمولاً به في الزمن القديم. وعند ذلك تكوَّن لدى اللاتين، من ناحية الغرب ـ أوروبا ـ ومن ناحية أخرى في الشرق المسألة الشرقية.

إصلاح الإمبراطورية

بعد أن توارى لويس البدين سنة 888 لم يعد للإمبراطورية الكارولنجية أي نشاط. وفقدت سلالته بالتالي لقب إمبراطور. وعندما مات بيرانجيه ، آخر حاكم يحمل هذا اللقب سنة 924، بدأت في الغرب مرحلة الخوف من الغزو. ففي ألمانيا خاصة كان الهنغاريون يشكلون تهديدا مرعباً وهذا هو السبب الذي من أجله أصبحت الملكية انتخابية؛ والأمراء الألمان الذين كانوا على أثر موت آخر كارولنجي جرماني، لويس الإبن سنة 911، قد توَّجوا كونراد، دوق فرنكونيا، عينوا لخلافته سنة 919 هنري دو ساكس. فتوصل الملك الجديد إلى فرض احترامه على الجميع وتغلّب على الغزاة. وبعده، أي سنة 936 انتخب ابنه أوتون دون أدنى صعوبة. فيتابع عمل أبيه ويسحق الهنغاريين عند نهر لِـكْ (Leck) سنة 954 ويتدخل في النزاعات الإيطالية الداخلية وينتزع سنة 961 تاج الملوك اللومبارديين، وبعد أن يفاوض بحزم وقوة، البابا يوحنا الثاني عشر الذي يحتاج إلى حمايته ويخافه في الوقت نفسه، يؤكد لهذا البابا على ملكيته لدويلات الكنيسة ثم يتوج نفسه إمبراطوراً سنة 962.

ويكشف هذا العمل عن إعادة تكوين الإمبراطورية تبعاً للتقليد الكارولنجي.

وتُوِّج الإمبراطور في روما بيد البابا كما كان يحدث فيما مضى، وكما في السابق كان • ينوه بانتصاراته لتبرير سلطته القضائية العليا، وخاصة انتصاراته على الهنغاريين التي تظهر للملأ أنه «مبارك من قبل الرب». ويذكر أنه كان يحكم عدة شعوب وأمم مختلفة، الأمر الذي استدعى إعطاءه لقب يسمو على اللقب الملكي. ومن أجل دعم البرهان على نفوذه وتقويته لم يتوقف الأمر عند ذرائع فكرية تشكل دعماً هشاً نسبياً وثانوياً، بل أثيرت ذكريات وأساطير وأحلام وخرافات.

كان سحر «ذكرى شارلمان وأسطورته» عنوان مؤلف ل. ر. فولز (R. Folz)، لا يزال يفعل فعله والإمبراطور الجديد الذي حرص على أن يُتوَّج ملكاً على جرمانيا في إكس ـ لا ـ شاپيل، يذكّر، لأكثر من مرة، بأنه الوريث الشرعي لابن پيپان. وتنتشر بعده فكرة لدعم هذا التأكيد مؤداها أن الإمبراطورية هبة نقلها إله الكارولنجيين إلى الأمراء الجرمانيين. وكان في كل عصر كُتّاب يذكّرون بذلك (أدْسُونْ دو مُونْتِيْرونْدِيه A. de Montieronder في أواسط القرن العاشر، وأوتون دي فْرِيزِنْغ في منتصف القرن الثاني عشر) وصدر في حدود سنة 1150 كتاب باللغة الباڤارية ـ يدعى تاريخ إمبراطورية ـ يؤكد على أن الرومان أنفسهم هم الذين تخلّوا عن تسمية الإمبراطور، لصالح الفرنجة ثم لمصلحة الألمان. وإمعاناً في تمجيد شارلمان يطوّبه فريدريك بربروس قديساً سنة 1165. فهذه الذكرى الأسطورية توفر للإمبراطورية مثالاً مسيحياً سامياً وتبرّر ادعاء السيطرة على الغرب، ومن حسناتها ربط الغرب بالإمبراطورية الرومانية حتى لو كانت الفكرة المكونة عن هذه الإمبراطورية هي وهمية بحتة. وهي تدعم، وخاصة في القرن التاسع، الإعتقاد القائل بأن الإمبراطور هو الخليفة الشرعي لأوغسطس وقسطنطين، الأمر الذي يتيح ادعاء المطامح الأقليمية والمطالبة بروما لتكون عاصمة.

فهذه القناعات هي في أساس معتقد ديناميكي أدّى إلى المطالبة، ولو نظريا على الأقل، بحكومة كونتيه عليا. وقد عبر عن هذا المطمح بوضوح أوتون الثالث (983 ـ 1002) حفيد أوتون الكبير وحفيد الامبراطور البيزنطي من جهة أمه ـ وهذا ما سهّل الحل الذي جاء لمصلحة توحيد العالم الروماني السابق ـ تحت سلطته. وإذا أقام أوتون الثالث في روما المعلنة «عاصمة العالم» في براءة صادرة سنة 1001، استطاع في ذروة مجده السياسي والأسطوري أن يدّعي هذه الإدارة العليا. والهتاف

الذي وُجِّه إليه والذي ذكره أوديلون رئيس كلوني (Cluny) يعبر تمام التعبير عن سيادته على العالم المسيحي الذي يجب أن يدافع عنه ضد الغريب والعدو، لأن هذا الكون واحد ولأنه فذ المثال، وهذا الهتاف هو: ليتذمَّر السلافي ولتصطك أسنان الهنغاري، ليصعق اليوناني من الذعر وليضطرب المسلم وليَلُذْ بالفرار ليدفع الأفريقيون الجزية والإسباني يلتمس العون ولتُوقِّر بورغونيا الإمبراطور وتحبه، ولتركض أكيتانيا فرحة للقائه، ولتقل غالياً بأسرها: «من سمع بمثل هذه الأشياء؟» وليصرخ الشعب الإيطالي رافع الذراعين: «بالله! إن هذا هو الإبن الوحيد لقيصر، أوتون العظيم».

حلم! هذيان! ولكنه ربما أيضاً التعبير عن الشعور الذي توغل في أعماق القلوب بوحدة الغرب وضرورة التعاون بين شعوبه. وتحمل الإمبراطورية في ذاتها نوعا من العالمية، حدودها حدود انتشار المسيحية، وبنوع أخص المسيحية اللاتينية، وتجعل من الإمبراطور السلطة الوحيدة التي تمتد رسالتها على كامل الأراضي والشعوب والموازية للسيادة التي يتمتع بها البابا على الصعيد الديني. وبتعبير آخر واستناداً إلى نظرة أكثر إيديولوجية مما كانت عليه على عهد الكارولنجيين، فالإمبراطورية تضم وتدعم تناغم الجماعة وتماسكها.

ولكن في الحقيقة لم تبلغ الإمبراطورية هذه السيادة العالمية التي ظلت وهما، ولكن هذا لم يمنع الخرافة من أن تفعل فعلها في بعض رجال الدولة وفي الكثير من رجال الفكر وخاصة في ألمانيا. لأن الإمبراطور يحكم فقط هذه البلاد بالإضافة إلى إيطاليا. وقد أضيف إليهما سنة 1038 مملكة بورغونيا (التي كانت تشمل حينئذٍ الأراضي من جنوبي الفوج إلى المتوسط ومن السون والرون إلى أعالي جبال الألب) التي كان يمارس حكمه عليها بشكل غير كامل. وكانت مملكة فرنسا خارج نطاق حكمه. ولم يحاول الأباطرة إطلاقاً ضمها ولا ضم انكلترا والبلاد الإيبيرية. وأكثر من ذلك فإنهم عندما يعلنون سيادتهم على مجمل الأراضي المسيحية في أوروبا الغربية يطلقون على ملوك هذه البلدان لقب «مُليك أو صَعْوة». وقد أدركوا في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، أنه يجب التعامل معهم. وإذ كانوا واقعيين اعتبروا أنفسهم أسياد ألمانيا وإيطاليا وبورغونيا. وشيئاً فشيئاً أخذت الإمبراطورية تكتسب الطابع الجرماني، ويصبح شارلمان، في الصورة التي أعطيت عنه ألمانيّاً أكثر مما

كان في الواقع. وظهرت في القرن الثاني عشر عبارة الإمبراطورية التوتونية أي الإمبراطورية الألمانية. غير أنه كان من نتائج هذا الاتحاد مع ألمانيا ثني جرمانيا عن مخططاتها في الغرب: إن الإمبراطورية التي دعاها المؤرخون رومانية جرمانية، تلقت منذ ولادتها هدية هي إيطاليا، هذه التي وجدت نفسها مضطرة للاتحاد مع ألمانيا التي جذبتها إليها والتي كانت تطمح للسيطرة عليها، وكانت مستعدة لترويضها كزوجة شرسة وعنيدة وخائنة. إن بلوغ هذا الأمر إلى حد استنزاف الإمبراطورية وألمانيا نفسها يشير إلى قوة هذا الجذب ويُظهر إلى أي مدى ربط النظام الإمبريالي شبه الجزيرة وخاصة أقاليمها الشمالية بنشاطات البلدان الجرمانية ومصائرها وأسهم، بالرغم من الخلافات والاعتراضات الحادة، في توطيد تعاون الشعوب المكرهة على العيش معاً.

إن انبعاث دينامية جديدة في الغرب امتدت إلى أقاليم واسعة يكشف أكثر مما مضى عن خصوصيته لأنه لم يعد منطويا على نفسه وأصبح أقدر على التشبه بالآخرين ومقابلة نفسه بهم والتميز عنهم. لقد غدا قادراً على أن يعبِّر عن تماسكه بطرق مختلفة، لكن هذا التبدل الذي عرفه في هذين القرنين (من منتصف القرن العاشر حتى منتصف القرن الثاني عشر) وما ترتّب على ذلك غالباً من تغييرات وفوضى وتشويش، أثر في الوقت نفسه على هذا التناغم وحال بينه وبين من يُعتبرون من أدواته.

اوروبا الإقطاعية

يتراءى القرن الحادي عشر في تاريخ الغرب، مرحلة تفتت وتشويش، بل فوضى؛ فإذا توسعنا في التحليل أكثر وتوغلنا في البحث يتبين لنا نوع من الإتفاق والتعاون أخذا مكانهما، بطريقة أو بأخرى، بين الأدلّة التي استند إليها التماسك الأوروبي لسبب وحيد هو أنه بواسطة الأدلة تولدت فكرة وتكونت ذهنية تتناسبان مع تنظيم المجتمع والسلطات وتحددان نماذج فريدة في الحياة. وُجِد هذا التماسك إذاً في المجال الاجتماعي السياسي وبمعنى أوسع في المجال الثقافي.

الأسياد الإقطاعيون
أوروبا والقصور

إذا أردنا البحث عن عناصر الإتحاد وعن عوامل التباين أثناء تطور الغرب على مدى العصر الوسيط، نرى أنه من النافل التوقف عند المناقشات العلمية المثيرة، التي بلغت ذروة المعرفة، حول أصول طبقة النبلاء وحدود الإقطاعية لأنه مهما يكن التفسير المتواتر فالتباينات القليلة الأهمية تستند غالباً إلى دروس تعني مناطق مختلفة ـ فإن التأثير يبقى هو هو في تاريخ أوروبا ويكفي إذاً بكل بساطة أن نضع ميزانية لذلك.

يجب أن نذكر في الدرجة الأولى، أنه على مساحة إقليمية واسعة في الإطار الجغرافي الأوروبي، توطد ما بين القرن العاشر والقرن الثاني عشر، ما اتفق على تسميته بالنظام الإجتماعي ؛ فهذا النظام الذي نشأ انطلاقاً من بنى متباينة وأوضاع متنوعة، لم يتجذر في كل مكان، وظهر في صيغ مختلفة إلى حدٍّ ما تبعاً للبلاد وللعصور. والحركة التي بفضلها تم هذا التطور، الذي اكتمل تماسكه، تؤكد على توجيه المجتمع وإدارته من قبل طبقة أرستقراطية يمكن أن نصفها بأنها محاربة وتتجمع بطريقة فريدة بفضل الإقطاعية التي فرضت عليها معنى خاصاً وجعلت منها الطبقة النبيلة.

إن التسلسل الأساسي للأحداث ذو طبيعة سياسية ولكنه لم يكن ليتسنى له أن يصل إلى ما وصل إليه لو لم تكن الظروف الإقتصادية والتقنية ما كانت عليه، أي، بصورة عامة، كما كانت في العصور الكارولنجية (أولوية الأرض، ضعف المبادلات، ندرة العملة، صعوبة التنقل) إن هذا التسلسل كما لوحظ في بداية القرن العاشر، يرتكز على التفكك وتراخي السلطات المركزية (الممالك والملكيات) وعلى تقلص أراض في الغرب إلى عدد من الإمارات، تشكل دويلات ضيقة الحدود وأفضل تكيفاً مع وسائل العصر، ونشأت طبقا لمطامح بعض الشخصيات الكبيرة وقوتها. ومنذ ذلك الوقت بدأت الإمارات تتفكك بدورها وأخذت السلطات تنتقل إلى أيدي زعماء محليين أقل سطوة ونفوذاً. ولكن على مدى هذه العقود من السنين حافظ بعض الأقوياء على أوضاعهم الكبرى ـ أو لعبة الأوهام بتعبير أدق ـ ويمارسون حقوقهم الناشئة عن كونهم أسياداً ـ وعلى الأخص في ألمانيا حيث يرمِّم

أوتون الكبير السلطة الملكية ويتعاون مع الطبقة العليا من رجال الدين ويشرف عليها بشكل دقيق، ويدعم الدوقات بتوزيعه الدوقيات بين أقربائه وأخصائه . ولكن هؤلاء العظماء الذين هم أيضاً أمراء لا يحكمون دُوَلا بالمعنى الحديث للكلمة لقد تسلموا مسؤولية هذه الدول لأنهم الأقوى فيها ولأنهم نجحوا في الإمساك ببعض الأجهزة التي بإمكانها أن تراقب وتتولى الأعمال الإدارية. إنهم يحكمونها لأنهم يمتلكون فيها أملاكا واسعة وغنية ولأنهم يهيمنون على عدد غفير من الأتباع. ولكن داخل إماراتهم كما في ممتلكات الملوك أنفسهم، يوجد في بعض الخلايا الإقليمية الصغيرة من هم أقل منهم قدرة ويتمتعون بقدر من الاستقلالية يحول دون مراقبتهم باستمرار ، ويقدر من القوة يسمح لهم بممارسة سلطتهم حيث هم وبالتحكم بالمواطنين . وفوق ذلك، فإنها لقضية ثانوية أن يوضع هؤلاء الأشخاص تحت رقابة السلطات القضائية العليا وأن تفرض عليهم التزامات سياسية وقانونية (مثل اتفاقية التبعية الإقطاعية والسلطة الملكية كما صمدت وقويت في ألمانيا وإنكلترا). إن ما يهم في الدرجة الأولى وينطبق على حياة المجتمع الحقيقية هو بالنسبة إلى المواطنين المحكومين، ممارسات «الحكومة» فهؤلاء يعتبرون أنفسهم محكومين وموجَّهين ومنظَّمين ومسيَّرين من قبل السلطات المحلية التي تتعدى صلاحياتها الإقليمية حدود الكانتون أو القرية، سلطات الأمر الواقع ، دون ريب. ولكن في نظرهم سلطات قانونية أو على الأقل سلطات لا جدال فيها لأنها قوية ولأنها ضرورية ومفيدة ولأن جميع السلطات الأخرى بعيدة ومنفصلة ومجهولة وخارجية وهي أخيراً غريبة.

وهكذا ففي النصف الأول من القرن الحادي عشر يخضع قسم من الغرب، طبقاً لنماذج متنوعة وطرق مختلفة، لسلطة هؤلاء الرجال المدعوين سادة وإقطاعيين والذين تتفاوت سلطاتهم وتختلف ألقابهم. يأمر هؤلاء الإقطاعيون عمال إقطاعاتهم، إي بالدرجة الأولى ، القرويين الذين يخدمونهم أو يستغلون أملاكهم التي يوكلونها إليهم ويختلف وضعهم عن وضع العزبة الكارولنجية . في الواقع لقد تبدلت الأملاك الاحتياطية والإقطاعات الزراعية، والأراضي الزراعية أعيد توزيعها. وأكثر من ذلك اتسعت نتيجة الإزدهار السكاني . وظهرت أشكال جديدة وبكثرة، وآخرها الإقطاعة التي تُقطَع بشكل دائم فتصبح إرثا (قابلاً للتحويل). وتبدل وضع مكتري الأراضي وتحسَّن ولكنهم ظلوا خاضعين إقتصاديا للسيِّد الإقطاعي الذي يوجههم ويرعاهم

ويقضي بينهم ويكلفهم أعمال النقل والصيانة لحسابه الخاص ويفرض عليهم الضرائب والمصادرات . وغير الأحرار بينهم مرتبطون أكثر بأعمالهم وبالأرض . وتفرض عليهم التزامات تتنوع بتنوع المناطق والعصور لا تزيد بالضرورة من تأزم حالتهم المعيشية ولا تحولهم إلى تعساء ـ إن مصيرهم ، من هذه الناحية شبيه بمصير الكثير من الفلاحين الأحرار ـ ولكنها تسمهم بسمة الاستعباد التي تجعلهم أكثر ارتباطاً بأسيادهم وتؤكد على الأقل ظاهرياً، على غنى أسيادهم وقوتهم.

غير أن التطور الأهم يكمن في أن السادة الإقطاعيين نتيجة لعجز عمل السلطات العليا واستحالته، يقومون بمهمة القضاء العام. ويمارسون صلاحيات الدولة: العدالة ، مصادرة الرجال والممتلكات لأغراض حربية، وفرض الضرائب على التجارة والنقل وسك العملة وفرض بعض القوانين على الكنائس. وعلاوة على ذلك، فإنهم يفرضون هذه الواجبات ليس فقط على مزارعيهم بل على جميع المواطنين والمقيمين في إقطاعاتهم التي ليست هي فقط إقطاعات عقارية (أملاك مع جهاز الاستثمار واليد العاملة) ولكنها أصبحت، تبعا لأقوال المؤرخين ولايات إقطاعية. حتى إنهم غالباً يسيطرون على قرى كثيفة السكان وعلى مدن أو على قطاعات من هذه القرى وعلى أحياء من المدن ومن بين هؤلاء السادة رجال دين وأساقفة ورؤساء أديرة يديرون ممتلكات واسعة للأسقفيات والأديرة كما يفعل العلمانيون ويكتسبون بذلك صلاحيات مماثلة. إن هؤلاء غالباً، وعلى الأقل الأساقفة، يملكون مُدُناً في إقطاعاتهم حيث توجد مراكز إقامتهم.

يمثل القصر على الأرض وعلى الخارطة رمز هذه السلطات، وكانت القصور كثيرة في الغرب في القرن الحادي عشر، وهي تتنوع تصميماً وتتفاوت قوة وتتراوح ما بين دار حصينة وقلعة شامخة وكلها تشهد على الرغبة في إعطاء فكرة عن القوة وإبراز هذه الرموز في أشكال تنسجم مع حاجات الحرب وتقرن النظام بممارسة القوة العسكرية. يبنى القصر على تلة طبيعية أو مصنوعة من الأتربة المنتزعة من حفرة رباعية الشكل لتحول دون الدخول إلى القصر. والقصر عبارة عن بناء متين ذي جدران كثيفة وقد يدعى بالقلعة، ويستخدم برجا للمراقبة ومستودعاً للأسلحة ومكاناً للسكن ويحتوي ، لهذه الأسباب ، عدة طبقات . ويمتد على طول الحفرة سور عريض إلى حد ما ومدعَّم بأبراج لمراقبة الأرض المنبسطة المحيطة به وللدفاع عنه.

ويتخلل السور باب سري يفتح على جسر متحرك. وفي الساحة العامة إلى جانب القلعة أبنية أخرى للخيول ولاحتياطي المؤونة. وغالباً تقوم دون الساحة العليا للقلعة ساحة سفلى حيث توجد أبنية معدة للأعمال وللإدارة: وكل هذا عبارة عن قصر قوي حصين، كالذي نجده في القرن الثاني عشر. وثمة فوارق كبيرة بين هذه القلاع ناشئة عن التفاوت في الثروات وظروف الإقطاعيين. إن أبرز الأشخاص ـ كالملوك والأمراء يملكون عدة قصور تبلغ أحياناً رقماً كبيراً يُسْكِنون فيها أسياداً يديرون الأعمال باسمهم. ولكن إذا لم يكونوا ملوكاً أي عندما لا يملكون السلطة قانونياً أو شرعياً، فإنهم ينالون بملكيتهم هذه سلطات عظيمة (القضاء الأعلى وسك العملة وحقوقاً على الأسقفيات). ولكن مهما يكن التفاوت في الغنى والقوة الذي يترجم بفوارق في المناعة والتنظيم والتجهيزات وفي حجم القصور، فإن هذه القصور تساوي حقيقة سياسية واجتماعية.

إن التبديل في توزيع السلطات العامة وممارستها يفسر ويسهِّل تكون الفريق الحاكم الذي يزداد ثباتاً، فثمة في الأصل وفي كل نظام وشكل سياسي أرستقراطية ريفية لأعضائها أوضاع مختلفة وهم ليسوا على مستوى واحد من النفوذ، وتكتسب قوَّتها من امتلاكها للأراضي، لقد تفرعت في قسمها الأكبر عن الأرستقراطية الكارولنجية ومثلت في نهاية القرن العاشر كتلة بشرية غير مستقرة، ذات حدود لا تزال غير واضحة لأن الحصول على ملكية واسعة يمكن أن يحدث بطرق مختلفة وليس فقط عن طريق الإرث. ومنذ ذلك الحين بدأ يطلق عليهم لقب نبلاء الذي يعني تفوقهم وسموَّهم. وهو ما يميزهم عن الآخرين. وإلى جانب هؤلاء فئة تميزت عنهم منذ البدء وانفصلت، إنها جماعة المحاربين. فهؤلاء الذين لم يكونوا في بعض المناطق أحراراً، وضعوا أنفسهم في خدمة الذين لديهم القدرة والوسيلة لصنع الحرب. وإذ يشكلون منذ البداية وفيما بعد ذلك مجتمعاً يصعب فهمه ظل مدة طويلة متقلباً ومتبدلاً ـ بالرغم من أنه يوجد في شكل واضح في بعض مناطق إيطاليا وألمانيا وحتى في فرنسا الجنوبية ـ أقاموا علاقات وطيدة مع الأرستقراطية لأنها تمارس سلطتها في عالم محفوف بالمخاطر وفي مجتمع يغلي بالمزاحمة بين الذين يسيطرون عليهم ولأنهم هم يملكون تقنية المعركة ويمثلون أداة القوة.

انطلاقاً من هذا الواقع، حلَّت في النصوص منذ نهاية القرن العاشر، كلمة

جندي محل كلمة نبيل. وكان الفارس بحكم المهمة التي يقوم بها يتميز عن سائر الناس وكان يعتبر نبيلاً. إن الفروسية والنبالة اللتين لم تكونا أبداً متشابهتين تداخلتا وتكاملتا: فالفروسية هي اللقب الذي يوصل إلى النبالة، وهي مع السلطة والولاء والإقطاعية أصبحت وراثية. يحصل الرجل على هذه المرتبة بعد أن يخضع لرتبة طقسية تدعى التدريع (إلباس الدرع) كما يمكن للإنسان أن ينتمي إلى طبقة النبلاء التي يستطيع أن يكتسبها أيضاً بالولادة. ولقد وجد دائماً نبلاء دون أن يكونوا فرساناً، غير أنهم لم يكونوا كثيري العدد ولا كثيري الفعالية، كما أنه لم يوجد إطلاقاً فرسان غير نبلاء أو غير مدَّعي النبالة. وفوق ذلك عندما تتباهى طبقة الفرسان بطقوس خاصة وتنظيم خاص تحول دون أن يصبح أي كان فارساً وتكوِّن نظاماً «نقابياً» ، فإنها بذلك تضيِّق من فرص الأنتماء إلى النبالة التي تجعل منها حلقة تزداد ضيقاً.

ولكن يجب أن نذكر أن الإندماج لم يكن كاملاً، وظلت فئة الفرسان دائماً في بعض البلدان مثل ألمانيا ، متميزة عن طبقة النبلاء ولكنها مرتبطة بها كما كانت الأطراف العليا في الصناعة بالنسبة إلى أرباب العمل. وفي فرنسا وإنكلترا كان التقارب أكثر وثوقاً بفضل وجود الفرسان في القصور باستمرار وزواج الفرسان من بنات طبقة النبلاء الصغرى والوسطى. وبفضل إقطاع الفرسان بعض الأملاك. وتكاثرت، بالأساليب نفسها ، صفقات الزواج بين الطبقات النبيلة وقد عم التعاون بينها أكثر فأكثر وترسخت هذه الإتحادات في إطار النسب أي ضمن عائلة السيد الأقطاعي الذي ينتمي إليه أولاً أقرباؤه ثم يحتشد حوله أصدقاؤه، والنظام الإقطاعي يجعل هذا التجمع سهل التحقيق. إن مجموع هذه الدلائلات والأنساب التي تتنافس فيما بينها وتتحارب والتي تدعمها شبكات من الأنصار والأتباع تشكل الطبقة النبيلة. وتتولى هذه الطبقة توجيه الكنائس المحلية لأن عدداً كبيراً من الأساقفة تفرَّعوا منها، وتوصَّلت بعض الأسر إلى أن تُخضِع لنفوذها بعض المراكز الأسقفية التي وزعت على أعضائها. وكذلك بعض الأديرة ومن بينها أشهرها وأفضلها تنظيماً (مثل دير كلوني) التي لم تتعرض أبداً لهذه الهيمنة، كان يحكمها أكثر الأحيان نبلاء.

عشيرة ، أو فئة أو طبقة؟ يظن بعض المؤرخين أنهم إذا توقفوا عند الظروف الإقتصادية التي تجعل من الطبقة النبيلة أرستقراطية الملاكين الكبار ، وإذا اعتُبر أن الطبقة تتحدد فقط بوظيفة البنى الإقتصادية فعندئذٍ تدعى طبقة. كذلك إذا اعتقد أن

طبقة ما توجد ابتداء من اللحظة التي يشعر فيها أفرادها بتشابهم ويتعاونهم، فهي عندئذٍ أيضاً طبقة.

ولكن بعض المؤرخين يلاحظون أنه لا يمكن التحدث عن طبقات إجتماعية إلا في مجال اقتصاد السوق وفي مجتمع تتحكم به العلاقات الإقتصادية وهذا لا ينطبق على حالة الإقتصاد والمجتمع اللذين ندرسهما. ويلاحظون أيضاً أن النبالة تتحدد بنموذج حياة وبذهنية هما نموذج وذهنية المحارب وهما اللذان يسودان ويشملان العلاقات الإقتصادية المرتبطة بهما. والقضية هنا قضية مجتمع يختلف عن مجتمع الطبقات ويقترب من مجتمع الفئات.

وإذا توغلنا أكثر داخل طبقة النبلاء نكتشف الفوارق البارزة. ليست هي بالضبط بالفوارق بين الأوضاع السياسية المتفاوتة وليست فقط التمييز الضروري بين الفرسان والنبلاء، ولكن التباين بين «النبلاء الصغار» والفرسان من جهة، ومن جهة أخرى الأرستقراطيتين المتوسطة والعليا التي تمتلك وحدها أجهزة الإنتاج وتحل في المراكز الأولى في تبعيتها التي تقويها الإقطاعية التبعية. وبتعبير آخر، يوجد في طبقة النبلاء كما في غيرها فروع تنشأ فيما بينها مواجهات جدلية. ويوجد ضمن جميع فئات المجتمع القروسطي انقسامات عميقة تضع الضعفاء وجهاً لوجه مع الأقوياء والأتباع مع الأنصار، دون أن يحول ذلك دون الإتفاق والإتصال بين الفروع. والنبلاء، فئة السادة الملاكين، التي تشكلت في نهاية القرن الحادي عشر، ليست متناسقة وهي معرضة دائماً لإنقسامات عميقة. غير أن الواقع الوحيد في تاريخ الغرب، وهو تجسدها ولعبها دوراً شمل مجمل الأراضي، يدل على أنها عرفت، حينئذ، ربما لأنها نشأت هشة متنافرة، أن تزكي ما يضمن تماسكها؛ وفي النصف الأول من القرن الثاني عشر تكونت لديها، بحكم دورها، فكرة لم تعرفها الأرستقراطية الكارولنجية الأقل عدداً.

ذهنية طبقة الفرسان

هذا الدور وهذه السلطات التي تكيفه والتي تستند فقط إلى قوة الأمر الواقع تتعرض للانتقاد باسم السلطة العليا ـ كما فعل الملوك منذ ذلك العصر وخاصة في العصر التالي ـ أو بسبب الفوضى التي ترافق ممارسة هذه السلطة ـ إن التكبر وشهوة

القوة والعنف والجشع هي في أكثر الأحيان الدوافع إلى التنافس. وينبغي بناء عليه، أن نفسرها أي أن نصف ونعطي مثالاً. فليس مستغرباً أن يكون رجال الكنيسة، الذين يعيشون في اتحاد وثيق مع الأرستقراطية الإقطاعية ويرتبطون بها بروابط النسب، هم من يقومون بهذه المهمة. فهم يؤسسون تعاليمهم على التزامات اجتماعية مبنية على الأخلاق المسيحية وهي: إرساء العدالة (لكلٍّ مكانه المناسب، وله ما يستحق) ومتطلبات المحبة (المساعدة والحماية) واحترام السلام الذي هو عمل العدالة وحب القريب في آن معاً.

وفي نهاية القرن العاشر بدأت تنتشر الحركات الداعية إلى السلام. وفي فرنسا وبمبادرة من الأساقفة ورؤساء الأديار التأمت جمعيات عمومية في أقاليم مختلفة وخاصة في الجنوب. وأقرت ترتيبات لوضع حدٍّ للعنف؛ وتأسست جمعيات يتحد أعضاؤها بعضهم مع البعض الآخر بقسَم يلزمهم بالإمتناع عن كل عمل حربي بعض أيام الأسبوع وفي بعض مراحل السنة الليتورجية (أي هدنة الله) وعن الإساءة إلى الأشخاص وأملاك الكنيسة وعن الإقلاع عن كل قسوة مع الضعفاء والعزَّل(النساء والأولاد والشيوخ ورجال الدين والرهبان والفلاحين والتجار... وهو سلام الله). وانتشرت الجمعيات السلمية في ألمانيا وشمالي فرنسا، بتدخل من الملوك والأمراء الذين نشروا قوانين وفرضوا تطبيقها بالتعاون الوثيق مع الأساقفة وأعِدَّ في القرن الحادي عشر مثال لطبقة الفرسان منبثق من المبادىء عينها: ليس على الفارس أن يتجنب فقط أن يكون فظًّا مع الضعفاء بل عليه وقبل كل شيء أن يحميهم بالسلاح عند الحاجة وأن يساعدهم ويتصرف معهم تصرفاً طيباً وعادلاً.

هذا التطور، الذي يفسر هذا الرقي الليتورجي لحفلة تدريع الفارس، جعل من الإقطاعيين والفرسان الحماة الطبيعيين للفئات الإجتماعية الأخرى والمدافعين عن الدين والمسيحية إلى درجة أن السلام في الداخل ـ الذي هو نظام وعدالة ومحبة ـ لا يمنع الحرب في الخارج من أجل الدفاع عن الدين وعن الكنيسة. واستطاع هذا المثال الفروسي الذي بلغ هذا الحد من السمو، دون أي تناقض، أن يتمجد ويكتمل في الحروب الصليبية. إنها مسألة عرضت على النبلاء منذ الحملة الأولى على الشرق التي بدأت منذ سنة 1095 والتي كان هدفها استعادة قبر المسيح والأراضي المقدسة، أي تحريرها من «غير المؤمنين» وتقديم خدمة للمسيح السيد

الأول الذي تكافأ خدمته بالسعادة الأبدية. وعندما خاطب القديس برنار سنة 1120 بعضا من الفرسان الذين كانوا في صدد تأسيس منظمة الهيكل لمساعدة الأرض المقدسة، ثم في خطبه المتميزة في مدينة ڤيزْلايْ بمناسبة الحملة الصليبية الثانية سنة 1136، يستعيد هذه الحجج، فالمنظمات الدينية والعسكرية تمثل خير تمثيل هذه الفروسية المقدسة المعدة لحرب عادلة أعدت لها الكنيسة قانونها.

إن تشريع عنف الإقطاعيين وقدرتهم من الناحية الأخلاقية وتبرير سلطتهم من شأنهما أن يدعما، في الوقت نفسه، المواقف الإجتماعية المكتسبة. لأن ذلك يرفع من قيمة الجهاز الوحيد الذي يتيح مراقبة الآخرين بفعالية، أي الفقراء، غير النبلاء والرعاع. وباختصار كل الذين لا مورد لهم سوى عملهم، لأن ذلك هو في الوقت نفسه التزام مسيحي ووسيلة لحكمهم لأنه من الكفر الإعتراض على استخدام هذا الجهاز. ويلتقي هنا علم الأخلاق والدين مع مصلحة الجماعة ومفهومها للتسلط أو ليس ذلك ما تتضمنه العبادة التي طالما رُدِّدت والتي يعود تاريخها إلى السنوات الأولى من القرن الحادي عشر وتصف مجتمعاً نموذجياً مقسّماً إلى ثلاث فئات ثابتة هي: فئة المحاربين وفئة المصلين وفئة العمال؟ يكتب أدالْبِيرُونْ دو لاوُنْ إلى الملك في قصيدة عنوانها «إلى الملك روبير»: هذه الأقسام الثلاثة لا يضيرها أن تفترق؛ فالخدمات التي يقدمها أحدها هي شرط عمل القسمين الآخرين. وكل قسم بدوره مكلف بتخفيف أعباء المجموع. غير أن هذا التجمع الثلاثي ليس واحداً. وهكذا ينتصر الحق وينعم العالم بالسلام. وكيف لا يكون الذين يعملون تابعين للذين يحاربون ويحمونهم ـ ويدعون أن ذلك هو حق لهم بالولادة ـ وأن من يحمونهم ينظمونهم وبالتالي يأمرونهم؟ وكيف يستطيع الذين يصلّون، الذين يوجههم أناس جاؤوا من الأوساط المحاربة، ألا يكونوا خاضعين لأوامر هؤلاء العظماء الذين يهيئون لهم الجو لكي يصلّوا بطمأنينية، ولكي يصلوا أو يعيشوا ويحظوا بالأملاك والخيرات؟ كل ذلك يفرض احترام قواعد اللعبة التي تحددها الحركات السلمية. وبفضل هذا الجدل الاجتماعي يتقوى موقف الأرستقراطية كما يتقوى موقف رجال الطبقة العليا من الإكليروس المتفرع عنها، وتمارس الأرستقراطية ضد الذين يخرجون على النظام القائم تهديدات تثير الذعر والهلع وهي الطرد من الجماعة المسيحية (أي رشق الحرم) وقصاص الله الراعب أي الجحيم.

يرسِّخ هذا المعتقدُ التلاحمَ والتعاضدَ الإقطاعيين ويلقِّن التصرف الملائم بين جماعات مجتمع واحد يتحتم عليها أن تسن قانوناً أخلاقياً وعرفياً، يبث بين القادة وفي المؤسسة روح الفروسية التي تتيح للجماعة «نماذج تفكير وحياة وفضائل وقانونا أخلاقيا سهَّلت نموها وغذَّت فيها روحا فئوية لم تعرفها الأرستقراطية الكارولنجية ولا تدخل حتى في صلب الإقطاعية التبعية»[1]

ويحدد المعتقد، أخيراً ، مفهوماً واحداً للحياة يحق بموجبه لأصحاب «النسب العريق» احترام الآخرين لهم والتمتع بالسيادة . ولكن يتوجب عليهم زرع فضائل فئتهم ـ وهي الشجاعة والشهامة في المعارك والتعهد بالإلتزامات والنزاهة ويحتم نظام هذه الفئة حياة نشيطة حماسية وخطرة، حياة تظل ذات طابع حربي بمعاركها وتسلياتها الخاصة. هذه الفرائض قلما تراعى على خير وجه فهناك الكثير من الإقطاعيين والفرسان يتمتعون بها ويسيئون استخدامها لمنفعتهم الشخصية وحدها ولكنهم مقتنعون بأنهم يعملون من أجل العدالة والسلام، من أجل الأخلاق والدين لأن مثاليتهم تطمئن وتبرر.

إن فرادة حياة الفروسية والنبالة تتجلى في نشاطات خاصة، أوَّلها المعارك الحربية التي تشكل طريقة لتسوية الخلافات داخل الفئة والتي تأتي على مستوى واحد مع المنافسات. وكثيراً ما تكون الأطماع والبغضاء سبباً لمواجهات بين السلالات. الحرب هي إذا قضية هذه الفئة. قضية خاصة و «حرب خاصة» . سواء كان الدافع حسناً أم سيئاً وهي على أي حال ، لضمان القوة والثروة. وغالباً ما تكون قاسية وشرسة يصحبها النهب والتدمير، غير أنه يجب أن نعلن بكل صراحة ووضوح أن الضحايا كانت أكثر الأحيان المنشات الكنسية والأديرة ـ كان الحفاظ عليها أولى دوافع الحركات السلمية ـ والقرويين والفلاحين ونادراً ما كانوا الإقطاعيين انفسهم. في هذا العالم الجميل يتحدى الناس بعضهم بعضاً ويتواجهون أحياناً مباشرة في معارك قصيرة ويحاصر بعضهم بعضاً في عمليات تنتهي أحياناً بالهجوم ولكنهم لا يصرون على إفناء أخصامهم ولا يتعمدون القتل. إنما ما يهدفون إليه هو الغنائم، والمهم هو الفدية، غاية المعركة هي إذاً القبض على الخصم وتحريره لقاء فدية

(1) روبير بوتروش: «الإقطاع السياسي وإقطاعية الأملاك» الجزء الأول. ص 110 .

يجب أن تكون الحرب أوّلا مصدر فوائد بمقدار ما هي ممارسة خطرة. ومن غرائب الأمور هو تبرير قضية من القضايا.

يحبون الحرب كعمل جذاب مثير وكوظيفة طبيعية جداً. ويشعرون أنهم بدونها لا يستطيعون إدعاء المراكز التي يشغلونها . يجب أن يسعوا إليها، يجب أن يمارسوا الرياضة القريبة منها والتي تهيّء لها. وهكذا ظهرت، في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، لعبة الحرب، لعبة حقيقية وخطرة ـ المبارزة، وربما كانت موجودة قبل ذلك ولكنها لاقت في ذاك الوقت انتشاراً عظيماً. كانت الجولة عبارة عن معركة شكلية بين فريقين من المحاربين أو بين فارسين والمنتصر هو الذي يرمي بخصمه عن ظهر جواده، وفي الميدان، هو الذي يوقع أرضا أكبر عدد من الفرسان. إن التمرين هو في غاية الخطورة وقد يترتب على سوء تصرف المتبارين أحداث مؤسفة وضحايا، ولكنه وسيلة لبروز البطل في وسط المجتمع الفروسي والظهور جسديا وتقنيا بمظهر الفارس الأفضل، الأمر الذي يدعم سيادته على الآخرين داخل الفريق وخارجه. وقد مورست هذه الرياضة على امتداد القرن الثاني عشر إلى درجة أن إمكانيات الحرب أصبحت نادرة لأن السلطات المركزية منعت الصدامات المسلحة على الصعيد الخاص . ولكن هذه الصدامات احتفظت باستمرار «بدور رمزي، دور آخر» أليست هي في الواقع «كرقصات طقوسية للسلام القائم ولنهاية الأحقاد القديمة يدعى إليها المقاتلون الشباب؟ إنها تظهر على حدود النظام القائم كتنفيس مجاني عن الروح العدوانية والتخلص الضروري منها بواسطة اللعب»[1]

والصيد، صيد الحيوانات البرية التي يصعب الوصول إليها والتي تشكل خطراً على مهاجميها، كان الرياضة الأخرى لهذا الفريق. وكالمبارزة كان للقنص طقوسه العائدة إلى المطاردة والهجوم. وفوق ذلك فإن تقطيع الطريدة الذي يذكر بوظيفة الكاهن الذي يقدم الذبيحة ويرفع من شأن من يقوم بهذا العمل. وينتج عن ذلك أنه في العالم الحيواني الأرستقراطي هناك نبلاء وهناك أقل نبلاً: الأيل هو الأمير المفضل، يسمو على الدب والذئب واليحمور، بينما الخنزير البري هو في أسفل السُلّم. إن العنف والخطر وتنفيس الكبت توجد هنا أيضاً وتُدرك بلذة قوية كما تُنال

(1) غ. دوبي: «أحد البوفين» ص. 113 .

هذه الحالات أيضاً بواسطة الأحاسيس القلبية واختلاج الحواس عندما ينشد الشعراء الجوالون، في القصور في السهرات الطويلة «مآثر» أسياد الأساطير وفرسانها الذين قاتلوا كثيراً وواجهوا ألف خطر وخطر وتحدوا وهزموا جميع أعدائهم . إن ذلك، في الحلم والخرافة، سمة حضارة «رائدة» تنطبق إلى حد ما على الوظيفة التي تضطلع بها والمركز الذي تشغله هذه الأرستقراطية التي تتحمل وتدعم وتوحد، بواسطة هيمنتها، مجتمع ذاك الزمن بأسره.

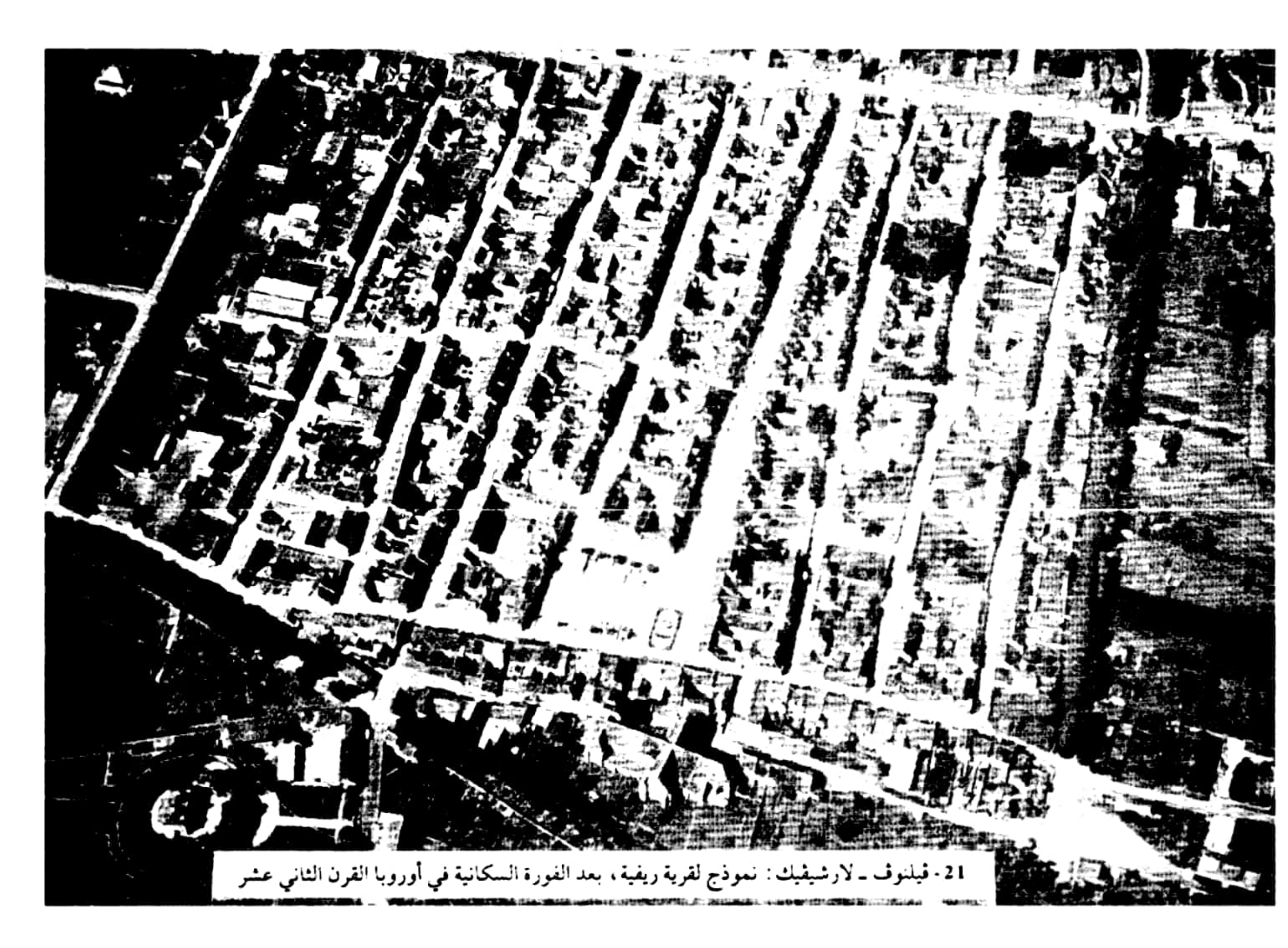
وهكـذا فلهؤلاء الأسياد المحاربين المبارزين الصيادين ، والإداريين الحاكمين، أيضاً في الغرب بكامله، نماذج حياة متشابهة ومواقف مماثلة واستجابات ثقافية ذات نمط واحد. وإن تقاربهم بعضاً من بعض جمع الشعوب الغربية على أسلوب ما من الحياة ولقد تركوا للمجتمعات القادمة وبالتالي لزماننا إرثا أصيلاً وطريفاً ؛ فمن جهة وعلى الصعيد الإجتماعي السياسي، فإن فكرة أن كل جماعة سياسية هي بالطبع غير متكافئة وطبقية ، وإن الأرستقراطية تشكل فيها بالنتيجة البنية الأساسية وتتسلم السلطة: هذه الفكرة سوف تسم في العمق وعلى نطاق واسع، المستقبل الأوروبي وسوف تؤكد على أن في كل العصور وفي جميع الأنظمة رجالاً مؤهلين، بحكم وجودهم وظروفهم الشخصية، أن يحكموا ويقودوا الآخرين العاجزين عن ذلك . وانطلاقاً من هذه الفكرة وبعد انقضاء زمن ردات فعل النبلاء والانتفاضات ضد الدولة الملكية نشأت فلسفة سياسية في الجناح المسمّى اليمين تستند إلى احترام الوجهاء المستأثرين بالإمتيازات. وتؤيّد تسلم «أهل الصلاح» أو «أصحاب الأملاك» مراكز السلطة بشكل طبيعي جدًا. ومن ناحية أخرى على صعيد الأداب الإجتماعية وعلم النفس الفردي، التأكيد على مفهوم الشرف الذي ربما كان الأوروبيون الوحيدين الذين أعطوه قيمة مرتفعة. وكان شرف الوجيه، منذ القرن التاسع، مقترنا بقيمته وكرامته في الحياة. لأنه كان محصوله الذي كان يجنيه من أملاكه أو يحصل عليه بطريقة ما تسمح له بالعيش بكرامة، أي حياة لأنقة دون هم مادي ودون خوف من الفقر والشقاء. وخلال القرن الحادي عشر انعكست العلاقة نوعاً ما إلى حد الإعتقاد أن الحصول على الشرف يحتاج إلى حياة كريمة ولم تكن الكرامة تستند إلى حق طبيعي بل إلى التزامات أخلاقية، أي ممارسة الفضائل «النبيلة» التي تخول الإنسان أن يسمو على الآخرين، فضائل تضمها قوانين الفروسية. إن تجاوز هذه القوانين يحول دون اكتساب الشرف. بل هو التسربل

بالعار، واعتبر الشرف منذ ذلك الحين الواجب المطلق لاحترام الالتزامات المتخذة وخدمة من يحتاج إلى ذلك بشجاعة خارقة دون التجني على الضعفاء والاحتفاظ بنوع أخص لعصرهم وللأجيال الآتية بصيغة حربية عسكرية عززها النظام الإقطاعي في القرن الحادي عشر حيث توطدت فعلياً.

الولاء الإقطاعي

وينشأ النظام الإقطاعي، بطريقة ما عن لقاء أتباع الإقطاعي بالإقطاعة. وبالرغم من أنه وجد في كل الازمنة أتباع دون إقطاعة ، فقد بدأت هذه الظاهرة عندما أخذت التبعية الإقطاعية الخاصة تتمحور، في النصف الثاني من القرن العاشر، حول أشخاص تسلموا زمام السلطة في عدة مقاطعات. وفي المرحلة نفسها أخذت التبعية الإقطاعية العامة تتجمع حول كونتات ونواب كونتات لم يعودوا مرتبطين بالسلطات المحلية وظلوا متسلمين، كما في الماضي، المهمات العامة، وتابعوا القيام بها دون رقيب واستقلوا بها مستخدمينها لمنفعتهم الشخصية. وبموازاة ذلك كثرت الإقطاعات، سواء كان ذلك لحاجة الأسياد إلى خدمات أم ليكافئوا بعض الأنصار المخلصين وإما لأن ملاكين من الطبقة المتوسطة يفتشون عن حماية فيهبون أملاكهم إلى سيِّد إقطاعي يعود فيجعلها إقطاعة لهم. وقد اكتملت هذه الحركة من أسفل إلى أعلى كما من أعلى إلى أسفل . وشيئاً فشيئاً، تتحول الإقطاعة، في القرن الحادي عشر، وراثية وتُدِيم الولاء الإقطاعي الذي ظل يمارس مهمته الخاصة.

في هذا المجتمع الحربي الذي يعتبر فيه اقتناء الأرض شرطاً للقوة والثروة والذي يتوزع حول أسياد محليين يحاربون، غالباً، بعضهم بعضاً، فمن الواجب، في هذا المجتمع الذي من سماته الأولى العنف ـ إلا إذا تحول العنف ذات يوم إلى شجاعة في سبيل قضية كبرى اكتملت هي الأخرى، في ميدان القتال ـ من الواجب أن يعتمد الأقل قوة على حماية مضمونة وأنه لكي يستمر الأقوياء ويفرضوا أنفسهم بفعالية أكثر يجب أن يتأكدوا من الحصول على مساعدة دائمة. إن السيد يحمي تابعيه ويساعدهم في كل مناسبة وهذا أمر ضروري. والمُقْطَع يعامل سيّده بالمثل فيقدم له المساعدة والمشورة: إنه في «بلاطه» ليقدم له رأيه عند محاكمة المقطعين الآخرين وسائر الرعايا الذين يُستشار في أمرهم؛ يلبي حاجات الجيش من أجل



21 - فيلنوف ـ لارشيفيك: نموذج لقرية ريفية، بعد الفورة السكانية في أوروبا القرن الثاني عشر



22 - دير فونتني مجمع رهباني ضخم خاص بأوروبا - القرن الثاني عشر

الدفاع عنه، ومتطلبات فرق الخيالة لتتبعه في الوقت المحدد إلى الحرب. يسهم في نفقاته الإستثنائية في حالات يحددها القانون : في فديته إذا وقع أسيراً ، في حفلة تنصيب ابنه البكر وزواج ابنته الأولى ؛ وفي فرنسا، في تجهيزاته ونفقاته إذا شارك في حملة صليبية.

هذا العقد، عقد التبعية الإقطاعية الذي يجعله تملُّكُ الإقطاعة أكثر ثباتاً، لأن عدم احترامه يعرض نظام الإقطاع للإلغاء ويقوي الروابط بين الناس الذين يعيشون معاً ويعملون بنشاط من أجل مشاريع واحدة، هذا العقد يدعم التلاحم والإتفاق داخل السلالات وبينها، وبالرغم من بعض التنافر فإن حفلة عقد الولاء، أي الطقوس الأساسية التي بواسطتها يصبح شخص ما «تابعاً» لشخص آخر، تبرز المظهر المادي لهذا الولاء الإقطاعي: يجثو التابع أو المولى على ركبتيه أمام سيِّده ويضع يديه في يدي سيده . إن تشابك الأيدي هذا يظهر ترابطهما أحدهما بالآخر، فيقسم له يمين الولاء والأمانة علنا ويعترف بأنه مولاه ثم يمهران اتفاقهما بقبلة يتبادلانها على الثغر تثبت علناً صداقتهما دون مواربة. ويكتب المؤرخ غالْبيْرْ بْرُوجْ واصفاً قسمَ الولاء الذي قدَّم لكونت دوفْلاَنْدْرْ، «لقد تشابكت الأيدي واتحدا بقبلة[1]» وفي سنة 1020 يحدد أسقف فولْبِيْرْالشارتري في رسالة شهيرة وجهها لدوق أكيتانيا المحتوى الأدبي لهذا الإلتزام فيكتب: على من يؤدي يمين الولاء لسيِّده أن يكون ماثلاً في ذاكرته هذه الكلمات الست التالية: سليم ومعافى، أمين، شريف، مفيد، سهل وممكن . سليم ومعافى ، كي لا يتسبب في أي أذى جسدي لسيِّده ؛ أمين، كي لا يسيء إلى الأسرار التي يأتمنه عليها سيده ولا إلى أعماله المحضة التي يأتمنه عليها ، شريف كي لا يعتدي على حقوقه القانونية ولا على أشياء أخرى تتعلق بشرفه؛ نافع أو مفيد، كي لا يسبب أذى لممتلكاته؛ سهل وممكن، كي لا يصبح الخير الذي يصنعه سيده بسهولة صعباً لديه؛ وما هو ممكن لا يغدو مستحيلاً. ومن العدالة أن يتحاشى الوفي هذه الأعمال المؤذية. فلا يكفي أن يمتنع عن الشر بل يجب أن يفعل الخير.

ومن المهم أن يقدم التابع، في هذه المجالات الستة المذكورة، النصيحة والعون لسيده بأمانة إذا أراد أن يظهر أهلاً للإقطاعة وأن يحترم اليمين التي أقسَمها،

---

(1) التاريخ الإقتصادي والإجتماعي. ص. 89 .

وعلى السيد أيضاً أن يعامل مولاه بالمثل في هذه الأمور، فإذا لم يفعل يتهم بفساد الإيمان، وكذلك إذا أخلّ التابع بواجباته بالفعل أو بالموافقة تُوَجّه إليه تهمة الخيانة والحْنث بالعهد[1].

وبضغط من الأقوياء وبنتيجة تنظيم المجتمع وبتأثير من الكنيسة تتغلغل هذه الأخلاق في روح الجسم الإقطاعي، وتؤثر في مسلك الأسياد والفرسان الذين لا يشكلون جزءاً فعلياً من النظام الإقطاعي. وكذلك وبالطريقة نفسها تنتشر روح الفروسية في المناطق التي لا تسمح القيادات المركزية فيها بتفتيت السلطة. وقلما يهم أخيراً مراعاة هذا القانون القضائي وهذه الشعائر الإقطاعية أو هذه العادة النبيلة. إن ما يجمع هؤلاء الناس وهذه العائلات ليس الذرائع القانونية حتى ولا نظام تملك الأرض، ولكن نموذج حياتي واحد ومسلك متشابه، وليس أصح من عبارة ج. دوبي القائل: «إن الإقطاعية هي ذهنية»، ذهنية تشمل القسم الأكبر من أقاليم الغرب الكاثوليكي فتعطيه تلاحماً متيناً.

إن النظام الإقطاعي يورث الأجيال اللاحقة فكرة السلطة التعاقدية، أي السلطة العامة ـ لأن الإقطاعيين، على أي حال، يمارسون على مستواهم، سلطة الدولة القضائية ـ هذه السلطة التي يتوجب عليها التزامات تجاه رعاياها، وأن هؤلاء لا يتوجب عليهم خدمتها إذا لم تقم بالتزاماتها. وهؤلاء بدورهم يحرمون من حقوقهم إذا لم يقوموا بالواجبات التي يفرضها عليهم العقد. إن هذا المفهوم للعلاقات بين الحكومة والمحكومين، الذي شوهته في فرنسا، على مدى حقبة طويلة، الإستبدادية الملكية، ألم يندمج في الإرث العقائدي في أوروبا، متحدا غالباً مع ردات فعل النبلاء والحرفيين ومع النظريات الأكثر شمولاً وطموحاً التي تحدّث عنها لُوكْ كما تحدث عن سواها ، في نهاية القرن السابع عشر؟

إلتباس وتباين

إن مواجهة احتمالات القطيعة وعدم احترام التعهد الإقطاعي قد تؤدي إلى عدم اعتباره سوى وسيلة للحصول على بعض التماسك تجاه قوى التفكك الناشطة. ومـا لا شك فيـه أن عناصـر النشاز لم تـوقف نشاطهـا وأنه من أجـل كبح نتـائجها المضـرة

---

(1) من كتاب «الإقطاعة ونظام الإقطاع» ، ترجمة بوتروش الجزء الأول ص. 369 ـ 370 .

ومن أجل أن تتجنب «الطبقة الحاكمة» السقوط في الفوضى، عمد رجال الكنيسة إلى إطلاق الحركات السلمية. لأنه في الواقع كانت الحرب، حتى العقود الأخيرة من القرن الحادي عشر، ولا تزال دائرة في كل مكان بطريقة مستمرة. حتى وإن أخذت أضرارها تقل شيئاً فشيئا بالنسبة إلى الفريق الإقطاعي فقد ظلت تتميز بالوحشية ونشر الفوضى. زد على ذلك أن الأتباع الأوفياء المرتبطين بامتلاك إقطاعات عائدة لأسياد كثيرين ـ عن طريق الصداقة أو الزواج أو الوراثة ـ أصبحوا مفككين مرتبكين عندما توجب على التابع أن يخدم، في آن واحد، سيدين متحاربين وإذ يختار السيد الذي يأمل به أكثر أو يخافه أكثر يحدث في صرح النظام صدوعاً تتكاثر إلى ما لا نهاية لأن هذه الحالة تعترضه في مناسبات كثيرة.

إن تأثير الإقطاعية، بمعناها الدقيق، على أوساط النبلاء هو على شيء من المحدودية لأن النظام لم يتوطد فعلاً إلا في البلدان الواقعة بين اللوار والرون. وحتى داخل هذه المنطقة كان متفاوتاً من منطقة إلى أخرى أكثر مما يعتقده المؤرخون منذ وقت قصير. إلى هنا كان عدد لا يستهان به من الإقطاعيين والملاكين غير مرتبطين بروابط التبعية الإقطاعية. لقد ظلت أراضٍ شاسعة حرة غير مُقْطَعة. وخارج هذه المنطقة كانت العلاقات بين الناس وبين الأراضي أكثر هشاشة إلا حيث كانت تحت المراقبة الصارمة للسلطات المحلية التي ظلت فعالة وهكذا لقد تعاونت التقاليد والعادات والجغرافيا والبنى السياسية والإقتصادية على خلق أوضاع مختلفة.

إن النمو المبكر للمدن، في إيطاليا، وسكنى النبلاء في المدن أدّيا إلى مشاكل في وجه الحكومة وضعتها وجها لوجه مع فئات إجتماعية أخرى؛ أمّا في الريف. حيث للنبلاء أملاك، فقد توصل هؤلاء بسرعة إلى أن يصبحوا من أصحاب المداخيل، أما في ألمانيا، فإعادة الملكية من قبل هنري الأوّل وأوتون الأول التي سمحت لهما بمراقبة الدوقيات والطبقة الأرستقراطية العليا وأبقت تنفيذ الخدمات العامة الأساسية في حوزة الملكية (كان القضاء والتجنيد من امتيازات الملك الخاصة). وقد حالت هذه الإعادة دون امتداد النظام الإقطاعي وأخّرت وضع نظام الإرث؛ وظلت طبقة الفرسان في هذا البلد، كما في إيطاليا، في غاية التميز عن طبقة النبلاء. وفي إنكلترا أدّى ارتقاء وليم النورماندي العرشَ إلى وضع النظام الإقطاعي في المملكة. وقد جهد وليم الفاتح هذا في تسخير النظام لصالحه، فوزع

علىٰ أنصاره النورمانديين إقطاعات متفرقة ليتحاشى نشوء تجمعات قوية، وبسط التراتبية الإقطاعية: به يرتبط كبار الإقطاعيين الذين لهم أتباعهم وتحت سلطة هؤلاء فرسان أو أتباع صغار. وقد احتفظ بالسلطة القضائية وعززها وبالخدمة العسكرية وحتى بالضرائب، وكل ذلك لمصلحة الدولة الوحيدة. وفوق كل ذلك لقد منع الإقطاعيين جميعاً من ابتناء بيوت محصنة أو قصور. هو وحده له الحق في ذلك.

وفي شكل عام لقد سعى الملوك، خلال القرن الثاني عشر إلى الحدّ من قوة أرستقراطية الملاكين. وطمح الكابيون، فيليب الأول ولويس السادس ولويس السابع، بفضل أملاكهم وأتباعهم وبفضل دعم العديد من الأساقفة، إلى تسخير النظام لمصلحتهم وإلى مراقبته في جميع أنحاء المملكة فاصطدموا بصعوبات هائلة وتكتل ضدهم أقوى الأتباع، وذلك أنهم لم يكونوا الوحيدين الذين عملوا على ترميم سلطاتهم واستعادتها. فعلى صعيد المناطق استأثر بعض الإقطاعيين الأغنياء، أصحاب القصور العديدة على رأس أسرة ناشطة وأتباع مخلصين، بالسلطة القضائية وحصروها في أيديهم وأنشأوا، تحت تسمية إقطاعة كبيرة، إمارات غير مستقلة (كان الولاء الإقطاعي لا يزال معمولا به) ولكنها تتمتع بحكم ذاتي قوي (مثل بورغونيا وأنجو وتولوزان وأكيتانيا وشمپانيا وفلاندرا..) وتسيطر على أتباع في الداخل: إنه العصر الإقطاعي الثاني. والأمر نفسه يحدث في ألمانيا حيث ظهرت، بالإضافة إلى ذلك، صدامات في السنوات 1060 ـ 1080 إبان معركة تعيين الأساقفة (بين البابا والأباطرة)، مع السلالة السالية، وحيث بعد ذلك، أي في السنوات 1125 ـ 1150 أدى التنافر الرهيب إلى مواجهات بين آل سْتُوفِنْ وآل ڤِلْفْ. وفي انكلترا نفسها وبفضل عقود الزواج والمصاهرات تأسست طبقة بارونية غنية تدخلت بقوة في العمل السياسي في نهاية القرن الحادي عشر وفي السنوات 1135 ـ 1150، بمناسبة المعارك السلالية المتتالية على أثر موت هنري الأول. باختصار لقد سعت الأرستقراطية الراقية بمشاريعها وطموحاتها ومنافساتها إلى قسمة كل مملكة وتقوية الوضع الناشز في الغرب. والملوك بمحاولتهم تقوية عروشهم أسهموا في هذا التفكك إلى حد ظهور بعض النفور في علاقاتهم مع الإقطاعيين لقد كانوا بعملهم هذا إما يحطمون المجتمع الإقطاعي الذي يزعجهم فيفسدون عندئذٍ الوِئام العام، وكونهم مرتبطين هم أنفسهم بالأرستقراطية فإنهم يعرضون للإساءة جوهر مهمتهم التي تقوم على التوفيق بين الاقطاعيين والإحتفاظ بهم لمصلحة النظام المحلي، وإما

يضعون الطبقة النبيلة في خدمتهم ضد نبلاء وملوك آخرين. ويثيرون منافسات وأحقاداً تعمل على إضعافهم وتؤجل لقرون جهودهم الرامية إلى تحقيق مشاريع جبارة.

ويصعب، أخيراً وضع ميزانية لذلك. غير أنه يمكننا أن نعلم أن العناصر التي توازن وتقوي التعاون تستحق أن يُعلى قدرها وتعتبر بمقدار ما تتوغل في أعماق النفوس والكِلى والقلوب، وبمقدار ما تعمل على المدى البعيد وتكيف العقول وما تثير من تصرفات وتدعمْ من أفكار لعدة قرون. ويستحيل بالمقابل التقليل من تأثير المساوىء الدائمة لقوى الإنحلال الداخلية والخارجية وبخسها حقها. وقد بذرت بعض البذور في أحد الحقول الإجتماعية هو حقل طبقة النبلاء ولكن الزؤان نبت مع الحبوب الصالحة وارتبط مصير الغرب بهذا المزيج غير القابل للتفكك.

الإنطلاقة التجارية الأولى والتشتُّت الإجتماعي

منذ القرن التاسع وبعد مضيّ العقود المشؤومة التي تلت سنة 900، وانطلاقاً من النصف الثاني من القرن العاشر وبالتناغم مع الإزدهار السكاني الذي تسبَّب، كما ذكرنا، في اسٍتصلاحات جديدة للأراضي وفي تبدلات في الإقطاعية العقارية، تم في تطور تجاري بطيء حوَّل، شيئاً فشيئا، النشاطات الإقتصادية. كانت هذه الحركة في البداية محدودة المدى، ثم تسارعت في نهاية القرن الحادي عشر واستمرت إلى ما بعد سنة 1150 حين بلغت نشاطاً ملحوظاً في الوقت الذي تبدَّلت في العمق، بتأثيرها وبتأثير عوامل أخرى، البنى السياسية في الغرب.

ولوحظ منذ ما قبل سنة 1000، تطور في حركة النقل؛ إذ كان تجار قليلو العدد يتنقلون حاملين معهم منتجات ومالاً وتقنيات وأفكاراً. ويذكر لُيُوتْپْرَانْدْ (Liutprand) الكريموني، وهو إيطالي أرسله الإمبراطور أوتّون الأول في بعثة إلى بيزنطة، فيقول إن نشاط التجارة في البندقية وأَمَالْفِيْ مع بعض المدن الإيطالية ينصب على التجارة البحرية. وخلال القرن الحادي عشر حصلت البندقية على استقلالها من الإمبراطور البيزنطي. وعرفت انطلاقتها الأولى بفضل تجارة الرقيق الذي كان التجار يحملونه إلى الشرق، وطوَّرت علاقاتها وجلبت السلع من البلدان الإسلامية واليونانية. وأَمَالْفِيّ، التي ارتادت قواربها بيزنطة ومرافىء شمالي أفريقيا، كانت في

منتصف القرن، المركز الأغنى في المتوسط الغربي قبل أن يدركها الإنحطاط حوالي سنة 1080 عندما سيطر عليها فرسان نورمانديون احتلوا جنوبي إيطاليا. وبعد سنة 1100 كانت التطورات أكثر وضوحاً نتيجة نجاح الحملة الصليبية الأولى وبفضل الدينامية الشاملة في الغرب. وتتابع البندقية انطلاقتها وتصبح پيزا، على البحر التيراني، من المدن المغامرة، فتطاردها جنوى، وتنازعها السيادة على الجزر الكبيرة. وترسل كلتاهما سفناً نحو الشرق حيث للمدن الثلاث مكاتب تجارية. وترى أفريقيا الشمالية (تونس الحالية) ومصر وسوريا ولبنان وبيزنطة التجار الإيطاليين - وبعض البروڤانسيين - ينزلون في مرافئها. ويحصل تجار شبه الجزيرة من المدن البربرية على الذهب المستورد من السودان الذي سمح لهم بتطوير مشاريعهم. وهكذا يعود هذا الانتعاش في المتوسط الذي كان العرب في الماضي من روّاده بصورة أساسية، يعود بالفائدة على رجال الأعمال الإيطاليين الذين راحوا في المرحلة التالية يراقبون التجارة ويهيمنون عليها في هذه المناطق وفي الغرب بأسره. وكان للتجارة البحرية تأثير على التجار في داخل شبه الجزيرة. فبواسطتهم تنظمت المبادلات مع الأقطار الخارجية حيث أصبحت الحِرَف اليدوية أكثر نشاطاً (في پاڤيا وكريمونا وڤيرونا وسْيِنّا).

وفي المرحلة نفسها ظهرت، في شمالي غربي أوروپا، شبكة تجارية أخرى ونشطت نتيجة قِدَم حركة المواصلات في هذه البلدان وقد طورها فيما مضى التجار الڤاريغ أو الڤايكنغ، ونتيجة ازدهار إنتاج الأجواخ الفلامندية وثروة إنكلترا الدانماركية والساكسونية والنورماندية والتجار الڤاريغ الذين أطلقوا حركة المقايضة في بحر البلطيق انطلاقاً من قواعدهم في بحيرة مالارْ وجلبوا إلى المرافىء الجرمانية منتجات متنوعة أتوا بها من نُوڤْغُورُوْدْ التي كانت على إتصال بمناطق الڤولغا، ومن هناك بآسيا الوسطى، حل محلهم ألْمان المدن الرينانية والمرافىء البحرية الذين لم يفتهم أن يكونوا مغامرين وغدا الجوخ الفلامندي الممتاز إحدى السلع الأساسية في التجارة التي أسهم فيها الإنكليز شارين بائعين، مساهمة فعّالة.

وحوالى منتصف القرن الثاني عشر، يلاحظ الإزدهار الإقتصادي على كل محاور النقل وخاصة على طول أودية الرين والسون والرون والسين. ويستقر التجار في مدن عديدة وهم أكثر الأحيان تجار من ذوي الشهرة المتوسطة يروّجون، في

الأرياف المجاورة، سلعاً تجارية أو منتجات مستوردة من مناطق مجاورة، وقد نظموا معارض في بعض المدن . هذا التطور الذي عبَّر عن تبدل عميق في الإقتصاد وعن إنشاء نظام مؤسس على المقايضات والعملة يكشف عن الدينامية المستعادة والنشاط المندفع للغرب الذي يرفض أن يظل منطويا علىْ نفسه ومقفلاً على سائر العوالم والذي أنجز حينئذٍ المرحلة الأولى من درب طويلة ستوصل ذات يوم إلى السيطرة على العالم. غير أن هذا التطور لم يتوصل، في هذه السنين، إلى إرساء توازن جديد ، فالإستقرار لم يحصل إلاَّ في القرن التالي ، لقد زعزع وفكك بمقدار ما نسّق ودَعَّم . وقد برز ونشِط في قلب جماعات قليلة التنوع، في أسسها الواحدة عن الأخرى كانت تظن نفسها متينة ثابتة. استناداً إلى صورة المجتمع المقسّم إلى ثلاث فئاتٍ، ونما في جماعات نشأت ملحقة بأرستقراطية الأمر الواقع التي أصبحت سلطة قانونية مرتبطة في الأرض حتى الجذور وقسم الشعوب والأفراد إلى أقسام مختلفة بينما، على صعيد آخر، غيَّر وبدَّل وأغنى .

ويبدو في الواقع وللوهلة الأولى أن الإزدهار الإقتصادي والتجاري قد توزع بطريقة غير متكافئة. ولم تبدأ إيطاليا وفلاندرا وشواطىء بحر الشمال والأودية والمضائق بالإتساع ، ولكن في داخل البلاد، بعيدا عن الأنهار ، بعيدا عن طرقات الممر الكبير ، قلما كان هذا العالم الجديد، عالم المال والتجارة معروفاً فكان يساء استقباله. وتحت تأثير الإزدهار السكاني وحركة النقل دبّت الحياة في الريف وانتعشت المقايضات المحلية وعاد المال إليه من جديد، الأمر الذي أسهم في تطوير نظام الإقطاعات الممنوحة وطرق الاستثمار . غير أن هذه الظاهرة البطيئة لم يستطع المعاصرون على مدى أجيال ـ والمقصود المزارعون وصغار الإقطاعيين لجيل واحد ـ أن يفهموها ولم يعرفوا أنها ستقلب على المدى البعيد، أطر الوجود. ولم تتغيرّ ذهنية الريفيين بشكل من الأشكال في القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر. خاصة في المناطق المتخلفة . وكان الباعة المتجولون والتجار يبدون لهم مستغربين وغرباء؛ وكانوا يحتكون بهم تطفلا وانتفاعاً لأنهم كانوا يحصلون منهم على بعض الفوائد. فكانوا يحسدونهم وأحياناً يهاجمونهم ويسرقون بضاعتهم ـ ولهذا السبب اعتبر التاجر الأعزل مشمولاً بسلام الله الذي يمنع المحاربين من مهاجمته. وكانت الجماهير تشعر بأنها غير معنية بما يجري. لقد ظلت معزولة وبعيدة عن الأوساط

الناشطة التي تبشر بمستقبل ما: مثل رجال الأعمال وسكان المدن. حتى بعض النبلاء الذين أدركوا معنى التطور والاستفادة (معارض، أسواق، مكوس. .) التي يمكن أن يجنوها من ذلك.

وإذا حاولنا تكوين نظرة أجمالية نلاحظ تفاوتاً عميقاً في التبدل الإقتصادي الذي زاد هذه العزلة خطورة. لقد تجمعت الثروة الجديدة حول قطبين: إيطاليا (الشمالية والوسطى) والبلاد المنخفضة والأقطار المجاورة. وأقيمت بين هذين المركزين علاقات تشعبت أحياناً انطلاقاً من طرق المواصلات. ولكنها ظلت حتما مرتبطة بهما ارتباطاً وثيقاً. ويمكننا أن نحدد، على خارطة ما لأوروپا، وبالألوان الزاهية، هذين المركزين الحيويين الحقيقيين ونلوّن بالألوان نفسها بعض الممرات التي تنتقل البضائع عبرها. أما ما تبقى فيبقى تقريباً كله باللون الرمادي أو الأسود. فهذا يعني أن دخول اقتصاد المقايضات قضى على كل ما كان يشبهه، في أوروپا الغربية، الإنتاج الزراعي والعمل الريفي وفقاً لبنى مماثلة ولم يعد الغرب يؤلف وحدة اقتصادية فريدة ومتجانسة. لقد انقسم إلى عدة قطاعات، وكان لا يزال بعيداً الوقت الذي اندمجت فيه نشاطات البحر المتوسط وأوروپا الشمالية اندماجاً وثيقاً في نظام متناسق، وفي منتصف القرن الثاني عشر لم يكن التحول نفسه قد اكتمل كلّياً لمصلحة نظام مؤسس على المال. وظلت أنظار بعض الناس، بمقتضى وضعهم الإجتماعي أو الجغرافي أو تقاليدهم وميولهم وثقافتهم، مشدودة إلى الماضي بينما حول الأخرون أنظارهم عنه بحماسة وسعوا لإكتشاف آفاق جديدة.

أظهر هذا التحليل عناصر متباينة متنافرة عصية على الوحدة وظل المجتمع متميزاً بعزلة الجماعات القروية وتشتتها. هذه الجماعات التي كان أعضاؤها يدركون ما يوحدهم. وما يجمعهم إنطلاقاً من مبدأ واحد وطبقاً لنموذج واحد. غير أن العلاقات كانت هزيلة فيما بينها ولا تربطها أي علاقة بالأرساط الأخرى وظل جهلهم للتجار كاملاً، وظلت تبعيتهم للأرستقراطية العقارية مقبولة لا شعورياً كقاعدة وحيدة ممكنة. ولم يكن المجتمع القروي يعرف ولا يفهم عالم المدينة الذي كان يتنظم عندئذٍ ويتمدد، والنبلاء أنفسهم لم يقتربوا منه. وباختصار، ففي حين كان يلاحظ تعاون يتفاوت وثوقاً وقوة داخل كل فئة وكل طبقة. لقد ظل تماسك المجموع هشاً، أو يعتمد على اتفاق الإقطاعيين وقوّتهم، الذين اعتقدوا، في نهاية القرن الحادي

عشر، أنهم باستطاعتهم أن يقيموا نظاماً متماسكاً.

وسبّب التنافر قلقاً عندما انبعثت في بعض القطاعات الناشطة، دينامية عكرت هذا النظام القائم. قلّما شعر الناس بوجوده بشكل قوي في الأوساط المدنية، وأصبحت المدن بؤرة الاحتجاجات عبرت عنها تاريخياً مع بعض القرى الريفية الكثيفة السكان وهو ما يسمى بالحركة العامية.

نشأت هذه العاميات، في فرنسا وفي إيطاليا، خاصة في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، وهي عبارة عن تشكيل جمعيات تضم القسم الأكبر من سكان المدينة ـ يجمعهم حلف ـ فسمُّوا بحكم هذا الواقع، الأحلاف أو العاميات لأن الناس يقومون بإدارة أعمالهم جماعياً. إن خلق هذه التكتلات يتفق مع مطالبة مزدوجة؛ فمن جهة يطالب أفراد هذه العاميات ـ ومعهم أحياناً بعض الريفيين المتطورين ـ بوضعهم في منجاة من شراسة الإقطاعيين وفوضى الزمان، إنهم يسعون لقيام سلام فيما بينهم داخل المدن ولتركهم في الخارج بعيدين عن الخصومات الغريبة عنهم، وتنتمي العاميات إلى مؤسسات السلام، بالرغم من أنها في أصل نشأتها غالباً ما تعتمد العنف في مواجهة السلطة (الإقطاعيين والأساقفة). ومن جهة أخرى لقد اتفق أعضاء هذا الحلف على مقاومة سياسات الدمج والتوحيد، سواء كانت تلك السياسات تسعى إلى إعادة سكان المدن إلى الصواب ومساواتهم بسكان الأرياف في الحقوق، أو تعمل على حصر المجتمع المدني في جهاز دولي أوسع (ممالك، إمارات، في طريق التشكل) ففي الحالة الأولى تعتبر العامية ردة فعل ضد الإقطاعية، وفي الثانية تبدو وكأنها تؤكد على وجود خاص، فالمدينة يمكن أن تشكل لوحدها دولة.

وكان من نتائج العامية ظهور هيئة تنعم باستقلال ذاتي، غريبة عن الإقطاعية، وتمثل إلى جانب الإقطاعية الريفية أبسط خلية في الحياة الجماعية، رافضة حتى فكرة سيادة دائمة تمارس عليها من الخارج. وعاميات فرنسا كانت كذلك ضد الإقطاعية (في بيرونا، نْوايّون، أميان، تورنيه، مونْديدْييه، كورْبيا، كومْبييْنيا، سْواسُون، لاوُن، سِنْليس، بوفِيه، مُونْتروْيْ، شومون ـ أون ـ فِكْسانْ، پْواسّي، مولان، مانْتَ، سِنْسْ...). والعاميات الإيطالية والپروڤانسية كانت، عكس ذلك، متمسكة باستقلالها كوحدات إلى حد ما، ذات سيادة. وقد تشكلت في حكومات،

وغالباً بمبادرة العائلات الفنية والعائلات النبيلة المقيمة في المدن ولمصلحتها ـ الأمر الذي أوجد، في هذه المناطق تماسكاً إجتماعياً لم يكن موجوداً في مكـان آخر. ولكن أفسدتها وانهكتها المنافسات السياسية والإقتصادية بين المدن: آسْتي، أرِزُّو، جَنوى، پاڤيا، بولـونيا، سْيِنّا، فلورنسا. وبعد ذلك ميلانو وكريمونا وپْلاَزَانْسا وپارما ومانْتو وبْرِيشْيا وبِرغامو وفيرّاري وڤيرونا.

ومهما تكن النوايا والشروط، فإن هذه الحـركات تشهـد على تصاعـد قوى التفكك. وتعتمد أوروبا الإقطاعية على ذرائع تقـريب البلدان والناس. ولكنهـا لا تراقب بشكل كافٍ ولا تقضي على عناصر التفكك.

الحضارة «الرومانية»

إذا كـان المجتمع حينـذاك، في طبقاتـه العليا، قـد تماسـك، إلى حد مـا، بلقـاء الأسياد الإقطاعيين وتشكيل طبقة النبلاء، فلقد تدخلت عناصر التحام أخرى على صعيد العقل والروح، في المؤسسات والذهنيات وظهـرت في ثقافـة أصيلة بدت إنجازاتها البارزة مع بزوغ الفن الروماني وهي مدينة في قسم كبير من نشوئها للنهضة الرهبانية وللإصلاح الغريغوري.

كلوني[1]

في البدايات الأولى للعصر الوسيط، انتشرت كما ذكرنا حركة رهبانية ونمت بشكل عظيم، ومن أسباب ذلك: رغبة الناس في خلاص نفوسهم بـابتعادهم عن العالم تجنبا للإغراءات والمخاطر، ورغبة في التكفير عن الخطايا ونكـران الذات والصلاة؛ أو لسبب أبسط وهو السعي وراء حياة مادية خالية من الهموم. وفي أكثر الأحيان وعلى مدى القرن الثامن، تبنّت الأديرة النظام البنديكتي أو بعض الأنظمة المستوحاة منه. ولقد عكّر شارلمان صفاء روحانية الأديرة في الوقت الذي بدّل في بنيـاتهـا. وعنـدمـا تـدخـل في تعيين رؤسـاء الأديـار وتكليف الـرهبـان بمهمـات تقضي بخروجهم من عزلتهم. وعلى امتداد القرن التاسع، وبالرغم من جهود بنْوَا الأَنْياني وآخرين عملوا على رد النظام إلى نصابه، استمر التقهقر وتسـارع نتيجة غـزوات النورمانديين والمسلمين الذين كانت الأديار هدفهم المفضل ولكن منذ نهايـة هذا

---

(1) مركز كانتون سون ـ إيه ـ لوار (دائرة ماكون). تأسس دير كلوني سنة 910 بمبادرة من الدوق غليوم الأكيتاني تبعاً لنظام القديس بنْوَا الأَنْياني (المترجم).

القرن وفي السنوات الأولى من القرن العاشر أعدت مشاريع إصلاحية في بعض المؤسسات التي عادت إلى النظام الأساسي (يحول الترهُّب دون إيجاد علاقات مع سائر الناس ويفترض الإستقرار عدم مغادرة الدير، ثم الطاعة العامة لرئيس الدير الذي انتخبه الرهبان، والصلاة الليتورجية) وحاولت إدخال هذه الأنظمة في أديرة أخرى كما حدث في نامورا، (برونيا) واللورين (غورْزْ) وأورليانيا (فلوريه - سور - لوار) وفي سويسرا (آيْنسِيدِلْنْ). ولكن الإصلاح الأشهر والأهم الذي امتد على طول القرن الحادي عشر، على عدد كبير من الأديار الموزعة في كل الغرب، هو الإصلاح الذي أبصر النور في دير جنوبي بورغونيا هو دير كلوني (Cluny).

ففي الحادي عشر من أيلول/سبتمبر سنة 909 وهب شخص عظيم يدعى غليوم التقي، دوق أكيتانيا وكونت ماكون، أملاكه في كلوني ليُبنى عليها دير كان رهبانه يتبعون فيه الأنظمة البندكتية - وخاصة الانتخاب الحر لرئيس الدير - وأعطيت أرضه للبابوية التي كانت لها الملكية الفضلى، بمعنى أن أراضيها كانت محصنة ضد أي تعدٍّ أو أذية. وكان عقاب الكنيسة الرومانية مخيفاً ومخوفاً أكثر من أي عقاب آخر. وقد جاء في اتفاقية التأسيس أن لا أحد حتى ولا البابا ولا الملك يحق له الإعتراض على إرادته التي تميل إلى جعل الدير الجديد ديراً نموذجياً. وقد فوّض غليوم أمر اختيار الدفعة الأولى من الرهبان، إلى رئيس دير بِرنونْ (Bernon) المتحدر من عائلة رفيعة المستوى ومعروف في المنطقة لأنه كان قد أصلح عدة مؤسسات (غِيْنْنِيْ، بو - لِيه - مسيو).

ولكن التوسع الكلوني الحقيقي انطلق مع خليفته أودون الذي تسلم رئاسة الدير من سنة 926 إلى سنة 942. وقد عمل على نشر الإصلاح في أديرة أخرى بمبادرة منه أو بدعوة من تلك الأديرة. وذلك بشيء من الصعوبة غالباً. وكثيراً ما كان مضطراً إلى التصدي لبعض المقاومة. وكان بشكل عام يثق بهؤلاء الناس ولم يسعَ إلى إقامة علاقات مؤسساتية بينهم وبين دير كلوني من جهة والأديرة التي شملها الإصلاح من جهة أخرى. وبعده تابع إيمارْ (Aymard) وخاصة مايولْ (Mayeul) (954 - 994) مخططاته. وسعى مايول لدى أصحاب النفوذ لتأسيس أديرة جديدة. واستغل ذلك لإنشاء جمعية منظمة ذات قوانين وتسلسل مستوحياً الأعراف التي وصفها أودون والتي تهم الحياة الرهبانية خاصة والإتحاد الوُدّي والروحي الذي يجب

أن يجمع الأديرة بعضها إلى بعض. وهكذا ففي نهاية القرن العاشر جمع دير كلوني تحت إشرافه عدداً لا بأس به من الرهبان موزعين في فرنسا (في سُوفِيْنِيْ من قرى بوربونيا وفي سوكسيلانج وسان ـ ألْيِر في كليرمون من قرى أوفرنيا وتولْ وسان ـ مارتيال دو ليموج وشارْلْيو وفي مناطق أخرى من الهضاب الوسطى). وسان ـ بَيْنْيه في ديجون وسان ـ جرمان دُوكْسِيْر في بورغونيا، سان ـ مور ـ دوفوسْيه وسان ـ پيار ـ لو ـ ڤيفْ في سِنْسْ، فلوري ـ سور ـ لوار في المناطق القريبة من باريس؛ ومار مونْتِيه في تورين، سان ـ جان ـ دانْجِلي في سانتونج. وغانا غوبيا وليرنْس في پروڤانس). وما وراء ذلك (سوبياكو، سانت ـ ماري في آڤانتين، وسانت ـ ماري ـ دو پاڤيا في إيطاليا؛ وروما نموتييه وپايرْن في الجورا السويسرية؛ آلتروف في الألزاس. . . .).

وفي القرن الحادي عشر بلغت الحركة حدّا أعلى من النشاط. فيضم رئيس الدير أوديلون (994 ـ 1049 إلى الفريق الكلوني مؤسسات قديمة) والبعض الآخر لم يتحدد إلا بعد ضغوط أتت بإيحاء منه، من السلطات الكنسية والعلمانية. وقد بلغ به الأمر حد الاشراف على أكبر عدد ممكن من الأديرة التي شملها الإصلاح في بورغونيا وپروڤانس والهضاب الوسطى. واستطاع أن يشرف أيضاً، بفضل النفوذ الذي اكتسبه، وبطريقة غير مباشرة، على الرهبنة البنديكتية بكاملها(ابتداءً من أمْبيرْلْ ـ Ambierle ـ وپاراي ـ لو ـ مونيال، وسان ـ مارسال ـ لو ـ شالون وتْبِيْرْ وسان ـ فلور وڤيزيلاي ومْوَاسَّاك وسان ـ ساتورنان في أوڤيرنيا، وسان سيڤير في نيڤيرْ، وسان ـ أندريه في غابْ ومالوسين، بالرغم من الإستقلالية التي حصل عليها دير فلوري ـ سور ـ لوار وسان ـ بَيْنْيه في ديجون) وبفضله توطدت مؤسسات أخرى في مناطق أخرى (مثل اللانغدوك ولومبارديا وغاسكونيا) وظهرت أديرة (في ناڤار وآراغون وقشتالة) وكان النظام، أثناء ذلك يزداد تشدداً.

ويجعل هوغ دو سيمور، الذي خلفه سنة 1049، من رهبنة كلوني، التي ترأسها ستين عاماً، مؤسسة ذات قوة لا تضاهى في المجتمع الرهباني في أيامه وفي تاريخ الرهبنة بصورة عامة وازدادت قوة في كل مكان (شاريتيه ـ سور ـ لوار، سان ـ إتيان ـ دو ـ نيڤير، موزاك، زْوَايًا)، وترسخت بقوة في وسط الحوض الباريسي (سان ـ مارتان ـ دي ـ شان، حيث عُقِد مجمع سنة 1079 بأمر من الملك فيليب الأول). وثبّتت أقدامها بقوة في اللانغدوك (سان ـ جيل، لادُورَادْ دوتولُوزْ، سان ـ

سوفُورْ دوفيجاك، لَيزا في أَرْبِيْج) وكذلك في پواتو وفي المناطق المجاورة (مونْتِيِيْه نوف، سان ـ سِيْبِّيرَيان في پواتْيِيْه). وتغلغلت أكثر في الأقاليم الشرقية والشمالية الشرقية من فرنسا (سان ـ بيار ـ دابْڤيلْ، سان ـ برتان ـ دو بِيرُوَانْ ، سان ـ سُولْڤْ دو ڤالنسيان) وأيضاً في ألمانيا (أَلْتكيرْشْ، بِتِرْسِنْسِك، سيغْبُورغْ، بالْ، راغبواغ) وانتشرت في المناطق الحدودية ، أما البلاد الجرمانية الحقيقية فظلت بعيدة لرغبة ملوكها في ذلك (وقد أثر النفوذ الكلوني غير المرتهن في رايشنو، هيرسو، هِيْلْدَ رشايْم وكورڤاي . .) وتكاثرت المؤسسات الكلونية في لومبارديا . وتأسس بعضها في إنكلترا وخاصة بِسَعْيٍ من رهبان دير سان ـ مارتان ـ دي رَشان ودير شاريتيه ـ سور ـ لوار (تأسس دير لِوس ـ Lewes سنة 1077) وفي پولونيا وفي الأرض المقدسة وشبه جزيرة إيبيريا .
وانتسبت أديرة نسائية ، من بلدان عِدّة إلى الدير البورغوني . وبعد موت هوغ توقف التوسع نتيجة العياء ، وهذا شيء طبيعي ، وبتأثير من الصعوبات والخلافات الداخلية . ولكن الرئيس بطرس الجليل (1122 ـ 1157) يعيد الوئام وينظم المؤسسات ، وفي تلك المرحلة (بداية القرن الثاني عشر) كانت الجمعية الكلونية تعد حوالى 1100 مؤسسة .

وكان المجموع يؤلف شركة روحية صلبة ومتماسكة، أساسها قانون القديس بنْوَا الذي كان يتقيّد به بصورة عامة، كل الرهبان الكلونيين. في حين أن التقاليد الخاصة تخفف من الإلتزامات فيما يخص اللباس والغذاء فتعطي لكل راهب خلية عوضا عن غرفة نوم مشتركة كما يفرض النظام الرهباني الحق. وانطلاقاً من هذه الأنظمة ومن القانون الأساسي الذي يشدّ التقيّد به الرهبانَ في جميع الأديرة بعضهم إلى بعض ويعطي جميع المؤسسات تنظيماً واحداً شاملاً (مبتدئين ومتدرجين) . انطلاقاً من ذلك تحددت ونشأت نزعة روحانية تحافظ على المبادىء الأساسية للمثال الذي اقترح فيما مضى في جبل كاسِّينو (التواضع والطاعة المطلقة والبحث عن الخلاص في تدريب جماعي بإدارة رئيس الدير). وقد عُزِّزت بعض المبادىء التي أصبحت هي السائدة فيما بعد ولكن دون أن تؤثر على قيمة المبادىء الأخرى مثل التخشع أثناء القداس الإلهي (ومن حسنات ذلك اعتبار الناذرين[1] كهنة)، والصلوات التي تجعل الراهب الكلوني مصلّيا وليس تائباً. والغيرة على مساعدة

---

(1) من نذروا النذور الرهبانية المذكورة أعلاه ـ م ـ .

الأخرين على الخلاص بواسطة الصلاة (تذكار الموتى ، قداسات لراحة نفوسهم أو لغايات خلاصية أخرى) ونشاطات أخرى للجمعية، (مدارس في الأديـرة مفتوحـة لاستقبال تلاميذ يتهيأون للسلك الكهنوني، رعايا يملكها ويديرها الرهبان. . .).

وللجمعية مؤسسات فريدة من نوعها، نشأت في قسم منها، على الطريقة التي تأسست عليها. إنها تبدو في الظاهر كمجموعة كبيرة من الرهبان موزعين على عدد ضخم من المؤسسات على رأسها رئيس واحد، قائـد واحد هـو رئيس دير كلوني الأساسي، الذي ينتخبه رهبان هذا الدير فقط ـ ويعتبر هذا الأمر خاطئاً لأنـه يمنح هؤلاء سلطة استثنائية . والكثير من المؤسـسات لا تعتبر أديرة حقيقية، بل يطلق عليها رسميا بيوت صلاة أو أماكن عبادة يعين رئيس دير كلوني رئيساً لها. وبعضها فقط، بسبب ماضيهم أو نتيجة تحفظهم، يحتفظون بهيكليـة دَيْرِيَّـة. إنها بيـوت أو أديرة الطاعة الرهبانية (كان عددها تسعة سنة 1070 ، وخمسة عشر سنة 1118 ، كل واحد منها يديره رئيس ينتخبه الرهبان ولكنه يؤدي قَسَم الولاء للرئيس العام. وقد وجدت، أيضاً أديرة أخرى مستقلة استقلالا ذاتياً تاماً واعتبرت مؤسسات مُنْتَسِبة بحكم أنهـا تقبل مختارة بالتقاليد الكلونية وتقيم علاقات وثيقة جداً مع الرهبنة دون أن يكون لها بها صلات مؤسـساتية ودون أن تكون خاضعة لبعض الإلتزامات من قبلها ودون أن تكون مرتبطة بها. إنها خارج الأسـرة ـ استعملت هذه اللفـظة للتدليـل على صفة الجماعة وللتعبير عن النسب الروحي الذي يجمع الرهبان.

يحكم الأسرة رئيس دير كلوني كملك مطلق إلى حدٍّ ما، إنه فعلاً وقانوناً رئيس المؤسسة الأم وكل مراكز العبادة، وبالإضافة إلى ذلك هو «الـرئيس العام» لأديـرة الطاعة، يسهر على حسن تنفيذ النظام فيها ويفصل في الخلافات ويتخذ القرارات الملزمة وينشر الأنظمة الداخلية إذا وجد ذلك مفيداً . مهمته الأساسية زيارة بيوت العبادة وتفتيشها. وفي القرنين العاشر والحادي عشر قام الرؤساء الكبار بعملهم هذا بلا تقصير ولا ملل. غير أنهم كانوا يطلبون من «الرئيس الأعلى» في كلوني أن يحل محلهم وهذا يدير المؤسسة المركزية أثناء غياب رئيسها. ومنذ ذلك التاريخ أصبحت مهمة رئاسة الدير شاقة: وهذا هو السبب الذي من أجله توزعت الأديرة، بعد أن شعر هوغ بخطر تسليم مسؤولية الرهبنة لشخص واحد، بين عشرة أقاليم هي: أوفرنيا ، فرنسا ، غاسكونيا، ليون (أو كلوني)، پواتو، پروفانس، ألمانيا، إنكلترا. إسبانيا،

ولومبارديا . وانسجاما مع هـذه الروح وضمـاناً للتمـاسك، أسس بـطرس الجليل المجلس العام، أي جمعية تشمل كل رؤسـاء الأديرة وبيت العبـادة . ويتيح هـذا المجمع لرئيس دير كلوني ، الذي يستدعيه ويرئسه ، أن يطلع على مجرى الأحداث بصورة أفضل. وكان من شأن هذا المجلس أن يُلطِّف فيما بعد من الحكم الفردي البدائي الذي ظل، بالرغم من ذلك، متيناً حتى منتصف القرن الثاني عشر وما بعده.

إن سلطة رئيس الدير تدعمها الحصانة، وهي إنعام أو إمتياز يمنحه الكرسي الرسولي، تُستثنى بموجبه المؤسسة الدينية من سلطة الأسقف المحلي أي أسقف الأبرشية الموجودة فيها المؤسسة (باستثناء تعيين الكهنة في الرعايا، فيمثـل الديرُ حينئذٍ بالنسبة إلى المقررات الأسقفيـة الإكليروس الـذي يتلقى السلطة من الحبر الأعظم). وبفضل هذه الحصانة، لا يستطيع الأساقفة التدخل في شؤون المؤسسات الكلونية ولا ممارسة مهمتهم (كمباركة الأبنية وتكريس المذابح ورسم الكهنة) ولا المراقبة ولا العقاب (كرشق الحرم). هذه الاستقلالية التي يؤكد الكلونيون الأوائل أنها موجودة في اتفاقية التأسيس (وهذا ليس صحيحاً) أو على الأقل أنها تنسجم مع الروح التي بعثت النشاط في المؤسس (وهذا ليس أكيداً)، هذه الإستقلالية منحتها البراءات البابوية التي حددت مفهومها . ومنذ سنة 1025 أصبح دير كلوني محصناً فعلاً ولكن التطور كان بطيئاً بالنسبة إلى المؤسسـات الأخرى من بيوت عبادة وأديرة. يمكن أن نعتبر دون شك أنه منذ ذلك الحين بدأت «الأسرة» بأسرها تعتبر محصنة، ولكن يجب انتـظار النصف الثاني من القـرن الحادي عشـر لكي تكون «الحـريـة الرومانية» قد منحت بكاملها إلى الجميع.

الحرية الرومانية، أي الحرية شبه التامة بالنظر إلى الأساقفة، التي يضمنهـا البابا الذي يجني منها فائدة من الناحية النظرية، لأنه بفضلها يصبح الحكم الأوحد والملاذ الوحيد الأعلى لكل المؤسسات وجميع رجال الدين الذين يمكن استغلالهم لمصلحة الكرسي الرسولي الفضلى. أما بالنسبة إلى الكلونيين الذين استنتجوا أن الكنيسة الرومانية هي بعيدة جداً ولا تملك وسائل التدخل باستمرار، اعتبروا هذه الحصانة استقلالاً يشكلون بفضله جماعة سيدة قوانيها ومصيـرها . فهـذا يعلي، بمعزل عن التسلسلية الهرمية الأسقفية وفي لعبة القوى الحقيقية فوقهما، من قـوة رئيس دير كلوني والتعاون الذي يربط بين الأديرة والراهبات.

السِّيْسْترسيون ورهبان جدد آخرون

بالرغم من أن عدداً محترماً من الأديرة البنديكتية لم يندمج «بأسرة» دير كلوني فإنه كان، خلال القرن الحادي عشر، قد أنعش الحياة الرهبانية وأعطاها نفوذاً، في المجتمع، لم تكن تعرفه في السابق؛ ومقابل ذلك، ففي النصف الأول من القرن الثاني عشر توقف النمو، وظهر الجمود، أو الإنحطاط بالنسبة إلى بعض المؤرخين، هذا الإنحطاط الذي توصل بطرس الجليل إلى تأخيره خمسين عاماً.

إن هذا الجزر ناشيء عن عمل متزامن لعدة عناصر يأتي في أولها الموقف الجديد للبابوية التي ظلت تشجع الحياة الرهبانية ولكنها لم تكن تسمح لها بلعب دور في المسائل الكنسية البحت وتتدخل في القضايا على قدم المساواة مع الأساقفة (وأحياناً تخالفهم). وفي نهاية القرن الرابع عشر يصل البابا أوربانوس الثاني، وهو كلوني قديم ومتمسك بالمبادىء البنديكتية، إلى القول إن الرهبان يجب أن يوضعوا في مكانهم المعد لهم وهو انعزالهم عن العالم. ولكن عندما اكتشف الكرسي الرسولي فيما بعد أنه من المفيد بالنسبة إليه، أن يكون في تصرفه فريق بعيد عن الهيمنة الأسقفية وأن يكون موزعاً في جميع مناطق العالم المسيحي، عند ذاك انقلب الوضع رأساً على عقب بالنسبة إلى الرهبنة الكلونية واستدعيت إلى العمل. غير أنه في أثناء ذلك دخلت عوامل كثيرة على الخط: لم تعد كلوني توافق على كون الجهد الفكري ضرورياً، خلال هذه الإنطلاقة العظيمة، لتظل أحد مراكز الثقافة الدينية، وكذلك فلم تعد بالنسبة إلى النخبة الروحية التي تشدد على الإلتزام بالتنكر لكل ما يقدمه العالم، ذاك النموذج الذي ترجع إليه، ليس لأنها أصيبت بالفتور ولكن لسبب بسيط هو أن الذين تستهويهم الحياة الرهبانية هم أكثر تشدداً. لم تتوصل إلى فهم التطور الأقتصادي والإجتماعي المرتبط بالنمو السكاني وظلت متمسكة بالبنى الريفية التقليدية جاعلة من رهبانها مستغلي الأرض وعمل الآخرين، معرضة أكثر الأحيان لصعوبات ضخمة في ادارة أعمالها ومواجهة المشاكل الداخلية التي أدت مناقشتها إلى بعض التمرد والخروج عن المناقبية.

ثم، وكما في كل مرة يكتشف مجتمع نشاطه ـ الأمر الذي حدث في نهاية القرن الحادي عشر عندما لمست كلوني توسعها ـ فإنه يرغب في المزيد. وهكذا يلاحظ في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، فيض من المؤسسات من المفيد

أن نتعرف إليها لأنها باستثناء واحدة منها، لم تؤثر كثيراً في تاريخ الغرب، إما لأنها لم تنطلق من إطار جغرافي محدود وإما لأنها، بسبب ضعف انتشارها، لم تكتسب نفوذاً عظيماً، وإما لأن أهداف المؤسسة منها تختلف عن أهداف المؤسسة الأخرى.

وهكذا، ففي داخل الرهبنة البندكتية نفسها وفي ألمانيا، يعمل دير هِيْرْسُو، الذي تأثر في المرحلة السابقة بالنفوذ الكلوني، على «إصلاح» مئة من الأديرة ويساعد الأسقفية الجرمانية في مهام متعددة، في حين أن دير القديس يعقوب راتسبونا يحاول، عكس ذلك، أن يعود إلى الينابيع وأن ينعزل عن العالم أكثر، وهذا ما تحاول فعله، في فرنسا، الرهبنة الجديدة في شيز ـ ديو (Chaise - Dieu) التي لم تستطع أن تبعد أكثر عن منطقة الهضبة الوسطى: ويلاحظ بموازاة ذلك تجدد في الحياة النسكية المنظمة، أي نوع من الحياة الرهبانية يؤلف الرهبان بموجبها جماعات محددة في أديرة منظمة يعيش كل فرد منها القسم الأكبر من الوقت في صومعة، منها: رهبنة الكاملْدولا فَلُومبْرُوزْ في إيطاليا وغرانمون (Grandmont) في فرنسا وشارتروز الكبرى التي أسسها القديس برونو سنة 1084 . لأكثر هذه الرهبانيات حتى دير فونْتِفْرُو (Fontevraud) هيكلية خاصة مستوحاة منذ البدء من قانون القديس بِنْوا، وقد عادت فيما بعد إلى النظام البنديكتي ما عدا الرهبان الشارتريين، ولكن هؤلاء لم يكونوا كثيري العدد ـ أربعين مؤسسة على الأكثر في نهاية القرن الثاني عشر.

وإلى جانب كل ذلك، قامت بعض الجماعات القانونية بإصلاح نفسها وانطلاقاً من رسالتها أسهمت في الأعمال الكنسية والدينية (من وعظ وتعليم وتبشير بالإنجيل). هذه الجماعات جماعة القديس روف في پروڤانْسْ والقديس ڤكتور في باريس وأرُوَاز في الشمال، وخاصة پريمونتريه، هي الممثلة الأكثر دينامية لهذه الحركة. دير پْرِيمُونْتريه (Prémontré) الذي أسسه القديس نوربير سنة1120 «تخصص» في تنصير الشعوب السلاڤية والمقيمة في شرقي ألمانيا والتي ظلت وثنية. وهي الرهبانية التي كان تنظيمها هشاً وانتشرت خاصة في هذا البلد كما في هنغاريا وپولونيا وفي أقطار أخرى بحيث إنها شكلت صلة متينة إلى حد ما بين مناطق الغرب ومناطق أوروپا الشرقية. وفرضت بذلك نفوذاً شبيهاً بنفوذ السِّيْسْتِرْسِيِّيْنْ وقد استوحت المبادىء الرومانية دون أن تستطيع بلوغ مقدرة هؤلاء.

وفي سنة 1098 غادر أحد الرهبان المدعو روبير والذي ظلت شخصيته تثير

التساؤلات، مع بعض الرهبان الآخرين، الدير البنديكتي في مُولِيْسْم ، محدثين بذلك بادرة من شأنها أن تنتهك أسس قانون القديس بنوا والإستقرار المعبَّر عنه بنذر يلزم الراهب بعدم مغادرة الدير أو المؤسسة التي انتسب إليها. وكانت بادرة مهينة ومثيرة للشكوك، وجاء هؤلاء الرهبان واستقروا في سيتو، جنوبي ديجون مدَّعين أنهم يعيشون حياة نسكية تغذيها روحانية يجددها تزهد قاس. وبالرغم من الصعوبات المادية العظيمة سَنّ أوبْرِيّ ـ Aubry ، الذي قاد الجماعة بعد روبير، قانوناً يعمل على احترام صارم لمبادىء جبل كاسِّينو، ووضع نظاماً رهبانياً شاملاً (يعيش الرهبان دائماً جماعات) والتزامات صارمة. وكان على السيسترسيين أن يقيموا بعيداً عن «مخالطة الرجال» كما تحدد قوانينهم ، يجب أن يعيشوا في الفقر ومن عمل أيديهم «فقراء مثل المسيح الفقير» غير آبهين بالمشاغل العالمية ومحافظين على خضوعهم للأساقفة. لقد غدوا بذلك تائبين.

ـ يجتذب هذا الدير الجديد» القليلَ من طلّاب الرهبنة، لفترة ما، إلى أن جاء يوم من سنة 1112 حين دخل شاب ذو نشاط فائق الحد يدعى برنار دو فونتين، القديس برنار ـ اصطحب معه ثلاثين رفيقاً واستطاع في السنوات التالية، بفضل نفوذه، أن يُشْهِر الرهبنة وينشر مُثُلها. ويزداد عدد المنضوين بسرعة وتنظمت الجمعية. ووُضع مبدأ يقول إنه لا يتطرق الإصلاح إلى دير قائم إلا بصورة استثنائية ويعمد إلى انفصال جماعي أو هجرة جماعية من أجل تأسيس أديرة جديدة في حين يتضخم عدد الجهاز البشري. وكل مؤسسة تصبح ديراً على رأسه رئيس ينتخبه الرهبان بحرِّية. وترتبط الأديار بعضها ببعض بإشراكها بمثال واحد وبارادة بقائها متحدة، ولكن بما أن ذلك ليس كافياً وبما أنه من الضروري أن يكون هناك جهاز إداري جاء «ميثاق المحبة» الذي يشكل القاعدة الأولى للرهبانية والذي يعبر عنوانه عن التعاطف الذي يوفق بين هؤلاء الرهبان وهذه الأديرة ليؤسس المجمع العام الذي يجمع كل رؤساء الأديرة. يلتئم المجمع بانتظام ويصدر جميع المقررات بالأكثرية. ويكون على كل رئيس أن يطبقها في مؤسسته. ولم يكن لدير سيتو أي سلطة خاصة ولكنه ينعم بحق الصدارة وهو لا يمارس، حُكْماً، نفوذاً طاغياً ؛ فهذا الدور كان يقوم به في السنوات 1120 ـ 1150 القديس برنار رئيس دير كْلِيْرْفو. ويلاحظ أن كل ذلك يعني ردة فعل ضد النظام الملكي المركزي لرهبنة كلوني التي يواجهها السيسترسيون بمثال مختلف ولكنه أرقى. ولا يمنع أن ديناميتهم التي أكسبتهم، من جهة، عطف

الكرسي الرسولي والقوى التي يمثلها وقد كـان يأمـل في إمكانيـة استخدامهم في مشاريعه، ومن جهة أخرى رغبتهم في ألا يخضعوا لمراقبة مستمرة . كل هذا أدّى في وقت متأخر سنة 1184 إلى حصولهم على الحصانة.

وكانت الدينامية لا ريب فيها، كان عدد الأديار خمسة سنة 1115 وهي (سيتو وابناؤه الأربعة: كليرفو، پونْتِينْيِي، موريمون، لافِرْتِيْه ـ سور ـ غروسْنْ) وعشرة سنة 1119 وثمانين سنة 1134، و 343 سنة 1153 (تاريخ وفاة القديس برنار). واستمر التقدم في النصف الثاني من القرن الثاني عشر (حوالي 350 ديـراً سنة 1200). ولكن إذا لم تستطع الأسرة السيسترسية بلوغ الأرقام الكلونية ، فإن عددها كان كبيراً وهو يفوق عدد الشارتريين أو الأسرة الڤالُومْبْرِيَّة . أما تمركز الأديرة فإنه كان كثيفا في فرنسا وأقل كثافة في غيرها، بالرغم من أنها ظهرت في أقطار أخـرى بعيدة مثـل سكنديناڤيا وپولونيا والأرض المقـدسة. وأشهـر الأديار كـان في فرنسـا إلى جانب الخمسة الأولى وهي إيْغْبِلّ ـ (Aiguebelle) وأورْڤالْ وَنِيْڤِلْ وَ تْـرَابْ ـ (Trappe) ـ وسِبْتْ ـ فَـون؛ (Sept - Fonds) ولاغْراسْ ـ ديو وَ فُونْفْرْوَاد ـ (Fontfroide) وسِيْنَانْكَ وتُورُونِيْه وسيلڤاكانْ. . . وفي ألمانيـا والبـلاد الجرمـانية: مُـولْبْرُونّ، اَلْتِنْكـامْبْفْ، هايليغَنْكْروز ـ (Heiligenkreuz) وفي سكنديناڤيا، هوڤيدو وَ نيدالا؛ وپفِرْلي ومِلْروزْ في إنكلترا، كْيارا ڤِلاّ وَ فوسَّانوڤا في إيطاليا، اَلْكُوباجا وَ ڤالْبُوانا في شبه الجـزيرة الإيبيرية.

تناقضات الحياة الرهبانية

إن هذا الفيض من الجمعيات الرهبانية يدل كم هـو معقد تـاريخ الـرهبنة. فالمؤسسات الحديثة ، خاصة سيتو التي هي ردة فعل ضد الرهبنة التقليديـة وضد كلوني، والتي تحمل بذور الإنقسام تشهد في الوقت عينه على الـديناميـة الدينيـة المتجددة أبداً والحميمة بين عالم الرهبان وعالم العلمانيين الذين ينضمّون إلى سلك الرهبنة هو الذي كان يؤمِّن لها النجاح. غير أننا إذا توغلنا في تحليل الظاهرة إلى أعمق من ذلك، نكتشف، من جهة، أنه عند كل تجدد خطير وكل إصلاح حقيقي تكون المقاصد الأولى هي الإعتراض على المجتمع وإثارة التساؤلات حوله. ولكنْ من جهة أخرى، نجد أن التجارب المحققة قد قامت بها العناصر المحافظة وبإعتبار هذا التطور هكذا، فإنه يؤدي إلى كشف العقم النسبي للجهود ولتسليط الأضواء،

حين تبلغ الجهود أقصى مداها، على الإنقسامات الإجتماعية التي تحتويها وتثيرها.

وكانت كلوني، في عهدها الأول، احتجاجاً على الرهبانية السابقة التي جاءت لتصححها بالعودة إلى مبادرة القانون البنديكتي (الأستقرار قبل كل شيء) وتنظيم الرهبنة. إنها تمثل أيضاً نقدا للمجتمع الذي تحدّد فيه معاييرَ الحق والسيادة أولَ ما تحدد القوةُ العنيفةُ والقدرة المادية ـ القوة هي الحق ـ ولا يشرِّع فيه أي دليل أدبي أو إجتماعي سلطة الأمر الواقع ولا يفسِّر لماذا أو لأي أهداف يستحوذ البعض على المقدرة. لا ترفض النظام القائم لأنه بالنسبة إليها غير موجود. إنها تهرب من هذا المجتمع وتبحث عن نظام جديد، إنها تعترض على الهرمية الكنسية لأن الأسقفية مندمجة اندماجاً كاملاً في النظام غير المبرَّر للمجتمع العلماني. وانطلاقاً من هنا تقود معركتها وتذيع إصلاحها وتحصل على الحصانة وتساعد في إتخاذ المشاريع الكنسية والدينية الكبرى. وتشارك في إعداد إيديولوجية السلام التي تبرر السلطات الأرستقراطية. ولكنها بمقدار ما تنجز هذه المهام تتوقف عن أن تكون الإدارة التي بواسطة ديناميتها، تفيد النفوس وتحث الإرادات على خدمة رسالة مشتركة. إن الإصلاح لا يمعن كثيراً في التزهد وفي البحث الروحاني. بالإضافة إلى ذلك فإن الكنيسة الرسمية تميل لمنع الكلونيين من الخروج من الإطار الرهباني البحْت. فهؤلاء هم، اجتماعياً، مرتبطون، أكثر مما مضى، بالأغنياء مُدَّعي الوسامة. إنهم في المجتمع وفي العالم الرهباني أرستقراطيون يعملون قليلاً ويستثمرون خيرات الأرض. يتظاهرون بأنهم رهبان صالحون أفاضل ولكنّ اشعاعهم محدود. يؤلفون جماعات المرشدين الروحيين وينظمون بيوت الخلوات الروحية للنبلاء ـ بكل ما لهذه الكلمات من معنى ـ ليجمعوا الصدقات ويستفيدوا من وجود الكهنة المرشدين وليبتعدوا عن العالم في عمر متقدم ويعيشوا في التأمل.

وفي النصف الأول من القرن الثاني عشر كان السيسترسيون لا يزالون في ذروة الإحتجاج: ضد كلوني وفتور الحياة الرهبانية، ضد التنظيم الكنسي الذي هدفه فقط السلطة، ضد الشهيَّة إلى الغنى عند الجميع. وأحيوا الحماسة بنشاطهم، وشددوا على قيمة العمل اليدوي الذي هو سلوك تقشفي ـ للعمل الشاق الفضل الأكبر ـ واثنوا على ترك العالم وعلى الفقر. ولكنهم ما لبثوا هم أيضاً أن غيَّروا اتجاههم. لقد راحوا في وقت مبكر، يستغلون عملهم لجمع الثروة، ثم استخدام الثروة للحصول على القوة التي بواسطتها راحوا يهتمون بقضايا العصر الذي اندمجوا به اندماجاً كلياً.

أوروبا والأديرة

وبالرغم من هذه الطفرات وهذه الانتكاسات، فعند وفاة القديس برنار، في منتصف القرن الثاني عشر كانت أوروبا قد زُرِعت بالأديرة، منها الفرع البنديكتي (كلوني، سيتو، لاشيز ـ ديو وكثير من البيوت المعزولة) الذي هو أهمها، وإلى جانبه فرقاء آخرون ـ الفريق المتزهد ـ لا يمكن إهمالهم، ويضاف إليهم الكهنة القانونيون الذين تشهد انطلاقتهم على حيوية عظيمة. وهكذا تشكلت «جماعة» كبيرة سعى أعضاؤها إلى مثال ديني من التقدم الروحي والكمال. وقد حدث تباين بل تعارض في تحديد الفضائل التي تبرز هذا المثال على أفضل وجه وفي الوسائل والطرق الآيلة إلى بلوغه. هذا الواقع جعل مُصَوَّر أوروبا الرهبانية مطابقاً لمصوَّر الغرب الإقطاعي. هناك تجمعات محلية بمقدار ما يوجد إقطاعات كبرى ويوجد على الأخص فروع في (بيوت الجمعية الواحدة وفي قلب الجمعيات) كما يوجد سلالات. وبين هذه الفروع هناك المحبة والوفاق واللامبالاة والمنافسة وحتى الكراهية كما بين السلالات، ولكن إذا أخذت الرهبانية بكل فروعها فإنها تمثل صرحاً من التعاون وشبكة من الإخلاص والأمانة تضاهي النظام الإقطاعي قوة.

وبالرغم من الخلافات الناشئة بين هؤلاء الرهبان فإن القاسم المشترك بينهم جميعاً هو عملهم على خلاص نفوسهم والمساعدة، بصلواتهم ومؤهلاتهم وأعمالهم، على خلاص الآخرين. فكل فريق يدعو «لدينه»؛ فالكلوني، كما ذكرنا، هو مصلٍ، والسيسترسي هو تائب والشارتري متأمل، وراهب پْريمونتْريه هو روحاني يتجدد عمله بلا انقطاع بالفقر. كلهم يريدون الإقتداء بالمسيح والعيش أقرب ما يكون من الحياة التي عاشها، البعض اختاروا تواضع الناصرة (قد يكون الكلوني؟) وآخرون فقر بيت لحم (سيتو) وآخرون غيرهم وحدة الجلجلة، وكلهم يرفضون بهارج العالم ويريدون أن يكونوا فقراء وبأساليب متنوعة ـ ومتميزة ـ يريدون أن «يفنوا إرادتهم الخاصة» حسب تعبير القديس بنْوَا.

ومع ذلك فكلهم، بواسطة نشاطاتهم المتعددة، أثّروا في المجتمع العلماني وأسهموا في تعميق الشعور المسيحي، لأنهم، باستثناء الشارتريين، في بداية تاريخهم، ربما انجرُّوا للإهتمام بالقضايا الدينية الأساسية المعاصرة. وعندما انطلقت في نهاية القرن العاشر وفي بداية القرن الحادي عشر، الحركات السلمية،

عمل بعض رؤساء الأديرة على تطويرها، حتى وإن لم يكونوا هم محرِّكيها ـ وأولهم الكلونيون وأوديلون نفسه. وعندما شاعت، بعد ذلك بخمسين عاماً، فكرة إصلاح الاكليـروس والمجتمع انـطلاقاً من عـدة مراكـز، الفكـرة التي أدَّت إلى مـا دعي بالإصلاح الغريغوري. كان الكلونيون وآخرون مستعدين لذلك ، فاستنكروا القساوة في طباع الإكليروس وجشعه. ورجال الدين أنفسهم يظهرون الدين وكأنه ممارسة متشددة تفرضها عدالة مخيفة، ترغم القساة على الندامة لكي ينالوا مغفرة خطاياهم. وهم يروِّجون بالإضافة إلى ذلك، لثقافة فكرية كـانت مزدهـرة.عملت الجماعـات القانونية على تجديد نشاطها. والكهنة القانونيـون يعلِّمون ويعـظون ويبشرون مـع كثيرين آخرين (منهم رهبان بريمونتريه). أما السيسترسيون فقد عززوا من قيمة المثال بجعلهم العفة فضيلة إيجابية والفقر مزية ترغم الأغنياء على العناية بالفقراء. وقـد أسهموا أيضاً في مشاريع ضخمة، ودعوا للحرب الصليبية كما عمل الكلونيون سابقاً على حمل الإقطاعيين على استعادة إسبانيا وكلفوا فيما بعد البحث عن الهراطقة.

وبصـورة عامـة، كانت كـل هذه التنـظيمات تعتني، بـواسطة مؤسسـاتهـا، بخورنيات كانوا هم يملكونها، وبالرغم من أن إعداد الكهنة كان من شأن الأساقفة فقط. ومع ذلك لقد كانوا ذوي تأثير كبير على كهنة الرعايا. وفوق ذلك لقد خرج الكثيـر من الأساقفـة من صفوفهم، بعـد أن انتخبهم كهنة مجـالس الكنائس الكـاتدراليـة الذين رأوا ربما، في هذا النوع من الإنضواء ، وسيلة للحصول على أفضل الأحبار الذين يعملون أيضاً تحت تأثير الأوسـاط الرهبـانية نفسهـا التي تسعى عن قصد، للحصول على هذه المناصب لتأكيد نفوذها الروحي وقوتها. وكان في مملكة فرنسا سنة 1153، 77 اسقفاً 33 منهم كانوا من أصول معروفة و 20 كانوا من الإكليروس العادي.

إذا، لقد أدى المشروع الرهباني إلى تنصير أفضل ، وبهذا عمل على تكتل الناس وأسهم في أن يقدم للبعض منهم، المنتشرين بين بولـونيا والبـرتغال، وبين إيـطاليا وسكنديناڤيا، وإنكلترا وهنغاريا، بعض الذرائع التي يحولونها لمصلحتهم، وانطلاقاً من ذلك تنشأ تصرفات وعادات مماثلة في بعض الأمكنة. وبأختصار إن المشروع يعمل للتوحيد، ومن الملاحظ أن الرواد الأساسيين في هذه الحركة البعيدة الصدى،

وهم: أودون، ومايُولْ وأوديلون وهـوغ وبرنـار ونوْربِيْـرْ وبْرُونـو، وضعوا لأنفسـهم تصاميم أبعد مدى من تصميم الدير البسيط وأبعد من القطر المجاور، كما عمل، في بداية العصر الوسيط، القديس بِنُوَا وآخرون، إنهم نظروا بعيداً وعملوا عظيماً، على مستوى المسيحية الغـربية بكـاملها، مبـرهنين بْذلـك، على اتساع رؤيـاهم وقدرة طموحهم ونبله، وشاهدين بذلك على أنهم في ذلك العصر كانوا يدركون وحدة ما وفرادة في هذه المسيحية.

من هـذه الشخصيات المشهـورة، يعتبر أوديلون، من رهبنـة كلوني، أشهـرهـا في القرن الحادي عشر. تحدر من عائلة أوفَرْنِيَّة من آل ميرسور، وكان في شبابه كاهناً قانونياً في بِرْيُودْ، ولكنه انضوى باكراً إلى كلوني حيث أصبح، ولم يَكَد يبلغ الثلاثين من العمر، المساعدَ الأساسي لرئيس الدير مايول الذي خلفه سنة 994. ومنذ ذلك التاريخ وخلال خمسة وخمسين عاماً أعطى «الأسرة» امتداداً عظيماً وينالِ الحصانة الأولى بالرغم من التحفظات وردات الفعل المناوئة للكلونيين من قبل أسقف ماكون وأحبار أُخَرَ. وقد أصبح حاكم مؤسسة ضخمة لا تخضع لأي مراقبة محلية وتدعمها البابوية وأكبر الأمراء. وهكذا وضع، للمرة الأولى، في تاريخ الرهبانية، على مستوى السلطات النافذة في الغرب بأسـره، وكان شـديد الحسـاسية بـالنسبة إلى مـوقف الإكليروس غير القانوني والمجتمع العلماني. لقد آستنكر بعبارات قاسية المتاجرة بالأشياء الروحية التي يمارسها الكثير من رجال الإكليروس وقاوم ما استطاع المبالغة في العنف والجشع داعماً بكل ما أوتِيَ من النفوذ حركات السلام مقدماً المثل الصالح في النزاهة والترفع (لقد باع قسماً من كنز كلوني لمساعدة الفقراء) وقد سمح له نفوذه أن يُسمِع صوتَه أرقى الشخصيات التي لم يتورع عن تقديم اقتراحاته وآرائه لها حتى ولو كان ذلك بفطنة ولطف، وظل مع ذلك راهباً يهتم، قبل كل شيء، بالفروع التي يتوجب عليه توجيهها وتنظيم أديرتها، ويتدخل في قضايا أخرى لخير الرهبنة وللدفاع عنها، وذلك لكي تتغلغل الفضائل المسيحية في المجتمع.

وكان خلفه هوغ يختلف عنه شخصية وأهمية، لأنه، من جهة، ورث رهبنة واسعة الانتشار وحسنة القيادة والتوجيه بلغت في منتصف القرن الحادي عشر ذروة غايتها، ومن جهة أخرى لأنه، إما بفضل قوة كلوني وإما لميل فيه، لعب دوراً بارزاً في مسائل لم تكن أساساً ذات صفة دينية أو أخلاقية. وكونه ينتمي إلى عائلة كونتات

سيمور ـ أون ـ بْرِيُونِيه، من أصل بورغوني، أصبح مبتدئاً في رهبنة كلوني منذ الخامسة عشرة من عمره وبعد خمسة أعوام ارتقي إلى رتبة الكهنوت، وفي الخامسة والعشرين من عمره أي سنة 1049 أصبح رئيساً للرهبانية وقام بهذه المهمة خلال ستين عاماً، نشيط إلى أقصى الحدود، ويملك طاقة قوية على العمل، وقد وسع من انتشار الرهبنة وبلغت ذروتها في مدة رئاسته، هذا إذا أخذنا على الأقل الناحية العددية (عدد الأديرة وعدد الرهبان)، لأنه، من الجهة المقابلة، بدأت تظهر في عهده النتائج السيئة للافراط في العظمة. وقد قاوم هوغ تلك الظاهرة ولم يتوقف عن التجوال في أوروبا لزيادة الأديرة للمحافظة على الوحدة. وأصبح في الوقت نفسه بفضل هالة النفوذ التي تحيط بمنصبه وبفضل طبعه المنفتح، المستشار المسموع لدى الكثير من البابوات وخاصة البابا لأونْ التاسع الذي أرسله في بعثة إلى هنغاريا. وكان على صلة وثيقة بالإمبراطور هنري الثالث، فهو عراب ابنه هنري الرابع، الأمر الذي خوله لعب دور الوسيط في المفاوضات بين الإكليروس والإمبراطورية أثناء معركة تعيين الأساقفة، فلم ينجح في هذه المهمة في عهد غريغوريوس السابع، بالرغم من أنه مهد للقاء كانوسا الشهير. ولكن يبدو أن البابا أوربانوس الثاني كان يصغي إليه أكثر. وشارك عام 1095 في مجمع كليرمون حيث دعا هذا الحبر للحروب الصليبية وأطلقها . لقد كان شاهدا على قضايا الغرب الأساسية، وهذا ما زكّى عظمة كلوني ومجدها، اللذين حاول أن يعبر عنهما للعالم بطريقة بارعة وعلنية بتشييده كنيسة ضخمة غدت إحدى روائع الفن الروماني، ولا تزال، تشهد على ذلك خرائبها الفخمة.

القديس برنار، رائد الحركة الرهبانية، المعتبر في حياته أعظم شخصية مسيحية، المنكب أبداً على عمله، الواقف دائماً في قلب أشرس المعارك وأقساها، الصوفي الثمل بحب مسيحه، الحساس، المتحمس لكل شيء، وأكثر الأحيان حتى حدود الإفراط، الجائر بقسوة، المتعصب حتى إثارة الشكوك أحياناً، المستحق للتأييد الأكثر حماسة، المسهم في إثارة الإزعاج والنقد، إن هذا القديس لعب دوراً حمل بعض المؤرخين على اعتباره ممثل عصره، واعتبر القرن الثاني عشر «عصر القديس برنار». متحدر من عائلة إقطاعية من آل فونتين في بورغونيا وقريب النسب من الأسرة الشريفة الراقية، هو الذي نقل دماً جديداً وكريماً للجماعة السيسترسية الفتية التي كانت في طور النزع لنقص المتطوعين الجدد، فينهض بالمشروع ويعطي

الجمعية السيسترسية نفوذاً لم تكن لتعرفه لولاه. لكنه من الخطأ، تاريخياً، ربط سيتو بشخصيته وعمله بالرغم من أنه بفضل نشاطه، أسهم بتحويل إخوته في الدين عن هدفهم الأساسي، الهرب من العالم، فلا يمنع أنه بفضله عُرفت الرهبانية، في كل مكان وأثارت الإعجاب والرهبة في كل الأوساط، لأن هذا الرجل الباحث بلا هوادة عن التأمل والوحدة المنسجم مع نفسه عندما يكون مع رهبانه في كليرفو، يهتم بكل شيء بعناد وحماسة، وليس فقط بالمشاكل الرهبانية ـ ها هو يدخل في صراع دائم مع كلوني بمناسبة أحداث واصطدامات عديدة في معارك يكل فيها نشاطه وتلين قناته أمام هدوء بطرس الجليل ومحبته وحسه السليم، وليس فقط بالقضايا الكنسية ـ إنه يخوض معترك الإنتخابات الأسقفية، المعترض عليها، ويدلي بدلوه في المناقشات اللاهوتية التي انتهت بإدانة أبيلار المسؤول المباشر عنها، ويقود بعثة إلى جنوب فرنسا محاولاً هداية المانويين بطريقة مباشرة أو بواسطة حكومة عالم المسيحية. ألم يتوصل الكرادلة إلى آتفاق لانتخاب البابا أوَ لم يعينوا حبرين بابويين؟ لقد حسم الأمر لصالح إينوشنسيوس الثاني بحماسة ووقاحة وتحامل واهتم في الوقت نفسه بالسياسة الإمبريالية في إيطاليا. هل قلق الغرب للهزائم الأولى التي تكبدها الفرنجة في الأرض المقدسة؟ ونزولاً عند طلب البابا اندفع إلى التبشير بالحرب الصليبية وبفضل اندفاعه ومواهبه الخطابية الخارقة أثار حماسة سامعيه. وأخيراً لقد كان موجها لضمير الغرب والمستشار الأكثر قبولاً لدى الكرسي الرسولي وخاصة عندما ارتقى تلميذه أوجينوس الثالث الراهب القديم في كلْيرْفو، السدَّة البطرسية.

الإصلاح الغريغوري

وكما يمثل القديس برنار الإندفاع الديني لزمانه على أكمل وجه، كذلك اغتنت روحانية الغرب منذ نهاية القرن الماضي على أثر ما اتفق على تسميته بالإصلاح الغريغوري. إنه أحد أبرز ثمار هذا الإصلاح وآخر ممثل مرموق لما سعى إليه، لأنه في العقود التالية، كما في أيامه، بُدِىء، مع الإحتفاظ بالمبادىء، بتقنين ما كان حتى ذلك الحين مطامح وأبحاثا ومشاعر، وبهذا تم التوصل إلى تجميد الاندفاع وعرقلة الحركة.

ومع ذلك فإن الإصلاح الغريغوري هو أحد هذه الموضوعات المعقدة التي اعتبرت صياغتها وتفسيرها في غاية الدقة حتى إن أشهر الإختصاصيين لا يتفقون

بصدده مع اعترافهم جميعاً بأن ما تم خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر في المجال الديني وفي التنظيم الإكليريكي الكنسي، هو تحول عام في سفر تكـون الغرب.

ويستحسن أن نذكّر بالوقـائع؛ يـلاحظ المؤرخ بسهولـة منذ منتصف القـرن الحادي عشر رغبة في الإصلاح ظهرت في أوساط مختلفة وفي مجالس عديدة. كان المراد الذهاب إلى الأمام على الصعيد الروحي والعمل على إصلاح النقائص وتقويم الأخطاء والعيش حياة أكثر مسيحيةً في مجتمع منظم. من هذا الهدف انبثقت حركات السـلام التي كان روّادهـا الأساقفـة والملوك والتي أدّت إلى تضـامن الإقـطاعيين والرهبان. وكذلك من هذه الحماسة لعمل المزيد، بدأ في ذلك العصـر، أزدهار الجمعيات الرهبانية (الشارتربون، السيسترسيون. .) التي أوصلت جميعاً، وبطرق مختلفة، إلى التجدد الروحي الذي راحت الجماعات القانونيـة المنشطة تبثـه بين العلمانيين بالتثقيف والوعظ. إنه عصر الخمرة الجديدة الملتهبة الكريمـة في دِنان عتيقة، ربما، أو جديدة، لا نعلم ، معدّة لبعث الإنسـان والعالم.

ولكن ليس من السهل، في هذا العمر حيث ينطوي الإنسان على نفسه في آفاق ضيقة، أن يُفهم هذا المشروع على مستوى المجتمع ككل. إن هذه الـرؤيا البعيدة لا يمكن ملاحظتها وفهمها إلا في حلقات خاصة جدًا. وبصورة أبسط لقد اكتفى المصلحون، طبقاً لـظروف المكان والـزمان، بـاقتراح نمـاذج للحالـة التي تهمهم. ويُلاحظ في المدوَّنـات، ظهور نمـوذج الكاهن والعلمـاني، أي تحديـداً الفضائل التي على كل منهما أن يمارسها. ثم العيوب والنقائص التي عليهمـا أن يتجنباها: في حين أنه، في سيتو وأديرة أخرى، تكوَّنت صورة الراهب النموذجي وأبرزت فئات أخرى الإقطاعي النموذجي (منذ القرن العاشر كان أودون الكلوني قد اقتـرح كنموذج للقـوي في عصره، جيـرو دوريلاك ـ Géraud d'Aurillac ـ. وحـاولت جماعات أخرى رسم الأسقف المثالي، وانطلاقاً من هنا، وبناء على هذه التجارب وهذه الأوصاف وبإعادة تركيبٍ ما للمجتمع بكل فئاته التي تشكله فعليـاً، أخذت بعض العقول الجريئة تتصور عالماً مثالياً. وهكذا، شيئاً فشيئا تكونت فكرة مؤدّاها أن هذه التجديدات الفريدة يجب أن تبرز في إصلاح أكثر شمولاً ، من أهدافه إعلاء شأن المسيحية التي قدِّم عنها في بداية العصر، صورة توجيهية عن طـريق تقسيم

الناس إلى ثلاث فئات، يجب على كل منها أن تنجز ، بأفضل الوسائل استناداً إلى نظام تفكير مستوحى من أفلاطون، وظيفتها، وذلك بممارسة الفضائل الملازمة لمنصبها.

إن الفريق الذي تكوّن، ضمن هؤلاء الفرقاء، من المفكرين المكلفين بالمسؤوليات الكنسية الذين ارتفع قدرهم واعتبارهم، في السنوات 1050 وما بعدها، في أحضان الكنيسة الرومانية، في كنف البابوية، هذا الفريق سيلعب الدور الأول، إنه لم يكن فريقاً منسجماً، فبين أعضائه كانت الخلافات في تحليل العمل وتقويمه، وظلت عميقة ولم تنشأ فقط عن تباينات في الأمزجة، وقد تم التوافق بين تكوين التفاهم وإيجاد بعض التماسك، حول الهدف النهائي ـ وهو إصلاح المجتمع ـ وحول أسباب الفوضى في الكنيسة ـ أي تدخل العلمانيين . وحدث أن أحد الأشخاص الأكثر نشاطاً والأوسع معرفة في الفريق المدعو هِيلْدْبْرَانْدْ قد أصبح بابا تحت اسم غريغوريوس السابع ونجح ، بضمه أشخاصاً آخرين إلى فريق عمله وسلطته، في الحصول على التأثير في الآخرين واعتبر ليس فقط قائدهم غير المنازع بل صُوّر بعد وفاته بابا مثالياً أحسن قيادة المعركة واضطهد من أجل عدالتها؛ ونال مجداً حصلت بفضله الكنيسة الرومانية على براءة أخلاقية وإيديولوجية شرّعت الإصلاح الشامل الذي تاق إليه الفريق والذي استحق أن يدعى غريغورياً. ـ

الغريغوريون هم جميعاً متفقون على التشخيص: إذا كان المجتمع مريضاً، إذا لم يكن يتمتع ببحبوحة روحية حقيقية فذلك لأن الإكليروس، وبالدرجة الأولى الأسقفية، هو مريض ويشكو من علتين: المتاجرة بالأشياء الروحية والرتب الكهنوتية وعدم احترام التبتل ، ولكن هذا الفساد نفسه تسبَّب عن تدخل السلطة المدنية في المجال الكنسي، وقبل كل شيء في الإنتخابات الأسقفية. ففسد النظام الانتخابي حتى جذوره. وفي بعض البلدان يتدخل الملوك في العمليات الانتخابية ويوعزون بانتخاب الأشخاص الذين يفضلونهم، فيعينونهم. وفي بعض الأقطار يضع الأمراء وكبار الإقطاعيين ، بفضل وجود أقربائهم واصدقائهم في المجالس الكنسية وفي الطبقة العليا من الإكليروس المحلي، على رأس الأسقفيات، رجالاً من عائلاتهم أو من محازبيهم فيؤدي هذا التصرف، غالباً ، إلى المتاجرة بالمراكز الدينية ولا يوفر أي ضمانة بالنسبة إلى القيم الأدبية لدى هؤلاء الكهنة المرفَّعين. إنطلاقاً من هذا

التحليل، الذي يجمع عليه الغريغوريون في العمق تبرز خلافات في التقييم. فالمتشددون يغالون في مخاطر المتاجرة بالمقدسات ويستنكرونها غالباً حتى يتجاوزوا الحد وبأسلوب خاطىء ويخلطون بينها وبين عادات لا تعتبر ضالة لا في النية ولا في الفعل، ويرفضون كل تدخل علماني في ترقية الأساقفة، وبالمقابل فثمّة آخرون يعتبرون، وعلى الأخص، المصلحون غير الغريغوريين، أن هنا أيضاً يمكن التحسين دون تدمير. وزيادة علىٰ ذلك فإن الأحبار المعينين بتدخل من العلمانيين لا يعدمون، أكثر الأحيان، بعض الفضائل. وفوق ذلك فإن الأكثر تشدّداً من الفريق وغيرهم أيضاً، يرتأون أن إصلاحا كهذا يتطلب، لكي يحسن القيام به، بحكم أنه يمس بالدرجة الأولى الأقوياء ويطبق على الأساقفة، يتطلب قيادة حازمة وموحدة ولا غبار عليها من الناحية العقائدية. وهذا ما ينسجم كلياً مع وجهة نظر غريغوريوس السابع الذي كونه بابا، يمارس طبيعياً هذا التوجيه ويطمح، بفضله إلى قدرة كلية للكنيسة وخاصة المجتمع، وهذا من شأنه أن يضع المشروع بكامله بين يديه ويسبب الخلاف مع الإمبراطورية.

ويصرِّح المتطرفون ويذيعون أن المتاجرة بالمقدسات هي هرطقة ويجب أن يكون تقليد المناصب الأسقفية من قبل السلطة المدنية ممنوعاً قطعاً، فهذا التصريح يصدم أولاً ملك جرمانيا والإمبراطور هنري الرابع، المنظمة دويلاته منذ أيام أوتون الكبير بطريقة أن الأساقفة يمارسون سلطات إدارية مدنية، الأمر الذي يسمح للملك بمنع انتقال هذه المناصب نهائياً عن طريق الوراثة إلى عائلات كبيرة ويقضي بالمقابل بأن يكون الأحبار مطيعين أمناء، لذا كان الملك يأمر بتعيينهم وتوظيفهم ويصبح الخلاف بين الأمير والبابا عنيفاً لتوّه. وفي كانون الثاني/يناير سنة 1076 يتوصل هنري الرابع إلى إقالة غريغوريوس السابع بواسطة الأساقفة الألمان فيحتج البابا بعد ذلك بثلاثة أسابيع ويحرم الإمبراطور بمنعه من ممارسة مهماته ويأمر جميع المسيحيين بعصيانه. ويثير هذا الحرم فتنة في ألمانيا ترغم هنري الرابع على التماس الصفح في كانوسا (كانون الثاني/يناير سنة 1077). ولكن ما أن يستعيد سلطاته حتى يرتد على المتمردين فيقهرهم ويسيطر على رجال الإكليروس لديه. وبعد أن حُرِمَ الملك وعزل من جديد سنة 1080، يدعم البابا أحدَ الثائرين الأساسيين ويعترف به ملكاً، فينتخب بابا آخر ويزحف على روما ويحاصر البابا في قصر سان ـ آنج فيطلب هذا مساعدة النورمانديين وبعد أن أنقذ والتجأ إلى دويلاتهم يموت بعد

سنة 1085 بقليل، فتهدأ نار المعركة، ولكنها تعود فتتأجج بعد عشرين عاماً بمبادرة من هنري الخامس بن هنري الرابع، وبعد عدة أحداث عنيفة يدب الإرهاق في كلا المعسكرين ويتغلب الغريغوريون المعتدلون على المتطرفين ويسوَّى الأمر بتسوية دعيت معاهدة وُوْرْمْزْ سنة 1122 تنص على انتخاب حر للأساقفة ولكنها تضمن حق الرقابة للسلطات المدنية.

وإذ سبَّب الإصلاح هذا الخلاف الذي طمح البابا من خلاله إلى ممارسة سلطات استبدادية بَطُل أن يكون مشروعاً دينياً بحتاً. ولهذا أعطي تفسيرات مختلفة. فبالنسبة إلى البعض الأكثر تفاؤلاً فإن طُهْر النوايا لدى باعثي الإصلاح لم يرْقَ إليه الشك: فإن غريغوريوس السابع وبطانته وأنصاره لم يهتموا إلا بالقضايا الدينية، أرادوا قبل كل شيء وفقط، نشر الدين المسيحي، وإن تقوية الكرسي الرسولي لم تكن سوى وسيلة عمل، جهاز عمل لتوجيه المشروع بشكل أفضل ولضمان نجاحه بشكل ثابت وأكيد، جهاز يجب المحافظة عليه وعلى قوّته فيما بعد لأنها الضمانة الوحيدة لوحدة الإيمان والكنيسة تجاه المطامع السياسية (الأباطرة والملوك) وتجاه الحبائل التي ينصبها الشيطان. ولدعم هذه الفرضية من السهل إثارة الإنفعالات الدينية الأكيدة، لأنه ما بين منتصف القرن الحادي عشر ومنتصف القرن الثاني عشر ارتقى المستوى الروحي بصورة واضحة وأصبح رجال الدين أكثر أهلية وإدراكاً ووعياً لواجباتهم، والمؤمنون، أسرع استجابة لمعطيات الإيمان ومستلزماته. وبالمقابل هذا معناه بكل تأكيد، نسبة ما حققه الكثيرون (من رهبان وأساقفة..) إلى فريق واحد (فريق الغريغوريين). وهو زيادة على ذلك، اعتبار هذا الفريق مجموعة متجانسة يملك منذ البداية برنامج عمل دقيقا، تدعيم القوة الحبرية الذي سعى إليه الغريغوريون فنالوه. هذا التفسير الذي يعزى إلى أ. فْلِيْش وكثيرين سواه، والذي يفترض مبدئيا أن كل ما يمس غريغوريوس السابع هو مقدس، بل مكرَّس. هو من نتائج خِفّة كبيرة.

وبالنسبة إلى مؤرخين آخرين يقفون موقفاً مناقضاً لهؤلاء المتطرفين، فإن النوايا الدينية لم تكن، في الأساس، غائبة، بل الأصح لقد أثارت حماسة بعض الناس وبعض المجالس، ولكن تخطاها بسرعة وطرحها جانباً أولئك الذين يسعون قبل كل شيء إلى تحويل بنى الكنيسة ووضع أسس صرح جديد يكون البابا رأسه الحقيقي،

محققين بذلك «الثورة» الوحيدة والأخطر في تاريخ الكنيسة. إن الطموح إلى إعطاء الكرسي الرسولي سيادة مطلقة والرغبة في تحويل الإكليروس سلطة قوية ـ الإكليروسية ـ كانا استناداً إلى هؤلاء المؤلفين، الدافعين الحقيقيين الوحيدَين. غير أنه إذا كان صحيحا أن عمل غريغوريوس وبطانته قد أدّى مباشرة إلى تبديل التنظيم الكنسي، فإن الكرسي الرسولي استطاع، انطلاقاً منه، أن يقترب من «السلطة الكاملة». بالمقابل، فإن التفكير بهذه الطريقة، أدّى إلى إهمال، مبالغ فيه، للمشروع الديني والأخلاقي، وأساء كثيراً إلى الأشخاص الذين يُثني عليهم المدافعون عن القضية غاية الثناء.

والحقيقة تقف، كما في أكثر الأحيان، بين تفسيرين. وبتعبير أدق، لأنه ليست القضية قضية توفيق، كي لا يحتاج الأمر إلى تحيُّز، فإن كِلا التفسيرين ينطوي، كما يبدو، على حجج قيّمة؛ وذلك بكل بساطة، لأنه يوجد بين مَن يسمُّون غريغوريين، أو بالأحرى بين المصلحين، خلاف كبير في النزعات والآراء. الكل يريدون الإصلاح ويعملون له. وقد أنجزت بعض الإصلاحات محلياً، دون أن يكون هناك صلات فيما بينها؛ كلٌ يعالج المشاكل المحسوسة انطلاقاً من منظاره الخاص. ففي بلد ما وفي مرحلة ما يُحدِث تعيين الأساقفة صدمة، أما في مكان آخر فلم يعتبر الأمر إجراء خطيراً. وفي بعض المناطق كان القضاء الكنسي ناشطاً وفعَّالاً ولم توجه إليه أي تهمة؛ لكنه وفي مناطق أخرى تداعى وتعرّض للشبهات وارتكب المخازي وأصبح من المحتم مراقبته بل حتى إلغاؤه. فهذه المواقف وهذه التصرفات المختلفة تحمل بعض المؤرخين على التصريح بأنه لم يجر إصلاح غريغوري، إمّا لأنهم لم يلمسوه في قطاعاتهم وإما لأنهم وجدوا إنجازات لا يمكن وضعها في خانة برنامج غريغوريوس السابع.

وبما أن هذا البرنامج وجد فعلا. فلقد هدف استناداً إلى البابا وأقرب مستشاريه إلى تنصير أفضل للعالم، وذلك بتغيير جذري في بنى الكنيسة وتبديل في الواقع الإجتماعي مع الإقتناع بأن ثمة علاقة طبيعية بين السلطة البابوية وخلاص الجنس البشري ، وأن إضعاف الأولى يؤدي إلى عدم بلوغ الثاني. إن هذا المشروع المتشدد والمثير معاً أثار حمية أكثر الناس تشدداً وطموحاً الذين كانوا يلاحقون بلا كَلَل تقوية السلطة الرومانية دون إهمال الحاجات الروحية، وكثيراً ما تراءى لهؤلاء أن

عمق الإيمان يقاس فقط بشدة التعلق بالكرسي الرسولي واحترام النظم القانونية الواضحة التحديد (الأمر الذي شل رجال الدين وأدى إلى التخلي عن التشدد الذي ظل آخرون متمسكين به). وبالمقابل وعلى الصعيد الإجتماعي والسياسي اصطدم باكراً بمقاومات هائلة وكذلك بقوى الجمود والرجعية.

تغيير البنى الكنسية

كان هدف الحركة الغريغورية تثبيت سلطة البابا على رأس الكنيسة، ولا يزال جميع الأحبار، منذ ذلك العصر حتى أيامنا هذه، يدافعون عن هذه السلطة، المطلقة ويظهرون حسناتها، ولكن هذا الأمر لم يؤدِّ مباشرة إلى تسلّم البابوية مسؤولية كل الإكليروس، أو إلى ممارسةٍ مباشرة للسلطة الرومانية في جميع الميادين. وظل الأساقفة المعينون دون تدخل محدد من العلمانيين وغير الخاضعين للسلطة المدنية، ظلوا، لمدة طويلة، يُنتَخبون من قبل الكهنة القانونيين في الكنيسة الكاتدرالية ويديرون أبرشياتهم باستقلالية إدارية ذاتية. ولكن على صعيد المبادىء لا يزال الحبر الروماني، منذ ذلك الحين، يدلي بتصاريح يفهم منها أن له السلطة على طرح هذه الإستقلالية على بساط البحث والمناقشة. وهو يتدخل باستمرار في إدارة الأسقفيات، عند حدوث انتخابات مطعون فيها أو خلافات أخرى، مرسِلا مبعوثين، على عجَل مزوّدين بسلطته لتسوية الأمور، ومسهِّلاً انتقال الدعاوى الأسقفية إلى محكمته الخاصة. وفوق ذلك فهو يحتفظ لنفسه بكل القرارات التي تمس العقيدة، الأمر الذي يتيح له التدخل بسهولة في مجال الإنضباط والليتورجيا والأخلاق والممارسات. فالحركة هي إذا ذات اتجاه واحد، فابتداء من اللحظة التي أكد فيها غريغوريوس السابع، منذ بداية حبريته، أن للحبر الروماني وحده سلطة تشمل جميع العالم المسيحي؛ إنها سلطة عالمية شاملة، استناداً إلى مبادىء جوهرية (ربما كانت فقط عناوين فصول لمجموعة نصوص قانونية مفقودة) دعيت الأوامر البابوية.

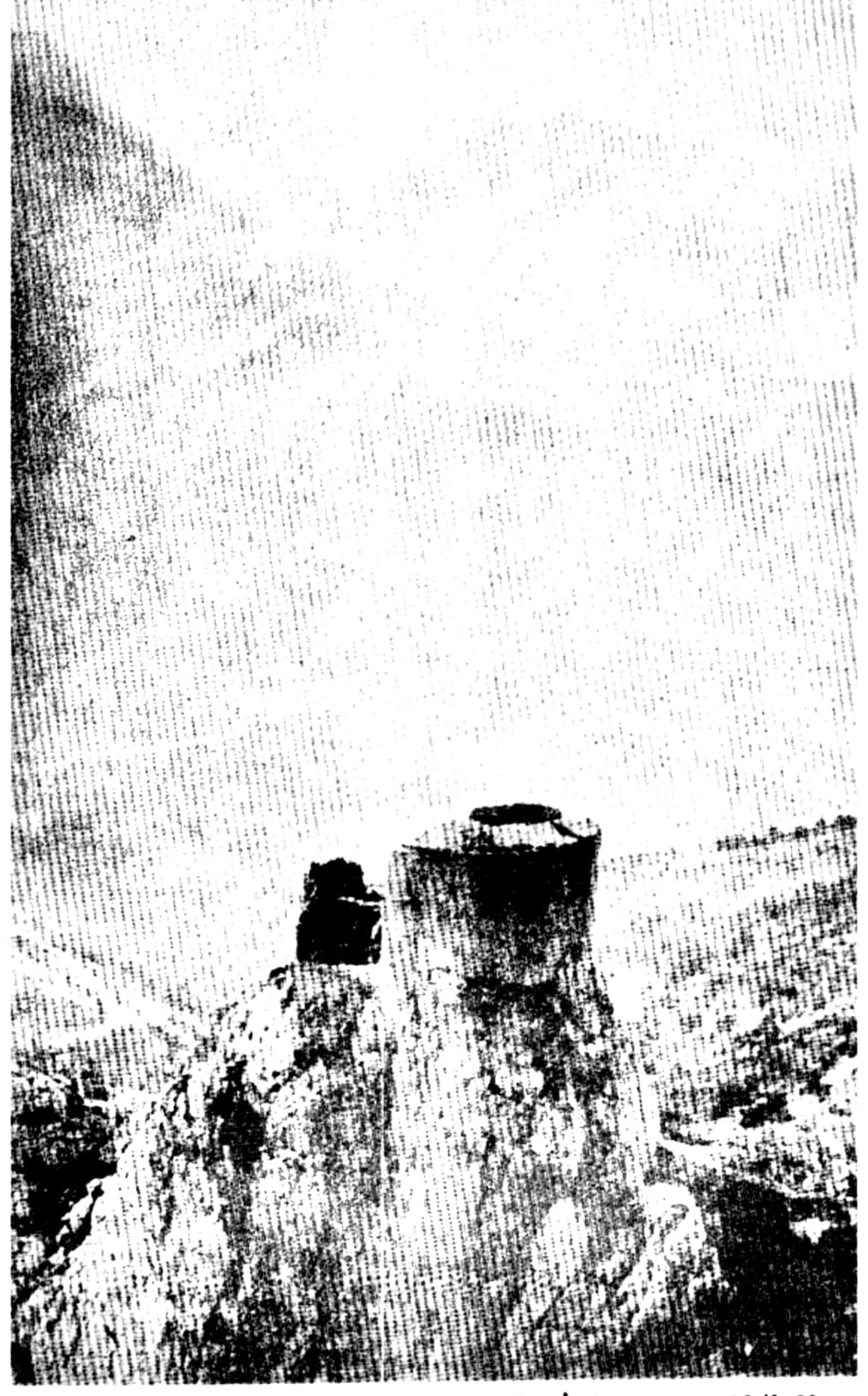
وحده الحبر الروماني يحمل لقبَ «مسكوني»، هو الوحيد الذي يذكر اسمه في جميع الكنائس، لا يحاكمه أحد. لا يُدْعى أي مجمع كنسي إلا بأمره. هو الوحيد الذي يستطيع أن يقيل أو يحل الأساقفة من خطاياهم. وحده يستطيع، تبعاً لمقتضيات الظروف، وضع قوانين جديدة وجمع شعوب جديدة وتحويل مجمع كنسي إلى دير، وقسمة أسقفية غنية وجمع أسقفيات فقيرة. ويحق له نقل الأساقفة

من كرسي إلى آخر حسب الحاجة. وليس من نص ولا كتاب يمكن أن يتخذ صفة قانونية دون أمر منه وليس لأحد أن يغير أو يبدل في أحكامه وهو وحده الذي يستطيع أن يعدل أحكام الجميع. والقضايا الخطيرة في جميع الكنائس يجب أن تعرض عليه.

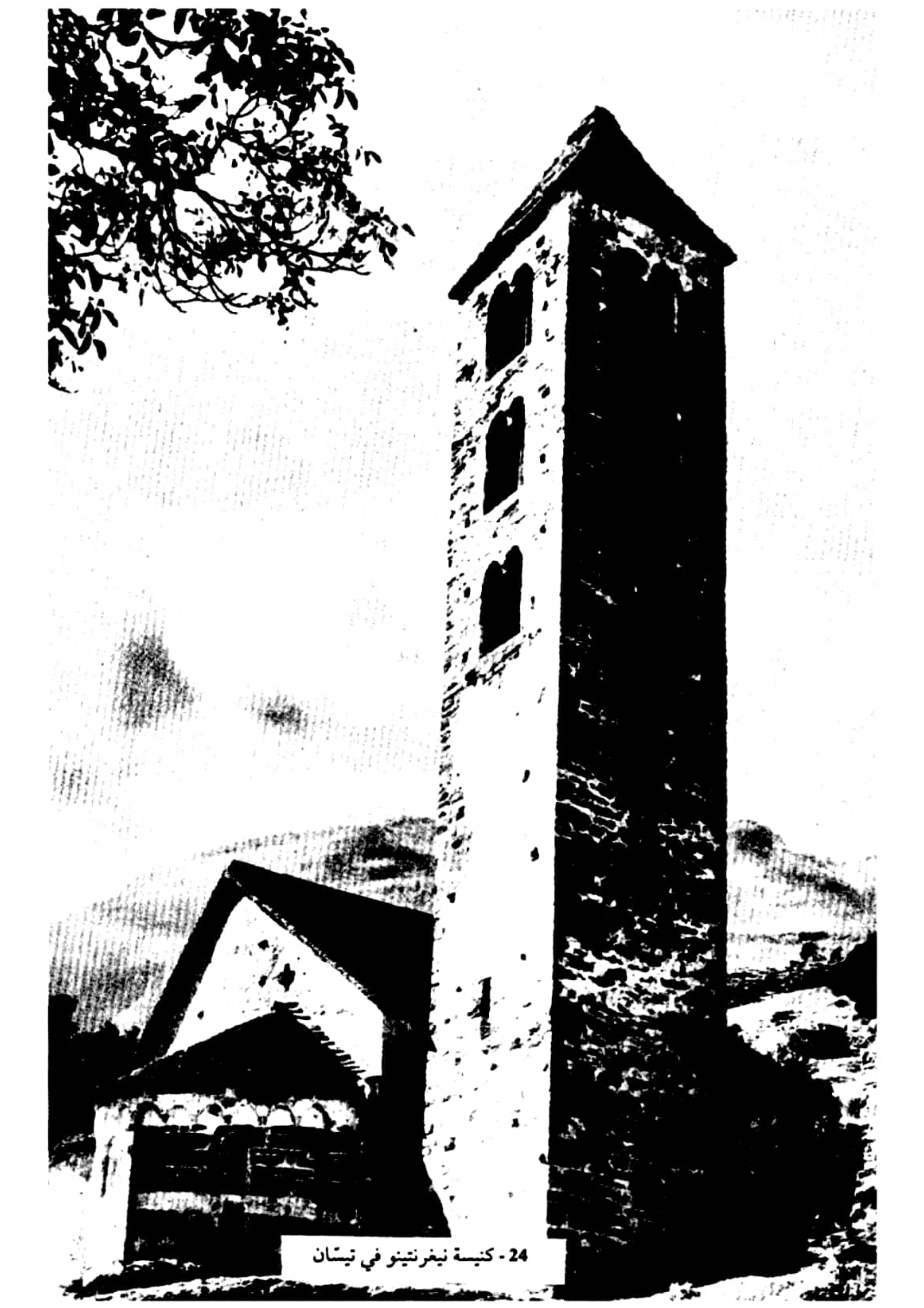
ولا يحتاج هذا النص إلى تأويل. فهو يعلن صراحة أن البابا هو فوق كل مجمع مسكوني، إذ لا يتمتع هذا بأي صفة قانونية إذا لم يَدْعُ هو إليه. ويجب أن تكون مقرراته مطابقة لتعاليم البابا لأنه معصوم عن الخطأ، وله السلطة المطلقة في محاكمة الأساقفة. فهو يعدِّل في البنى الإدارية في الكنيسة ويضع القوانين بمراسيم منه وبموافقته التي يمنحها للنظم التي تحددها سلطات قضائية دونه مستوى. وأخيراً فهو يملك ويمارس السلطة العليا في موضوع القضاء. يستقبل القضايا الخطيرة ويعيد النظر في أحكام المحاكم مع استحالة استئناف أحكامه وإعادة النظر فيها.

وبفعل هذه السلطة العليا وتحت إشرافها يجب أن تنشأ، في العالم المسيحي، حكومة أسقفية باسم النظام الأدبي المسيحي، ويُوكلَ أمرها إلى البابوية التي تراقب السلطات القضائية المدنية وتستحثها. والعلاقة وثيقة جداً بين القانون الكنسي والنظرية السياسية، لأن كلتا المؤسستين الإنسانيتين الزمنية والروحية، المتميزتين في إنجازاتهما، هما غير منفصلتين واقعياً في اسسهما ـ لأنه في مجتمع مسيحي بكامله، تحدِّد الإلتزامات المسيحية كل عمل، وأن كل بادرة قيمة أدبية موزونة بميزان الآداب المسيحية ـ ولأن الكنيسة يمكنها أن تطمح إلى قيادة العالم؛ واستناداً إلى المخطط الغريغوري، يستطيع خليفة القديس بطرس أن يوطد طموحه إلى الحكم الإلهي.

إن معركة تعيين الأساقفة تتيح لغريغوريوس السابع فرصة التعبير عن هذه الفكرة. ويطرح الحبر الأعظم مباشرة وبوضوح السؤال الجوهري الذي يتضمن جواباً ايجابياً: لماذا لا يحكم الكرسي الرسولي في القضايا ألزمنية كما يحكم في القضايا الروحية؟ الطموح الخفي في هذا التساؤل اللبق يستند إلى الفكرة التقليدية التي بموجبها تعتبر المهمة الوحيدة للسلطات المدنية هي مساعدة الناس على بلوغ الخلاص وتنظيم العالم الأرضي ، لكي تسود فيه الفضائل التي يؤدي التزين بها إلى السعادة الأبدية. وفي حين أنه من المسلَّم به سابقاً أن إنجاز هذه الرسالة محصور



23 - قلعة كيريبوس حيث التجأ في القرن الثاني عشر، المانويون والنبلاء الذين نهبت أملاكهم



24 - كنيسة نيغرنتينو في تيسّان

بحكم الله وحده، يعتبر البابا ومساعدوه أنها خاضعة لحكم الكنيسة لأن كل دولة زمنية، وأولاها الإمبراطورية التي هي ترجمة للنظام السياسي الأعلى في الغرب المسيحي لا قيمة لها ـ أخلاقياً ومنطقياً ـ إلا بمقدار ما تخدم القضية الدينية التي من أجلها تأسست، وبمقدار تكاملها مع الكنيسة التي تشكل الدولة الوحيدة التي لا اعتراض عليها في هذا العالم. إنه لمن قبيل الطموح أن يحتوي الروحانيُّ الزمنيَّ وتهيمن الكنيسة على كل سلطة، وانطلاقاً من هذا الواقع تعود السيادة، بصورة أساسية، إلى الحبر الروماني خليفة القديس بطرس، وقد تلقاها من المسيح عندما قال له: «كل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السماء وكل ما تحلّه على الأرض يكون محلولاً في السماء».

وينتج عن ذلك أن للبابا يعود الحق في مراقبة أعمال الحكومات الزمنية وقبل كل شيء أعمال الإمبراطور، يمكنه أن يحرم هذا الأخير إذا ارتكب خطايا جسيمة أو إذا تبنّى سياسة تعرِّض خلاص المؤمنين للخطر ـ وهذا ما اتخذه بحق هنري الرابع. فإذا أبعِد هؤلاء المؤمنون، عن جماعة الكنيسة، فلن تتوجب عليهم طاعته ويُعفون تلقائياً من قسَم يمين الولاء له: إن خاطئاً يدوس بقدميه الفضائل المسيحية التي يحتاجها الناس في هذا العالم ويحطم الكنيسة ـ الدولة الحقيقية الوحيدة، يجب أن يخلع. إن الترابط المنطقي بين هذه الإجراءات هو تام. وباسم هذا المنطق يمكن الإدعاء أن السلطات الزمنية يجب أن تنظمها البابوية. ولم يتجاوز غريغوريوس السابع هذا الحد. لقد اعتبر أن الله هو مصدر هذه السلطات، بواسطة الملوك. استناداً إلى ذرائع مختلفة (انتخاب، وراثة...) وأن الكنيسة تأخذ علما بهذا الواقع الذي ينظم عقدا بين القوى العلمانية والله. أي بين هذه القوى والكنيسة نفسها؛ وذلك لكي يكون لها الحق عند مخالفة العقد أن تتهم الفئة الأخرى، وأن تدينها وتنتزع منها سلطتها القضائية. وإذا كان الأمر عكس ذلك وقام الأمراء بمهمتهم كما يجب، تترك لهم السلطة الكنسية حرية العمل، بعد تقديم النصح والإرشاد لهم. ويحق لها أن تجذبهم إليها إذا كان ذلك ممكناً. وهكذا أدخل البابا، في تبعيته فعلياً، الدول الجديدة التي نشأت على أثر استعادة شبه الجزيرة الإيبيرية من المسلمين ومنحها الشرعية. وكذلك مملكة صقلية.

وهكذا، أُطلِق في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، مَرِنًا خفيف الوطأة أحياناً، وصلباً متشدداً أحياناً أخرى، مذهبٌ للحكومة الكنسيَّة والسلطة البابوية

على الأكليروس في العالم مُسْهِما بطريقة ما في التكوين العام للغرب.

فمن جهة، حتى لو لم يكن الفريغوريون أنفسهم هم العاملين الوحيدين في الإصلاح الديني. وبالرغم من أن هذا الإصلاح تمّ تبعاً لنماذج مختلفة وخلفيات متضاربة، فمن الضروري أن نستنتج أنه، في حدود منتصف القرن الثاني عشر، توطدت المؤسسات والنظم الكنسية واكتملت فيما ازدادت المشاغل الروحية تجذُراً، ذانك هما الوجهان الأساسيان للحركة: التشدد في الإنضباطية تبعاً لإيمان محدد رسمياً، والتزمُّت في الروحانيات والاخلاقيات استناداً إلى عقيدة تهدف إلى الكمال الداخلي. ويمثّل القديس برنار، خير تمثيل، وبصورة وحيدة، إلْتقاء هاتين الذريعتين، بينما آخرون لا يتحدثون إلاّ عن واحدة منهما (سُوزِجِيْه أو القانوني الكبير غْرَاتْيَانْ الأوّل؛ وغيغ منظم شاتروز الكبرى. بعد بْرونو الثاني). ويغدو الغرب أكثر تمسكاً بالمسيحية.

ومن جهة أخرى. يؤدي هذا التبديل، في المرحلة عينها، إلى كنيسة أكثر تماسكاً وأكثر اتحاداً. وبناء علي ما حدث، فإن الإصلاح المسمى غريغوريًا وما رافقه قوّيا، بشكل بارز، الإتحاد الروحي والأدبي لأوروبا، الإتحاد الذي تشهد علَيْه اللقاءات الأولى في المجامع المسكونية (المجمع اللاتراني الأول سنة 1122 واللاتراني الثاني سنة 1139). وهي جمعيات ضمّت جميع الأساقفة اللاتين الذين كانوا ، حتى ذلك التاريخ ، لم يجتمعوا في لقاءات مشابهة جامعة و «مسكونية» والذين، بانضمامهم إلى البرامج الحبرية، يمثلون الظاهرة الأكثر تألقاً للسلطة التي اكتسبها الكرسي الرسولي ، مع الهرمية الأسقفية، ويمارسها لمصلحة الوحدة والتضامن: لقد أسهمت الحركة الغريغورية في صياغة أوروبا القروسطية. ومقابل ذلك، فإن هذه الحركة، بتشييدها بُنى جديدة توطد وتقوي الملكية الرومانية وسلطة الكهنة وامتيازاتهم الذين أرادت أن تصنع منهم موجهي الضمائر وقادة لجميع الأفراد والفئات جعلت من هذه الكنيسة، المنظمة بشكل هرمي متشدد ومتسلط، كنيسة مقفلة لا تتردد في فصل كل من لا يقبل بنظمها. دعمت الإكليروسية (بالمعنى الحقيقي للفظة) بعملها من أجل قوتها هي وقوة الإكليروس: كنيسةً تنعزل وتتعرض للإنفصال عن القوى الحقيقية والمبادرات التجديدية وعن ألاّ تَكُون الهيكلية الصلبة الحية للغرب الموحد.

الإحتجاج الإجتماعي وعملية الإسترداد

في المعارك التي شنها الغريغوريون، أو على الأقل، البعض منهم، ومن بينهم غريغوريوس السابع، ضد السلطات السياسية، طوروا أحياناً، أفكاراً وتبنوا مواقف من شأنها أن تزعزع أسس تنظيم المجتمع.

ويلاحظ الغريغوريون، بعد أن انتقدوا واستنكروا مباشرة أو مداورة، الهجمات التي شنها العلمانيون على الكنيسة ويذكرون بشيء من الإلحاح «أنه ليس من أمير يقدم شرف الله على شرفه ويفضل العدالة على منفعته الشخصية» (من رسالة لغريغوريوس السابع إلى هوغ الكلوني سنة 1075). و «يعتبرون ويصرحون بأن السلطة الملكية أوجدها رجال يجهلون الله، يدفعهم طمع أعمى ووقاحة لا تغتفر يحرضهم الشيطان، أمير هذا العالم، يجهدون متكبرين، متسلحين بالكذب والإغتصاب والقتل وبكل المعاصي تقريباً، للسيطرة على أندادهم أي الناس الآخرين» (رسالة من البابا نفسه إلى الأسقف ميتز، هيرمان، سنة 1081). إن تصريحات كهذه من شأنها أن تؤكد أن لا شيء يبرر الإمتياز الملكي (السلطة المدنية) لا الطريقة التي ظهرت بها (أي أصلها) ولا الوسيلة التي تعمل بها (أي ممارستها). ولكنها لا تتوصل إلى دفعها ولا إلى رفض السلطة الكنسية لسلطة سياسية لأنه من المسلّم به أن هذه السلطة هي في صلب النظام الذي أراده الله، ولكن بكل بساطة، لأنه منذ البداية أفسدها الذين وضعوها، وهي لا تحترم أصول هذا النظام الذي يعتبر أن الحكومة الحقيقية تعود للكنيسة: ولا تذعن، عملياً، لا لهذا ولا للسلطة الكنسية.

ويترتب على ذلك أن كل السلطات المدنية هي موضع اعتراض ويجب أن تراقب؛ ومنها السلطات التي يمارسها الإقطاعيون على الصعيد المحلي. وربما أكثر من السلطات التي يمارسها الملوك. لأن الإقطاعيين كثيراً ما «يسعون بكبرياء إلى السيطرة على أندادهم». إن وضع حد لاختيار الأساقفة من قبل العلمانيين، ورفض الغريغوريين المطلق لتدخل السلطات الزمنية في تعيينهم يشكل الصيغة الأدق لهذا الإحتجاج لأنها وضعت على بساط البحث العلاقات القائمة بين الأرستقراطية الإقطاعية والأرستقراطية الكنسية، أي بين قوة العائلات العديدة والسلالات الكثيرة التي تسيطر على القصر وعلى الكرسي الأسقفي ـ على الحسام والصولجان. والحقيقة أن أسلوب التعيين لا يشكل أي متاجرة حقيقية بالمقدسات. ففي بعض

المناطق كاللانغدوك مثلا ينتخب الأساقفة زملاء لهم من كهنة وعلمانيين. ثم يعمل المنتخَب على تدعيم مركزه بطريقة غير رسمية عن طريق الإكليروس (كهنة الأرياف). ففي هذه الترقية يشغل الكونت مركزاً خاصاً: ليس لأنه عضو في المجمع ولكنه هو الذي يأمر بإجراء الانتخابات ويصادق على النتائج، ليس هو الذي يقلّد الأسقف المنتخب الصولجان والخاتم (أي يقدم له الرموز الروحية لمنصبه). وبمقابل ذلك، وبما أنه يتولى حماية الأسقفية والحفاظ على الإرث الأسقفي وخاصة أثناء شغور الكرسي كما أنه يمنع بحضوره وسطوته المؤامرات والضغوط الفئوية، فيعوِّضه الأسقف عن ذلك بهدية لا تعتبر عملا سيمونيا (أي متاجرة بالمقدسات). غير أن هذا النظام المعدّ لاختيار أناس جديرين وصالحين يتعرض لمخاطر ترقية أساقفة عاجزين وفاسدين يُختارون بسبب علاقاتهم العائلية أو بدعم من الكونت. هذا الدعم الذي رفضه الغريغوريون عندما قرروا إصلاح الأسقفية. ولكن من الواضح أنهم، بعملهم هذا، إنما يعترضون على نفوذ الأرستقراطية. وهذا ما دعا الكثير من الأساقفة إلى الإحتجاج على عملهم الذي يمس شخصهم بمقدار ما يمس فئتهم الإجتماعية.

وأخيراً فإن المجتمع الثلاثي الطبقات هو الذي تعرض للمناقشة، ليس لتقسيمه إلى طبقات ثلاث ، هذا التقسيم الذي اعتبر نموذجاً ، ولكن لتنظيم القوى داخله. ويدّعي الغريغوريون ، في الواقع أنه لا يمكن الإكتفاء بالطلب إلى كل فريق أن يقوم بمهمته، لأنه في كل الأحوال يطرح مسألة السيادة. فإن عدم حل هذه المسألة كما حدث حتى الآن يعني ترك المحاربين يسيطرون على كل شيء ويشكلون، هم أنفسهم ، أو بطريقة غير مباشرة، ومن أجل مصلحتهم ، الأطراف العليا «للمصلّين» مع كونهم ، إلى ذلك بالنسبة إلى السلام الذي يجب أن يحافظوا عليه والحماية التي يجب أن يمارسوها، الخصم والحكم فيجب والحالة هذه بالنسبة إليهم تحطيم العلاقة العميقة بين الفريقين المهيمنين وإعطاء السلطة الفعلية في مراقبة المجتمع وقيادته للمصلين الذين ينشأون عن إكليروس منزّه وحر. هذه المراقبة يمكن أن تؤدي إلى مناقشة صلاحية إلتزامات الإقطاعية التبعية، والقَسَم الذي إذا أخذنا برأي أكثرهم حماسة برنار دو كونْتَانْس، لا يبقى صالحاً إلا في حدود أن محتواه واستخدامه العملي ينطبقان على «القانون الكاثوليكي». أليس ما يحمل على التفكير أن الذي

صدم المعاصرين للعقوبات التي اتخذها غريغوريوس السابع ضد هنري الرابع هو إلغاء إلتزام الوفاء الواجب للملك على رعاياه، أي قبل كل شيء على أتباعه المُقطَعين «الذين حُلُّوا من قسمهم»؟.

إن الإصلاح الغريغوري كما تعرضه الأدلة المغالية في تأييده التي يقدمها أنصاره المتشددون، يهدف إلى قلب النظام الإجتماعي. النظام القائم، وهو من هذا المنظور يسيء إلى تماسك الغرب. وهكذا نظر إليه الكثير من المعاصرين، على الأقل في السنوات 1070 ـ 1080، إنها ثورة توشك أن تقوض النظام العالمي وسُلّم القيم المتعارف عليها. وفي السنوات التالية تابع فريق المتطرفين عمله في الأوساط الغريغورية واتخذ موقفاً متصلباً من الإمبراطور الذي لم يشأ أن يقدم له أي تنازل. بل على العكس من ذلك كان تعرف فريق المعتدلين الذي كتبت له الغلبة فتوصل إلى إجراء مفاوضات وضعت حدًّا للمعركة.

ولم يكن هذا التطور ممكناً إلا بعد حَبْرية أوربانوس الثاني (1089 ـ 1100)، رئيس دير كلوني سابقاً، ومصلح استوحى البرامج الغريغورية، وهو نفسه غريغوري ولكنه رجل معتدل متحرر من الطبقة النبيلة الراقية. وهو بالتالي قادر على فهم عقلية الأمراء ومشاطرة العظماء همومهم وإذ كان قاسياً تجاه عمليات المتاجرة بالمقدسات، ومتمسكاً بإبراز دور الاكليروس والسلطة البابوية ودعمهما، جهد أوّلا في أن يضع كل وظيفة في إطارها الصحيح من الكنيسة: الرهبان في أديرتهم والكهنة في رعاياهم والأساقفة في أبرشياتهم ـ وأساقفة جديرين يمارسون القضاء بحرية وجدارة. ولم يستنكر قيادة الكهنة للمجتمع من الناحية الأدبية على أن يكون عملهم مقتصراً على إحياء الإيمان وأن تقوم الأرستقراطية العلمانية بدور بارز وتشارك مشاركة فعّالة في إنجاز المهمات والأعمال التي طمحت إليها الكنيسة وعملت على تحضيرها. فأعد مشاريع ضخمة للكنيسة والعالم المسيحي والغرب، تقوم بانجازها البابوية والإمبراطورية والملوك والأساقفة والإقطاعيون، وتكون وسيلة لمتابعة الإصلاح الأدبي بتجديدها الناس، إذ يتقدم كل إنسان على طريق الكمال تبعاً لاختصاصه ورسالته المحددة في فئته، بممارسة الفضائل الخاصة المتصلة اساساً بهذا الإصلاح وبتشريع الحقوق الناشئة عنه، وإذا أسهم الإقطاعيون إسهاماً كاملاً في هذه الأعمال الحسنة التي هي غير الأعمال المألوفة وحراسة المرافىء فإن سلطاتهم تصبح مبرّرة.

وهكذا فلم يتغير شيء أساسي في المجتمع ولكن فتحت آفاق جديدة، واقترحت الكنيسة والبابوية «تخوما جديدة».

الحروب الصليبية

إن المشروع الأساسي الذي يتطلب شجاعة ونكران ذات، المشروع المقدس الذي قامت الحرب بواسطته وأصبح نموذجاً للحرب المقدسة، هو الحرب الصليبية. كانت في البداية حجًا إلى الأماكن المقدسة، إلى البلاد التي عاش فيها المسيح، الحج الأسمى لأنه يقيم علاقة استثنائية مع السماء. وهو أيضاً سفر صعب ومحفوف بالمخاطر بحيث يشكل نوعاً من التكفير عن الذنوب، لأنه يحتم الإنصراف عن الحياة الهادئة المطمئنة. يتم هذا الحج منذ فجر المسيحية، وبصورة مستمرة، ولم يعرقل احتلال العرب لفلسطين هذا الحج لمدة طويلة، وقد أصبح في النصف الثاني من القرن الحادي عشر، ربما، أكثر خطورة وذلك إمّا لأن الأتراك الذين كانوا يحتلون فلسطين كانوا ينظرون إلى الحجاج نظرة شك وريبة على اعتبار أنهم يتجسسون لحساب بيزنطة، وإمّا لأن المعارك بين الجماعات الإسلامية (الفاطميون في مصر، والسنيون في بغداد والأمراء المحليون) كان من نتائجها عرقلة طرق المواصلات؛ وإما بكل بساطة لأن بيزنطية كانت تضخم الأخطار للحصول على مساعدة الغرب التي كانت قد طلبتها مرّات عديدة.

فيتأثر أوربانوس الثاني ويتجاوب مع الطلب، ويبدا للوهلة الأولى أنه لن يقوم إلا بإرسال مساعدة. ولكن سرعان ما يغير رأيه ويذهب إلى أبعد من ذلك. فخلال مجمع كليرمون سنة 1095 يطور نظرية الحرب الصليبية فيُدعو إلى حرب هجومية ضد الإسلام لكي «يحرر» فلسطين والمدن المقدسة ويجعلها على اتصال بالعالم المسيحي وتحت سيادة قوى الغرب وبواسطتها ويصرح بأن كل الذين بتطوعون ناذرين أنفسهم للحرب سيكونون مكرسين للرب وأنه أثناء غيابهم ستوضع عائلاتهم وأرزاقهم في عهدة الكنيسة. وضعت على ثياب الجنود علامة مميزة وهي صورة الصليب، وهذه لم تكن بإيعاز من البابا، ليُعرَفوا بها وتكون شعارا لقداسة بادرتهم. وكان من الواضح أن هذه الظاهرة كانت تمجيدا للسلطة الأدبية للبابوية التي بدت كأنها القائد الأعلى الذي يثير الحماسة ويحدد الأهداف ويراقب. وكانت تشهد في الوقت نفسه على القوة التي اكتسبت عن طريق البابوية منذ التجديد الغريغوري.

ولكنها كانت مادياً وسياسياً وإجتماعياً من شأن الفرسـان، الفريق الإقـطاعي الذي يُسْهِم بقوة في عمل دنيوي. واللافت أنه لم تجرِ محاولة منهجية لإشراك الملوك كملوك وأن الحملة الشعبية التي ستأخذ طريقها إلى الحرب اعتبرت بلا جدوى.

وانطلقت الحملة بإشراف السفير البابوي 'أديمارْ دو مونْتايْ، بعد أن اهتم البابا نفسه بالتمويل (التجهيز وأكلاف السفر) وبعد أن نُظمت عملية التموين، سار الجنود فرقا عديدة: إقـطاعيو شمـالي فرنسـا حول هـوغ دو ڤيرْ مُـونْدْوَا، والنـورمانـديون والفلامنديون وفرنسيون آخرون بصحبـة دوق نورمـانديـا، روبير كُـوْزْتهوزْ وكـونت فـلاندار وكـونت بْلوا Blois -، ولورينيـون وريـنـانيـون على رأسهم الـدوق غـوذْفْـرْوَا دو بويون وأخوه بودوان دو بولونيا، وجنوبيون من الِلانغدوك بقيادة كونت تولوز ريمون الرابع دو سان جيل، ونورمانديون من إيطاليا الجنوبية وصقلية يقودهم أحد أبناء روبير غيْسكارْ المدعو بوهيمون وابن أخيه تانْكْريدْ. وبعد أن سلكت هذه الفرق الكثيرة طرقا مختلفة التقت في بيزنطة كما كان مقرراً، فأقامت مدة طويلة في هذه المدينة، ليس فقط من أجـل التموين وإنجـاز الاستعدادات ولكن لأن الإمبـراطـور ألِكْسي كومْنين، قصد بذلك استغلال المشروع والحصول من هذا الاحتلال، إذا حصل، على ربط الأرض المحتلة بالفلك البيزنطي أو على الأقل وضعها تحت سلطته غير المبـاشرة. وفي سنـة 1097 تحركت الحملة واحتلت أنـطاكية. ثم وبـالـرغم من المنافسـات التي نشأت بين مختلف القادة توصلوا إلى احتلال أورشليم (تموز/يوليو سنة 1099). ونجحوا في السنوات التالية، بعد جهود جبارة وأعمال قتالية باهرة في أن يسيطروا على جميع البلاد من أنطاكية حتى صحراء سينا حتى جبال لبنان ثم وادي الأردن شرقاً. وكانت تشمل: مملكة أورشليم وكونتية طرابلس وأمارة أنطاكية ثم إمارة الرُها في الشمال الشرقي لفترة قصيرة.

وسرعان ما اعتبرت هذه البلاد المحتلة كجزء متكامل مع العـالم المسيحي اللاتيني قانونيا وواقعياً. وإن تدخل الغرب لم يكن سوى عملية استـرداد لأنه من المنطقي أن يستعيد المسيحيون الخاضعون لسلطة بطرس، المسيحيون الأصيلون ويحكموا الأرض التي عاش عليها المسيح. إذا لقد كان من الضروري الاحتفاظ بها، ويجب، عندما تهددها هجمات إسلامية مضادة، تشكيل حملات صليبية جديدة وطلب مساعدة الملوك. لأن لدى هؤلاء قوى عظمى (كانت الحملة الثانية بقيـادة

الإمبراطور كونْرادْ الثالث والملك لويس السابع سنة 1147 ـ 1149 . وبعد ذلك انطلقت الحملة الثالثة سنة 1190 ـ 1193 للغاية نفسها، بقيادة فريدريك بربروس، وفيليب أوغست وريكاردوس قلب الأسد). ولكي يتم الدفاع بشكل أفضل ولإيجاد جهاز ثابت من النخبة تأسست منظمات دينية وعسكرية بمبادرة من الفرسان الملتزمين بالقتال في الشرق: فكان الهيكليون[1] والمضيافون[2] وبعدهم التوتونيون ، وقدمت هذه المنظمات نموذج الفارس الكامل في خدمة قضية عادلة هي قضية الكنائس المكتملة بالعمل الحربي الأكثر شجاعة وفي ممارسة الفضائل «الرهبانية» : العفة والفقر والطاعة ، وتقترح مثالاً على جماعات الأسياد الإقطاعيين وعلى الفرسان وتقدم الحرب كعمل نموذجي.

وتعيد الحروب الصليبية، لبعض الوقت، الحماسة والدينامية لهذه الأوساط وهذه الفئات، مقدِّمة لهم عملاً سامياً لإنجازه، يسمح لهم بتقديم ذواتهم في ممارسة الفضائل نفسها، وبالمشاركة في القيم عينها، ودعمت تضامنهم تحت سلطة الكنيسة، وحثت الفئات الأخرى على إنجاز المشاريع، يكفي أن نذكر الفائدة التجارية التي نبّهت إليها والمنافع التي يمكن جنيها بواسطة الإقتصاد الإيطالي. وكانت أخيراً التعبير الإيديولوجي والمجسد للإمبريالية الكاثوليكية اللاتينية الغربية الأوروبية.

النهضة الفكرية

ومنذ الإنبعاث الكارولنجي، لم يتوقف التطور الفكري بالرغم من الفراغ الظاهر في النصف الأول من القرن العاشر، بل ينطلق فعلاً في السنوات 950 يسهم قسم منه في انتشار الأديرة، ويتسارع في النصف الثاني من القرن الحادي عشر وفي بداية القرن الثاني عشر، مرتبطاً بتنامي حركة النقل والمقايضات، وبالإصلاح الغريغوري الذي يحث على معرفة أعمق للدين وعلى جمع الأدلة والذرائع لتسليح المعسكرات وعلى النظر نظرة جديدة إلى العقائد والبحث عن وثائق الماضي. وبعد أن بدأت الحركة هكذا اتسعت في العصر التالي، ولكن منذ بداية القرن الثاني عشر

---

(1) فرقة من الرهبان الجنود المكلفين بحراسة معبد الرب .

(2) منظمة رهبانية كانت تهتم بإيواء أبناء السبيل والغرباء (المترجم) .

تحمل إلى الغرب، من خلال الفكر والثقافة، نشاطاً لم تبلغه قبل ذلك الحين.

وتمثلت الحركة بانتشار أفضل للغة اللاتينية التي كانت، أيام الكارولنجيين، لغة العلم والطقسيات، وأصبحت عند ذلك لغة العلاقات وفي محيط ضيق اللغة المحكية: لغة الإتصال بين رجال الكنيسة والدوائر القنصلية؛ ولغة الأعمال ولغة الوثائق حتى التي تصدر عن الإقطاعيين الصغار الذين لا يفهمونها، كانت تحرر باللغة اللاتينية ـ ولأن هذه اللغة قد ازدادت انتشاراً، وضعت الإتفاقيات كتابة وليس العكس. وقد علِّمت في المدارس، انطلاقاً من المزامير، أولاً، وبعض النصوص التاريخية، ثم اعتماداً على كتَّاب من الإمبراطورية البيزنطية (سيدوان وأبولينار) وبالإضافة إلى ذلك، على كتَّاب كلاسيكسيين (شيشرون وبلِيْن وتيرانْسْ وفرجيل) ومن هؤلاء المؤلفين الأخيرين أخذت قواعد اللغة ومعهم مورس علم الخطابة والبيان الذي عرض في أبحاث خاصة (فنون الإلقاء) وأخيراً كانت اللغة اللاتينية من الأهمية بحيث إن الشخصيات العلمانية الهامة أخذت تدرسها، فإذا كان أوتون الكبير يجهلها فحفيده أوتون الثالث المثقف كان يجيدها. وفي فرنسا، كان الملك روبير التقي (996 ـ 1031) الذي تلقى دروساً رصينة في ريمس ثم بعد ذلك لويس السابع (1127 ـ 1180) يفهمانها تماماً ويستسيغان القضايا الفكرية.

إن مضاعفة الأديرة والإهتمام بتوفير عدة ثقافية لرهبان المستقبل، على الأقل بدائية لكي يستطيعوا التعمق في فهم الكتاب المقدس والليتورجيا وتحليلهما، والرغبة في التأثير على المجتمع لتنصيره بصورة أفضل بتثقيف أولاد الأرستقراطيين، والرغبة لدى بعض الأوساط في خلق ثقافة علمية، كل ذلك أدى إلى تأسيس المدارس وازدهارها، ومن بينها مدارس الأديرة التي فتحت أبوابها لأولاد، ليسوا، بالضرورة، مدعوين للدخول في سلك الرهبنة. وقد ازدهرت بنوع خاص مدارس فلوري ـ سور ـ لوار، سان ـ غال، هيرسو، بُوبْيُو، فيكَامْپْ، مع بعض المدارس الأخرى، ونشرت ثقافة دينية أساسها وأهدافها صوفية. وإلى جانبها، تأسست في المدن النامية مؤسسات علمية ومجالس كهنوتية تؤيد الإصلاح في أكثرها، كان كهنتها يقومون بنشاط تبشيري عن طريق التعليم، شكلت مراكز تعليمية فعّالة زعزعت روتينية التربية الرهبانية. وهكذا فعلت المدارس الأسقفية الخاصة لمراقبة الأساقفة بتشجيع من الكرسي الرسولي للكنائس الكاتدرالية. وفي النصف الأول من القرن

الثاني عشر، فيما مدارس الأديرة تتقلص وتنطوي على ذاتها - يردد القديس برنار أن غاية الرهبنة ليست الدرس بل الإقتداء بالسيد المسيح والصلاة - فهذه المدارس الكهنوتية - لاون وريمس وشارتر وكانتربري ولنكولن ويورك وكولونيا وتريف وبولونيا وقبلها جميعاً باريس مع مدرسة نوتردام الكاتدرالية ومدارس سانت - جنيفياف وسان ڤكتور - تفرض نفسها كمراكز فكرية أساسية. كان يُدرَّس فيها كما في الماضي، الفنون الحرة، الثلاثية والرباعية، مطورة، في بعض المراكز، هذا القسم أو ذاك من هذه البرامج. وكانت البرامج تفهم كمبادرة توصل إلى تعليم عال وإلى أفكار من المستوى الرفيع. وبهذا تختلف ثقافة هذا العصر عن ثقافة العصر الكارولنجي وتوفر للغرب تضامنا جديداً.

ويبدأ استخدام اللغة اللاتينية: ويتوقف تقليد الكتّاب القدماء الكبار كما حدث في النصف الثاني من القرن العاشر وتهمل طريقتهم في التعبير والإنشاء - بالرغم من أنه لم يتوصل جميع الكتاب إلى هذا المستوى من التوفيق - وذلك لامتلاك أسلوب خاص. وأصبحوا فضوليين شيئاً فشيئا، وراحوا في بداية القرن الثاني عشر يهتمون بالمؤلفات اليونانية والعربية التي قاموا بترجماتها الأولى، وبلغوا فيما يختص بالمسائل من جميع المستويات، إلى مستوى فكري يتيح التصدي لها جميعاً وتحليلها وعرضها رابطين براهينها بمعلومات عامة، تجريدية أكثر الأحيان - وبإختصار، بدأوا «يعقلنون» ما يدل على أنهم بلغوا نضجاً ثقافياً، أي وعياً تاماً وامتلاكا حقيقياً لعدة ثقافية متوفرة تستخدم استخداماً متماسكاً ومحدوداً. وبهذه الأساليب عولجت قضايا الكنيسة وسلطاتها ومعركة تعيين الأساقفة والنظريات السياسية التي برزت في مؤلفات مستفيضة تتحدث عن التيوقراطية الغريغورية ومنتقدة إياها. وهكذا توضع في موضوع المؤسسات الكنسية، مؤلفات قانونية علمية ضخمة تؤدي في حدود سنة 1140، إلى إعداد مجموعة هامة لتاريخ الكنيسة بكامله، تشكل أسس الحق القانوني حتى المرحلة المعاصرة، قانون غراتيانوس، وهكذا يجهدون في سرد أحداث العصر محاولين أن يجدوا فيها بعض التماسك دون أن يهتموا في تاريخها كما كان يحدث فيما مضى في كتب الحوليات، أو تقديمها طبقاً لمخططات المؤلفين القدماء.

وكان في هذا المجال الكثير من كُتّاب الحوليات كما كان هناك الكثير من

مدوني الوقائع الذين لا يتجاوزون عملية سرد الأحداث، وقد نجح بعضهم في روايتها بأسلوب مغرٍ وجذاب، وابتداءً من راوُل غْلِيْبِرْ الساذج المثير للإعجاب، في النصف الأول من القرن الحادي عشر، والرَّصين الواسع المعرفة أورْدِرِيكْ ڤيتالْ في القرن الثاني عشر أو مؤرخي الحملة الصليبية الأولى المتنوعي الأمزجة والأساليب، كما يوجد شعراء معاصرون. وقد أظهر هؤلاء فضولاً حماسياً ومهارة فائقة. ولكن هناك آخرين حاولوا استعادة كل تاريخ العالم وخاصة تاريخ المسيحية والغرب في مدوَّنات تاريخية «شمولية» تستند إلى رؤيا سماوية للتاريخ - تستجيب لمشيئة الله - هي في جوهرها نوع من الفلسفة. وكان سِيجْبِيْرْ دو جِمْبْلو الذي توفي سنة 1112 وروبير دو دوتْزْ (المتوفى سنة 1130) هما من بين أفضل الممثلين لهذه الحركة التي كان زعيمها الحقيقي في منتصف القرن الثاني عشر أسقف فْرِيزِنْغْ، أوتـون، عم الإمبراطور فريدريك بربـروس، تعتمد مؤلفـاته على الإستفـادة من كتاب العصـور القديمة (أوسابيوس القيصري، الذي يستخدمه لترجمة رافين وأوروز وكـاسيودور) ومن مؤرخي العصور السابقة (رَجِيْنونْ دو پِرُومْ)، وتحذو هذه المؤلفات حذو «مخطط المدينتين» الذي أخذ عن القديس أغسـطينوس، ويجهـد المؤلف في أن يرى في الأحداث معركة بين الخير والشر، بين الممالك والكنيسة. وتحاول أولا تفسير العالم بتدخل من الله، فالإنسان والمشروع الإنساني لا يثيران اهتمامها. ومعنى ذلك أنه لم يكن ثمة أي إنسانوية حقيقية لأن العدة العلمية (اللغة اللاتينيـة ومعرفـة العصور القديمة. .) لم تستخدم لفهم مسلك الناس الحقيقي. ويصادف هذا الموضوع الذي يبدو هنا بشكل واضح وبصورة أكثر توسّعاً عنـد سائـر مدوِّني الأحـداث الذين لا يملكون من سبب لتسليط الأضواء عليـه، ويمثل غيبيـر دو نوجـان (المتوفى سنـة 1121) استثناءً وحيداً وغريباً. نكتشفـه أيضاً وبسهـولة أكثر في مراسـلات غالبيـة مفكري ذاك الزمان ودراساتهم العديدة - من هؤلاء رؤساء دير كلوني القديس برنار وسوجِيْه وسواهما فهؤلاء، حتى عندما يسردون وقائع ملموسة أو فردية، أو عندمـا ينكبون على مسائل حقيقية ومادية فإنهم يربطون تحليلها وتفسيرها بمعايير دينية تفسر العالم والله. وزيادة على ذلك فإن جزءاً كبيراً من الأدب المكتوب باللغة العاميـة والشاهد على ثقافة أخرى (ثقافة الأرستقراطية) والمتميز بأغاني البـطولات الأولى المشهورة وبولادة الشعر الغزلي الذي يتمحور حول موضوعات الحب الإنسـاني، فهذا النوع من الأدب يخضع لهذا النفوذ.

ويتحصل من هذه الثقافة المشبعة بالمسيحية، أكثر مما تحصّل في القرن التاسع، إيثار ملحوظ للتأمل لا يتأتى فقط من فضول متحمس للعقيدة أو من تقدم المعارف والوسائل التي تتيح التصدي لها عن كثب، ولكن ، بالإضافة إلى ذلك ، من ذهنية جديدة. إن العصر هو عصر الإزدهار الأول للاهوت الذي لا يزال مرتبطاً بالفلسفة مع أنْسِيلْمْ، أسقف كانتربري ، الكاتب المشهور ، الرّحْب الفكر، ومع أبيْلارْ الذي يمضي قدُماً في تحاليله العميقة ويجدد الأساليب في الوقت الذي يعترض فيه على بعض البراهين. ومع مدرسة شارتر التي تهتم بعلم الأفكار (جيلبير دو لاپوريه) وبالكوسموغونيا (علم نشأة الكون) من أجل دراسة العالم المخلوق وبالفيزياء (تْيِيْري دو شارتر)، ومع مدرسة سان ـ ڤكتور في باريس التي هي بلا شك أكثر الجميع اهتماماً بالعلم في النصف الأول من القرن الثاني عشر.

وتستمر التغذية خاصة في بداية العصر، برأسمال الأفكار الموروثة إما مباشرة عن القديس أغسطينوس وإما بطريقة غير مباشرة، عن أفلاطون والأفلاطونيين الجدد. وأنْسِيلْمْ الذي كان رئيس دير بِكْ في نورْمانْديا قبل أن يصبح رئيس أساقفة كانتربري (توفي سنة 1109) يَنسجم تماماً مع هذا الموقف ويعبر أفضل تعبير عن التفكير الذي يمكن الأخذ به انطلاقاً من هذا الموقف. إن الفلسفة والدين، بالنسبة إليه، والإيمان والعقل هي مفاهيم متناقضة جدلياً غير أن بعضها يكمل بعضها الآخر. وليس من المحتم إطلاقاً أن تؤسَّس الفلسفة على الوحي الإلهي. فيجب إذاً كما يكتب هو نفسه «أن نؤمن لنفهم ، لا أن نفهم لنؤمن»، فهذا الموقف لا يستثني الحاجة إلى أن نفهم لماذا من الضروري أن نؤمن هكذا، بل على العكس تماماً، فثمة منذ البدء جرأة لم يؤخذ بها فيما بعد، وذلك بلا ريب، لأنها لم تفهم تماماً، ويخلص إلى التأكيد أن الفلسفة وكل الحكمة الإنسانية موجودتان في تعاليم الكتاب المقدس.

ونشأ عندئذ اتجاه للبقاء ضمن مجال الإيمان. وهذا ما يلاحظ في القطاع الأوسع من اللاهوت في مدرسة سان ـ ڤكتور كما في الأوساط التي اختمرت فيها ، مع القديس برنار، الأفكار التي كانت تتجه أكثر نحو التصوف. وربما عرف هذا التيار الأخير، تيار البحث عن الله ، التيار الذي يُبقي البحث اللاهوتي في إطار الإتجاه نحو المسيح باندفاع مشوق. ويجعل من اللاهوت بحثاً في الروحانيات معَدًا لرجال الفكر وموحياً للمؤمنين بالتفوق، ربما عرف نشاطاً خاصاً لإعتبار أن الفلسفة معرضة لأن

تبقى عقيمة وجافة. ولا سيما أن هذا العصر، مع بيرانجه دو تور (المتوفى سنة 1088) وروسْلانْ (المتوفى سنة 1120، عصر استنباط مذهب الإسمانية[1] وفي النصف الأول من القرن الثاني عشر؛ عصر معارك الكليات التي وضعت وجها لوجه «الواقعيين» الذين يعتبرون المفاهيم «الطبيعة، الشر، المادة..) أشياء واقعية، مع الذين يعتبرون أن هذه ليست سوى كلمات أو أسماء «إسمانية» تعني الأشياء المفردة وليس الكليات.

غير أن ذلك لم يمنع البحث عن التطور والشمول، ربما بتأثير من هذا الصراع، وربما بفضل المعارف الأولى غير المباشرة والمحدودة للفكر الأرسطي. وبكلمة أدق، المنطق. ولم تعد الحقيقة الموحاة، التي ظل الإيمان بها كاملاً ولم يتطرق الشك إلى قيمتها، نقطة انطلاق ثابتة لتصلح معياراً لعدم التناقض ـ فلا يمكن نقضها. وينتج عن ذلك أنه يمكن تصور الأمور بطريقة أخرى، وهذا ما قامت به بخجل، وعلى نطاق ضيق، مدرسة شارتر حيث يتوصل مفتش المدارس الأسقفية، الأب تِيْري الذي كان يهتم بعلوم الطبيعة، إلى اكتشاف أنه بالإمكان تفسير المظاهر الطبيعية دون العودة إلى الوحي بشرط ألا تتناقض مع ما يحمله الوحي إلى الخليقة. وفي الفترة نفسها يكتب زميله غليوم دو كونْش أن «قوى الطبيعة يجب أن تحلل وتشرح في ذاتها» أما بالنسبة إلى أبيلار فهو يتوسع بالبحث إلى مجال الفلسفة العامة حيث يطبق أسلوباً عقلانياً لتفسير الكتاب المقدس مقتبساً من نظرية المعرفة الأرسطية التي تقلق تقليديي المذهب الروحاني مثل القديس برنار.

فهذه الثقافة ، كما نرى، هي حية حتى ولو كانت محدودة وإلى حدّما مشوهة عمداً. إن تعابيرها في غناها، وبالرغم من الإعتراض عليها، فإنها نابضة بالحيوية، وتظل متماسكة لأنها على أي حال لا تنفصل عن الحقيقة المسيحية، فسواء كانت تلك الحقيقة قابلة للبرهنة أم لا، فالأمر قلما يهم الرجل المثقف في ذاك العصر: إنها بالنسبة إليه، موجودة وهو يؤمن بها. وذاك يعد نظراً إلى ذهنية رجال الفكر في ذاك العصر، ارتكاسة نراها نقصا من وجهة نظر عقليتنا المعاصرة. ثقافة ، حقيقة ، ذهنية ، كلمات تبدو متشابهة وتقريباً متطابقة في جميع الحلقات العلمية وكل المراكز

(1) مذهب فلسفي يقول بأن المفاهيم المجردة أو الكليات ليس لها وجود حقيقي إنها مجرد أسماء ، لا غير ـ م ـ .

التعليمية وكل نوادي الغرب، وموزعة في مختلف الأقطار وقد حركها رجال فكر جاؤوا من كل المناطق في حين أن تركزها كان أعظم وانطلاقها أنشط في فرنسا.

الفن الروماني[1]

وتألق في القرن الحادي عشر والنصف الأول من القرن الثاني عشر فن مسيحي عظيم، الفن الروماني؛ اختمر وانتشر واكتمل في العديد من الكنائس والأبنية الرهبانية ولا نزال نجد تقنياته وأشكاله في القصور المحصّنة. فن الحجر اكتسب التناغم انطلاقاً من عناصر متفرقة. فالفن الروماني هو قبل كل شيء فن ديني يشهد لإيمان ويعبر عن صوفية.

تفرع هذا الفن عن الأبنية الكارولنجية والأوتونية المستوحاة هي نفسها من الفن الروماني القديم. وعلى الأخص المسيحي القديم (القسطنطيني)، الذي كيّف، تبعاً للوظيفة الكنسية، التقليد البازيليكي، مستعملاً تصميمه، مطوراً فيه (صدر الكنيسة، قاعة بخمسة أجنحة، رواق الشخصيات، المجاز...) والذي تلقى تأثيرات شرقية ستظل تلعب دورها. إن الإنشاءات الضخمة في القرن التاسع (سان ـ ريكيِيْه، فونتنيل، سان ـ ميدار في سواسُون، كاتدرائية ريمس) مهّدت الطريق أمام تركيبات منظمة العناصر الأساسية: صدر منبسط، ذراعا الجناح المصالب مجهزان بمذبح ثانوي، قبو مدفني كبير، فتحة المصليات على الممر الذي يحيط بكرسي الإعتراف من جهة الغرب، رواق رحب ذو طبقتين محاط بالأبراج الكبيرة والصغيرة. وابتداء من هذا العصر أخذ يستحدث في الأقبية وفي الأجنحة الجانبية للمصليات النظامان الأساسيان للقبب اللذان أصبح إنجازها ممكنا: القبة ذات العقد الكامل (كما في كنائس جِرْمِيْنِيْ وَسان ـ ميدار في سْواسّون) والقبة ذات الأضلاع (في فْلافِيْنِيْ).

وفي النصف الثاني من القرن العاشر، حدث جهد واعٍ مقصود، أيام الأباطرة الأوتونيين (أوتون الأول وأوتون الثاني وأتون الثالث) وتحت إشرافهم. ويشهد على هذه النهضة الأوتونية العديد من الأبنية أكثرها ضخم وفخم مثل كنيسة سان ـ ميشال في هِيلْدْشايمْ. وَسان ـ ماكسيميليان في تْرِيْفْ وإِكْتِرْنَاكْ، وستافيلو، وكنيسة الثالوث

---

(1) Roman فن نشأ في أوروبا القروسطية ما بين نهاية الدولة الكارولنجية وبداية النهج القوطي يتميز بانتشار بناء الكنائس البازيليكية والقبب ـ م ـ.

في إِيْبِسْ ـ التي تندمج في مجموعة متوازنة من أقسام غير موحدة (صحن الكنيسة، الجناح المصالب، القسم الغربي) تمهد مباشرة للفن الروماني الذي يتخذ شكله الحقيقي عند انتشار طرق التقبيب التي بُدِىء باستخدامها في القرن السابق واستعملت حينذاك في عدد من الكنائس الصغيرة في الجنوب، في البيرينيه ولومبارديا خاصة، هذه المعابد الصغيرة تحمل معنى التناغم الذي نجده أيضاً في أبنية غير مقببة (في نورمانديا وغيرها) تنتمي أيضاً إلى الفن الروماني. وهذا يعني أن هذا الفن يشغل، قبل كل شيء، المكان ببناء أجزاء متجاورة تؤلف في النهاية بناءً متكاملاً موحداً. لم يعد هناك صحن أو جناح مصالب أو صدر ورواق أو مجاز، بل هناك الكنيسة. لقد ولد حقاً وفعلاً عندما ظهر هذا التوازن في الأبنية المدنية الكبرى التي لم تنعدم التقنية لبنائها: وفي حدود العام 1000، وحتى ما بعد العام 1050، الذي تميز بتأثيرات محلية مختلفة كان لا يزال متنافراً، ثم بدأت مرحلة ازدهار مع ما يمكن أن يسمى العصر الروماني الثاني: إذ كانت الأبنية الضخمة تستعمل كنماذج للكنائس الريفية الصغيرة وتبعث الفن الجمالي الجديد. ويحتفظ كل نموذج بأصالته، الأمر الذي أبقى على شيء من التنوع مع وجود بعض وجوه التشابه فيما بينها إلى درجة تكوُّن نمط حقيقي.

وكان التصميم البازيليكي هو الأكثر استعمالاً، باستثناء بعض الحالات النادرة التي استعمل فيها التصميم الدائري أو التصميم المركزي. وبنيت البازيليك (أي الكنيسة المستطيلة الشكل) على صدر فسيح يحتوي الخورس، وقد اتسع هذا بطريقة ما إما بواسطة مذابح فرعية مدرجة (تتوافق مع المذابح الجانبية) وإما بواسطة رواق الخورس والمصليات ذات النقوش الدائرية. هذه الأبنية الضخمة تحتوي على جناح مصالب ينفتح من الداخل على صحن الكنيسة ويذوب خارجاً في البناء بكامله، يُدخل إليه من جهة الغرب مَن أمام الباحة الداخلية أو المجاز بواسطة رواق. ولكن أكثر الأحيان تفتح أبواب إلى طرفي ذراعي الجناح المصالب إلا إذا انتهى الذراعان بمذبحين جانبيين ويكون السقف مقبباً: وهو أكثر الأحيان في الكنائس المتواضعة ذات الصحن الواحد، عبارة عن قنطرة نصف أسطوانية بسيطة تتميز عادة بوجود دعامات لتقويتها، وعندما يكون هناك أجنحة جانبية تسقف هذه الأجنحة بقبب ذات زوايا بارزة (إدخال قبتين نصف إسطوانيتين متعامدتين مع فرجات متساوية بشكل

تقاطعها أربع أضلاع تجعل مُجمل البناء متيناً صلباً) وفي المعابد الكبيرة تحمل الركائز دعائم السقف التي ترتفع بينها القبة ويبنى عند التقاء الجناح المصالب بصحن الكنيسة قبة أو برج للجرس أو تبنى أبراج فوق الرواق الكبير أو علىٰ أحد جانبي الواجهة. إن المشكلة التقنية الأساسية لكل عنصر من عناصر البناء ولكل بناء بكامله هي رفع الأثقال وتوازنها . وبالرغم من أن الركائز تتيح ارتفاعاً أكبر فإن القبة هي، على أي حال، ثقيلة جداً تضغط من جميع الجوانب نحو الخارج، والأجنحة الجانبية المعقودة بقبب مضلعة توازن القبة جزئياً كما تفعل القبب النصفية. وتبنى عند الحاجة ومن الخارج دعائم قوية لتقوية السقف والجدران. وتوفر الأبراج وقبب الأجراس غالباً ضغطاً معاكساً مفيداً.

وهكذا تبدو الكنيسة ذات الطراز الروماني النموذجي بناءً متوسط العلو وأحياناً منخفضاً وضخماً، وتبرز فيها عند الرواق والأبواب وعند النوافذ وطبقات الأبراج سلسلة من القناطر مكتملة العقد تتناغم معها خطوط مستديرة في جدران صدر الكنيسة والمذابح الجانبية.

تعطي (هذه السلسلة) صدر الكنيسة، عندما تكون مستديرة ، توازناً لا مثيل له يكمله انصهار الأشكال البسيطة معاً. وفي الداخل يُؤسَر الزائر بهذه البساطة في الإيقاع التي نشأت بفضل القبة بمقدار ما يهيمن فيها من النور الضئيل . وأخيراً في الخارج كما في الداخل نقوش غربية محفورة توفر لهذاالشكل الفني أروع قيمته وتبرز عبقريته الحقيقية، نقوش تزيينية نشأت عن طراز البناء وهي أساساً متحدة به، إنها في الواقع منقوشة في هياكل الصخور المرصوفة التي تشكل الجدار وقلماً تكون قطعاً أضيفت دون حاجة البناء إليها.

وحول الباب تتركّز جهود أفضل الرسامين وتشاهَد التحف الفنية . وفي الفسحة العريضة النصف دائرية للوحة الجبهة ، بين الساكف والعقد المقولب الذي يحيط به يستطيع الفنان أن يخلّد مواهبه التأليفية وتبرز الموضوعات الإيكونوغرافية . ويتسع الساكف لرسم المواكب والمسيرات وتتابع الأحداث . وتمثيل الزمان والأعمال والأيام يأخذ مكانه بسهولة على شريطيات حنايا العقد التي تستطيع ، كدعامة الساكف وقوائم العتبات، إبراز الزينة الضخمة وإطارها الفنان المحفور على لوحة الجبهة المفصولة عن عُرْيِ الجدران. وثمة مكان آخر مفضل للنحت وهو كأس

تاج الأعمدة في القناطر الضخمة وأعمدة الأروقة والممرات والأماكن الخاصة بخدمة الهيكل والأبراج. وتستأثر الجوانب الأربعة المنحوتة لتاج العمود بالأنظار عن طريق لعبة التضاد بين النور والظل في هذه النقطة الأولية للنحت المعماري وهي الانتقال من العمود الإسطواني إلى القاعدة المربعة أو المستطيلة للقناطر. كل ذلك ليس سوى تقنية أو أداة تزيينية. والنجاح الحقيقي هو في النحت ذاته الذي كان ازدهاره محطة هامة في تاريخ أوروبا وبفضله يحمل الفن الروماني «للباحث النماذج اللانهائية للحياة، وللرسّام كنزا لا ينفد من الخطوط والأجسام والحركات، وللمتعبد فُرَصاً لا تنتهي إذ يرى القوى الخارقة للطبيعة تتجسد وتترمز في الطبيعة»[1].

إنما الموضوع هو موضوع الفن في الغرب بأسره، الفن الذي نشأ أولاً على الأرض الفرنسية وفي الأقطار المجاورة حيث أنتج الكثير. وكانت فرنسا الجنوبية والوسطى - البروڤانس واللانغدوك وَكْوِيْرسِي و سانْتَانْجْ وَ پْوَاتُو وَ أُوْڤِرْنْيا وبورغونيا - كانت مواطنه المميزة وهناك انتشر بفضل ازدهار حركة المواصلات والنجاح الباهر للمنظمات الرهبانية (كلوني وسيتو)، وتأثير رحلات الحج الذي كانت طرقه في هذه المناطق، وهناك استقر أكبر مدة ممكنة ؛ وهناك أخيراً لا تزال باقية إلى يومنا هذا أروع الأبنية وأفخمها: صروح ضخمة في مْواسَّاكْ وسان - سِرنان في تولوز. وكاتدرائية پْويْ وسان - فيليبيرْ في تورْنو وسان - بِنْيْنْي في ديجون وپاراي - لو مونيال وسان - تروفين في آرْلْ. . وهياكل متوسطة مثل نوتردام - دو - پور في كليرمون، ونوتردام - لاغرانْدْ في پـواتِيِيْه وسان - نِكْتَارْ، وأورسيڤال وكونْك وإِلْنْ؛ وكنائس متواضعة وضيقة في بْريونِيْه وماكوِنْيْه وتْرِيكَاسْتَانْ وكْوِيْرسي ورو سِّيون. . . ويطول التعداد.

غير أنه من الخطأ الفادح الاعتقاد أن البلدان الفرنسية في شمالي اللوار كانت معرفتها قليلة بالفن الروماني. بل على العكس من ذلك، لقد مارست هذا الفن بمقدار ما مارسته بلدان الجنوب بل وأكثر. ففي نورمانديا وفي بريتانيا لا تزال المعابد الرومانية كثيرة نسبياً، وفي المناطق المجاورة يظهر البناء منذ النصف الأول من القرن الحادي عشر. لقد ازدهر من سنة 1050 إلى سنة 1140. ولكنه تراجع بعد هذا

---

(1) ل. هـ. بِرْبورْ: «سجل الحيوان المنحوت في فرنسا» ص 14 .

التاريخ ليخلي مكانه للفن القوطي. . والنتيجة أنه يبقى إلى يومنا هذا من الأبنية الرومانية أقل مما بقي في الجنوب. نجد عدداً قليلاً منها في الأرياف، وإلى جانبها تشاهد بقايا أساسات وأقسام متفاوتة الإتساع والتطور في الكنائس الكبيرة.

وفي شبه الجزيرة الإيبيرية حيث الفن الروماني ترسَّخ باكراً متأثراً ، في أول أمره ، بالأساليب الڤيزيقوطية ، وحيث انطلق من جديد بتأثير رحلات الحج إلى سان إجاك - دو - كُومْپوسْتيلْ وعمليات الاحتلال العسكري التي وُجِّهت ضد الإسلام. وتعددت الإنجازات وخاصة في أقاليم برشلونة وجيرونا وليريدا(سان - كوغات دِلْ ڤالِّهْ، ريپول وكاتدرائية تَرّاغونـه) وأبرزها في سان - جاك وأُڤييدو. وبلغت هذه الإنجازات قشتالة القديمة، وسلامنكا (باب سان مرْتان). وزامورا (الكاتدرائية) وسيلوس وساهاغون. ولامست حدودُها، بعض الشيء، قشتالة الجديدة والپرتغال وكُوامْبِرْ فقط ولومبارديا - إيطاليا - التي كانت أولى مراكز الهندسة المعمارية الجديدة وأغنتها بالأشكال الأصيلة والتزيينية الخاصة (الأشرطة اللومباردية)، تتألق بكاتدرائيات فيراري ودو مودينا ودو كريمونا وپاريا وڤيرونا. وإلى الجنوب من ذلك انتشر الفن الروماني في إيطاليا الوسطى حيث اندمج في فن مركب مع تيارات فنية متنوعة جداً حيث الأبنية التي تتميَّز بهذا الفن اختفت بأكثريتها. وپيزا (الكاتدرائية)، ولوك (كاتدرائية وكنيسة سان - ميشال) وپيستوريا (كاتدرائية) وپراتو (كاتدرائية بدائية) وفلورنسا (كنيسة لمنح سر العماد)، كل هذه المراكز تملك الكثير من الأدلة الهامة.

وفي روما نفسها كانت الأبنية الرومانية كثيرة العدد. والكثير منها حل محله مجموعات باروكية. ولكن لا يمكننا أن نتجاهل، بالإضافة إلى بعض المعابد مثل سانْت كْرَوا - الصليب المقدس - في أورشليم، قبب الأجراس التي تزّين وتجمل منظر المدينة الخالدة، وإلى جنوبي ذلك، يتراجع الفن الروماني ولكن بتأثير من مهندسين آتين من نورمانديا وذلك على أثر استيطان فرسان هذه المنطقة في الصقلّيتين، ظهر من جديد في أبنية القرن الثاني عشر - أو في أجزاء من أبنية - في باريس وشيفالو ومونرپالي. وفي انكلترا برزت الهندسة المعمارية الرومانية متأخرة وبعد أن احتلها غليوم النورماندي ، سنة 1066 وكان الربع الأخير من القرن الحادي عشر عصراً عظيماً بالنسبة إلى البناء (كاتدرائيات لِنْكولْنْ ودورهام وپيتربورو ووِنْشِسْتِرْ. .) الذي استمر في العقود التالية. بحيث إن البلاد امتلأت، في حدود سنة 1150 ، بالكنائس من هذا الطراز. وفي البلاد الجرمانية يعود تاريخ دخول التقنية الرومانية الحقيقية،

التي أحلّت القبة محل سقوف الخشب في الكنائس الأوتونية، إلى منتصف القرن الحادي عشر بل حتى في العصر التالي (كنيسة دير لُورشْ، كاتدرائية تْريفْ وَ وُوْرْمْزْ وشْپَايْرْ وبال وراتسبون وسالزبورغ وڤِينَّا . .). وتبع ذلك امتدادات لا يمكن تناسيها. ومن ساكس وباڤييرا والنمسا يدخل الفن الروماني إلى بوهيميا وسيليزيا وهنغاريا وپولونيا . وحوالى منتصف القرن الثاني عشر يصل إلى سكنديناڤيا إنطلاقاً من إنكلترا وألمانيا. ومن إيطاليا الجنوبية يتقدم بإتجاه كرواتيا ودلماسيا. ولم يترك في كل هذه البلاد الكثير من الأبنية. ولكنه بالمقابل، يستقر بثبات في الأرض المقدسة بعد الحملة الصليبية الأولى مرتبطاً بتقنيات جنوبي فرنسا (كنيسة القبر المقدس وكاتدرائية طرطوس ودير البلمند وتيجان الأعمدة في نابلس والناصرة).

وصل هذا الفن الروماني حتى اسكتلندا وحتى ترونْدْهَايْم في النروج وبلغ صقلية الجنوبية وانتشر في كل مناطق الأطلنطيق من سان ـ جاك ـ دو ـ كومپوستيل إلى إنكلترا، وظهر في نقوش أبواب البرونز في كنيسة القديسة صوفيا في نوڤغورود قرب بحيرة إلْمَنْ (في روسيا) وفي جنوبي شرقي رومانيا. وأصبح حقاً على مستوى أوروپا، ولكن على هذا الإمتداد الرحيب لم يكن التشابه تاماً. فلم تلبث التقاليد والتأثيرات القديمة ومعها الظروف المحلية أن لعبت دورها. وفوق ذلك كله فإن عظمة صرح فخم أو دوراً قام به فريق من البنائين أتاحا لبعض «الشخصيات» ، أن ترسّخ كأقطاب مشعة، وقد لوحظ أحياناً تفرعات خاصة (انطلاقاً من كلوني بواسطة رحلات الحج وغيرها) تمثلت في «بلدان» أصيلة أكثر مما تمثلت في مدارس، من ذلك: بورغونيا، أرض الإختبارات والنجاحات الإستثنائية (كلوني الثالثة، ڤيزيلاي، تورنو)، عبّرتْ أكثر الأحيان عن التوازن والعظمة والهدوء ؛ اللاّنغدوك، منطقة الأبحاث التي بلغتْ حد الإبداع وأكثر الأحيان في جو مضطرب وغامض (مواسّاك، سان ـ سِرنان) ؛ وأوڤيرنيا بصروحها المتنوعة التي تتألق أحياناً بخلق تزييني مدهش (سان ـ نكتار وكليرمون). وپواتو وسانْتانْـجْ، أعظم وآنق في التقنيات (نوتردام ـ لاغراند في پواتييه) ؛ وپروڤانسْ التي لا تزال تتميز بتقاليدها العريقة ولكنها معتدلة ومتنوعة في إنجازاتها (سان ـ جيل ـ دو غارْدْ، لوتور) ؛ ونورمانديا المشهورة بطاقاتها وثروتها (أبايْ ـ أو ـ دام في كانْ)؛ وإنكلترا التي هي فرع ؛ وألمانيا التي تحافظ على مجدها الإمبريالي ؛ وإسبانيا وإيطاليا اللتان تحتفظان بحسهما الطبيعي ومواريثهما الجمّة.

من الصعب أن نفاضل بين هذه الصروح الشهيرة ونميّز، ولكن يبدو أنه بين هذه النجاحات الرائعة، تستحق كنيسة دير كلوني التي بنيت في نهاية القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر، وهي اليوم أطلال، تستحق أن توضع في المقام الأول بفضل عظمتها العملاقة (طولها 190 مترا، وكانت أكبر كنيسة في العالم المسيحي حتى تشييد كنيسة مار بطرس في روما، ارتفاعها 30 متراً عند القبة الوسطى، وجناحها الأوسط مقسوم إلى أربع عشرة معزبة ـ المسافة بين أسطوانتين أو ركيزتين ـ وجناحها المصالب مزدوج) وتقنية تحضيرها (رمزية الأبعاد ونسبتها. وتيجان الأعمدة التي تمثل قراراً موسيقيا). وفي اللانغدوك تبقى الأعجوبة كنيسة سان ـ سِرنان في تولوز التي تأثرت هندستها بكنيسة سانْتْ ـ فُوَا في كونْكْ والتي تعتبر النموذج الأفخم في سلسلة المعابد التي تدعى معابد الحج، أو الزيارة. بوشر بناؤها قبل سنة 1082 لتحل محل مصلًى قديم شيد على قبر القديس ساتورْنَانْ مؤسس الكرسي الأسقفي. وعرفت أولى مراحل البناء التي دامت خمسة عشر عاماً، بني خلالها صدر الكنيسة ورواق الخورس والمصليات الإشعاعية والخورس والأجزاء السفلى من الجناح. ثم استغرق بناء رواق الشخصيات (Tribune) وعقد قبة الجناح المصالب وقسم من الجناح الرئيسي وتركيز الاجنحة الجانبية مدة عشرين عاماً، ودام إنجاز العمل ما تبقى من القرن. وقد كانت ذات قياسات مذهلة: 115 متراً طولاً و 64 متراً عرضاً عند الجناح المصالب و 21 متراً ارتفاعاً مع خمسة مصليات إشعاعية تحيط بصدر الكنيسة مما وراء الخورس، وجناح مصالب بارز وصحن أوسط بأحد عشر معزبة، أمامه مجاز يفضي إليه، ومحاط بجناحين مزدوجين، غير أن عظمتها تقوم على الزينة المنحوتة التي تمثل إحدى عجائب التراث التزييني: تيجان مزينة بأوراق الشجر أو بالحيوانات. وعلى تيجان أعمدة رواق الشخصيات تشاهَد فصول وأحداث من العهدين القديم والجديد ونقوش على جانبي باب الكونتات إلى جنوبي الجانح المصالب تمثل مأدبة الغني الشرير وقصة إليعازر. وأخيراً على ساكف بابا مْياجِفِيلْ (Miegeville) يشاهَد الرسل وعيونهم شاخصة إلى فوق يراقبون صعود السيد المسيح إلى السماء تخيط به الملائكة. وكنيسة شْپَايْرْ في ألمانيا هي أكبر الكنائس الرومانية وأفخمها، صممت سنة 1030 وانتهى العمل فيها سنة 1060 ولكنها وسِّعت بشكل ملحوظ في نهاية القرن الحادي عشر بأمر من الإمبراطور هنري الرابع، وطبق فيها المهندسون التقنيات الرومانية خير تطبيق. بنيت قباب مضلعة فوق الجناح

الأوسط وهي حالة استثنائية توفر لصحن الكنيسة ـ مع تقبيب الأجنحة الجانبية بالطريقة نفسها منذ البداية ـ انسجاماً تاماً ونقاوة خطوط ناشئة عن أعمدة عاليه ترتفع دون انقطاع من الأرض حتى قاعدة القبة التي تدعمها وحتى حنايا العقد الذي يحيط بنوافذ الأجنحة الجانبية وتدعم الركائز الناقصة التي تستند إليها دعامات السقف. وتتميز وخاصة ببناء صدر نصف دائري مزين من الخارج بقناطر صُوَرية يعلوها رواق مفتوح موجود في أعلى جدران الخورس على جانبي جناح الكنيسة وفوق النوافذ ويوفر وحدة إستثنائية لصدر الكنيسة الذي يحيط به برجان عاليان. بينهما وما وراءهما قبة ضخمة عند نقطة الإلتقاء توازن البناء بكامله. والقسم الغربي من البناء لا يقل عن ذلك فخامة، وفوق الرواق قاعة علوية مفتوحة على صحن الكنيسة ناقلة إلى الحجر، هنا وإلى القباب المستطيلة التي تحيط بالصدرين الشمالي والجنوبي، الطموح والعظمة الإمبرياليين.

وكنيسة سانتا ـ ماريا في پيزا هي صرح عظيم بفضله أصبحت توسكانا مركزاً خلاقاً حيث صممت عظمة كاتدرائية لوك وزينتها الخارجية تبعاً للتصميمات المألوفة؟ بوشر العمل فيها سنة 1063 إستناداً إلى تصميم كان توليفا بين مفهوم بازيليكي ومخطط مركزي متأثر بالمحيط البيزنطي، وتم بناؤها للمرة الأولى حوالي منتصف القرن الثاني عشر ـ ثم استؤنف العمل فيها فتعرضت لتغيرات خلال القرن الثالث عشر، لم يكن مقببا منها سوى صدورها : الصدر الأساسي مسقوف بقبة نصفية ، والصدران اللذان ينهيان الجناحين الشمالي والجنوبي مقببان مع عقود الزوايا . إن زينتها تثير الدهشة والإعجاب: ففي الطابق الأرضي قناطر متصلة تقف على ركائز عالية، والطابق الثاني مقسم هو أيضاً بركائز، وفيه نوافذ مستطيلة، وتظهر على مستوى النوافذ العالية سلسلة من العقود الصغيرة المتقوسة، بينما يطوّق الصدر الأساسي رواق خارجي يعلوه ممر عالٍ، وفي كل مكان فتحات وأطر على شكل شبه منحرف تملأ الواجهات وتيجان الأعمدة المستوحاة من الفن الكورنثي مزينة بأشكال حيوانية وإنسانية تتخلل أوراق شجرة الأقنْثة (Acanthe) . وفي داخل الكنيسة كما في خارجها تزيد ألوان الرخام ، المتواترة مداميكه بين الأبيض والأسود، من فخامة البناء. وواجهات نوافذ الطابق الثاني (الذي يحتوي أروقة خاصة بالشخصيات) مزينة بأشكال هندسية ، بينما تبرز العقود المقولبة المنقوشة، للقناطر الكبيرة ناصعة

البياض . وفوق الطابق الثاني مداميك رقيقة سوداء منتظمة الترتيب. تحطِّم الرتابة الشاحبة للمساحات الجدرانية العريضة وتعدِّل من ملاحظة كلاسيكية بحتة هي «إن السر الجذاب للرسوم المتغيرة باستمرار وسحر الأعمدة» يتكرران إلى ما لا نهاية. وأخيراً حفر بعد وقت متأخر سنة 1180 ، مصراعا البرونز للبوابة الجنوبية (عشرون لوحة أخرى تمثل مشاهد من العهد الجديد). تخلع على البناء أنبل زينته.

وأخيراً في بورغونيا، إحدى الحلى الأكثر تألقاً في البساطة الرومانية، وبجمالها كما بتاريخها هي الأشهرَ. إنها مجدلية ڤيزيلاي، معبد الزيارة الذي شيِّد بالقرب مما يعتقد أنه من بقايا القديسة ومكان للتجمع على طريق سان ـ جاك ـ دو ـ كومپوستيل. بنيت الكنيسة الحالية أو بوشر ببنائها في سنة 1120 على أنقاض بناء شيِّد بين سنة 1096 و سنة 1104 فدمرَّه حريق وقد بني هذا بدوره مكان مصلًى قديم . انتهى العمل من صحن الكنيسة والخورس سنة 1132 والمجاز الذي يؤدي إلى وسط الكنيسة في منتصف القرن ـ ولكن بعد سنة 1170 حل محل الخورس الروماني، الأعجوبة الهندسية القوطية الحالية التي لم تغيرِّ شيئاً تقريباً في الشكل الخارجي للمجموع. بعد عبور المجاز إلى الجانحين الجانبيين اللذين تعلوهما أروقة الشخصيات واجتياز البوابة الداخلية نكتشف المنظر الرائع للقسم الأوسط أو القوس المكتمل العقد المستند إلى ركائز يأخذ بلب الناظر إليه للمرة الأولى. التناسق بسيط، القناطر الكبيرة المحيطة بالجناحين الجانبيين المسقوفين بقبب مضلعة يعلوها طابق واحد حيث فتحت نوافذ عالية تسمح بدخول ضوء غامر إلى صحن الكنيسة. فالقبب المضلعة المتداخلة مع القسم الأوسط من الكنيسة المسطحة إلى حد ما. صنعت بمواد خفيفة لدرجة أن مقاوم الصدى لم ينفُذ بواسطة أروقة الشخصيات فوق الأروقة الجانبية. لقد تحقق بقضبان من حديد تصل أساسات حنايا الدعم فيما بينها (أصبح بناء الزافرة فوق الجوانح الجانبيةِ إجباريا بعد ذلك بكثير بسبب فقدان الصيانة). وهكذا يكون صحن الكنيسة مضاءً ودافئاً وهو في نقائه وحميميته تحفة توحي بذوق رفيع. ولكن ڤيزيلاي هي أيضاً أحد المواقع المشهورة بالنحت الروماني: ففي الواجهة الوسطى صورة المسيح عند ظهوره الأخير على الأرض يبعث الرسل ليعمدوا الأمم؛ وعلى البوابة الجنوبية مشهد بشارة مريم العذراء وزيارتها لخالتها أليصابات، ومشاهد تمثل ولادة المسيح وسجود المجوس له. وعلى البوابة الشمالية ظهور يسوع لتلاميذ عِمَّاوس ومشاهد من ولادته، ففي كل هذه المشاهد

يجري التعبير عن حركة الأوضاع وزخمها بشكل فريد، بينما موضوعات تيجان الأعمدة في صحن الكنيسة ذات طابع درامي أكثر وضوحاً (موت قايين، مذبحة أطفال بيت لحم، خيانة يهوذا. . .).

معنى الثقافة الرومانية

وبواسطة هذه الأبنية النموذجية في فرنسا وألمانيا وإيطاليا وغيرها المنتشرة على امتداد الغرب، يبرز الفن الروماني حضارة يستنطق فيها المسيحُ الإله المتجسد الإنسانَ بمقدار ما يعلمه ويربيه.

والكنيسة الرومانية هي أساساً وقبل كل شيء ـ سواء كانت كاتدرائية أو كنيسة رعية أو كنيسة دير ـ مكان للصلاة، صلاة طقسية للمسيحيين المجتمعين حول رعاتهم أو صلاة شخصية للإنسان المتأمل. إنها بيت أبناء الرعية الذين يسكنون حولها، كما هي بيت جميع المشردين وملجأ طبيعي لعابري السبيل الطالبي الإيواء وهي مسكنهم الوحيد، وتستقبل خاصة الجماهير الفقيرة من الحجاج الذين يقصدونها لإيفاء نذورهم أو المساهمة في عبادة يحتفل بها في أحد مراكزالتقوى المشهورة. واتسع هذا المفهوم للكنيسة عندما اعتبر المعبد مكان لقاء لكل الذين يحنون ويسعون إلى السماء، كما يوصل صحن الكنيسة مشردي الحياة الإنسانية نحو مرفأ الخلود وهناك أيضاً في أساس هذا المفهوم فكرة صوفية وأخروية. ولولا الكنيسة لأصبح سكان المدينة الأرضية الذين يسعون إلى المدينة السماوية مشتتين ومختلفين، هدفها أن تجمعهم، ولهذا يجب على كل المسيحيين استناداً إلى مؤلفي ذاك العصر، أن يسهموا في بنائها.

ينفتح البناء الروماني بباب يُدْخِل المؤمنين ويرمز إلى المسيح، المسيح هو الباب الحقيقي الذي توجَّه إليه غليوم دو سان تْيِيْري بهذه الكلمات: يا من قلت «أنا الباب» قل لي بوضوح أي مسكن أنت بابه. ومتى ولمن تفتحه! إن البيت الذي أنت بابه هو السماء. إن الباب الذي يُدخِل الناس نحو الله تعلوه وتحيط به نقوش تطوِّق المؤمنين وتحاول وضعهم رأساً على اتصال بالشخصيات والمشاهد الدينية التي تمثلها، على اتصال بالمسيح في الدرجة الأولى، فارضة عليهم، عن طريق عظمة الموضوعات المعالَجة، نوعا من الرعب.

والكنيسة المفتوحة تدعو الزائرين للدخول وتنقلهم من باحة مستطيلة نحو الخورس الذي يكون أكثر الأحيان نصف دائري وأحياناً تعلوه أو تسبقه قبة. وفي علم الرموز القروسطي فإن المستطيل مثل المربع (إذ ليس هو في أكثر الأحيان إلا مجموعة من مربعات) ينتمي إلى الزمن، إنه فانٍ، إنه أرضي، إنه مخلوق. أما الدائرة، على العكس من ذلك، فإنها تمثل الأبدية، اللانهاية. فالكنيسة توصل منطقياً من النهائي إلى اللانهائي بينما الأبراج المربعة الزوايا تعبر عن رغبة الفاني في الإرتفاع فوق الأرض. وعندما يكون للكنيسة صدر مربّع يكون الإهتمام متجها نحو الواقع الأرضي.

هذا الأسلوب في التحليل وفي عرض الوقائع الثقافية التي يمكن أن نستنتجها من الفن الروماني هو - يجب أن نعترف - ممعن في العمل الذهني. فإذا فهم رجال العصر هذا الفن هكذا في صوفيته ورمزيته، فذلك عائد فقط لنخبة قليلة من الرهبان واللاهوتيين الذين يشهدون بذلك على سمو فكر وصفاء روح بلغوهما حينذاك. ولكن الغنى الحقيقي للفن الروماني هو التعبير عن ثقافة شعبية، والكنيسة هي، بالنسبة للشعب ولجماعة المؤمنين، بيت الله، الله الذي نكتشفه في المسيح ونلتقيه في الإيمان الذي يعلمه النحت الراقي، وأكثر من ذلك، في ممارسة الفضائل وفي الإبتعاد عن الرذائل التي توصل إلى جهنم؛ وبه يمكن أن نتحد بالصلاة والأسرار. ومعه تشترك الطبيعة - بنباتها وحيوانها الكثير العدد في الحظيرة الرومانية - لأنها خليقته كما أن الإنسان هو أيضاً خليقته وكل الخليقة تتحد به.

إن المسيحي المثقف المشبع بهذا الفن، يدرك بشكل أفضل كيف يجب أن تكون حياته الدينية، إنه يفهمها بطريقة مضطربة إلى حد ما، في القلق والخوف من الجحيم - هذا هو الشيء المزعج، حتى من وجهة النظر المسيحية في هذه الحضارة، ولكن على العكس من ذلك، فالفن يستنطقه لأن الفنان بطريقة لاواعية يعبر عن الثقافة بكاملها. فيسأل الإنسانَ إذا كان لا يزال متعلقاً بقوى الطبيعية وإذا لم يكن الشيطان قوة سحرية حقيقية، وأخيراً إذا لم يكن المسيح، مع كون الله مخيفاً، الملجأ ضد الشرور والسحر الطاغي، فهو ينم، إذاً، على أي مستوى وضعناه، عن ذهنية دينية مشتركة يعبر أكثر الناس رقياً وأكثرهم تمسكاً بالمسيحية، عن خشيتهم منها، في عبارات إيمانية وصوفية، يمارسها الآخرون في مواقف رجاء وخوف،

ومواقف تعاون مبني على المحبة كما في انفعالات يشع منها الإيمان وتدرك بصورة قلقة بفضل الممارسة الليتورجية.

ويتضح للوهلة الأولى أن العلمانيين الذين يأخذون بعين الاعتبار النقائص العامة في الثقافة العلمية ذات الجوهر الديني لما تحمله من قيم، لا يشاركون فيها على الإطلاق، وفوق ذلك، فإن هذه الثقافة لا تعني كل جماعة رجال الدين والرهبان، ولكن ضمن هذه الجماعة نخبة قليلة تشمل رهباناً أكثر مما تشمل كهنة وتتألف من هذه الآلاف القليلة من الأشخاص الذين تعتبر اللغة اللاتينية اللغة المتداولة بينهم، وكونها لا تصل إلى العدد الأكبر بل تبلغ عامة الناس بطريقة غير مباشرة وعن طريق المسرحيات الرعوية والعبادة والصلاة، فإنها لم تكن وسيلة تواصل حتى ولا أداة تلاحم شامل. زد على ذلك، أنه بالرغم من جميع الجهود والنتائج الأكيدة، فإن التنصير أبعد من أن يكون قد تغلغل في أغوار النفوس والكِلى والقلوب. فلا يزال في المعتقدات بعض الغموض نستشفه في بعض تعابير الفن. هناك بعض العادات الناشئة عن تصرف غير مسيحي تجاه العالم والحياة والموت. وفوق ذلك ففي صميم بيئة العلماء تبدو اعتراضات وانفعالات ـ أبيلار على سبيل المثال ـ لم يفهم المعاصرون ماهيتها ولكنها تميز بلا شك ـ حوالي منتصف القرن الثاني عشر ـ نهاية الثقافة في بداية العصر الوسيط التي أبصرت النور في العصر الكارولنجي أو على الأقل تبدُّلاً ثقافيا عميقاً.

يمكن رسم حدود الطاقة الثقافية لهذه الأوساط بسهولة وتُكتَشف، خارج حدود هذه الأوساط حقائق أخرى ليس من السهل الوقوف عليها. وهناك ترتع غوامض الحياة الدينية. وبالرغم من الجهود المبذولة لم يتوصل الدين إلى أن يصبغ بالصبغة المسيحية، النتاج الأدبي باللغة العامية ولا الأدب الملحمي في أغاني البطولات ولا الأدب الغزلي الذي بدأ يتكون، وإلى جانب الفولكلور الشعبي الذي لا يمكن إدراكه والذي يتراءى فيه السحر والفوطبيعي المسيحي في تحولات معقدة ترسخ ثقافة حربية وفروسية تختلف قيمها ـ أي القوة والتفوق البدني والوفاء للعشيرة والسلالة، ينافسها، ويستعلي عليها فرح المشاركة اللاواعية مع الطبيعة، ولكنها مشاركة اكتملت في ظل المخاطر والعنف التي بدونها لا يكون فرح ـ تختلف هذه القيم اختلافاً عميقاً عن المبادىء المسيحية. الأغنية التي تمجد أحلام المعارك

«العجيبة» والمبارزة التي هي أكثر من تسليه ورياضة والصيد الذي هو شيء آخر غير تمضية الوقت والمتعة ، كلها تعبر بطريقة مشوشة عن هذا البحث الآخر وتشكل نوعاً ما استناداً إلى ما قاله غ. دوبي: «إسقاطات خارج بنى النظام». وفي الوقت نفسه وسيلة «لتثبيت الإضطرابات» التي قد تكون على المستوى النفساني الإجتماعي، العنصر الأساسي. أليس لهذا السبب أدانت الكنيسة المبارزة ومنعت الرهبان عن الصيد؟

وهكذا يظل التطور غامضاً إلى حد ما وهذا ما حدث حوالي منتصف القرن الثاني عشر، في كل القطاعات. والإندماج الحقيقي لم يتحقق وظل العلم ناقصاً، وأحياناً لم يكن إلا في خطوطه الأولى؛ وغالباً ما كان مهدَّداً أو مطروحاً للمناقشة. وعلى الصعيد السياسي والإجتماعي لقد ذكرنا كم كانت جبارة في قلب المجتمع الإقطاعي، قوى التجزئة والتفكك، أي المطامح الشخصية والجشع والمنافسات التي كان يثيرها الميل إلى العنف وتترجم بمعارك ـ داخلية الحروب الخاصة ـ التي لم تكن لتنتهي. وقد ذكرنا كذلك نقص التضامن الشامل في المجتمع بسبب عزل القرويين وإبعادهم، فهم لا يشاركون ولا يندمجون ، إلا بالإنتاج، في حضارة العصر.

ويجب أن نذكر أيضاً كيف فرقت حرب تعيين الأساقفة بين البابوية والإمبراطورية وأسهمت في شق هاتين السلطتين المهيمنتين اللتين كان اتحادهما الوثيق ضمانة لانسجام الغرب ووحدته واللتين بدون اتحادهما لا يمكن أن يتم التحام دائم.

وبالمقابل ، لقد تفوق الفن والثقافة الروحانية على روح القرن وتخطياها، القرن الحادي عشر الذي خلاله، تكوّنا وتطّورا في نظام المجتمع والتعبير الفكري، وتميز كلاهما بتأثيرات الحياة الرهبانية والبراهين التي تدعو إلى التكتل والإتفاق. وكان فعلا ثمة أوروبا اقطاعية، لأن للإقطاعيين في الحياة مواقف متشابهة، وأوروبا رهبانية لأن للرهبان مسلكاً واحداً تجاه العالم وحيال الله، وأوروبا رومانية لأن الفن الذي ينم عن مجتمع وإيمان معاً، يستجيب لرؤيا واحدة ومشاغل متشابهة كل هذا يكوِّن في كل من هذه القطاعات ذهنيات متشابهة، لا سيما وأن البيئة هي نفسها تقريباً ـ البيئة الأرستقراطية ـ التي هي على رأس كل من المؤسسات الثلاث. القوى

السياسية المركزية ـ الملوك ، ليست من القوة بحيث تجزيء وتواجه أو حتى توجِّه جهود الناس إلى أهداف أخرى، وتناقضات الإقتصاد لم تكن ملحوظة إلى درجة التقسيم وممارسة الضغوط ، فهيهات ذلك!

وتوضح هذه الأمور كم هو دقيق وضع ميزانية هذين القرنين (950 ـ 1150). إن التطور ألقى الأضواء على بعض الأدلة التي لم تميز فقط التاريخ لهذه المرحلة وللعصور التي تلتها مباشرة، ولكنها وسَمت أيضاً أوروبا بطابعها الأصيل فكرة حكومة طبيعية مؤلفة من الطبقة الأرستقراطية يعبر أعضاؤها عن تعاون حقيقي وعصوي، تجمعهم فكرة مجتمع غير متساوٍ أصلاً ، الأمر الذي يشكل أسس إيديولوجية اخترقت القرون ؛ واقترن بهذا المفهوم ميل إلى العنف والحرب والرغبة في تبريرهما من أجل قضية عادلة ـ أي العمل على تبرير كل المشاريع، وهذا ما يزال ماثلاً في المسلك السياسي حتى أيامنا هذه. ثم أهمية أمر واقع ديني وغالباً دين يشوه ويعرقل ، في البداية، بعض التحولات ويرغم على اتخاذ مواقف من شأنها أن تتحول بسرعة إلى مراوغة تفسد حتى الأعماق قيم المسيحية الحقيقية.

هذه البراهين وغيرها هي، أخيراً ، شهادة على التلاقي والإتحاد كما على الخلاف والتفكك . إن محاولة معرفة الجهة التي تتلقى الضغط الأقوى تبدو من الصعوبة بحيث إنه ، في الأوساط التي توجد فيها أقوى عناصر التماسك ، ليس من المؤكد أن المعاصرين كانوا على معرفة حقيقية بها؛ أو أنهم عندما عرفوها، سواء اكتشفوا حسنات الاتحاد أم ارادوا ذلك عمداً، فالأكيد هو أنهم كانوا يشعرون بضغط القوى العاملة من أجل الخلاف . ومما لا شك فيه أن هذا ما منع بعض المؤرخين من اعتبار هذه المرحلة مرحلة مميزة في تكوين أوروبا . لقد رأوا فيها أولاً عوامل التفكك.

ومع ذلك، ففي المواقف والذهنيات، كانت عوامل التماسك في القطاعات، أي السادة الإقطاعيون والرهبان والإكليروس ـ قوية ومتحدة في قلب الأرستقراطية وبواسطتها. انطلاقاً من هنا يمكننا الذهاب إلى أبعد وأعمق، إلى تدعيم الإتحاد وإشراك الجماعات الريفية في العمل والقرار وتطوير كل ما من شأنه أن يوطد الوحدة . إن منتصف القرن الثاني عشر هو إذاً زمن الإنجازات الممكنة لقد نبتت البذور ، والتاريخ مؤهل لإيصال أوروبا إلى التعاون الصلب المتين. وبإمكانه أيضاً

أن يشهد تفكك ما بدأ بالإتحاد أو تطور في جو من الغموض. وأخيراً، أليس في هذا العصر وفي بعض العقود التالية كانت أوروبا التي لم تعرف الوحدة الصلبة الكاملة على مدى تاريخها، أفضل وأكثر تكتلاً؟

الفصل الرابع
أوروبا الحَبريَّة
أو عصر المسيحية

منتصف القرن الثاني عشر - نهاية القرن الثالث عشر

وفي السابع عشر من تموز/يوليو سنة 1203 جرى حدث عظيم في الشرق. لقد استطاع أمراء وأسياد إقطاعيون وفرسان من الغرب - من شمپانيا وبورغونيا وفلامنكا والبندقية وغيرهم - كانوا قد نزلوا منذ عدة أيام عند مرفأ غلاطية، استطاعوا أن يحتلوا بيزنطة ، العاصمة الرومانية الشرقية وعينوا، في الأشهر التالية، بعد أحداث طارئة وانقلابات دراماتيكية مفاجئة، واحداً منهم إمبراطورا (بودوان الفلمنكي) واقتسموا غنائم الحرب فيما بينهم. وتوزع القادة الكبار الأقاليم الفسيحة المحتلة، وخاصة في البلقان، بينما أهل البندقية استقروا في الجزر اليونانية؛ وعينوا كهنة لاتينيين تابعين للكرسي الرسولي، الأمر الذي وضع حداً، بشكل عام، لانشقاق سنة1054 . وهكذا تكونت، بفعل هذه القرارات المختلفة، ما دعاه المؤرخون الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية

غير أن الأهداف والوقائع التي يشهد عليها هذا الحدث الجلل تظل غامضة. كان الهجوم على بيزنطة نتيجة سوء تفاهم ودسائس، إذ بعد أن أعد البابا إينوشنسيوس الثالث للحملة الصليبية الرابعة ليرسل نجدة إلى الأرض المقدسة حوّلت هذه الحملة وجهة سيرها وتوجهت نحو عاصمة الإمبراطورية تقودها مطامع بعض القادة الصليبيين ومصالحهم، وخاصة مصالح أهل البندقية. ولم يستطع الغربيون أن يمنعوا الأغارقة من البقاء داخل الأناضول (إمبراطورية نيقية) حتى بعد ستين عاماً على إعادة احتلال عاصمتهم والأراضي التي خسروها (1264).

ولم يعد يحدث بينهم وبين الشرقيين، في البلاد المحتلة، أي تفاهم حقيقي حتى ولا أي نوع من الإندماج. وقد غدا اتحاد الكنائس شيئًا إصطناعيًا بحتًا، لأن الإكليروس اللاتيني المستقر في الشرق هو، عمليًا، من كان متحداً مع روما. كما كان سابقاً في الغرب الذي انطلق منه. وظل الإكليروس اليوناني في غالبيته العظمى متحفظاً ، نفوراً، طامحاً أبداً إلى استقلالية ذاتية تامة.

بالمقابل، فإن احتلال بيزنطة ينم عن دينامية الغرب وقوته، وعلى الأخص تلك القوى التي تألبت حولها، كما رأينا، في القرن الحادي عشر وبداية القرن الثاني عشر، بعض المجموعات: من جهة، الكنيسة والبابا الذي كان يوجهها جميعاً، ومن جهة أخرى طبقة النبلاء المتكتلة حول بعض الأسر العريقة. غير أنه يضاف إلى هذين القطبين، كعنصر إضافي جديد تأكد وترسخ خلال القرن الثاني عشر، المدن التجارية بثرواتها المتمثلة بالبندقية خير تمثيل، فهذا التلاقي، الذي لم يكن وليد الصدفة بل معبراً في تعقيداته عن توازن اجتماعي جديد على وشك التكون. يثبت هذا التلاقي أن التطورالذي مهد له ما بين منتصف القرن الثاني عشر ونهاية القرن الثالث عشر، وأُعِدّ في المئات من السنين السابقة ظل ينتشر ويتوسع. ولكن التحرك كان يختلف باختلاف القطاعات فثمة تحولات تتابعت واتسعت تبعاً لمعطيات العنصر السابق نفسها مثلا، في المجال الإقتصادي ومع إزدهار التجارة والنتائج التي ترتبت عليها. وهناك بالمقابل تحولات حددت ، في المجال نفسه، قطيعة مع المرحلة السابقة وعُرِفت بميزة جديدة ، هي البحث الفكري الذي يتجاوب، حوالي منتصف القرن الثاني عشر، مع اهتمامات لم تشغل العقول في حدود سنة1050 ، من ذلك العلم السياسي الذي راح، في الفترة نفسها، يبتعد ويتحرر من البنى الإقطاعية وإن التقدم الملازم لهاتين المجموعتين من التحركات هو في أساس نشاط هذا القرن الذي طبعته الحملة الصليبية الرابعة بطابعها البارز. ولكنه حدث كذلك لمصلحة التضامن نتيجة لقاء إحدى الإيديولوجيات في المصالح الكبرى أو معاكستها، وذلك عائد للتأثيرات المتباينة لهذه المصالح أو لغيرها ، غير أن الأفراد، الذين يضطلعون بمسؤوليات محددة والذين مسؤولياتهم غير واضحة سيدركون من الآن فصاعداً ما يمكن أن يجمعهم وما يستطيع أن يفرقهم. زد على ذلك أن البعض يلعب لعبة التقسيم بينما آخرون يحاولون تخطي التناقضات ويكوّنون لهذه الغاية، رؤيا مثالية

عن العالم وعن المجتمع، ويتحدد انطلاقاً منها تنظيم أوروبا وتتكون ثقافة أوروبية ما. وفي طليعة هؤلاء المؤسِّسين، أياً كانت مقاصدهم الخفية ومطامحهم غير المعلنة تأتي البابوية.

اوروبا المسيحية

العالم المسيحي

منذ نهاية العصور القديمة تراود بعض القادة العسكريين فكرة، ولو لم يعبروا عنها بوضوح، هي أنه يجب أن يكون هناك وحدة بين جماعة المؤمنين التي تؤلف الكنيسة في صيغتها الأرضية والتنظيم السياسي المكلف بإدارة الحاجات الدنيوية والذي تهيمن عليه سلطات قوية وفعالة تسعى إلى تحقيق الخير العام. وهكذا ففي المرحلة الفاصلة بين القرن الخامس والقرن السادس كان جيلاسيوس الأول يعتقد أن الإمبراطورية الرومانية هي الأداة التي يجب أن تتمتع بهذه الصلاحيات على الأراضي التي تحولت إلى المسيحية. وإنه، فيما بعد، في العصر الكارولنجي، ألح الإمبراطور ورجال الكنيسة على التطابق الكامل بين الإمبراطورية الجديدة والعالم المسيحي اللاتيني. ولكن فيما كان جيلاسيوس يعترف بأن القيادة العليا يجب أن تقسم بين السلطتين، كل واحدة مستقلة عن الأخرى، وسيدة في نطاق مسؤولياتها، كان شارلمان يعتبر أن سلطته وحيدة وأنها تنعم بامتياز، إلى حد ما، عالمي. وبعده راح بعض البابوات يفكرون التفكير نفسه مع نقلهم سلطة الإمبراطور إلى الكنيسة.

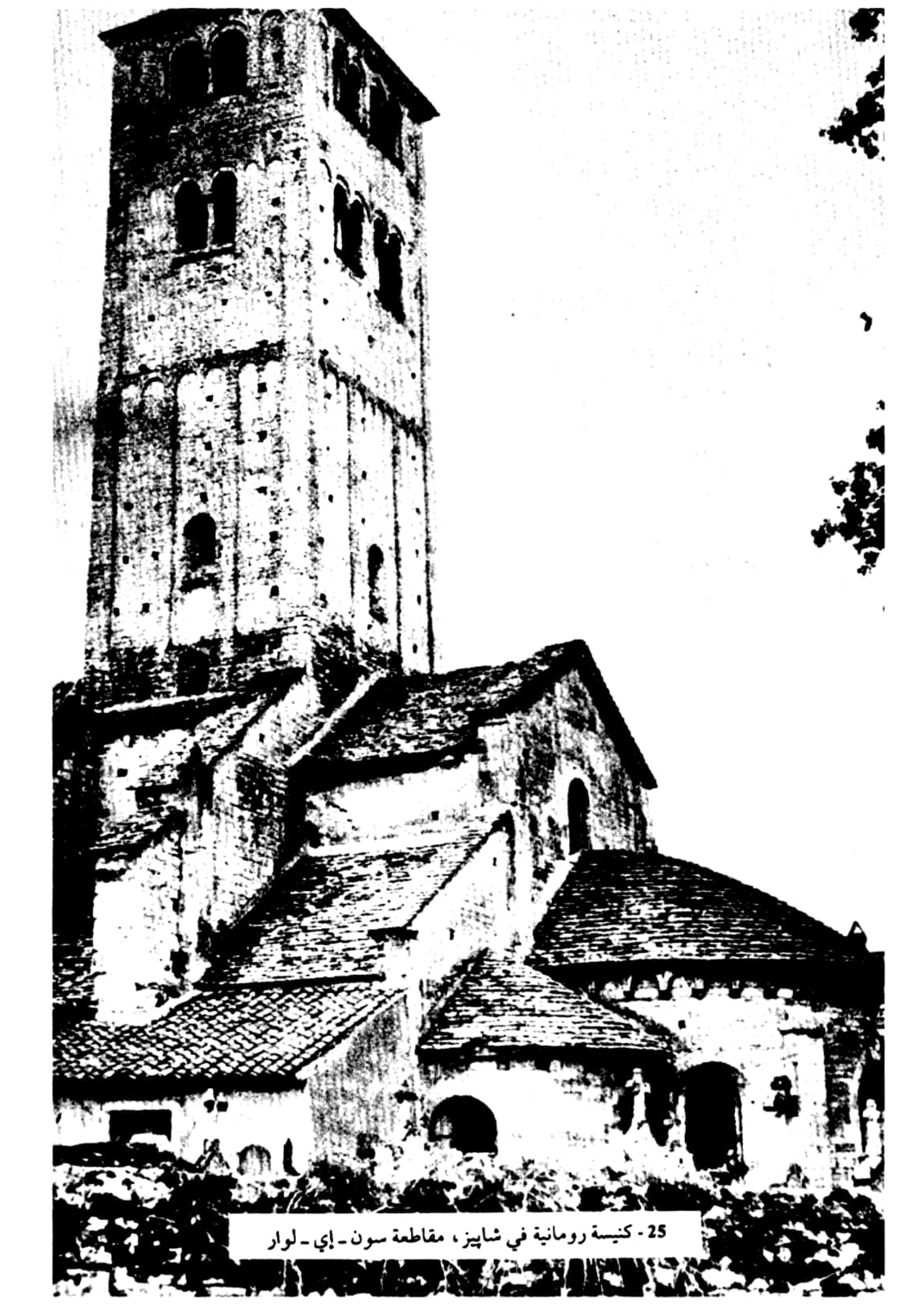
وفي المرحلة اللاحقة أدى انحلال الإمبراطورية وتصاعد نفوذ القوى المحلية إلى تفكّك السلطة السياسية أو بتعبير أدق، إلى نشوء فئات وجماعات تعاني التنافر والضعف، ويصعب عليها الإتفاق، لأن لعبة العلاقات الإجتماعية كانت شديدة التعقيد، أو على العكس مفرطة في التبسيط. وينتج عن ذلك أنه يستحيل تقريباً فهم ما هي وأين هي السلطة السياسية، وهكذا تعاد إلى الأذهان مسائل قديمة وتثار من جديد فكرة أن الكنيسة هي الخميرة الوحيدة للتضامن الروحي والزمني لأنها جسد المسيح الذي تتكون أعضاؤه، المؤلفة من جماعات بشرية ليست بالضرورة موجودة في إطار جغرافي معين، وتتكون من جميع المعمدين وكل المؤمنين. . وإذ يلم بعض المؤلفين بالواقع الإجتماعي الذي أرادوا أن يعرضوه، في الوقت نفسه، مطابقاً للنظام

الذي يريده اللّه، تحدثوا عن الفئات الثلاث : الفئة المحاربة والفئة المصلية والفئة العاملة التي تشكل المجتمع وقد صرحوا مراراً «بأن المجتمع هو الكنيسة». وقد أصبحت الكنيسة هي المجتمع الحقيقي الوحيد، وبأن الناس جميعاً مسيحيون. فالكنيسة هي أساس المجتمع وضمانته وسلطته. إنها أساس العالم المسيحي وسلطته الأولى.

إن الإصلاح الغريغوري الذي يمجد المسؤولية والسلطة الكنسيتين ويسعى لجعل نهج الأخلاق المسيحية القانون الوحيد للحياة الفردية والجماعية السياسية والإجتماعية، ويستنتج من ذلك أن الإشراف على الأعمال والتصرفات يعود مباشرة أو غير مباشرة إلى الكنيسة التي هي السلطة الحقيقية. إن هذا الإصلاح يجمع القوة والسلطة بين يدي البابا. من هنا، يجب أن يكون المسيحيون، الجماعة الوحيدة للمؤمنين في الكنيسة الكاثوليكية، الرومانية (اللاتينية) وتجمع الجماعات السياسية ذات الصيغ والمؤسسات المتنوعة، خاضعين للكرسي الرسولي. فالعالم المسيحي إما أن يكون حبرياً أو لا يكون، لأنه استناداً إلى نتائج الحركة الغريغورية فالكنيسة هي حبرية أو ليست بكنيسة . ويستخلص البابوات، في النصف الثاني من القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر، بوضوح هذه المفاهيم فيعبر عنها البابا ألكسندر الثالث بحكمة في صياغة الآراء وبحزم في العمل، وإينوشنسيوس الثالث بأفكار حية ونشاط متحمس.

فالعالم المسيحي هو بالنسبة إلى هذا الإصلاح مفهوم روحي ـ أي جماعة المؤمنين المتحدين بالعماد والإيمان بالمسيح وزمني ـ أي دولة مسيحية تضم بعض الشعوب ومختلف الجماعات، على أرض تعرف بالأرض الأوروبية. والكنيسة التي يتزعمها البابا تعطي الحياة لهذه الدولة ولكنها ليست تقودها بالضرورة وبمختلف الوسائل. إنها تدعوها، إنها تحثها، إنها تحضها: إنها تقترح المشاريع لها وتوحي بالمبادرات وتثير الحماسة لكل ما تعتقده نافعاً لعمل اللّه ولنجاح الدين وأيضاً لإنتصار البابا ورجال الدين ولمصلحتهم تطلب من المؤمنين الإسهام في الحملات الصليبية لمساعدة المسيحيين اللاتينيين في المحافظة على الأماكن المقدسة. إنها تدعوهم إلى محاربة الهراطقة فيما كانت قبل ذلك تأمرهم أمراً. إنها تعمل من أجل السلام.

وكان العالم المسيحي يتحدد، في الخارج كعالم مقابل للعالم المنشق وغير



25 - كنيسة رومانية في شابيز، مقاطعة سون - إي - لوار



26 - كنيسة رومانية من القرن الثاني عشر في كويلاّس، إسبانيا ـ قشتالة

المؤمن والوثني، فيما كان في الداخل يثبت أقدامه في وجه الهرطقة فهؤلاء وأولئك هم، بالطبع، ملعونون منبوذون. وينتج عن ذلك أن العالم المسيحي مهما قال فيه بعض المعاصرين وأيا كان تفكير المؤرخين حياله، هو عالم مقفل. إنه في الواقع يمكن أن ينمو ويتسع غير أنه لا يمكنه أن ينفتح. يدخل الإنسان إليه بالإنتماء إلى ايمانه وقانونه وسلطاته، ولكن رفض قوانينه يعني البقاء خارجه، والاعتراض عليها بعد قبولها هو تنكر للذات كما هو تنكر للمسيحية، وهذا يعني الخروج منها. وهكذا فهم اتحاد الكنائس عندما ناقش إينوشنسيوس الثالث قبل الحملة الصليبية الرابعة مع الإمبراطور البيزنطي عودة الأرثوذكس إلى الوحدة الرومانية، أو عندما بحث بعد ذلك، إعادة اتحاد الإكليروس اللاتيني والإكليروس اليوناني، وكان مستعداً لمنح المنشقين الذين يودون العودة إلى أحضان الكنيسة الرومانية، بعض الاستقلالية في الليتورجيا والتصرف. أما المعتقد والسلطة العليا فلم يكونا خاضعين لأي جدل. وكان المطلوب بالإضافة إلى الإعتراف بسلطة بطرس كسلطة عليا في الكنيسة، تراجعاً واستسلاماً غير مشروطين. وأثناء المجمع المسكوني المنعقد في ليون سنة 1274، عندما قرر الإمبراطور البيزنطي، الذي ارتقى العرش سنة 1264، مدفوعاً بضغوط سياسية قاسية، أن يعيد الوحدة المسيحية بالرغم من اعتراضات الأكثرية الساحقة من رجال الدين عنده ـ كان المجمع قصير العمر ـ كانت الكلمات التي ألقاها باسمه لا تحمل أي شكوك، وهذا نصها:

«تمثل الكنيسة الرومانية المقدسة التفوق والسيادة العليا والكاملة على جميع الكنيسة الكاثوليكية. لقد حصلت على ذلك، بالإضافة إلى السلطة المطلقة للمسيح نفسه، في شخص الطوباوي بطرس، هامة الرسل، الذي يعتبر الحبر الروماني خليفته، كما يتوجب عليها فوق كل ذلك، أن تدافع عن حقيقة الإيمان، وتحدد بأحكام صادرة عنها، المسائل التي تستجد. لها وحدها تخضع جميع الكنائس وعلى أحبار هذه الكنائس أن يؤدوا لها الطاعة والإحترام. (مع العلم) أنها تحترم كثيراً من الكنائس، وخاصة الكنائس البطريركية ذات الإمتيازات المختلفة».

غير أن العالم المسيحي ظل يتسع بفضل اعتناق الشعوب الوثنية للديانة المسيحية وبفضل استعادة البلدان التي خرجت منه منذ وقت قصير. وفي الشرق استمرت الجهود الرسولية التي انطلقت في مرحلة سابقة، بمبادرة من بعض الأساقفة

أو بعض الأمراء. ومنذ النصف الثاني من القرن الثاني عشر كان الدين المسيحي قد ترسخ بثبات فيما وراء نهر إلْبْي بين السلافيين الفنديين . وكان يصحب عمليات التنصير «جرمنة» ناشطة كان محركها الأساسي دوق ساكس وبافييرا، هنري الأسد. وبوميرانيا التي تعتبر صلة للبلاد الفندية[1] على امتداد بحر البلطيق اعتنقت هي أيضاً الدين المسيحي وتطبعت بالطبائع الجرمانية.

وتأسست أسقفيات في لوبيْكْ وكَمِّنْ. . بينما اختفت الوثنية، بفضل نشاطات ملك الدانمارك، من جزيرة روغِن (Rugen) واستمر زحف المسيحية في صفوف البروسيين، بين الفيستول وميمِل (Memel)، وأبعد من ذلك بين الليفونيين حول خليج ريغا وتباطأ في بداية القرن الثالث عشر على أثر ردة وثنية عنيفة . ثم عاد فانطلق من جديد بفضل الفرسان حملة السيوف والفرسان التوتونيين؛ وتغلغل الدين المسيحي في ليتوانيا، في شرقي پولونيا، وفي سنة 1300 كانت بلدان البلطيق قد أصبحت مسيحية؛ بينما منذ قرن على الأقل، كان قد تم تبشير البلدان السكندينافية وكان ملك السويد أريْكْ التاسع قد فتح أمام المبشرين الطريق باتجاه فنلندا. وفي المرحلة ذاتها كانت قد تمت استعادة شبه الجزيرة الإيبيرية بشكل شبه نهائي تقريباً: ففي بداية القرن الثالث عشر وضع حد لهجوم الموحِّدين واحتُوِي ورُدَّ على أثر الانتصار الباهر الذي حققه سنة 1212 ملك أراغون عند لاسْ نَافاسْ في تولوسًا. وفي السنوات اللاحقة احتل ملك قشتالة المناطق التي كانت لا تزال مسلمة: سقطت قرطاجة عاصمة الخلافة سنة 1230، وإشبيلية ، المدينة المقدسة الأخرى سنة 1248 . وظل الإسلام فقط في مملكة غرناطة الصغيرة.

وهكذا امتدت أوروبا المسيحية في نهاية القرن الثالث عشر، من شمالي سكنديناڤيا وخليج فنلندا إلى جنوبي شبه جزيرة، إيبيريا، ومن إيرلندا وشواطىء الأطلسي إلى خط يبدأ من بحيرة پِيْپوسْ ليبلغ دنيَاسْتِرْ الأوسط ماراً على مقربة من مِينْسْكْ لينعطف بعد ذلك نحو الجنوب على حدود ترانسلفانيا حتى بلاد تاسي غالاطي وينثني من هناك نحو الغرب ليلامس الأدرياتيكي على مستوى دو بْروڤْنيكْ، وتخرج عنه شبه الجزيرة البلقانية البيزنطية «المؤغرقة» وكذلك البلاد الروسية التي

(1) اسم أطلقه ألمان القرون الوسطى على سلافيي ألمانيا - م - .

اعتنقت المذهب الأرثوذكسي وخارج أوروبا ـ باستثناء سوريا حيث لا يـزال أحفاد الصليبيين على أرض تتقلص شيئاً فشيئاً حتى سنة 1290، وانطلاقاً منها جاء لاتينيون آخرون مطرودون من الأرض المقدسة، واستقروا في جزيرة قبرص التي تأسست فيها مملكة ـ ظلت جهود التبشير التي بدأها الفرنسيسكان والدومينيكان بمبادرة من البابوية في أواسط القرن الثالث عشر، عديمة الجدوى، سواء حيال المسلمين في المغرب أو النسطوريين المغوليين.

أم وسَيِّدة

إن أوروبا المسيحية هذه التي ينظر إليها استناداً إلى الأبعاد الزمنية والروحية للمسيحية اللاتينية وكاتحاد روحاني صوفي لكل المؤمنين، يوجهها ويديرها البابا الذي ازداد سلطانه على الكنيسة إلى حد عظيم في تلك المرحلة تبعاً للدفع الذي أعطاه إياه الإصلاح الغريغوري. وغدت أوروبا حبرية لأن البابوية اعتُبِرت أساس كل الكنائس فهي تحمل إليها الحكمة وتقوي إيمانها باستمرار: إنها الأم والسيدة.

وظل البابا قبل كل شيء وعملاً بالتقاليد، حارس العقيدة التي يحددها هو، وإليه يعود، بالدرجة الأولى، أمر فضح الضلالات والتصدي لها. هو العلاّمة الأسمى، وتحت هذا العنوان يهتم بكل ما يعني التعليم، ليس فقط السهر على استقامة الأفكار الملقنة بل يتدخل أيضاً بحكم سلطانه الأعلى، في تنظيم المدارس والجامعات. وكان كذلك يحتفظ لنفسه بقرارات تطويب القديسين التي كانت حتى ذلك الحين كثيراً ما يعلنها رؤساء الأساقفة أو مجامع الأساقفة، وهو بموازاة ذلك القاضي الأعلى، وتتجلى هذه المهمة السامية بفضل تحويل دعاوى كثيرة رفعت إلى محكمته من قبل المحاكم الأبرشية والإقليمية، وينجز ألكسندر الثالث، في هذا المجال ، التطور الأهم. ويلطِّف أساقفة القرن الثالث عشر التجاوزات التي أوصل إليها النظام، جاهدين على قدر الإمكان، للإحتفاظ بسلطتهم القضائية التي تسعى كي تكون ، إلى حد ما ، غير محدودة.

وقد أصبح الحبر الروماني ، حسب التصميم الذي سبق أن وضعه غريغوريوس السابع وأكدته البراءات البابوية، المشترع الأوحد في الكنيسة. ولم يكن هذا التطور ناشئاً فقط عن ملاحقة واعية للهدف ولكن أيضاً بسبب أن رجال الدين الذين أقلقتهم الخلافات السياسية والهرطقات وكذلك التحولات المؤسساتية،

توجهوا إلى الكرسي الرسولي يسألونه حلاً للمشاكل المختلفة . وكان يلتمس مشورته السفراء ورؤساء الأساقفة والأساقفة وكان يجيب على كل ذلك بعبارات موجزة ودقيقة اعتبرت مادة للإجتهاد والقضاء وشكلت القاعدة التي اعتبرها الأخصائيون فتاوى بابوية جاءت تكملة للمرسوم أي الحق القانوني المدون منذ فترة في مجموعة أعدها غراتيانوس. ففي منتصف القرن الثاني عشر، كان الأخذ بهذه الطريقة نادراً لأن البابا كان، من جهة قلّما تفهم أقواله، ومن جهة أخرى لم تكن القرارات التي يصدرها والإجراءات التي يتخذها أو يقرها تلاقي، بالضرورة، موافقة الجميع، في حين أنه في المرحلة التالية تكاثرت الفتاوى البابوية. ونستنتج ذلك من الإحصاءات التي نجدها في «مجموعة القوانين التشريعية» التي تحتوي على أبرزها ابتداء من سنة 1143، ورسخ هذا التطور مجد السلطة البابوية. ومن سنة 1143 حتى سنة 1159 لم يوقع البابوات سوى تسع مرات على القانون الرسمي للكنيسة. ثم يصدر الكسندر الثالث 470 فتوى، والأحبار الذين خلفوه حتى سنة 1198 أصدروا 215 فتوى، وإينوشنسيوس الثالث (1189 ـ 1216) أصدر 596 فتوى، وأصدر خلفاؤه حتى نهاية حبرية إينوشنسيوس الرابع (1254) أكثر من 400 فتوى بقليل (البعض منها مدون في ملاحق «المجموعة»). فهذه التنظيمات تعني مسائل كثيرة التنوع: أحكام قضائية، وسائل اللجوء إلى الكرسي الرسولي، إدارة الأبرشيات، وحقوق الأساقفة وامتيازاتهم. وعندما تدعو الحاجة، في الظروف الإستثنائية، اتخاذ قرارات علنية في شأن قضايا شائكة تهم المسيحية ككل، وعندما يكون من الضروري إعلان معتقد هام أو تفسير موقف، يدعو البابوات إلى مجامع مسكونية فتصبح هذه المجامع السلطة العليا للتشريع. عقد المجمع الأول في كنيسة القديس حنا في لاتران، في نهاية معارك تعيين الأساقفة لتعميم الحلول المقترحة لهذه المشكلة وما ينتج عنها (1123). واستُؤنِف العمل، الذي ينجز حينئذٍ سنة 1139 في مجمع ثانٍ عقد في الكنيسة نفسها، وسوّى، في الوقت نفسه، الصعوبات الناشئة عن الإنتخابات البابوية المزدوجة (إينوشنسيوس الثاني وأناكليت) وعن الانشقاق الحاصل سنة 1130. وبالطريقة نفسها دعا ألكسندر الثالث سنة 1179 المجمع الثالث في لاتران في نهاية الخلافة مع فريديريك بربروس. وفي سنة 1215 يرئس إينوشنسيوس الثالث أهم الجلسات في تاريخ العصر الوسيط (المجمع الرابع) الذي نوقشت خلاله كل الموضوعات التي تهم العقيدة والكنيسة والمسيحية وسنة 1245 عقد مجمع ليون

الأول لإدانة فريديريك الثاني وفي 1274 عقد مجمع ليون الثاني لتأكيد اتحاد الكنائس ومحاولة استئناف الحرب الصليبية غير أنه يجب ألا نقع في المغالطات فالمجامع المسكونية التي عقدت في الغرب، في حين أن مجامع العصور الأولى كانت شرقية، لم تكن اجتماعات تشريعية. لقد دعيت وعقدت وترأسها البابا الذي كان هو وحده يضع جدول الأعمال وهو وحده يحدد الحلول والقرارات، مستمزجاً آراء الأساقفة دون أن يضطر للأخذ بها. والقوانين الأساسية التي كانت توضع هكذا وتنال الموافقة لا تصبح نافذة إلا إذا أراد هو لأنه وحده الذي ينشرها فالمجمع هو إذاً الأساس الذي يتيح للبابا التعبير عن سلطته على مجموع الإكليروس والأساقفة، وهو يمجد ويعلي من نفوذه. غير أنه كما يجمع كل أحبار الكنيسة اللاتينية فهو يمثل المسيحية مجتمعة.

وهكذا يتم لمصلحة الكرسي الرسولي حصر للسلطة يصحبه تركيز إداري كان من الصرامة بحيث كان يخشى معه، بشكل عام، عناصر التفكك (الهرطقات وغيرها...) ويشرف البابا على الأساقفة ويراقبهم بوسائل مختلفة، كما يراقب الكهنة والرهبان وجميع رجال الدين والمؤمنين: كل الأفراد وكل الجماعات. ويرسل لهذه الغاية سفراء يفوضهم سلطاته فينظمون باسمه الأمور التي يكلفون بها. وعندما تعاظم خطر الهرطقات وظهر أن الهيئة الأسقفية لم تكن دائماً صارمة في قيادة المعركة حلت محلها، في السنوات 1230، محاكم التفتيش الرومانية التي شكلت، إلى حد ما، الشرطة البابوية ومحاكم استثنائية. غير أن بعض البابوات ظلوا حتى منتصف القرن الثالث عشر يعترفون بحقوق متميزة للأساقفة، حتى ألكسندر الثالث أكثرهم تمسكاً بالمركزية وإينوشنسيوس الثالث، أكثرهم تسلطاً: فلم يثيرا أي شكوك حول الإنتخاب الحر الذي كان يمارسه كهنة المجمع الكاتدرالي. وعلى العكس من ذلك، حاول بعض البابوات - بتأثير من الأحداث الضاغطة - من أجل الحصول على أساقفة مؤيدين للبابوية في بعض المدن الإيطالية حيث انتصرت القوى الإمبريالية إبان الخلاف مع فريديريك الثاني، أو بمقتضى بعض الحقوق الاستثنائية، حاولوا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر الإقلاع عن هذا الموقف. وفي سنة 1265، يقرر إكليمنضوس الرابع بأن لخليفة بطرس سلطاناً لتسمية الوظائف الكبرى والصغرى، وهو يلمح إلى أنه عندما لا يفعل ذلك فهذا عائد لتسامحه. فالحريات الممنوحة تشكل خروجاً على القاعدة، أي امتيازات. وفي نهاية القرن أصبحت

التدخلات الحبرية في تعيين الأساقفة أكثر حدوثاً، وأصبح التعيين المباشر الطريقة المألوفة في العقود التالية، على الأقل بالنسبة إلى عدد كبير من الأبرشيات. وإذا أضفنا أنه، عن طريق الحصانة ووسائل أخرى، تراقب البابوية القسم الأكبر من المؤسسات الرهبانية والدينية التي لم يكن لها وجود شرعي لولا موافقتها، نستنتج أنه، حوالي سنة 1300 اكتسبت الكنيسة الكاثوليكية في الغرب بنى ملكية . والبابا، رأس هذا الجسم الروحاني أي المجتمع المسيحي، هو ملك هذه المملكة. وروما هي العاصمة الحقيقية لهذا المجتمع، لهذا العالم المسيحي، وإن عقد المجامع المسكونية في كاتدرائية لاتران شاهد على ذلك. والإجتماعات التالية عقدت في ليون، أولها لأن البابا اضطر إلى ترك إيطاليا هرباً من مخططات فريديريك الثاني، والثاني لأن غريغوريوس العاشر أصر على الابتعاد عن مناورات السياسة الإيطالية ومخاطرها . وفي المدينة الخالدة تركزت أجهزة الإدارة الأساسية التي ما فتئت تقوى بمقدار ما تترسخ السلطة المركزية وتنحصر. وكان يعاون البابا مستشار (أو نائب مستشار) وحاجب وغافر (كاهن مولج بمنح الغفران) ومحضرو الأحكام. يكلف مجلس المستشارية بالإدارة العامة وجميع العلاقات مع الخارج، وللمجلس صلاحياته في موضوع المال. ودائرة الغفرانات التي تنظم القضايا الضميرية تقوم بوظيفة روحية، ومحضرو الأحكام يساعدون البابا في القيام بمهامه القضائية. غير أنه فوق هذه الأجهزة الإدارية، يأتي مجمع الكرادلة الذي أصبح المؤسسة الأساسية للحكومة الرومانية. والكرادلة الذين يعينهم البابا لم يلبثوا أن رأوا نفوذهم وسلطتهم ينموان. وفي عهد إينوشنسيوس الثالث لبسوا الأرجوان وفي عهد إينوشنسيوس الرابع اعتمروا القبة الحمراء، وإليهم أوكلت البعثات الأساسية ودراسة أدق القضايا، وإليهم بالدرجة الأولى، يعود أمر اختيار الرئيس العالمي للكنيسة بأكثرية الثلثين منذ سنة 1179 وهم المستشارون الدائمون للحبر الأعظم الذي يستشيرهم بشكل إفرادي أو يجمعهم للمسائل الخطيرة مكلفاً هذا الاجتماع غالباً أمر إصدار الأحكام القضائية النهائية. إنهم يشاركون هكذا في صلاحيات البابا المسكونية وهم يمثلون معه، ولكن تحت إشرافه ـ ما عدا وقت الانتخاب الذي يكونون فيه سلطة تنفيذية فقط ـ يمثلون المسكونية في الكنيسة الرومانية، فهذه تحتوي كل الكنائس الأخرى التي ليس لها من شرعية إلا إذا كانت في شراكة معها وإلا إذا كان أحبارها، بطريقة مباشرة، على اتصال بها أو تحت إشرافها. فهذه الكنيسة الرومانية التي تؤكد أنها هي

التي أسست هذه الكنائس وأنه لا إيمان بدون اتفاق معها ولا إيمان خارجها وخارج معتقدها.

السلطات الكاملة

والبابا، رأس الكنيسة وسيد العالم المسيحي، يمكن أن يعتبر أيضاً زعيماً سياسياً تعلو سلطته سلطة الإمبراطور والملوك وله القدرة على ممارسة سلطانه عليهم أو على مواجهتهم بواسطة قرارات يتخذها، وهم مضطرون لأخذها بعين الاعتبار. والكنيسة، كهيئة روحية، تشمل عملياً كل المجموعات البشرية وجميع الأفراد. وتضم انطلاقاً من هذا الواقع كل المؤسسات ـ ومن ضمنها المؤسسات السياسية. ومن الطبيعي إذاً أن يشرف عليها الرأس ويديرها جميعاً. الغريغوريون لم يكن تفكيرهم مختلفاً عندما أعلنوا سيادة البابا الوحيدة في العالم مصرين على دمج دائم للأرضيات بالروحانيات، غير أنه في النصف الثاني من القرن الثاني عشر وعلى امتداد القرن الثالث عشر، بالاضافة إلى تطور الأفكار التي حتمت التبديل، حدثت بعض الخلافات مع السلطات السياسية حملت البابوية على تنقية العقيدة على حساب التفكير الجديد.

من بين هذه الخلافات تلك التي وضعت الكرسي الرسولي وجهاً لوجه مع ملك إنكلترا وملك فرنسا، وكانت عادة خلافات زهيدة، ما عدا تلك التي وقعت في السنوات الأخيرة من تلك المرحلة بين فيليب الجميل (Lebel) وبونيفاس الثامن فيما يخص المعارك مع الإمبراطورية التي دخلت التاريخ تحت اسم معركة الإكليروس مع الإمبراطورية.

وكانت إيطاليا بشكل عام هي هدف المعركة، فالأباطرة من سلالة سْتوفِنْ يريدون الهيمنة عليها وحكمها في حين أن البابوات كانوا يعارضون ذلك بحجة أن السيطرة الجرمانية على شبه الجزيرة ستمتد حتماً إلى ولايات الكرسي الرسولي وتحرم البابوية من حرية العمل وتسيء إساءة كبيرة إلى الكنيسة والدين وسلامة النظام وإلى النظام الذي أراده الله. وفي منتصف القرن الثاني عشر أصبح فريديريك بربروس ملكاً على ألمانيا وإمبراطوراً بعد مرحلة ضعفت فيها السلطة الإمبريالية على أثر الخلاف الناشىء حول تعيين الأساقفة، فعزم على أن يعيدها إلى كامل قوتها،

الأمر الذي يضطره إلى تثبيت سلطته جنوبي جبال الألْپ، فيصطدم بالبابوية. وفي سنة 1159 حاول التدخل في الإنتخابات الرومانية للمجيء بحبر يكون مخلصاً له فلم يستطع منع الكرادلة المناوئين لسياسته وهم الأكثرية الساحقة، ومن انتخاب واحد منهم، هو ألكسندر الثالث بينما الموالون للإمبراطورية ينتخبون حبراً آخر. فقرر عندئذٍ العمل بقوة السلاح لإخضاع الإيطاليين الذين يرفضون سيادته المباشرة ولنصرة البابا الذي يؤيده، فيحرمه ألكسندر الثالث ويتوصل الحلف اللومباردي المؤلف من حوالي عشرين مدينة، إلى دحره في لِينْيانو سنة 1176، ولكنه يستسلم في السنة التالية فيعترف بألكسندر الثالث حبراً شرعياً وحيداً ويجد طريقة للتعايش مع المدن اللومباردية. وهكذا ضمنت الكنيسة الرومانية حرية العمل، ولقاء ذلك رُفِعَ عنه الحرم.

وبعد أن هدأت الإحتجاجات لبضع سنوات، أقله في الظاهر، عادت فتأججت في عهد هنري السادس بن بربروس ولكنها لم تدم طويلاً بسبب الموت المبكر لهذا الأمير سنة 1197. ثم انطلقت شرارتها من جديد في عهد إينوشنسيوس الثالث بطريقة فريدة. ففي بداية حبريته لم يتوصل الأمراء الناخبون الألمان إلى الاتفاق فعينوا ملكين لألمانيا كمرشحين للإمبراطورية: فيليب دو سوابْ، من آل سْتوفِن، شقيق الملك المتوفى، وأوتّون دو بْرانْسْڤيكْ، من عائلة ڤِلْفْ التي كانت منذ ثلاثة أرباع القرن منافسة لآل سْتوفِنْ. فتوجه الملكان المنتخبان نحو البابا الذي أصبح حكَماً على الإمبراطورية فاختار أوتّون. وبعد عدة سنوات يستأنف هذا الأخير، وبعد موت فيليپ، السياسة العدوانية ضد إيطاليا، فكان لا بد من الانتقام منه. ففي سنة 1210 يتعرض للحرم، وبعد ذلك يبارك الحبر الأعظم اختيار بعض الناخبين لفريديريك الثاني بن هنري السادس. ويحقق الكرسي الرسولي انتصاراً في هذا الأمر بعد أن تخلى الجميع عن أوتون فخَفَت بريق مجده بعد الهزيمة التي يلحقها به، في بوڤيا، ملك فرنسا فيليپ أوغست (1214).

غير أن فريديريك الثاني ملك صقلية التي ورثها عن أمه، لم يلبث طويلاً حتى برز عدواً خطيراً. وكونه أيطالياً أكثر منه جرمانياً حاول باكراً أن يضع يده على شبه الجزيرة غير مبال بحرية الكنيسة الرومانية، إلى درجة أنه لم يَرْعوِ عن وضع المدينة (روما) تحت وصايته. وإذ خمدت في عهد هونوريوس الثالث، جذوة الخلاف الذي

وُضِعَ حد له في بداية حبرية غريغوريوس التاسع الذي حرم الإمبراطور سنة 1227 ثم تصالح معه سنة 1230، عاد فتجدد بشكل عنيف سنة 1235، ويعود الحلف اللومباردي فيتشكل من جديد، ويؤلف الإيطاليون، أعداء الملك، الحزب الڤِلْفي (باسم الخصم التقليدي لآل ستوفِن في ألمانيا) بينما أنصاره الجيبيلان (Gibelins) (نسبة إلى الإسم الإيطالي لأحد قصور العائلة في سوابْ) فيسحقه فريديريك ويحُرم من جديد، فيهدد مباشرة روما التي لم يستطع إينوشنسيوس الرابع خليفة غريغوريوس التاسع، أن يصمد فيها فيلجأ إلى ليون حيث يدعو إلى مجمع للموافقة على خلع الإمبراطور (1245). وبعد هذه القطيعة النهائية تزداد المعركة حدة، وتنتهي فجأة سنة 1250 على أثر الموت المفاجىء للإمبراطور المهزوم... وتستخدم البابوية عندئذٍ سلطاتها بقوة لمنع أي كان من آل سْتوفِنْ من الحصول على عرش صقلية والحؤول دون إيصال أي أمير، مهما كانت قوته، إلى سدة الإمبراطورية. وغدت البابوية سيدة اللعبة.

لقد اتخذت، خلال هذه المعارك، قرارات غير عادية، حارمة الأباطرة والمرشحين إلى الإمبراطورية، خالعة أحدهم، فاصلة في الخلاف بين مرشحين لتعيين من وجدته شرعياً ودعمه. لقد عبرت هذه القرارات وأبرزت ما دعته البابوية نفسها والمنظرون «السلطة الكاملة». إنها سيادة غير محدودة.

ومن أجل تدعيم هذه السيادة، كان من المستحيل العودة إلى الأدلة التي استنبطت في العصر الغريغوري، لأن الآراء تبدلت تبدلاً جذرياً، وإن هذا التبدل الناشىء عن الازدهار الإقتصادي، والتحولات في المجتمع، وإلى إحياء القانون الروماني الذي قوى السلطات العامة، وإلى تطور الملكيات، أدّى إلى تسليط الأضواء على انفصال هذين القطاعين، ففي النصف الثاني من القرن الثاني عشر قدر القانونيون هذا الإنفصال حق قدره، فنتج عنه أن المناصب التي تدير وتوجه أصبحت ذات سيادة ذاتية، مستقل الواحد منها عن الآخر، ولكلٍ منها ملء الصلاحية في مجاله. يُنتخب الإمبراطور من قبل الأمراء وليس مرتبطاً بالبابا. والبابا يختاره الكرادلة ولا شأن للإمبراطور معه. ولكن، بالمقابل، فإن السلطتين يجب أن تتعاونا من أجل خلاص الجنس البشري وخلاص كل مسيحي. وكل ذلك يعني التخلي عن المواقف الغريغورية والعودة إلى الإزدواجية الجيلاسية (نسبة إلى جيلاسيوس). غير أن البابوية

كانت تشدد، أكثر مما تفعل النظرية البدائية، على التفوق الطبيعي للسلطة الكنسية التي هي من النوع الروحي. وكانت تسعى لتوسيع مجال صلاحياتها بتكريس الأشياء التي لم تكن مكرسة، وعلى سبيل المثال، كل ما يضمن حرية الكنيسة المرتبطة بالحرية الوحيدة للكرسي الرسولي، وبالتالي حرية الدويلات البابوية، وبعدها أملاك البابوية والكنائس. ويبقى أن نذكر أن القطاع الروحي، بالرغم من هذا الاتساع، لم يشمل كل شيء فظل يحافظ على وجود زمني منفصل ومستقل استقلالاً ذاتياً.

وباسم هذا الدفاع عن الكنيسة ومصالحها يحرم البابا ألكسندر الثالث فريديريك بربروس الذي دعا إلى مجمع ليقرر من هو البابا الشرعي ـ لقد تدخل في مجال لا يعنيه ـ وقد حرم غريغوريوس التاسع فريديريك الثاني لتعديه على حقوق الكرسي الرسولي وعدم احترامه التزاماته، ولكن هذا المذهب لا يعلل إقالة فريديريك الثاني سنة 1245، ولا التحكيم الذي أجراه إينوشنسيوس الثالث بين المرشحين للإمبراطورية ولا القرارات الأخرى. لقد أدى إلى الموافقة على أن السلطتين هما مستقلتان استقلالاً تاماً، الأمر الذي يدمر فكرة المسيحية بالذات لأن المسيحية اندمجت بالكنيسة ويجب أن تخضع بالدرجة الأولى للبابا. ويثبت إينوشنسيوس الثالث، موحي المسيحية ورائيها، الدليل التيوقراطي انطلاقاً من الإزدواجية لمصلحة البابوية بشكل حاسم.

ويوضح، بالنتيجة، أن السلطتين مختلفتان ومنفصلتان، وكلتاهما تتفقان مع إرادة الله. ففي الظروف الطبيعية، تحكم كل منهما قطاعها كما يحلو لها من أجل مساعدة الناس لبلوغ السعادة الابدية بالتمسك التام بالإيمان وباحترام القيم المسيحية. غير أنه في بعض الحالات تستطيع الكنيسة مواجهة السلطة السياسية، من جهة عندما يمارس السلطة السياسية خاطىء كبير ويصر على ضلاله وخطيئته إلى حد الإساءة إلى الخلاص العام ـ ويتساءل إينوشنسيوس الثالث: ماذا يحل بالجنس البشري إذا كان الإمبراطور مجنوناً أو ملحداً؟ ففي هذا الوضع، على الكنيسة أن تعمل: إنها تحرم، وإذا لزم الأمر، تمنع الخاطىء من القيام بمهماته وتقيله، وإن قرارات بهذا العنف وهذا التسلط لا يمكن أن تصدر إلا عن الحبر الروماني الذي هو عندما يكون مجنوناً أو ملحداً يجب أن يخضع لحكم المجمع. ومن ناحية أخرى عندما تطرأ في العالم المسيحي مشاكل لا يستطيع أي منصب زمني أن يحلها ـ مثل

اختيار بين أميرين منتخبين للإمبراطورية ـ فعلى البابا أن يتدخل من جديد، في هذه «الضرورة الملحة» وعليه أن يقرر.

ويبلغ هذا التوضيح حد التأكيد على أنه ليس من سلطة حقيقية على هذه الأرض سوى سلطة الحبر الروماني الذي لا يمارسها مباشرة عندما تكون الأمور على ما يرام، ولكنه يستطيع أن يتدخل، بشكل مناسب عندما يستدعي ذلك الصراع ضد الخطيئة وعندما يجب إعطاء حل لمسألة خطيرة، حتى ولو كانت سياسية (قضية ملحة). ويضيف إينوشنسيوس الثالث إلى ذلك أن للبابا حقا خاصاً على الإمبراطور لأن هذه المهمة السياسية العليا تتفوق قيمة وقدراً على مهمة الملوك الآخرين لأنه يحمل رسالة خاصة كلفه بها الله بأصوات الأمراء، وهي تقوم على توجيه مصائر العالم المسيحي الساعي إلى بلوغ المدينة السماوية. فهذه الرسالة تربط الإمبراطورية ربطاً وثيقاً بالكنيسة بأصولها وغاياتها. وعلى رأس الكنيسة يوجد، إذاً، البابا والإمبراطور. فيجب أن يكون هذا الأخير أهلاً لمسؤولياته، ويعود للبابا التأكد، بعد الإنتخاب ممّا إذا كان يستجيب لهذه الشروط ويجب عليه أن يراقبه. . . والإمبراطور، الرئيس الزمني للعالم المسيحي، هو دون البابا منزلة، فليس هو مرتبطاً به ولكنه تحت إشرافه. زد على ذلك أن رئيس الكنيسة الرومانية وحده يتمتع بالسيادة، وليس للإمبراطور والملوك سوى ممارسة هذه السلطة وعلى نطاق محدود (قضائياً وإقليمياً). هذه السلطة هي حق مطلق للكرسي الرسولي. يتمتع البابا بها لأنه نائب المسيح وليس فقط نائب بطرس وله تلك القدرة التي لم يمارسها المسيح، فعلياً، على الصعيد الزمني، ولكنه كان استطاع ممارستها لأن ابن الله هو فعلاً سيد العالم. وفي أحرج أوقات الصراع ضد فريديريك الثاني، يعود إينوشنسيوس الرابع إلى هذا المعتقد فيعززه ويسمو به إلى حد يمكن التساؤل معه أي شيء يمكن أن يخرج عن سلطان القضاء البابوي.

إن ملك الملوك نصّبنا على الأرض كوكلاء عالميين ومنحنا كامل السلطة بإعطائنا، أمير الرسل ونحن، سلطة الربط والحل على الأرض، ليس فقط ربط وحل أي شيء بل أي كان. يستطيع الحبر الروماني أن يمارس سلطته الحبرية على كل مسيحي، على الأقل عند اللزوم، وخاصة في شأن الخطيئة. إن سلطة الحكومة الزمنية لا يمكن أن تمارس خارج الكنيسة لأنه ليس من سلطة من الله خارجها. إن

سيدنا يسوع المسيح ابن الله الإنسان الحق والإله الحق، الملك الحقيقي والكاهن الحقيقي، أسس لمصلحة الكرسي الرسولي مملكة ليست فقط حبرية بل ملكية. وكون البابا نائباً للمسيح، لقد تلقى سلطة ممارسة قضائه بواسطة أحد (مفاتيح المملكة) على الأرض بخصوص الأشياء الزمنية وبالمفتاح الآخر الأشياء الروحية. إله واحد، إيمان واحد، كنيسة واحدة، مسيحية موحدة سيادة وحيدة: تلك هي الرؤيا المثالية لأوروبا في القرن الثالث عشر، التي تمنى تحقيقها البعض بحرارة وقبلها الكثيرون بحماسة لأنها تخدمهم وتقويهم. رؤيا تميز العقول وتكيف الذهنيات بتمجيدها نفحة عالمية نجدها في الثقافة، وذلك بربط مفهوم العدالة، أكثر من أي وقت آخر (كل إنسان في مكانه، ولكلٍّ ما يتوجب له) بنظام أخلاقي حددته الكنيسة ووضع الكنيسة تحت سلطة البابا، الأمر الذي يعطي الكاثوليكية فرادتها الأساسية.

الجمهورية المسيحية

ويستعيد إينوشنسيوس الثالث تشبيها استعمل قبله فيصرح بأن السلطة الحبرية هي كالشمس التي تضيء وتنير العالم وبأن سائر الكواكب - التي هي السلطات الأخرى - تتلقى منها النور الذي تعكسه. وهذا ما يدفعنا إلى القول مرة أخرى إن العالم المسيحي يشكل دولة واحدة ذات سلطة واحدة عليا، وإلى التأكيد في الوقت نفسه على شرعية السلطات الأخرى وعلى تعاونها وتفاهمها الطبيعي مع السلطة الحبرية. وهكذا بدت أوروبا المسيحية نوعاً من اتحاد الممالك والإمارات والجماعات موزعة السلطات ولكنها ظلت، مباشرة أو غير مباشرة، وتبعاً للقضايا والحالات، تحت إشراف الكرسي الرسولي الذي كان يعاونه الإمبراطور الذي كان على اتصال وثيق به.

وخارج هذا الإشراف الذي يعني بنوع خاص عدم الالتزام بالقيم المسيحية والمسلكية الضرورية للخلاص، فالبابوية توحي وتحرك المشاريع الكبرى التي هي في الوقت نفسه زمنية ودينية وتشرك بين المصالح السياسية والكنسية ولكنها تفهم وتعرض كمشاريع ضرورية للدفاع عن العالم المسيحي مفيدة لتكامله وعظمته. والحقيقة أن بعض هذه المشاريع قابل للنقاش لأنها أنجزت إبان حرب الإكليروس مع الإمبراطورية وأكثر الأحيان في فترات العنف والحرب من أجل مصالح من الصعب وصفها - سنعود إلى الحديث عنها. ولكن بعضها الآخر نشأ عن طبيعة

«الدولة المسيحية» بالذات، وهكذا نرى البابا يتدخل، في عدة مناسبات، لإعادة السلام بين الأمراء وخاصة بين ملك فرنسا وملك إنكلترا؛ أو ليمنع الإضطرابات الاجتماعية الحادة (اتخذ البابا إينوشنسيوس الثالث موقفاً معادياً للوثيقة الكبرى[1] واستنكر الاضطرابات التي أدت إلى فرض هذه الوثيقة المطلبية). وهناك سلسلتان من المبادرات أبرزت، بقوة، دور قائد العالم المسيحي هما: الحرب الصليبية والجهاد ضد الهراطقة.

وكانت الحرب الصليبية، كما رأينا في الأصل، شأناً بابوياً لأن رائدها كان البابا أوربانوس الثاني منظم الحملة الأولى وقائدها الرسمي بواسطة سفيره. وخلال القرن الثاني عشر كان يلجأ دائماً إلى البابوية عند إطلاق عمليات جديدة. غير أن هذه العمليات كان يقوم بها، أحياناً، أثناء تنفيذها علمانيون. والحملتان الثانية والثالثة نظمهما وقادهما ملوك وفي عهد البابا إينوشنسيوس الثالث عاد دور البابوية إلى الواجهة، وعادت الحرب الصليبية من جديد مشروعاً رومانياً دعيت لتنفيذه السلطات السياسية. ومنذ ارتقاء هذا البابا عرش بطرس حدد استراتيجية الهجوم الذي يريد تنظيمه وأهدافه فقام بحملة ديبلوماسية للحصول على أحلاف ولقد أساء إلى الحملة، دون أن يقصد، بإشراك بيزنطة في المشروع، الأمر الذي أثار المطامع الغربية عن الأهداف المحددة، وكان من نتيجة ذلك أن هذه الحملة الرابعة لم تتعدّ القسطنطينية حيث استقر فيها اللاتينيون محتلين. غير أن البابا لم يحبط، فلقد وضع مشروعاً جديداً وعرضه بشكل رسمي أمام 1200 حبر مجتمعين في مجمع لاتران الرابع (1215) وعمل على الموافقة عليه، وبتأثير من هذا الضغط السلطوي تنظمت حملة وصفها المؤرخون بالحملة البابوية. لقد جمعت فاعليات عظيمة ألمانية ونمساوية وهنغارية ودانماركية وفريزونية وفرنسية إلى حد أنها ظهرت أعظم من جميع سابقاتها ومن ضمنها الحملة الأولى. انطلقت سنة 1217 بعد موت إينوشنسيوس الثالث، ووضعت تحت إشراف السفير البابوي الكاردينال النشيط پيلاجْ، ولكنها فشلت في النهاية، ولكن ذلك لم يمنع هونوريوس الثالث وغريغوريوس التاسع من الطلب إلى فريديريك الثاني أن يقوم هو بالمهمة وحجتهما أن هذا هو أول واجبات الإمبراطور

(1) Magna Carta شرعة مطلبية فرضها بارونات إنكلترا على الملك جان سان تير Jean Sans Terre سنة 1215 وهي تضمن الحقوق الإقطاعية ومراقبة الضرائب من قبل المجلس الأعلى في المملكة.

وقد خُدِع البابوان بهذا الإمبراطور المحروم الذي سافر، مع ذلك، إلى الشرق وتفاوض مع المسلمين وأحرجا بالمعركة التي سيقودانها ضده، فتخليا لبعض الوقت عن الاهتمام بها كقضية أولى. ولكن في سنة 1274 يطلق البابا غريغوريوس العاشر نداء علنياً جديداً للعالم المسيحي في مجمع ليون الثاني ويتحدث في الموضوع مع ملوك إنكلترا وفرنسا وألمانيا ونابولي، وقرر أن يجمع ضرائب العشر في العالم المسيحي من رجال الدين لتمويل العملية: على الجنود والأمراء أن يقاتلوا وعلى الإكليروس أن يساعدهم بالمال والصلاة كي لا تخرج الأماكن المقدسة من حوزة العالم الكاثوليكي، غير أن العملية المقترحة لم تبصر النور أبداً.

ومن أجل مواجهة الهراطقة من ڤالديين [1] وطهريين [2] وغيرهم، من الذين أقلق نجاحهم الكرسي الرسولي منذ منتصف القرن الثاني عشر وحملوه على إقامة محاكم التفتيش؛ دعيت السلطات السياسية للإسهام في العمل الذي حددته البابوية، فوضع أولاً برنامجاً على أعلى مستوى، هو برنامج البابا والإمبراطور اللذين تقوم مهمتهما الزمنية على حماية الكنيسة. وفي سنة 1184 وضع لوقيوس الثالث وفريديريك بربروس الطريقة التي يجب أن تتبع، وقد صدرت فتوى بابوية تحدد بأنه يعود إلى السلطة الكنسية أمر البحث عن الجريمة والحكم عليها - تحديد جريمة الملحد - ويعود إلى السلطة المدنية أمر تطبيق العقاب الزمني المحدد (حجز أملاك، سجن) وراح الملوك والأمراء يعاونون الكنيسة في الأعمال القمعية، غير أن كونت تولوز أبدى تحفظاً وإحجاماً إلى درجة أنه ضايق بقوة السفير البابوي الذي أصيب بجراح، عن طريق الخطأ، من قبل رجال الكونت، فجرد البابا إينوشنسيوس الثالث كونت تولوز من كل أملاكه وإقطاعاته متدخلاً هكذا بطريقة سلطوية في المجال الزمني، فطلب من الإقطاعيين الهيمنة على هذه الأراضي وقطع دابر الإلحاد، فينظم هكذا حملة المسيحية بأكملها، يدعوها هو نفسه «مشروع الإيمان والسلام»: الحملة الصليبية ضد الألبيجيين (فئة من الطهريين).

---

(1) فرقة مسيحية تنتسب إلى پيار ڤالدو ظهرت في فرنسا في القرن الثاني عشر وكانت تستبعد كل ما ليس موجوداً في التوراة. - م -

(2) فرقة مانوية ظهرت في العصر الوسيط وانتشرت في جنوبي فرنسا خاصة وكانت تنادي بطهارة مطلقة في الأخلاق. - م -

جماعة الكنيسة وطبقة الملوك

يحسب النظام البابوي حساباً للسلطات القائمة إلى جانب الإمبراطور ودونه، أي الملوك، لأنهم جزء من التنظيم الذي أراده الله، ويُعَبِّر عنه، إما بالإنتخاب أو بالوراثة، وهم مؤهلون لكي يطبقوا هذا النظام، وقد اقتنعوا هم بهذا الأمر واعتبروا أن الغاية الجوهرية لوظيفتهم هي التنظيم المؤقت للمجتمع لكي يساعدوا الناس على عمل خلاصهم. لقد جعلوا أنفسهم منظمي المسيحية، وكل واحد منهم يتمتع في مملكته بسلطات خاصة وجميعهم يعتمدون على البابا ليدافع عنهم ويخميهم، لأنهم جميعاً تحت سلطته العليا التي تعمل باسم الدين والأخلاق، يحافظون على التراث المسيحي، ولا يحجم الكرسي الرسولي عن التدخل ضدهم ليذكرهم بالمحافظة على القوانين وليجبرهم على التخلي عن المشاريع التي تعتبر خطرة على الكنيسة: وهكذا يرفض البابا إلغاء زواج فيليب أوغست ويضع مملكة فرنسا تحت الحرم، ويعلن سقوط جان سان تيرSan Terreعندما يسيء هذا إلى رئيس أساقفة كانتربري؛ ولكنه لا يسمح للشعب باتهام السلطات الملكية التي تعتبر شرعية فيخالف بذلك شروط الشرعة الكبرى التي يستنكرها على اعتبارها عملاً «دنيئاً ومخجلاً وممنوعاً» تسيء إلى الحق الملكي.

إن الأنظمة الملكية هي، إذاً، أدوات للعمل الإلهي والنشاط الكنسي في مجتمع مؤلف من تعايش جماعات مختلفة تضمها ممالك هي بدورها متحدة في ظل المسيحية. ففي هذه الجماعات تعتبر العائلة هي الخلية الأساسية وأنه منذ العصور الكارولنجية، وبالرغم من بعض التقهقر في بداية القرن الحادي عشر والمقاومات الحادة غالباً في الأوساط الأرستقراطية، نجحت الكنيسة بفرض تعاليمها الخاصة بالزواج الخارجي (من خارج العائلة) بموافقة متبادلة وفردية من الزوج والزوجة، غير أن تنفيذ هذا المخطط كان بطيئاً، وكان عليه أن ينتظر نهاية القرن الثاني عشر وبداية القرن الثالث عشر لكي تُراعى الممارسة المسيحية فعلياً وواقعياً، وكان تنظيم ألكسندر الثالث، المستوحى من تشريع غراتيانوس، حاسماً في هذا التطور، ولكن ذلك لا يعني أن الأهل لن يتدخلوا بعد اليوم في البحث عن صهر أو كنة. جرت صفقات زواج لم تحضر سلفاً، ولكن على الصعيد الإجتماعي والأخلاقي نشأت عادات تقضي بأن توافق الفتاة على الزواج بملء حريتها حتى ولو كانت خاضعة

للضغوط ـ وأن الاتحاد الزوجي يُعدها لإنجاب أولاد لزوجها يكونون هم وحدهم شرعيين ولتربيتهم في ظل السلطة الزوجية إلى يوم يصبح بإمكانهم هم أن يؤسسوا عائلة جديدة. إن النظام الزوجي الذي وضع هكذا والذي تسبب أيضاً عن التطور السكاني والتقني، يؤدّي إلى إيقاف كل تحول مفرط لمصلحة الفردية ويحول دون أن تصبح جماعة بشرية ما متقوقعة على ذاتها وقادرة بإشراف القوى العامة دون سواها، على فعل الأسوأ والأفضل، ويمنع بالمقابل، أن يظل الفرد خاضعاً كما في العائلة التقليدية، لسلطة يخشى أن تعتبر غريبة حالما لم تعد تشعر بروابط الدم القوية. ويشكل أخيراً، الإطار الذي يمكن للإنسان أن ينطلق ضمنه ويَبسم في العمق تاريخ أوروبا.

والجماعة المسؤولة عن الأسقفية هي فوق العائلات وهي التي تجمعها. والجماعة هذه هي في الأرياف، هي في القرية مع كاهنها، وأكثر الأحيان مع سيدها الإقطاعي أو سيد قصره. فهذه الفئة هي الأولى في الحياة الإجتماعية: إنها تقرن السلطة بالعمل وتشدد على تناسق وتعاون بين الناس، وتتجمع فئات أخرى في أبرشيات (أسقفيات) مدينية في المدن التي تشكل جماعات معقدة ولكنها متآلفة، حيث يجب أن يقوم توازن بفضل عمل الطبقات الشعبية المختلفة وإنتاجها. وهناك أيضاً وسائل أخرى للتجمع. واستمرت الأنساب النبيلة بالرغم من التأكيد على العائلة الزوجية. لقد عاشت في العلاقات الفروسية الأصيلة وتنظمت المهن منذ القرن الثاني عشر وعلى مدى القرن الثالث عشر. وانطلاقاً منها، غالباً، تنسقت المؤسسات المدنية، وتماسكت الجماعات القروية هي أيضاً، وتَجْمع الأخويات الدينية أصحاب المهنة الواحدة، وسكان الحي الواحد، والمكرَّمين لقديس واحد. والكنيسة تعتبر هذه الجماعات طبيعية مألوفة أي مطابقة للنظام الإلهي، ويبرهن اللاهوتيّون بأنه لا تناقض بين القانون المسيحي والحق الطبيعي، وتعلِّم بأنهم مندمجون بشكل طبيعي وأنهم يجب أن يتعاونوا. والتجارة، إحدى حاجات الحياة الاجتماعية، هي أيضاً من دواعي التحاب؛ والمال، الأداة الضرورية للاقتصاد، يؤول إلى الأغنياء ليوظفوه في خدمة الجميع ولمصلحة الفقراء أولاً. ففي كنف هذه التجمعات الطبيعية يعيش الناس ويتكاملون، يوجههم رجال الدين ويقدمون لهم المشورة، يساعدهم الملوك والمسؤولون السياسيون الذين يضمنون لهم العدالة والسلام الإجتماعي، وتمارس البابوية على الأفراد والجماعات هيمنتها المطلقة.

ففي هذا النظام المسيحي، تمتلك السلطات العاملة للخير العام وسائل تقوية ذاتها في نطاق تأكيدها على أنها تقوم بمهامها خير قيام، فيستفيد الملوك من ذلك دون وعي منهم أو عمداً، وكثيراً ما يرسخون سلطاتهم، في مجال سعيهم لتحقيق مطامحهم وخدمة القضية المسيحية، دون خداع أو رياء. وفي النصف الثاني من القرن الثاني عشر، يعزز هنري الثامن پْلانْتاجِنيه، في بريطانيا، جهوده التي يذهب ضحيتها توماس بِيكيْت. وفي المرحلة نفسها ينجز فريديريك بربروس جهوده في المانيا ولكن بصعوبة أكبر. وبعد ذلك بعدة سنوات يقوم فيليب أوغست بمحاولاته محققاً بدوره أكبر نجاح. وفوق ذلك، فالمؤسسات الملكية التي أنشئت هكذا والتي حلت محل التنظيم الإقطاعي التقليدي وتطوره، والذي كان من الصعب تبرير سلطاته إلى يوم انتشرت فيه حركات السلام. هذه المؤسسات كان من غايتها ضمان العدالة وسلام النظام الداخلي وهي جميعاً مطابقة لمخطط المسيحية.

وفي فرنسا كما في مملكة صقلية أيام فريديريك الثاني، تتخذ هذه المؤسسات شكلاً أكثر نشاطاً وقوة.

وكان الملك يحكم، فيما مضى، المواطنين في نطاق أملاكه ويوجه الآخرين بطريقة غير مباشرة، بفضل نظام إقطاعي يجعل منه السيد الأعلى لكل إقطاعي المملكة التي تقف إلى جانب الإقطاعية وفوقها بحكم طبيعة مهامهاالسامية والمقدسة، ولحاجتها إلى المساعدة كان تحت تصرفها دارها الخاصة وبلاطات الإقطاعيين الدائرين في فلكها. وتوصل الملوك الكاپيون إلى مراقبة الموظفين الكبار في قصورهم وإلى تنمية مؤهلات البعض منهم (حامل الأختام أوّلاً)، وكانوا يعينون قسماً من جهازهم الإداري من بين رجال الدين متعاونين بذلك مع الكنيسة فدعموا بذلك سلطتهم وقوة رجال الإكليروس. وفي المرحلة الثانية شكل بعض هؤلاء الأشخاص الذين عينوا بسبب أمانتهم وأهليتهم، مجلس الملك الإستشاري. أمّا مجلس الأتباع أو الموالي، فقد احتفظ فيه الملوك بمواليهم الصغار وأدخلوا إليه رجالاً على علاقة بالعائلة المالكة والتاج، في حين أنهم قد أنشأوا من هذه السلطة الإقطاعية إدارة دولية لإقامة العدل ـ دعيت البرلمان ـ ولإدارة المال ـ مجلس الحسابات. وأما، أخيراً، بالنسبة إلى أملاك الدولة، فمن أجل تفادي سوء استخدام القضاة والوكلاء لوظائفهم بشكل جائر وعلى حسابهم، عينوا، في السنوات العشرين

الأخيرة من القرن الثاني عشر، قضاة مشرفين من قبل الملك ليقضوا بين الناس ويجمعوا الضرائب وليتلقوا ولاء الإقطاعيين الصغار الذين يستدعونهم إلى الجيش ويكلفون الحفاظ على النظام، باسم الملك لمصلحته الخاصة ولمصلحة الجميع.

وفي السنوات 1250 ـ 1270 اكتملت عملية التغيير التي أوجدت نظاماً ملكياً حسن الإدارة ونظام حكومة فعالة في الملكية.

وفي البلدان الأخرى وضعت أنظمة منها المتشابه ومنها المختلف وكلها حتى في انكلترا تؤكد على السلطة العامة على حساب القوى الخاصة والقوى المحلية. وفي كل مكان تقريباً، في أوروبا المسيحية وعلى الأخص في فرنسا تأسس نظام الملوك وجاء مطابقاً لنظام الكنيسة أي لنظام الله، النظام الذي يسود النظام ويفرض السلام احتراماً للدين ولمصلحة الإكليروس والدّول، ويقضي بين الناس وغالباً ما يقضي بالعدل تبعاً للقوانين المسيحية كي لا يضطرب أو يتهم تنظيم المجتمع الذي يتميز فيه، من جهة، الذين يملكون ويحكمون ويأمرون، ومن جهة أخرى الذين يُحكمون ويطيعون. وليس في هذا التنظيم تجاوزات بارزة، لإنه من الحق أن هذا النظام ـ لأنه يميل أولاً إلى تحقيق تأمين الأملاك والأشخاص ـ هو أفضل وأكثر طمأنينة من النظام السابق، وليس مستغرباً، مع ذلك، أن نجد في هذا العصر، وفي فرنسا بالضبط، نموذج السلطة السياسية المسيحية والملكية المثالية في شخص لويس التاسع و«الملك الأقدس والأعدل الذي حمل التاج على الإطلاق» (بوسويه). عاش القديس لويس حياة زهد وخشونة مع نفسه ولكنه كان لطيفاً محباً للآخرين يمضي الساعات الطوال كل يوم في خدمة الناس والصلاة، متواضعاً في مظهره وفي سلوكه وكان في الوقت نفسه إدارياً مميَّزاً وملكاً يعمل على تقوية سلطته إلى أقصى حد. كان وظل ملك العدالة الكاملة، وقد جعلتها الصور الشعبية تحت سنديانة فانْسِيْنْ، وعدالة حقة لا تحابي، ولا تنظر إلى الفروقات الاجتماعية، وعمل على تسويد الأخلاق المسيحية في العادات العامة، وأجبر إدارييه على الإستقامة والحشمة، وسن قوانين ضد المجدفين ومزيفي النقود ومنع المبارزات القضائية. شرّع للحياة السياسية طبقاً لقيم الجمهورية المسيحية وثم في الوقت نفسه، النظام المسيحي والقدرة الملكية التي أراد أن يضعها ويبقيها في خدمة مشاريع الإيمان الكبرى. لقد أحيا فكرة الحرب الصليبية وراح ليموت على طرقات الشرق في حين

أنه كان للمرة الثانية يسير على رأس حملة، وقد سقط كأروع شهيد من أجل قضية.

إن أعداء هذا النظام الملكي المتسامي اعتبروا سفلة أوغاداً وكان من العدل أن يقتص الله منهم، فقبْل لويس التاسع كان انتصار بوڤين حيث تغلب سنة 1214 فيليب على أوتون دو برونسڤيل المحروم وعدو البابا والذي كان في روما، كما يقال صديقاً للهراطقة، وقد بدا هذا الإنتصار كأنه حكم إلهي صدر لتوطيد النظام القائم الذي يحول دون أي تجديد، وأخيراً لقد اكتست المسيحية، في ظل السلطة المطلقة للبابا وطبقاً للقوانين التي حددها لها وفي كنف السلالات التي نظمتها وأدارت شؤونها ، اكتست ثوباً محافظاً لأنه أصبح من الصعب مجاراة تحولات المجتمع، وكانت تلك المحاولة الأولى لتنظيم المجتمع ولكنها سرعان ما تحولت إلى إرادة محافظة، أول عهد مقدس بإشراف الكنيسة الرومانية. وربما كان من المبالغة أن نرى، في بوڤين، كما رأى ج. دوبي، أن المعركة هي بين النظام القائم والمعارضة، لأنه إذا كان صحيحاً أن النظام يعرقل مسيرة التقدم فإن المعارضة في تلك المرحلة لم يكن بإمكانها أن تأتي بشيء ، لا للإنسان ولا للمجتمع غير أنه ظل في مفهوم النظام نفسه التباس كثيف أشار إليه المؤرخ المذكور بهذه الأسطر التي تشهد له على عبقرية مميزة: «إن إله النظام القائم، هذا الحصان الفخم الذي كان يحوم ذات مساء في برونيت فوق جثث القتلى كما حوّم ذات يوم فوق بوڤين، وهو يحوّم أيضاً فوق غِرْنيكا وأوشْڤِيْتْز (Auschwitz) وفوق هيروشيما وفوق كل مستشفيات الفِتن ، إن ذاك الإله ليس على وشك الموت، إنه يعرف دائماً أخصاءه[1]». ونضيف إلى ذلك ڤارسوڤيا وپراغ وبوداپست وسانتياغو في التشيلي وبوانس آيرس.

ازدهار التجارة والثروة

عرف الإقتصاد الغربي بين منتصف القرن الثاني عشر ونهاية القرن الثالث عشر تطوراً ملحوظاً، فمنذ سنة 1000 بدأت تتحقق شيئاً فشيئاً ما يدعوه ف. ف. روستوف «الظروف الملائمة للإقطاع»، وهي الإنتشار السكاني وزيادة حقيقية وثابتة في الإنتاج الزراعي وتوفر أجهزة النماء التي استنبطت بفضل الأعمال في البنى التحتية (المرافىء والسفن والجسور) وبفضل التقدم التقني في حقل التجارة والمال.

---

(1) أحد بوڤين، ص 232 .

واستمرت الحركة طبقاً للمعطيات نفسها مدفوعة بتطور سكاني ظل ناشطاً حتى نهاية القرن الثالث عشر دون التمكن من إعطاء أرقام محددة (16 إلى 20 مليوناً حوالي سنة 1328 في فرنسا الأكثر سكاناً، 3،5 إلى 4 ملايين لإنكلترا) وقد عبرت هذه الحركة عن الدينامية والثروة ودعمتهما ورسخت التلاحم المادي للمسيحية.

اكتمل الإزدهار التجاري الذي هو الدليل الأقوى على هذه الحركة ابتداء من ثلاثة أقطاب أساسية للنمو، إثنان منها يشكلان قواعد العلاقات التجارية في العصر السابق.

القطب الأول هو إيطاليا التي نجح بحارتها، خلال القرن الحادي عشر، في الاندماج في تجارة البحر المتوسط بواسطة علاقات مع شمالي أفريقيا أولاً ثم عن طريق صلات مع الشرق، وبمساعدة من الصليبيين والمؤسسات الفرنجية في الأرض المقدسة ثم باحتلال القسطنطينية فيما بعد وتأسيس الإمبراطورية اللاتينية، استطاع رجال الأعمال في البندقية وجنوى وبيزا أن يسيطروا على المتوسط الشرقي، وكانوا دائماً حاضرين في كل مرفأ من مرافىء لبنان وسوريا وآسيا الصغرى وفي بحر مرمره والدردنيل وفي البحر الأسود وفي جزر بحر إيجه وفي الإسكندرية ودمياط والقاهرة، وكان لهم في كل مدينة تجارية حي قريب من المرفأ حيث يقيمون ويخزنون البضائع، وكانوا يتمتعون غالباً بامتيازات هامة، كما لم يتوقفوا في الوقت نفسه عن التدخل في المغرب وطرابلس وتونس وبجايه ووهران وسبته وحتى سلا على الأطلنطيك، كما أنهم بمساعدة مسيحيي إسبانيا نزلوا في جزر الباليار بعد أن ضموا كورسيكا وسردينيا. وأخيراً أصبح البحر المتوسط بكامله ميدان نشاطهم إلى حد أنهم احتكروه تقريباً، بينما كانوا على تنافس مرير فيما بينهم، وكاد هذا البحر أن يصبح بحيرة إيطالية.

إن الصلات الوثيقة بين شبه الجزيرة والشرق الأدنى (وما وراء آسيا) وأفريقيا سمحت بالدخول إلى الغرب لعدد من المنتجات التي اعتمد عليها النشاط التجاري ولولاها لما وجد هذا النشاط. التوابل، البضاعة القليلة الوزن، الأنسجة الحريرية والقطن، وحجر الشب والحلى، كلها كانت تستورد وتوزع في الغرب بكامله. فهذه البضاعة المرتفعة الثمن التي كان بيعها يدر الكثير، والمعدن الثمين (الذهب) المستورد من أفريقيا السوداء، أتاحت لرجال الأعمال الإيطاليين أن يكونوا رُوَّاد

الإقتصاد الأوروبي. وبفضل تجارتهم وتقنياتهم وثـرواتهم، انتشروا في كـل مكان وأسهموا دائماً، على تفاوت في القوة، في تنمية الأقطار الأوروبية الأخرى، وبفضل طاقاتهم تكاثرت المكاتب التجارية للعلاقات القارية حتى في إيطاليا نفسها؛ ففي حين أن الإنتاج الصناعي الذي يعتمد على المواد الأوّلية المجلوبة من الغرب كما من الشرق لم يتوقف عن النمو. وعرفت مدن ڤيرونا وكريمونا وميلانو وفلورنسـا وسينّا ومدن أخرى ازدهاراً غير عادي. وفي فلورنسا، التي أصبحت منذ منتصف القرن الثالث عشر الأنشط والأغنى والأبرز، مثلت «الفنون» السبعة الكبرى قوة اقتصادية وسياسية هائلة وخاصة الثلاثة الأولى بينها وهي: تجـارة الأجواخ بـالجملة وتجارة الحرير وتجارة الصوف.

وتشكل فلاندرا والبلاد المنخفضة المركز الثاني لاقتصاديات العصر التي كانت ناشطة في القرن السابق والتي حركها التطور بقوة. وإن غنى هذه المقاطعة يعتمد على صناعة النسيج الموزعة على مدن عديدة (دُوّي، إيْپِرْ، سان ـ أومير، غانْد، أرّاس وسـواها). وكـانت الأجواخ الممتـازة يطلبهـا في كل مكـان الزبُن الأغنيـاء والميسورون وكان يبيعها تجار من المنطقة يسيطرون كذلك على إنتاجها بما يملكون من رساميل، وكانت فلاندرا وهينو (Hainaut) المـركز الصنـاعي الأساسي. وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر انضمت إليها براﺑان والبلاد المنخفضة بالذات وكان التصدير يجري، أساساً، انطلاقاً من مدن ثلاث: غانْدْ المرتبطة بنوع خاص بالسوق الجرمانية (كولونيا)؛ وأرّاسْ التي اتجه تجارها نحو الجنـوب واحتلوا مكانـاً هامـاً في معارض شمپانيا، وبروغْ المعـدَّة في الدرجـة الأولى للتجارة مـع إنكلترا التي دخلت على خطها أيضاً إيْپِرْ وليلْ. غير أن هذه النشاطات ربما ظلت ثانويـة لولا تدخل الإيطاليين الذين أقاموا في البداية علاقات بواسطة معـارض شمپانيـا ومدن الراين واستقروا هم أنفسهم في المنطقة واحتكروا عمليات تصـدير الأجـواخ نحو البلاد الجنوبية وتفرقوا على طول طرقاتها. وشيئاً فشيئاً يكتمل التـطور بعد القـرن الثالث عشر ويتحول التجار البلديون إلى مجرد موزعين.

وحل الألمان محلهم في تجارة الشمال، وشكلت الهانس الجرمـانية قـطب النمو الثالث، وهو قطب حديث نسبياً لم يذكر، على هذا المستوى، إلا في العقود الأولى من القرن الثالث عشر وقد كـانت المنطقـة الألمانيـة الناشـطة، حتى ذلك

التاريخ، هي وادي الراين المتطور بتطور فلاندرا وهينو وبْرابان والمتأثر بالتجارة الإيطالية التي أنعشت ألمانيا الجنوبية، وأثناء ذلك كانت كولونيا، التي تصدرت المركز الأول، قد وفقت إلى إقامة علاقات وثيقة مع إنكلترا، وخاصة مع لندن التي تعرضت لمنافسة تجار هامبورغ ولوبيك، وقد انتهى بها الأمر إلى الإتفاق معهما، ومنذ نهاية القرن الثاني عشر كانت هاتان المدينتان، وخاصة الثانية بالإضافة إلى ذلك، قد بدأتا تبسطان نشاطهما على سكندينافيا والبلاد الشمالية الشرقية، وباتحادهما مع شْترانْسُونْدْ وستيتين Stettin ودانزيغ وحوالي عشرين مدينة أخرى، كونت جميعها الهانس التوتوني الجبار - عاصمته لوبيك - الذي بسط هيمنته الإقتصادية شيئاً فشيئاً، على بحر البلطيق بكامله الذي تحول إلى بحيرة المانية سيطر عليها التجار الجرمانيون سيطرة تامة بلغت قسماً من بحر الشمال، وكانت المكاتب التجارية الهانسية الأساسية في الخارج موجودة في لندن وبروغ Bruges وبيرغِنْ، ، في النروج ونوفغورودْ، في روسيا التي بواسطتها كانوا يبلغون آسيا الوسطى وحتى البحر الأسود، وكانت التجارة بإشراف تجار النبيذ. وكان في أساس هذه النشاطات التجارية السمك والفرو والملح المستخرج من أراضي لونيبورغ Lunebourg غير البعيدة عن لوبيك.

وهكذا سيطر الأوروپيون، خلال هذا القرن. على بحار أوروپا المتوسط والبلطيق اللذين عليهما وبواسطتهما بسطوا نفوذهم. وكان من الطبيعي أن يسيطروا على شواطىء بحر الشمال والأطلسي ، وبين أقطاب التطور الثلاثة التي وجهت الإقتصاد الأوروپي بكامله أصبحت العلاقات وثيقة وتقريباً دائمة، وكانت الأجواخ الفلمنكية أو الفلمندية تباع في المانيا بكاملها، وكانت بفضل الهانس تصدر إلى الخارج. وروّجها الإيطاليون في الجنوب فيما هم يحملون إلى البلاد الجرمانية وإلى فلاندرا البضائع الشرقية، وصناعات محترفاتهم الغنية. وكان تجار تحالف الهانس يروجون الفراء والسمك والملح، وكانت نقطة لقاء هذه الأنواع الثلاثة توجد في بحر الشمال، في المنطقة التي يتصل فيها بحر البلطيق بالشمال الغربي حيث تمركز رجال الأعمال الإيطاليون. وفي نهاية القرن الثالث عشر أصبحت بروغ، التي هي قسم من منطقة الإتصال هذه، كعاصمة للتجارة العالمية الكبرى حيث يلتقي تجار من جميع الجنسيات وسلع من مختلف المصادر.

إن الصلات بين هذه المراكز الثلاثة أدت إلى تطور البلدان الواقعة على الطرق التي تصل فيما بينها، وقد تطورت هذه البلدان ليس فقط بفضل المواصلات ولكن لأنها أصبحت هي نفسها مراكز إنتاج. وهكذا حدث لألمانيا الجنوبية وألمانيا الوسطى التي تأثرت بالنهضة الإيطالية منذ العصر السابق، كما تأثرت أيضاً بعض المناطق الفرنسية حيث تأسست معارض شمپانيا التي استقبلت مدنها (تْروا) وبعض جاراتها (ريمس) صناعات النسيج. واستقلت مدن أخرى بصناعات هامة (ملح الاطلسي والخمور)، وهذا ما حدث أيضاً ولكن، بشكل متقطع، لمناطق الرين الأعلى وأودية الألپ والجورا وللمنطقة الرودانية وشاطئ اللانغدوك .

وإلى جانب هذا التوسع وهذا التطور اللذين اكتملا بواسطة انتشار الطرق التجارية التي على امتدادها وإلى جانبها ازدهرت الأعمال، حدث، خلال القرن الثالث عشر، تطور آخر أصبح على المدى البعيد أكثر أهمية، تسبب عن ازدهار المراكز الثانوية، نوعاً ما، بالنسبة إلى المراكز الثلاثة الأساسية ولكن لولاها لما بلغت التجارة الغربية هذا التماسك الحقيقي. فمن جهة، إنكلترا التي لم تلبث أن أثبتت وجودها على الخطوط الشمالية وفي مجموع الحركة التجارية ـ كان يُشترى منها الصوف الذي يموِّن المدن المصنِّعة للأجواخ في فلاندرا وسواها، كما كانت تشتري منها المعادن، وكانت تحصل على الخمور والمنتجات الجنوبية، فأصبحت لندن ملتقى عالمياً. ومن جهة أخرى ـ شبه الجزيرة الإيبيرية، التي بفضل موقعها الجغرافي على المتوسط والأطلسي، بعد أن كانت محطة إيطالية أخذت تتمتع باستقلاليتها وتسهم في الحركة التجارية، في حين بدأت تنتعش انطلاقاً منها المواصلات البحرية التي استفاد منها بعض المرافىء في جنوبي غربي فرنسا حيث كان الإيطاليون أيضاً موجودين كما كان التجار الإنكليز يثبتون وجودهم وهنا كانت الخمور والنباتات الصبغية وبعض المعادن تشكل المادة التجارية. وأخيراً انتعشت وبشيء من الخجل، بلدان الشرق الأوروبي ـ بوهيميا وهنغاريا وپولونيا ـ لعلاقتها مع الإيطاليين وبالنسبة نفسها أو أكثر مع الألمان.

وقد صحب هذا التطور العظيم، مع الأخذ بالاعتبار ضحالة الخلق العلمي لذلك العصر، تقدم ملحوظ للمناهج والوسائل ينم أكثر من التطور ذاته، عن نشاط المسيحية الحقيقة . ليس المقصود هنا طفرة مذهلة إلى الأمام، ولكن تحسن مستمر

للتقنيات اليدوية عمل على تنشيطها، بشكل عام، استخدام واسع النطاق للحديد الذي كانت العدة والأجهزة المصنوعة منه تتميز بأفضل الخصائص.

والمثل الأبرز هو صناعة الأجواخ، والبضاعة الأساسية في العلاقات التجارية ومصدر العمل والوظائف أشركت الكثير من المهن التي توزعت فيما بينها المهمات دون أن يكون هناك مصانع حقيقية بالمعنى الحديث للكلمة . فبعد أن ينخب الصوف المستورد من إنكلترا إلى المدن الفلمندية الكبرى يعمل على نشره وطرقه وغسله وتنظيفه مما علق به من المواد الدسمة وتمشيطه (بأمشاط معدنية) أو حلجه (بواسطة صفائح مجهزة بأسنان من حديد) ونسله خيوطاً ـ تقوم النساء بهذه العمليات الأخيرة. أما غزله فيجري عادة على يد قرويات بواسطة مغازل يدوية. وبعد ذلك يحضر القماش نفسه بنسجه (على نول يدوي متطور) ويتم دعكه (بوطئه بالأقدام أو بواسطة مطاحن) ثم يصبغ وبعد ذلك ينسق وبره ويملس.

وبالدقة نفسها وبالبطء والتثاقل إياهما في التصنيع تتم الصناعة المعدنية التي بدأت تجهز من أجلها الأفران التي تعمل بفحم الحطب ، وبالطريقة ذاتها تطورت تقنيات وسائل النقل مثل تجهيز المرافىء والطرقات تجهيزاً أفضل، وإقامة الجسور على الأودية العميقة (جسر أنْدِرْماتْ الذي شق طريق سان ـ غوتار وسهّل الإتصال بين إيطاليا والراين، وقد بني سنة 1230 ؛ وجسر الروح القدس، على الرون بني 1263 . وبناء سفن أكبر وأسهل قيادةً(سكان ذو حاملة، استخدم في منتصف القرن الثالث عشر في بحر البلطيق ، وظهور البوصلة في تلك المرحلة). والتقنيات التجارية هي أيضاً تطورت، وقد استرعت الإنتباه في التجارة العالمية في أسواق شمپانيا التي كانت تجمع على مدار السنة، في پْرُوڤانْ وتْرُوَا ولانْيِيْ وبار ـ سور ـ اوب، التجار والبضائع من أوروپا بأسْرها وكانت هذه اللقاءات تنظم خير تنظيم بفضل دوقات شمپانيا، فلم يكونوا يكتفون بوضع فنادق ومستودعات تحت تصرف التجار بل كانت إدارة المدينة تسهر عليهم (إدارة المعرض وضمان حماية كل تاجر في طريقه إلى المعرض، وحرس المعرض يسهر على البضائع ويقوم بوظيفة شرطي).

وكان التجار، من جهتهم، ينظمون أنفسهم لهذه المعارض ولغيرها، فكان يمثلهم، في كل مركز تجاري كبير، «قناصل» يحافظون على مصالحهم، وكانوا

خاصة يتضامنون لإنجاز صفقات تجارية بكل معنى الكلمة. وفي إيطاليا تكاثرت منذ القرن الحادي عشر وخاصة في النصف الثاني من القرن الثاني عشر وفي القرن الثالث عشر شركات الطلبات. وتأسست كذلك شركات قانونية برساميل العديد من رجال الأعمال الذين كانوا يمتلكون منفردين أو مجتمعين مستودعات ووسائل نقل، أو يوجد تحت تصرفهم مباشرة أو غير مباشرة مشاريع نقل أو إنتاج وتحولت هذه الشركات أكثر الأحيان إلى مؤسسات مصرفية. ومن عمليات الصرف والمبادلة الضرورية للنشاطات التجارية نشأت فكرة المصرف الذي استخدم لتفادي نقل الأموال الذي استعيض عنه بعمليات التحويل. تحول الصيارفة حَمَلة العملة إلى مديري أموال. وتحول المصرف باكراً، بالرغم من نواهي الكنيسة إلى مشروع اعتماد، وأكثر الأحيان لتقديم قروض متصلة بالعمليات التجارية: هكذا وجدت وتطورت الكمبيالة التي تمثل في تقنيات التسليف والتنظيم تطوراً عظيماً.

وإذا القينا نظرة على مجموع هذه النشاطات التجارية والمالية والحرفية نستنتج أنها كانت، في القرن الثالث عشر، تشغل عدداً كبيراً من الناس في المدن والأرياف وتوفر لهم وسائل العيش: رجال أعمال، مجهزو سفن، بحارة، حمالون، صناع يستخدمون جهازاً بشرياً كثير التنوع مع عمال مهنيين وفعلة لا يحتاجون لأي تخصص، وكل ذلك يشير إلى نشاط مستمر وحماسة ثابتة في الإنتاج والمقايضات دونما حاجة إلى رساميل ضخمة (ما عدا في التجارة البحرية للمسافات البعيدة)، الأمر الذي لم يمنع رجال الأعمال، في كل مكان تقريباً، من الإشراف على قسم كبير من هذه النشاطات لأن تشغيل النظام يعتمد على مبادراتهم. ومعلمو الحياكة، مثلاً، الذين يشكلون في مدن الفلاندر «هيئة وسطاً» ذات وزن لا يمكن إنكاره، يشترون الصوف ويبيعون الجوخ من تجار لديهم اعتمادات كافية لتمويل العملية، وهم في أكثر الأحيان الذين يمتلكون المصانع. وكانت هذه الشركة الناشطة المتماسكة والتي كيفت تطورها تقنيات جيدة الإعداد وبعيدة جداً عن الصناعة الحقيقية والتأليل، كانت تملك حقل عمل مقصوراً على الأبعاد التجارية، أي على حجم السلع التي تغذي هذا الحقل، وبالتالي الإنتاج والاستهلاك والنمو، والتي لا يمكن أن تزداد إلى ما لا نهاية - يضاف إليها بعض الأصناف الكمالية الثانوية إجمالاً الأنسجة والخمور والملح والحبوب.

الإقتصاد خميرة التوحيد

وبالرغم من هذه الحدود لقد أسهم الإزدهار التجاري والمقايضات الإقتصادية لهذه المرحلة إسهامًا ملحوظاً في توحيد أوروپا الغربية والوسطى.

ومن ناحية أخرى فإن تطور المواصلات قرّب المناطق المختلفة ووصلها بعضها ببعض بطريقة أوثق. لقد تنقل ويتنقل، ليس فقط السلع والتجار ـ الذين عمل أكثرهم على التوطن ـ ولكن الأفراد من ذوي الأوضاع والنوعيات المختلفة واللغات والأخلاق والإتنيات المتعددة ومعهم انتقلت الأفكار والصور والثقافات، وتحسنت وسائل الإعلام أو بكلمة أدق إنه العصر الذي ولدت فيه على المستوى العام لأنها، حتى ذلك التاريخ كانت مقتصرة، إلاّ على الصعيد المحلي، على اتصالات شخصية بين بعض السلطات العليا. ومن ناحية أخرى، بدأت محاور الإنتقال تشكل، إلى حد ما، هيكلية أوروپا، في حين أنها كانت بواسطة تشابكها، عبارة عن المفاصل التي ارتبطت بها البلدان المجاورة، بفضل العلاقات الكثيرة التي نشأت بين المراكز التجارية أو الحرفية، حتى ولو كانت مشاركتها قليلة في النشاط التجاري والصناعي. إن مثل هَذا الصوف والجوخ هو خير مثال على ذلك. وصلت تجارة هذا النسيج، وصناعته، بشكل أساسي، بين إنكلترا وفلاندرا ثم باتخاذها الطريق البريّة والنهرية الوحيدة، ربطت بين فلاندرا وبراپان بوادي الراين الأوسط (كولونيا) والمانيا الوسطى (برونْشڤيغ) وربطت بطريق أخرى بين هذه وشمپانيا وبورغونيا وأخيراً وصلت بينها، عن طريق محور ثالث، وبين منطقة النورماندي وباريس. وازدهرت على طول هذه الطرقات مراكز تجارية ومهن قريبة من مهنة النسيج. وشيئاً فشيئاً وصل هذا النشاط إلى القسم الأكبر من پيكارديا وبوڤيزيا وشمالي اللورين وكونتية بورغونيا وبرِيس - Bresse - وأحواض الهضبة الوسطى التي اهتمت بهذه الحركة واندمجت بها.

وأخيراً، وبفضل الإزدهار التجاري لم تبق منطقة معزولة تماماً أو مناطق أو بلدان مقفلة حتى أودية الجبال العالية. وفي نهاية القرن الثالث عشر كانت قرية مونتايّو Montaillou في أعالي منطقة أرْيِيْجْ، التي وصفها بدقة إ. لو روا لادوري E le Roy Ladurie قد عُرِفَت جيداً وأقيمت علاقات معها وكثر التردد إليها حتى ولو لم تبلغها صناعة سهول الپيرينيه وتجارتها. أليس منها ومن مجتمعها المتنوع والنشيط وصلتنا الأفكار الرائعة؟ وقد اتصل فرويو «القرية المانوية» ورعاتها بقرى ثاراسكون

- سور - آرْنيغْ وإكس - ليه - تِيرْمْ وپامْييهْ حيث كانوا يشترون الملح والخمور وزيت الزيتون وبعض الأدوات المصنوعة من حديد، وباعوا فيها حطب التدفئة والجلود والأصواف، وجلبوا منها الحبوب التي طحنوها. هذا يعني أنهم لم يكونوا على اتصال وثيق بالمحاور الكبرى لخطوط التنقل الدولية أو بمراكز الإنتاج الناشطة ولكن تقريباً فقط بالمدن الصغيرة المجاورة.

إن هذا التأكيد الحي للعلاقة بين المدينة والريف يشكل، دون شك، النتيجة الأهم لجميع هذه التبدلات الإقتصادية، وقد أدّى تقدم التجارة والأعمال الذي أثاره النمو السكاني، إلى توسع المدن، وهذا ما لاحظه ج. فوْركان «لقد أفاد سكان المدن، الذين انطلقوا من عدد منخفض ما بين سنة 1000 إلى 1300، من تزايد عددي أكثر بروزاً مما حدث في المناطق السهلية من البلاد». في الواقع لم تكن المدن كثيفة السكان - إن عدداً ضئيلاً من هذه المدن بلغ أو تجاوز 100.000، منها: ميلانو والبندقية وباريس التي بلغ عدد سكانها حوالي 200.000 نسمة، وفلورنسا وجنوى ونابولي وپالرمو. ولكن أكثرها لم يبلغ سوى بضع عشرات من الألوف، مثل غاند وبروغ اللتين تعدان 50.000 ولندن وكولونيا 40.000 وبرشلونة 35.000؛ أمّا أرّاس وإيْپْر وإشبيلية ونورمبورغ وأوغسبورغ وپراغ وستراسبورغ ولوبيك وماغْدِبورغ ودانزيغ، فلم يتجاوز عدد سكانها 20.000. ومدن أخرى كانت دون ذلك والكثير منها لم يبلغ 10000 نسمة.

ولكن الفائدة من الواقع المديني لا تكمن هنا. إنها في تجمع السكان غير الريفيين الذين نجد بينهم إداريين ورجال دين ولكن غالبيتهم العظمى تتألف من منتجين وموزعين وحرفيين وتجار. إن هيكلية المجتمع السكاني تتألف من فئات ثابتة منظمة ومقننة: رابطات للنقابات والمهن. وكان لكل المدن تقريباً هيكلية واحدة وأكثر الأحيان وجه واحد. كانت هذه الرابطات أو الإتحادات تتعاون فيما بينها أو تتآزر اقتصادياً، كانت يساعد بعضُها بعضاً لأن كل واحدة منها لا تستطيع شيئاً دون مساعدة الأخرى وكل اتحاد أو عدة اتحادات أو جميعها معاً كانت تتعاون مع الشركات المجاورة، وكانت المدن والأرياف بدورها تتعاون فيما بينها. الريف يموّن سكان المدن بالمواد الغذائية؛ وربما كانت حالة الإنتاج الزراعي هي التي تكيِّف، في بعض الحالات، عدد سكان المدن، فالريفيون لا يستطيعون تموين إلّا عدد

محدود من السكان، وليس لدى هؤلاء الوسائل التقنية أو المالية ليجلبوا السلع الضرورية من أماكن بعيدة. أما المدينة فبإمكانها استيراد منتجات أخرى ـ منتجات لا تزرع في المنطقة، وعدة وأقمشة. إنها مكان لقاء، من خلال سوقها، بين الريفيين أنفسهم، والريفيين وسكان المدن. وأخيراً كانت الأرض، خلال القرن الثالث عشر في العالم المسيحي الأوروبي، تبدو فسيفساء شاسعة ومعقدة من المدن والقرى المجتمعة التي تؤلف مناطق تقيم علاقات ثابتة فيما بينها.

إقطاعيون وفلاحون

إن الإنتقال البطيء من اقتصاد الغذاء إلى نظام المقايضات المبني على وفرة نسبية للمال وعلى حركة تنقل منتظمة له كان له في الأرياف نتائج دامغة بدأت تظهر في النصف الثاني من القرن الثاني عشر وبتحديد أدق في السنوات 1180 ـ 1200. بيد أنه بدأت تنجم، في العقود السابقة، بعض التحولات وتابعت تكاملها على امتداد القرن الثالث عشر. فمن جهة، أخذت المساحات المزروعة والمأهولة تتسع اتساعاً عظيماً نتيجة الإزدهار السكاني. وكان العصر عصر الإصلاحات الزراعية الهائلة وتأهيل أراضٍ جديدة وتأسيس قرىً وجماعات أعطيت هيكليات خاصة. ومن جهة أخرى، لقد تحسنت العدة (الحديد) مجاراة للتطور التقني، وتنوعت إلى حد ما، وبفضل ذلك ازداد المردود (وقد بقي على أي حال، هزيلاً). وأنجزت «مشاريع ضخمة» (ري وتجفيف أراضٍ)، وبفضل طرق بسيطة جداً، حسنت أوضاع بعض الأراضي، وتطورت تربية المواشي، لوجود مساحات شاسعة من المراعي كانت تخضع للعناية الدائمة ولأن المواشي كانت توفر السماد الطبيعي.

وتسارع هذا التطور المفيد في مجمله للزراعة، عندما بدأت العملة تنتقل بانتظام في الأوساط الريفية وسهلت المقايضات. عند ذلك تكتشف الأرياف المدن وترتبط القرى بالمدن بروابط اقتصادية كانت تزداد وثوقاً بمقدار ما عمل على ازدياد سكان المدن تدفق القرويين الذين يضعون سواعدهم في خدمة إطار آخر من العمل. غير أنه إذا قدم القرويون المواد الغذائية لسكان المدن فلم يكونوا يهدفون إلى تقديم كل السلع التي هم بحاجة إليها، وإلاّ لاستقر الوضع عند اقتصاد الغذاء. عملياً كان القرويون يعملون على إنتاج ما هم بحاجة إليه من أجل غذائهم. من هنا تابعوا ممارسة زراعات مختلفة كان يتحول الفائض منها إلى المدينة ـ ومن جهة أخرى ما هو

أكثر مردوداً تجارياً بالنسبة إليهم - فتباع هذه البضائع في المدن لسكانها وللتجار الذين ينقلونها إلى أماكن بعيدة ويجلبون سلعاً لا تزرع في الجوار المباشر. وينتج عن ذلك أن بعض الزراعات كانت طاغية في مناطق معينة: وأكثر الأحيان زراعات البقول في المستنقعات وزراعة الكرمة، وفي مناطق عديدة زراعة النباتات النسيجية (الكتان والقنب) أو النباتات الصبغية (وزال إسبانيا، ورد النيل، والعِظلِم).

وكان لإدخال المال نتائج مهمة على البنى الزراعية وقد عمل على تسريع التطور الذي انطلق منذ القرن التاسع باتجاه نماذج جديدة من الإقطاع حيث حددت المتوجبات استناداً إلى الحركة الكثيفة لتنقل الأموال أو نظراً إلى فائدة مدروسة. وتضاعفت الإقطاعات المأجورة في جميع المناطق خلال القرن الثالث عشر. هذه الإقطاعات التي كانت وراثية أو قابلة التحويل لم تكن تلزم بأية خدمة بل كانت تلزم بدفع ضريبة (وأكثر الأحيان ضريبة مالية). والإقطاعات الممنوحة لقاء قسم من الغلة كانت من النوع نفسه ولكنها تفرض ضريبة هي عبارة عن جزء من الغلة (حزمة قمح من كل 12 حزمة، مكيال نبيذ من كل 10 مكاييل). وفوق ذلك، فإن الإقطاعيين الذين تطور «احتياطيهم» بطرق مختلفة خلال القرن الثاني عشر حاولوا غالباً أن يعيدوا تشكيله من جديد على مساحات أصغر ليحصلوا من ذلك على فائدة كبرى. وكانوا غالباً هم الذين يشرفون على العمل وأكثر الأحيان يفوّضون زراعة أرضهم إلى بعض الفلاحين الذين يدفعون لهم إيجاراً لمدة محددة أو يشاركونهم لقاء تقديمهم لهم العدة والبذار. وهكذا ظهرت، وخاصة في المناطق القديمة السكان، طريقة إيجار الأرض أو المشاركة في غلتها، وهما طريقتان للاستغلال ميزتا بشكل أساسي الريف في أوروبا الغربية.

كل هذه الأمور تنم عن تبدل عميق في المجتمع الريفي، وكانت حياة الفلاحين، إجمالاً، في القرن الثالث عشر أفضل مما كانت عليه في العهود السابقة، وكان بينهم من يحققون نجاحاً اجتماعياً حقيقياً فكانوا يحصلون على أراض أو يكترون أراضي لقاء مبلغ من المال أو قسط من الغلال (محققين بذلك دخلاً دائماً)، الأمر الذي وفر لهم الثروات. وكانت الجماعات الريفية، في إطار الأبرشية تنظّم وتحصل غالباً على إعفاءات وكان يحدث لقاءات بين قرية وأخرى وتعارف أفضل وتتم عمليات زواج. وعلى العكس من ذلك، فالإقطاعيون الذين ظلوا المالكين

الأساسيين للأرض، مع الكنائس والأديرة والأصحاب الحقيقين للأملاك الواسعة، كانت مصائرهم على كثير من الخلاف. فإذا كانت ثروات البعض قد ازدادت فإنهم لم يكونوا دائماً على تقدم بل غالباً ما كانوا يخسرون وينهارون وكان توزيع المواريث يفتت الأملاك وخاصة حيث لم يطبق حق البكورية . ولم يكن يترك غالباً للفرسان سوى حصص هزيلة. وكانت عائدات الإيجار التي تحددت نهائياً بالمال دون أن تقدر فعلياً طبقاً للقيمة التأجيرية للعقار تدر مبلغاً زهيداً. وكانت حقوق الإقطاعيين في الأملاك تخضع لعامل الصدفة وكانت موضوع أخذ ورد. وكانت المداخيل الأساسية، من جهة، عبارة عن حصة يكون العقار فيها واسعاً إلى حد كافٍ لتطوير هذه الأنواع من التأجير ـ ومن جهة أخرى الضرائب المفروضة على المزارعين، مثل العُشر وضريبة الحرب التي أصبحت دائمة، وحقوق القضاء العقاري.

وبناء على ذلك كان الإقطاعيون يحاولون استغلال امتيازاتهم إلى أقصى حد؛ لقد استغلوا بشكل خاص، أولئك الناس المرتبطين بهم بحقوق الإرث ولكنهم لا يتمتعون بالحرية المطلقة، غير أنهم لم يتصرفوا هكذا دائماً ولا حيثما كان، إمّا لأنهم لم يكونوا يستطيعون ذلك وإما لأنهم لم يكونوا يعتبرون عملهم هذا مفيداً. وكانت القنانة تتغير وتتطور بطريقة معقدة تبعاً للمناطق. وبالرغم من الوسائل التي استخدمها النبلاء للإحتفاظ بامتيازاتهم وسلطانهم لقد بدأوا يواجهون الصعوبات لا سيما وأنهم قد اعتادوا الكسل والبطالة وأنهم أصروا على «الظهور» بواسطة تبذير المال وأنهم لم يعودوا يكسبون من الحرب والغنائم، فانطووا على أنفسهم . وفي حقوق طبقة النبلاء ودون الطبقة الأرستقراطية النشيطة والغنية، هناك فريق يعتبر الأعظم هو فريق الإقطاعيين القليلي الأملاك والفرسان الذين لا يملكون ثروات ـ وقد اندمجوا بعد ذلك في المجتمع النبيل ـ هؤلاء وأولئك يعوضون ما ينقصهم بانخراطهم في الوظائف وفي خدمة الأقوياء. وقد تفردت هذه الفئة، كما في الماضي، بنوعية هيكلها وعقليتها، وصمدت أوروبا القصور التي تزداد يوماً بعد آخر.

إن تحليل البنى الإقتصادية والاجتماعية للعالم المسيحي يكشف عن وجود فئات كثيرة التنوع تسهم بواسطة عملها وتشارك في تنظيم متناغم يلعب فيه كلُّ دوره الخاص والضروري: هناك الذين ينتجون (باستخدامهم العدة المصنوعة بيد حرفيين أو في مصانعهم وتباع بواسطة التجار) والذين يصنعون (إنطلاقاً من المنتجات التي

تأتيهم من القطاع الأول ولعملاء يأتي بهم التجار) وهناك الذين يتاجرون (مع هؤلاء وأولئك).

أيعني ذلك أن هذا التوزيع يحدد فئات إجتماعية متفردة بخصائصها ومجاورة بعضها للبعض الآخر، تارة متعاونة وطوراً متواجهة؟ أم يعني أن هذا المجتمع هو مجتمع فئات، أو كما يظن البعض، مجموعة من الطبقات تتحول إلى فصائل؟ من الصعب توضيح هذا السؤال، وتضطر طبقة النبلاء إلى الإندماج فعلاً وغالباً بصعوبة، وباقتصاد لا يعجبها وهي تجني منه الفوائد أكثر الأحيان وقد اضطرت إلى ذلك لكي تستطيع الحفاظ على وجودها وبالأخص لكي تتمكن من الحياة تبعاً لتقاليدها وميولها إلى البطالة واللهو. ومن ناحية أخرى فإن النظام الإقطاعي بدأ في هذه السنين، وخاصة في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، ينهار، والتزامات الأتباع لم تعد كما كانت، وضعفت الأسر نتيجة توزيع الميراث، بينما حقوق الإقطاعيين تضاءلت أمام تصاعد القوى الملكية وسلطات الأرستقراطية الراقية.

فتكتل النبلاء بعضهم على بعض وتساووا فيما بينهم وانكمشوا على أنفسهم وأصبحوا عديمي الثقة بالسلطات الحاكمة التي يتفرع أفرادها من الوسط الإجتماعي نفسه.

أمّا الفئات الأخرى فيصعب اعتبارها طبقة اجتماعية صافية لأنها مركبة وتشتمل على مجموعات متنوعة، وتضم طبقة الفلاحين ليس فقط اغنياء وفقراء ولكن أيضاً ملاّكين وغير ملاكين، وبالرغم من أنها خرجت من عزلتها فلا يبدو أن بين أفرادها نوع من المصالح المشتركة لأنه في الواقع لم يكن هناك شيء من ذلك على الإطلاق. وسكان المدن هم كذلك كثيرو التنوع: العديد من هؤلاء يملكون أدوات العمل التي يستعملونها ولكن بينهم الكثير من التفاوت في الثروة والغنى. فالبورجوازية لا يمكن ملاحظتها اجتماعياً ومجتمعياً بشكل واضح. وهذا لا يمنع، بالرغم من عدم وجود مصالح مشتركة، من تكوُّن عقلية مدينية واحدة تعطي أهمية للثروة المتميزة والمختلفة عن القوة وللعمل بالنسبة إلى الكسل وللوقت المنظم الذي يسمح بتنظيم النشاط ويضيف «ثمنه» للثروة.

وأخيراً، فالحقيقة تكمن أكثر ما تكمن في تفريع النماذج السكانية، ففي كل فئة هناك طبقات، وجل مطامح الناس تقوم على رغبتهم في الإرتقاء إلى طبقة أعلى،

الأمر الذي ينشأ عنه ضغوط وخلافات بعضها داخلي بين طبقة وأخرى أو بين جماعة وأخرى تبدو في الظاهر كأنها صراع طبقات دون أن يكون الأمر كذلك فعلا.

وفي وسط المجتمع هناك من هم أغنياء جداً ومن بينهم رجال أعمال عظام يهيمنون بمشاريعهم وأموالهم على قطاعات عريضة من النشاط الإقتصادي، والبعض، إرضاء لنزواته يستنتج من ذلك أن هذا المجتمع هو رأسمالي. ولكن يجب الحذر من هذه الأحكام الجاهزة التي بفضلها يمكن أن نفسر كل شيء دون أن نأتي بالتفسير المطلوب. فمن السهل أن نعرف أن بنى الرأسمالية لم تكن قد وجدت حينئذٍ فلا استخدام للآلة ولا تجمعات عمالية ولا تراكم حقيقي للرساميل.

ولا تبنٍّ لأجهزة الإنتاج من قبل فئة أو طبقة، وبالمقابل عندما تصبح الثروة قيمة أساسية يرغب الناس بالحصول عليها فوق كل اعتبار، عندئذٍ تكون عقلية رأسمالية إلا إذا كان ذلك تفجر غريزة عميقة: سيئة أو صالحة لا فرق، لهذا الكائن الغريب الذي هو الإنسان. لهذا السبب يقترح البعض تعبير ما قبل الرأسمالية التي ليس لها معنى دقيق ثابت لأن الإنسان هو دائماً في مرحلة ما قبل شيء ما. فمن الأبسط أن نقول إننا أمام مجتمع حرفي ذي نشاطات متعددة ظهرت فيه تنظيمات ونزعات ورغبات ستمهد ذات يوم لظهور الرأسمالية التي ولدت في عصر حيث التحولات التقنية غير العادية تؤدي إلى تحديد الفئات ونشوء الطبقات.

وحاصل الكلام أنه مجتمع متناغم متوازن يشكل الهيكلية الحقيقية لأوروبا هذا العصر ويضفي تماسكاً قوياً على العالم المسيحي المنظم تبعاً للنظرة السياسية الدنيوية للبابوية ويحكمه الملوك استناداً إلى أوامر الله والكنيسة.

الثقافة الاوروبية

الإيمان وواقع الثقافة

وإذا كان صحيحاً أنه وجدت في كل العصور بيِّنات وذرائع مختلفة وأحياناً متناقضة كيّفت وحددت السلوك الفردي والجماعة، وإذا لم يكن من سبب، استناداً إلى التقييم نفسه للحقيقة، لكي يشذ القرن الثالث عشر عن هذه القاعدة، يبقى أنه من بين هذه الذرائع يعد الواقع الديني في المقدمة.



27 - مدينة أعمال وتجارة في القرون الوسطى: منظر لمدينة سْيينا من قبة الكنيسة



ففي المجال السياسي ترتكز السلطات على واقع أخلاقي، إنها في خدمة القضية الدينية وغايتها مساعدة الجنس البشري على خلاصه. وتفهم النشاطات الإقتصادية على أنها مساهمة كل فرد في مجموع الجماعة الذي يجب أن يكون محقاً ويتطلب المساهمة الإجتماعية. والحياة الخاصة منظمة تبعاً لوصايا اللّه والكنيسة. والواقع أنه يمكن العثور، في هذا المجتمع، على أناس أذكياء حاذقين استطاعوا الاستفادة من المبادىء وتحقيق مطامحهم الشخصية وإتباع رغباتهم الفاسدة ويمكن اكتشاف خبثاء ومرائين باستطاعتهم أن يتصرفوا بالوصايا على هواهم في حين أنهم يتظاهرون بالتقيد بها. ولكن وقائع كهذه لا تسمح بمناقشة العمق الذي بلغته المسيحية، مع الموافقة على أن لكل عصر من التاريخ المسيحي «مسيحيته» الخاصة تبعاً لمعاناته ومشاكله. ويبدو بشكل واضح أن الشعوب المسيحية، في غالبيتها العظمى قد نظمها إكليروس نشيط ـ على الأقل، ابتداء من نهاية القرن الثاني عشر ـ في حين أن أكثر الناس تثقفوا ثقافة عميقة بالعقيدة والواجبات الأخلاقية التي تنشأ عنها، وزيادة على ذلك فإن وجود الرافضين الملحدين وسواهم، لا يخفف من هذا الرفض، بل على العكس فهو يقويه، لأن جميع المعترضين يفكرون هم أيضاً إنطلاقاً من المسيحية لأنها، بالنسبة إليهم أكثر مما هي بالنسبة إلى الكاثوليك، المعيار الأساسي والمبدأ الحاسم. وهم يشهدون، إذا كان ذلك ضرورياً، على النشاط الديني لذاك العصر، وإن الإدعاء بأن ذاك العصر ليس مسيحياً، وأن العصر الوسيط، بشكل عام، انطلاقاً من هذه العقود من السنين، ليس هو أيضاً مسيحياً؛ إن الإدعاء يعتبر غير معقول، إلاّ إذا أعطيت كلمة «مسيحي» معنى خاصاً وذاتياً. يكون العصر مسيحياً إذا أراد ذلك أفضل ممثليه وجماهير الشعب ـ إن النية التي عبرت عنها هذه الإرادة مكنت من تحليل عناصر الإيمان وقياس درجة رسوخه.. فمن يجرؤ على القول، إلاّ في حالات نادرة، إن رجال القرن الثالث عشر لم يريدوا ذلك؟

إن هذا الموقف هو نتيجة ماضٍ طويل من الجهود، أوّلها وأهمها تم في النصف الثاني من القرن الثالث عشر بمبادرة من البابوات والأساقفة والرهبان وبمساهمة العدد الأكبر من الكهنة ورجال الدين. وعرفت هذه الحركة بعض التراخي في منتصف القرن الثاني عشر ثم انطلقت من جديد في بداية القرن الثالث عشر وبلغت مدىً جديداً بفضل دينامية جماعة الرهبان المتسولين التي يعبِّر مؤسساها أفضل تعبير، بحياتهما وأعمالهما، عن المدنية المسيحية لذاك العصر.

ويكشف القديس دومينيك، مؤسس الرهبنة الدومينيكية (أو الأخوة الوعُاظ) بعد اختبار طويل، الهدف الذي عليه أن يبلغه. وُلد هذا القديس بحدود سنة 1170 في عائلة من النبلاء الصغار من كالارْويغا من أعمال قشتاله، جنوبي بوغوس، وتابع دروساً معمقة في الكتاب المقدس واللاهوت في مدينة بالنسيا. وعندما أصبح كاهناً قانونيا في كاتدرائية أوسْما، تفرغ لمختلف المهمات الكهنوتية وأخصها الوعظ، فيما تميزت حياته الخاصة بالزهد والتقشف. ومنذ السنوات الأولى من القرن الثالث عشر تملكته رغبة في تبشير الوثنيين. وبمناسبة رحلة قام بها إلى روما بصحبة أسقفه التمس إذناً بذلك من البابا، فنصح البابا إنوشنسيوس الرجلين بأن يذهبا لمساعدة الرهبان السيسترسيين الذين يعملون في منطقة اللانغدوك، على هداية المانويين إلى الدين المسيحي، فباشرا العمل منذ ربيع سنة 1208 وتخليا بعد قليل عن الأساليب المستعملة حتى ذلك الحين والتي تهدف إلى إعادة تنظيم الشعب بتنصيب كهنة من أصحاب الكفاءة وأوفياء للكنيسة وقررا أن يتصلا مباشرة بقدر الامكان بالجماعات ويعظا في الساحات وفي الحقول ويتناقشا صراحة مع قادة الهراطقة ليظهرا لهم أخطاءهم بطريقة علنية وليبرهنا أخيراً وخاصة أنه بالإمكان أن يعيش الإنسان في حمى الكنيسة، حياة لا غبار عليها ويمارس الفضائل التي بشر بها الرافضون ويتهمون الكاثوليك عن حق، بأنهم أهملوها. وفي سنة 1207 يبقى دومينيك وحده فيما يعود أسقفه إلى بلاده، ويستقر في فانجو - Fanjeux - ويجمع حوله بعض التلاميذ ويحصل من أسقف تولوز على إذن بتأسيس رهبنة أسقفية ليستأصل فساد الهراطقة ويطرد الرذائل ويعلم قانون الإيمان ويلزم الناس بأخلاق سليمة. وفي سنة 1212 يَدَع تلاميذه في تولوز ويتابع، في الجنوب، عملاً ظلت نتائجه محدودة وفي سنة 1215 يقرر أن يطوِّر عمله ويوسع مشروعه، فيذهب إلى روما ويلتمس بأن تعم رهبنته العالم المسيحي بكامله وأن يعترف بها البابا. وفي سنة 1217 يوافق البابا هونوريوس ويثبت هذه الأخوية الجديدة.

وإذ يقوم دومينيك بهذا العمل مع بقائه أميناً على اهتماماته الثابتة بنشر الدين المسيحي - بين الوثنيين أولاً وباستعادة الهراطقة ثانياً وبإدخاله الدين أخيراً، وبطريقة أعمق بواسطة الوعظ، في النفوس والأخلاق - يضع نفسه على مستوى العالم المسيحي بأكمله الذي أراد أن يهتم بأمره وينظم حضارته إستناداً إلى النظم المسيحية

الأفضل إعداداً. وينصب رجال دين يكلفهم، كمهمة أولى، العمل وسط المسيحيين ليزيدهم تفهماً للدين وتعلقاً به. ويعظ هو في مختلف البلدان الأوروبية معوضاً عن عجز الإكليروس العلماني المنشغل بالتزامات العبادات والمنهمك في مهمات إدارية ومادية وعالمية. وزيادة على ذلك، لكي يكون الوعظ على مستوى عالٍ من النضج ولإقتناع دومينيك بأن ثباتِ الإيمان يعتمد دائماً على معرفة رصينة للعقيدة، فرض على طلابه أن يتابعوا دراساتهم ـ وهكذا أصبح التعليم في معهد الرهبانية وفي الجامعات إحدى المهمات الأساسية للدومينيكان.

وابتداء من سنة 1217 ينتشر الرهبان الدومينيكان في جميع المناطق: في إيطاليا (روما وبولونيا وفِيْتِرْبا)، وفي فرنسا (باريس وتولوز وليون). وفي إسبانيا (مدْريد وسيتوڤيا) وبعد ذلك في إنكلترا وألمانيا.

وعندما توفي دومينيك سنة 1221 كان عددهم 500 عضو موزعين في ثمانية أقاليم: روما ولومبارديا وپروڤانس وفرنسا وألمانيا وإنكلترا وإسبانيا وهنغاريا. وفي سنة 1223 أضيفت إليها أربعة أخرى هي: الأرض المقدسة واليونان وپولونيا وسكنديناڤيا. وكانتِ الأديرة تتكاثر على امتداد القرن وكان الهدف إقامة دير في كل مدينة، وكان على رأس المجموعة رئيس عام ينتخبه ممثلو الأقاليم والأديرة والمجلس العام المؤلف من هؤلاء الممثلين الذي كان يجتمع كل عام. وتمارس البابوية عليهم إشرافاً مستمراً تمثل أكثر الأحيان بمنحهم بعض الإمتيازات وبفضل هذا الإشراف أصبح هؤلاء الأخوة الوُعّاظ خير منفذين لقرارات البابوية، وإليهم أسندت أعمال محاكم التفتيش. إنهم العملاء الأساسيون للكنيسة الرومانية وأول المدافعين عن الرتبة الحبرية.

غير أن عملهم لم يتميز بهذه الصفة إلّا بطريقة غير مباشرة وفي وقت متأخر، وكان لمشروعهم في القرن الثالث عشر مظاهر إيجابية. لقد حمل المسيحيين على أن يتساءلوا حول التزامات الإيمان وأن ينهلوا الثقافة بشكل أفضل وأمتن وأن يفهموا أكثر كم يعتبر الدين مسلكاً شخصياً يُسأل عنه كل انسان ويمارس بالصلاة ويؤدي إلى إكتشاف المحبة التي تجمع المؤمنين بالله وتجمع بعضهم ببعض داخل الكنيسة وقد تركز عملهم أوّلاً في الأوساط المدينية لأن هناك توجد وتتجمع الفئات الشعبية المتباينة التي بواسطة نشاطاتها التجارية أو لإرتباطاتها بعالم الأعمال، تملك، على

الصعيد الأخلاقي ، مواقف لا تنسجم مع مواقف الأوساط الإقطاعية والريفية، وهي لهذه الأسباب لم يستطع الإكليروس التقليدي أن يحسن تنظيمها وتأطيرها . وعليها طرحت بشكل خاص مسألة الثروة التي لا ينسجم البحث عنها مع الكمال المسيحي. وفوق ذلك، وكردة فعل ضدهم أو ربما بالأحرى بفضلهم ، تمجد مثال الفقر، المدخل الحقيقي للحياة المسيحية. ويفرض دومينيك بهذا الخصوص، على إخوانه، ألّا يملكوا شيئاً خاصاً بهم وألّا يعيشوا إلّا بالصدقة والمحبة. ويمنع المؤسسة الرهبانية أن تكون صاحبة أملاك ولكن دون أن يمنع استخدام بعض الأملاك الضرورية. وكل ذلك يعبر عن إيمان عميق بالله يبعث الحماسة والحياة في المؤسسة.

لكن ليس هو الذي خلده التاريخ والأسطورة كبطل أوّل للفقر. إن هذه الصفة تظل، بلا جدال، ملازمة للقديس فرنسيس الأسّيزي. ولد ابن التاجر هذا، واسمه الحقيقي جان برْنادونْ، سنة 1181 أو سنة 1182 وتلقى ثقافة دنيوية وأولع بالشعر وحلم أولاً بالأعمال الفروسية وبعد أن اشترك في حملة عسكرية وعلى أثر مرض عضال قرر سنة 1205 أن يترك العالم ويعيش في حالة من الإملاق ويقيم قرب كنيسة خربة ، كنيسة سان ـ دميان عند أبواب المدينة التي ولد فيها وكان يكتفي ، ليمسك رمقه، بما يجود عليه الناس. ويشكك موقفُه هذا أباه فيجره إلى محكمة القناصل، فيرسله هؤلاء إلى الأسقف . عندئذٍ، ورغبة من فرنسيس في التأكيد على أنه يتنكر للعالم، يخلع ثيابه أمام الجمهور في الكاتدرائية ويسلمها لأبيه سنة 1208. وعند هذا التاريخ تطور تفكيره وكشف له أن الهروب من العالم لا يحل شيئاً إنه يوفر فقط وسيلة لتفادي التجارب والكفر بالملذات دون أن يحمل بذاته غنى روحياً حقيقياً يكتسب بممارسة الفضائل كالتواضع والفقر الذي يعبر عن المحبة، لأنه منذ رفضه للحياة العالمية انصب تفكيره على كيفية الحصول على الخلاص لكونه غنياً. ويصل به تفكيره إلى نهاية منطقية في شباط/فبراير من سنة 1209 عندما قرأ وهو يخدم القداس في كنيسة سان ـ ماري ـ دي ـ زانج في أسفل مدينة أسّيزْ، هذه الآيات في انجيل متى : «لا تحملوا لا ذهباً ولا فضة ولا مالاً في جيوبكم ولا تحملوا زاداً للطريق ولا ثوبين ولا حذاء ولا عصا». عندئذٍ يخلع جبته وحذاءه وعصاه ويلبس ثياباً سمراء خشنة ويصبح «الفقير الصغير» عن جدارة.

وتوصل في الأشهر التالية إلى أن يجمع حوله بعض المريدين واستقر معهم في كوخ قريب من سانت ـ ماري ـ دي ـ زانج[1] وأسسوا هكذا «أخوية» من التائبين العلمانيين. وكان يفرض على إخوته الصغار ـ كما يدعوهم ـ أن يذهبوا للعمل في المزارع وفي بيوت البورجوازيين للحصول على ما يأكلونه ـ إذا أعطوا ذلك ـ ولكن ليس على المال. كان يرفض أن يملك أي شيء كان ، ولم يكن يقبل الثياب إلا احتشاما . وكان يأمر بطلب الطعام من الناس تسوُّلا إذا لم يحصلوا عليه ممن عملوا لهم. . . وينصح بالعناية بالبرْص والصلاة وشكر الله على جوده ورحمته. وإعطاء المثل الصالح قبل كل شيء. إن هذا النوع من الحياة بإمكانه أن يصدم الناس، ولكن أسقف مدينة أسّيز[2] الذي يحبذ هذه التجربة، اصطحب فرنسيس إلى روما للحصول على موافقة البابا. ويعطي إينوشنسيوس الثالث موافقته ويحمل الفقير الصغير رسالة «هداية الناس إلى الله». وهكذا حصل فرنسيس، المتواضع بين المتواضعين، المذعن عن رضى لكل سلطة، على مهمة أساسية، وهي أن يزيد المسيحيين إيماناً ـ وعلى غرار دومينيك، كان يرغب بهداية الوثنيين إلى الدين المسيحي فانتقل إلى الأرض المقدسة سنة 1212 وإلى مراكش سنة 1214 ليبشر بالإنجيل وسرعان ما اكتشف أن أفضل طريقة لتحقيق مبتغاه هي المثل الصالح، ولكن رضي بسهولة أن يستخدم الكلام وسيلة. غير أنه فهم رسالته بطريقة خاصة به وفريدة إذ إنه أراد أن يعمّد الأغنياء أوّلا محاولاً إقناعهم بأنه من المستحيل أن يكونوا مسيحيين صالحين إذا كانوا يسعون وراء الثروة. لم يكن يطمح إلى خلاص المسيحية إلاّ بالتجدد بالفقر، وتسعى طريقته هذه إلى بلوغ أعلى ذروة روحانية، ويطمح لأن تكون تجديداً وإصلاحاً للمجتمع برمته، إصلاحاً يتم من الداخل تقوده وتشرف عليه الكنيسة وكهنتها لاقتناعه بأن لا إيمان مسيحياً ولا خلاص بدون السير في الطريق التي يدعو إليها . فالفقر هو إذاً الفضيلة الأساسية التي يجب أن يمارسها كل إنسان لتنقية الكنيسة دون أن يضعفها أو يعرضها للدمار وقد فهم هذا الأمر بسرعة الأحبار الذين كان فرنسيس يسألهم المشورة، منهم أسقف أسّيز، وكذلك الكردينال أوغولينو كونتي، الذي أصبح فيما بعد البابا غريغوريوس التاسع

---

(1) كنيسة في روما ودير للشارتريين بناها ميكل أنج .

(2) مدينة إيطالية .

وقد أدرك هذان الرجلان سريعاً الفوائد التي تستطيع أن تجنيها البابوية من ذلك. ومنذ سنة 1215 حظيت رهبانية الأخوة الصغار باعتراف رسمي ولم تعد أخوية محلية بل أصبحت جمعية عالمية شاملة وأسند إليها، في السنوات التالية، كما أسند إلى الرهبان الدومينيكان، بالإضافة إلى المهمات الأساسية من تبشير وتعليم، مهمات تفتيشية. وبالإضافة إلى جمعية وعاظ تحولت إلى ميليشيا في خدمة الكرسي الرسولي، وعرفت ازدهاراً ملحوظاً معتمدة على مثالية حماسية وعلى دعم من البابوية، وتمركزت في كل مدن العالم المسيحي: في إيطاليا أولاً (أسيز وبولونيا وروما وفلورنسا وپيزا وسْيَنّا ونابولي وڤيسان وترانت) وفي فرنسا (كاهور وپيريغو وبوردو ومونپيلييه ونيم وآرْل وإكْسْ، وليموج ونانْتْ، وسومور، وأنْجِيْه ولوماند وباريس وليون وأرَاس وإيْپْرْ وغانْدْ وبْروغْ) وفي المانيا (مايانْسْ، ووُوْرْمْز وسْپِيْرْ وكولونيا وُوْرْتْربورْغْ وغولْساز وماغْدبورْغْ وإيرفورْتْ) وفي إنكلترا (لندن وكنتربري وأوكسفورد وكامبريدج) وفي شبه الجزيرة الإيبيرية (ليشبونة وليريدا وكوانبر وطليطلة وسرقسطة). وقد توزعت سنة 1224 في ثلاثة عشر أقليماً برئاسة مدبر عام ينتخبه المجلس الأعلى. ونشرت مع الرهبنة الدومينيكية شبكة من الأديرة على الأرض الأوروپية بكاملها على غرار ما عمل في القرن السابق الكونيون والسيسترسيون الذين كان لا يزال تلاحمهم مستمراً.

غير أن التاريخ الفرنسيسكاني هو أكثر اضطراباً من التاريخ الدومينيكاني وهذا ناشىء عن غموض رسالة فرنسيس الذي يبشر بالفقر التام ويعلن بأنه لا يمكن التسامح بذلك، ولكنه يقبل في الوقت نفسه أن يشارك أخوته في مشاريع منظمة، الأمر الذي يتطلب على الأقل، استخدام الوسائل إذا لم يكن أملاكاً. وبعد موته بقليل انقسم إخوته: فالروحانيون أرادوا أن يظلوا فقراء وانتقدوا بشدة الديريين (سكان الأديرة) الذين وافقوا على بعض التنازلاتَ وتوصل القديس بونا ڤنتورا، المدير العام من سنة 1257 إلى 1274 إلى وضع طريقة عيش نالت موافقة الجميع. ولكن عندما توارى عاد الخلاف من جديد وبشكل أعنف. ومن الواضح أن التيارين كانا يصطدمان فقط بخصوص تطبيق قانون الفقر أي طريقة حياة الإخوة، ولكنهما كانا يتفقان على خدمة الحضارة المسيحية والدعوة لها. وانضم الرهبان الفرنسيسكان إلى الرهبان الدومينيكان وأنجزوا مهمة واحدة وجدت أوروپا بواسطتها، على الصعيد

الديني، تماسكاً متيناً. واتخذ دومينيك وفرنسيس كلاهما دور المحرك وكانا النموذج الذي يحتذى.

القيم الاجتماعية

وكان الأوروبي الذي تثقف دينياً في الإطار العائلي والرعوي يمارس، في القرن الثالث عشر، حياة مسيحية دون إكراه ظاهر وفي أكثر الأحيان كان يصحب اشتراكه في العبادة والصلاة مشاعر تقوية مختلفة موجهة نحو عبادات متنوعة يحتل بينها التعبد للقربان المقدس ومريم العذراء والقديسين مكاناً مرموقاً. وهكذا توزع شعب الله في العالم المسيحي إلى جماعات ـ أخويات، عالميين علمانيين وتجمعات غير رسمية ـ تُعِد وتُباشِر أعمالاً يقوم كل واحد فيها بدوره بحماسة واندفاع. ولأنها التعبير الدائم عن النوايا المحِبة عملت على تمتين التضامن. وبفضل هذه الحياة الجماعية التي أحيت العمل الليتورجي وأثارها الوعظ، فُهِم الإيمان حق الفهم. وإن العدد الأكبر من المسيحيين كان يعرف البيِّنات الأساسية ـ وأهمها أن الإله الذي يعبدونه قد صار إنساناً وتحمل بشكل كامل معاناة الحياة الإنسانية في شكلها المجرد والأليم، ولم يشكوا في ذلك، ولو لم يفهموه بوضوح تام ـ ولكن هل وجد عصر استطاع فيه المسيحي «المتوسط» في قلب جماعة المؤمنين، أن يتجاوز هذه المرحلة؟ أما بالنسبة إلى الأخلاقيات فالقواعد التي وضعتها المسيحية والتي تختصر بمحبة الله فوق كل شيء وبمحبة الناس بعضهم لبعض هذه القواعد المسلكية فرضت على الجميع مع النواهي التي تترتب عليها. إن جميع المسيحيين مدعوون إلى ممارسة الفضائل دون أن تُعرض المخاطر التي يتعرض لها المستسلمون للرذائل بطريقة مفزعة. إن الإيمان مطمئن صاف، إنه إيمان بالله تدعمه الشفاعة بالقديسين وهو يؤدي إلى توازن عميق راسخ في الفرح، ولكنه فرح يغتذي بالعبادة والصلاة ويزهو بفضل التقيد الواعي الحر، ودون إفراط فوضوي، بخلقية الإنجيل ـ «يا يسوع، ما أطول ما يدوم فرحي» وهكذا يحدد الدين المواقف ويشكل العنصر الأساسي في الثقافة. ومن المبادىء الأخلاقية التي يضعها في المقدمة، التي تتخطى بشوط بعيد الصعيد الفردي، وتتدخل على نطاق واسع في الحياة الإجتماعية، ما يضفي على المسيحية طابعاً خاصاً يستمر حتى القرون التالية.

وبالنسبة إلى الموضوع الجنسي، فالزواج ـ الأحادي والخارجي وغير القابل

للفسخ - يعتبر مؤسسة أساسية، مستقلة نظرياً عما عداها ، بفضلها يقوم الـزوجان بوظيفة الإنجاب والتربية المنوطة بهما. وليس من قانون آخر بالنسبة إلى الكنيسة. وتظل العائلة الزوجية ، بالنسبة إلى المجتمـع ، الخلية الأولى التي تعتبـر الأمتن والأقوى. إن جميع المؤمنين أو أكثرهم مقتنعون بأن العلاقات الجنسية خارج إطار الزواج تعتبر خطيئة: غير أنه من الواضح أن العصر لم يكن عصر تزمت في هذا المجـال وأن التجاوزات كانت كثيرة. وإذا لم تعرض هذه العلاقات الرباط الزوجي للخطر فلا تعتبر خطيئة جسيمة . والزنى (العلاقات بين أفراد غير متزوجين) هو خـطيئة . ولا تشدد الكنيسة على النتائج التي تترتب عليه ولا على درجة المعصية للشريعة الإلهية. إنها توافق على البغاء الذي بدأ يعتبر كعنصر توازن إجتماعي. بالمقابل فإن الخيانة الزوجية والإغتصاب والممارسات المناقضة للطبيعة ووسائل منع الحمل والإجهاض تعتبر خطايا تعرض الخلاص للخطر وتسيء في غاياتها إلى المجتمع. وانتهى الأمر إلى اتخاذ موقف معتدل ومعقول صححه ورفضه، على اعتباره مفرطا في التسامح، اللاهوتيون الأخلاقيون في نهاية القرن الخامس عشر وفي القرن السادس عشر.

هذا البحث المتوازن، الذي يهدف إلى تقوية مسؤولية الزوجين وكل منهما على انفراد، تصحبه تحفظات تجاه المرأة، على الأقل من قبل عدد لا يستهان به من المفكرين الكنسيين. وبناء على ذلك لقد حدث تبدل ملحوظ بالنسبـة إلى العصر السـابق، ناشيء حتمـاً عن التغيرات الإجتمـاعية وعن تـأثير من جمـاعة الـرهبان المتسولين ووعـاظ آخرين وبفضل تنامي الإخلاص الزوجي . غير أن المرأة التي رُدَّ إليها هكذا، إعتبارها ، هي، قبل كل شيء الأم أو تلك التي تبقى عذراء وليس دائماً المرأة كمرأة بخصوصيتها البيولوجية التي تعطيها مركزاً مساوياً لمركز الرجل، مركز لا تتمتـع به بسبب التقـاليد أو الأعـراف في هذه المجتمعـات التي كانت منـذ البدء مجتمعات ذكور، ولكن لاستمرارية الشك بكونها مادة خطيئة «إنـاء للفسق، حواء الأبدية التي تغري الرجل البريء، إنها الكائن الشيطاني».

غير أنه مع النهضة الثقافية، توقف التفكير، خلال القرن الثالث عشر، كما كان في شأن أكثر المؤمنين الكنسيين في نهاية القرن الثاني عشر، في أن احتقار العالم هو قبل كل شيء احتقار للمرأة وبدأ البعض (منهم ألبير الكبير والقديس توما) بتبـرير العـلاقات الـزوجية ، ليس فقط بغـاياتهـا (ـ وهي الإنجاب ـ ولكن بغـايات) الإنسـانيـة

الخاصة ـ «العلاج ضد الغلمة ، الأمانة في المخدع الزوجي»[1]. ومن اللاهوتيين من تجرأ على التصريح بأن البحث «المعتدل» عن اللذة يمكن أن يكون مقبولاً كإحدى غايات الجماع الزوجي (ريشار ميدلتون سنة 1272). على أي حال يتضح شيئاً فشيئاً أن المرأة بالنسبة إلى الفرد وإلى المجموع، حافظت على مفاتنها وسحرها وقيمتها. ألم يحدث أن عبّر بيرول (Beroul)، وفي القرن الثاني عشر، أفضل تعبير، في تريستان وإيزولت، عن غموض بطلته المقتنعة في الوقت نفسه بأنها مذنبة (خائنة) وبأنه يجب أن يُغْفَر لها دون أن تسعى إلى إشراك الله معها ـ لتحطيم الشريعة الإلهية الخاصة بالزواج لمصلحتها ـ ولكنها محاولة أن نفهم الرجال بأنهم يجب ألاّ يدينوا استناداً إلى المظاهر، إن مشكلة الحب هي كثيرة التعقيد.

إن احتقار العالم يكون أيضاً باحتقار المال والثروة وبالنظر إلى الإزدهار التجاري والتحولات في البنى الإقتصادية فإن المسألة تبدو في الدرجة الأولى في محتواها الأخلاقي والإجتماعي : ودعا الأخيار إلى الفقر الذي يقترحه القديس فرنسوا كفضيلة تتيح ممارستها الحصول، من أهون سبيل، على النعمة التي يمن بها الله. ويصرحون بأنه يجب رفض المال والخيرات والممتلكات، غير أنهم يعرفون أن كلامهم هو مثالية محضة، والقليل القليل من يستطيع تحقيقه أو يحاول القيام به . إنهم يريدون ، قبل كل شيء ، أن ينبهوا الخواطر إلى مخاطر الغنى ويقدموا نموذجاً من شأنه أن يحث جميع المسيحيين، ليس على العيش في حالة من الإملاق المطبق بل على اكتساب روح الفقر، أي على عدم اعتبار الكسب والثروة كإحدى غايات الحياة ، وهذا ما يتوافق مع روح الإنجيل . يريدون أن «يهدوا» الأغنياء ويفهموهم أن الثروة التي يتصرفون بها أعطاهم الله إياها بصورة مؤقتة لصالح المجتمع بكامله ـ وليس لمنفعتهم الخاصة ـ وأنهم يجب أن يأخذوا علماً بذلك، لأن مسؤوليتهم عظيمة، في حين أن الفقير الذي يتألم في هذا العالم من الحرمان ومما يجره عليه وضعه والذي لا مسؤولية عليه، يجب أن يرضى بما هو فيه ولا سيما إذا كان يفهم قيمة ذلك وإذا كان يقدر غنى الفقر الذي يمارسه فإنه يحصل على جزاء لا مثيل له. إن هذا الموقف يحمل على احتقار المال وعلى نوع من التحفظ تجاه الأغنياء ولكنه لا يعمل على إدانتهم إدانة منهجية حاسمة.

---

(1) ج. ل. فلوندران: الكنيسة وتحديد الولادات ص 63 .

ولم تكن إدانة الكنيسة لتؤثر في شيء ضد الرِّبا. فمن المعروف أن العامل يمكن أن يكسب بعض المال بفضل عمله كما يمكنه إدِّخار بعض القروش البيض للأيام السود. ومن المسلَّم به أيضاً أنه يحق للتاجر أن يجني بعض الأرباح على السلعة التي يبيعها لأنه يقوم بعمل ما ويؤدي في الوقت نفسه وظيفة اجتماعية، على أن يكون هذا الربح مقبولاً ومحسوباً بشكل يسمح له بتحصيل العيش الضروري ـ هذا هو مفهوم نظرية السعر العادل التي عرضها القديس توما الأكويني، ولكنه يحظر عليه الربا أي القرض بفائدة لأنه مما ينافي الأخلاق ويناقض الدين المسيحي «أن يولِّد المالُ المال» دون أن يعمل، ولأن تشغيل المال يعتبر نوعاً من الجنون. غير أن رجال الأعمال وأصحاب المصارف والتجار يلجأون إلى هذه الأعمال بوسائل مختلفة ومنحرفة ويسخرون بعض الذرائع المنطقية لمصلحتهم الخاصة منها حاجات الإقتصاد الذي يتطلب مراعاة بعض القواعد التي بدونها تنهار النشاطات الإقتصادية ويعود ذلك بالضرر على الجميع وأولهم عامة الناس. إن مبدأ مسؤولية الغني استخدم في هذه الحال بمهارة. ويصرح الأغنياء، تذرعاً بهذا المبدأ أن الغني يجب أن يربح المال وإلا لما استطاع أن يقوم بمهمة إدارة الثروة التي يكسبها ويديرها لمصلحة الجميع. وما يسلم به الجميع والكنيسة في الدرجة الأولى أن جمع المال واكتناز الثروة وتكديس رؤوس الأموال، هذه الأمور المنبوذة بشدة من الصعوبة تقييمها، ويعود إلى كل إنسان شخصياً أن يخضع هذه القضية لضميره ويعالجها. ومن المتفق عليه أن المال المعار، الذي لا يستخدم في التجارة لأنه مجمد، يمكن أن يعطي بنسبة ما كان سينتجه لو استخدم في الأعمال التجارية. وما يعترف به الجميع أنه يجب أن يكون هناك تعويض على مخاطر إفلاس الدائن، لهذا يجد صاحب المصرف الذي أوجد تبريراً لعمله، يجد نفسه مضطراً لتقييم هذه المجازفة بعملية حسابية، أي يأخذ بعين الإعتبار فقط إمكانية عدم إيفاء المال وليس السعي إلى الإثراء عن طريق المضاربة. كل ذلك يعود، مع الإصرار على الإعلان بأن الربا هو خطيئة عظيمة، إلى السماح ببعض المخالفات التي لا تختلف بجوهرها عن ذلك. لأنه من الصعب التصرف بطريقة مختلفة ولأن شأن الإقتصاد أكثر أهمية في المجتمع من شأن الأخلاق. ولأن الجميع يفكرون هذا التفكير ومنهم العديد من الكهنة ورجال الدين. ومقابل ذلك، فللتعويض عن هذه التجاوزات بطريقة ما، ولإتاحة الفرصة لكل خاطىء أن يكفر عن خطيئته تصر الكنيسة على واجب المحبة والهبة

والصدقات، كأنها تترك لكل إنسان أن يحدد بنفسه ما هو ضروري لحياته ولمهنته وما هو نافل، هذا النافل يجب أن يترك للآخرين، وخاصة عندما يشرف المسيحي على الموت . إن رجال العصر بشكل عام هكذا يجب أن يكون موقفهم. ولا يبقى إلا أن نذكر أن التسامح بلغ في هذا المجال حداً لا يمكن الإعتراض عليه.

وأخيراً ففي جميع قطاعات الحياة الإجتماعية تؤدي أوضاع البعض والبعض الآخر، أوضاع السلطات والمؤسسات والفئات والأفراد إلى تبرئةٍ ما تجعل الحياة أكثر انسجاماً وتقوي التضامن بتخفيفها للصدامات. ويحاول الدين ألاّ يظل عائقاً ومشوّها، الأمر الذي يسمح للثقافة بان تزدهر وتتأنسن.

غير أن هذا التطور لم يضعف، في شكل من الأشكال السلطة الكنسية أو قوة الإكليروس التي رأينا كم كانت عظيمة في ذلك الوقت. فإذا كان الإنسان أكثر ثقة بالله وبنفسه وإذا أثاره الحب الروحي والمحبة وإذا ارهبه الخوف من الجحيم وإذا آمن ، ليسَ في غاية الصعوبة أن يحصل على الخلاص فيجب عليه أكثر من أي يوم مضى أن يخضع للكنيسة التي وحدها تحدد القوانين وتنظم المجتمع والتي إذا استطاعت أن تعطي برهاناً مَرِناً فيما يخص الخلقية الجنسية وفيما يخص آداب الإقتصاد (التي تستفيد منه لكونها المستفيدة الوحيدة من العطايا) فتظل متشددة في موضوع الإكليروس للإشراف على كل شيء وتوجيه كل شيء بطريقة غير مباشرة. وفوق ذلك فإن نهاية القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر يشكلان العصر الذي أصبحت فيه الكنيسة متشددة إلى درجة العنف. وخوفاً من الهرطقات وخشية من انقلاب يدمرها كما دمر الكاثوليكية بدأت تستخدم ضد أخصامها أقسى الأساليب وحشية التي تركت صيتاً مشؤوماً ، لكنه مبالغ فيه ، لمحاكم التفتيش التي قننت التعذيب بطرقها المرعبة . وما يُستنتج أن المسيحية لا تصدم أعضاءها ولكنها تتفهمهم بنية طيبة في نطاق أنهم لا يناقشون السلطة التي توجههم ويرتضون بلا معارضة حقيقية، كل القرارات التي تتخذها فليس من خلاص خارج الكنيسة.

تعليم أوروبي

تمثل السنوات 1150 ـ 1300، على المستوى الثقافي، في تاريخ العصر الوسيط، مرحلة الجهود الأبرز التي نشأت خلالها وازدهرت ثقافة مسيحية أصيلة تتميز بعمق وغنى وتمتلك تحت أشكال مختلفة خصائص بارزة. ويشهد على هذه النهضة

الإنتشار العظيم للمدارس وتأسيس الجامعات.

انطلقت هذه الحركة قبل منتصف القرن الثاني عشر، وقد ذكرنا كيف أن النتاج اللاهوتي والقانوني والفلسفي والأدبي اتسع يحييه نشاط لا يمكن إنكاره، منطلقاً أكثر الأحيان من مراكز تعليمية، تدب فيها حركة قوية، تأسست قرب بعض الكاتدرائيات والمجالس الكهنوتية. إن النشاط الإقتصادي الذي ميّزه، بشكل أساسي الاندفاع المتزايد لحركة التجارة والمواصلات التي أثرت على هذه الإنطلاقة الأولى، وأعطتها بالتالي دينامية لولاها لدب فيها الوهن سريعاً. وكانت الكتب والأفكار تتجول مع الناس والبضائع. إن المقايضات التي تغلغلت في صميم التقاليد بعثت في المعلمين والطلاب عادة ارتياد الغرب بكامله سعياً وراء التعليم والثقافة وأفضل إطار للعمل. وبموازاة ذلك فإن النمو السكاني بمضاعفته عدد الناس وتنويعهم قدّم المزيد من الإكليروس المعد للتنشئة والذي يجب تأطيره لهذا الغرض. وإن المدن، التي أصبحت مراكز محظوظة للنشاطات الجديدة التي كان يلتقي فيها أناس من «قوميات» مختلفة شهدت، أو على الأقل البعض منها، تنامي الملاكات المدرسية في الوقت الذي بلغت فيه فرادةً واستقلالية حقيقية إلى حد ما على الصعيد القانوني، وفيها تجمع السكان، تبعاً لنشاطاتهم، وحرفهم في رابطات ومهن دعيت فيما بعد تعاونيات. كل هذا كان يسهل حركة التغيير وكان بإمكانه أن يحدث قفزة كبيرة إلى الأمام ويأتي بمثل من البنى الأساسية، غير أن شيئاً لم يكن ممكناً أو على الأقل كان التطور حدث بطريقة مختلفة لو لم تكن المسيحية حاضرة وتعمل على توفير التلاحم لنهضة راسخة ومتوازنة وتقديم الوسائل لاجتياز التناقضات وتكوين نظرة عن العالم و «ذهنية ثقافية» وحالة فكرية متناغمة ومرتكزة على مبدأ الوحدة.

انطلق التطور عملياً عندما أُدركت، في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، الصعوبات المادية والتقنية، وتدفقت سيول من الطلاب على بعض المدن دون أن يكون هناك العدد الكافي من الأساتذة لتعليمهم. وبدأت السلطات المحلية تهتم بالمسألة إمّا لأنها أدركت الفائدة من الدروس من أجل تنشئة مهنية (رجال قانون ورجال مال على صلة بالأوساط التجارية) وإمّا لاعتبارها أن من واجبها مراقبة التعليم والسهر على الطلاب. وأصرَّ الأساقفة بنوع خاص وأكثر الأحيان، على ذلك وأحكموا سلطاتهم القضائية على المدارس الكاتدرالية وبطريقة مباشرة، وعندما يستطيعون

ذلك، على المدارس المجمعية. وادعوا أنهم الوحيدون الذين يملكون السلطة للسماح للمعلم بأن يعلم لأنهم يقدمون له مورداً للعيش . واستنتجوا من ذلك أن لهم حرية الإختيار وأن خيارهم لا تمليه عليهم الصفة العلمية لدى الطالب. وفوق ذلك فإنهم لم يحاولوا أبداً، لا هم ولا حكومات المدن، تحديد الأنظمة البسيطة الخاصة بالأقساط والإجازات والحياة اليومية للكهنة وتكاليف الدروس وغيرها. . .

وقد نتج عن ذلك، في بعض المراكز، احتجاج ومطالبة من قبل الطلاب وأساتذتهم من أجل وضع حلول صريحة لهذه المسائل واتخاذ تدابير من شأنها تسهيل العمل المدرسي عن طريق أنظمة عادلة: وسنة 1179 وبمناسبة انعقادالمجمع اللاتراني الثالث، طلب البابا ألكسندر الثالث، الذي كان قد علّم في مدارس بولونيا(إيطاليا)، الموافقة على نظام أساسي يفرض على كل مجلس كهنة في الكاتدرائية التكفل بإعالة معلم يعطي دروساً مجانية، وعلى كل مفتش مدارس في الأسقفية ـ جدير ومكلف من قبل الأسقف أو مجلس الكهنة للإشراف على المدارس وتوجيهها ـ أن يمنح إجازة تعليمية لكل من كان أهلاً لذلك ويكون لهؤلاء المجازين الحق بالتعليم وإنشاء مدارس إذا أرادوا. وبالرغم من أن هذا التدبير كان غامضاً ـ فالمجانية لم تقر إلاّ في المدرسة الكاتدرالية: والاجازة لا تعطي الحق في التعليم إلا في الاسقفية حيث منحت ـ إلا أنه (أي التدبير) يمثل تطوراً حقيقياً ويفتح الطريق أمام حل شامل وكان بنوع خاص يتميز بالتدخل المقصود للبابوية في هذه الشؤون وينم عن مطمح لتنظيمها على المستوى العالمي في الوقت الذي كان العالم المسيحي يقف على قدميه. وبما أنه في هذا المجال الذي عرف بكونه ناشئاً أساساً عن صلاحية الكنيسة، فلم يكن يتم شيء دون موافقة الكرسي الرسولي. وبما أن هذا الكرسي كان حينئذٍ يسهم بقوة في تكوين أوروبا ما، فإن التعليم في مستواه العالي كان يتحول إلى «أوروبي».

ولم يستطع المرسوم الذي أصدره المجمع اللاتراني الثالث أن يؤمن الهدوء: ربما بسبب غموضه وربما لأنه سمح لأصحاب العلاقة بأن يتفهموا موقفهم جيداً، ظلت تتفجر الأحداث في بعض المراكز وبفضلها توصلت الهيئات المدرسية إلى وعي مصالحها ومسؤولياتها وهكذا تجمعت شيئاً فشيئاً وفي تواريخ مختلفة تبعاً للمدن، وعلى غرار تكتلات الحرف اليدوية ورابطات التجار تعاونية أصبحت بسبب

أصالتها مستقلة استقلالاً تاماً عن كل سلطة، وكانت مع ذلك، تتمتع بحماية خاصة. وأعطيت هذه التعاونية في أي مكان تشكلت، اسم الجامعة الذي يعبر في آن واحد عن التجمع والإنفتاح الشامل.

وخير ما يمثل هذا التصور مدارس باريس، وأشهرها، منذ القرن الحادي عشر المدرسة الكاتدالية التي كان يشرف عليها إشرافاً مباشراً مدير معهد نوتردام (الذي ضم إلى صلاحياته مهمة مفتش مدارس) والمدرسة المجمعية في سانت ـ جنفياف وأضيفت إليهما في القرن الثاني عشر مدرسة مجلس الكهنة في كنيسة سان ـ فكتور. وفي السنوات 1180 ـ 1200 كان في هذه المدارس طلاب عديدون ومن جنسيات مختلفة وأكثر الأحيان يثيرون القلاقل. وسنة 1200 وعلى أثر مشاجرة مع الشرطة الملكية أعقبت شغباً حدث في إحدى الثكن قرر الملك بان الطلاب لا يخضعون لحكمه ولكنهم يخضعون لإشراف الكنيسة أي الأسقف. ونتيجة لذلك اتسعت سلطات رئيس معهد نوتردام وشملت جميع طلاب المعاهد الثلاثة وكان وحده فيها يمنح الإجازات، وابتداء من هذا التاريخ ازدادت الإحتجاجات ضده حدّة وفي نهاية سنة 1208 وبداية سنة 1209 يدعو البابا إينوشنسيوس الثالث الأساتذة والطلاب الباريسيين من مختلف الأنظمة لتعيين لجنة تضع نظاماً يطبق على الجميع. ويدعو في قراره هذا إلى تجمع عام. وكان هذا التجمع على طريق التحقيق ولم يكن لتدخله من هدف سوى تبريره ليضع حداً لاحتجاجات الأسقف ومدير المعهد. وتستمر المواجهات في السنوات التالية ويتدخل الكرسي الرسولي في كل منها ليعيد الهدوء وليقترح إتفاقاً ولكنه كان دائماً لمصلحة المدارس. وفي سنة 1215 يوقع السفير البابوي روبير دي كورسون رسمياً وباسم البابا تشريعاً يعفي بموجبه مدير المعهد، حامل الأختام، من منح الاجازات التعليمية وفي سنة 1221 يوقع البابا هونوريوس الثالث على قوانين أكثر دقة، وللمرة الأولى يستعمل كلمة «جامعة المعلمين والطلاب الباريسيين» وفي سنة 1231 تقر براءة بابوية أصدرها غريغوريوس التاسع، بشكل حاسم ونهائي، الإمتيازات الجامعية، ومنذ ذلك التاريخ لم تعد جامعة باريس مرتبطة بأحد فهي التي تحدد أنظمتها وتشرف على أعضائها وطلابها وتمارس حقوقها بإشراف سلطة البابا العليا وتقرر منذ سنة 1277 بأنه يجب أن تنشىء ثمانية كراسي للاهوت.

وفي بولونيا وأوكسفورد المركزين الآخرين النشيطين كان إنشاء الجامعة مختلفاً وكأن أقل تأثراً بعمل البابوية التي بدونها ما عرفت الجامعات وجوداً شرعياً، وهذا ما يفسر الدور الخاص الذي استأثرت به باريس والذي جعل منها أول جامعة في أوروبا وأشهرها وفي بولونيا حيث توافد الطلاب منذ النصف الأول من القرن الثاني عشر إلى مدارس كان أهمها خاضعاً لأحكام السلطات البلدية التي أصدر الإمبراطور فريديريك بربروس سنة 1158 ضدها دستوراً لحماية الطلاب غير الإيطاليين وقد نظم الطلاب صفوفهم في مواجهة المدينة ـ باستثناء الأساتذة المقربين جداً من القادة المحليين ـ تبعاً لبلدان منشئهم. وهكذا شكلوا أربع «قوميات» على رأس كل واحدة منها رئيس منتخب وقد شكل مجموعهم الجامعة. وخلال عدة عقود تكاثرت الصعوبات ولم يتوقف الطلاب عن المطالبة باستقلالية ذاتية وبالتمتع بالحقوق المدنية في المدينة وتدعمهم البابوية ـ مع هونوريوس الثالث منذ سنة 1219 وغريغوريوس التاسع وإينوشنسيوس الرابع ـ بقوة وبفضلها استسلمت السلطات البولونية، إلى درجة أنها أصبحت ضامنة الحرية الممنوحة للطلاب والحامية الرسمية للجامعة. وفي أوكسفورد، يتصدى البورجوازيون بالطريقة نفسها للأساتذة والطلاب الذين تقاطروا إليها في النصف الثاني من القرن الثاني عشر. وقد تكتلوا في بداية القرن الثالث عشر واتخذوا وضعاً استقلالياً، وفي سنة 1214 يسوّي السفير البابوي القضية ويطلب من المدينة أن تعترف بحقوق الطلاب ومعلميهم، ولكنه يخضع الجامعة لسلطات أسقف لنكولن ـ لأن أوكسفورد لم تكن مركز كرسي أسقفي ـ فيسمي هذا مدير الجامعة ويختاره من بين اللاهوتيين دون أن يثير أي اعتراضات . وهنا أيضاً، وبالرغم من هذه الخصوصية البارزة، تعطي البابوية في حال الخلاف، ضمانتها الرسمية، إنها وحدها التي تستطيع التدخل قانونياً بين الأسقف والجامعة.

ومع باريس وبولونيا وأوكسفورد مونبيلييه وحدها تشهد، في الوقت نفسه تلقائياً إنطلاقاً من مدرسة طب يحميها زعيم المدينة، تشهد ولادة وضع جديد منحه قوانينه الحقيقية الأولى سنة 1220 السفير البابوي. وولدت جامعات في امكنة أخرى نتيجة اضطرابات أو انشقاقات في المؤسسات القائمة أو نتيجة صراع ضد السلطات التي عارضت إنشاءها أو بسبب إنشقاقات داخلية وهكذا ففي 1229 ـ 1231 وعلى أثر أزمة أدت إلى إغلاق جامعة باريس وتوزع طلابها في مدارس المنطقة، ازداد عدد الهيئات المدرسية في أنجيه (فنون) وأورليان ازدياداً عظيماً وعندما عاد الهدوء ظل

قسم من هؤلاء الطلاب في هذه المدن حيث قامت المدارس بعمل الجامعات ولكنها لم تعتبر جامعات إلاّ بعد ذلك بوقت طويل (أورليان سنة 1306 وأنجيه سنة 1377). وهذا بالضبط ما حدث لكامبريدج التي تفرعت عن نزوح طلابي من أوكسفورد سنة 1208 ولم يُعْتَرَف بها رسمياً كجامعة إلاّ في سنة 1318 حين تبنت قوانين تشبه قوانين الجامعات الأخرى . وبالمقابل فإن جامعة پادو تأسست سنة 1222 مع وصول عدد كبير من الأساتذة والطلاب إلى مدارسها قادمين من بولونيا التي تبنت جامعة پادو أنظمتها وقد أُسِّست بعض الجامعات بشكل متعمد: من ذلك تولوز التي تأسست سنة 1229 بإيعاز من البابوية من أجل إقامة مركز تعليمي أورثوذكسي في بلد المانويين وتأسست جامعة ناپولي سنة 1224 بأمر من الإمبراطور فريدريك الثاني ملك صقلية. وتأسست جامعة بالنسيا سنة 1210 وجامعة سلامنكا سنة 1218 وجامعة ڤِلّادوليد قبل سنة 1250 بأمر من ملوك ليون وقشتالة وحظيت هذه الجامعات كلها بموافقة الكرسي الرسولي.

وشكلت هذه الجامعات شبكة موزعة على مختلف مناطق أوروپا وتأسست في الدويلات وعلى الحدود وتشرف عليها مباشرة أو غير مباشرة السلطة الوحيدة العليا للمسيحية لا سيما وأن الأساتذة والطلاب هم معتبرون قانونياً من الإكليروس وأن معرفة العلوم الدينية تشكل الهدف الأساسي للتعليم . وفي الحقيقة أن هذه الشبكة لم تكن تغطي في نهاية القرن الثالث عشر جميع البلدان الأوروپية فلم تصل إلى ألمانيا والبلاد الواقعة إلى شرقيها. وزيادة على ذلك فإن هذه الشبكة لم تكن متراصة الحلقات، لقد عوِّض النقص في القرن التالي. غير أنه منذ هذا العصر كانت الجامعات القائمة كافية لجذب النخبة الفكرية في أوروپا. بالإضافة إلى ذلك، فإلى جانب هذه الجامعات وليس بالضرورة دونها دائماًصمدت مدارس ليس لها وضع الجامعات، إمّا لأن العناصر التي كانت تستقبلها لم تكن غنية الثقافة وإمّا لأنها لم تكن متخصصة في فرع واحد. بعض هذه المدارس كان يتألق بوهج خاد وينشر تعليماً وثقافة من المستوى الرفيع. ونذكر من بين أشهرها مدارس ريمس وپواتييه وروان وكانْ ولوڤانْ ولندن ويورك وفلورانسا وسْيِنّا وپاڤيا وپيروز وكولونيا ووُوْرْتْزبورْغْ وماغدبورغ وهايدلبورغ وإرْفورتْ وڤيينا وپراغ.. وتأخذ هذه المدارس تعاليمها وبرامجها عن الجامعات في الفترة التي تحتكر فيها الجامعات، بالرغم من العديد من

الخصوصيات المتعمدة، توزيع الإجازات ذات القيمة العالمية؛ ويأمر من البابا تمنح الطلاب الذين أثبتوا جدارتهم إذناً بالتعليم في كل مكان.

أما بالنسبة إلى التنظيم العام فإن الجامعات تشتمل على أربع كليات على الأكثر: الفنون (أي الآداب التي تسمح بالحصول على المعرفة الأساسية) والحقوق واللاهوت والطب. يبدأ الطلاب عادة بدراسة الفنون ثم يتوجهون نحو الإختصاص الذي يختارونه إلا إذا تابعوا دروساً ذات مستوى أعلى في القواعد والخطابة والجدل أو أحد العلوم الملقنة في كلية الفنون. ويوزع الطلاب إلى «أمم» استناد إلى مناطقهم الأصلية ويتابعون دورساً في الثانويات «كتلك التي أسسها روبير دو سوربون في باريس) حيث يقيم أو يسكن أكثر الأحيان المعلمون، وعلى رأس الجامعة يقوم تبعاً لحالات الكليات أو الأمم، عميد ينتخب، استناداً إلى النظام، من قبل المعلين أو الطلاب أو من قبل الطلاب وحدهم (مثل جامعة بولونيا) وفي كل كلية مدير عام يدعى العميد. وتتضمن الهيئة التعليمية أساتذة مبرزين تخرجوا في الجامعة أي إنهم يشكلون جزءاً متكاملاً معها بشكل دائم ويتمتعون بكل الإمتيازات التي تمنحها الأنظمة. إنهم دكاترة، ويتبع البعض دروساً متطورة والبعض ينظمون مناقشات، ولكن يوجد إلى جانب هؤلاء أساتذة مساعدون وليسوا مبرزين (Agrégés) ويمنح المعلمون ألقاباً جامعية - بكلوريا، ليسانس، دكتوراه - بعد مناقشة عامة أمام اللجنة. تستند التربية، في كل مكان، إلى المناهج نفسها، الدراسات العليا أو القراءة هي عبارة عن تحليل ومناقشة يتبعها مؤلف يحتوي المعطيات الأساسية («حكم پيار لومبار في اللاهوت، «قانون» غراتيانوس في الحق القانوني) يعبر خلالها الأستاذ عادة عن فكرته الخاصة وتنتهي منطقياً ببعض التساؤلات. والبحث يقوم على استعادة هذه المسائل من خلال تمارين أخرى ثم تمحيصها، ويصل البحث إلى مناقشات جماعية - تقرر مادتها في اللحظة الأخيرة بواسطة الحضور: إنها المسألة الحرة. ويصل الأستاذ من هذه المناقشة إلى خلاصة عامة وتوليف هما النتيجة.

إن التنظيمات والبرامج والأساليب التي قررت في القرن الثالث عشر في الإطار الأوروبي لن تتغير هيكليتها في العصور اللاحقة غير أن محتواها سيتعرض لتعديلات في العمق بفضل التطور العام في العلم وبسبب الإصلاحات الطارئة. إن جامعة القرن الثالث عشر تمثل مؤسسة أوروبية ستحتفظ حتى القرن العشرين بأبرز

خصائصها وستطمح إلى نشر ثقافة ذات مستوى عالٍ وقيمة شمولية جامعة. ولها، فوق ذلك، بالمقابلة مع القرون اللاحقة طابع عالمي. طلاب من مختلف القوميات يأتون من أوروبا بأسرها يتواجدون هناك يتلاقون يجتمعون ويتلقون ثقافة واحدة ويعتادون مواقف فكرية واحدة: وينتقل الأساتذة بسهولة من مركز إلى آخر يثقفون أنفسهم بالثقافة العلمية ويحملون إلى طلابهم ثمار الإختبارات الجديدة. وتحاذر الجامعات، مع ذلك، أن يزاحم بعضها بعضاً. إنها تتخصص في قطاع من الدروس والأبحاث وتسهر البابوية على تفادي المنافسات التافهة. بولونيا هي جامعة القانون المدني الذي يحظر تعليمه في باريس: ويؤهل هناك رجال القانون الكنسي، ولكن ليس فيها كلية لاهوتية مؤهلة لمنح درجات علمية. باريس هي المركز الأنشط والأشهر في اللاهوت، وكلية الآداب فيها ذائعة الصيت، وتدرس الحقوق في أورليان وأنجيه، وكذلك في پادو حيث يدرس الطب أيضاً وأوكسفورد، المشهورة بمدرستها اللاهوتية والتي أكثر طلابها محليون واللامعون بينهم يتابعون دروسهم في باريس، تتمتع بصيت عظيم في علوم الملاحظة والإختبار.

اللاتينية، لغة الثقافة العلمية

كان التعليم في الجامعات والمؤسسات المدرسية الأخرى يعطى باللغة اللاتينية باستثناء بعض المدارس الابتدائية التي كان يرتادها أبناء التجار والحرفيين الذين يتعلمون فقط القراءة والكتابة والحساب. وكانت اللاتينية في هذه الأوساط محكية ومكتوبة أيضاً. وكانوا يحرصون منذ القرن الثاني عشر وأكثر من ذلك في القرن الثالث عشر على أن يتم التدريب في الجامعات بالطريقة الأرصن وتبعاً للأساليب الأكثر علمية. وكانوا يستعينون لهذه الغاية بأفضل علماء اللغة في العصور القديمة - بريسيان ودونا - وبالمؤلفين المعتبرين أسياد الإنشاء. وإذ ينشأ الطلاب على هذه الطريقة يعتادون بسهولة قواعد النحو الكلاسيكي ويحفظون إعراب التصاريف ويتقيدون بقوانين الكتابة والتأليف. يستعملون لغة غنية بالمفردات ويتوصلون إلى التعبير عن أفكارهم بأناقة مستعملين بطواعية مختلف التراكيب اللغوية. ولوحظ ازدهار وغزارة في التأليف، وكانت خصائص الشكل متنوعة وكان بينها الكثير دون الوسط ولكنها جميعاً تستخدم لغة لاتينية صحيحة بعضها القليل يكتفي بسرقة المؤلفين القدماء تبعاً للعادة الرائجة والعيب المشهور في العصر الكارولنجي.

ويلاحظ استناداً إلى تـطور انطلق في العقـود الأولى من القرن الثـاني عشر وتسارع وشمل مجالاً اتسع شيئاً فشيئاً في نهاية هذا القرن وخلال القرن الثالث عشر، يلاحظ عودة جديدة، محضرة بإتقان وشديدة التماسك إلى التقنيات الثقافية للعصور القـديمة وإلى انتشـار أدب لاتيني قيم وعلى مستوى المسيحيـة، ووجـد مؤلفـون ومدارس في كل المقاطعات ومن كـل الأعراف. إن لائحـة «المنتجين» ـ معلمين ونحاة وجدليين ولاهوتيين وقضاة وقـانونيين ـ تتضمن فـرنسيين وإنكليزًا وإيـطاليين وألمانًا وإسبانيين وهنغاريين وبولونيين وكرواتيين وتشيكيين. ويزداد هذا النوع وضوحاً عندما ننظر إلى الأدب الذي تتناقص صفته العلميـة وأدب كتاب الحـوليات وسيـر القديسين والشعر.

غير أنه بنوع عام، ورغم هذا التباين الحاصل بين المؤلفات التأملية والكتب الأكثر ارتباطاً بالتعبير عن الحياة (المادية والروحية) يعتبر الإنتاج ذا مستوى راقٍ. فهو يتـوجه إلى جمهـور مثقف تلقى دراسات رصينـة ولكنه لا يعنى فقط بـالجـامعيين ـ أساتذة وطلّاباً ـ وتقنيي العلوم، لأنه يستجيب أيضاً لحاجات الإكليروس والإدارة. وهو كذلك لا يهم فقط رجال الدين بل، على نـطاق ضيق، العلمانيين (مـوظفين وأشخاصا عاميين) الذين يجدون فيه فائدة ومتعة لأنه يتيح لهم التحدث بطريقة عقلية ولأنهم يحتاجون إلى الإلمام ببعض المعلومات. وهكذا تصبح اللغة اللاتينية مركبة لغوية للقادة كما حاولت أن تكونه في القرن التاسع ولكنها ستسعى من الآن فصاعداً موسعة مداها مرسخة ثباتها.

وحدث تطور آخر خلال القرن الثالث عشر وخاصة بعد سنة 1250 قصر مجال استخدام اللغة اللاتينية على جماعة العلماء وعلى الأبحاث والتعبير المجرد. هذا لا يعني أن المؤلفين والمؤلفات صاروا أقل عددًا ـ على العكـس تماماً، بل يعني أن استعمال اللاتينية كان يقل أكثر فأكثر في العلاقات اليومية: وأخـذ الطلاب وحتى الأساتذة يتكلمون فيما بينهم اللهجات العامية وأكثر منهم الإداريون والحكام الذين كانوا دائماً يفعلون ذلك وراحوا منذ ذلك الحين يحررون الأحكام والقرارات باللغة العامية، وكذلك رجال الدين الذين ظلوا يستخدمون اللاتينية وحدها في الطقـسيات. غير أن اللاتينية أصبحت أكثر من أي يوم مضى لغة الإتصال بين «القوميات» المختلفة ليس فقط بين رجال الدين ورجـال السلطة ولكن أيضاً بين التجـار. لقد أصبحت

والحالة هذه لغة العلاقات الدولية وانطلاقاً من هنا لغة أوروبا «الرسمية». وازداد استخدام اللغات العامية في الكتابات وفي النتاج الأدبي بشكل لافت ومن ناحية أخرى، لقد حدثت نقاط التقاء على حساب نقاط أخرى: انتشرت لغة أويل (Oil) في مناطق شمالي فرنسا مع اللهجات الپيكاردية والنورماندية والشمپانية والفرنسية واللورانية والبورغونية، ولغة اوك (Oc) في المناطق الجنوبية مع اللهجات الفاكسونية والأوكسيتانية والليموزينية والأوڤرنية والپروڤانسالية والدوفينية، والفرنكو - پروڤانسالية في المناطق الوسطى. وانتشرت اللغة الإنكليزية المتوسطة في إنكلترا حيث استعملت النورماندية واللهجات السلتية القديمة. وحول الألمانية الرديئة والمتوسطة والأنيقة تبلورت لغة ألمانيا، وثمة اللهجة القشتالية والكاتالانية واللهجات التوسكانية والپادوانية والناپوليتانية والصقلية.. وظهرت في فرنسا وإيطاليا وألمانيا وبنسبة أقل في إنكلترا والبلدان الإيبيرية آداب وانتشرت باللغات العامية.

بيد أن هذا النتاج الأدبي لا يتعارض في جوهره مع الأدب اللاتيني؛ ويجب أن نعترض بخصوص هذا الموضوع على تجاوزات بعض المؤرخين الذين أساؤوا استخدام مانوية مبسطة. ففي الواقع يوجد في المجال غير اللاتيني قطاع يمكن اكتشافه بسهولة، تكشف مؤلفاته عن تحفظ تجاه الثقافة الرسمية المسيحية وأحياناً عن رفض. يجب أن تؤخذ بالإعتبار أهمية هذه الإعتراضات ولكن يجب أن نشير هنا إلى أنها لا تعبر فقط باللغة العامية ولكن أيضاً باللغة اللاتينية. وإذا قمنا بموازنة عامة نرى أن المؤلفات العلمية التي تستسيغ موضوع التأمل والتجريد ترجح كفتها ومن ناحية أخرى تكثر المؤلفات الترفيهية والإخبارية التي تتميز بالبحث عن المحسوسات وتتوجه إلى بعض الفئات (كالنبلاء والبورجوازيين) التي حصلت على درجة من الثقافة والفضول وهي تهتم بالموضوعات المفكهة غير أنه لا يوجد غالباً بين القطاعين الأدبيين أي فرق طبيعي فإن الدراما الليتورجية والشعر الغنائي والبحوث الأخلاقية والتربوية وكتب الحوليات والسيرة باللغات العامية لا تنشأ عن فلسفة حياتية تناقض الفلسفة التي تعبر عنها الثقافة العلمية المكتوبة باللاتينية، وتلك هي حال الحكايات الشعبية والمسرحيات الفكاهية التي تنم عن دقة ملاحظة وذرابة لسان في النقد أو عن مهارة عالية في كشف العيوب والهزء بها وهي لا تصدر عن ثقافة عميقة وأخلاق متضاربة. إن الفضائل المسيحية في رواية بيرول الدرامية هي، كما ذكرنا، ليست

مرفوضة ولا معترض عليها في قيمتها الأساسية من قبل الحب المتصابي والفاسق «اتريستان وإيزولت».

الصِّيَغ الفِكْرِية

على أي حال، فإن المقاصد الأولى والأبحاث العلمية المعُدّة والهموم الفكرية لخيرة العقول التي نصادفها تقريباً فقط في مجال اللغة اللاتينية تعبرّ أولا عن الرغبة في الحصول على معرفة «شمولية» تسمح بتكوين رؤيا إجمالية للكون.

وتعبر هذه الرغبة عن نفسها بتحرير موسوعات ضخمة تفوق المجموعات السابقة . وفي حدود 1240 يجمع الدومينيكاني تومادو كاتِنْپريه في كتابه «في الأشياء الطبيعية» كل ما يجده نافعاً لمعرفة الطبيعة (البشر والحيوانات والمعادن والأشجار . يعتمد الكتاب على حذلقة مثيرة وسذاجة مفكِّهة، وينم عن فضول وحب لمعرفة رجالات العصر. وعكس ذلك كتاب «المرآة الكبرى» لمنصور دو بوڤيه الذي كتبه سنة 1260 ، فهو ذو قيمة مختلفة؛ فإننا نجد فيه أيضاً أمثالاً خرافية وتعليقات صبيانية وساخرة، ولا نستطيع الوصول فيه إلى الذرى العلمية لذلك العصر حيث يتربع أشهر العلماء الذين كان الكاتب يجد صعوبة في اللحاق بهم وفهمهم. لكننا نجد فيه عدداً من الأطاريح الواضحة والوثيقة حول العلوم والتقنيات المختلفة وحول التأمّلات المدعومة بالحجج التي تعالج مسائل أخلاقية ولا هوتية إلى درجة أن الكاتب يبدو، أخيراً، كنموذج وكمسرد ثقافي لذاك العصر على المستوى المتوسط.

عندما ترتقي ذروة الفكر التأملي نلاحظ القصد نفسه الذي ليس يسعى إلى «المعرفة» الموسوعية بل إلى تفسير عام للكون والإنسان والله. وقد تم في هذا القطاع جهد مستمر منذ أيام أبيلار من أجل استخدام ثابت ومعتدل للتفكير المنطقي لتجاوز البرهنة الجزئية والدقيقة، جهد شهدت عليه فيما مضى معركة الكليات التي أوشكت أن تحوِّل البحث عن مساره وتعطل ديناميته ولقاءه مع الأرسطو طاليسية التي توصلت ، لحسن الحظ ، إلى إطلاق حركة المعرفة وإعطائها زخماً قوياً.

واستغرق اكتمال هذا اللقاء مدة مديدة وذلك، من جهة، لأن الغرب احتاج إلى وقت طويل لاكتشاف مؤلفات أرسطو بكاملها ولمعرفتها معرفة عميقة، ومن جهة أخرى، لأن مؤلفات معلم القدماء الشهير عرفت أوّلاً عبر الترجمات العربية ـ التي

نقلت إلى اللاتينية ـ ترافقها تعليقات وشروحات للعلماء المسلمين أو اليهود، يصعب غالباً أن نميزها من النص نفسه؛ ولأنه عندما عرفت بنصها اليوناني تبين أن الاختلافات كثيرة بين مخطوطة وأخرى، وأنه فقط في النصف الثاني من القرن الثاني عشر بدأت تعرف، وبطريقة ناقصة، مؤلفات أرسطو الفلسفية (الأورغانون) وأن ابحاث الفلاسفة الطبيعية التي دخلت إلى الغربِ بعد سنة 1160 لم تتصل فعلاً في الحلقات التي يهمها الأمر إلاّ في بداية القرن الثالث عشر. ففي هذا التاريخ ألقى العلماء بعض النظرات على كتاب ما وراء الطبيعة الذي لم يعرف بكامله إلاّ بعد سنة 1240 مصحوباً بتعليقات ابن رشد. أما كتب الأخلاق التي اكتشفت مبعثرة قبل سنة 1260 بقليل استقبلت في الغرب في التاريخ نفسه تقريباً. وكتاب «السياسة» ترجم بعد سنة 1260 وإنه في السنوات 1260 ـ 1270 تم الحصول أخيراً على تفسير علمي رصين له بفضل ترجمة غليوم الموربيكي[1] غير أن ترجمة المؤلفات شيء وإدراجها في برامج التدريس والتعليم ودمج ما تحتويه من أفكار في الثقافة المسيحية شيء آخر. إن هذه الفلسفة القديمة العقلانية والمعقلنة التي بدت مختلفة اختلافاً جوهرياً عن التقليد الأفلاطوني الحديث بفضله تطرق اللاهوتيون منذ العصور الآبائية إلى تحليل العقيدة وبواسطتها نسبوا إلى هذا التقليد صفة الإدماج المتناغم بين المعرفة والمقاربة الفكرية عن طريق النفس. هذه الفلسفة لم يحدث دخولها أي صدمة قوية عندما تسربت إلى أوكسفورد ودخلت الأرسطوطاليسية بسهولة في صلب المناهج وشرحت في البداية استناداً إلى التوضيح الأفلاطوني ثم تأثرت بشروح ابن رشد ـ فيلسوف مسلم من قرطبة (توفي 1198 م) ـ وبالتفسيرات الأساسية. وعلى العكس، ففي باريس حيث دخلت بطلب من الأمة الإنكليزية، بعد تردد طويل، ثارت مناقشات حادة أدت إلى أزمة فكرية خطيرة هدأت بعد سنة 1255، ووضع اللاهوتي ألبير الكبير شرحاً وافياً لكل مؤلفات أرسطو وكانت غايته أن يجعلها مفيدة بعد أن حذف منها كل ما من شأنه أن يسيء إلى الإيمان المسيحي.

وجمعت حصيلة هذه المجموعة من المؤلفين، التي يوحي عنوانها بأنها موسوعية، في مؤلفات أخرى ـ اتخذت العنوان نفسه ـ اعتبرت شروحاً إجمالية

---

(1) نسبة إلى Moerbeke وهي مقاطعة بلجيكية (في فلاندرا الشرقية). (المترجم).

تخطت التناقض بين الفلسفة القديمة والوحي، التناقض الذي ظل كامناً طالما كان الغرب يلجأ إلى قواعد اللغة والبيان، ومحدود النطاق في حال اللجوء إلى الجدلية البحتة (آلية المنطق) ولكنه تفجر حالما عولجت قضية الماورائيات. وبين هذه المجموعات تعتبر مجموعة القديس توما الأكويني هي الأشهر والأكثر تماسكاً ويجب أن يقوم المنهج اللاهوتي، بالنسبة إلى هذا العالم العظيم وطلابه وبالنسبة إلى أرسطو طاليسيّي القرن الثالث عشر على الحقائق الإيمانية المعتبرة كمبادىء ـ ترتكز صحتها على الحقيقة الأولية ـ وعلى التوصل، بطريقة عقلانية واستنتاجية إلى «حقائق ـ نتائج» أخرى: وباختصار على استنتاج حقائق منتزعة من المبادىء الإيمانية بطريقة عقلانية. إن الشرح العقلاني في اللاهوت يقوم على تبيان كم هو حقيقي ما يؤكده الإيمان ـ والإيمان ينشأ عن نور علوي ولا يخضع للعقل، بل على العقل أن يذعن له ويجعل نتاج خبرته في خدمته. إن الهدف الأساسي الذي يجب الوصول إليه عن طريق المعرفة اللاهوتية هو اللّه أولاً ثم بواسطته، لأنه هو مبدأ جميع الأشياء وغايتها، إلى الإنسان والطبيعة. وبمعرفة اللّه نتوصل إلى تفسير إجمالي ينسق ويبرر جميع المعارف ويوفق فيما بينها. وبالمقابل، فإن بتصرفنا هذا وبجعلنا من العقل أداة تستنبط معرفة اللّه في ديمومته نتوصل إلى اعتبار الخليقة البشرية في سعيها إلى اللّه آلة عاقلة واعتبار المسيح حقيقة اللّه الإنسانية أُدركت هي أيضاً بواسطة العقل. إن الرغبة الملّحة في الحصول على فلسفة عامة تعطي قيمة ثابتة لثقافة القرن الثالث عشر تقوم على تحويل اللاهوت المسيحي عما كان عليه حتى ذلك التاريخ وربما عمّا يجب أن يكون: إن معرفة المسيح ـ اللّه تفيد في تغذية روحانية المؤمن وتقواه.

إن الجهد الأرسطو طاليسي أدى إلى الرشدية التي تَواجَهَ الجامعيون الباريسيون بشأنها مواجهة عنيفة في سنة 1270 وما يليها. وبدأت كلية الفنون قبل هذا التاريخ بكثير بتدريس المنطق الأرطوطاليسي مع تدريس الجدل مستعيدة شروح ابن رشد التي واكبت مواكبة دقيقة النصوص اليونانية. واحتج ألبير الكبير على هذا الأسلوب الخطر الذي يدعي تفسير العقيدة بواسطة العقل وإخضاع الوحي للإستدلال العقلي.

وهذا أحد الأسباب التي دفعته إلى أن يعطي شرحاً تقليدياً لكل مؤلف من مؤلفات المعلم اليوناني. وحوالى سنة 1270 حذر القديس توما بدوره «الأرسطوطاليسيين الجدد» وكان المع هؤلاء سِيْجِيْه دو بَرَابَانْ الذي ظل متشبثاً بموقفه

وقد توصل إلى حد إنكار أن الله هو العلة الفاعلة للأشياء. وما برحت هذه الضرائح، التي أدانها أسقف باريس، تجد من يدافع عنها، وقد قسمت المناقشات حولها الجامعيين وانتهت بهزيمة الرشدية ولكنها أثارت شكاً عاماً حول كل شكل من أشكال الشروح الأرسطوطاليسية ومن ضمنها الشرح التومائي.

غير أن هذا لم يمنع جامعة باريس من أن تصبح المركز المفضل الذي تجري فيه مناقشة العقيدة ومكان لقاء خبراء اللاهوت الذين دافعوا بآرائهم عن المعتقد القويم... وكان هذا مطمح أساتذتها وادعاءهم وتأنقهم، ولكن شهرتها أنها عرفت رسمياً بهذا الدور، الأمر الذي يفسر الصفة المميزة لعلاقاتها مع الكرسي الرسولي، ويتيح للبابا التدخل غالباً في شؤونها، وتحرص البابوية على إدخال رهبان متسولين في صفوف المعلمين وتدافع عموماً عن هؤلاء ضد الأساتذة الأعضاء في الإكليروس العلماني. وبفضل هؤلاء وبواسطتهم خضعت الجامعة للكرسي الرسولي وكانت الحكومة الإلهية (التيوقراطية)، التفسير الإجمالي للسلطة في وحدوية المسيحية، الند أو التطبيق للاهوت الأرسطوطاليسي الجديد، التفسير الشامل للكون والله.

ومع ذلك فليست تلك هي الصيغة الوحيدة للفلسفة العامة، وكانت الطهرية المانوية تطمح هي أيضاً لتبرير نظام الكون والخَلْق - أو فوضاها. وفي سنة 1198 يؤلف يواكيم دو فلور، وهو راهب كالابْرِي، كتاباً في الروحانيات والأخرويات - عنوانه مدخل إلى الإنجيل السرمدي - يتطابق مع نظرة تاريخية استناداً إليها تكتمل الكنيسة، بعد زمن الأب والإنتظار وبعد زمن الإبن والكنيسة، بعد زمن الروح وتحاول المسيرة نفسها وبطرق أخرى وفي سنة 1274 عندما ينكبّ الدومينيكاني هومبير دي رومان، محللاً في الجزء الثاني من «المجموعة الثلاثية» أسباب الإنقسام البيزنطي ونشوئه، على دراسة رصينة للتاريخ، وهو مع ذلك لا يحاول متابعة هذه المسيرة العلمية حتى النهاية بسبب عدم معرفته لتقبل فرائضها وخاصة عدم تجرُّئه على تحديد المبادىء التي تسمح له بفهم معناها الحقيقي ونشوء التفسير اللاهوتي.

أشهر أساتذة الفكر

وبعض الكتاب من حملة الثقافة وأبرز ممثليها سُجِّلت أسماؤهم على لائحة الشرف الخاصة بالحضارة الأوروبية وأشهر هؤلاء هم اللاهوتيون ويأتي في الدرجة الأولى الأوكسفورديون الذين يمكن أن نعتبرهم فلاسفة ولاهوتيين وعلماء

أختصاصيين روبير غْروسْتِيت (Grossetête) الذي أسهم بفعالية في إدخال مؤلفات المنطق الأرسطوطاليسي إلى المدرسة، يظل مؤلفاً كلاسيكياً متمسكاً بالمبادىء الأفلاطونية الحديثة. فبعد أن حاز على درجة الأستاذية في الفنون سنة 1190 علّم أولاً في أوكسفورد ثم انتقل إلى باريس حيث تابع دراسات في اللاهوت من سنة 1209 إلى سنة 1214 ليعود بعدها إلى جامعته الأولى فيصبح أستاذ اللاهوت فيها ومسؤولاً عن إعطاء الإجازات. وفي سنة 1235 رقي إلى رتبة أسقف لنكولن؛ تعود ميزته الأولى إلى فضوله العلمي الزائد الذي يستنير بالمنهج الأرسطوطاليسي. وفي مؤلفه الشهير «الإكزاميرون» يعالج قضية نشوء الكون والعلوم الطبيعية ويعطي قيمة كبرى لدور الرياضيات وأهميتها، الأمر الذي يعتبر ظاهرة فريدة في الأوساط الفكرية لذاك العصر. والذهنية ذاتها واهتمامات متشابهة وجدت عند روجيه باكون ـ الذي بعد أن كان طالباً في أوكسفورد وفي باريس حتى سنة 1250 أصبح أستاذاً في كلية الفنون فيها، وفيها شرح مؤلفات أرسطو العلمية، ثم في أوكسفورد حيث علم اللاهوت والفنون طوال عدة سنوات. وقد صدرت عنه بعض الآراء جعلته متهماً بالرشدية وبالانحرافات المعقلنة إلى درجة توجيه الإتهام إليه وسجنه لبعض الوقت. ليس هو لاهوتياً من الصف الأول، ليس هو بالتالي في هذا المجال رائداً متحمساً في الفلسفة الجديدة ولكنه رجل علم يَعْتَبر أن بالإمكان تفسير الطبيعة انطلاقاً من الرياضيات وبفضل الملاحظة الإختبارية التي يستخدمها أيضاً في المجال الروحي، وهذا ما أدى به إلى التجربة الصوفية. وهكذا يبدو رائداً في هذا المجال بما يمتلكه من معارف يعمل فيها عقله الناقد.

وأمّا أساتذة باريس فهم لاهوتيون حقيقيون يستحقون أن يُضَمُّوا إلى سجل مفكري التاريخ العظام. تنم أعمالهم وشخصياتهم عن صفة عالمية ـ أوروبية خاصة برجال الفكر في ذاك الزمان كما تكشف عن دور الرهبان المتسولين في الجامعة.

وألْبير الكبير واسمه الحقيقي البير دو بولستاد، ويدعى أيضاً البير الكولوني، هو الماني ولد في لوفِنْجِنْ سنة 1206 أو في بداية سنة 1207. تلقى دروسه العالية الأولى في إيطاليا (في بولونيا وفي پادو) وتابعها في كولونيا بعد أن انتسب سنة 1223 إلى جماعة الأخوة الوُعّاظ الدومينيكان. ويعلّم ابتداء من سنة 1228 فقط تقريباً في مدارس أديرة رهبنته، في المانيا أولاً، ثم ابتداء من سنة 1240 في باريس حيث

يحصل على شهادته الجامعية وحيث يصبح مدير معهد اللاهوت التابع للوعاظ ويعود إلى مسقط رأسه سنة 1248 ليؤسس مركزاً تعليمياً عاماً للدومينيكان في كولونيا التي غادرها عدة مرات للقيام بمهمات مختلفة ولكنه كان يقيم فيها أكثر الأحيان حتى وفاته المفاجئة سنة 1280 . وتتوزع مؤلفاته على امتداد حياته. وفي المرحلة الأولى من نشاطه قبل سنة 1248 أصدر دراسات في اللاهوت وتفسير الكتاب المقدس. وبين سنة 1248 و سنة 1250 يكتب تعليقاً على دنيس المزيف وهو فوق ذلك كتاب في الروحانيات. وبعد سنة 1254 يكب على مؤلفات أرسطو. ولا يحول ذلك دون كتابة دراسة عن بُويْسْ ويعود في آخر أيامه إلى اللاهوت ويعد مجموعة لم تنته قبل وفاته. وقد حصَّل باكراً علماً غزيراً ينم عن اهتمامه بجميع أنواع الأبحاث وإذ جذبته العلوم هو أيضاً (علم الفلك وعلم الحيوان) كما جذبته الملاحظة، فإن دوره الأول في تاريخ الفكر هو أنه مهد أمام رجال عصره للمعرفة والمنهجية والفلسفة التي اثبت بها ترجمان أرسطو والشروح التي وضعت لها، بعد أن نقحها ليحذف منها ما يسيء إلى المعتقد المسيحي أو ليسهل فهمها بوضوح وبطريقة تميز بجلاء ما يعود إلى الإيمان مما ينتمي إلى التفكير الفلسفي والملاحظة العلمية.

وجان دو فيدانْزا المدعو بونا ڤنتورا ـ القديس بوناڤنتورا ـ هو إيطالي ولد قرب أورڤياتو سنة 1217 . كان طالباً في باريس ما بين 1236 و 1242 ينتمي إلى رهبنة الأخوة الصغار الفرنسيسكان ويتابع دروسه حتى سنة 1284 بإشراف اللاهوتي ألكسندر دو هالِيْس الذي توازي مؤلفاته مؤلفات ألبير الكبير . وينخرط في سلك التعليم ، فيعلم أوّلا تفسير التوراة ثم باكراً جداً، اللاهوت . وفي سنة 1253 يصبح أستاذاً مسؤولاً في مدرسة الفرنسيسكان في باريس، وفي هذه الفترة يكتب أشهر مؤلفاته (شرح الأمثال، شرح الكمال الإنجيلي وفهم يسوع المسيح وسر الثالوث الأقدس). وسنة 1257 انتخب مدبراً عاماً لرهبنته التي يعيد تنظيمها ويلطف من حدة الخلافات التي نشأت داخلها بسبب موضوع الفقر، الأمر الذي اضطره إلى التخلي عن منصبه ، وفي سنة 1273 سيم كاردينالاً وأصبح أحد المستشارين المسموعي الكلمة لدى البابا غريغوريوس العاشر. وقد لعب بصفته هذه دوراً نشيطاً في التحضير لمجمع ليون الثاني المسكوني الذي قضى نحبه أثناءه على اثر مرض قصير سنة 1274 . وبالرغم من هذه الحياة الرسمية كان يتابع اهتمامه بالمسائل الفكرية فيلقي

المحاضرات وينشر عدة أبحاث (مسيرة الروح نحو خالقها، نعم الروح القدس السبع، تحرير المعارف في علم اللاهوت..)

وفي سجل أساتذة عصره يعتبر غالباً ويعرَّف عنه كخصم الأرسطوطاليسيه النموذجي أي كتقليدي. ولكن الحقيقة هي بخلاف ذلك لأنه مسؤول في الواقع مثل ألبير الكبير وتوما الأكويني، عن إدخال الأرسطوطاليسية في المنهج العلمي وعن معالجة المشاكل بطريقة فلسفية جديدة. وهو مثلهما ذو حكمة فائقة وربما أكثر من الآخرين يكشف مخاطر التجديد حتى إنه يتخذ مواقف ثابتة ضد الرشدية ولا يتردد في انتقاد أرسطو، ولكنه لا يتهم أبداً أحد المبادىء الأساسية للتومائية وهو إمكانية الإتصال بين الروح الإنسانية والله بواسطة جهد عقلي ولكنه بالمقابل يلح أبداً على إضاءة النفس المفارقة بالفكرة الإلهية ويضع المسيح عمداً في صلب علم اللاهوت ، وأن رؤيا الله التي تبلغ النفس لا تكتسب معناها الكامل إلا بالتوجه نحو المسيح الذي يمكن الوصول إليه بوسائل روحانية. وهكذا فإنه يجمع بشكل كامل بين القوة العقلية والحساسية الملكية التي تتغذى بمعين الفرنسيسكانية الحي. وبما أنه رجل عملي أيضاً وبما أنه يعمل على أعلى مستوى في الكنيسة من أجل حل أعقد المشاكل وبما أنه غنائي يعني حب الله له فقط الحياة، فلقد بدا كإحدى أقوى الشخصيات المثيرة في عصره.

غير أن معلم الفكر الجديد واللاهوت يظل القديس توما الأكويني، إنه هو أيضاً إيطالي ومتسوِّل ومثل البير الكبير واعظ. ولد في روكاسيكا في نهاية سنة 1224 أو في بداية سنة 1225 في عائلة نبيلة. ودخل كمنذور للخدمة الرهبانية إلى أحد الأديرة القريبة في جبل كاسِّينو، ثم درس في نابولي. وفي سنة 1224 ينتمي إلى الرهبنة الدومينيكانية بالرغم من معارضة ذويه ثم يذهب لإكمال دروسه في باريس حيث تتلمذ لألبير الكبير الذي لحقه إلى كولونيا حيث يظل حتى سنة 1252، إذ عاد إلى باريس، وفي سنة 1256 ينال الدكتوراه في اللاهوت، ويعلم في المدارس الدومينيكانية الملحقة بالجامعة حتى سنة 1259. وفي السنوات التالية يعلم في بعض المراكز العلمية في إيطاليا وخاصة في روما. ومن سنة 1268 إلى سنة 1272 يعود إلى أعطاء الدروس في باريس أثناء المعركة الرشدية الكبرى. ثم عين مديراً لمركز الدروس التابع للوعاظ في نابولي وفي كانون الثاني/يناير سنة 1274 يترك هذه

المدينة ليشارك في مجمع ليون الذي لم يستطع الإلتحاق به إذ يفاجئه الموت في الطريق. ويترك مجموعة مؤلفات تنطبق عناوينها أكثر الأحيان على التعاليم التي اعطاها وتدور حول تفسيرات للكتاب المقدس ومؤلفات فلسفية ولاهوتية تشكل هذه الأخيرة القسم الأكبر من مؤلفاته. إن تعليقه على الأمثال وأبحاثه المختلفة حول مؤلفات أرسطو (الطبيعة وما وراء الطبيعة ، علم الأخلاق لنيكوماك والسياسة) وفوق كل ذلك مجموعة مؤلفات ضد الأمم. مقالته حول خلود العالم والمجموعات اللاهوتية المقسمة إلى ثلاثة أجزاء والمؤلفة ما بين 1267 و 1272. كل هذا التراث يتضمن فكرته بكاملها.

وترتبط فكرته ارتباطاً وثيقاً بالجدل الأرسطوطاليسي وتعبر بوضوح عن الهدف والنتائج التي ليس من الضروري العودة إليها ويوجه توما الأكويني تفكيره الأساسي نحو الصلات بين العقل والوحي ويبرهن أفضل برهان كيف يستطيع العقل تدعيم الإيمان واكتشافه، الإيمان الذي يظل الحقيقة الأولى التي ينبع منها كل شيء والتي يجب ألاّ نفتش لها عن برهان عقلي، لأنه ليس لذلك من برهان. وهكذا فبتوسيعه لمجال المنطق وبتضييقه لنطاق ما لا يبرهن فإنه يمجد ما لا يقبل البرهان هذا على اعتباره المصدر الوحيد للعقل والمبدأ الوحيد للحياة ، وهو إذ يستوعب الفكرة الإلهية بواسطة عقله كإنسان إلى درجة تجريد الدين من الصفة الإنسانية والمبالغة في عقلنته، يظل متمسكاً بتوافق محسوس بين النفس والله والمسيح. إنه يميل إلى اعتبار التعليم الديني المقدس علماً وحكمة في الوقت نفسه، الأمر الذي يؤدي إلى التقليد الأوغسطيني الافلاطوني الجديد. «إنه في الواقع أكثر إخلاصاً لمطامح أوغسطينوس البعيدة ولحب العقل الذي يفرض نفسه بقوة في الإيمان وفي علم الأسرار. إن المبحث النقدي الأرسطوطاليسي «هو» الأداة الثمينة لهذا التوليف ولكن الذهنية تظل أوغسطينية ولم يعرف الأوغسطينيون ، الأكثر روحانية في الظاهر ، أن يحققوا الوحدة الروحية لنفس تكون ممارستها للدين هي ممارسة العقل نفسه. ومع القديس توما يصبح فضول العقل الإنساني الواسع المدى فعلاً دينياً أو بالأحرى ممارسة إيمانية».

فالتوليف إذاً تام. إنه يمهد لاستيعاب الكون والإنسان واستقبالهما وفهمها استناداً لما قدره الله في حقيقة المسيحية.

«دُون هـذه العقول المحلِّقة مفكـرون آخـرون أيضـاً يستحقـون أن تحفظ أسماؤهم وقد أبرزوا في مؤلفاتهم تاريخ أوروبا التي اجتازوها من مدرسة إلى أخرى مثل ألبير وتوما وبونا ڤنتورا. وبين القانونيين البارزين الذين أطلقوا دراسة القانـون الروماني ومعرفته والذين طبقوا في الوقت نفسه، على التحليل الذي يعطونه عنه، منهجاً علمياً اتسم بالارسطوطاليسية. من هؤلاء فرنسوا أكورسي اكورسيوس المولود في فلورنسا نحو سنة 1182. تتلمذ لآزو ثم عمل استاذاً في بولونيا حيث مات سنة 1260. يبدو أنه أنشط الجميع، بالرغم من أن قسماً من مؤلفاته ـ التفسير العادي أو التفسيـر الكبير ـ يعـاني بعض الثغرات في معـرفة التـاريخ والثقـافـة القـديمين. والدومينيكي جاك دو رڤيني (J. de Revigny) الذي علم في أورليان في المرحلة ذاتها وأدخل على الدرس منهجاً دقيقاً جداً استوحته المدرسةالفـرنسيـة ـ وبمـوازاة ذلك، يغتني الحق القانوني، في ذروة انطلاقته، منذ نهاية القرن الثاني عشر بفضل اختصاصيين مشهورين مثل: البولونيين أوغوتْشيو وآلان وتانكريد ولـوران الإسباني وجان التوتوني. وإلى جانب هؤلاء العلماء الذين يشهدون على ذكاء العصر ويعبرون عن آرائه يجب أن نذكر معلمي الروحانيات والتقوى (يواكيم دو فلور وجاك دو ڤيترى) وكذلك أفضـل ممثلي «الآداب» بالإضـافة إلى منصـور دو بوڤيـه، مدوّنـو الأخبار سليمبني ومتّى الباريسي وآخرون كثيـرون أيضاً من بينهم مؤلفـون يكتبون بـاللغة العامية.

أوروبا والكاتدرائيات
الفن المعماري القوطي

في السنوات التي ولدت فيها الجامعات ونشأ البحث عن تفسير إجمالي للكون والإنسان كان النتاج الفني الذي كان بلغ مرحلة غنية في القرن السـابق قد اتخذ في هذا العصر زخماً جديداً وطمح إلى معاني أرحب. واعتبر هذا العصر عصر الفن القوطي أو الفن القروسطي الكلاسيكي بـامتياز، فن ديني في جـوهره مثـل الفن الروماني، وهو يرتكز أكثر منه على مفاهيم معمارية.

غير أنه يجب ألا نعتبر الفن القوطي انقطاعاً حاداً وعنيفاً وتجديداً شاملاً يسعى إلى الاستنباط واستخدام تقنيات كانت لا تزال مجهولة أو غير مستعملة، حتى ذلك التاريخ. إن الفن الجديد نشأ في الواقع عن تطور بطيء في طريقة التقبيب وعن

تنسيق عام في الأحجام، انطلاقاً من القبة وتولدت عنه رؤيا أخرى عن الهيكل تكيفت بسهولة مع فكرة العصر ومطامحه وذهنياته وأصبحت النموذج الذي تعمل على تحقيقه عن طريق أبحاث جديدة أدت في حينه إلى ذروة المهارة.

وظهرت البوادر الأولى للتغيير عندما جرى التفكير بزيادة الإرتفاع والتخفيف من ضخامة الهياكل الرومانية، والتحول لم يتسبب أساساً عن تلاقي الأقواس. ومن الواضح أن التحول، على المستوى التقني، سمح بتسريع الخطى وإرضاء رغبات أرباب العمل وأذواق جميع الأوساط التي تهتم بالبناء. كان في البداية إنجازاً بسيطاً للقبة المضلعة التي دُعِّمت بأقواس قطرية دُعيت بالأقواس القوطية. إن هذا التحول قديم، لقد وجدت نماذج منه عند نهاية القرن الحادي عشر في إيطاليا الشمالية وفي إنكلترا (دورهام) ولكن المهندسين القوطيين أحسنوا استخدامه، ففصلوا كل قبة عما جاورها بواسطة أقواس داعمة وأنهوا على الجوانب كل نخروب تشكل بهذه الطريقة إما بقناطر مفتوحة وإما بأقواس المقوصرة. وهكذا قسمت القبة الأساسية، من جهة بالأقواس القطرية، ومن جهة أخرى برقبتي القبة، إلى ستة أقسام، ولكن من السهل تقسيمها وتوسيعها أكثر دون تشويه تناسقها لأنها على أي حال، تنتظم حول نقطة وحيدة وثابتة هي الغلق (أو العقد البارز)، في وسط ملتقى الأقواس. ولكن ليس من الصعب إسناد الأقواس القطرية وأقواس المقوصرة إلى دعامات، مع العلم أن الفن الروماني في أروع إنجازاته (دير كلوني) كان قد بدأ يستخدم بجرأة وبحماسة هذه الأعمدة الشاهقة التي كانت ترتكز عليها دعامات السقف وانطلاقاً منها كانت تتنسق الزوايا الناتئة وأخيراً كانت الأقواس القوطية، على المستوى التقني البحت، تدعم القبة خلال سير العمل، وتمتص الإنخسافات والإلتواءات التي كانت تتعرض لها القبة، واحتفظت أروقة الشخصيات بدورها كما في الفن الروماني وهو أن تستخدم لامتصاص الصدمات.

ظهرت هذه الهندسة على شيء من الوضوح حوالي سنة 1130، على الأقل في المقاصد، في سان ـ إتيان، في كان وكاتدرائية سانس (Sens) (في مراحلها الأولى) وفي بعض الأبنية في وادي الواز ووادي الإيسْن، وبرزت بوضوح في بناء دير سان ـ دنيس، بإشراف مدير عمل عبقري اختاره سوجيه الذي يبدو أنه كوَّن مفهوماً عن الفن الديني المطابق للتقليد الروماني دون أي صلة وثيقة بالتقنيات. إن تشييد

الخورس الذي بوشر بعد تشييد الفناء الأمامي وأنجز بمناسبة تكريس سنة 1144 «يعتبر بياناً عن الهندسة القوطية» أي هندسة توصلت لتستوعب كلا من عناصر الأحجام الداخلية، بجمعها، بواسطة نظام علمي للأقواس القوطية وبفضل صف من الأعمدة، رواق الخورس والمصليات المشعة وخففت الدعامات بشكل ملحوظ لاستقبال كمية أكبر من النور. إن تأثير هذا الصرح الذي ظهر على البنّائين بشكل لافت، برز خلال النصف الثاني من القرن الثاني عشر في عدة كاتدرائيات ضخمة - في سانْلِيس ونوايُون وسْواسُون ولاون وباريس، غير أن أبنية أخرى أسهمت بشهرتها في تطور فن البناء وتكررت سابقة سانس - Sens - في كانتربري (كنيسة الثالوث) وفي خورس فيزِلاي - الذي تكيف بسهولة مع فناء روماني عالٍ - وفي كنيسة سان - جرمان - دي - پْرِيْه. وظهرت في أمكنة أخرى بعض التقاليد المحلية (كاتدرائيات أنجيه ومان..) إن هذا الإنتشار ليس مديناً فقط لنجاح بعض الأبنية، ولكن أيضاً لتماسك الأسقفية وتناغمها ووفاق الطبقة العليا من الإكليروس في منطقة نفوذ الكاپيين والمناطق المجاورة - الذي سهَّل المبادلات بل وأكثر من ذلك لعمل السيسترسيين الذين استخدموا التصميم القوطي وأشكاله لأنها تنطبق تماماً على مفهومهم للهيكل الذي بتوازنه ونقاء خطوطه التي تقود نحو النور وتستقبله، تسمو بالنفس دونما حاجة إلى زينة سوى زينة الهندسة - إن الفن القوطي السيسترسي ليس فناً زخرفياً.

تعتبر السنوات الأخيرة من القرن الثاني عشر والقرن الثالث عشر بكامله، على الأقل حتى السنوات 1260 - 1280، عصر ذروة الإزدهار - إذ يزول التنافر التقني والجمالي ليخلي مكانه للفخامة والأناقة، ويكتسب التزيين ملامحه الخاصة التي تندمج إندماجاً وثيقاً بالمعطيات الهندسية إنه كذلك عصر المد العظيم للمدى الجغرافي للفن القوطي الذي تعرقله غالباً عوائق ومقاومات تقليدية (الفن الروماني) أو محلية والذي لم يكن يشمل بالطريقة نفسها كل المناطق، ولكن التنوع الذي نتج عن ذلك ظل محدوداً وظلت الوحدة هي الميزة الأولى.

إن التجديد الأهم ناتج عن الإستخدام الذكي للزافرة (نصف قنطرة يدعم بها جدار) التي كانت حتى ذلك التاريخ تدخل في الفن الروماني لإعادة التوازن في الأجنحة الجانبية. تنطلق الزافرة بخط مستقيم من كلٍ من مداميك القوس وتتجاوز في انحناءة أنيقة الجانح أو الأجنحة الجانبية لتتلقى ضغط القوس عند نقطة عالية

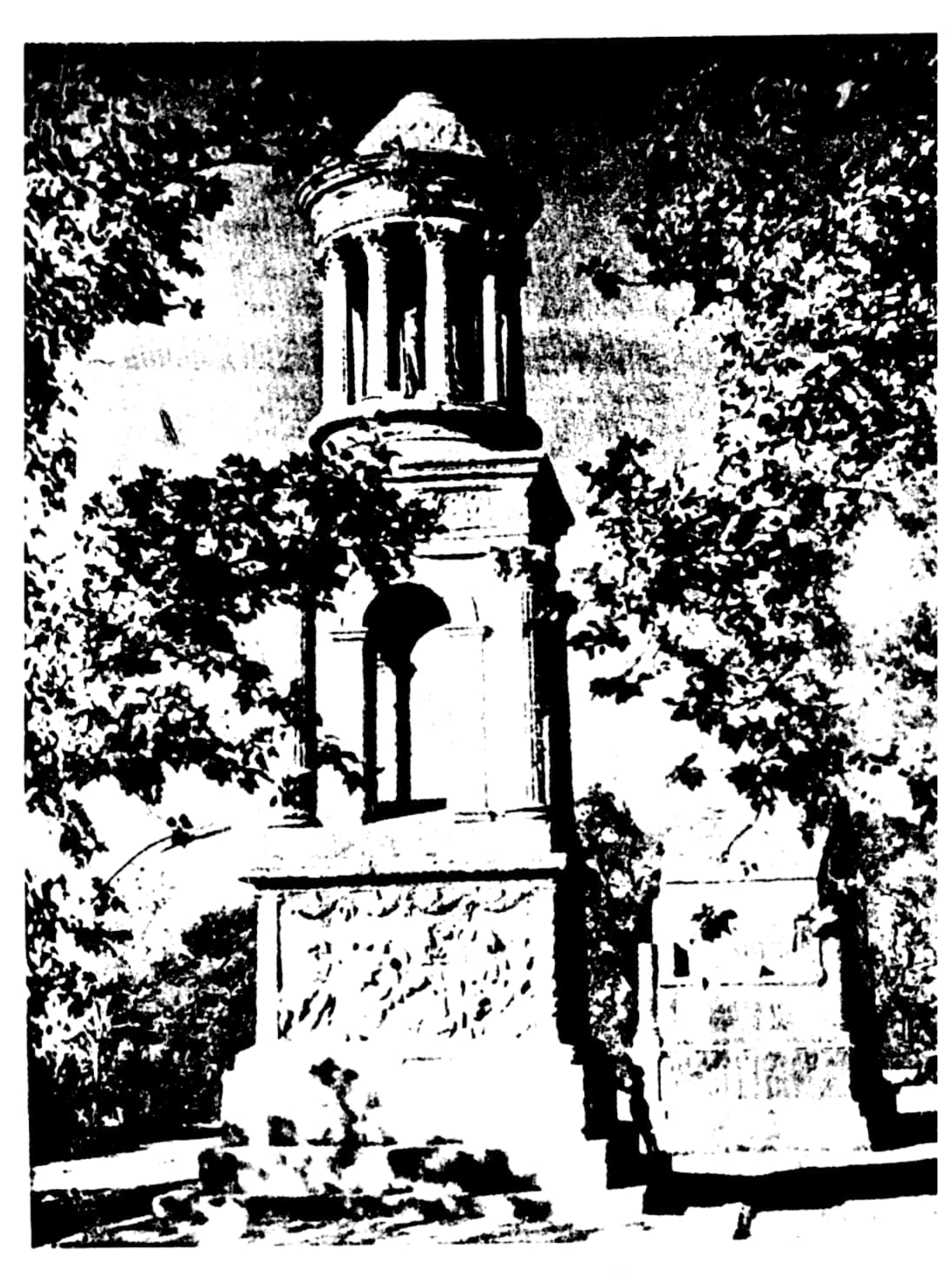
وتنقله إلى كتفها. وفي هذه الحال، لن يبقى من حدود لارتفاع الكنائس، بينما في أسفل كل نقطة التقاء منفصلة عما جاورها بواسطة هذا النظام، لن يبقى من حاجة إلى جدران سميكة ويصبح من السهل توسيع النوافذ. وتتحول الهندسة المعمارية عندئذٍ إلى لعبة أوتاد (بولينغ) تتحمل القبب، وكل معزبة تصبح نوعاً من القبة. وكانت الأشكال المنقولة حتى ذلك التاريخ تختصر في عمودية مذهلة وتوجد في الخارج في بناء الأبراج التي تعلوها مسلات طويلة دقيقة، وبهذا غذّى الأزدهار التقني الطاقة القصوى على البحث الذي كان منذ البدء يعتمد على التأمل الديني.

إن صروحاً عديدة ـ تُبْرِز هذا النجاح الفائق والكاتدرائيات «الكبرى» في شارتر وبورج وريمس وأميان وبوڤيه وسانت ـ شاپيل في باريس هي أشهر آثار إيل ـ دو ـ فرانس وهي تسهم بقوة في إظهار هيمنة تفوق منطقة النفوذ الكاپية في هذا النجاح الفني في الوقت الذي كانت جامعة باريس تفرض نفسها كمركز للعلوم المسيحية. وفي المناطق الأخرى تكاثرت الأبنية، دون أن تبلغ هذا الكمال محتفظة غالباً ببعض السمات الخاصة وببعض العلاقات الوثيقة بالبلاد الأصلية، وهذا ما حدث في النورماندي (كوتانس) وفي بورغونيا وبريتانيا وفي آنجو. وبلغ الفن القوطي الأقاليم الجنوبية مباشرة بتأثير «فرنسي» على أثر ضم قسم من اللانغدوك إلى النفوذ الملكي وانتقال الإقليم بكامله إلى ظل الهيمنة الملكية (بمناسبة تسوية قضية الألبيجيين[1] ونتيجة لزواج ألفونس دو پواتيه أخي القديس لويس من ابنة كونت تولوز ووريثته). تعتبر كاتدرائيتا ألبي وكاركسون اللتان جاءتا لهذه الأسباب متأخرة عما سبق ذكره وكاتدرائيات كليرمون وروديز وناربون التي تأخر تاريخ بنائها أكثر والدليل رهافة الذوق فيها، تعتبر ممثلة للفن القوطي خير تمثيل.

وكان النجاح خارج فرنسا عظيماً أيضاً ففي إنكترا لم يكن لصروح العصر ذاك الإندفاع العمودي الذي يميز الكنائس الفرنسية بل كانت تمتد طولاً مع واجهة ضخمة تناقض غالباً نقاوة الخطوط، ترى في كل المناطق وهي رائعة الإنجاز (في لِنكولن وسالزبوري وإكْزيتْر ويورك وويلز وبات). وفي المانيا حيث المقاومة أكثر صلابة حدثت الإنشاءات في ماغدبورغ وكونستانس وأوسنابروك وبامبرغ وليمبورغ وتريف

---

(1) Albigeois فرع من طائفة المانويين دعا البابا إينوشنسيوس الثالث إلى حملة صليبية ضدهم ـ المترجم.



29 - ضريح آل جوليوس في سان ريمي في مقاطعة بروفنسا



30 - صحن كنيسة لاءون

وكولونيا وماربورغ وستراسبورغ وفي شبه الجزيرة الإيبيرية توجد المراكز التي بلغها السيسترسيون في رڤيلا وبورغوس وليون وطليطلة وألكوباجا، وفي إيطاليا حيث التقاليد عصية على تحليل الهندسات القوطية ثم دخول الفن ببطء أكثر (في أسِّيز وفوسانوڤا وجنوى) وقد سار باندفاع أكثر في القرن التالي. وإلى بلدان أوروبا الشرقية والشمالية ـ وإلى الأرض المقدسة ـ دخل الفن القوطي محققاً بعض النجاح (روسكيلد في الدانمارك، ترونداهايم في النروج ولنكوبنيغ وأبسالا في السويد، وكالوكسا وألباجوليا وبيروت وجبيل (بيبلوس) وطرطوس وصور وفماغوسطا ونيقوسيا). واستمرت الحركة وأحياناً بزخم قوي بعد القرن الثالث عشر، ولكنه ابتداء من 1270 ـ 1280 أخذ ينزع في كل مكان، إلى المهارة من أجل المهارة، وإلى مبدأ الفن للفن، الأمر الذي انتزع منه جزءاً من عمقه، بإعطائه التزيين استقلالية تامة، بلغ حد الحيوية المفرطة والتصنع وبعث ـ في الفن القوطي المشع الذي سبق وأنتج القوطي المتموج ـ نزعات، استشفت في خلال الإسراف في الأيقونيات الرومانية، نحو ما يمكن أن نسميه الباروكية (التي كانت وراء المعطيات الهندسية والتقنية ميزة ثابتة لكل إنجاز فني)

الأيقونيات والتزيين

في البداية كان التزيين الذي يتم ، في قِسْمه الأكبر ، عن طريق الحفر ، غريباً عن هذه الإهتمامات. وعندما نشأت الهندسة القوطية في النصف الثاني من القرن الثاني عشر، كان التزيين لا يزال يحتفظ بقسط كبير من التنوع، يتآلف مع التقاليد الرومانية التي نتجت عنها بطريقة سيئة والتي حفظت منها الموضوعات الأيقونية، وكانت أصالته الوحيدة ناشئة عن المفهوم الذي تكون لدى أرباب هذا الفن حول المجموعة الهندسية، ويلاحظ أن النحاتين ينوِّعون ويحيون المشاهد التي يمثلونها على جهات النوافذ ويركزون تماثيل عند عضادات البوابات وفي كثافات الجدران. ظهر هذا الأسلوب في سان ـ دنيس على بوابة شارتر مع لوحة الدينونة الأخيرة ثم ترسَّخ على البوابة الملكية في شارتر حيث الوجوه بدأت تشرق عن ابتسامة ويحتل هذا الأسلوب بعد قليل منطقة إيل ـ دو ـ فرانس بكاملها والمناطق المجاورة إلى درجة أنه، منذ نهاية القرن الثاني عشر، وبالرغم من بعض الذكريات المحلية التي تستجد أحياناً، فإن معايير النحت القوطي وضعت في هذه المناطق بشكل واضح ونهائي.

تستند هذه المعايير أولاً إلى فن أيقوني متجدد يقوم على تمثيل الحياة والتقليد الأمين للنماذج الحية في الطبيعة والتخلي عن الأعراف القديمة والهيئات المتصلبة والأقمشة المنمنمة حتى التماثل الصبياني. ويبدأ السعي، من الآن فصاعداً، وانطلاقاً من هذا الواقع، إلى بلوغ الحقائق الخالدة بربط كل التفاصيل بالوحدة الهندسية للمجموع، وذلك دون إهمال ضرورة تثقيف المؤمنين . ولكن الكاتدرائية القوطية تُقْنِع أكثر مما تعلِّم لانها تترك قبل كل شيء انطباعاً بحيوية موضوعاتها التي تتكرر باستمرار . ويحتل قلب هذه الموضوعات باستمرار السيد المسيح الذي ينتظم حوله كل شيء ، وهو ليس إله الأبهة الذي عرفه العصر الروماني ولكنه الإله الوسيم الذي يجمع فيه كل جمال الإنسانية وكبرها ويستقبل الإنسان إلى جانب البوابة بوجه تشع منه العذوبة. وتروى حياته كما في الماضي ولكن بطريقة مرحة واثقة عفوية. وكذلك على جهة المداخل حيث يبدو أكثر الأحيان مسيح الدينونة الأخيرة الذي يتراءى بين الغيوم، إنه الإله الإنسان في كل صلاحه جاء يستقبل الصالحين محاطاً بالملائكة والأنبياء والقديسين الذين يشركون، في إشعاعهم الإلهي في هذا اللقاء الشامل للجنس البشري وكل الخليقة، و «السيدة العذراء» شريكة ابنها الوحيد وممثلة المظهر الإنساني الأروع والأكمل في سر المسيح، تشكل الموضوع الثاني من حيث الأهمية . والمشاهد الكبيرة في حياتها المرتبطة بحياة المسيح أكثر مما يسمح به النص الكتابي، توجد في كل مكان. لقد أصبحت الوسيطة الأولى بين الإنسان وبينه وأعطت المرأة وخاصة العذراء والأم قيمة حاولت ذرائع أخرى تشويهها، وفي النصف الثاني من القرن الثالث عشر وبتأثير من التعاليم الفرنسيسكانية ازداد الإلحاح على هذه المواضيع ، ازدادت الواقعية بروزاً والتعبير الفني إثارة للعواطف.

سهلت هذه الخيارات الأيقونية وحددت تطور النحت الذي اكتسب استقلالية ذاتية منذ بداية القرن الثالث عشر ولم يعد تزييناً بسيطاً أو نقوشاً على مواد ثابتة البناء بل أصبح عنصراً من التصميم الهندسي بإضافة قطعة ما ـ غير أن هذه الاستقلالية ظلت محدودة لأن غايتها ظلت متعلقة بمجموع البناء ولأن أشكاله يجب أن تتناغم مع الخطوط وتذوب فيها لكي لا تسيء إلى الوحدة وتخل بالتوازن . وهناك مواقع كثيرة ومتنوعة للنحت وربما كان ذلك خارج الكنيسة ـ في أروقتها وبواباتها على واجهتها وعلى صفحة الجدران الخارجية وعند مساقط السقف ـ أو على الجدران المبنية

داخل البناء ـ حول الخورس والمنبر ـ أكثر مما هو على العناصر الأساسية في الكنيسة (كالصحن والركائز) حيث تشوه صفاء البناء وتزعج الرؤيا العمودية (إلا إذا كانت جزءاً من التماثيل المنحوتة). هذا النحت مثل سائر تقنيات التزيين الديني يحافظ على غايته التعليمية التي تصل به إلى التعبير عن الثقافة الدينية لذاك العصر، وليس له هدف في إظهار قيمته الذاتية.

وهكذا فمنذ السنوات 1200 ـ 1220 تزدهر الأثار الفنية بشكل متوازن. فبوابة تتويج العذراء في كنيسة نوتردام في باريس تبلغ في هيكليتها كلاسيكية حقيقية. لقد نظمت في أنساق دقيقة ـ يتحاشى طرازها المشاهد المأساوية والمبتذلة. ويلخص الفنان موت مريم العذراء وصعودها في مشهد واحد تفادياً لتحطيم التناظر. إن معرفة العصور القديمة التي اكتشفت في بداية القرن جرى استيعابها جيداً وبلغت الإنجازات كمالاً حقيقياً يتمثل في اميان وريمس وفي كنائس أخرى غير أن الجلال والوقار تراجعا قليلاً ليخليا المكان للفردية والألفة والتأنق المتصنع وتشهد الوجوه الثلاثة على جدران كنيسة أميان ـ الله الجميل والعذراء والقديس فرنسيس ـ على هذا التحول في الوقت الذي تساهم فيه في الفن الباريسي. وفي ريمس حيث النحت يقتحم هندسة البناء الخارجية والداخلية تختلط أطرزة متنوعة توصلت إلى رسم مشاهد متصنعة، نموذجها ملاك البشارة، الملاك المبتسم. ونجده كذلك في تماثيل أخرى، وأبنية أخرى (تماثيل الرسل في سانت شاپيل، وواجهة كنيسة بورج..). وفي نهاية القرن عندما أهملت صناعة التماثيل الضخمة لأنه بدأ الفصل بين التزيين وفن البناء، تطورت التماثيل داخل الكنيسة بشكل بارز تبعاً للرؤيا المألوفة التي نتجت عن الطرافة وقد تجلى ذلك قبل كل شيء بتماثيل العذراء والطفل المتعددة وبازدهار التزيين الجنائزي.

إن النحت القوطي كالهندسة القوطية نشأ في إيل ـ دو ـ فرانس، وفي المقاطعات القريبة منها وانتشر في تلك المنطقة. لقد التقى تقاليد محلية ومشارب وميول خاصة عمقت معناه بتنويعها إياه. وعم فرنسا ومعها أو بعدها جميع البلدان الأخرى. ففي إنكلترا يتيح الميل للتزيين، الموروث عن الفن الروماني، إنجاز تماثيل صغيرة القياسات متناغمة مع كتلة البناء يصعب تهذيبها أو يتوجه عمداً إلى نحت مجموعات كبيرة وخاصة على الواجهات حيث لم تعد تكفي بعض التماثيل

على الأبواب، بل كانت توضع في مشاكي موزعة على امتداد الجدران. وكانت هذه العادة نادرة في المملكة التي تمتاز بعبادتها الخاصة، وانحسر التزيين إلى الداخل - في ستراسبورغ توجد الدينوية الأخيرة عند الذراع الجنوبي من الجناح المصالب، وفوق ذلك، فإن الفنانين لم يتوصلوا أكثر الأحيان إلى إذابة الزينة في صلب البناء: ففي بامْبيرغ محترف أصيل ملم بالنحت الريموازي (نسبة إلى مدينة ريمس) يقوم بإنجاز سلسلة من الآثار الفنية توضع في بناء ربما أعد لها خصيصاً وفي إيطاليا كان التأثير الفرنسي على الإنتاج قليلاً وظل مخلصاً للفن الروماني حتى في الصروح القوطية. أما في إسبانيا فالأمر على خلاف ذلك، لقد كان تأثير الفن القوطي الآتي من إيل - دو - فرانس طاغياً، ولكن الآثار الفنية تعاني بلادةَ لم تعرفها في بلد المنشأ.

ولم يكن النحت طريقة التزيين الوحيدة، يوفر الموضع الهام المخصص للنوافذ إمكانيات عديدة للزخارف الزجاجية التي تستعمل بكثرة في فرنسا بنوع خاص حيث يتكون، حوالي سنة 1220، أسلوب متناسق بالرغم من بقاء بعض اختلافات بين عدة مدارس، وبلغ فن التزيين الزجاجي ذروته على زجاج كاتدرائية شارتر البالغة مساحته 2600 $م^2$ ولكن بورج وهياكل أخرى تمتلك أيضاً رسوماً تزيينية زجاجية باهرة، أنجزت في المرحلة ذاتها (1210 - 1240). وفي السنوات التالية ظهر التصنع كردة فعل على الكلاسيكية، وقد برز بشكله الأسطع في سانت - شابيل. ولكن مهما يكن القصد من ذلك وأيا تكن الموضوعات الأيقونية - وهي موضوعات النحاتين ذاتها - فإن الزينة الزجاجية توفر أكثر من تعليم ديني والسبب أنها، بحكم الوانها تنثر النور وتوجهه في حين أنها تجذب النظر نحو العلاء ونحو هذا النور، لأن النوافذ هي عالية، وغالباً ما يكون الزجاج أعلى منها.

أهم الأبنية

إن في أحضان المسيحية حيث الانتشار القوطي أقل امتداداً مما كان عليه الفن الروماني، ولكنه أكثف وأغنى، توجد بعض الأبنية النموذجية التي تُشْهر القيمة الشمولية لهذا الفن وتبقى شواهد على أوروبا ذاك العصر. إن قائمة هذه الأبنية طويلة نسبياً منها: باريس وشارتر وبورج وريمس وأميان وبوڤيه ولاون وبايّو وروان وكوتانس وتْريغْيِيْه وسان - بول - دو - ليون، وأنجيه ولومان وتور ولوزان وألبي وناربون وسان - برتران - دو - كومينج وروديه وويلز ولنكولن وسالز بري وإكزيتر ودورهام ويورك

وليمبورغ وماغدبورغ وفيـردين وبامبيـرغ وهالبـرستاد وكـولونيـا وسترا سبـورغ . هذا ولم نذكر كنائس الأديرة الرائعة لدى السيسترسيين، ذات الهندسة الصافية الخالية من التزيين (پونتيْنيْ ولونغپونْ وفْلمـانيا في فـرنسـا، وكـازاماري في إيـطاليا، وكـوران ومولبورن في ألمانيا ، ريلاند في إنكلترا وأكلوباجيا في الپرتغال . .)

ويبدو أن نوتردام دو شارتر تستحق، بين هذه الأبنية أن تتصدر مركز الشرف ففي هذه المدينة، التي تعتبر مكاناً للحج وللعبادة المريمية وسوقاً شعبية ضخمة، بنى الصرح الروماني سابقاً الأسقف فولبير ثم تهدم جزئياً سنة 1134 بسبب حريق، فتحتم إصلاحه مما استدعى وضع بوابة ملكية مع زينتها الرائعة المنحونة (1150 ـ 1175) وإنشاء برجيه العظيمين ولكن لـلأسف سبب فيه حـريق جديـد شب سنة 1194 دماراً فادحاً ، الأمر الذي حتّم إعادة البناء من جديد. وفي سنة 1220 انتهى البناء كلّيا : الصحن والأقسـام المنخفضة من الجنـاح المصالب والخـورس وبين 1220 و 1245 أنجزت الأقسام العليا من الجناح المصالب والأروقة التي تستنـد إليه. احتفل بتكريس الكنيسة الجديدة سنة 1264 وقلما أضافت الأجيال التالية شيئاً إلى صرح كان بناؤه السريع نسبياً ضمانة لوحدة الطراز . صحن ذو تسع معـازب وجناح مصالب نافر وصدر متعدد الزوايا ورواق الخورس كلاسيكي. تقدم الهندسة الشارترية توازناً حقيقاً تحت قناطر ذات أقواس قوطية بسيطة (طولها 130 م، ارتفاع الجناح الأوسط 37 متراً وعرضه 16 م الأمر الذي لا يضخم الإنطباع عن الإرتفاع). وبالمقابل فإن النور يدخل إليها بغزارة بفضل النوافذ العالية التي تشغل تقريباً نصف الإرتفاع العام، نور يسرب ويعكسه رواق لا مثيل لـه مؤلف من 173 لوح زجـاج صنعت في بداية القرن الثالث عشر، وكوى زجاجية في الواجهة وزجـاج الأجنحة الجانبية والخورس وذراعي الجناح المصالب والزينة المنحوتة هي أقدم من ذلـك ولكنهـا تمتاز بـالتصنع القـوطي ، وزينة أعمـدة الباب الملكي ومـداخـل الجنـاح المصالب تزيد في جمال المجموع.

ريمس هي كاتدرائية التكريس، كاتدرائية الملك، والكنيسة الرومانية متسعة جداً وتجمع عدة فنون ؛ فبعد أن دمرت في الحريق الرهيب الذي اجتاح المدينة سنة 1210، بوشر البناء الجديد منذ سنة 1211 بإشراف المعلم جان دوربيه الذي بنى الخـورس وبدأ الجنـاح المصالب . وسـار العمل ببطء لنقص في المـال وبسبب

المعارك السياسية داخل المدينة انتهى العمل في الخورس سنة 1241 على يد جان لولو - Le Loup - خليفة دوربيه الذي شرع بالأبواب الغربية فيما كان غـوشيه ابن مدينة ريمس يشرف على أعمال النحت. ولم ينته العمل في الواجهة وداخل الكنيسة إلاّ في العقود الأخيرة من القرن الثالث عشر والعقود الأولى من القرن الرابع عشر دون أن تنتهي الأعمال في مجمل البناء، لأن العمل ظل مستمراً فيها حتى نهاية القرن الخامس عشر. طول الكنيسة 139 متراً وجناحها الأوسط عرضه 14،60 م وارتفاعه 38 م وهي تشد بالأنظار إلى فوق. صحنها مؤلف من عشر معازب ملتصق بها أروقة جانبية وفي الجناح المصالب معزبتان لكل ذراع ، كما أن الخـورس ينتهي بصدر متعدد الجوانب ذي سبع زوايا ورواق تفتح عليه خمسة مصليات مشعة . لكن العنصر الهندسي الأكثر بروزاً يوجد في الدعائم والواجهة: الدعائم هي تحف أثرية حقيقية مصنوعة من زوافر منضد بعضها فوق بعض وهي ذات حنيَّتين ومستندة إلى متكآت أنيقة ملطفة بأهرام متعددة الجوانب وفي الواجهة ثلاثة أروقة ضخمة قليلة الارتفاع ، قناطر عميقة وحنايا دقيقة الطرف تضفي على مدخل الهيكل مهابة متناغمة. وفيها حقق النحاتون خير عملهم مع التماثيل الكبيرة للرسل والقديسين والملوك، بينما في الطابق الأول تبدو الوردة المهداة إلى العذراء كختم محفور بين البرجين يكرّس وحدة الهندسة والزينة.

وفي بايّو يعود تاريخ الأقسام السفلى وصحن الكنيسـة والبرجين التي أعيـد بناؤها في القرن الثالث عشر، إلى العصر الـروماني، وأمـا ما تبقى فهـو من الفن القوطي ولكن ليس هناك من تنافر بين الطرازين. ويبقى الجناح الـداخلي شديـد التوازن، الأمر الذي يعني أنه لا انفصام بين الفنين الروماني والقوطي . قناطر الجناح الأوسط تعلوها نوافذ عالية يتسرب منها نور يبعث الحياة في القاعدة القديمة ولكن علاوة على الذراع الجنوبي للجناح المصالب الذي يمثل بابه المنحوت حياة توما بيكيت. هناك الخورس ذو الطبقات الثلاث والطبقـات الكبيرة التي تفصلهـا كوى زجاجية، مع صور ومصليات خمسة مشعة ومحراب مزين بقبب صغيرة كـل ذلك يلفت الأنظار . وفي اللانغدوك ، شيدت الكنيسة القلعة في ألْبي لتشهد، كما قيل، على سحق المانويين ـ قال الأسقف الذي لزّم بناءها سنة 1282 : «سأجعل منها رمز القوة، نشيد الصليبية الظافرة». إنها كنيسة ذات مهابة وقوة بثنياتها الحمراء ، يعود تاريخها إلى نهاية القرن الثالث عشر وإلى القرن الرابع عشـر: وتلك هي أوضاع

كنائس روديه وناربون في حين أن بيزييه وكومينج وكاركسُّون تمـزج بين الرومـاني والقوطي.

وفي إنكلترا يعتبر أفضل نجاح قوطي بدائي هو كاتدرائية لنكولن (التي بعض أجزائها رومانية) بينما تقدّم سالزبري وإكزيتر - وفيما بعد يورك - أروع النماذج لعصر الإزدهار. بدأت الأعمال في كاتدرائية لنكولن حوالي سنة 1190 بإشراف فرنسي يدعى جوفروا دو نْوَايِّه استدعاه أسقف هوغ داڤلُون الدوفيني الأصل عندما عادت فتدمرت الكنيسة الرومانية التي اجتاحها حريق للمرة الأولى سنة 1141، وذلك سنة 1185. وهكذا شيِّد، بطراز صافٍ، الخورس مع الرواق الذي فتح على خمسة مذابح فرعية والجناح المصالب الذي ينتهي ذراعاه بنصف دائرة. وفي النصف الثاني من القـرن الثالث عشـر بني صحنها مـع قبب دقيقة الصنـع تغـطي أيضـاً مؤخـرة الخورس، أقفلت بواجهة ضخمة وهي متوازنة بالرغم من كل شيء

وفي البلاد الجرمانية تحتوي سترا سبورغ على أشهر كاتدرائية تعتبر من أروع أبنية الهندسة القوطية التي تأثرت بـ إيل - دو - فرانس أعمق التأثر. الخورس المتبقي من الكنيسة السابقة هو من الفن الروماني، ولكنـه يتآلف دون تنـافر، مـع صحن الكنيسة الذي بوشر العمل فيه سنة 1250 وانتهى سنة 1275 والذي يتأثر بصحن كنيسة سان - دنيس مع أبعاد أقصر لكي تنسجم مع ارتفاع الجناح المصالب، يتألف من سبع معازب وأروقة جانبية عريضة. والواجهة التي بنيت في نهاية القرن الثالث عشر وفي السنوات الأولى من القرن الرابع عشر تأثرت بواجهة نوتردام في باريس. وتعتبر نجاحاً باهراً بأروقتها الثلاثة ذات النقوش المشهورة وبالوردة الكبيرة المحاطة بكوى تطل عليها تماثيل، وبأحد برجيها الذي أضيف إليه في القرن الخامس عشر مسلة عالية.

وكولونيا، الذائعة الصيت هي أيضاً، تأثرت مثل ستراسبورغ بالنفوذ الفرنسي غير أن بنّائيها الذين وضعوا فيها الحجر الأساسي سنة 1248 كانوا يطمحـون إلى الأفضل وإلى بناء هيكل يتفوق على الهياكل الأخرى. وكان الإنجاز بطيئاً (لقد جرى التدشين، وتتابعت الأعمال على امتداد القرن الرابع عشر، انتهى البنـاء فعلياً في القرن السادس عشر). علو القبب (46 م)، أعلى من قبب أميان (42 م). ويتجاوز صحن الكنيسة بطوله صحن كنيسة أميان أطول الكنائس الفرنسية (136 م بدلاً من

133 من الداخل، 148 م بدلاً من 145 م) بعرض إجمالي مقداره 61 م. يتألف الداخل من صحن وجناح جانبي مزدوج، وينتهي المجموع بسبعة مصليات مشعة.

معنى الفن القوطي

إذا حللنا فن القرن الثالث عشر في آثاره الكبرى وفي أشهر صروحه التي تتوافق مع ذروة ازدهاره، نستشف القصد والمعنى في إحكام الأحجام التي تبدو أنها تظل فارغة لأن العمودية ونقاوة الخطوط وانتشار النور تنتزع منها كل قيمة خاصة إلى درجة إعطاء صدور الكنيسة (القبب القائمة وراء الخورس) شكلاً مشرّماً. تتحقق وحدة البناء من الداخل بزوال كل من العناصر المكونة المنجذبة نحو الأعلى المعرضة للأشعة الضوئية أو لحركة الألوان. هنا تتلاقى في العمق، الحركات التي تستثير رجال الدين ورجال الفكر وتحرك اللاهوت والفكر بنوع عام إلى حد أنه لم يعد مستحيلاً ربط التومائية بالفن القوطي، مكتشفة في الوقت نفسه أن الإحتفاظ بنوع من الروحية الرومانية أو تقاليد أخرى تنسجم مع الروح الأوغسطينية الأفلاطونية الجديدة وأن تجاوزات الأسلوب القوطي الإشعاعي حدثت أثناء الإعتراضات الرشدية.

إن الله نور، هنا، قبل كل شيء، يتألق وجوده في الكاتدرائية تألقاً كاملاً. هو مركز الكاتدرائية وهو فيها كل شيء، يتخطى الحجوم التي تتجه أشكالها نحو الزوال وكذلك الفراغات التي ليست سوى ظاهرية، ولكنه ليس روحاً. إنه الإله المتجسد، الإنسان ـ الإله. غير أن الإله القوطي المتجسد بعكس الإله الروماني الذي يظل عجيباً وخفياً وعلى المؤمن أن يكتشفه في المسيح، يعرض نفسه بنفسه. إنه موجود، فلا نفتش عنه، إنه معنا، والكنيسة كذلك، بهندستها التي تتحرر من الأشكال، تحتوي الإنسان والطبيعة المغمورين بالنور ـ وهذا ما يظهر ويتألق في الرسوم التزيينية. وهكذا يستعيد الإنسان حقوقه بفضل التجسد والفداء اللذين فهم معناهما فهماً تاماً في حين أن تقربه من الله، في الفن الروماني، يظل مترجرجاً ويكتسي مظهراً سرياً. والطبيعة كذلك لم تعد تعتبر حقيقة غامضة يلعب فيها الشيطان دوراً كبيراً. إنها تؤخذ لذاتها وليس كمرآة، وهنا يكمن الدليل الذي يميز أفضل تمييز فن القرن الثالث عشر من فن القرن الحادي عشر، ويحدد الفرق بين هاتين الثقافتين.

تعبر الطبيعة عن توازن عميق وعن إيمان ثابت بالله، والإنسان والكون، العالم الذي خلقه الله ونظمه لمصلحة الإنسان، إنه العالم المسيحي ـ حيث يوجد إطار

هذه المدنية، وهي تنم عن تفاؤل صلب وعن فرح حقيقي «النور الذي يظهر دفعة واحدة كالله نفسه وكعامل اتحاد بين النفس والله، يغمر المملكة التي تحدد جدران الكاتدرائية مجالها بطريقة رمزية». ولم يكن التناغم قائماً في أي يوم من الأيام بين الفن والثقافة كما هو قائم اليوم.

ففي الهندسة القوطية تندمج الاحجام الداخلية اندماجاً تاماً بكون مغلق، ولكنه كون. ولكن إذا نظر إلى الصرح من الخارج يبدو وكأنه يطمح لاحتلال المكان ويصل بواسطة قببه الحادة إلى السماء.

وهكذا فإن الفن القوطي هو فن الغرب في القرن الثالث عشر حتى وإن كان يغطي أرضه بنسب متفاوتة. «إنه يجسد التوق إلى الوضوح ومثال النسب الصحيحة ومنطق البناء الذي أوجده». إلى أي مدى هو فن الغربيين؟ فما أصعب الجواب على هذا السؤال بالنسبة إلى الفن القوطي لكل العصور. ولا مناص لنا من الإستنتاج أن فئة محدودة من المفكرين ورجال الدين فهموا معناه الذي أسهموا هم عمداً في أعطائه له. أما ما تبقى فليس من المبالغ فيه الظن بأن رمزية النور يمكن أن تخفى، بوعي أو بلا وعي، على الجماهير وأنها تحمل إليهم في الفرح وبنسب متفاوتة من الوضوح، في كل الأحوال، وجود المسيح الإله.

وتظل الكاتدرائيات والكنائس القوطية الشواهد الأبرز والأكثر جاذبية وحيوية على ثقافة القرن الثالث عشر التي ظهرت أصالتها واندفاعها أيضاً في مختلف مظاهر الفكر الشمولي والتي تبلورت منذ القرن الثاني عشر في إطار المسيحية المعتبرة جهازاً سياسياً ديناميكياً ومتماسكاً. ويستنتج المؤرخ أن بؤرة هذه الحضارة وجدت في فرنسا وبتحديد أدق في قلب منطقة نفوذ الكاپيين. هناك تأسست وازدهرت أول جامعة في الغرب وولدت وانطلق الفن القوطي. غير أنه يجب ألا نستنتج أن فرنسا كانت حينئذٍ تهيمن على الغرب، ولا أوروبا هي فرنسا موسعة، وذلك من جهة لأن روما، مركز السلطة العليا حيث تهب الروح المسيحية بحماسة لا تضاهى - روح مسيحية ذاك العصر - وإيطاليا بتراثها كان لهما شأن عظيم ومن ناحية أخرى، فإن هذه الهيمنة لم تسبب أي تنافر أو تباين للتجمع الأوروبي - ألم تكن جامعة باريس ملتقى جميع اللاهوتيين الأوروبيين وأشهرهم غير فرنسيين؟

وأخيراً، فإن حضارة القرن الثالث عشر هي حضارة توليف عقلاني للتغلب

على الخلافات والإعتراضات وهذا ما حققته المسيحية في المجال السياسي (بسلطاتها وعقيدتها ومبادئها الأخلاقية) والتومائية على الصعيد الفكري والفن القوطي في النطاق الفني وهكذا، لقد تم في هذا القرن ونصف القرن ما مهدت له إشارات سابقة وهو هذا التبدل العميق فيما يمكن أن نسميه الآليات الذهنية أي طرق التفكير واستيعاب الحقائق المحسوسة والمجردة وفهم الأفكار ،الأمر الذي أدى إلى تغيير في الذهنيات. لقد تم هذا التحرك تبعاً لمخططات واضحة، ترتكز الخطوات الأولى منها على وعي تناقضات العصر وتنتهي بإيجاد حلول قادرة على إزالتها، ومن أجل ذلك انطلق المثقف باحثاً عن نقاط التشابه والتماثل التي سمحت له باستخلاص تعميمات استبعدت بواسطتها الحجج المعاكسة التي أثبت البرهان استحالة قبولها. ولكنه تصرف أكثر الأحيان استناداً إلى أفضل أسلوب جدلي ونسق النقائض في خلاصة شاملة. والحل الذي توصل إليه لكل مسألة هو من ناحية، عقلاني أي منطقي، يقبله العقل، ويجعل الفكر متفهماً حتى لو ظلت بعض التأكيدات غير خاضعة للبرهان؛ ومن ناحية أخرى شمولي أي يطبق على كل الحالات ويحتويها جميعاً. وهكذا فالطريقة الجديدة في العمل اتجهت في أساسها لفهم الإطار ووضعه وتفسيره، هذا الإطار الذي ولدت ضمنه وانتظمت العناصر المتنوعة المتناقضة المختلفة فيما بينها. ولتحديد الركن الذي يستند إليه الفكر وعليه يرتكز، تأسس الموقف العقلي والذهني على خط سير يتجه من أعلى إلى أسفل، خط سير المفكرين والعلماء والفنانين، ولكنه بعد مسيرات طويلة كيّف جميع العقول إلى حد أنّها أصبحت أحد العناصر الأساسية «للذهنية» الأوروبية، وعلى الأخص انطلاقاً من الفترة التي بدأت فيها ممارسة الانتقادات القاسية للتفسيرات الشاملة، انتقادات توصلت هي نفسها إلى توليفات أخرى.

وتحمل أوروبا في ذاتها مذهب العمومية[1] أكثر من أي قارة أخرى، ويلاحظ أنها ادعت ذلك في القرن الثالث عشر.

---

(1) مذهب لا يعترف بأية سلطة إلاّ بالقبول العام، بعكس الفردية والذرية. ومن الناحية الدينية، عقيدة تقول بأن كل الناس سيخلصون ـ المترجم ـ.

تنافر واحتجاجات

في تكون العالم المسيحي خلال القرن الثالث عشر، حدثت ظروف طارئة، في بناء العناصر الهشة وفي تناغم نقاط التنافر. إن الذرائع التي واجهت الإتحاد لم يكن لها جميعاً قوة التفتت نفسها. بعض هذه الذرائع لا يعترض إلاّ محلياً وفي أوقات محددة، وهي حتى وإن عملت في النطاق العام فلا تطرح المناقشات مسألة الإلتحام التي تحاول تفسيرها بأشكال مختلفة. ومقابل ذلك هناك ذرائع أخرى تملك قوة مدمرة تعمل مباشرة على تحطيم البناء وإفساد النظرية المقترحة لتُحلّ محلها أهدافاً مختلفة تماماً.

احتجاجات السلطات القائمة

الثورات الإقطاعية

بعض الخلافات التي نشبت في العصر السابق عادت فانفجرت من جديد في النصف الثاني من القرن الثاني عشر وخلال القرن الثالث عشر، وهناك صراعات على تفاوت في التنظيم قادها الإقطاعيون ضد السلطات الملكية التي أرادت الهيمنة عليهم وإخضاعهم والتحكم بهم أكثر فأكثر. هذه المعارك هي سياسية فوق كل شيء حتى ولو كتلت ضد الملوك عدداً كبيراً من الناس ينتمون إلى فئة اجتماعية واحدة ـ ومع ذلك فهي منقسمة ـ فالبعض يقرنون مصيرهم بمصير الملك ويظلون مرتبطين به ـ حتى ولو أتاحوا لهؤلاء الناس فهم التعاون الذي يجمعهم والذي يعتمد على مركزهم في المجتمع. وتدور هذه المعارك متنوعة تبعاً للمناطق.

ولم تحدث في الإمبراطورية ثورة حقيقية حتى ولا حركة عنيفة موجهة ضد الإمبراطور. هذه الحالة الخاصة تنشأ في الوقت نفسه عن التنظيم الداخلي للمملكة الجرمانية وعن الخلافات القائمة بين أباطرة آل ستوفن والبابوية . ففي ألمانيا عندما حاول فريديريك بربروس، بعد معركة تعيين الأساقفة التي أدت إلى نشوء الإضطراب الإقطاعي وبعد الاحتجاجات الأولى لآل ڤلف، يقوم بإصلاح السلطة الملكية بإشراك الطبقة الراقية من النبلاء ـ أي الأمراء ـ في انتصاراته ويستعين بخدمة قسم من النبلاء الصغار المرتبطين بخدمة الدولة. وقد نشأ هكذا اتفاق مبني على المصلحة المشتركة. إن القطيعة الجديدة الطارئة مع هنري الأسد، عميد آل ڤِلْف، ثم بعد عشرين عاماً، الحرب الأهلية، بين فيليب ستوفن صاحب سواب وابن هنري أوتون

دو برونفيك، كل ذلك دمغ صعوبات الإتفاق كما أنه وفر لبعض الفئات الشريفة إمكانية استخدام نفوذهم للحد من نفوذ الملكيـة. ولكن في القرن الثالث عشر، يعمل فريديريك الثاني، الذي منح امتيازات واسعة جداً للأمراء، وقوّى الإمارات، على تأسيس أنظمة إقليمية قوية يصعب العثور في الوثائق على ردات فعل قام بها الإقطاعيون والفرسان من المرتبة الدنيا ضدها، وكذلك في إيطاليا القرن الحادي عشر حيث كان الفرسان والإقطاعيون الصغار يتململون ، لم يتسنّ تكوّن معارضات لأن الملكية كانت عادة ضعيفة وغائبة بينما المدن لعبت دوراً سياسياً بارزاً تدخل النبلاء في ذلك بوسائلهم الخاصة. يبقى أن نذكر أن النبلاء أسهموا في المعارك وكانوا في أكثر الأحيان من أنصار أباطرة ألمانيا. وبالرغم من أن الواقع كان معقداً فإن الفوضى العامة التي تحكمت بشبه الجزيرة خلال السنوات 1240 ـ 1260 كانت تعبر عن الرفض اللاواعي وغير المنضبط للنظام السياسي القائم في ما تبقى من أوروبا.

وفي فرنسا اكتمل التطور على حساب الملكية التي ما فتئت تنمو من فيليب أوغست إلى لويس التاسع فإلى فيليب الجَميل وتتراجع أمامها الطبقة النبيلة الراقية شيئاً فشيئاً. غير أن المقاومات تستمر وتخلي مكانها أكثر الأحيان لثورات فوضوية ليست بذات خطورة استطاعت السلطات الملكية أن تقضي عليها. وفي منتصف القرن الثاني عشر وفيما كان الملك لويس السابع في الشرق يقود الحملة الصليبية الثانية تصدى سوجيه، الذي يحكم البلاد باسمه، لإضطرابات أثارها أحد الأمراء الكبار المدعو راوول دو ڤيرماندييه، الذي كان على صلة بالسلالة المالكة ، ولكن مقاومته اتخذت ذريعة لمقاومات أخرى . وفي سنة 1181 عندما ارتقى فيليب أوغست العرش وهو لا يزال فتى، حدثت مؤامرة جمعت قسماً من النبلاء الكبار حول عائلات شمپانيا وفلاندر فأثارت الكثير من المتاعب. وفيما بعد ذلك، وفي حدود سنة 1212 ـ 1213 ثار كونت فلاندرا من جديد يدعمه هذه المرة مغامر طموح، هو رينو دو دامّرتان، وقف علناً ضد الملك وتحالف مع أعدائه الخارجيين من إنكليز وألمان وفي السنوات 1227 ـ 1228 فيما كان لويس التاسع قاصراً أثار ضده تمرد غير متماسك رفض أثناءها بعض قادتها (مثل تيبو دو شمپانيا) استخدام أساليب عنيفة. واضطرت الوصية على العرش، بلانش القشتالية، إلى اللجوء إلى وسائل فعالة فتوجه حملتين. وفي الفترة نفسها أيضاً وفي السنوات التي سبقت ذلك مباشرة

يكشف بقاء بعض الخلل الأمني في اللانغدوك، الذي سببه أوّلا الهراطقة الإقطاعيون المتهمون بالهرطقة الذين جُرِّدوا من أملاكهم وطردوا، يكشف عن تمرد على الملكية. وتلاشت هذه الحركات بعد مرور سنة 1240، لأن الملكية انتصرت وفرضت نفسها، ولكنها عادت فظهرت في سنة 1314 غداة موت فيليب الجميل في الأحلاف النبيلة التي تشكلت للمطالبة بالحقوق والحريات التي قضت عليها السلطة المركزية.

وفي إنكلترا تبلغ ردة فعل الإقطاعيين والنبلاء مدى أكثر اتساعاً. ففي هذا البلد كان غليوم الفاتح، على أثر الإحتلال الذي قام به سنة 1066 قد أشرك في مغانم الحرب فرسانه النورمانديين موزعاً عليهم الأملاك وألقاب الشرف، ولكنه تحاشى أن يوزع عليهم أملاكاً قريباً بعضها من بعض بل مبعثرة في المملكة. وفوق ذلك نصَّب سلالة إقطاعية بسيطة لكي يسلس قيادها، ثم دعَّم بمختلف الطرق السلطة الملكية. غير أن الإقطاعيين سعوا في وقت مبكر لخلع هذا النير الثقيل، والبعض منهم عن طريق الإرث والزواج وغيرهما استطاعوا أن يكسبوا ويضموا أملاكاً واسعة وفرت لهم قوة حقيقية هائلة. ومنذ عهد غليوم الأصهب (Le Roux) حدثت انتفاضات خطيرة بمناسبة المعارك التي نشبت بين هذا الملك وأخيه روبير كوتهوز، واضطر هنري الأول بدوره سنة 1102 أن يواجه بعض الفتن فاستطاع إعادة النظام ولكن بعد موته (1135) نشبت حرب سلالية للسيطرة على الحكم تدخل فيها البارونات، بين إتيان دو بلوا وهنري الثامن بلانتاجينيه، فانتصر هذا الأخير ودعَّم السلطة الملكية والنظام السياسي ولكنه لم يستطع أن يحول دون تمرد جديد كاد أن يعرض حكمه لخطر بالغ لأنه جمع ضده حول كونتين قويين (ليستر ونورفولك) إخوته الثلاثة وزوجته (1174). واضطر غليوم لونغشان أن ينسحب سنة 1191 أمام مؤامرة بارونات يدعمها الأساقفة وبورجوازيو لندن، فحل محله رئيس أساقفة كانتربري، هوبرت غوتييه، وهو رجل حازم توصل سنة 1195 إلى أن يعيد الأمور إلى نصابها بعمل وحشي.

وحينئذ تسلم العرش (1199) أخو ريشار جان ـ سان ـ تير (San Terre) الذي تابع هذه السياسة الاستبدادية، ولكن غالباً بسوء تصرف وخبث واحتقار. وإذ اصطدم سنة 1207 برجال الدين بمناسبة طلب إعانات مالية لم يتردد في حجز أملاك رئيس

أساقفة يورك. ويعترض، في التاريخ نفسه، على انتخاب إتيان لونغتون إلى رئاسة أسقفية كانتربري الأمر الذي حمل البابا إينوشنسيوس الثالث على حرمان المملكة وحتى إلى خلع الملك سنة 1212 واستغل بعض الإقطاعيين العلمانيين، على مدى هذه الأشهر، هذه المعركة لكي يتحركوا بحيث إنه عندما تصالح الملك مع الكرسي الرسولي سنة 1213، عاد الهدوء إلى المملكة. وحاك جان عندئذٍ مؤامرة واسعة ضد فيليب أوغست آملا أن يعيد الإنتصار على الكابيين السلطة إليه، ولكنه هزم سنة 1214 في لاروش ـ أو ـ موان بينما حليفه أوتون الذي عاونه كونت فلاندرا ورينو دو دامّرتان، تعرض لهزيمة مذلة في بوڤين، وبعد عودته من هذه الحملة قرر أن يجبي ضريبة قيمتها ثلاثة ماركات عن كل إقطاعة فارس، فزاد هذا التدبير طين النقمة بلة. ففي الخامس من تشرين الثاني/نوڤمبر سنة 1214 تجمع عدد لا بأس به من البارونات والفرسان في بوري ـ سان ـ إدمون وأقسموا بأنهم سيرغمون الملك على الوفاء بوعوده التي قطعها سابقاً وعلى استئناف العادات الطيبة وإعادة الحقوق لكل فرد والإعتراف بحقوق الجميع. ودارت مباحثات بين الجانبين حاول جان بواسطتها كسب الوقت والنجاح في اجتياز الشتاء وبداية الربيع. ولكن عندما رفض في أيار/مايو سنة 1215 بالتعهد بالتزاماته الرسمية، صرّح البارونات والإقطاعيون مع الفرسان يدعمهم الكثير من رؤساء الأساقفة والأساقفة، بأنهم يتنصلون من تبعيتهم، فاجتمعوا بسلاحهم في رينميد - Runnymede - قرب وندسور ورفعوا عريضة للملك الذي اضطر إلى الإذعان. وفي التاسع عشر من حزيران/يونيو سنة 1215 أعلن ميثاق استعاد مع بعض التعديلات «عريضة البارونات» هذه وقد دعي: الوثيقة العظمى وأعطى هذا القرار الرسمي الأرستوقراطية ضمانات طبقاً للتقاليد الإقطاعية مانعاً الملك من استغلال الإرث ليضع يده مباشرة أو غير مباشرة على الإقطاعات، محدداً خدمات الجيش مصرحاً بأن جمع الضرائب يجب أن يكون استثنائياً ومنظماً العدالة بنوع أن يحاكم الرجال الأحرار من قبل أندادهم (الإقطاعيين الأتباع في المحاكم الإقطاعية) وملطفاً قانون الجزاء والغرامات الذي أعلنته المحاكم الملكية، ونصّ على أن ينتخب البارونات خمسة وعشرين باروناً من بينهم للتأكد من تقيد الملك وموظفيه بالميثاق، وفي حال الإخلال بالالتزامات المدونة يصبح التمرد شرعياً. وقيل، أخيراً، إن المساعدات الاستثنائية يقررها «مجلس المملكة العام».

كان انتصار السادة الإنكليز انتصاراً للإقطاعية، وكانت طلباتهم تعبر عن

رغبتهم في العودة إلى النظام القديم لمصلحة حقوق الإقطاعيين وضد السلطة الملكية، وقد طرح باكراً على بساط البحث وكانت العقود التالية متميزة بالإضطرابات المستمرة.

وحاول هنري الثالث بن جان الجريء (Sans peur) عدة مرات أن يعود عن التنازلات التي وافق عليها ولكنه اصطدم بمعارضة الارستوقراطية التي كان يدعمها ممثلو المدن الكبرى. وفي سنتي 1257 ـ 1258 دفعت فتنة عنيفة بالقسم الأكبر من النبلاء ووضعته تحت هيمنة سيمون دو مونفور، فاضطر الملك إلى الإذعان وأقر إصلاحات إدارية جذرية وعين لجنة مهمتها الإشراف على ممارسة السلطة، ومن سوء حظ البارونات أنهم انقسموا وتواجهوا بالسلاح. وقتل سيمون أكثرهم تسلطاً واندفاعاً أثناء معركة (1268) فاستغل الملك ذلك ليمسك بزمام المبادرة من جديد، ولكنه لم يستطع ذلك. مع ذلك ، رفض الحكم بالاشتراك مع برلمان أصبح بالرغم من الجهود التي بذلها خلفاؤه إلى جانب الملكية وبالاتصال بها، المؤسسة الحيوية في المملكة. زد على ذلك أن البرلمان تفرع عن «المجلس العام» الذي تأسس بواسطة الوثيقة العظمى والذي كان هنري الثالث مضطراً إلى دعوته بانتظام ثلاث مرات في العام تحت اسم المجلس الكبير وقد تمثل فيه منذ البداية، إلى جانب الإقطاعيين ممثلو الفرسان وانضم فيما بعد ممثلو المدن (لندن ويورك ولنكولن) وممثلو عامة الإكليروس . هكذا وتبعاً لتطور بلغ حده عند دعوة البرلمان واجتماعه سنة 1295 تبدل جهاز التمرد الإقطاعي المكلف بتذكير الملك بالتزامات بمراعاة العرف التي بدونها لا يكون للعقد الإقطاعي أي معنى، تبدل إلى هيئة تألفت، على المتسوى الحكومي، من أجل المصلحة العامة، هذه الهيئة التي كان من صلاحياتها جمع الضرائب فقط ولكنها لا تملك حق إعطاء الرأي في قضايا أخرى.

إن انكلترا باعتمادها تنظيماً مبتكراً تميز برفض القاعدة العامة في عصر توصل فيه الملوك (فرنسا وصقلية) على القارة الأوروبية، والسلطات الأخرى (أمراء إقطاعيون، مدن) إلى الهيمنة على الأرستوقراطية الإقطاعية وإعادتها إلى الصواب، أساءت بعملها هذا إلى المثالية المسيحية، وعندما شعر البابا إينوشنسيوس الثالث بهذا الأمر لم يلبث أن أدان الوثيقة العظمى دون مراعاة للملك جان لأنه يعتبر أن كل مساس مرتجل بالسلطة الملكية هو غير شرعي ومنافٍ لمشيئة الله واعتبرت الوثيقة

العظمى مخالفة لنظام الملوك الذي هو نظام المسيحية المجتمعة بحسب هذا النظام المندمج هو نفسه بنظام الكنيسة، لقد رفضت لأنها تعني قطيعة مع الجمهورية المسيحية.

بيد أنه يجب ألاّ نبالغ بأهمية هذا الإحتجاج، من جهة، لأن العصيان الإقطاعي انهار أمام قوة الملوك أو أمام دينامية المجتمعات المدينية، ومن جهة أخرى، فحيث نجح، وفي أمكنة متفرقة ومتباعدة، مؤقتاً أو نهائياً (انكلترا مثلاً) فإن الفئات التي انتصرت لم تناقش التنظيم العام حتى ولا الثقافة التي تحتويه، وكان البارونات أو الفرسان أو ممثلو المدن في البرلمان الإنكليزي شديدي التمسك بهذه الحضارة بمقدار ما كانت صلاتهم الأرستقراطية الكنسية ، وخاصة البارونات، متينة ووثيقة . وإن الوحدة ما كانت لتتداعى، حتى ولو كانت ردة فعل الإقطاعيين والنبلاء أشد عنفاً، والانتصار حتمياً، ولو حملت كل الدول على إنشاء جمعيات تحد من سلطة الملوك. إن كل هذه الأمور، ومن ضمنها الوثيقة العظمى، لم يعتبرها المعاصرون سوى أحداث عارضة، والمهم أنه بعد كل احتجاج تعود الأمور فتسوى لمصلحة النظام التي هي مصلحة الملوك في نطاق أن هؤلاء يوافقون على التنازلات، ولا يمكن البرلمان بالضرورة أن يكون نفياً للمجتمع الملكي، إذ عندما يتفق مع الملك يصبح جزءاً من الملكية، وهكذا تتخذ فكرة الملكية المحدودة ـ التي نشأ عنها فيما بعد النظام البرلماني، كنموذج للحكم مكانها في التراث الفكري الأوروبي.

السلطات المدنية ـ الغلفية[1]

لقد لاحظنا أن حركة توسع الضواحي والمدن بدأ في القرن الحادي عشر واستمرت على امتداد المرحلة التالية، واتخذت حجماً هائلاً انطلاقاً من السنوات 1150 ـ 1180 على أثر الازدهار التجاري العام والنشاطات الحرفية، وأن عدداً كبيراً من الضواحي والتجمعات الريفية حصلت، بالرغم من السلطات الإقطاعية، على حريات واسعة مع أوضاع جعلت منها نوعاً من الجماعات المتماسكة. وتحاول المدن من جهتها الذهاب إلى أبعد من ذلك، أي إلى أن تحكم نفسها بنفسها مع بقائها موالية للدولة (الأمير أو الملك) ولكن مع رفضها ممارسة الدولة عليها الإشراف الفعلي والدائم.

(1) نسبة إلى الغلفيين أي أنصار البابا وهم أخصام الجيبليين ـ Gibelins ـ انصار الإمبراطور / المترجم/ .

وتؤدي هذه الإدعاءات إلى مفاوضات ومجادلات ومعارضات وإلى خلافات وضعت وجها لوجه بورجوازيي المدن مع السلطات المحلية ـ إقطاعيين وأساقفة كما في الماضي ـ وشيئاً فشيئاً مع الملوك. وكان أباطرة آل شْتوفِنْ، فريديرك بربروس وفريديريك الثاني من ألد أعدائهم وقد تشبث الثاني بإخضاع الجماعات المدينية في مملكته صقلية، لكن بعض الأمراء الألمان الإقليميين (من آل ڤلف) كانوا مؤيدين لها. وفي إنكلترا سعى هنري الثاني پلانتاجينيه إلى الاتِفاق معها، وهنري الثالث اصطدم بمتطلباتها، وإدوار الأول أجبرها على الإعتراف بسلطته جزئياً. وفي فرنسا كان التطور مماثلاً. حاول فيليپ أوغست مساعدتها ولويس التاسع إخضاعها. وفي هاتين المملكتين كما في شبه الجزيرة الإيبيرية أخذ الملوك يدعمون بذكاء الحركات المدينية لأنها تضعف الإقطاعيين ثم غيروا موقفهم عندما نالت المدن حريتها واستقلالها الذاتي وبدأت تطالب بامتيازاتها السياسة التي تضعف سلطتهم الحكومية، وبما أنه لم يكن لهم دائماً القوة ليفرضوا أنفسهم كلياً كما كان يحدث أكثر الأحيان، كانوا مضطرين بمناسبة وقوع الخضات في المدن، إلى حل مشاكل تتشابك مع مسائل اجتماعية واقتصادية وسياسية أو دينية، كما كانوا، باستمرار، بحاجة إلى شعبية مدينية تقدم لهم الدعم المالي (ضرائب) والعسكري (بناء الحواجز وصيانتها، وتقديم ميليشيات). لقد قبلوا بتنازلات ترجمت «بمواثيق» ومؤسسات مختلفة.

وأخيراً فعلى امتداد القرن الثالث عشر يشمل نظام المدن الممتازة كل الغرب ويبلغ المدن من جميع الأحجام ومن ضمنها أصغرها التي استقر فيها بعض التجار والحرفيين (ضِيَع الدُّومْب والفوريز والنورماندي العليا، ومناطق أسفل البيرينيه وإيطاليا الوسطى والجنوبية..). وإذ استقر هذا النظام، في العهد السابق، في شبه الجزيرة الإيطالية وفلاندرا والبلاد المنخفضة وفي الحوض الباريسي وپروڤانس وفي مختلف المناطق الألمانية وفي إسبانيا تغلغل أعمق في هذه المناطق وترسخ في إنكلترا وفي فرنسا الجنوبية، وبلغ سكنديناڤيا وموراڤيا وبوهيميا وپولونيا منذ السنوات 1220 ـ 1230 وانتشرت الحريات المدينية فيها بقوة في أواسط القرن، وفوق ذلك، ففي بعض المدن حاولت السلطات المدنية أن تفرض نفوذها، في بعض المناسبات خارج المدينة بالذات وفي الأرياف وفي الأرياف المجاورة. ومنذ القرن الثاني عشر توصلت المدن الإيطالية إلى حكم الريف واضعة تحت سلطتها القضائية، الأرض (أو جزءاً منها) التي كانت خاضعة قبلاً لقضاء الأسقف الزمني وذلك كما لو أن السلطة

البورجوازية حلت محل الأرستوقراطية الكنسية. وفي أمكنة أخرى حيث الواقع أبسط من ذلك كانت المدن تشتري القرى والقصور، وكانت تفرض سلطانها بالقوة على بعض الإقطاعيين والجماعات الريفية.. غير أنه باستثناء بعض المدن الإيطالية الكبيرة ما عدا بعض المراكز الأكثر حظاً (إشبيلية وأولم وتولوز وميتز) كانت الدائرة الإدارية تمتد إلى ضاحية ضيقة: بعض الكيلو مترات أو حتى بعض الهكتو مترات

وأصبحت المدينة «مستقلة على ارضها»[1]. كانت تدير وتحكم نفسها استناداً إلى امتيازات تتفاوت اتساعاً وظلت أكثر الأحيان تحت إشراف السلطات المركزية، ولم تبلغ حد السيادة أو تشكيل إمارة، كما كانت الحال أحياناً في إيطاليا. ففي قلب المدينة كان البورجوازيون يتمتعون بحريات نظام خاص دخلت في الأعراف، ولكن القليلين من بينهم كانوا يتوصلون إلى ممارسة وظائف عامة ويتحملون مسؤوليات إدارية عالية. هذه الأقلية تؤلف ما نسميه طبقة الأشراف المكونة من أفراد وعائلات كانت سابقاً من أصحاب المقامات نتيجة عراقة محتدها أو بسبب وظائفها. يضاف إليهم بعض حديثي النعمة الذين ارتقوا عن طريق الثروة ـ التقاء الفئات المتفرعة عن طبقة النبلاء الصغار وطبقة الفرسان مع الذين جاؤوا من عالم الأعمال.

وبفضل تنظيم سلطات الأشراف هذه، لم تسىء الحركات المدينية إلى نظام المسيحية وتلاحمها، وإن تاريخها يدل على أنه حدثت أحياناً اضطرابات واصطدامات أضعفت، محلياً، السلطة الملكية (في إنكلترا على عهد هنري الثالث) وكانت تنتهي دائماً باتفاقات وتنازلات يقبلها الجانبان بإخلاص وتؤدي إلى تعاون أمين وفعّال، وحيث تتوصل المدن إلى استقلالها الكامل كانت حكوماتها الأوليغارشية تندمج بسهولة في مركَب المسيحية السياسي. إن نظام الأرستوقراطية المدينية وطبقة الأشراف التي كانت تستجيب للنشاطات التجارية التي اعتبرت ضرورية ومفيدة للمجتمع بكامله، لم يكن يخالف نظام الملوك ولا حتى نظام المسيحية التي كانت سلطتها العليا مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالمدن بواسطة إكليروس علماني كثير العدد وجماعات الرهبان المتسولين وبواسطة المدارس والجامعات. وتجب الملاحظة، إلى ذلك، أن نظام البورجوازية الراقية الموزعة في كل أوروبا، كان من الصعب الإشراف عليه وتوجيهه وأنه كان يطرح مشاكل خاصة على المستوى الأخلاقي، وكان

---

(1) ل. غينيو، القرن الثالث عشر الأوروبي، ص 125.

يضيف إلى تنوع المجموع عنصراً كان مزيجاً من دينامية وتقسيم ولكنه كان يعمل، في القرن الثالث عشر لمصلحة الدينامية.

ويمكن استخلاص نتيجة واحدة عندما ندرك التصرف السياسي للمدن التي تتحد فيما بينها لتشكل، نوعاً من الاتحادات يمكن أن يثير عملها المخاوف في بعض الظروف، كاتحادات المدن التي قررت، في إيطاليا، مقاومة الهيمنة الفعالة للأباطرة ودعم السياسة البابوية ضدهم - المدن التي توصف بالغِلفية بمقابل تلك التي رضيت بسلطة آل سْتوفِنْ والتي تدعى جيبلية. وفي السنوات 1165 - 1170 تكتل عدد من المدن الغِلفية في إيطاليا الشمالية في اتحاد لومبارديا لمقاومة فريديريك بربروس الذي كبدته هزيمة قاسية في ليغانو سنة 1176. وفي القرن الثالث عشر تكتل هذا الحلف ضد فريديريك الثاني بالإضافة إلى حلف آخر في توسكانا. غير أنه خلال العنف الفائق الذي هز شبه الجزيرة على مدى السنوات 1240 - 1270، فإن المنافسات لم تكن فقط بين أنصار البابوية وأخصامها، وتدخلت أهواء وأحقاد أضيفت إلى الشهوات الإقتصادية والسياسية وإلى المطامح الشخصية فحملت الرعب والهلع، وعبرت الغلفية، كعقيدة، عن نفسها بتعابير ثورية تتميز عن الفكرة التي أعدت في الأصل دون أن تتناقض معها.

وظهرت الغلفية في البداية وكأنها حركة مبتكرة، في حين أن الجيبلية (Gibelisme) تقوم على القبول بالسلطة الإمبريالية التي تمارس سلطاتها الأساسية بواسطة موظفين تسميهم هي وعلى الاعتراف بدولة ملكية وبجماعة متحدة وموزعة على أراضٍ شاسعة. إنها تأكيد على خصوصية كل مدينة، إنها ليست إتحاداً إيديولوجياً مع البابوية التي تدعمها هذه المدن لأن للفريقين خصماً واحدًا، هو الإمبراطور، وهي فوق ذلك ليست عبارة عن عاطفة وطنية ولا قومية إيطالية ما، حتى ولو كان انصارها أحياناً يرفضون العدو الألماني بعنف. إنها لا تحتوي أية فكرة عن تكوين تلاحم إيطالي باسم الجغرافيا أو التاريخ أو الثقافة، ولا تدعي إطلاقاً أن المدن اللومباردية المتحالفة، حتى ولا إيطاليا تملك حقوقاً خاصة لأنها تؤلف مجموعة متماسكة أو لأنها تجمعها بعض الشروط وهي تظن، على العكس، أن لكل مدينة عاداتها الخاصة وتنظيمها الفريد ومؤسساتها المبتكرة، وكل ذلك ناتج عن الحقوق الملازمة لطبيعة المجموعة المدينية. ومن المفيد أن نذكر أن هذه طريقة

تفسير قروسطية نموذجية وإعلان للحريات الطبيعية لعالم صغير، لجماعة عضوية تمثلها المدينة ـ بسبب الجغرافيا والتاريخ والإقتصاد والتركيب الإجتماعي للشعب ـ وهي مختلفة، حتى مع وجود بعض التقارب، عن الجماعة المجاورة، لأنه حتى ولو كان لمدينتين المؤسسات نفسها وتطمحان إلى حقوق متشابهة فلا يُسمح بدمج الواحدة بالأخرى أو إذابتهما في جسم واحد. وقد عبر عن ذلك سنة 1175 أحد موجهي الحِلْف اللومباردي بقوله إنه بالرغم من أن جميع المدن تتوق إلى حريات من نوع واحد فإن لكل واحدة منها شخصيتها المميزة التي تظهر في عاداتها الخاصة، هذه الأفكار هي، نوعاً ما، نَقْل إلى الأراضي الإيطالية للروح الإقطاعية ولمبادىء العُرْف المنتشرة في غربي الألب. وقد تأكدت هذه الاتجاهات أوّلاً ضد إقطاعيي المدن لمصلحة انتشار الجماعات ثم ضد الإمبراطورية، وأخيراً، في نهاية القرن الثالث عشر، ضد كل سلطة مركزية (انجفية[1]، بابوية. .) وهكذا يبدو من الصعب الاقتداء ببعض المؤرخين الذين يرون في الحلف واقعاً ذا طبيعة إقطاعية ـ فإقطاعيو إيطاليا العليا يشركون المدن في معارضتهم للامبراطور ـ أو وعياً لطبقة مدينية على المستوى الشامل للجماعات، لأن الحلف، من جهة، هو قبل كل شيء اتحاد مدن قاتلت، في الماضي أو الحاضر، باسم المبادىء الموحدة ضد الحكومات الإقطاعية، ومن جهة أخرى لا يعبر عن صراع طبقات، وليس هو نتيجة وعي لفئة اجتماعية بحكم أن الأصناف البشرية، التي تؤلف المجتمع داخل كل مدينة هي كثيرة التنوع ونادراً ما تكون متحدة.

غير أن التأكيد على الاستقلالية الطبيعية قد خف بالنسبة إلى الحلف اللومباردي للغلفيين المعتدلين لاعتبار أن الإمبراطورية تشكل جهازاً عضوياً ضرورياً، وأن المسيحية في نظرهم مؤلفة من خلايا مختلفة ومستقلة، من بينها المدن والإقطاعيات التي تتضمنها مجموعة سياسية أوسع منها، هي الإمبراطورية وهذه الأخيرة هي، إلى حد ما، الفريق الشامل الذي يحتوي كل الفرقاء الآخرين، وهي تعبر عن وحدة الحياة المسيحية والشمولية التي تنشأ عنها بحيث تكون الغلفية بسبب هذه الأوضاع مؤيدة تأييداً تاماً لمفهوم الجمهورية المسيحية وتدافع عن لحمة المسيحية وأوروبا. وللإمبراطور استناداً إليها، في المجال السياسي الجرماني الإيطالي بنوع خاص، رسالة سامية هي تنسيق أنشطة جميع الفرقاء ومنع حقوق

(1) Angevins : وهم سكان غاليا الرومانية نسبة إلى أنجيه وانجو ـ المترجم ـ .

البعض من أن تسيء إلى حقوق البعض الأخر، وفرض العدالة والسلام ولكنه لا يتمتع هو شخصياً بصفته هذه، بسلطات خاصة. هو السيد الأعلى، ولكنه خارج هذه الإمتيازات المحددة التي ينعم بها عندما يكون حاضراً مادياً في إيطاليا باستثناء بعض الحقوق الشرفية أكثر مما هي واقعية فعلية التي تعني تصدره المجالس وكرامته، فإنه لا يملك أية سلطة مباشرة على المدن. إن سيادته هي نظرية ورمزية. وينتج عن ذلك أن الإمبراطورية لا تعتبر نوعاً من اتحاد ممالك وإقطاعات ومدن على رأسه حاكم واحد تتخلى له عن قسم من حقوقها، وليست هي جهازاً يوجهه أمير يحدد، إلاّ في بعض المجالات، القانون العام ـ لأن الإمبراطور لا يستطيع أن يغير عادات المدن ولأنه، بديهياً، لا يمكن أن يكون هناك قانون عام. وليست هي أيضاً كونفدرالية بين فئات تترك للسلطة المركزية إدارة بعض الشؤون معترفة لكل فئة ببعض السيادة الخاصة بها، على الأقل بحرية إدارية كاملة باستقلال ذاتي شامل؛ إنها مجموعة كيانات سياسية متباينة وأراضٍ متنوعة، غير أنها تمتلك وحدة شبيهة بوحدة العالم المسيحي. وإذا كانت طبيعة الأشياء تسمح لكل مدينة أن تكون، ضمن نطاقها، سيدة مؤسساتها وعاداتها وقيمها، فإنه يستحيل على المدينة، بمقابل ذلك، أن تخرج من الإمبراطورية لأن هذه الأخيرة هي جهاز طبيعي ينسجم مع نظام المسيحية، وتمنع، للسبب نفسه، من مخالفة مبادىء الإيمان والأخلاق المسيحية التي يرتكز عليها هذا النظام. والغلفية التي اعتبرت مقلقة الإمبراطورية ومفتتها ومحطمة قواها ومفسدة قسماً من أوروبا ليست هي في جوهرها اللحمة الأوروبية.

غير أن الغلفية تبنت في نهاية القرن الثالث عشر وما قبله، في بعض المراكز، مواقف متشددة حملتها على رفض الإمبراطورية كجهاز طبيعي ضروري وخاصة عندما لم تعد قوة متماسكة على أثر وفاة فريديريك الثاني سنة 1250 ومن هنا لقد رفض الغلفيون المتطرفون كل فكرة عن سلطة مركزية منظمة وسيدة. كان حلمهم وهدفهم استقلال كل مدينة، أي التجزئة على الصعيد الإقليمي والسياسي، وعلى الصعيد القضائي والثقافي الفوضى ورفض كل لحمة، وعلى المتسوى الفكري والفلسفي التأكيد على الفردية والفردانية. وهي هنا كانت تسيء إلى الوحدة، ولكنها في الواقع لم يكن لديها الوسائل لنشر أفكارها وبسط نفوذها كما أنها تورطت وتعرضت للعار وللهم في الأحداث العنيفة في إيطاليا. ويبقى أن نذكر أنها، للمرة الأولى حملت إلى الغرب هذه النزعة المتعمدة إلى الخصوصية وإلى الفوضى

والذرائع التي كان من شأنها في القرون التالية، إن تؤثر على اللعبة السياسية إلى حد أنها أصبحت إحدى عناصر التراث السياسي العقائدي لأوروبا والأوروبيين. ألا نجد هذه المحاولة في حضارات أخرى؟ ألا يوجد في كل إنسان واعٍ غلفيٌ يتحرك؟ وفي كل مجتمع سياسي غلفية خفية؟

الضغوط الاجتماعية

إذا كان كل المجتمع الغربي أسهم في ازدهار النشاطات الاقتصادية فقد بقي بعض المرذولين الذين رأوا وضعهم ينهار، إمّا لأنهم لا يجيدون اقتناص الفرص وإما لأنهم يفتقرون منذ البداية إلى الوسائل التي تسمح لهم بالعمل؛ وإن دينامية الآخرين ومهارتهم قد أساءت إليهم. وهناك بعض الفرسان حتى بعض الإقطاعيين أصبحت مواردهم الحاصلة من أملاكهم القليلة الاتساع والخصب قلما تزيد عن مداخيل الفلاح الميسور في حين أنه كان يتوجب عليهم مصاريف ضخمة نسبياً لتسلحهم وصيانة منازلهم والتزاماتهم الدنيوية، وهناك فلاحون يعيشون، بسبب ضآلة مواردهم، على حافة الشقاء وهم يعانونه في كل مرة تكون المواسم عاطلة. وفي المدن حيث التطور يتم بطرق متنافرة مع مواسم خصبة تتخللها مراحل من الركود، يصادف أناس يعيشون عيشة سيئة ويسقطون في حبائل الإملاق. وفي نهاية تلك المرحلة أصبحت الفوارق شديدة البروز لأن الاقتصاد بدأ يتلاشى، وظهرت عوارض الكفاف في المراكز الهامة وفي الصناعة الكبرى، وظهرت البطالة. ويسعى أرباب الأعمال إلى تخفيف الأجور كلما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً. كانت هذه الصعوبات التي تعني، خاصة، المناطق التي كانت أول ما اغتنى ـ إيطاليا وفلاندرا ـ كانت نذير الركود الذي شمل، في القرن الرابع عشر أوروبا بأسرها.

وقد سببت هذه الصعوبات ضغوطاً ومواجهات بين الفقراء والأغنياء، ومعارك بين المعوزين، الذين شعروا بأنهم مسلوبون والميسورين؛ والنبلاء الفقراء، من جهتهم، لم يعبروا عن سخطهم بأعمال احتجاجية عنيفة. وإذا كان هناك من اختلطوا بالضحايا الأخرى وامتزجوا بها فعلى العكس من ذلك إن العدد الأكبر من القلقين لرؤية أنفسهم مختلطين لمجرد اعتبار مداخيلهم ومستوى حياتهم، مع الفلاحين الميسورين قد تحركوا ليعبروا بأبهة عن نبلهم (شعائر، القاب شرف) وقد احتفظ الذين لا يستطيعون أن يتسلحوا بسبب فقدان المال، طيلة أيام حياتهم بعلامة تميز

شرف ولادتهم. والفلاحون الفقراء، بدورهم، الذين لم يكونوا عادة في كل رعية كثيري العدد، هربوا نحو المدن التي أملوا أن يجدوا فيها العمل، أو تشردوا في الأرياف حيث كانوا يعيشون من السرقات. وعندما ازدادت الصعوبات حدة، شكلوا عصابات للسلب والنهب، وكانوا بأكثريتهم الساحقة فتياناً ـ خدماً صغاراً ورعياناً صغاراً عاطلين عن العمل أو أبناء توالي (يلون أبكار العائلة في الولادة) مهملين أو متروكين لمصيرهم ـ تجمعوا سنة 1212 انطلاقاً من ألمانيا ومناطق أخرى مصممين على السفر إلى الأرض المقدسة ـ قارنين في دخيلة نفوسهم المطالبة بحياة أفضل بالتوق إلى السعادة الأبدية التي ترسي العدالة الإجتماعية وتبرز العمل الذي يقومون به ـ وقد شكلوا في رحلتهم تلك أول مظاهرة للفقر الريفي وللشباب العاطل عن العمل. وسنة 1251 حملت «صليبية الرعاة» الشهادة الأولى عن الفوضى الاجتماعية التي لم تقدر حق قدرها. وكانت تنشأ حركات عصيان محلية غير منظمة فتهدأ بسرعة أو يُقضى عليها حالاً (ثورة الرقيق في المنطقة الباريسية في حدود 1210 و 1240 وتحركات متنوعة في نهاية القرن).

وكان التوتر في المدن موجوداً حتى أن الميسورين شعروا به، وليس صدفة أن يعمد فيليب دو بومانوا، بعد منتصف القرن بقليل إلى جمع المستندات القانونية ليحدد حقوق السلطة الملكية في مواجهة العادات، ويستنكر مؤامرات العمال ضد أرباب العمل. ومنذ ما قبل سنة 1200 كانت حركات التمرد قد هزت ميلانو، وحدثت اضطرابات في كولونيا سنة 1216 وفي دُوِّي 1246، وانتشرت في إيطاليا حوالي سنة 1250 إلى درجة أنه باستثناء البندقية اضطرت طبقة الأشراف التقليدية إلى التراجع أمام عنف الشعب الفقير، غير أن الشعب لم ينتصر فعلاً، لقد تشكلت أرستوقراطية جديدة من عناصر فتية وحديثي النعمة وغوغائيين، ونشأ في فلورنسا سنة 1266 هذا الشعب الجديد المكتنز . وهذا ما حدث أيضاً في مدن جنوبية أخرى مثل برشلونة وناربون. وتستأنف في نهاية القرن الأضطرابات الاجتماعية، المرتبطة أحياناً بالمؤامرات السياسية، في مدن كثيرة (في العاصمة الكاتالانية سنة 1285 وفي عاصمة توسكانا سنة 1293). ولم تكن الضغوط أقل عنفاً في المناطق الشمالية ولكن طبقة الأشراف والبورجوازية الراقية التي تلقت الدعم من السلطات السياسية العليا (كونْتْ فلاندرا، الملك) استطاعت الصمود في مراكزها حتى ولو اضطرت إلى

التخلي عن بعض الامتيازات.

أهي ظاهرة نقابية تطالب بتحسينات مادية دون أن تتهم الحكومات «الأرستوقراطية» التي تسيطر على المدن وشؤونها وعلى المهن؟ أهي انتفاضة غير موجهة وغير منظمة تسببت عن الفقر والأحقاد البالغة ذروة الهياج لبعض الحركات الدينية؟ أهي صراع طبقات أحدثته فئة بدأت تعي هويتها؟ ويتردد المؤرخون بخصوص هذه الصيغ الثلاث ولكنهم يعتبرون أن الأسباب الثلاثة قد تشابكت لأنها ليست متناقضة. في الواقع، إن هذه التوترات الإجتماعية المختلفة تشهد ولكن بشكل مضطرب على رفض المجتمع كما هو. إنها تمثل احتجاجاً على النظام الاجتماعي، غير أنها لا تؤثر تأثيراً عميقاً على لحمة أوروبا الغربية من جهة، لأنها لم تبلغ في هذه المرحلة درجة من العنف تسيطر فيه الفوضى التامة (خطر تعرض له القرن الرابع عشر) بل على العكس من ذلك، فإن الخطر، بفضل بعض التنازلات والمهارة في المعالجة، على أثر تكون هيئات شعبية في الأرياف كما في المدن، لم يكن مخيفاً جداً، ومن جهة أخرى فإن الفئات الأكثر احتياجاً لم تشك في المثالية السياسية الدينية للعصر، باستثناء الذين كانوا أحياناً يدعمون جماعات الهراطقة، بل ظلت مخلصة للإيمان وللكنيسة ـ ألَم يحلم صبيان ورعاة منبوذون هامشيون بالقيام بهذه الخدمة الدينية السامية أي الحج إلى قبر المسيح، كما لو أن جميع المسائل التي طرحت في العصر الوسيط، استناداً إلى تحليل أنغلز، على الأشخاص والجماعات كانت تفسر في بداية الأمر بمسلك ديني؟ ففي كل مجتمع، هناك تواترات لا يمكن أن ترفض على أنها قوى تفتيت في حين أنها على العكس، تساهم أحياناً بتغذية التلاحم، ولأن الخلافات تتيح الإطلاع على الحقائق وإصلاح المظالم والأخطاء التي تعرف خطورتها حق المعرفة. فهل يستطيع صراع الفئات في مجتمع، يملك العامل فيه عدة عمله وينسق الإنتاج مختلف الهيئات الاجتماعية، هل يستطيع الصراع هنا أن يتخذ الشكل الذي يتخذه مع التطور الاقتصادي؟

الهرطقات: الڤودية والمانوية

في المرحلة التي تأكدت فيها قوة الكنيسة وسلطتها، وشكل الدين المسيحي الذي حددته وأشرفت عليه الكنيسة، القاعدة الأساسية، ارتفعت احتجاجات ضد العقيدة الرسمية وضد تنظيم الإكليروس. ومنذ القرن الحادي عشر برزت في إيطاليا

وفرنسا، اعتراضات ما تزال عصية على التحليل، تشكلت فرق دينية في الوقت الذي برزت فيه فكرة الإصلاح التي أدت إلى الإصلاح الغريغوري وكانت هذه الفرق تبشر بالتوبة ونكران الذات وخاصة بالفقر. كانت تنتقد جشع بعض رجال الدين وحقارتهم، وكانت غالباً على صلة بنشاط الوُعّاظ، إمّا أن هؤلاء نشطوا تطورهم بمواعظهم وإمّا أن أعضاء الفريق نذروا أنفسهم للوعظ والتبشير. وفي السنوات 1060 مثلت فرقة الپاتاريا[1] في إيطاليا الشمالية، خير تمثيل هذه الأبحاث. لقد حظيت في البداية بعطف الغريغوريين الذين انقلبوا ضدها عندما تأكدوا أنها تريد تهديم الصرح الإكليريكي. وبعد ذلك ظهرت حركات أخرى تتفاوت تنظيماً تغلغلت في صفوف الشعب الفقير في الأرياف والمدن تحدوها رغبة عميقة صادقة في العيش بحسب تعاليم الدين وتحفظ قوي ضد رجال الدين. لقد أثارت أوّلاً العواطف والأهواء، ولم تنشر عقيدة واضحة، غير أنها كانت تجد، أحياناً مفكرين (منهم أرنودو بريشيا، في إيطاليا، أواسط القرن الثاني عشر) يحملون إليها فكرة التماسك التي كانت تفتقر إليها. زد على ذلك أن الكنيسة الرسمية التي كانت، بنوع عام، ترتاب فيهم منذ البداية رفضتهم كهراطقة وأدانتهم.

والڤوديون كوّنوا في البداية فريقاً صغيراً غير رسمي مارست عليهم إحدى الشخصيات نفوذها ووضعوا تحت تأثير الأحداث وبنتيجة تأمل عميق، عقيدة وشكلوا تنظيماً ثابتاً. لقد اتخذوا اسمهم من اسم رائد الحركة، ڤالدو، الذي يدعى ڤوديس (Vaudis) وهو تاجر غني من ليون «اهتدى» في السنوات 1170 ـ 1175 (1170 أو 1173 في رأي بعض المؤرخين وفي سنة 1176 في رأي البعض الآخر) بعد تأمل ذاتي طويل، لقد باع كل ما يملك وأعطى امرأته حصتها وأرسل ابنيه إلى دير فونتيڤرود[2] وقرر أن يعيش من الصدقات وبعد أن قرأ الإنجيل واطلع على دعوة المسيح إلى التبشير راح يبشر ونصح بعض المريدين حوله بالتبشير أيضاً. فثار غضب رئيس أساقفة ليون فذهب إلى روما وحصل من البابا الكسندر الثالث على إذن بالتبشير على أن ينال موافقة كاهن الرعية التي يريد التبشير فيها. وإذ عاد إلى ليون،

(1) Pataria إحدى الحركات التي كانت تبشر بالإصلاح الراديكالي في ميلانو (1056 ـ 1057) وكانت تحمل على الإكليروس المستسلم للزنى والمتاجرة بالمقدسات ـ المترجم ـ.

(2) Fontevraud دير بناه روبير دابر بسيل في نهاية القرن الحادي عشر وكانت ترئسه راهبة وكان فيه جماعة من الرهبان وجماعة من الراهبات، ألغي نظامه سنة 1792 ـ المترجم.

أعلن سنة 1180 جحوده الذي اعتبر شهادة أساسية في تاريخ الڤوديين، ومرتكزاً لحياة الفرقة ـ إنه جهر بالعقيدة ـ إن التعابير التي يستعملها واضحة: فهو، من جهة، يعلن استقامة إيمانه ويرفض كل ما يقرب من المانوية (إنه قانون إيمان مشروع)، ومن جهة أخرى يصرح بأن مثاليته في الحياة هي العيش في الفقر التام مكتفياً بالصدقات ودون أن يقوم بأي عمل، وبأن سيدافع عن المبادىء الإنجيلية وسينشرها بأذن من السلطات الإكليريكية العادية: لقد تنكرنا للحياة الدنيوية وأعطينا كلّ ما نملك للفقراء حسب وصية السيد المسيح، وقررنا أن نكون فقراء، حتى أننا لا نهتم بالغد، ولا نتقبل من أي كان، لا ذهباً ولا فضة ولا شيئاً من هذا القبيل، ما عدا الغذاء والكساء اليومي، واتخذنا قراراً ثابتاً باعتبار النصائح الإنجيلية مبادىء.

وتبدو الحركة الڤودية وكأنها بحث عن الفقر. إنها تضم علمانيين اكتشفوا في مرحلة الازدهار التجاري نمو انتقال العملية وتطور الفوائد المختلفة للمال، إن الفقر هو فريضة الدين المسيحي كما اكتشف ذلك قبلهم الپاتار والسيسترسيون وأرنودو بريشيا وفِرَق دينية أخرى (وكما سيكتشف فيما بعد فرنسوا الأسّيزي ثم الروحانيون وفرقة فراتيسيل[1]. ففي حين أن الپاتار راحوا يكيلون النقد العنيف لكبار الإكليروس وفي حين أن أرنو دو بريشيا أخذ يبث أفكاراً اعتبرها اللاهوت الرسمي ضارة وفيما كان السيسترسيون منعزلين في صوامعهم إذ أغنوا منظمتهم من عملهم، قرر ڤالدو وتلاميذه أن يبشروا بالفقر والتوبة ـ كما سيفعل الفرنيسكان ذلك، فيما بعد، بتحفظ وتبعاً للأنظمة، وفي حين كان الروحانيون والفراتريسيل يعودون إلى التحفظ والنقد. إنهم إذا فقراء ووعاظ في آن معاً وكانت هاتان الحجتان مرتبطتين ارتباطاً وثيقاً. أرادوا أن يكونوا فقراء ويبسطوا الفقر على العالم من أجل خلاص الفرد والمجموع، وهذا ما دعاهم إلى نشره بالمثل والكلمة.

ولهذا السبب لم يدم الإتفاق مع الرؤساء، فلاعتبارهم أنه من واجباتهم الوعظ، أهملوا طلب الإذن بذلك لأنهم يعرفون أنه سيمنع عنهم. ويحاول رئيس أساقفة ليون الجديد، جان بيل مان، أن يُسَوِّي الأمر معهم فيقترح عليهم تعيين «رئيس» يكون مسؤولاً أمامه، ولكن ڤالدو الذي يعتبر أن فريقه يضم أفراداً مستقلين

(1) Fraticelles فرقة مسيحية هرطوقية (ما بين القرن الثالث عشر، والقرن الخامس عشر) انشقت عن الروحانيين الفرنيسكان ـ المترجم ـ .

لم يوافق على إشراف كهذا، فأدّى الأمر إلى خلاف عنيف، فإلى الحرم، أوّلاً، وقد أعلنه رئيس الأساقفة (1182 أو 1183) ثم جدده البابا علنياً سنة 1184 ثم تأكد عدة مرات فيما بعد بصورة حرم شامل في المجمع اللاتراني الرابع سنة 1215 وظل التاجر القديم، بالرغم من حرمه، أمينا على مبدأ فهمه سنة 1180 . كان يعظ وينظم الناس الذين يتبعونه (فقراء ليون). وظل خصماً عنيداً للمانويين وكان يسهر ، عن كثب ، على تلاميذه خوف تعرضهم لهذه الانحرافات . وهكذا يفصل سنة 1200 بعض الفئات المستقرة في اللانغدوك ويطرد، لأسباب أخرى، سنة 1205 فِرَقاً لومباردية (فقراء لومبارديا) متأثرة بحركات سبقت حركته أرادت أن تعمل وتنتخب رئيساً. وفي سنة 1207 على أثر نقاش حاد في پامْيِنه يعود دوران دوسكا وڤوديون آخرون إلى حظيرة الكنيسة (الفقراء الكاثوليك). وفي سنة 1210 يحذو حذوهم «الفقراء العائدون» بقيادة پْرِيْنْم.

وفي هذا التاريخ يموت ڤالدو، وحفظ تلاميذه رسالته ولم يقبلوا العودة إلى الكنيسة ولكن إذا كان البعض نفذوا هذه العودة، أليس ذلك لأن الخلافات ليست مما يتعذر إصلاحه؟ وأوصلت القطيعة إلى نشوء البدع لأنها في أساسها رفض للسلطة الإكليريكية لذاك العصر التي تدين بدلاً من أن تساعد. وللسلطة الكنسية المتعطشة إلى القوة والثروة أكثر مما هي مهتمة بخير النفوس. وإذ رفض الڤوديون الإكليروس، أي الأساقفة والكهنة اضطروا إلى تصور تفسير آخر للأسرار. لقد رفضوا سر الكهنوت الأمر الذي دعم طابع العلمانية لجماعتهم وعمل على أقصى تبسيط للطقوس وفسروا الكتاب المقدس بطريقة مختلفة عن التقليد الكاثوليكي مستعيدين بعض أقوال المؤلفين القدماء واعتبروا الأعتراف ممارسة مقدسة ولكنه، لعدم وجود كهنة، يختلف عن التوبة الكاثوليكية، ونظروا إلى الزواج على أنه توافق الزوجين وإلى سر العماد كعلامة تقوية أساسية، وقد حدث خلاف بخصوص منحه للمعتمد منذ الطفولة . إن العبادة بالنسبة إليهم تقتصر على الصلوات المشتركة وعلى احتفالات ذات طابع إفخارستي (قرباني)، إذ يجتمع المؤمنون في «أخويات» يوجهها المسنون وينظمها الأكثر قداسة، الوعاظ الذين يُدعَون الكاملين ـ تسمية مقتبسة من المانويين ـ أو الملتحين غير أن الشيء الأساسي عندهم هو أنهم لا يشكون بالعقيدة المسيحية ، إنهم يوافقون بملء اختيارهم على ماهية المسيح ، على التجسد والفداء ويؤمنون بالعذراء حتى ولو كانوا يعارضون عبادة موسعة للقديسين ، لا يقبلون

كمبادىء حياتية سوى المبادىء المسيحية .

وبفضل نشاط المؤسس وتلاميذه ظهرت فرق ڤودية باكراً في دوڤينيه وفي أودية الألب من جانبي جبال الألب، ولوحظ سنة 1200 عـدد كبير منهم في أسقفيـات غرينوبل وأومبران وموريان ومونْتِيْيه وتوران . ثم بعد ذلك وجد الكثير منهم في الجنوب وفي وادي الرون والسيڤين وبعض مناطق اللانغدوك بينما آخرون كانوا يقومون بنشاط في فرانش كونتيه وفي السهل السويسري ، المناطق التي بلغت الحركة، انطلاقـاً منها، وبمساهمة بعض الفئات شمالي شرقي إيطاليا وبعد ذلك أوروبا الوسـطى، وكانت الأخويات المنعزلـة بعضها عن البعض الآخـر، تعيش حياة بسيـطة، وظل البعض أميناً على الفكرة الأساسية، والبعض وفّق بينها وبين الوقائع، والبعض بحجة مقاومة تعاليم الإكليروس الكاثوليكي ينجرفون إلى ممارسات بدعية، غير أن جميع هذه الفرق، بالرغم من ضلال بعض الجماعات التي ليست هي ڤودية حقيقية، كانت تعتبر أنها خير من يمارس المفهوم المسيحي . وللمانويين الذين يدعون الإدعاء نفسه تـاريخ يختلف تمـام الإختلاف، وإذا كـان صحيحاً أن نفـوذهم أثر في مؤمنين متنـوعين، أكثرهم يتوق، بكل بساطة إلى ديانة أفضل وإذا كان انطلاقاً من هنا أثر نفوذهم هذا في مواقف فرق أخرى، فلا يبقى علينا إلاّ أن نذكر أن تصرفهم اعتمد منذ البداية على اقتناع عقائدي من الصعب أن نؤكد أنه لا يتعارض مع المسيحية .

وإذا حللنا هذا المعتقد بشكل مبسط لا نرى فيه كثيراً من التعقيد، بالرغم من أنه يمثل جهداً عظيماً للتوفيق بين مفهوم اللانهـائي والنهائي المـرتبط بهما الخيـر والشر . فهو يؤكد كمسلّمة أساسية، على وجود هذين «المبدأين» اللذين يرسيـان الثنائية الإلٰهية: إنه إلٰه الخير أو الروح وإلٰه الشر أو المادة لأن هذه المادة هي شريرة تدعو إلى الشر (أي الخطيئة) وبما أنها فانية ومائتة فلا يمكن أن تكـون من عمل اللانهائي ولكن الإنسان يتصرف في الطبيعة كخليقة وجدت بفعل المبدأين، له جسم فانٍ وهو مادة متفرعة عن الشر وله نفس خالدة خلقها الإلٰه الصالح .

بعض المانويين يضعـون المبدأين إلى حـد ما، على قـدم المساواة. إنهم الثنائيون في المطلق، وآخرون معتدلون يعتقدون أن إلٰه الخير هو أسمى من الأخر ، الأمر الذي يبدو، في نظر المسيحيين المحدودي الثقافة اللاهوتية، وكأنه المواجهة الكـلاسيكية بين اللّه والشيـطان ـ وهكذا، يعـرض الوعـاظ المانـويون عقيـدتهم.

وبالطريقة نفسها يكتمل مصير البشرية والإنسان بالخلاص الأبدي في أحضان الإله الصالح، ولكن طريقة الوصول تختلف عن الطريقة التي يقترحها التقليد المسيحي . وجد الإنسان هدفاً لصراع مستمر بين المبدأين وهو يشارك في معركة يقودها ضد نفسه يمكن أن تدوم عدة أعمار، لأنه، طالما لم يسيطر على جسده ـ الذي لم يتطهر ـ فإن نفسه لن تتحرر من سيطرة المادة وستنتقل إلى خليقة أخرى. غير أنه في نهاية هذه التحولات يصل ذات يوم إلى هذا التحرر ويشهد على انتصار الخير بحصوله على الخلاص . وفي غضون ذلك، فإذا استسلم للشر لن يعتبر مسؤولاً فعلاً. إذا كان الجحيم على الأرض فإن جميع الناس سيذهبون يوماً إلى الجنة.

ونشأ عن ذلك مستويان في آداب النفس . من جهة تتطلب الأخلاق الحقيقية من الذين يريدون أن يصبحوا كاملين، الكفر بكل ملذات الجسد وكل متع الطبيعة ـ أيْ العفة والفقر والتواضع ـ ومن جهة أخرى، بالنسبة إلى الذين لا يستطعون بلوغ هذا المستوى من التقشف وهم الأكثر عدداً، الذين يطلب إليهم عند الإشراف على الموت أن يلتزموا الكمال إذا نجوا، تقبل منهم أخطر المعاصي دون أن تحسب خطايا أو شكوكاً. وبالمقابل فان ما يعلن كمثير للشكوك هو الإستمرار في عمل الشر بواسطة الإنجاب: إن الزواج هو أفضل مؤسسة شيطانية، والانتحار هو عمل معقول وشجاع وهو أفضل تعبير عن الإيمان ـ إنه المعاناة بصبر، الموت الإرادي بواسطة الجوع، وتبعاً للمفهوم ذاته، يجب عدم أكل اللحوم لأنه يجب الحذر من ملامسة المخلوقات التي تكونت في الشر، أي الحيوانات.

إن تنظيم الجماعة يقوم على مستويين من الأخلاق، على رأسها الكاملون الذين قرروا أن يتحرروا نهائياً من الشر والتزموا بذلك علناً أثناء حفلة رسمية يباركهم أقدم الأعضاء سناً، ويختار من بينهم أولئك الذين ينظمون المؤمنين ويديرون الكنائس المحلية ـ يسمون أساقفة ويعاونهم ابن اكبر وابن أصغر وشمامسة، والباقون هم المؤمنون يلتزمون أمام أحد الكاملين أن يستقبلوا التعزية قبل موتهم ، يجتمعون بانتظام من أجل وقعة طعام مشتركة وصلوات مشتركة يتبعها إقرار بالخطايا، يعترف بها قبل كل شيء لإدراك سلطان الشر، ودون أن يكون هناك سر حقيقي لقد تساءل المؤرخون واللاهوتيون منذ زمن بعيد عن أصول هذا المعتقد وعن علاقته بالعقيدة المسيحية وكان الجدل متشابكاً وأكثر الأحيان غامضاً، ومن الحكمة أن نشير فقط إلى

الحجج البارزة . بالنسبة إلى البعض فإن المانوية الطهرية هي إحياء وامتداد للمانوية التي نشأت في العصور الأولى للكنيسة من لقاء المسيحية بالديانة الفارسية وعلّمت وجود مبدأين ، الخير والشر كتفسير أساسي لمصير الإنسان. وهكذا يعرضه المؤمنون به والمهتدون إليه وهذا ما ينكره عليه أخصامه، وبالنسبة إلى البعض فإن التأثير الأساسي يأتي من المعرفة الروحية (الغنوص) واستناداً إلى هذه المعرفة يوجد بين اللانهائي الإلهي والمادة مجموعة من الأشياء والكائنات التي تدرك منهما معرفة الله وهي مركبة بنسب مختلفة ومتدرجة من المادة والعنصر الإلهي - إنها قضية لا تعارض المانوية . وبالنسبة إلى فئة ثالثة فإن التعارض بين الخير والشر يشكل الصيغة الأخلاقية للجدلية التي تواجه الكائن بالعدم. والعدم كائن في ذاته يتدخل في الطبيعة البشرية للقضاء على الإنسان بالموت. ومهما تكن هذه الفلسفة متحفظة فمن الملاحظ أن العقيدة المسيحية هي تقريباً غريبة عنها . غير أن المانويين الطهريين يكرمون شخص المسيح الذي ظهر بعد مرحلة تاريخية طويلة انتصر فيها الشر والذي يتحدث عنه العهد القديم (ما عدا الأنبياء) وجماعات اليهود. جاء يسوع يحمل رسالة الخلاص التي خانتها الكنيسة الكاثوليكية التي هي من أصل شيطاني، لكنه لا يمكن أن يكون بحقيقته وكليته إنساناً وإلاّ أصبح جزءاً من الشر ولما كان إله الخير ، إن تجسده ليس إلاّ ظاهرياً وكذلك موته وقيامته.

وبالرغم من أن هذه المسائل العقائدية هي صعبة التوضيح والحل، فإننا نستنتج أنها في الواقع، لم تُطرح الطريقة على أكثر المنتمين إلى هذا الإيمان. وفي النصف الأول من القرن الثاني عشر انتشرت بين هذه الفرق الشعبية المؤلفة من رجال ونساء يتوقون إلى حياة روحانية أسمى دون أن يهتموا باللاهوت ، انتشرت بينهم تعاليم أساسية شرحها وعاظ يشددون على مساوىء الشيطان وعلى الانحرافات التي يسببها كل ما هو جسدي وخاصة المرأة مع الشهوات التي تثيرها وعلى المساوىء والمخاطر التي تواجه فضائل النفس والخير، الذي يصارع الشر منذ بدء الخليقة هذه الشروح التي تصادف قبولاً سهلاً تتيح رفض ضلالات المسيحية التقليدية التي يدعمها التصرف الفاسد للكنيسة ورجال الدين وهداية أتباع إلى نوع جديد من الحياة وممارسات دينية أخرى. وكان هؤلاء الوعاظ قد تثقفوا وتدربوا في بعض الحلقات الصغيرة في أعالي إيطاليا وهم، كما يبدو، على صلة مع فرق يونانية، وكانت العلاقات مع الشرق التي دعمتها الحملة الصليبية الثانية، في منتصف القرن الثاني

عشر، قد سهلت انتشار هذه الأقاويل وتطهير الفئات التي كانت ثقافتها العقائدية حتى ذلك التاريخ ضعيفة . وفي تاريخ متأخر وعندما أراد القادة أن يثيروا الانتباه إلى فرادة إيمانهم وإلى ما يفرقهم عن المسيحية، عند ذاك ولدت الطهرية العلمية، التي يعود تاريخ مؤلفاتها الأولى إلى الثلاثين السنة الأخيْرة من القرن الثالث عشر . فليس هذا التعليم الفلسفي واللاهوتي المدعوم بالبينات هو الذي أغرى الجماعات ولكن الموضوع الظاهري البسيط للبرهان الأول ـ الخير والشر ـ والتسامح الأخلاقي وقداسة الكاملين وغيرتهم .

وبواسطة هؤلاء تم انتشار هذه التعاليم في مناطق مختلفة ومنذ منتصف القرن الثاني عشر كان قد وجد «مانويون جدد» في شمالي فرنسا وفي رينانيا وفي تولوزانْ . وبعد خمسين سنة وجد منهم في باريس. ولكن البلاد التي انتشروا فيها أكثر من سواها هي اللانغدوك من جهة (وخاصة المنطقة المحصورة في المثلث فْوَا ـ بيزْيِيْه ـ تولوز) مع امتداد نحو وادي تارْنْ في أَلْبيجوا ـ التي منها اشتق اسم الهراطقة. وفي إيطاليا الشمالية من جهة أخرى (مع المراكز الأكثر نشاطاً حول بحيرة غارْدْ مع كثرة عددية في توسكانا).

القَمْع والكَبْت

واضطربت الكنيسة أمام تنامي الجماعات والفرق التي ترفض سلطتها وتحتج على تعاليمها العقائدية حتى محتوى الإيمان . وكان للسلطات المدنية أيضاً، وبعض الأمراء مثل فريديريك بربروس وفيليب أوغست، ردات فعل أعنف ولكن بما أن القضية دينية بحتة فكان على جهاز الإكليروس، وخاصة البابوية، أن يتدخل.

وبين السنوات 1120 و1220 ـ 1230 تغيرت طبيعة التدخل وكان الهدف في المرحلة الأولى، إدانة الأفكار وملاحقة الدعاة والمتمردين ـ الذين ظلوا صامدين ـ والتركيز أكثر على استعادة الذين ابتعدوا عن الدين القويم واستطلاع المخاطر الحقيقية وهكذا لقد أدانت مجامع لاتران الثلاثة (1123، 1139، 1179) تعاليم الهراطقة على اختلافها واعتبرتها ضالة، وحرمت الذين يروجون لها. هذا الرفض شمل سنة 1179 الفوديين والطهريين المانويين. وفي المرحلة ذاتها ترسل البابوية على عجل ، سفراء يتمتعون عند الحاجة، بالسلطة التي تخولهم توجيه التهم إلى الذين ظلوا على هرطقتهم رغم التوبيخات والأقتصاص منهم. وهكذا يتجول

القديس برنار سنة 1145 في اللانغدوك دون أن يسجل نجاحاً يذكر . وفي سنة 1178 يرسل البابا الكسندر الثالث، بالإتفاق مع ملوك فرنسا وإنكلترا، بعثة كثيرة العدد يرئسها أحد الكرادلة يعاونه رئيس دير كليرڤو وبعض رؤساء الأساقفة والأساقفة. كانت هذه «البعثات الرسولية» تعظ وتحاول استعادة الذين انجروا إلى الهرطقات، وتطلب القبض على الاتباع الجدد وعلى الذين كانوا أكثر اقتناعاً وإيماناً فكانت تحاكمهم وتصادر أملاكهم وتفرض عليهم الغرامات.

واستمرت البعثات في السنوات التالية وخاصة إلى جنوبي فرنسا، بينما في بعض المناطق قام الأساقفة بهذا العمل. وقد طلب المبعوثون والأحبار، لتنفيذ مهمتهم، مساعدة السلطات المدنية المحلية ولكن دون أن تتغاضى عن عودة النعاج الضالة إلى الحظيرة وقد عاد قسم من الفوديين، كما ذكرنا، إلى الكنيسة، بينما الآخرون، كردة فعل على ذلك، ازدادوا تصلباً في معارضتهم للإكليروس. أما بالنسبة إلى الطهريين المانويين فإن القسم القليل منهم، على ما يبدو، قد عاد إلى أحضان الكنيسة في اللانغدوك وإيطاليا.

وأمام هذا الفشل النصفي وانطلاقاً من السنوات 1180 تُوتِّر الكنيسة موقفها وتقرر استبعاد الهراطقة أي أن تقطع علاقاتها معهم نهائياً ومن المجمع اللاتراني الثالث (1179) تقرر، بالإضافة إلى الحرمان، فرض عقوبات مدنية وجزائية في حين أنه لم يتحدد شيء بهذا المعنى منذ الاجتماعين السابقين. وفي سنة 1184 يتفق البابا لوتيوس الثالث مع فريديريك بربروس على الطريقة التي سيتبعانها وتتعاون أعلى سلطتين في المسيحية تعاوناً وثيقاً من أجل الدفاع عن الإيمان الرسمي، وصدرت فتوى بابوية ودستور إمبراطوري، ينصان على أنه يعود للسلطة الكنسية أن تفتش عن الجريمة وتتأكد منها - وتقرر جريمة الملحد - وعلى السلطة العلمانية أن تطبق العقوبات الزمنية المقررة (سجن، حجز أملاك) وكانت هاتان السلطتان تفرضان على المؤمنين أن يشوا بانصار البدع . ومنذ ذلك الحين فرض سفراء البابا هذا التشريع وأشرفوا على تنفيذه الذي قام به الأساقفة. وفي بداية القرن الثالث عشر كان إينوشنسيوس يحلم باستعادة الهراطقة وينشر «سلام الوحدة والإيمان» حسب قوله، ولكنه قلق أكثر فأكثر من تكاثر عددهم فازداد الكبت حدة وعنفاً وفي المجمع اللاتراني الرابع سنة 1215 فرض الحبر الأعظم تدابير تزيد من فعالية القوانين



31 - الملاك الباسم. كنيسة ريمس



32 - حلم انيوشنسيوس الثالث. جزء من لوحة «تتويج العذراء» للرسام فرا أنجليكو

المقررة سنة 1184 ضد الخطأة ومن يساعدهم أي العقاب بالموت، الذي تتضمنه عبارة «العقوبات المطلوبة» المطبقة فقط ضد المتمسكين بضلالهم. وزيادة في حسن التنسيق بين التحقيقات والعقوبات، ومن أجل التأكد من ألاّ يمارس هذه العقوبات أناس غير مسؤولين لا يخضعون للمراقبة، أنشأ غريغوريوس التاسع مصلحة تخول الكرسي الرسولي السلطة النافذة ووسيلة العمل الفعالة في هذا الخصوص الآ وهي محكمة التفتيش.

وحتى ذلك التاريخ كان البحث عن الهراطقة منوطاً فقط بالإكليروس المحلي والتفتيش الحقيقي عن ذنبهم، ومحاكمتهم هي من اختصاص الأسقف في كل أبرشية وقد أمر سفراء البابا، إلا في بعض الحالات الاستثنائية، بإجراء التحقيقات - ويطبقونها أحياناً بأنفسهم مرغمين السلطات الكنسية المحلية على التعاون معهم - وقدموا المجرمين للأحبار «موضحين» لهؤلاء ما يجب فعله. وتسهيلاً للمهمة، كان المجمع اللاتراني الرابع قد قرر إنشاء لجنة في كل أبرشية مؤلفة من كاهن وعلمانيين مهمتها الوشاية بالهراطقة والمتآمرين معهم. وفي سنة 1229 وبمناسبة التسوية السياسية للقضية الألبيجية حدد سينودس أسقفي العقوبات وقرر أن الموت بالنار هو موت طبيعي في حال تأكد الهرطقة والإصرارا عليها، وفي سنة 1231 يجمع غريغوريوس التاسع براءة كان قد أصدرها وقانوناً مدنياً قابلاً للتطبيق في مدينة روما في مستند وحيد دعي فيما بعد «تشريعات الكرسي الرسولي» وقد أعاد النظر مطبقاً مع بعض التلطيف، إلاّ في حال التآمر، التدابير المقررة في تولوز وقد عمم تطبيقها على كل البلاد المسيحية وفي سنة 1232 أعلن رئيس الكنيسة أنه يرسل رهباناً دومينيكانيين بصفة مفتشين لا يخضعون إلاّ له. وابتداء من ذلك التاريخ مدت محاكم التفتيش المنظمة في ولايات تضم الابرشيات، مدت شبكتها على أراض واسعة جداً. وقد احتفظ بعض الأساقفة ببعض الصلاحيات الأساسية منها: التفتيش والإشتراك في المحاكمات. وغالباً ما كانت محاكم التفتيش هي التي تتحرك أولاً، وبما أنها كان يناط بها تنفيذ الأحكام كان من الصعب العمل بدونها وبين 240 و 1260 - 1276 ازدادت الضغوط إلى درجة من العنف بلغت تقنين التعذيب (1253) التي كانت تثير السخط وقد لوحق الهراطقة وتعرضوا للتقتيل فلجأوا إلى أعالي أودية الألب والپيرينيه، وقد ظلت بعض الفرق، ولكن أقل تحمساً، في أراغون ولومبارديا ورينانيا وساكس وسيليزيا.

وفي انفجار العنف هذا الذي أدى إلى تجاوزات مهولة احتلت الحملة ضد الألبيجيين مكاناً هاماً وسهلت مباشرة الإجراءات الدامية . لقد حدثت في ظروف اختلطت فيها المطامح السياسية بالمهام الدينية .

وفي السنوات الأولى من القرن الثالث عشر تبين للسفراء المرسلين إلى اللانغدوك أن الهرطقة التي ازدهرت في المنطقة، كانت حاضرة في كلّ مكان، في الأرياف كما في المدن ، وكان بين أفرادها نبلاء ورجال دين، بينما كانت ردات فعل رجال الدين محدودة. وطلب السفير السيسترسي پيار دو كاسْتِلْنو بإلحاح من كونت دو تولوز ريمون السادس الذي لم يكن ملحداً أن يقدم له مساعدة فعالة، ولكن الكونت الذي كان يعاني صعوبات مع بعض اتباعه لم يتخذ موقفاً رسمياً معادياً للطهريين المانويين وذلك كي لا يزداد أعداؤه. وتحولت العلاقات بين الرجلين إلى عنيفة وعاصفة إلى درجة أنه في كانون الثاني/يناير سنة 1208 اغتال بعض موظفي الكونت السفير البابوي وذلك دون أن يكون سيدهم قد أعطى تعليمات بهذا المعنى ، وتصرف إينوشنسيوس الثالث عندئذٍ بقسوة: لقد حرم ريمون السادس وصرح بأنه يجب أن يجرد من كل سلطة وتعطى أملاكه لمن يريدها وقرر، في الوقت نفسه، أنه يجب أن تجرد حملة صليبية لاستئصال الهرطقة من جنوبي فرنسا، فاحتج الملك فيليپ أوغست وأطلق العنان لأتباعه وهكذا فإن عدداً لا بأس به من إقطاعيي الحوض الباريسي، الذين فرض نفسه عليهم سيمون مونفور المتحدر من عائلة ڤكسان، تجمعوا وتعاونوا تشدهم المنافع ـ الغنيمة ، الأراضي، الإقطاعات ـ التي أملوا في الحصول عليها في الحملة ، وانطلقت الحملة في بداية صيف 1209 . وفي 21 تموز/يوليو احتلت مدينة بيزييه وقتل سكانها دون تمييز بين هراطقة وغيرهم. وفي الأيام التالية سقطت كاركسُونا والمدن الصغيرة المجاورة بدورها أو أعلنت خضوعها . ونواب كونتات ترانكاڤيل الذين كانوا أصحاب هذه البلدان والذين كانوا طهريين مانويين جردوا من أملاكهم . وعلى مدى عدة أشهر كان ريمون السادس يحاول عبثاً المفاوضة والإتفاق مع الكنيسة ـ هذه الأشهر التي احتشدت فيها أحداث مطاردة الهراطقة ـ خفت المعارك العسكرية، واستؤنفت سنة 1212 وشغل هؤلاء المتضامنون عندئذٍ كونتية تولوز بكاملها . ويهب ملك أراغون پيار الثاني، الخصم اللدود للطهريين المانويين إلى مساعدة الكونت لأنه أدرك أن القضية هي قضية

عملية احتلال، فهزم وقتل في معركة موريه سنة 1213 وبعد ذلك يحتل سيمون دو مونفور تولوز وفي سنة 1215 وبالرغم من بعض التحفظات يعترف البابا بتملك الكونتية في حين أن فيليب أوغست يغتبط باحتلال أتباعه المباشر لهذه الإقطاعات البعيدة غير أن سكان تولوز ثاروا سنة 1218 فيهرع سيمون الذي كان يقاتل في بروفانس حيث يمتلك ريمون السادس أملاكاً واسعة، لإخضاعهم ولكنه يموت في المعركة ويموت ريمون السادس بدوره. غير أن الحرب تستمر بين أبناء أموري وريمون السابع. وفي سنة 1226 يتدخل الملك لويس الثامن رسمياً وفي سنة 1229 يسوّي الوضع بواسطة اتفاقية باريس ويستعيد ريمون السابع الكونتية ولكنه يزوج ابنته ووريثته لأحد أبناء الملك: فيضم هذا اللانغدوك الشرقية التي تشكل قهرمانيتي نيْمْ - بوكير وبيزْييْه - كاركسّونا وهكذا يُعطى حلٌ سياسيٌ لمشروع سياسي، ولكن دون إهمال المظهر الديني فيطرد الهراطقة بعنف متزايد ومن أجل السيطرة على الأفكار ونشر المذهب القويم بشكل أفضل، عملت اتفاقات سنة 1229 على تأسيس جامعة في تولوز.

هرطقة ومسيحية

إن عمليات القمع والتعصب الذي رافقها ونتج عنها تشهد على قلق الكنيسة الرسمية والبابوية وخوفهما، بل جنونهما - إلّا إذا كانت البابوية قد قرعت ناقوس الخطر ليتسنى لها التحرك بقسوة أو إذا كان يديرها مسؤولون أكثر مهارة. على أي حال فإن التاريخ يحتم علينا التقدير إلى أي مدى كان الإلحاد يتهم مؤسسات المسيحية وتنظيمها كما كان يفهمها الناس في ذلك العصر.

ويكتفي بعض المؤرخين الماركسيين بالقول إن الهرطقات كونها ترفض الغنى والأغنياء، أي الذين يهيمنون على قوى الإنتاج، تشكل ظاهرة صراع الطبقات المعبر عنه في المجال الديني حيث يتحدد تصرف الناس في العصر الوسيط. إن ذلك في غاية تبسيط الأمور، فمن جهة، لا يوجد هرطقة واحدة بل هرطقات شديدة التباين وفوق ذلك ففي داخل «العقيدة» نفسها جماعات مختلف بعضها عن بعض، من بينها ما يتميز أولاً بانتقاد الغنى، وأخرى كالطهريين الذين لا يشددون كثيراً على الغنى إلى درجة أنهم يثيرون غضب القوديين ، ومن جهة أخرى هناك في كل الفرق ممثلون من جميع الفئات الإجتماعية وفي كل هرطقة معارضات وتناقضات داخل الفرقاء، فبين

الفودين والأخويات التي تشبههم يبلغ عدد سكان المدن الأكثرية وهم يـأتون من مجتمعات البورجوازية المتوسطة كما يأتـون من طبقات أكثـر تواضعـاً من الشعب الفقير. ويوجد بينهم قرويون أيضاً . أمّا الطهريون المانويون فيبدو واضحاً أن اتباعهم في اللانغدوك يتفرعون قبل كل شيء من المجتمع الريفي، إقطاعيون من الطبقـة النبيلة الـوسطى والصغيـرة، قرويـون فلاحـون ورعاة، يضـاف إليهم بعض سكان المدن. أخيراً كل شيء يحمل على التأكيد بنوع عام، أن الذين انتموا إلى الفِرق الدينية فعلوا ذلك لدوافع روحية وأن الهرطوقي هو أساساً مؤمن اختار دينه عن قناعة. بالمقابل، ربما كان هذا الخيار متأثراً بالبيئة الثقافية والإجتماعية إلى درجة أنه لولا البيئة لما فكـر أحد بـالقيام بـه. وإذا تابعنـا التحليل في هـذا الاتجاه نستنتـج أن الهرطقات إذا كانت لا تشكل صراع طبقات، فإنها تبرز الضيق الذي يعبر عنه بعض الناس وغالباً أفضلهم وهو العيش في المسيحية كما تشرح وتوجه ـ والقديس فرنسيس الأسّيزي هو أيضاً يشعر بذلك شعوراً عميقاً، والفرق المتطرفة التي نشأت في أعالي إيطاليا في النصف الثاني من القرن الثالث عشر، أشهرها فرقة دولْسِينْو في فالْسِيزْيا (حوالى سنة 1300) التي استأصلتها إحدى الحملات الصليبية الحقيقية، فهي تعبر عن أقصى درجـات هذا الإزعـاج لأنها تـزيد من خـطورة رفض القيم الأخـلاقيـة الرائجة . إن تحليل الهرطقة يحمل في طياته احتجاجاً على المجتمع (الغنى) وعلى سلطانه (إنها ضد الهرمية وضد الإكليروس) وعلى النظام الذي تضمنه هذه السلطات والقيم التي تنشأ عن هذا النـظام والتي قيل عنهـا إنها غـامضة غـالباً لأنهـا تخلط بالمبادىء الأخلاقية الثابتة قيمة النجاح الاجتماعي. من هنا فإن الهرطقة تهدف إلى تغييـر المجتمع البشـري، وهذا مـا أدركتـه الكنيسـة الـرسميـة والسلطات . لقـد اكتشفت ، وخاصة عندما قامت بردات فعلها ، أن الهرطقة كونها ظاهـرة إجماليـة تتصدى للتنظيم القائم فإنها واقع سياسي في المعنى الأوسع والأعمق لهذه اللفظة لأن مخططاتها كانت تستهدف بنـوع خاص البنى (السلطات) والثقـافة (القيم) في أوروبا ذاك الزمن. غير أن ذلك لا يعني أن هذا الإستنتاج بلغ من التهجم درجـة اعتبرت معها أن المسيحية قد تداعت أساساتها وأوشكت على الإنهيار. وإذا كان صحيحاً أن الفودين قد انتقدوا بعنف فإنهم سعوا وراء البحث عن مثالية ليست هي على أي حال رفضاً للمبادىء الأساسية والقيم الجوهرية في النظام المسيحي. إنهم على عكس ذلك، يطالبون بنظام أكثر تمسكاً بالمسيحية استناداً إلى ما يراه أفضل آباء

المسيحية . لقد رفضوا الهرمية لأنها تـدينهم فعندمـا يرفضـون الغنى، ومن ورائه المجتمع المنظم اقتصادياً دون أن يكون غير ذلك في ظروف ذاك العصر. لقد انعزلوا عن المجتمع ووضعوا أنفسهم خارج التطور والزمن، ولكنهم في أخوياتهم المعزولة والسيئة التنظيم، لأن كل شكل من أشكال السلطة كان يبدو لهم مثار شك وريبة، كانوا يعيشون بملء اختيارهم كهامشيين. إن تهجمهم هو من طبيعة روحية بحتة، وهم لم يضعوا أي تنظيم يحل محل الهرمية الكاثوليكية ولم يحاولوا تصور أي نموذج إقتصادي. إنهم ينتمون إلى تيار الفرنسيسكان الروحي الذين شاؤوا أن يظلوا أمناء على مثالية القديس فرنسيس في الفقر واستوحوا أفكار يواكيم دو فلور، واعتبروا، مع هـاتين الشخصيتين، أنهم لا شك، يـدشنون زمن الـروح، وأنـه من الضـروري تحـطيم السلطة الإكليريكية ورفضها لكي يعيشوا في نكران الذات والفضيلة . غير أن هذا الموقف الجديد المختلف عن التقليد الحديث والبعيد عن النظام القائم، الذي يعبر عن نفسه في رؤيا صوفية للبشرية ويرغب في أن يكتشف ويقرأ في التاريخ علامات الفداء، هذا الموقف يعبر عن بعض اللامبالاة تجاه الكنيسة والحضارة المسيحية. وهكذا كان ڤالدو ويواكيم دو فلور وآخرون أنبياء الإصلاح الآتي. وبهذا المعنى، فإن فضلهم عظيم وقداستهم مدعاة للعجب، ولكنهم استطاعوا إثارة القلق، ولكن من الصعب أن ندرك كيف هددوا بتحطيم البناء . إن مملكتهم ليست من هذا العالم. وبالمقابل تحتج الطهرية المانوية بقوة على القيم المسيحية: الزواج والعائلة والغنى، وترفض الكنيسة وسلطتها كما ترفض سلطة حلفائها. إنها تستبعد كل ضغط، فكل سلطة بالنسبة إليها هي سلطة شيطانية، وعندما تنتظم تؤسس كنيسة أخرى استناداً إلى بنى أكثر مجمعية وضمن احترام ما للإستقلال الذاتي . ولكن دون مناقشة التنظيم الاقتصادي لذاك الوقت، إنها لا شك تحمل ثقافة وقيماً أخرى من أجل الدفاع عنها تبدو أكثر شراسة. غير أن هذه القيم التي تدعيها يصعب فهمها بشكل واضح أو أنها عندما تعبر عن نفسها انطلاقاً من اعتبار روحي فإنها تلتقي بقيم الڤوديين، وإنها عندما تعتمـد على ذرائع فلسفيـة، تؤدي إلى رفض تحمل مسؤوليـة وجـودهـا الخـاص (الانتحار) والتنكر للالتزامات الأكثر طبيعية للحياة الاجتماعية، أو أنها عندما تسعى إلى الذوبان بالمعطيات التقليدية للثقافة الجنوبية، تصبح في غاية الغموض، بحكم أن الأوكسيتـانية، في نـطاق تمثيلها للحقيقـة الراسخـة ، لا يمكن أن تتحول إلى الطهرية المانوية. وتشن الكنيسة عليها حملة شعواء. وبفضل اندفاعها ونجاح ردة

فعلها سببت انهزام هذه الهرطقة التي بعد أن زرعت الرعب حصدت العنف دون أن يتوفر لها الوقت لتؤثر تأثيراً عميقاً ، وربما دون أن تمتلك من الوسائل، أيا كانت ظروفها، ما يتيح لها النجاح. وأخيراً لقد سبب الطهريون مع سائر الهراطقة وربما أكثر منهم جرحاً عميقاً للمسيحية ، ولكنه جرح غير مميت. ولم تكن جراح الإتحاد الأوروبي باقل خطورة.

الثقافات المتضاربة

لا تشكل الهرطقة الاحتجاج الوحيد على الثقافة القائمة، حتى ولو لم تكن إلاّ شكلا من أشكالها ينم عن تضارب المواقف الدينية.

إذا نظرنا في القطاع الاجتماعي الثقافي إلى أوسع أبعاده وإلى أقصى أعماقه، هذا القطاع المتأثر في تصرفاته بالدين، نرى فيه ثلاثة نماذج من المسيحية تعيش جنباً إلى جنب: فمن جهة، مسيحية المؤسسات التي يكون الإنتماء إليها بالخضوع للكنيسة والتي تتعلق بها هرمية المسؤوليات تعلقاً وثيقاً إلى درجة التساؤل ما إذا كانت لا تمثل المظهر الأكثر رسمية للحياة المسيحية، لأنها تتطلب الإيمان بالكنيسة المنظورة وبرئيسها والتي لا خلاص بدونها ونرى من جهة ثانية مسيحية الممارسة التي تبرزها بالمشاركة في الحفلات الليتورجية وفي الخدمات وفي الأسرار دون أن يستطيع المنتمون إليها أن يحددوا بوضوح حرارة إيمانهم وإلى أي مدى يجب أن يبلغ احترامهم لرجال الدين. وهناك أخيراً مسيحية مملكة الله التي لا تهمل المؤسسة ولا الممارسة بل تعتبرهما ثانويتين وتوجه المسيحيين الذين يريدون الحفاظ بقوة على مبادىء الدين ليعيشوه على حقيقته. واستناداً إلى ما يختاره الإنسان من هذه النماذج الثلاثة يكون إمّا من أتباع ارثوذكسية السلطة الرسمية، أوعكس ذلك، قريباً من الهرطقة، أو ببساطة أكثر يكون لا مبالياً بكل هذه المشاحنات ومتخذاً جانب الحكمة والحذر، فثمة تنافر من الخطأ أن نعتبره فقط نوعاً من الذكاء.

وتظهر التناقضات بشكل أوضح على أعلى مستوى علمي. وقد لحظنا أن التومائية عرّفت عن نفسها كنقد ورفض للاهوت التقليدي الأكثر اعتماداً على الإيمان والأكثر روحانية والذي لا يتقبله الجميع. غير أنه سرعان ما لوحظ أن غايته هي تقوية التعليم المسيحي والإيمان والتمهيد لهذا الأخير لكي ينير العقل الذي يبحث عنه ولكي يقدم أخيراً تفسيراً إجمالياً لله والطبيعة والعالم والإنسان. أما الرشدية التي تلح

بقوة على إمكانيات العقل وتمثل عقلانية ـ بالرغم من أن التعبير لم يكن ذا أهمية في نصوص ذلك العصر ـ تحمل في طياتها تحفظاً قوياً حول الغاية من البحث العقلي والتأمل اللاهوتي. والإسمانية التي نشأت في نهاية تلك المرحلة تكشف استحالة الوصول إلى تفسير إجمالي لا يملك وسائل التعبير عن نفسه عن طريق اللغة. فإذا لم توصل إلاّ إلى الجفاف والتصوف فإنها أحيت الشعور بالفلسفة المنفصلة عن العلم الديني وأحدثت شرخاً في المسلك العقلي لذاك العصر.

ويكتشف بعض المؤلفين، بطرق أخرى، وربما دون قصد، كم هي هذه التقسيمات هشة. وفي سنة 1270 يحاول هومبير دو رومان أن يشرح موقف عصره (انشقاق الشرق) استناداً إلى صياغة منطقية تلعب فيها الأسباب التاريخية والنفسانية وأسباب العناية الإلٰهية دورها على التوالي، ويعود بذلك إلى اكتشاف نسبية الزمن التي أخذ التجار يقيسونها في الوقت الذي اكتشفت أيضاً نسبية المكان، وأن العالم المسيحي ليس إلاّ جزءاً صغيراً من العالم: ولقد تولدت أحاسيس كثيرة واجهت الرغبة في تذويب التناقضات والخلافات في عالم واحد.

ومن بين المؤلفات الأدبية التي تشهد على الانطلاقة الأولى للغات المحكية التي قلصت مجال اللغة اللاتينية العلمية بعضٌ يعبر هو أيضاً عن مفاهيم لا تنسجم تمام الانسجام مع الثقافة الرسمية، وينتمي هذا النتاج الأدبي، قبل كل شيء، إلى الأوساط الإقطاعية التي يتلقى فتيانها، وعلى الأخص نساؤها أكثر من رجالها، ثقافة ابتدائية، وكذلك بعض سكان المدن من بينهم رجال أعمال وتجار وحرفيون. وقد اتصل طبعاً برجال الدين الذين بواسطتهم انتشر وترك بعض التأثير من الصعب تقديره حق قدره، ليس فقط لفقدان الوثائق، ولكن خاصة يجب معرفة غاية القراء من اطّلاعهم على هذه المؤلفات. بالإضافة إلى ذلك، فإن هذا الإنتاج كثير التنوع ويدق عن التفسير من الوجهة التاريخية.

بيد أنه يمكن الإشارة إلى بعض الأدلة التي تميز ثقافة مختلفة عن الثقافة المسيحية القائمة، وهكذا ففي بعض المؤلفات الملحمية إشارات إلى القيم المسيحية في حين أن العمل يجري في جو وثني بحت. وأسطع مثال على ذلك تقدمه «اغنية نيبيلونغن» «Chanson de Nibelungen» وهي قصيدة طويلة مكتوبة باللغة النمساوية بعد سنة 1200 بقليل. وقد تأثرت ببعض الحكايات الميتولوجية

النروجية (Saga) التي تروي المغامرات السرية والمؤلمة لسيغفريد، وهو بطل من سلالة الإله ووطان يساعد غونتر على الانتصار على بْرونْهِيلْدْ الوالكيري، ملكة إيسلندا العذراء، ويؤهله هذا الانتصار للزواج من كرْيْهِيلْدْ أخت غونتر الذي يتخذ برونهيلد زوجة له. وبعد عدة سنوات وعلى أثر ثورة حب وحقد تغتال هذه الأخيرة سيغفريد فتنتقم كرْيْهِيلْدْ بدورها انتقاماً مراً وتصور الملحمة غالباً، في نص أسطوري ميتولوجي حدة العنف الحربي في جميع أشكاله وتحاول تبرير الإنتقام، وتصف أيضاً وفي الإطار نفسه القاسي والمدهش معاً، المعركة بين النور الذي يرمز إليه مصير سيغفريد والظلمات التي كثيراً ما تنتصر.

وأسطورة تريستان وإيزولت من جهتها التي لا تعلق كبير أهمية على العنف والتي تسعى بالدرجة الأولى إلى تصوير الحب وتمجيده دون التوقف عند القواعد المرعية الإجراء تحتشد فيها الأمثلة الغامضة، وينسحب الأمر نفسه على أدب الغزل وينشد كريستيان دو تروا، أبرع المؤلفين، في بداية القرن الثالث عشر، المغامرات الفروسية والحب اللذين يتغذى احدهما بالآخر - ويحظى البطل الرابح بحسنائه بعد اعمال بطولية رائعة - ويتمتع الحبيبان بمباهج الحب الكامل الذي لا أثر فيه للزهد والهازىء بالزواج وبالآداب العائلية.

وحوالي سنة 1230 يروي غليوم دي لوريس في القسم الأول من روايته «رواية الوردة» «Roman de la Rose» كيف يجب الوصول إلى الحبيبة تبعاً لقواعد المغازلة ويمجد هو أيضاً لذة الامتلاك الجسدي ويصف لقرائه نوعاً من السعادة على هذه الأرض قائمة على الحب الجسدي فيكتب: ليس من جنة أعظم من امتلاك الحبيبة. وبعمله هذا يخالف التعاليم الشائعة للمسيحية ويرد الاعتبار إلى فسق الإنسان الذي يستيقظ بالتناغم والانسجام مع الطبيعة التي هي أيضاً حساسة شبقة. وكانت الكنيسة في كل هذا، كما يكتب ج. دوبي «منسية تماماً»[1].

ولا يمكننا ، باستعراضنا للمعترضين، أن نتغاضى عن ذكر «الغوليار» (مفكرون مشردون) الذين ظهروا في العقود الأخيرة من القرن الثاني عشر، كرجال دين وطلاب استسلموا إلى الصخب والفجور والسخرية والفسق. كانوا يغنون أغاني مبتذلة

---

(1) مقدمة كتاب «رواية الوردة» .

رخيصة وكانوا يمثلون نموذج الصعلوك الذي يقضي حياته في الحانات وفي ملاحقة بنات الهوى وينهب ويسرق ويقتل أحياناً. ولكن يصعب معرفة ما كان هؤلاء بالضبط وماذا أرادوا أن يصيروا. غير أنه من الواضح أنهم لم يشكلوا جماعات أو حركات منظمة ولو صوروا بطريقة مبتذلة صخب الشباب الطبيعي وخاصة الشباب الطالبي ولو كانت أقوالهم وأشعارهم المستوحاة من موضوعات وعبارات مقتبسة من التقاليد القديمة في المدارس، فإنها لا تعبر دائماً عن رفض لقانون الأخلاق المفروض والقيم المشهورة ولكنها تشهد كذلك على بعض تبرم بالعيش في هذا المجتمع وقد اعتبرت تصرفات خطيرة إلى درجة أن بعض الأساقفة أدانوهم رسمياً (تريف سنة 1227 وروان سنة 1241).

وأخيراً تترجم «أغنية نيبيلونغن» وأسطورة «تريستان وإيزولت» والرواية الغرامية والغوليار عن مفاهيم للحياة من قواسمها المشتركة الإلحاح على السلوك الشخصي في المجتمع وبالتالي تقوية الفرد تجاه الجماعات والسلطات وذاتية المواقف، ومن جهة أخرى تمجيد فكرة وعي الإنسان ضمن جماعة ذات علاقة حميمة بالطبيعة الأمر الذي حث على تكون نزعة إنسانية بالمقابلة مع الفكر المسيحي لذاك العصر الذي لا يهتم بالإنسان إلاّ بمقدار ما هو مسيحي، وتبعاً لمسعى خلاصي منظم. وجان دو مونغ، يكمل «رواية الوردة» في السنوات 1270 ـ 1280 ولكنه يكتب قصيدة طويلة رمزية علمية غامضة تختلف تماماً وتمثل فكرته تمثيلاً واضحاً. إنه يرفض الطريقة الغزلية التقليدية ومن ضمنها طريقة غليوم دو لوريس التي يعتبرها تزلفاً وتكلفاً وخبثاً وحباً مزيفاً ويصرح بأن الحب الحقيقي الذي هو قبل كل شيء صداقة ومحبة هو في جوهره سلوك نفس حرة. ويعيد الاعتبار على عكس الطهريين المانويين والأرثوذكسيين وأنصار الطهرية وربما أخيراً بخلاف المسيحية إلى الطبيعة ومتعها. ليست الجنة بالنسبة إليه «امتلاك الحبيبة» يجب أن تكون الفردوس الموجود حيث كل شيء هو جميل وصالح، جنة عدن بلا شجرة الشر وبلا أفعى.. وكان لهذا الكتاب الذي لقي استحساناً لدى القراء تأثير عميق.

غير أنه على الإنسان أن يكون حذراً عندما يريد تقويم الضرر الذي ألحقته هذه الاعتراضات وهذه التيارات المعاكسة بتناغم الحضارات الأوروبية في القرن الثالث عشر. إن عدداً كبيراً من التحفظات التي ذكرت كان مبتذلاً وإن التأكيد على السلوك

الفردي والذاتية توجد في كل الآداب وكل العصور ولولاهما لفقد معنى الحياة. زد على ذلك أن الكثير من هذه المؤلفات اعتبر مادة ترفيهية وأغنية نيبيلونغن[1] التي تستعيد الأساطير القديمة عن البورغوند[2] وتشكل في مجموعها حكاية مرعبة ظهرت للسامعين والقراء كنوع من رواية مغامرات وأوهام. ويحتوي النشيد فوطبيعياً آخر ومنهجاً أخلاقياً آخر، ولكنهما لا يؤثران في العقول أكثر مما تؤثر في زماننا، البرامج المتلفزة التي يحبها المشاهدون والأوديسة أو ماكبث ؛ وهذا ما ينطبق على قصص الغرام التي لم تستثن منها بشكل عام الأخلاق المسيحية. وتشدد قصة تريستان وإيزولت على الحب والعلاقات خارج الزواج بأقوال مبهمة يمكن اعتبارها كرغبة من المؤلف بعدم تبرير أي نوع من الفجور أي الأمانة للقيم الزوجية: ففي القصة الغرامية هناك دائماً ناسك يطلع من قلب الغابة مندمج بالطبيعة ليذكر الخاطئين والضالين بالقوانين التي عليهم أن يراعوها. وثمة شريحة كاملة من قصص الحب استعادتها المسيحية وهي في كِيْسْتْ دو غْرَآلَ (Queste du Graal) حيث يلتقي أفضل فرسان المغامرة والحب، أثارت موضوع الإناء الذي يحتوي دم المسيح، ليس أمام أفضلهم مآثر حربية وانتصارات أنثوية ولكن أمام أصلحهم وأحبهم وخاصة أطهرهم وأنقاهم.

وعندما نخرج من المجال الأدبي البحت نستنتج بالطريقة نفسها أن الرشدية والإسمانية لا تنكران في أهدافهما وتعابيرهما إيمان المجتمع المسيحي وقيمته، ولكنهما تسعيان على غرار أكثر الهرطقات، إلى التعبير عنهما وتنظيمهما بأسلوب جديد. إن التحديد المنهجي لصيغ المسيحية الثلاث التي ينم بعضها عن رغبة في أسلوب آخر، لا يطمح إلى مواجهتها بعضها ببعض، لا سيما وأن هناك مسيحيين يشاركون، في الوقت نفسه، وتبعاً لتدابير مختلفة، في هذه النماذج الثلاثة من الحياة المسيحية أو في اثنين منها، فمن الصعوبة إذا أن نجد أقساماً وتيارات فكرية ونماذج مسلكية تُقصى منها الثقافة الرسمية لأنها ستصبح مثار اعتراض.

تجاوزات الكنيسة والبابوية

فإذا كانت الضغوط السياسية الاجتماعية والمفارقات السياسية لا تؤثر تأثيراً قوياً

(1) شعب جرماني من أصل سكندينافي.
(2) اقزام يسكنون عالم ما تحت الأرض (ارض الضباب) ويسيطرون على الثروة المعدنية ويمتلكون كنوزاً انتزعها منهم البطل سيغفريد كما جاء في الاسطورة التي مر ذكرها ـ المترجم ـ.

بين عناصر التفرقة، فإن بعض المشاريع السياسية تسهم بقوة في تحطيم البناء الذي يُحْلَم ببنائه . وبطريقة مستغربة ولكن ليست عسيرة الفهم تعمل الكنيسة أساس ، هذا البناء، والموحية الأولى لهذه الحضارة والسلطة العليا والمكلفة برقابتها وضمانها على تسهيل تهديمها ببعض تصرفاتها أو بطريقة غير مباشرة.

وتحمل البابوية المسؤولية الكبرى بتدخلها القوي في المجال السياسي وخاصة إبّان الخلاف الذي وضعها في مواجهة مع الإمبراطور والذي من أهدافه الهيمنة على إيطاليا من قبل سلالة ستوفن. إن دراسة هذه الصراعات يتيح التعرف إلى كيفية امتدادها بطريقة لا شعورية إلى درجة يستحيل معها الرجوع إلى الوراء أو التوقف في المنحدر.

ففي مرحلة أولى، زمن المعارك ضد فريديريك بربروس، قررت بكل بساطة أن تعارض برنامج الإمبراطور . لقد «مارست السياسة» راضية مسبقاً بمساوىء هذا الإذعان. هذا هو السبب الذي من أجله حافظ ألكسندر الثالث الذي شعر بالمخاطر على طموحاته على مستوى المبادىء. لم يطلب أي فائدة مادية. لقد طالب ببعض الأراضي التي تفاوض عليها منذ نهاية الإصلاح الغريغوري، وكان يطمح ويؤكد أن هدفه كان حرية الكنيسة التي تتطلب حرية البابوية. وبما أن البابوية لم تستطع خلال هذه السنين أن تكون في أمان دون حرية إيطاليا وجد الكرسي الرسولي نفسه مضطراً إلى مساعدة الإيطاليين الذين يحاربون أنصار الإمبراطور فساعد حلف المدن اللومباردية ضد الإمبراطور. وكان يحاذر من ألّا يقود هذا الحلف السياسي إلى مواقف مشوشة. وهكذا عندما اقترح بربروس نظاماً يرضي الكنيسة لم يتردد البابا بتوقيع المعاهدة دون أن يأبه لمصالح المدن المتحالفة التي نصحها بقبول تعليق الأعمال العدوانية الذي لا يوفر لها شيئاً وتركها معزولة في وجه الألمان (1177) . وكان من مبررات هذا الاستخفاف الظاهر هو التوقف عن تسييس الخلاف وإتاحة الهرب من مساوىء القرن. وبعد ذلك تابع إينوشنسيوس الثالث البرنامج نفسه لاستقلال البابوية في عصر لم تعرف تشنجات مع الإمبراطورية في إيطاليا بل على العكس من ذلك لقد وجدت نفسها في موقف مريح ، ومن أجل توسيع أراضي ولايات الكنيسة ولكي يستعيد سلطته الزمنية على رجال الإقطاع وعلى المدن مارس سياسة القوة والهيمنة التي تبدو غالباً وكأنها تتخطى مهمته الدينية التي لا يمكن أن يتم تنفيذها، كما أعلن ، دون هذه الممتلكات التي تدعم الحرية، ولكنه لم يفكر أبداً

بقياس الأرض والمطامح بمقياس واحد بحيث إنه منذ سنة 1210 انساق في دوامة العمل.

غير أنه ربما كان بالإمكان تحديد مساوىء التخلي هذا عن بعض الأراضي بالإنسحاب من بعض الجبهات وبإطلاق مشاريع روحية، وقد حاول ذلك كل من هونوريوس الثالث وغريغوريوس التاسع، ولكن ضرورات المعركة ضد فريديريك الثاني التي صممت منذ بدايتها تبعاً للموضوعات التعبوية في أيام الكسندر الثالث وبربروس، إن هذه الضرورات أجهضت التجربة. وفوق ذلك، فإن إينوشنسيوس الرابع يرضى دفعة واحدة باللعبة التي فرضت عليه، فلم يسعَ إلى التهدئة، ولم يتساءل عن الوسائل التي يملكها ليحرك العالم المسيحي لصالحه، ولم يجهد لتدخل قوى لا تكون إيطالية ـ أو أذا فعل ذلك يدرك بأن هذه دبلوماسية توصل إلى تنازل يرفضه. وقد أصبح منذ ذلك الوقت رئيس حزب سياسي إيطالي معارض لآل ستوفن وللإمبراطورية، هو حزب غِلْف الذي يقرن ديناميته ونجاحه بقوة البابوية وبإيديولوجيتها. إن التزامه بالسياسة وبقضايا شبه الجزيرة غدا شاملاً. لقد شن حملة لا هوادة فيها ضد الإمبراطور، وبعد موته (1250) ضد ورثته الذين يجب منعهم بكل الوسائل من الوصول إلى إدارة الإمبراطورية وإلى حكم مملكة صقلية، فأدى ذلك إلى نشوب حرب أهلية ضروس في إيطاليا بين أنصار الإمبراطور الجيبليين وأنصار البابا (الغِلْف) الذين أثارتهم الأحقاد المحلية وامتلأت البلاد بكاملها وعلى الأخص توسكانا والمناطق الوسطى دماً وناراً. وفي الرابع من أيلول/سبتمبر 1260 تواجه الأخصام ـ سكان فلورنسا وسكان سْيِنَا ـ في مونْتِيَابِرْتي في حرب شعواء خلفت ضحايا عديدة وانتهت بانهزام حزب الغِلف، ولم يكن لذلك أية أهمية، فالنتيجة لم تضع حداً للحرب. ولكن الحدث على أي حال، أثار بعض الأوساط الدينية، كهنة وعلمانيين رأوا في ذلك عقاباً من الله. ومن أجل تهدئة غضب الله نظموا مسيرات من التائبين ذهبوا من مدينة إلى مدينة يحثون على التوبة. ولكن كل ذلك لم يهدّىء حدة المعركة ولم يدفع بالقادة إلى سياسة هادئة.

وإذْ لم يتوصل البابوات إلى القضاء على آل ستوفن في صقلية بوسائلهم الخاصة وبمساعدة حزب غِلْف، طلبوا مساعدة الخارج، ويَهَب أوربانوس الرابع (1261 ـ 1264) التاج إلى شقيق ملك فرنسا لويس التاسع، شارل دانجو الذي

تدخل وسحق الأميرين الألمانيين مانفريد ثم كونردان. وإذا كان حلف أنجو، الذي تقوّى بارتقاء أحبار من أصل فرنسي سدة الحبرية العظمى، يخدم مخططات سياسة الكرسي الرسولي، فإنه على العكس من ذلك يضع الكرسي الرسولي في خدمة مطامح شارل إلى درجة أن هذا الأخير بعد عدة انتصارات وعدة مشاريع ضخمة ينهار أمام الثورة العنيفة التي قام بها شعبه (صلاة الستار الصقلية، فصح 1282) بمساعدة ملك أراغون بيار الثالث،[1] الذي كانت زوجته أميرة من آل ستوفن. وينظم البابا مرتينوس الرابع بمساعدة فرنسا «حملة صليبية» ليؤدب هذا الملك «الخائن». لقد فشلت حملة آراغون هذه، الأمر الذي يضيف الذل والفشل إلى خجل التنازلات، إن هذه هي القضية فعلاً؛ لقد تراجعت البابوية؛ والبابوات أو البعض منهم تحولوا إلى رجال سياسة، وفوق ذلك لقد حولوا عملهم في هذا المجال إلى مشروع إقليمي محلي وأوصلتهم مشاغلهم الأولية إلى تقليص حدود العالم المسيحي إلى الأراضي الواقعة بين بولونيا وبالرمو. ولكن الحقيقة أن البعض منهم مثل غريغوريوس العاشر (1271 ـ 1276) حاولوا أن يعملوا ضد هذا التورط. ولكن جهودهم ظلت محدودة لأن الشر كان قد استشرى ولأن الإنقسامات داخل مجمع الكرادلة (أخصام آل ستوفن، مؤيدي الانجفية وأخصام الأنجفية) أحدثت شللاً أو بكل بساطة قلصت من حقل الرؤية وبنوع أخص فإن الكرادلة الإيطاليين الأكثر اهتماماً بشؤون شبه الجزيرة تفرقوا بعامل آرائهم وصداقاتهم وعلاقاتهم ومطامحهم. أما الكرادلة الفرنسيون فكانوا عكس ذلك، أكثر تضامناً ولكنهم كانوا مبشّسين. والرومانيون الذين يمثلون قوة عندما يكون البابا فرنسياً لأنه عليه أن يتفاهم معهم أو على الأقل مع البعض منهم، خاصم بعضهم بعضاً. ونتيجة لذلك تكتلت العشائر حول بعض العائلات الكبيرة وخاصة العائلات الرومانية مثل آل سافِللي وآل كولونّا وآل أورسيني. وهكذا ويا لسخرية التاريخ، فإن طريق الزهو والمجد التي التزمتها البابوية في أيام إينوشنسيوس الثالث انتهت إلى مأزق، وسقط العرش المسكوني لبطرس تحت تأثير العائلات الرومانية كما في بداية القرن الحادي عشر.

وبالإضافة إلى التنازلات التي أضعفت من نفوذ البابوية وأساءت إلى سلطتها فإن عمل البابا الخاطىء الذي أظهر إلى أي حد يمكن للهوى أن يتغلب على العقل وجه ضربة قاتلة إلى العضو الذي يشكل على المستوى الزمني والسياسي الدعامة الأولى للمسيحية ألا وهو الإمبراطورية. في الواقع أن فريديريك الثاني هو مسؤول

أيضاً عن هذا التدهور لأنه، لقلة اهتمامه بالمانيا وبمنحه الأمراء الجرمانيين امتيازات كانت تزيد من قوتهم وتفتت البلاد، ولعدم إدراكه كيف أن الإمبراطورية كانت حجر الزاوية لهذا الصرح وقوته الفعلية. لقد عزل السلطة الإمبريالية عن موردها الحيوي الوحيد وقذف بها في الصراع الإيطالي الذي لا ينتهي دون أن يكون لها من قاعدة سوى صقلية. ولكن البابوات بإدانتهم وعزلهم وملاحقتهم آل ستوفن كأنهم موبوءون، أضعفوا من نفوذ المؤسسة، وبتوصلهم، بسبب مكائدهم، إلى أن يظل العرش الجرماني والإمبراطوري شاغراً خلال ثلاثة وعشرين عاماً ـ أطول مدة فاصلة بين حكمين ـ (1250 ـ 1273) وضعوا بذلك حداً لإمبراطورية شارلمان القروسطية وأوتون الكبير وهنري الثالث وفريديريك بربروس وكذلك إمبراطورية الكسندر الثالث وإينوشنسيوس الثالث. هذا التقهقر أساء إساءة كبيرة ونهائية إلى مفهوم المسيحية الموحدة من قبل البابا والإمبراطور بحيث إن الحجج التي استطاعت أن تبرر العمل الزمني للكرسي الرسولي للاحتفاظ بهذا التلاحم وهذه الوحدة مع الإمبراطورية أو ضدها عندما كان الملوك يمزقونها ولا يقومون بواجباتهم، لم تكن تستند إلى أساس محسوس ومتين. وأصبحت الإمبراطورية شيئاً المانياً والبابوية أصبحت كذلك وبشكل أبرز شيئاً إيطالياً، أو أقله، شيئاً يتحدد بتأثير من الواقع الإيطالي، ولم تعد بإمكانها أن تدعي في نهاية القرن الثالث عشر بأنها تجمع وتضم أوروبا وترمز إليها.

ولم تتوصل البابوية إلى قيادة المشاريع التقليدية التي كانت تعبر، تحت سيطرتها، عن دينامية البناء الأوروبي وتوقفت بعد الحملة الصليبية الكبرى سنة 1218 وبالرغم من محاولات كثيرة، عن أن تكون المحركة والموحية الأولى، يتضاءل دورها شيئاً فشيئاً في الشؤون الشرقية، إما لأنها لم تعد تملك الوسائل المادية والمعنوية لذلك، وإمّا لأن المبادرة الحقيقية قد أفلتت من يديها لأنها حوّلت قواها في اتجاهات أخرى. وكان فريديريك الثاني والقديس لويس وأمراء إنكليز هم أسياد هذه اللعبة التي قل اهتمام الرأي العام والسياسة بها في النصف الثاني من القرن الثالث عشر وقد ذكرنا أن غريغوريوس العاشر حاول عبثاً أن يتسلم زمام المبادرة من جديد، وأخيراً يستعيد المسلمون الأرض المقدسة ويطردون الغربيين منها فيلجأ بعضهم ويستقرون حول عائلة من بواتو، في مملكة قبرص الصغيرة. وتتلقى الإمبريالية السياسية والدينية الأوروبية صدمة عنيفة عوضت جزئياً بالاحتفاظ بعلاقات تجارية

وباستئناف العمل التبشيري الذي انتقل إلى الشرق الأدنى ثم إلى بلاد المغول فإلى الصين فإلى أفريقيا الشمالية. غير أنه إذا ظلت النشاطات في القطاع الإقتصادي عظيمة وغنية فإن العمل التبشيري لم يصادف نجاحاً بارزاً ، وكذلك فإن إقامة الوحدة من قبل غريغوريوس العاشر بفضل الإتحاد المعلن في مجمع سنة 1274 بين كنيسة روما وكنيسة بيزنطة وبمسعى من الإرادة الطيبة لدى الإمبراطور ميشال پاليولوغ الذي كان يأمل بمساعدة من الغرب إذا دعُم القضية المسيحية التي يبسط سلطانها، إن هذا العمل يشكل، على الأكثر، لقاءً قصيراً عقبه انفصال جديد؛ من جهة لأن شروط الإتفاق أملاها عرش روما وحده دون مناقشة ولأنها عادت لتفرض الخضوع التام لتعاليم البابا وسلطانه ـ الأمر الذي أثار تحفظات لدى الإكليروس اليوناني ـ ومن جهة أخرى لأن خلفاء غريغوريوس العاشر، نقولا الثالث ومرتينوس الرابع كانا أكثر تصلباً ولم يتردد منذ سنة 1281 في رشق الملك البيزنطي بالحرم من جديد.

إن سوء التصرف والمغالاة في المطامع الأكثر بروزاً التي أفسدت القوة الأدبية وجدا في أعمال رجال الدين.

ومنذ السنة 1160 لم يكف البابوات عن زيادة تسلطهم على الإكليروس. وبعد منتصف القرن الثالث عشر تدخلوا أكثر فأكثر للإستقلال بالمصالح الكبرى وخاصة تعيين الأساقفة. وقد تخطى إكليمنضوس الرابع في هذا الأمر منذ سنة 1265 التقليد القانوني. يعتبر هذا التطور دعماً قوياً للتنظيم الملكي بالرغم من أن النظام الجديد لم يطبق فعلياً إلاّ في السنوات 1320 ـ 1340. وقد يكون للوهلة الأولى، دعم التلاحم مؤكداً وسائل تصرف الكرسي الرسولي، رأس المسيحية ولكنه في الواقع، أدى إلى التقهقر لأن البابوية، من جهة، لم يكن لديها إمكانية السهر على كل شيء ولأنها قدمت تنازلات سياسية لم تكن تملك الجرأة الأدبية التي تسمح لها بفرض نفوذها، ولأن وضع يدها على المؤسسة الأسقفية، من جهة ثانية، أثار الكثير من الإنتقادات والاعتراضات كما أثارتها أيضاً إعادة تنظيم الضرائب.

وبحجة أن الكنيسة الرومانية التي زادت من تدخلاتها والتزمت سياسة ناشطة، تحتاج إلى مداخيل أكبر لا توفرها بكمية كافية المداخيل التقليدية (مداخيل دويلات الكنيسة، الهبات، الضرائب التي تدفعها بعض الأديرة...) لهذه الأسباب يقرر الكرسي الرسولي، في بعض المناسبات ضرائب استثنائية بصيغة العُشر ويحاول

فرض ضرائب دائمة على الإكليروس تعرف «بالخدمات» . وهكذا ففي النصف الثاني من القرن الثالث عشر حدَّد ألكسندر الرابع وأوربانوس الرابع وأكليمنضوس الرابع مبلغ الضرائب ـ المعروفة بالخدمة ـ التي يجب أن يحصل عليها المتسلمون الجدد للوظائف ذات الدخل والتي توزع عائداتها بين البابا والكرادلة. ويضع أوربانوس الرابع القائمة الأولى لعائدات أخرى أقل قيمة هي الخدمات الصغيرة. وقد ازداد النظام ثقلاً في القرن التالي في مرحلة وجود البابا في أفينيون . ولكن منذ تلك الفترة ازدادت الإنتقادات ويروي المؤرخ متى الباريسي (Matthieu de Paris) بهذا الصدد، جواب رئيس أساقفة يورك مخاطباً ألكسندر الرابع قائلاً: «إن السيد (المسيح) أمر بطرس أن يرعى الخراف لا أن يجز صوفها». وفي عهد البابا إكليمنضوس الرابع أرسل أساقفة مقاطعة ريمس بعثة إلى روما ليحتجوا على الملكية البابوية فوجهت الشتائم له شخصياً كما يذكر هو نفسه، وكل ذلك وجد في تعابير فظة تكرَّر وتطوَّر العبارة التي تلفظ بها منذ سنة 1245 أسقف لنكولن، روبير غروسْتيتْ، وهو أستاذ سابق في أوكسفورد وأفضل علماء زمانه وهذه العبارة هي : إن الكنيسة الرومانية هي منبع كل شر.

وأخيراً بسبب تجمع السلطات في يدي البابا وبالرغم من الصعوبات الداخلية التي تسيء إلى فعاليته أصبحت قوة الكنيسة أكثر تأثيراً. وتطمح البابوية، باسم المصلحة العامة، إلى الهيمنة على رجال الإكليروس كافة. وتعمل بحماسة لتنظيم المعركة ضد الهرطقات وتتميز محكمة التفتيش منذ منتصف القرن بقساوتها وتجاوزاتها. وإذ تسعى إلى تنظيم كل شيء والسهر، في الدرجة الأولى، على عظمتها، أوشكت أن تنسى ما برَّر منذ البداية، مشروعها، وهو تعميق الدعوة إلى المسيحية ونشر الحضارة المسيحية وقد وصلت مشاريعها في بعض المناسبات إلى تنكر لقيم الثقافة التي تنادي بها. وإن قوتها التي احتفظت بها بسبب الخوف، قامت على نظرية الترهيب (الخوف من جهنم الذي يؤدي إلى الخضوع للكنيسة ورجال الدين) وعلى نظام بوليسي (محاكم التفتيش).

في الواقع إن ملاحظة من هذا النوع يجب أن تحدد بدقة ولا تعتبر صحيحة إلاّ في بعض المناسبات لأنه، كما ذكر في القرن التاسع، كل ديانة مؤسسة على مكافأة أبدية يقررها حكم تحتوي بنفسها على الخوف، مهما تكن نوايا الإكليروس

- وترتكز المسيحية مقابل ذلك، على الأمل الذي يغذيه الإيمان والحب. ويبقى أن نذكر أن الكنيسة، في تطورها الداخلي، على مدى القرن الثالث عشر ونتيجة المعارك السياسية التي قادتها والحرب التي شنتها على الهراطقة، استخدمت دائماً عامل الرعب. فتعتمد عليه وتحكم بواسطته. وهكذا يستشف في تصرف السلطة الأولى في المسيحية بعض الغموض الذي شعرت به الأوساط وظهر من خلال بعض الانتقادات ، بينما ظل خافياً على أوساط أخرى لأن موقفهم البعيد عن الشعور بالخوف، ينم بالمقابل عن ثقة وسعادة. غير أن تحليل كل ذلك يبدو صعباً . هل هؤلاء المسيحيون المخلصون الطيبون راضون لأنه بفضل الكنيسة وسلطات أخرى شعروا بأنهم في مأمن من الضلال وأنهم على الطريق الصحيح التي توصل إلى السماء؟ أو على العكس من ذلك الاّ تتمثل ديانتهم بالاحتفالات أوّلاً وبالممارسات الخارجية كي لا تسيء إلى هذه السلطات المرهوبة الجانب مخبئة هكذا في سرائر النفوس، بعض اللامبالاة؟

وكل ذلك يؤكد أن المسيحية تطمح، في بعض القطاعات وبمختلف المبادرات ، إلى أن تصبح جهازاً يسعى إلى غاية هي تعظيم سلطة البابا والكنيسة. وهنا، على ما يبدو، ينشأ الفساد الأعظم الذي يصيب، منذ هذا القرن الدينامية واللحمة الأوروبيتين، إذ كانت أوروبا خاضعة لمشروع الإكليروسية (تدخل الإكليروس في الزمنيات). ومن الحيف أن نحمّل البابوات ورجال الكنيسة مسؤولية هذا التقهقر لأنه في أساس هذا الصرح نفسه، وجد منذ البداية ضعف خطير كان مسؤولاً عنه الكرسي الرسولي ولكنه يجب أن يُعْذر عليه لأنه كان نتيجة مثال مقترح ومطلوب وعلى درجة من السمو بحيث يتعذر الوصول إليه: وهو أنه لم يُعطَ للمسيحية ولا لأوروبا مؤسسات شاملة ومحددة وحكومة عليا منظمة تنظيماً حقيقاً ونظاماً دستورياً خاصاً بهما. ومن السذاجة أن نصدق أن الكنيسة كانت قادرة بمساعدة الامبراطورية على أن توجه وتدبر كل شيء. إن تلك لم تكن دعوتها، التي هي الخلاصية والتي لا يمكن أن تتم إلاّ بشرط عدم تجذرها في الزمان ، يضاف إلى ذلك نقص الوسائل الضرورية لتحقيق المهمة.

وهكذا فإن الضعف العام للمفهوم الأوروبي في القرن الثالث عشر ينشأ عن الإرادة في تحميل الكنيسة مسؤولية كل شيء، وأكثر من ذلك وبسبب التطور تحميل

البابوية وقبل كل شيء شخص واحد كان فعليا الموحي والمحرك الأساسي . وفي هذه الحال لا يستطيع المؤرخ أن «ينيط بأمير أو ببابا تبعة مخطط معقد من المبادلات التجارية والحروب والتحف الفنية»[1] . والحقيقة السياسية هي أن حبراً واحداً، ولا حتى الكرسي الرسولي لا يستطيع أن يهيمن على كل مجتمع عصره أو ينظمه . وإذا كان بعض البابوات صمموا لذلك مشروعاً فليس ذلك، من قِبَلهم، إلاّ مطمحاً جريئاً أو بعضاً من وهم أو حلم، ولا سيما أنهم بإرادتهم التأثير على السياسة والثقافة معاً، أوشكوا، استناداً إلى نظرة محافظة، أن يكبلوا دينامية الواحدة ويجمدوا غنى الأخرى بسبب رفض كل تجديد،

قوة الدولة

وبموازاة ذلك التطور الذي أدى إلى تراجع السلطة المعنوية العليا، حركة أخرى تمت أثناء القرن الثالث عشر ودعمت قوة الدويلات والملوك ، أصرت على مفهوم الخير العام ومالت إلى اعتبار السلطة السياسية أولى ضماناتها وقد قويت مؤسسات الدولة، كما ذكر، بشكل عظيم وبسطت مدى صلاحياتها إلى حدود بعيدة. وكان لا مناص من الصدامات بين الرجال الذين قسموا هذه الصلاحيات والسلطة الكنسية التي أرادت أن تهيمن على كل شيء في إطار المسيحية ولمصلحتها. ولم يستسلم الأمراء الناشطون الطامحون المقتنعون بحقهم بحكم أنهم يتحملون أرفع المسؤوليات وقد احتجوا بعملهم هذا، على تفوق السلطة الحبرية وأساؤوا إلى تماسك أوروبا.

وكان الملك فريديريك الثاني قد أعلن مطامحه مازجاً إياها بالمتطلبات الإمبريالية التقليدية، وقائداً فوق ذلك معركة سياسية للسيطرة على إيطاليا. وإذ لم يتوصل إلى تحقيق مطامحه فلم يستطع أن يضفي على احتجاجه معنى المطالب الأيلة إلى مصلحة الدولة. ومقابل ذلك، فإن الخلافات التي وضعت وجهاً لوجه ، في نهاية القرن وفي الأشهر الأولى من القرن الرابع عشر، البابا بونيفاس الثامن وملك فرنسا فيليب الجميل، وصورت هذه الصدامات تصويراً كاملاً المواجهة التي برزت بين الكنيسة والدولة.

---

(1) أ. بورغيير: تاريخ وبنيوية، حوليات 1971 .

ويجهد فيليب الذي تسلم العرش منذ سنة 1285 في التملص من خيارات أبيه السياسية التي دفعت بلاط فرنسا لخدمة القضية البابوية، بطريقة غير مباشرة، في إيطاليا وقد أزال، بأفضل طريقة وبأسرع ما يمكن آثار صليبية أراغون وقطع الصلات مع أبناء عمه الأنجيفيين في نابولي، وعكس ذلك، لقد اهتم، إذ أدرك المشاكل الحقيقية، بالمسألة الفلاخندية وبالعلاقات مع ملك انكلترا وفوق ذلك كله، بتأكيد سلطته في المملكة وبنصيحة ومعاونة من مستشارية القانونيين الذين كانوا جميعاً مثقفين بمبادىء القانون الروماني حول سيادة الأمير غير المحدودة، ادعى أنه السيد المطلق أي أنه يعمل ما يحلو له، في المجال السياسي دون أن يرجع إلى أي كان إلاّ إلى شعبه. وذلك عند الضرورة وبطريقة ذكية.

ويذر أول خلاف قرنه سنة 1296 بخصوص حق الملك بفرض الضرائب على رجال الدين. ومنذ وقت طويل اعتادت السلطات المدنية فرض ضريبة العشر بإيعاز من الإكليروس وقد أمرتهم بذلك وشجعتهم البابوية في مناسبة تنظيم حملات صليبية إلى الشرق انطلقوا من ضريبة العشر إلى جمع الاعانات المالية لتمويل مشاريع من نوع آخر - الغزوات الأنجيفية في صقلية والهجوم على أراغون - إلى درجة أن الملوك توصلوا إلى اعتبار أنفسهم قادرين على طلب مساعدات دون أن يفرضوها فعلاً، عندما يحتاجون إلى ذلك، وفي سنة 1294 يجمع فيليب الجميل مجامع كنسية إقليمية منحته ضريبة العشر لمدة سنتين، ولكن بعض الأساقفة احتجوا على ذلك خلال انعقاد المجمع وفي سنة 1296 يحصل بصعوبة أكبر على ضريبة عشر جديدة ترفضها جماعة السيسترسيين وترفع القضية إلى البابا بونيفاس الثامن، وهو رجل متصلب سيء التصرف أحياناً، مهووس بامتيازاته وشديد التعلق بتعزيز السلطة الرومانية.

وقد حاول هذا الأخير أن يزيد ضرائب البابوية المفروضة على الإكليروس الذي يعفى، كتعويض على ذلك، من دفع أية ضريبة للسلطات المدنية. وفي البراءة المسماة «الإكليروس العلماني» (شباط/فبراير 1296) يلزم الكهنة، تحت طائلة الحرم، بعدم تقديم أية هبة للسلطات المدنية دون إذنه ويلزم الأمراء بعدم فرض الضرائب على أملاك الكنيسة. وقد رفض فيليب الإمتثال بل إنه، علاوة على ذلك، منع تصدير المعادن الثمينة من فرنسا وطرد من المملكة جباة الحسنات البابوية والمصرفيين الإيطاليين الذين يقومون بتحويل المبالغ المالية لمصلحة الكرسي

الرسولي، وإذ حوصر البابا في أرضه الخاصة وأحرج اضطر إلى الاستسلام وسمح للإكيروس بتقديم هدايا طوعية للملك عندما يطلب منهم ذلك دون أن ينالوا إذناً من البابا وحمل هذا الخلاف على التصريح بأن حكم المملكة من شأنه وحده ولا يعترف بسلطة فوق سلطته ولا يخضع في القضايا الزمنية لأي من الأحياء.

وبعد ثلاث سنوات، في حين كان يبدو أنه تم التوصل إلى تعاون وثيق لأن الملك كان يبدي اهتماماً بالمشاكل الإيطالية وقد أرسل أخاه شاول دو ڤالـوَا، مع جيش صغير مساعدةً للبابا في استعادة صقلية، طرأ خلاف أشد عنفاً بخصوص أسقف پامْيِيْه برنار سيسِّيه. كان هذا فيما مضى رئيس دير القديس أنطونيوس من پامْيِيْه واعترضته صعوبات خطيرة مع كونت فْوَا (Foix) وقد دعمه عندئذٍ السفير البابوي بنوا غايتاني وعندما أصبح البابا بونيفاس الثامن استقبله في روما بمناسبة لجوئه إليها. وفي سنة 1295 كان قد جعل من پامْيِيه كرسي أسقفية جديدة، وتطبيقاً للحق القانوني عين عليها الأسقف الأول فاختار سِيسِّيْه لهذا المركز، فأقام فيها هذا الأخير سنة 1297. وفي سنة 1301 وشى به أسقف تولوز إلى الملك الذي أجرى تحقيقاً ثم أمر بتوقيفه. فاقتيد إلى سنليس وامتثل أمام المحكمة وأفحم بأنه تفوه بكلمات جارحة بحق الملك وبحق فرنسا، وحامت حوله تهمة التآمر مع أراغون كما اتهم، دون أدنى دليل، بالمتاجرة بالمقدسات والهرطقة والتجديف. وقد دافع عنه رئيس أساقفة ناربون وتلقى أمراً بعدم مغادرة المملكة وقد تولى الحراسة عليه أسقف سنليس.

وبعد هذه الأحداث التي لوحق خلالها أحد الأساقفة فعلياً من قبل القضاء المدني دون أن يمثل أوّلاً أمام القضاء الكنسي الذي هو وحده مؤهل لذلك، لم يعطِ بونيفاس الثامن أي تبرير. ومنع حالاً جباية الضرائب من الإكليروس مبدياً بذلك رغبته بإعادة مناقشة جميع المسائل المعلقة واستدعى مطارنة فرنسا إلى مجمع يعقد في روما ليناقش معهم إنقاذ الحريات الكنسية وإصلاح الملك والمملكة وضغط التجاوزات المقترفة. فَوَجَّه إلى فيليپ براءة بابوية مكتوبة بلهجة أبوية «أصغِ يا بني» راجياً إيّاه أن يمثل أمام هذا المجمع (كانون الأول/ديسمبر 1301) ومما قاله له: لا تعتقدن يا بني العزيز أن لا أحد فوقك وأنك يجب ألاّ تذعن لرأس الهرمية الكنسية. إن من يفكر هذا التفكير هو أحمق ومن يدافع عن ذلك بعناد هو كافر ولا ينتمي إلى

قطيع الراعي الصالح»

وكان رد فعل الملك وحاشيته قاسياً، فأحرق البراءة بينما كان حامل أختام الملك پيار فلوت يوزع نصاً مزوّراً يشتم الملك والمملكة: وهكذاتسمت المناقشات بشتائم عنيفة، ورفض حق البابا بدعوة الأساقفة لمناقشة قضايا الدولة. وفي نيسان/إبريل سنة 1302 ، وبعد دعاية ذكية ونشيطة، اجتمع في باريس مجلس مؤلف من أساقفة ونبلاء وبورجوازيين أيد تصرف الملك، فاحتج بونيفاس بأنه لا يسعى إلى التدخل مباشرة في السياسة الفرنسية ولكنه ادعى أن عليه أن يعمل حيث توجد الخطيئة، فعقد المجمع الذي شارك فيه أربعون فرنسيا همهم الأول أن يطيعوا البابا (تشرين الثاني/نوفمبر سنة 1302). وفي التاريخ نفسه، لخص موقفه في وثيقة - براءة الوحدة المقدسة - تؤكد على أن الكنيسة وحدها تتمتع بمهمة قيادة الناس نحو الخلاص. ولكونها واحدة، فليس لها سوى رئيس واحد هو المسيح وعلى الأرض نائبه البابا، وينتج عن ذلك أن هذا الأخير يملك كل السلطات الضرورية للوصول إلى الغاية المتوخاة، وبهذه الصفة، امتيازات غير محدودة في الشؤون الزمنية كما في الشؤون الدينية.

ولم يتردد الملك أمام هذا الموقف الصاخب، وإذ حرضه كرادلة من آل كولونّا، الأعداء اللدودين لآل غايتاني، وجه إلى البابا اتهامات خطيرة مؤكداً بأنه أيد الحبر الأعظم بعد الاستقالة الوحيدة في التاريخ، لسلفه سيلستينوس الخامس وأنه مارس عليه ضغوطاً قوية لكي ينسحب متهماً إياه بالمتاجرة بالمقدسات وبأنه مجدِّف وملحد. فحضّر مستشاروه ملفّاً ضخماً ودعا إلى جمعية في باريس في حزيران/يونيو سنة 1303 وأمر باستدعاء مجمع عام لمحاكمة غايتاني، فأعلن هذا مُقْسماً بطلان هذه التهم وقرر حرمان فيليپ وعزم على أن يعلن على الملأ حكمه هذا في الثامن من أيلول/سبتمبر، ولكن عشية ذلك اليوم هوجم، في قصره في أنانْيِيْ حيث كان يقيم ، من قبل فرقة يقودها مستشار الملك غليوم دو نوغاريه وسيّرّا كولونا جاءت لتوقفه أو لترغمه على الاستقالة، فرفض الاستسلام بكل شجاعة. وبعد أن أهين، وضرب من قبل كولونّا وهدد بالقتل أنقذه بورجوازيو أنانيي فعاد إلى روما، ولكن لتقدمه في السن ولمرضه المزمن عجلت هذه الصدمة في نهايته فمات في الشهر التالي.

وكان الحدث خطيراً، لقد أقلق الخواطر ولكنه لم يحركها إلى درجة إثارة استنكار عنيف بل على العكس من ذلك لقد تغلب الصمت على الموقف لأن الإعتقاد كان سائداً بأن قضية البابا يصعب الدفاع عنها، ليس لأن الاتهامات الموجهة ضده كانت مقبولة بل لأنه بدا مخطئاً بتلويحه بذرائع تثير الصدمة ومبرهناً في كل مادة بحماسة قصوى بأنه يدافع عن النظام من أجل النظام دون أن يبدي أية رغبة بالمصالحة إلاّ عندما وجد في موقف ضعيف.

وفوق كل ذلك، بهت وهج البابوية ولا سيما أنها المرة الأولى في التاريخ لا تستطيع أن تعتبر نفسها منتصرة في هذه المعركة غير المشرفة.

لقد واجهت الاعتراضات ووجهت الاتهامات إلى شرعيتها، لا يمكنها أن تدعي بعد اليوم أنها تحكم المسيحية، في وقت لا تستطيع أية سلطة أن تكون على هذا المستوى لتحل محلها، لأن الإمبراطورية القروسطية لم تعد موجودة وأنبت هذا الخلاف البراعم الأولى للغاليكانية، أي رؤية كنيسة منظمة أولاً في إطار الدولة يوجهها في أمر تحديد العقيدة والقرارات الشاملة، المجلس العالمي للأساقفة والبابا. وبدأ هذا المفهوم ينتشر ليس فقط بين موظفي الملك ولكن في بعض الأوساط الكهنوتية. وها إن السلطة العليا تلقى الإعتراض حتى في أوساط الإكليروس، الأداة الأولى لتماسك العالم المسيحي.

إن عصمة الدولة وقوة الدويلات وجهتا ضربة قاتلة إلى تكامل أوروبا.

الخلاف بين فرنسا وانكلترا

وكانت هذه الضربة موجعة بمقدار ما دعمتها المنافسات المحتدمة بين الأمراء، وزادت حدةً بمقدار تعزيز قوة الدولة إلى درجة أنه في النهاية، تجزأ الغرب إلى ممالك وإمارات إزدادت غربة بعضها عن البعض الآخر.

إن انهيار الإمبراطورية في النصف الثاني من القرن الثالث عشر أدّى إلى انفصال المانيا عن إيطاليا، في الوقت الذي انفتحت فيه مملكتا السويد والنروج على الثقافة الأوروبية وبدأتا تثبتان شخصيتهما، وهذا بالضبط ما حدث لهنغاريا التي أضعفتها الانشقاقات التي أثارتها شهية النبلاء. أما پولونيا العاجزة عن مقاومة الاستعمار الجرماني، فانطوت على نفسها، الأمر الذي اعتبر طريقة للتعبير عن

هويتها. كل هذه الممالك شكلت سنة1300 دولاً متميزة وكان التعاون بينها، حتى إبان الخطر، هشاً. وكان البرهان قد أعطي قبل ذلك لدى غزوة المغول. وبعد أن عبر هؤلاء في السنين السابقة آسيا الوسطى وسيبيريا والسهول الروسية بقيادة جنكيز خان وعندما وصلوا سنة 1241 إلى الحدود الغربية واجتازوا الڤيستول وأحرقوا كركوڤيا واجتاحوا سيليزيا ودمروا ڤركلوف ونصبوا خيامهم في السنة التالية عند أبواب ڤيينا، عند ذلك أدركت السلطات العليا في أوروبا (البابا، الإمبراطور والملوك) الحاجة إلى الاتحاد ولكنهم لم يتوصلوا إلى اتفاق حقيقي. ونجا العالم المسيحي من الكارثة بفضل الإنشقاقات التي عصفت بقادة القبائل الغازية فاضطروا إلى الإنسحاب، وسلمت أوروبا قبل أن تتحرك للرد ودون أن تستفيد من التهديد والخوف لتعلن اتحادها ووحدتها.

غير أن هذه الخلافات تعتبر طفيفة إذا ما قوبلت بالخلاف الذي وضع وجهاً لوجه، منذ منتصف القرن الثاني عشر في السنوات 1220 وتحت أشكال متأخرة أيضاً، آل كابيث وآل پلانتاجينيه أي ملك فرنسا وملك إنكلترا وشيئاً فشيئاً فرنسا وإنكلترا. إن المواجهات العنيفة بين هاتين المملكتين اللتين تشكلان البلدين اللذين أصبحت قوة الدولة فيهما، استناداً إلى المؤسسات المختلفة، الأكثر إعداداً، أساءت كثيراً إلى اللحمة الأوروبية، إنما ظاهرياً لم تدمرها: لم تُعِد النظر في النظام المسيحي، لم تعترض على ثقافة العصر وحضارته، ولكنها قدمت دائماً أسطع دليل. إن صراعهما يعبر، في أعماقه، عن رفض للاتحاد وعن إرادة حقيقية وغير واضحة في الهيمنة، لقد حمل (الصراع) منذ ذلك الزمن إلى تاريخ أوروبا وإلى القرون التالية ذرائع بفضلها انتصر التقسيم في مجال التمجيد والغضب القوميين وفي ضراوة الحروب بين الأمم.

وكان ملوك فرنسا وملوك إنكلترا، منذ وقت طويل، في خصام، وجعل احتلال غليوم الفاتح للجزيرة الكبرى من هذه الشخصية، التي هي أيضاً دوق النورماندي، أميراً قوياً جداً في قلب المملكة الكاپيّة. غير أنّ المعارضة ظلت في هذا العهد مشتتة.

وكان العاهل الإنكليزي شديد الاهتمام بمملكته الجديدة، وبالإضافة إلى ذلك فإن ابنه غليوم الأصهب (Le Roux) لم يكن مسيطراً على النورماندي (التي

أعطيت لأحد إخوته)؛ وأخيراً تلقى ملك فرنسا مساعدة من بعض أتباعه الكبار، الأمر الذي دفع الخصم إلى اتخاذ موقف حكيم. ومقابل ذلك وابتداء من سنة 1154 أصبح الموقف خطيراً جداً وغدت المخاطرة بالنسبة إلى فرنسا مميتة. وفي تلك الفترة آلت مملكة إنكلترا إلى هنري الثاني پلانتا جينيه الذي وضع يده على النورماندي وهو عن طريق الإرث دوق أنجو وسيِّد مِينْ وتورين ويحكم بطريقة غير مباشرة دوقية أكيتان المترامية الأطراف التي حملتها إليه، على سبيل البائنة إليونور التي كان قد طلقها لويس السابع، وهكذا أصبح كل الجزء الغربي من المملكة في حوزة سيد واحد لم يتردد، فوق ذلك، في التدخل في أوڤِرْنْيا وفي كونتية تولوز، وكانت قوة أوڤرنيا منذ ذاك الوقت بحيث إنها منعت كل تطور فعلي للسلطة الملكية في فرنسا. وفي منتصف القرن الثاني عشر، يضطر العاهل الكابي، الذي لم يكن يسيطر إلا على مملكة صغيرة متجمعة في المنطقة الباريسية، لكي يحكم حكماً حقيقياً، إلى فرض نفسه على اتباعه الكبار وأن يقاتلهم أكثر الأحيان. وكيف يتسنّى له مواجهة ذلك والقيام به مع هذا التهديد المستمر القريب منه؟ كيف يأمل بأن يكون ملكاً في مملكته طالما هذه «الإمبراطورية» موجودة؟

وبدأ الصراع حالاً. وكانت معركة صعبة بالنسبة إلى لويس السابع الذي استطاع أن ينسحب منها متجنباً البلايا وقد يسَّرت له اقتناص بعض الفوائد دون أن يخترق قوى عدوة. أمّا فيليپ أوغست فاندفع بحماسة وبتهور في بداية الحرب. وبعد أن قاوم هنري الثاني ليحول دون مطامح ابنه ريكاردوس قلب الأسد، عمل على استغلال بقاء هذا الأخير في الأرض المقدسة بعد أن توج ملكاً ـ وقد ذهب إليها على رأس حملة صليبية ـ بينما هو حاول العودة ليتدخل في النورماندي وتورين. وعندما عاد الملك الإنكليزي إلى أوروپا لم يكتف بالدفاع عن نفسه بل كبد الملك الفرنسي هزائم فادحة (معركة فْرِيْتِفَالْ في ڤونْدومْوا سنة 1194 ومعركة كورسيل قرب جيزور سنة 1198) في حين كان يقوم ببناء قصر غايار الرائع ليمنع المرور باتجاه السين الأسفل. وبعد موته المبكر خلفه أخوه جان سان تير (J. Sans Terre) فارتكب الكثير من الحماقات. فبعد أن تزوج الملك الإنكليزي الجديد سنة 1200 من ابنة كونت أنغوليم ووريثته، وجد نفسه مطلوباً للمثول أمام المحكمة الإقطاعية التابعة لملك فرنسا على أثر دعوى أقيمت عليه من قبل هوغ دو لوزينيان خطيب الفتاة الذي

لم يتلق أي تعويض، وحجز الملك جان أملاكه بحجة أنه شهر السلاح عليه، ويرفض المتهم أن يمثل أمام المحكمة، فيعلن ملك فرنسا (الذي كان معتبراً كبير إقطاعيي ملك إنكلترا) حجز إقطاعاته ويشن عليه حرباً لاحتلالها، وذلك من أجل تسوية الخلاف نهائياً، فوجه جميع جهوده نحو النورمندي فاحتل قصر غايار بالحيلة وأسقط روان (24 حزيران/يونيو سنة 1204) وبفضل مساعدة إقطاعيين غنيين في بواتو أصبح سيد منطقة اللوار. وفي سنة 1206 أي بعد أربع سنوات من استئناف المعارك كانت أملاكه قد تضاعفت أربع مرات وقلص من قوى ملك إنكلترا.

ووجد ملك إنكلترا نفسه مضطراً للتحرك، فبعد عدة أشهر كان يعاني خلالها بعض المصاعب الداخلية أعد انتقامه بعمل دبلوماسي يهدف إلى تشكيل تحالف ضد فرنسا وهكذا احتضن قضية الكونت فِرّان دو فلاندر الذي اغضبته بعض تصرفات آل كابيت. وساعد أحد الإقطاعيين الجريئين المدعو رينو دو دَمّارتان في دسائسه، واتفق مع ابن عمه أوتّون دو برانْشفيك، الإمبراطور القلفي الذي يقاتل في المانيا أنصار آل ستوفن والذي يدعمه فيليب أوغست وفي سنة 1214 يبدأ الأحلاف بالهجوم، فينزل جان عند لا روشيل بينما أوتون يساعده فِرّان ورينو يهاجم شمالي المملكة. ولكن الأمير لويس الإبن البكر لملك فرنسا يهزم الإنكليز عند لاروش - أو - موان، وبعد ثلاثة أسابيع ينتصر فيليب على الإمبرياليين في بوڤين. وفي سنة 1216 يستدعى الأمير لويس من قبل البارونات الإنكليز الثائرين فيحاول احتلال إنكلترا التي نجت من هذا المخطط بموت جان. ومع ذلك ظل هناك من يدعو الفاتح إلى المجيء وبعد أن أصبح ملكاً يتدخل سنة 1224 ضد أكيتان ويضمن لنفسه السيطرة على بواتو وليموزين ولكنه يتراجع أمام مقاومة بورْدُلِيْه.

وفي السنوات التالية يحاول آل بْلانْتاجينيه استعادة المناطق المفقودة، فيتحرك هنري الثالث سنة 1242 لكنه يهزم في تايبورغْ وفي سانتْ. وفي سنة 1259 يقرر لويس التاسع وضع حد للخلاف مقدماً بعض التنازلات. ويقسم الملكان، عبر معاهدة باريس، على المحافظة على السلام فيتخلى ملك إنكلترا عن النورماندي ومين وأنجو وتورين وبواتو، ولكنه يحتفظ بالفويّان التي ضمت إليها أراضي ليموزين وكوارسي وبريغورد وأجِنِيْه وسانتونج، بيد أنه بالرغم من هذا الإتفاق تظل المعارضة حية وتطبع هذه الخصومات النفوس بطابعها الخاص. وتضع في المرتبة الأولى

الذرائع التي ستكون عاملاً في تكوّن السياسات ـ ويظل العداء قائماً بين إنكترا وفرنسا ويزداد حدة في نهاية القرن في عهد فيليب الثالث الجريء وفيليب الجميل وتسبب العديد من الحوادث على حدود غويان وفلاندرا وهذا الخلاف الذي يثير سنة 1330 حرب المئة عام.

وقد لاحظ المؤرخون أن هذا الخلاف الطويل الأمد الذي انطلق في منتصف القرن الثاني عشر وخف إلى حد ما في منتصف القرن الثالث عشر ليعود فيستأنف عدة مرات بعد ذلك هو في أصوله ومسيرته خلاف إقطاعي، صراع الإقطاعي مع أتباعه المتمردين. وغالباً ما تراءى هكذا لاعين المعاصرين . وكيف يمكن أن يكون غير ذلك في عصر تتحكّم فيه التقاليد الإقطاعية بالعلاقات بين الكبار وحيث يتأثر كل مسلك بالذهنية المكتسبة التي استناداً إليها كانت القوى التي تشكل معارضتها مشكلة سياسية، محسوبة في السياق الإقطاعي واستناداً إلى قواعد علاقات التبعية الإقطاعية؟ ومن المسموح به أن نتساءل ما إذا كان الاعتراض أعمق تحت هذا الغطاء وخاصة ما إذا كانت المعركة ستكتسي روحا جديدة لو تحطم هذا الغطاء في النصف الثاني من القرن الثالث عشر.

ألم يتواجه حينئذٍ ملكان سيّدان ودولتان مستقلتان ومملكتان غريبتان الواحدة عن الأخرى وعدوتان، وحتى أمتان؟ ألم يرتبط كل من المعسكرين يخدم الأمير المخلص والتابع له والمتعلق بعائلته تعلقًا شخصياً ، ألم يرتبط بالتاج ويشعر بأنه متعاون أكثر فأكثر مع الجماعة الملكية؟ اليست هي اللحظة التي تبدأ فيها الوطنية بالبروز، وتتجمع، بشيء من الغموض، العناصر الأولى للتماسك القومي؟ وقد تم تبدل في الألفاظ: وبدأ الحديث عن مملكة فرنسا (وليس كما كان يحدث في السابق، عن فرنسيين يعرفون بأن على رأسهم ملك واحد) وعن بلاد فرنسا، عن الإمارة الغالية، وهذا ما حدث بالنسبة إلى إنكلترا وبلاد الألمان (دو تشلاند). وإذ اضيفت هذه الحقيقة إلى التأكيد على سلطات الدولة زادت من خطورة الإضطراب الذي اعترى التماسك الغربي الذي كانت النوايا متجهة لتقويته. وفي سنة 1300 حلت الأمم محل العالم المسيحي. ولعدم وجود سلطة عليا على قسط من القوة كاف لاحتواء قوى التفتت ، لم يكن هنا أوروبا الأمم. . .

إن بعض المؤرخين الشديدي الإدراك لهذا التحول جعلوا من بوفين الحدث

الأكبر الذي ميَّز فشل المسيحية القروسطية وأوروبا المتحدة. وقد أكد ذلك ليوبولد رانْك في القرن التاسع عشر وعاد إليه الكثير من المؤرخين بعده يشددون على الصدام بين فرنسا وألمانيا الذي منع في نظرهم، كل وحدة أوروبية عبر التاريخ. وأن بوڤين كانت المعركة الأولى. تعتبر هذه النظريات على كثيرمن المغالاة، من جهة، لأن التفكك الأوروبي لا يعزى فقط إلى المنافسات الفرنسية الألمانية التي تعود إلى مرحلة حديثة نسبياً، ومن جهة أخرى لأن بوڤين هي قبل كل شيء انتصار ملك فرنسا على ملك انكلترا حتى ولو كانت المعركة الحقيقية تدور في مكان آخر، إنها نوع من التحدي للإمبراطورية وإطار طبيعي لأوروبا القروسطية وتأكيد على قوة الملكية الفرنسية، وهي فشل للحصار الخانق الذي كان يُهَدِّد به آل پْلانْتاجينيه وقد جرت في الوقت الذي كانت فرنسا تفرض هيمنتها على المناطق الجنوبية (اللانغدوك) آلتي كانت حتى ذلك التاريخ غريبة عنها بفضل انتصار موريه الذي هزم فيه پيار داراغون إذ جاء لمساعدة كونت تولوز عندما هاجمته الصليبية الموجهة ضد الألبيجيين وجاء يطمح، للمرة الأخيرة، إلى جمع المناطق المتوسطية في مجموعة واحدة. وفي أشهر قليلة، وعلى أثر هذه المعارك الثلاث ـ موريه، 12 أيلول/سبتمبر سنة 1213، لاروش ـ أو ـ موان 2 تموز/يوليو سنة 1214 وبوڤين 27 تموز/يوليو سنة 1214 ـ تبدل مصير فرنسا والعالم المسيحي تبدلاً جذرياً . وهكذا تعتبر معركة بوڤين رمزاً إذا شئنا، أو بادرة أولى لأوروبا الحديثة التي لم تعد عالماً مسيحياً ولا أوروبا، وهي تمثل أيضاً استناداً إلى رأي ج. دوبي نجاحاً للنظام المحافظ الذي نشأ على الرغبة في الاستقلال الذاتي والتقدم.

وماذا يبقى في ميزانية التاريخ من المواجهة بين هذه الذرائع التي تنزع إلى التلاحم والقوى الطاردة التي تعمل على التفكك؟ لا شك في أنه بقي تصميم طموح ومثالية عظيمة لم يتحققا أبداً ولم يُبلغا، لقد خبا وهجهما منذ البداية بسبب إرادة القوة الأنانية لدى واضعهما الأساسي وشوهتمهما الأهواء الحزبية لكثيرين آخرين وأفسدتهما الإلتباسات والتناقضات التي يصعب التغلب عليها. وقد أصبح دانتي في بداية القرن الرابع عشر شاعرهما العظيم.

لقد صمم المشروع بشيء من العظمة وبوشر تحقيقه بأبهة حتى استحق القرن الثالث عشر أن يعتبر عصراً عظيماً في التاريخ الأوروبي . فمنذ بدايته لوحظ نوع من

التعاون امتد على مجمل العالم المسيحي الغربي وعلى أوساط مختلفة ـ بين رجال الدين والنبلاء والتجار ـ وتكونت خلاله، بدينامية خارقة، ثقافة أصيلة طبعت القارة بطابعها الخاص.

وبمقابل ذلك، لم يتم التوصل ولا السعي إلى ايجاد مؤسسات ثابتة تمتلك وسائل التوجيه والإشراف على السلطات العديدة القائمة في مختلف الدول، كانت الثقة تامة بسلطة الكنيسة التي أظهرت عن عجز ، ليس فقط بسبب ضعفها ولكن لافتقارها إلى الإخلاص والكرامة. ولم يتسنَّ الوقوف في وجه قوى التفكك التي كان أنشطها، إلى جانب بعض الدلائل الثقافية المطامح والمصالح السياسية. وكانت هذه القوى تتحرك في الوقت الذي كانت فيه البابوية تعمل على بناء العالم المسيحي، فعملت كلها متلازمة وكان لها تأثيرها العظيم.

غير أنه قد بدا، حوالى السنوات 1180 ـ 1210 ، أن المشروع على وشك أن يتحقق وأن أوروبا ـ العالم المسيحي ستبنى، وبالرغم من الجهود المشكورة لم يتحقق النجاح ولم يذهب العمل بعيداً وكان الصرح يتداعى بمقدار ما كان يرتفع ولم يتسنّ لأحد أن يراه كاملاً.

انتهى المجلد الأول ويليه المجلد الثاني

فهرس

الكتاب الأول

أوروبا ما قبل التاريخ

الكتاب الثاني

التاريخ القديم

الكتاب الثالث

العصر الوسيط حتى نهاية القرن الثالث عشر

منشورات عويدات 1995/985

HISTOIRE GÉNÉRALE DE L'EUROPE

DIRIGÉE PAR GEORGES LIVET
ET ROLAND MOUSNIER

1

L'Europe

des origines au début du XIV[e] siècle

par Pierre Grimal, Jacques-Pierre Millotte
Marcel Pacaut, René Raynal

Traduction arabe
de
Antoine I. HACHEM



EDITIONS OUEIDAT
Beyrouth - Liban